كتاب تكريمي تصدره دار سعاد الصباح للنشر

غسان تويني

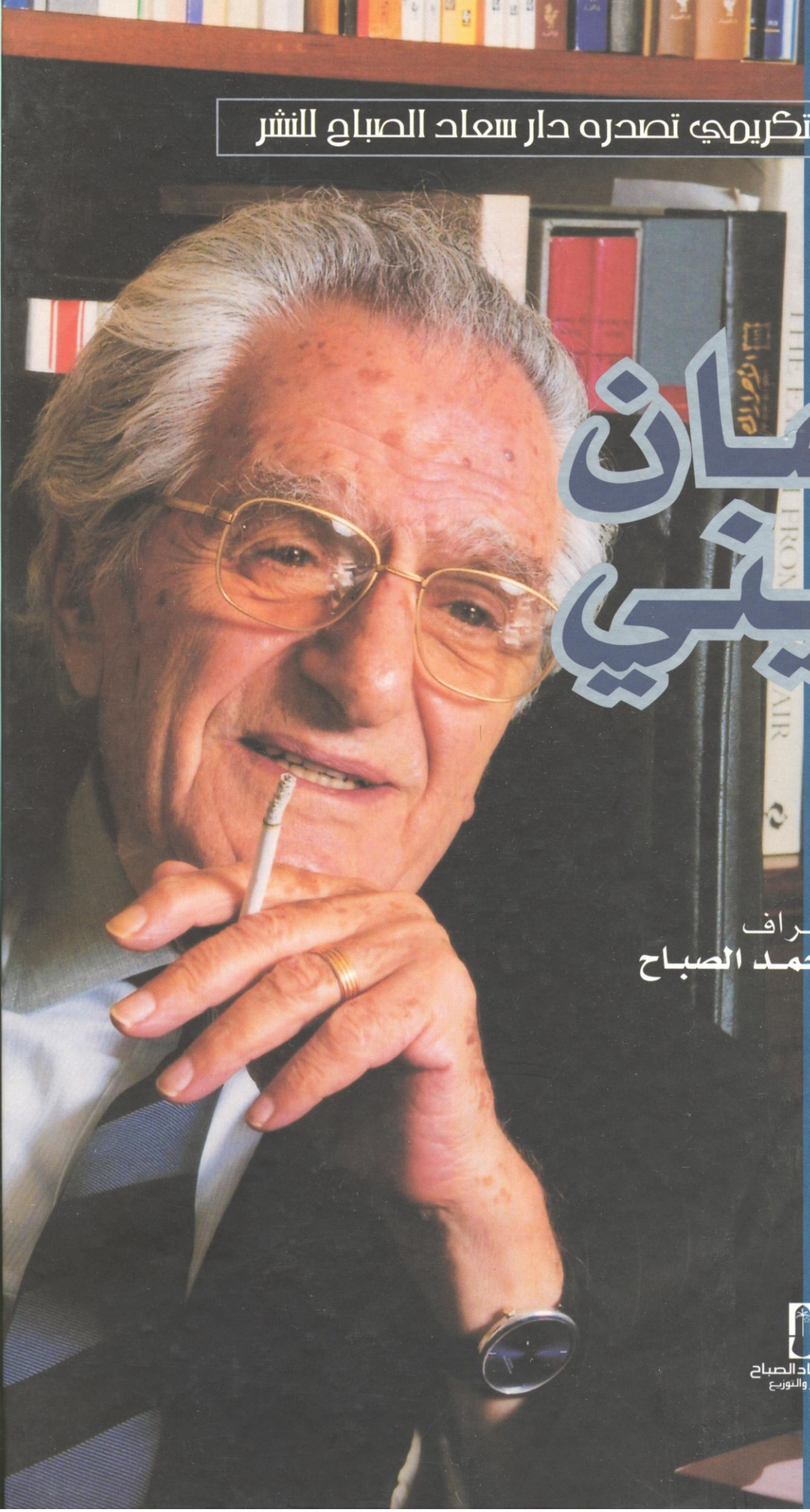

الاشراف

د. سعاد محمد الصباح

دار سعاد الصباح
للنشر والتوزيع

غسان تويني

غسان تويني

كتاب تكريمي تصدره دار سعاد الصباح للنشر

الاشراف

د. سعاد محمد الصباح

دار سعاد الصباح

للنشر والتوزيع

غسان تويني
الإشراف: د. سعاد محمد الصباح

الناشر
دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع
ص ب: 27280 الصفاة
الرمز البريدي: 13133 الكويت

رقم الإيداع: 2006/525
ردمك: 8-61-90-99906

حقوق الطبع © محفوظة للناشر

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله أو استنساخه أو ترجمته بأي شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

الطبعة الأولى 2007

الإخراج: محمد حماده
ادارة الإنتاج: موشن ش م م، بيروت
الطباعة: مجموعة الرعيدي للطباعة ش م ل، بيروت

What liberation
are you talking
about?

والشكر مستحق
الأستاذ ادمون صعب لكل ما قدم من نتاج تشهد له به نصوص في هذا الكتاب، جعلته أكثر غنى وحميمية.
السيدة نجلاء شهاب، مديرة مكتب غسان تويني، متفانية دون حد من أجل ان يكون هذا الكتاب.
الأستاذة نبيلة بيطار، وأسرة مركز المعلومات في «النهار».
الأستاذ محمد حماده، ساكباً روحه الجميلة حتى يخرج هذا الكتاب على صورته.

الصور: مركز «النهار» للأبحاث والتسويق
قسم الصور / الإشراف: السيدة نبيلة بيطار
© جميع الحقوق محفوظة / جريدة «النهار»

عن «الأستاذ»

بقلم سعاد محمد الصباح

.. نحن في العام 1960.. وها هي بيروت تمتد أمام عيني: جزيرة من اللؤلؤ الأخضر تقاربها زرقة لم يسبق لي أن عرفت مثيلاً لها، على امتداد الطيف. صحيح أن كل البحار مكسوة بطبقة من هذا اللون ولكن زرقة البحر في بيروت كانت لوناً آخر، تحكي تجاعيده البيضاء عن ثورة فيه يعلنها الماء على اليابسة، دون أن يغرقها.

إلى هذه المدينة جئت للمرة الأولى بصحبة زوجي الشيخ عبد الله مبارك الصباح، والذي كان من أوائل من عانق بحر بيروت وجهه، هذا القادم مرات ومرات من أرض الكويت إلى لبنان، حيث يلتقي الرمل بالبحر في ثنائية الحياة الجميلة.

ويبدو أن بيروت قررت خطفنا، لذلك فان دارتنا البحرية على الرملة البيضاء تحولت إلى منتدى ينضم إليه في كل عشية صوت جديد من أصوات السياسة والفكر والاعلام. كانت بيروت تفور بالابداع في كل منحى: من التجارة إلى التعليم إلى العلم فالسياسة والصحافة والفنون. كانت بيروت تعمد روحها في بحر العطاء لتصبح، وفي أعوام قليلة، عاصمة عربية نادرة الملامح وشديدة التميز فيما بدا لي يومها أن جنية البحر قد غرقت في روحها فأعطتها زاد التفرد وشكل الايقونة.

كان لبنان يخرج من محنة، سرعان ما تعلمنا معها أن هذا المولود الخارق الارادة قادر على كسر رخامة القبر. وتمر الأيام، سنوات عجاف هي وسنوات رخاء وهناء هي، ويظل لبنان نشيداً عالياً في حنجرة زمانه.

بعض هذا النشيد، وأعظم ما فيه، هيبة العقل. وبعض هذه الهيبة كانت الجامعات والكليات والمؤسسات وفي طليعتها صحافة تؤكد للبنان أولاً حقه في حياة أفضل وتؤكد للعالم أن هذا المولود قد عبر تجربة البقاء الإغريقية، فبقي حياً رغم ثلوج القمم، لم تفتك به العاصفة ولن يقتله الاعصار.

في هذا البلد تعرفت إلى أول دروس الحق والخير والجمال: فكراً في حالة صراع دائم، وحيوية لا تهدأ في السعي من أجل بناء وطن وانسان. وفي هذه المعركة التي لم تنته ولن تنتهي، كانت الصحافة اللبنانية مسرحاً ملتهباً للكلمة، بالحوار تقول وله تدعو، حتى وإن اختلفت اللغة، سمواً وهبوطاً. وفي هذا المصهر، قرأت غسان تويني لسنين ومازلت أفعل. وكنت دائماً أعجب من أمرين: التزام بالأسس فلا خروج عن معتقد ولو بعد خمسة بل ستة وأربعين من الأعوام.

هذا أولاً:

الثاني: هذا الثراء اللغوي، يكسره حين يشاء دون أن تملك حق محاكمته.

غسان تويني: الانسان الخارج عن كل القوانين هو هذا الذي عرفناه بالأمس، ونعرفه اليوم أكثر، وغداً أكثر وأكثر.

غسان تويني هذا المعجون بالثورة، ولو على نفسه، وبالحرية ولو ذبحته، وبالديمقراطية ولو أمسك بها بماء العين.

غسان تويني الذي يقرأه عشرات الألوف كلما كتب ويعرفه قارئوه فيحبونه بالاتفاق أو بالاختلاف مع صوته.

غسان تويني هذا صانع صحافة يحق له فيها أن يدعي إمامة الكلمة الجديدة، الكلمة – النار، الكلمة – الطريق..

الكلمة الباقية على مر الأيام والسنين والأزمنة التي يؤرخ لها وتؤرخ حضورها.

غسان تويني «الأستاذ» الذي استحق لقبه بالممارسة وبالعمل هو من يستضيفنا في هذا الكتاب، إذ نستضيفه، لنصبح كلنا ضيوفاً على لبنان – الكلمة الحق – التي تزهو بمبادئها وتكبر في وجه كل من يحاول وأدها، وتنتصرعلى الشر بخيرها المتولد من نارها.

إلى «الأستاذ» هذا الكتاب من مؤمنة بالله وبالكتاب وبالحرية وبالكلمة المقاتلة في سبيل الحق والمعرفة والانسان.

أبحاث

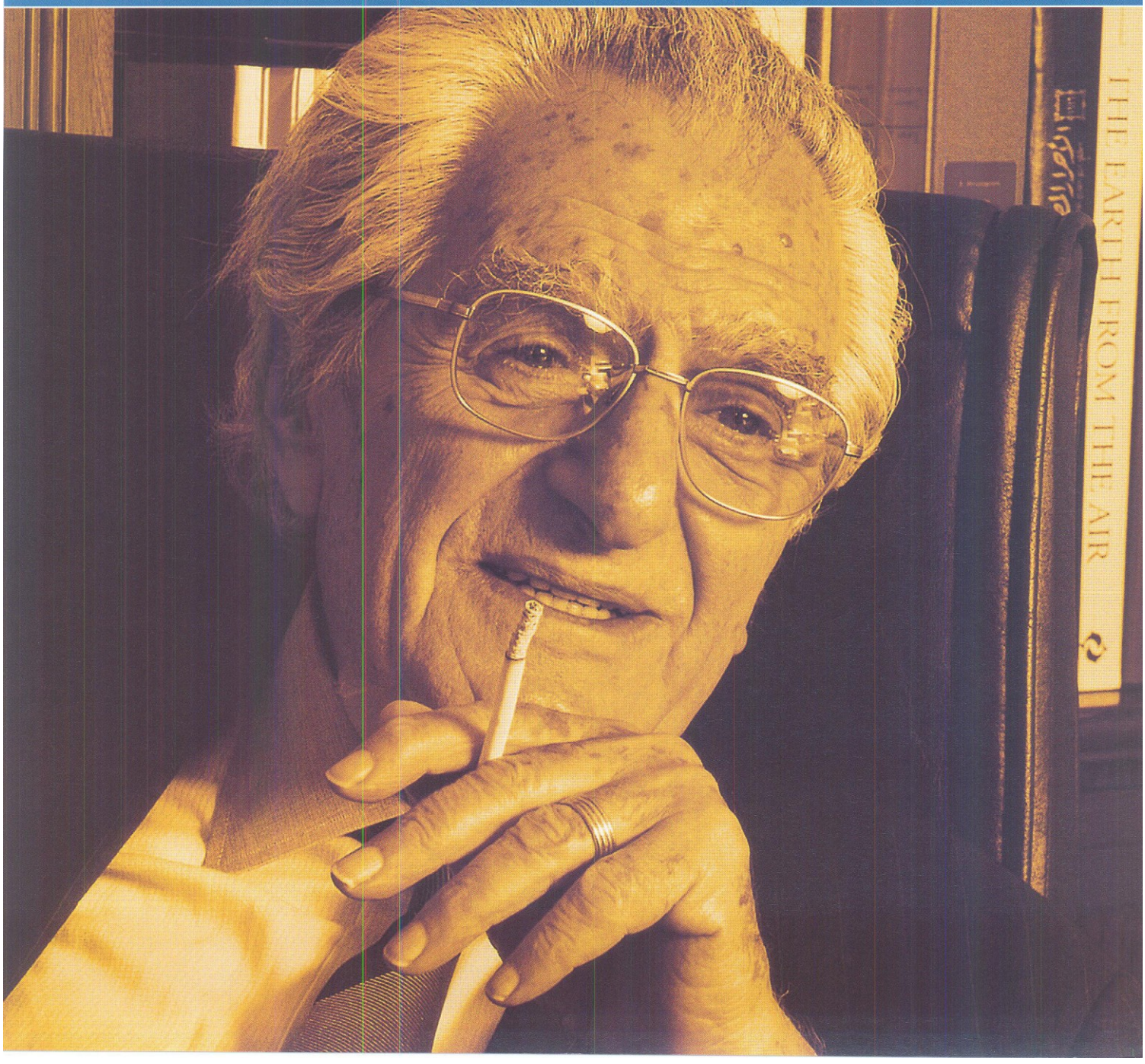

البراغماتية السياسية في مقالات غسان تويني

بقلم لطيف زيتوني

1. وسط جمهور يغلي بالغضب والحقد والدعوة إلى الانتقام وقف غسان تويني، في يوم مشؤوم من كانون الأول/ديسمبر عام 2005، يودع آخر أبنائه الشهيد جبران تويني:

«أنا أدعو اليوم في هذه المناسبة لا إلى انتقام ولا إلى حقد ولا إلى دم. أدعو إلى أن ندفن مع جبران الاحقادَ كلها والكلامَ الخلافي كله، وأن ننادي بصوت واحد ذلك القسَمَ الذي أطلقه في ساحة الشهداء، يوم انتفاضة 2005 التي ذهب ضحيتَها. أدعو اللبنانيين جميعاً مسيحيين ومسلمين إلى أن يكونوا واحداً في خدمة لبنان الوطن العظيم وفي خدمة قضيته العربية. آمين وشكراً.».

كيف لهذا الصوت، صوت السلام والغفران، أن يطلع من كل هذه المرارة؟

ما سر هذا الرجل؟

ما هذه القوة التي ترفعه فوق الحزن والغضب والخسارة؟

أهي الإيمان أم الرؤية البعيدة أم التسليم بثمن الشهادة، أم كل ذلك معا؟

لا شك أن وراء ذلك ألماً عميقاً وقوة روحية وقناعات فكرية وخيارات وجودية صنعها زمن طويل من التأمل والتجريب والتثقف، فهل من سبيل يوصلنا إلى رحبات عالم تويني الداخلي؟

إذا كان عالم الكاتب هو كتاباته فإن تويني لا يختصره قلمه.

لهذا سأحصر البحث في وجه من وجوهه وهو الفكر السياسي. وسأتتبع هذا الفكر في مقالاته، فقد اختص تويني بكتابة المقالة الصحافية.

2. تمتاز مقالات غسان تويني بتفلّتها من القيدين: المكان والزمان. فالمقالة الصحافية محكومة عادة بزاوية محددة ومساحة محدودة، أما مقالة كاتبنا فإن تفضيلها مكاناً معيناً في الصفحة الأولى لم يمنعها من أن تتصدر هذه الصفحة حيناً وأن تتجاوزها إلى غيرها حيناً آخر. والمقالة الصحافية محكومة غالباً بالصدور يومياً، أما مقالته فليس بينها وبين القراء موعد. تطل حين يأذن لها صاحبها، حين يحمّلها فكره إشارة أو رسالة أو دعوة. فليست مقالات تويني شرحاً أو تعليقاً أو تحليلاً للأحداث.

إنها وجهة نظر. ليس غسان تويني صحافياً، إنه مفكر.

3. ولأنه مفكر ينشر آراءه في الناس منجّمة متفرّقة، اخترنا أن ندرس هذه الآراء درساً يتيح استشفاف تطوّرها واكتشاف فعل التجارب فيها. فاعتمدنا ثلاث مجموعات من المقالات، تحمل الأولى عنواناً طموحاً هو «منطق القوّة أو فلسفة الانقلابات في الشرق العربي» وقد صدرت عن دار بيروت سنة 1954. وتحمل الثانية عنواناً يختصر نظرة المؤلّف إلى حرب لبنان، حرب الجنون، والعنوان هو «نزهة العقل»، وقد صدرت عن «دار النهار» سنة 1984. أما الثالثة، وعنوانها «حوار مع الاستبداد»، فهي آخر ما جمع من مقالات تويني في كتاب، وهي سجال بين منطقَين – وبين عَرَبَيْن وربما أيضاً بين غَرْبَيْن – على هامش تداعيات احتلال العراق. وقد صدرت عن دار النهار سنة 2003. ثلاثون عاماً من الزمان تفصل بين المجموعة الأولى والثانية، وعشرون تقريباً بين الثانية والثالثة، وخمسون سنة من التجارب.

4. «منطق القوّة» مقالات الشباب: كتبها غسان تويني القادم من جامعة «هارفرد» الأميركيّة، والمعين جديداً أستاذاً للعلوم السياسية في الجامعة الأميركيّة في بيروت ثم في الأكاديمية اللبنانية. فغسان تويني الذي نعرفه اليوم صحافياً من الدرجة الرفيعة ورجل سياسة من طراز خاص، كان أستاذاً جامعياً. وأثر ذلك ظاهر في «منطق القوة» حيث دقة المنهج ووضوح الأدوات. أمّا «نزهة العقل» فمقالات رجل خبر العقائد وأهلها، ودخل السياسة من أبوابها،

وتقلب في السفارة والوزارة، فخرج من هذا كله بخلاصة هي أن الأرض أغلى من العقائد، وأن حق الحياة أثمن من السياسات، وأن السلطة في بلد غير ذي سيادة هي تبعية للخارج. وليست «نزهة العقل» تأملات تعظ الناس بما ملّ منه الناس، أو كلمات تحمل على الفساد في بلاد يأكل مستقبلها الفساد، بل صوت يدافع عن حق الناس في الحياة والعدالة والأرض.

صوت صارخ في وجه الأحقاد والأطماع حيث العقل في نزهة. أما «حوار مع الاستبداد» فمقالات براغماتي عتيق راقب تخبط العرب في العراق وفلسطين ولبنان، وعرف أن التردّد يتحوّل إلى عجز، وأن السياسة تحتاج إلى رؤية ترسم لها خرائط طرق لا تمر بمحطات الماضي ولا بمواقفه العاجزة والمستبدة.

5. يسود مقالات غسان تويني فكران : فكر سياسيّ قوامه الديمقراطية، وفكر فلسفي عملي قوامه البراغماتيّة. أمّا الفكر السياسيّ فاتخذ في المقالات شكلين غالبين: نقد الممارسة السياسيّة واقتراح الحلول الديمقراطية. يسود الشكل الأول مقالات السنين الأولى، أي «منطق القوة». ويسود الثاني مقالات «نزهة العقل»، أما مقالات «حوار مع الارهاب» فتجمع الشكلين وتمزج اللونين. ينطلق تويني من الأصول الديمقراطية يقيس بها أنظمة الحكم الجديدة في البلاد العربيّة ويحكم عليها.

فالديمقراطيّة نظام يقوم على مبدأ الانتخابات وفصل السلطات واختيار الشعب لرئيس البلاد. ولكن هذا النظام يبقى فارغاً إن لم يتأسس على عدالة اجتماعية اقتصاديّة ويتجوهر بروح تحريريّة وتراث شعبي سياسي أصيل[1] والديمقراطية، وهي حكم الشعب لنفسه بواسطة ممثلين ينتخبهم ويجعلهم مسؤولين أمامه، لا تستقيم في غير المجتمعات المتحرّرة. والمجتمع المتحرّر هو الذي تخلّص من القيود القانونية والاقتصاديّة والاجتماعيّة التي تفسد على الشعب «اختياره لممثليه ومحاسبته لهم»، أو تسمح لهؤلاء الممثلين بفرض أنفسهم على الشعب[2]. فهل هذه هي حال مجتمعاتنا؟

6. أبرز غسان تويني التراث السياسي الشعبيّ واعتبره من قواعد الديمقراطية الصحيحة. فهل تراث هذا الشرق تراث ديمقراطي؟

إن الديمقراطيّة هي ابنة التراث الغربيّ، ولدت من نضال أبناء الغرب وثوراتهم، وتغذت من دماء أحرارهم، وتطوّرت وترقت بتطوّرهم وترقيهم. فلما دخلت إلى الشرق حلت «مكان نظم تيوقراطيّة تؤلّه السلطة ولا تسأل الحاكم عن سلطته المطلقة حساباً. أفيُستغرب، وهذا أصل ديمقراطيتنا، أن يتلبس رئيس الدولة الديمقراطية في نظر الناس، أو كثرتهم على الأقل، بسلطان الطاغية بحيث يغدو طاغية بالرغم منه؟

ثم أيُستغرب أن يتلّبس النائب في نظر أكثرية ناخبيه بامتيازات السيد الإقطاعي سواء أكان إقطاعياً أم لم يكن؟[3].

7. لا بد إذاً من تمهيد للديمقراطية، تمهيد يقوم على بلورة حركة شعبية عقائدية تعبر عن إرادة الشعب واحتياجاته ومطالبه، وتبصره بحقوقه ومصالحه. ويشترط تويني أن تنبثق هذه الحركة من صميم الشعب، فتعبر عن مستوى نضاليّته ومثاليته، لا أن تنبثق من السلطة فتتحول إلى أداة تنفيذ لرغباتها وطموحها وأهدافها، وتزوير لإرادة الشعب الحقيقية[4].

ويفرد تويني دوراً للسلطة الحاكمة في عملية التمهيد للديمقراطية، يتمثل في تحقيق المساواة والعدالة الاجتماعيّة والاقتصادية، وتحرير الشعب من أسياده الداخليين، الحائلين دون ممارسته حرياته ودون بروز إرادته الحقيقيّة[5].

ولا بد أن تكون السلطة التي يناط بها هذا الدور سلطةً متنورة تتطلع إلى التقدّم والديمقراطيّة وتحارب أسباب التخلف الداخلية سواء منها الشرائع الجائرة أو الزعامات الجاهلة. ولكن كيف لمثل هذه السلطة المتنورة أن تبصر النور؟ هل يمكن للحركات الشعبيّة الأصيلة أن

تبلغ مراكز الحكم بغية إصلاح النظام من خلال نظام يحميه الجيش ويؤيّده؟[6] أو بتعبير آخر، هل يمكن لأية حركة، في أية دولة حديثة أن تقوم بتغيير جذري في النظام، ساعة لا تكون القوة العسكرية إلى جانبها؟ الجواب لا، قطعاً.

8. لا مفر إذاً من أن يكون للجيش دورٌ في عمليّة الانتقال من مرحلة التخلّف السياسي إلى مرحلة الديمقراطيّة. ذلك أن السلطة التي تسدّ منافذ التطوّر السلميّ، تفتح الباب أمام التغيير القسري أو الانقلاب العسكري. هذا الدور المفتَرض للجيش يصل إليه توينبي في نهاية التحليل، ولكنه لا يُقرّه. فهو لا ينفك يردّد أن القوّة تهيئ للقوّة، وأن الحكم الذي يقوم على القوة يمهد لقيام قوة تقلبه[7]. لكن توينبي، على رفضه لمبدأ الانقلاب، يعود فيمنحه تأييده أحياناً – بعد وقوعه – إن قام هذا الانقلاب استجابة لنقمة شعبية وكان طليعة حركة تهدف إلى تصحيح الأوضاع وترسيخ الحياة الدستورية. وشرط توينبي أن يعود الجيشُ، بعد أن يؤمّن للدولة مؤسسات حرة تقدمية يطمئن إليها، إلى القيام بدوره كآلة من آلات الدولة[8]. فكيف يتوافق هذا الموقف مع حرص توينبي على الشرعية الدستورية التي تشكل عماد الديمقراطيّة؟

9. لا بد أن نشير إلى أن هذا الموقف انحصر في المقالات التي نشرها توينبي في بداية الخمسينات. حينذاك كانت البلاد العربية حديثة الاستقلال، ولم يكن الشعب قد مارس حق الانتخاب أو عرف دوره وحقوقه فيها.

لم تكن للانتخابات شرعية شعبية حقيقية لأن الناس كانت تتقيد بخيارات رؤساء العشائر أو زعماء المناطق، وكان هؤلاء أحرص ما يكون على استمرار الممارسات التقليدية، غير الديمقراطية. وحده الجيش شكّل كتلة بشرية عابرة للمناطق والعشائر وله قيادات شابة متعلمة ومنفتحة على مفاهيم العصر. وقد ظهر انفتاحه في المبادئ التقدمية التي طرحتها الحركات العسكرية الانقلابية في البلاد العربية كلها.

مع ذلك لم يكن تويني، في أي وقت مؤمناً بحكم العسكر. فكان يشترط دوماً أن يعود الجيش إلى ثكناته فور أن يطْلق عملية التغيير الديمقراطي. وهذا ما لم يحصل. ففشلت الانقلابات إذ تحولت إلى أنظمة استبدادية لا تقل سوءاً عن الانظمة المتخلفة. «لم تحسن الجيوش الحرب. انهزمت، فتسلمت الحكم. فكان منها الأسوأ.. استبدت، فجعلها استبدادها حليفة موضوعية للاستعمار الذي هيأت له، باقتناء أكداس الأسلحة البائدة، ثم مهّدت له بـ«تسطيح الشعوب» [..] وبإبقائها في تخلفها، بل دفعها نحو المزيد من التخلف، بينما الثروات تُهدَر قصوراً للحكام.. وودائعَ مصرفية..»[9].

وما كان تويني ليقبل حتى بهذا القدْر المحدود من استخدام القوة لو لم يكن ذلك منسجماً مع مفهومه للشرعية الدستورية نفسها. فمقياس شرعية أي حدث هو رضى الشعب عنه، واطمئنانه إلى أن هذا الحدث يحقق أمانيه ويضمن مصالحه[10]. فالتغيير الذي يتم من خلال المؤسسات الدستورية، كمجلس النواب، لا يختلف في شرعيته عن التغيير الذي يتم من خلال القاعدة الشعبية أو من خلال أقلية تتحرك تلبية لإرادة الشعب وتحقيقاً لأمانيه. الشرعية الدستورية تقرّرها إرادة الشعب لا نصوص الدستور. فالشعب فوق الدستور، وهو وحده الذي يحكم على شرعيّة الانقلابات والأوضاع المنبثقة منها، وهو وحده الذي يولي المجالس دستوريّتها وينزع عنها هذه الشرعية الدستوريّة. ولكن كيف السبيل، والحال هذه، إلى معرفة الإرادة الشعبية؟

10. «لن ندخل في بحث فلسفي أو علمي لمقاييس الإرادة الشعبية ووسائل معرفتها. فثمة من ينكر على الانتخابات ذاتها – أية انتخابات – أن تكون المقياس الصحيح لمعرفة إرادة الشعب الحقيقية. فإرادة الشعب لا يقرّ البعض بأن الوسيلة الفضلى لمعرفتها هي حساب أصوات يتساوى عنده الجاهل والعاقل، والفقير والغني، والمخْلص واللص... وإذا سلّمنا جدلاً بأن الانتخابات هي الوسيلة الأسلم لمعرفة إرادة الشعب، فإن ثمّة شروطاً يجب أن تتوافر، منها أن يقوم بالواجب الانتخابي أقرب عدد من المواطنين إلى الإجماع، وأن يكون

الناخب حراً في ممارسة هذا الواجب، لا يخضع لإرادة غير إرادته، ولا يتأثر بمصالح تفرض عليه مواقف غريبة عن تقديره، ولا يكون في اختياره جاهلاً ولا مسوقاً»[11]. هكذا يبيّن توينى نواقصَ مبدأ الانتخابات لا لأنه يعارض هذا المبدأ أو يدعو إلى نقيضه، بل لأن إيمانه بالديمقراطية يحمله على محاولة تخليصها من العيوب.

وتعيين العيوب هو أقصر سبيل إلى تلافيها. بهذه الروح الإيجابية ينتقد توينى أيضاً التسليم الأعمى بمنطق الأكثرية الانتخابية الحاصلة من إحصاء الأصوات. فالأكثرية على حق ما دامت تفسح في المجال أمام الأقلية للتعبير عن نفسها وحماية وجودها، ولكن الأكثرية غالباً ما تطغى، وطغيانها أخطر من طغيان الحاكم الفرد. فديكتاتورية الأكثرية قد تكون ديكتاتورية الغوغاء، لا تقيم وزناً للحق، أو ديكتاتورية الجهل والمصالح القصيرة النظر، الممزّقة للمصلحة العليا[12]، وكثيراً ما يتحول هذا النوع من الأكثرية إلى سبب لجمود النظام وتحجره، مما ينعكس سلباً على الحياة الديمقراطية التي يشكّل مبدأ التمثيل الأكثري إحدى ركائزها.

11. ما هو النظام الذي يدعو إليه غسان توينى إذاً؟ إنه بكل بساطة النظام الديمقراطي المتلائم مع العصر والواقع ومصالح الشعب، لا ذاك المنطبق على حرفية النظريات. الديمقراطية التي دعا إليها توينى، وما زال، هي الديمقراطية الاجتماعية الاقتصادية، ديمقراطية بين المناطق تربطها بالوطن والدولة، وديمقراطية بين الطوائف تعترف بتنوعها وتعدديتها دون أن تجعل منها طبقات، وديمقراطية بين الطبقات تخفّف الفوارقَ بينها كي يبقى الوطن واحداً. إنها ديمقراطية العدالة الاجتماعية والمساواة في حقوق الحياة، حقوق الخبز والعمل[13].

12. ليست الديمقراطيّة، في نظر توينى، نظاماً مقرَّراً صالحاً لكل زمان ومكان. إنها نظام متحرك ينطلق من واقع كل شعب ويتطور معه. لهذا حق له أن يتحدث عن ديمقراطية

لبنانية[14]. هذه الديمقراطية إن نحن استجمعنا عناصرَها وصنفناها وجدناها ذات أربع قواعد: ميثاق يوحد بين اللبنانيّين، وحلف يجمع بين الحكم والمواطنين، واعتراف ورضى بالاختلاف، ثم اعتماد مبدأ الإصلاح.

13. أما الميثاق فعنوان اجتماع إرادة الأمة ومبدأ تحررها.

بالميثاق تحقق لجبل لبنان استقلاله الذاتي عن الإمبراطورية العثمانية، وبالميثاق تحقق للبنان الكبير استقلاله، وبالميثاق الوطني الجديد سيتوحد اللبنانيون أرضاً وشعباً ويستعيد وطنُهم استقلاله. ذلك أنه لا خيار للمواطنين إلا الاتفاق. وحكم الوطن لا يؤخذ بالقوة لأن انتصار فريق على فريق هو انتصار التقسيم. وبالتقسيم يصير الوطن وطنَيْن، وربما ثلاثةً أو أربعة، ويأخذ كل فريق ما يخصّه.. ولكن إلى أين؟ «إلى أين يذهب كل لبناني بلبنانه، إن لم يعد به إلى لبنان؟»[15]. حرب المكاسب المستحيلة لا بد من أن تنتهي إلى تسوية، إلى ميثاق يتوحد عنده المواطنون فتعمّ المكاسب الجميع. ولكنْ بدلَ أن تؤخذ المكاسب من الوطن، ومن حسابه، تؤخذ حينئذ من الغير، من الغريب والقريب، والصديق والعدو، فتصير مكاسب وطنية جامعة[16].

14. أمّا الحلف بين الحكم والمواطنين فجوهر الديمقراطية لأنه إذا كانت السلطة هي سلطة الشعب، فكيف تكون منفصلة عنه؟ لهذا كانت دعوة تويني إلى مصالحة الحكم مع المواطنين، وإلى العمل على استعادة الوطن – الأرض شبراً شبراً، واستعادة المواطنين للوطن فرداً فرداً[17]. شرط هذه الاستعادة أن تكون الدولة دولة، فلا تسمح بتغليب فريق من المواطنين على فريق، ولا تسمح، خصوصاً، بتغليب أي فريق على الدولة[18].

شرطه كذلك أن تحتكر الدولة القوّة المسلّحة، فلا يتقدم على حقها حقٌّ طائفة أو منطقة أو حزب[19]. إذ ليس غير «الدولة الحرة، دولة الوطن والمواطن، تقدر على حماية الإنسان

وتأمين حياته وكرامته وحاجات عيشه»[20]. بهذا تكسب الدولة ثقة المواطن وصداقته[21] بينما تتبدل التحالفات وتتغير المصالح. فإذا حالفت الدولة هؤلاء، جعلت ديمقراطيتَها ديمقراطيةَ الحياة، ديمقراطيةَ مطالب الشعب البديهية البسيطة[22].

15. أما الاعتراف بالاختلاف فمن لوازم النظام الديمقراطي. فهو الذي يجعل تعدّد الأحزاب ممكناً، وهو الذي يتيح مقداراً أكبر من حرية الرأي. لكن الاختلاف في لبنان يتعدى اختلاف الآراء إلى ما هو أعمق، إلى اختلاف الثقافات، بل اللغات أحياناً. هذا الاختلاف الذي تحول الكلامُ عليه تجديفاً على الوطن عند البعض، يعيد توييني طرحه من زاوية جديدة. فوحدة الوطن لا تكون بالتعامي عما فيه من سلبيات بل بالاعتراف بها بغية تجاوزها. «إذا كنا نريد أن ننقذ الوحدة اللبنانية وأن نبلورها، ونجوهرها بالإرادة الجامعة التي بدأت تتجدد اليوم، فمن المفروض فينا أن نعترف بأن هذه الوحدة ناشئة من التعدّد ومتغلبة عليه»[23]. تعددية المجتمع قد تصبح مصدر قوة للوطن إن عرف أهلُه كيف يفيدون منها. فالتعددية ليست شراً مطلقاً والوحدانية العنصرية والدينية ليست خيراً مطلقاً كذلك.

كم من مجتمع وحداني تنخر بنيتَه الانقسامات أو كانت وحدانيته سبباً لاستمراره في الجهل والتخلف. التعدّدية قد تكون مصدرَ غنى ثقافي واجتماعي للوطن ومصدرَ توازن واستقرار لا يخنقان بذور الانفتاح والتطور. إن الاعتراف بهذه التعددية وقبولها واعتبارها واقعا وطنياً طبيعياً هو السبيل الأقصر للتغلب عليها.

16. أمّا الإصلاح فضمان المستقبل. فالوطن الذي أضاعه النظام البالي لن نسترجعه ونحافظ عليه بالعودة إلى النظام نفسه[24]. والإصلاح المطلوب في النظام يجب أن يتجاوز إصلاح المؤسسات وتبديل قواعد التمثيل والممارسة، وأن يسمو إلى مستوى التطلعات الجديدة ومطالب الأجيال التي سئمت نمط حياة يستمر إلى ما لا نهاية[25]. الإصلاح كذلك يجب أن ينطلق من فهم النظام على حقيقته: نظام الممارسة، أو ممارسة النظام، لا حرفيته والشكل[26].

ولا بد هنا من ثورتين على الأقل: ثورة على المفاهيم فلا تبقى الدولة دولة الحاضر والأمن السياسي، بل تصبح دولة المستقبل والأمن الاجتماعيّ الذي يحمي مصير الشباب[27]، وثورة على طريقة تأليف الحكومات فلا تبقى المسألة كيف تتمثل هذه الجبهة أو هذه الطائفة أو هذا الحزب بل تصبح المسألة هي البحث عن الرجال القادرين على التصدي للمشكلات[28]، وعن السياسيين الذي يجمعون بين الانتماء إلى مدرسة جديدة من السياسة وشروط النجاح العملاق، كالرؤيا والمعرفة والخبرة و«منهجية» العمل المتمرد على الروتين الإداري الاعتيادي الذي أوصلنا إلى حيث نحن[29].

17. نادى تويني بالديمقراطية كأساس للعلاقات بين القوى الشعبية داخل الدولة، وها هو ينادي بها في كتابه «حوار مع الاستبداد» كأساس للعلاقات بين الدول. فلا بد في رأيه من «عولمة الديمقراطية»، والطريق إليها لا يحتكرها الغرب، وهي مطلب التطلع العربي الأصيل[30]. ومثلما تحتاج القوى الشعبية داخل الدولة الديمقراطية إلى تحصين نفسها، تحتاج الدول المنخرطة في «الديمقراطية المعولمة» إلى حماية حريتها وحقوقها. وهذا لا يتأمن إلا إذا تمتّعت هذه الدول «بالقدر الكافي من القوة، والثروة غير المهدورة، والتنمية الانسانية التي تفرض الصدقية في السياسة والاجتماع والاقتصاد»[31].

يحذر تويني كثيراً من خطر القوة على الديمقراطية داخل الدولة، ويتضاعف حذره عندما يتعلق الأمر بالديمقراطية بين الدول. فمع أن سليقة الانسان تدفعه إلى السلام لا إلى الحرب، فإن بقايا سليقة نيرونية ما زالت تدفع الدول الكبرى إلى الانسياق خلف جبروتها الامبراطوري[32]. ومثلما تفسد القوة ممارسة الحرية في الدولة وتؤدي إلى الثورة على النظام، هكذا تفسد القوة العلاقات بين الشعوب وتؤدي إلى الإرهاب. لهذا لا بد من إجماع الدول على أن «الديمقراطية لا تزرعها القوة الصافية، لأن هذه تولّد إرهاباً في وجه إرهابها.. والإرهاب، ولو ادّعى «جهاداً»، لا يحمي الحرية ولا يفتح طريقاً إليها، سواء مارسه الطاغوت الاميركي أو خرج من كهوف الجاهلية»[33].

18. رفض تويني، إذن، الديمقراطية المفروضة فرضاً على الشعوب، و«التي تزرعها القوة الصافية»، ودعا إلى «خريطة طريق من الارهاب إلى الديمقراطية». أولى محطات هذه الطريق هي فك الارتباط بين الحرب على الإرهاب والسعي إلى نشر الديمقراطية، كيلا تبدو الديمقراطية «كأنها «شر» يهددنا»[34].

أما الثانية فهي تمكين الأمم المتحدة من لعب دور حقيقي يحمي العالم من الانفرادية التي تمارسها أميركا في القيادة.

أما الثالثة فهي «إعلان شرعة ديمقراطية عربية تستوحي تراثنا الحق، كما تطبق توصيات الأمم المتحدة وتطلب إليها توظيف كل امكاناتها في تنمية العالم العربي، التنمية الانسانية المتكاملة، وفي رعاية انتخاب أنظمة تراقب احترامها لحقوق الانسان وحرياته، وتضمن عند الحاجة، بواسطة قوات مراقبين وأكثر، استقرار الدول واستقلالها في وجه أخطار الردات الرجعية واستفاقات الغرائز الامبريالية لافتراس السيادة الوطنية»[35].

19. ما الذي يميز تفكير غسان تويني الديمقراطي؟ إنها ببساطة البراغماتية أو الواقعية العملية كما يحلو له أن يسميها. ليست البراغماتية عقيدةً بل منهجٌ لا ينحاز إلى حلول محددة، ولا يتوقف عند المنطلقات والأفكار المطلقة والضرورات الافتراضية. فما يهمه هو النتائج والوقائع والمحصّلات. لهذا تفيد البراغماتية في معالجة الخلافات المبدئية والتباينات النظرية لأنها تزن الفرق بين المبادئ بميزان النتائج العملية التي تحققها[36].

أما قواعد البراغماتية عنده فأربع: الوضوح، والأخذ بالحقائق، والتطلع إلى المستقبل، والإيمان بالتجربة.

20. أما الوضوح فينعاه تويني في كلام اللبنانيين. يقول: «مسكينة الكلمات كم

نظلمها.. كم ظلمنا «التدويل»، مثلاً، من قبل، فظننا إذا نحن رفضناه زال وبطل أن يكون أمراً واقعاً! ثم مسكينة «الواقعية».. كم ادّعاها اللبنانيون، فإذا بهم أكثر الناس خيالاً ومثالية، بل سذاجة، حتى لا نقول جهالة.. وأبعدهم عن فهم الواقع الحقيقيّ والتعامل مع الوقائع. هذا ناهيك بخوفهم من المصارحة: مصارحة الذات والغير على حد سواء»[37].

هذا الوضوح يعظّمه البراغماتيّون كل التعظيم إلى حد أن أول مقالة في البراغماتيّة كتبها وليم جيمس، أحد مؤسسي هذا المذهب الفلسفي، كانت بعنوان «كيف نجعل أفكارنا واضحة».

ولكي يجعل تويني أفكاره واضحة ويرفع الظلم عن الكلمات، لجأ إلى تعريف هذه الكلمات في معظم مقالاته. هذا التعريف يتخذ عنده أساليب نحوية مختلفة نكتفي بذكر أهم نماذجها.

فمن التعريف ما يكون باستعمال النعوت، كقوله: «نريد أن نستمر نتحدث عن «أمن الناس»، الحقيقي، الذي هو الأمن الأمن، بل أمن الأمن، والذي يتجاوز أمن الدولة.. إلخ»[38]. ومن التعريف ما يكون باستعمال البدل، كقوله: «وإذا كان الأمن، أمن الناس، أمن الإنسان، أمن الإنسان الحقيقيّ، أمن الرجل العادي... إلخ»[39]. ومن التعريف ما يكون باستعمال الهلالين أو باستعمال «أي» التفسيريّة، ومنه ما يجمع أسلوبين أو أساليب متعددة، ونكتفي من كلٍ ذلك بهذا القول: «كذلك لم يأتِ الأسطول هذه المَرّة إلا عندما اقتنعت واشنطن فعلاً أن «الحرب اللبنانية» (والصفة هنا هي نسبة إلى الساحة فقط، لا إلى المحتوى) أصبحت تشكل خطراً جدياً على المنطقة بكاملها، أي على «السلام والأمن الدوليين»، أي على النفط والمصالح الاستراتيجية الحيوية، أي على الكويت والسعودية والخليج.. إلخ»[40].

21. أما الأخذ بالحقائق فيقوم على ثلاثة مبادئ:

أ. الأول هو تقديم الثابت على المتحول. فلا تضيع الأرض من أجل العقائد والأنظمة[41]، ولا تضيع حياة المواطنين بسبب الصيغ والخطط[42].

ب. الثاني هو تجريد حاجات الناس من السياسة. فلا تبقى هذه الحاجات مرهونة بقضايا تتجاوز المواطن[43].

وخطر هذا الرهان يكمن في أن المواطنين الذين تستثيرهم العقائد والمثاليات إلى حد الاقتتال، تحركهم كذلك حاجات الحياة إلى حد الثورة[44].

ج. الثالث هو استيعاب المستجدات. فلا نتجاهل أحاديث الأجيال الجديدة التي تتكلم اليوم بغير ما نحن نتكلم[45]، ولا نصر على حلول مفصلة على مصالحنا، ولا نتمسك بشرائع ومواثيق ومؤسسات ومواقف تجاوزها الزمن[46]، بل نتكيف مع التاريخ الجديد دون مغالبة الماضي أو محاولة فرض مستقبل تتمرد عليه الوقائع الجديدة[47].

22. هذا الأخذ بالحقائق الثابتة والمستجدة ينبغي أن يوظَّف في صناعة المستقبل.

فالنظر إلى الماضي قد ينفع في استخلاص عبرة أو رسم طريق، ولكنّ إطالة النظر في الماضي تنتهي بنا إلى الجمود.

لهذا كانت دعوته إلى تجاوز الماضي والاتجاه صوب المستقبل. فالنصوص والمواثيق لا تعني شيئاً إن لم تأتِ خلواً مما كنا نشكو منه، وإن لم تكن برنامجاً عملياً مقروناً بوسائل

التنفيذ. فالحكم للحياة، و«حياة الأمّة ليست مجرد استمرارها في البقاء بل في سيرها المطّرد نحو المُثُل الكامنة في نفسها»[48].

23. أما الإيمان بالتجربة فهو أكثر نواحي فكر غسان تويني غموضاً. فتويني الديمقراطي، المحب للحضارة، المشبع بفكرة الدولة، كثير الحديث عن الثورة، قليل التمسك بالدساتير، فما معنى هذا التناقض؟

24. ليست أفكار تويني متناقضة إذا ما نظرنا إليها من خلال الفكر البراغماتي الذي يؤمن به. فهو مشبع بفكرة الدولة ولكنه مشبع كذلك بفكرة التطور والتقدم. وهو يعارض استقرار الدولة إذا كان معناه استقرار النظام لا استقرار الوطن. فالنظام الذي لا يتقدم ولا يساير التطور، يقف ويتراجع. والاستقرار ليس قيمة تاريخية تبرر أوضاعاً سياسية معيّنة، فهو قد يكون مظهر خمول ورضى بالفساد وانعدام المثاليّة[49]. والدساتير لا تستمد صحتها من شرعيتها بل من قدرتها على الثبات في معترك الصراع السياسي، أي في معترك التجربة[50]. ذلك أن الحكم ممارسة لا حرف وشكل[51] والممارسة اختبار متواصل.

25. من «منطق القوة» إلى«نزهة العقل»، إلى «حوار مع الاستبداد»، من سنة 1954 إلى سنة 1984 إلى سنة 2003، خمسون سنة من الزمان نضج فيها فكر غسان تويني ولكنه بقي واحداً في خطوطه العامة. منذ خمسين سنة دعا تويني الحاكم إلى مصادقة الشعب، وبعدها بثلاثين دعا تويني الحاكم إلى التحالف مع الشعب، وبعدها بعشرين دعا تويني الحكّام إلى التعجيل بفتح أبواب السجون وإطلاق الأحرار قبل أن يفرض العالم عليهم ذلك[52]. من «منطق القوة» إلى «نزهة العقل»، برز تويني محامياً عن الناس، عن حقهم في الحياة والحرية والخبز والعمل، عن حق أولادهم في دولة تفهم حاجاتهم وتساير هم في التطلع إلى التطور والتقدم. أما في «حوار مع الاستبداد» فبرز تويني محامياً عن التقدّم والسلام العالمي، ومحامياً عن العرب خصوصاً كي لا يتحوّلوا بتزمّتهم إلى

سند للإرهاب، ولا يسهّلوا بتردّدهم استباحة الآخرين لأرضهم وثرواتهم بحجة مكافحة الإرهاب.

أتخيل الآن غسان تويني يعيد صياغة كلمته ليحولّها إلى قسَم، كقسَم ولده الشهيد، ليردده الحكام العرب في مؤتمراتهم :

«أقسم بالله العظيم أن أدعو إلى دفن الاحقاد كلها والكلام الخلافي كله، وأن أسعى إلى ترسيخ ثقافة الحياة والحرية في بلادي، وأن أتعاون مع الحكام الأحرار على نشر ثقافة السلام في العالم. آمين وشكراً؟».

المصادر

تويني، غسان: «حوار مع الاستبداد»، دار النهار 2003.

تويني، غسان : «منطق القوة»، بيروت، دار بيروت، 1954.

تويني، غسان: «نزهة العقل»، بيروت، دار النهار 1984.

"L'attitude journalistique", Bensman & Lilienfeld, in Diogène, no 68 (1968), pp. 104-127

"Pragmatisme", Deledalle, G, in Encyclopaedia Universalis, vol. 6, pp. 637-642

"La pensée Américaine", Deledalle, G, in Encyclopaedia Universalis, vol. 13, pp. 441-443

Pragmatism and Other Writings. William James, Penguin Books (avril 2000)

الهوامش

(1) غسان تويني: «منطق القوة»، ص 89.
(2) المصدر نفسه، ص 6.
(3) المصدر نفسه، ص 89.
(4) المصدر نفسه، ص 90، 94، 128.
(5) المصدر نفسه، ص 94، 138.
(6) المصدر نفسه، ص 9.
(7) المصدر نفسه، 68.
(8) المصدر نفسه، ص 67–68.
(9) غسان تويني: «حوار مع الارهاب»، ص 60.
(10) غسان تويني: «منطق القوة»، ص 67.
(11) المصدر نفسه، ص 87.
(12) المصدر نفسه، ص 143.
(13) غسان تويني: «نزهة العقل»، ص 24، و«منطق القوة»، ص 89.
(14) غسان تويني: «نزهة العقل»، ص 24.
(15) المصدر نفسه، ص 16.
(16) المصدر نفسه، ص 99.
(17) المصدر نفسه، ص 16.
(18) المصدر نفسه، ص 18.
(19) المصدر نفسه، ص 80، 82، 83، 104.
(20) المصدر نفسه، ص 20.
(21) غسان تويني: «منطق القوة»، ص 118.
(22) غسان تويني: «نزهة العقل»، ص 91.

(23) المصدر نفسه، ص 24.
(24) المصدر نفسه، ص 27.
(25) المصدر نفسه، ص 103.
(26) المصدر نفسه، ص 27.
(27) المصدر نفسه، ص 110.
(28) المصدر نفسه، ص 106.
(29) المصدر نفسه، ص 116.
(30) غسان تويني: «حوار مع الاستبداد»، ص 90.
(31) المصدر نفسه، ص 114–115.
(32) المصدر نفسه، ص 37.
(33) المصدر نفسه، ص 38.
(34) المصدر نفسه، ص 91.
(35) المصدر نفسه، ص 107.
(36) Pragmatism and Other Writings. William James, Penguin Books (avril 2000)
(37) غسان تويني: «نزهة العقل»، ص 34.
(38) المصدر نفسه، ص 82.
(39) المصدر نفسه، ص 82.
(40) المصدر نفسه، ص 77.
(41) المصدر نفسه، ص 29.
(42) المصدر نفسه، ص 37 و 4.
(43) المصدر نفسه، ص 90–91.
(44) المصدر نفسه، ص 83.
(45) المصدر نفسه، ص 57.
(46) المصدر نفسه، ص 35.

(47) المصدر نفسه، ص 98.
(48) غسان تويني: «منطق القوّة»، ص 80.
(49) المصدر نفسه، ص 68 و 79.
(50) المصدر نفسه، ص 42.
(51) غسان تويني: «نزهة العقل»، ص 27.
(52) غسان تويني: «حوار مع الاستبداد»، ص 61.

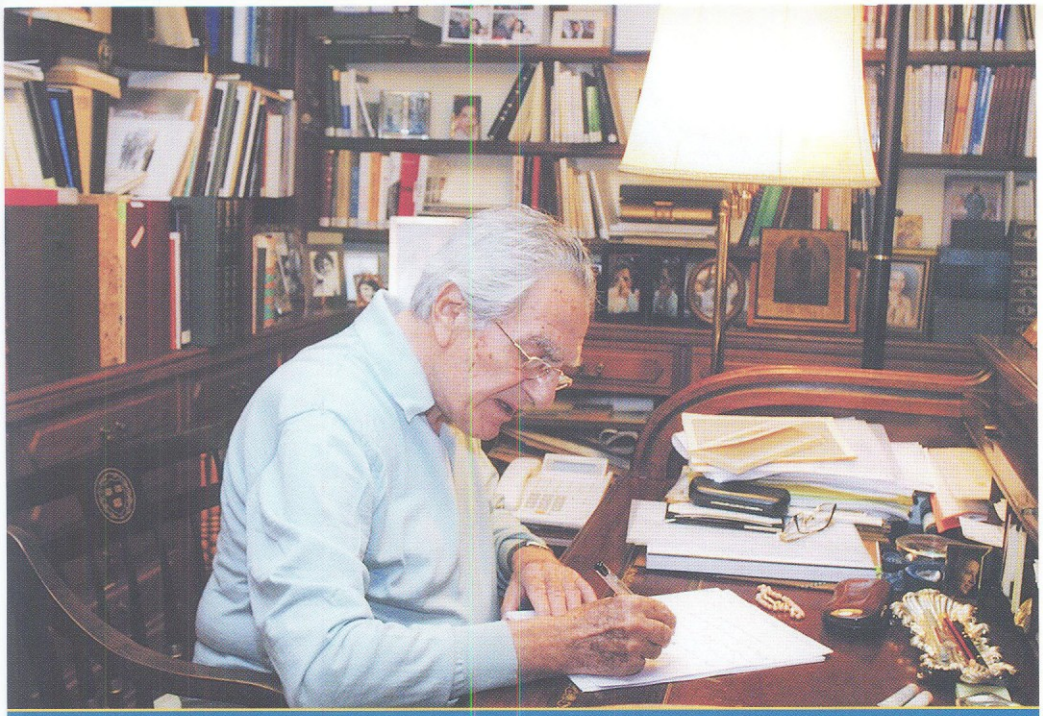

فتنة الكتاب وإعجازه: غسان تويني مؤلفاً

بقلم فارس ساسين

«طموحي في النهاية أن اكتب كتاباً أفرح به وأحسه عظيماً، وهذا لا يعطى للصحافي، لأن هناك عداء أساسياً بين الكتابة للأجيال الآتية لاحقاً، والكتابة الصحافية حيث لا يستطيع الصحافي أن ينتظر لكي تنصفه الأجيال، بل يحتاج ان ينصفه القارئ في يوم النشر، بل ساعة صدور المقال».

(«سر المهنة... وأسرار أخرى» ص 554).

بين غسان تويني والكتاب قصة حب لا تنتهي. وفي أصل هذا الود توق القرب إلى المسافة، والعبور إلى الثبات، والقصيدة إلى الديوان، والهامش إلى المتن، والسطح إلى العمق، والتعليق إلى الحدث، والتفصيل إلى الشمول. وفيه أيضاً نزوع الحاضر إلى الماضي والمستقبل، وذات الصحافي والسياسي إلى الذات الخالصة، والفرد إلى الكلية الإنسانية.

ومأساة غسان تويني، في بعدها الكتابي، أنه يحقق في كل مقالة من مقالاته ما يتوق إليه، إلا أنه يحققه إلى مدى لا يشفي الغليل، أو قُلْ غليلَه، فتتفاقم الخشية من فقدان ما خُطَّ وارتوى من الجوارح والآمال وضياعه على صفحات جرائد يطويها الليل وتقذف بها الأيام إلى مجاهل النسيان.

في الكلمة قدسية، فكيف في الكتاب؟

وقدسية الكتاب تأتي بداية من الله الخالق والشارع والناطق بالأنبياء والرسل، ثمّ من الأدب الحالم بكتاب يقوم بذاته وأسلوبه مستقلاً عن كل المواضيع وملاذاً لكل ما في العالم من أشياء (فلوبير، مالارميه...).

والكتاب، بوجهه العلماني المحض، نابع من صناعة العقل الذي أنجز، على سبيل المثال لا الحصر، «جمهورية» أفلاطون وحواراته الأخرى، وكُتُبَ «النقد» الثلاثة لكانط، وكتب هيغل الأربعة... فأمسك بمنطق الأمور، باطنها والظاهر.

يقول بورخس: «كل شيء يخرج من كتاب وكل شيء إلى كتاب ينتهي». غسان تويني لا يدرك ذلك فحسب، بل يحياه، بل يشاؤه.

ففي داخل الصحافي والناشر والسياسي والدبلوماسي والأكاديمي... المعبّر عن آرائه بالمقالة والمحاضرة والخطاب والرسالة والتقرير، والذي يحيا بالكتابة ولها، لا يمضي يوم إلا ويخوض فيه غمارها ويعود إلى ما كتب مصححاً ومبلوراً ومجمّلاً، يعيش غسان الشاعر، العاشق، طالب الحكمة، المؤمن المستقيم الإيمان. ويتمثل أفق تعدديته، وتعددية ما يتناوله بالتعليق، في «النظرة الشمولية المتماسكة»[1] التي تجمع الأمور كلها، وتربطها ربطاً محكماً، ولا تصير كتاباً إلا بتوحدها بالوحي وجميل البيان، وانتفاء الحدود بين الذات والموضوع لجهة استنفاد الاولى للثاني.

قرض غسان الشعر الفرنسي وهو على مقاعد الدراسة الثانوية (1940–1943)، أي عندما كان بين الرابعة عشرة والسابعة عشرة من عمره، وأودع في قصائده «عبارات المراهقة وخواطرها ورؤاها»[2]، وقرأها مع «من ساعدته على إعادة اكتشاف أحلامه الغابرة»[3]، ونشرها بعد أن مضى ما يقارب النصف قرن على كتابتها. وهو لا يتوانى اليوم عن القول بأن هذا الديوان هو الأثير لديه من بين كتبه[4]، أي أن في شعر صباه المتروك يقيم أكثر أبعاده أصالة. ويوضح تويني علاقته بالشعر واستمراره على مذهبه قائلاً: «صديق كبير يكرر دوماً أنني شاعر سياسي أكثر مما أنا كاتب سياسي.. يمكن... الشعر، إذا قصد به الجمالية في الكتابة، أو كانت الأفكار من القلب قدر ما هي من العقل، صحيح هذا القول، شرط ألا يعني أنني دائماً أحلم»[5].

وبين الشعر والعشق تغيب المسافات وتضيع الهويات.

فالشعر ينبض عشقاً، والمعشوق شاعر حوّل الفقدان والألم والحب والأرض والوطن إلى قصائد رائعة تستوي في دواوين مكتملة الصياغة قبل أن تُجمع في أعمال كاملة.

ولئن كان الخلق الشعري عملية لا تقبل الازدواج في منبعها، فإنها تستفيد من ملاحظات قارئها الأول والأحب، وتحتاج، في إخراجها المادي، إلى العين الساهرة الودودة الخلاقة الساعية إلى ملاقاة النص وإلى المساعدة في إبراز أبعاده كافة.

وفي سهر غسان على نشر مؤلفات ناديا تويني وإخراجها الإخراج المناسب واللائق وحدة الحب والشعر والكتاب، وتماهي العاشق والمعشوق. وتذهب العلاقة إلى أبعد من ذلك، فتمتد المشاركة تحت راية الشعر إلى الآراء والكتابات كلها: «إن المواقف التي كان يظن أن ناديا تتضامن معي فيها، إنما كانت دائماً تتخذ من منطلق المشاركة وبعد حوار طويل أفتقده منذ غيابها فأحس أحياناً كأني بت نصف إنسان، وأظل أتوق إلى حضورها فأطلبه في ما خلّفت من كتابات أنشرها وشعر أرويه! ولو كانت ناديا تقرأ الآن لقلت لها، مثلا، ان كتابي بالفرنسية «حرب من أجل الآخرين» الذي وضعته بعد وفاتها، عام 1984، وهو عصارة آرائي ومواقفي واختباراتي في الحرب، إنما هو الترجمة النثرية لديوانها الأخير «محفوظات عاطفية لحرب في لبنان»... وغالباً ما كنا – ولا أزال – نستعمل الفكرة، بل العبارة ذاتها، في شكلين متقاربين، من غير ان يعرف أحدنا أو يهتم، أيّنا كتبها قبل الآخر»[6]. في البدء كان الشعر وصار شعراً ونثراً وعملاً.

وإلى الشعر والعشق، يشكل «الشغف بالفلسفة»[7] ما يربط تويني ربطاً وثيقاً بالكتاب. وفي شهادته أنه انصرف مكرهاً عن الفلسفة في اللحظة التي كان يزمع التفرغ التام لها تأليفاً وتدريساً: «في نفسي عزاء أن والدي مات ولم يقرأ آخر رسالة كتبتها إليه، وكنت أقول له فيها انني أميل للانصراف للتدريس والتأليف الفلسفي، وليس في نيتي العودة إلى «النهار»، ولا ربما إلى لبنان بل قبول عرض من جامعة هارفارد، أو إحدى دوائرها، للعمل هناك، بصورة متواضعة طبعاً، بينما أنجز كتابة أطروحة الدكتوراه (التي لم اكتبها مذ ذاك!) عن إمانويل كانط ونظرته إلى الحرية في فلسفة السياسة والأخلاق والتاريخ...»[8].

إن القراءة الفرويدية للمقطع السابق، بما تظهره من ثورة على الوالد واستبطان له، لا تنفي ما للفلسفة من دور محوري في تنشئة تويني. ونراه في كلامه عن والد آخر يرسم ما أخذ عن الفلسفة: «من الدكتور شارل مالك، تعلمت، مع الفلسفة، ضرورة الشمول في النظرة، فلا تعامل الأحداث، ولا تتعامل مع الأنباء خصوصاً، من دون أن تحلها في إطارها الأشمل: ليس جغرافياً وحسب، ولا تاريخياً وحسب، بل، ابعد من التاريخ والجغرافيا، تحلها في سلالتها الفكرية، حتى لا أقول التسلسل الديالكتيكي. إذذاك، يصبح الحدث، كالنبأ بالنسبة إلى الصحافي، قابلاً لإعمال المنطق تقدر ان تستقرىء منه ما يترتب عليه من أبعاد، تبعاً لما رتبه وجوده من أصول، ويصبح المنطق مفتاح كل معرفة وكل تصرف»[9].

لا ريب أن ما أخذه تويني عن «حب الحكمة» يتعدى ما ذكره من توق إلى شمول الرؤية ومن إعمال للمنطق، بما في ذلك من سعي لا يكل إلى الحق، ومشيئة لا تحد إلى الحرية والتحرر. لكنه كافٍ ليكشف ما يجعل المقالات اليومية المتوالية تنزع إلى الكتاب الجامع المفسر المؤسس. والجدير بالذكر أن الأستاذ القدوة نفسه لم يحقق الكتاب، بل اكتفى منه بـ«المقدمة»، بل بالقسم الأول منها[10].

يناقض الإيمان الفلسفة ويكملها في آن معاً. لذلك فإن تويني لا ينفك يسترجع عبارة القديس يوحنا الدمشقي: «إحلال القلب في العقل»[11]. فالفلسفة بوجهها التنويري وقد مارسها تويني عند إمانويل كانط ومعه هي «الجرأة على استعمال العقل» بلا إشراف من الغير مع ما يفرضه ذلك من خروج على «الكسل والجبن»[12].

لكن جرأة العقل وتجديده لا يلغيان التقليد الديني والإرث الإيماني: «في النظرة المسيحية، كما ورثت اليهودية وأكملتها... الدين هو استمرار تاريخي عبر الكتاب المقدس، من العهد القديم إلى العهد الجديد»[13].

وهكذا يتجسد الإيمان ذاته في الكتاب، وتتوحد فيه الهبة الربانية والمسعى الآدمي: «الكتاب المقدس هو تاريخ الإيمان وكذلك تاريخ البحث عنه وترقبه».

ونجد المكانة التي يحتلها الكتاب المقدس في نظرة تويني إلى الكتاب أكثر ما نجدها في مؤلف أنجزه ناشراً (بالتعاون مع يوسف الخال، كما يشير إلى ذلك في المقدمة): يسوع المسيح بالإنجيل والأيقونة[14]. «انجيل موحد» يروي حياة المسيح بـ«لغة متكافئة»، متبعاً التسلسل التاريخي، متجنباً الروايات المتكررة، مختاراً من الأناجيل الأربعة «النص الذي أجمع البحاثة على اعتباره الأفضل»، مكملا النص «بكل ما يمت إلى موضوعه مما أغفله صاحبه»[15]، مزينا بأيقونات «بحد ذاتها، مقدسة» و«تمثل تاريخ الأيقونة ومدارسها».

تجد في ذلك محاولة لجمع «المكتبة العلمانية والنشر الفني» والإنجيل، وطلبا لتجلي الكتاب المقدس بأبهى حلله. لكننا نلمس أيضا مشروعا بروميثيا[16] يقدّس الكتاب لذاته، إذ إن الكنيسة نفسها تخلت عن مشروع «الإنجيل الموحد» (ما يسمى باليونانية «الدياطسرون»).

حكايات تويني مع الكتاب تحكي معضلةً مثلثة الرؤوس: كلماتٌ (في جلها مقالات، لكنها أيضا خطب برلمانية وتقارير دبلوماسية ورسائل ومحاضرات ومشاريع قوانين...) تتخطى الحدث الذي ولدت فيه، وشاءت سبر غوره والخروج من مآزقه، إلى عالم أكثر حرية وعدالة وتقدما ومساواة. كلمات تجمع إلى قيمتها الموضوعية تعلق كاتبها بها لما أودع فيها من أصالة ذاته؛ كتابٌ يفتن لما فيه من كمال يقارب القداسة، ولجمعه الشمول والتماسك والثبات والجمال.

ذاتٌ ترفض زوال ما كتبت، وعبره زوالها الدنيوي، وتتوق بقوة إلى الكتاب، لكنها تذهب في تأليهه إلى مدى لا تعود ترى في ذاتها ما يخولها صياغته، فيصبح الكتاب بعيد المنال:

«طموحي أن أكتب مسرحية... لا أدري إذا كنت لم أفعل ذلك عن ضيق وقت، أم ضيق صدر، أم... ضيق شجاعة!»[17].

تكشف صراحة تويني حدة المعاناة الذاتية وقوتها، وتخالف ما يمكن أن يأتي به رأي أكثر موضوعية وتداولا وأقل تشددا.

ليس للكتاب بالضرورة الكمال الذي ينسبه تويني إليه، ولا تعوزه هو شخصيا المواهب لإنجازه، وسجله الصحافي (والسياسي والدبلوماسي...) حافل ويغنيه عن التأليف، وأدب المقالة أدب قد لا يجاريه فيه آخر...

واذا كانت الهوبرس hubris، أي ما يمكن ترجمته بالاستكبار، في أصل المأساة اليونانية[18] لما فيها من تحد بشري للآلهة وفردي لشرائع المدينة، ففي اصل مأساة توينى الكتابية (وربما غير الكتابية) «الخفر»[19] الممزوج بـ«السخرية من الذات» وهي «في النهاية... حماية»[20]. يحمي الخفر أمام تأليف الكتاب من كبرياء إنجازه، وهذا الخفر خلوق، في خاتمة المطاف، لأنه يقود توينى إلى إنتاج كتب عديدة تجمع الكلمات وتتعداها وتتوق دائما إلى الأشمل والأجمل والأكمل.

ما أشكال «خفر» توينى أمام الكتاب، أو بالأحرى ما استراتيجياته لتخطي «خفره» هذا؟

1) نزع صفة الكتاب عن الكتاب المنشور. وهذا ما تطالعنا به السطورالأولى من كتابه الأول: «هذا الكتاب ليس كتابا... إنه مجموعة مقالات كتبت على التوالي، تبعا لحدوث الاحداث، وتسجيلا لما كانت تتركه من أثر في نفس مراقب همّه، همّ الصحافي، ان يكتنه الحدث ويستقرىء منه العبرة»[21]. والعبارة هذه تعود كلازمة في مطلع معظم المؤلفات.

يجمع تويني مقالات حقبة معينة، ويختار منها ما يتمحور حول موضوع واحد كبير الأهمية له وللقراء، وينتقي منها أهمها، ويعيد تبويبها في أطر أقرب إلى التصنيف المنطقي منها إلى التسلسل الزمني، ويسعى جاهدا في مقدماته إلى إعطاء المبررات السياسية والفكرية لكل مجموعة من مجموعاته، لكنه لا يرى فيها كتابا، ولا يعتبرها تاريخا[22].

وما يقوله تويني عن مقالاته المجموعة ينسحب على ما لا شك في «كتبيته» إذا جاز التعبير، أعني كتاب «حرب من أجل الآخرين» المنشور بالفرنسية والذي اعتبره عام 1995 كتابه الوحيد[23]. فهو يقول في «التنبيه»: «ليس هذا الكتاب رسالة في تاريخ لبنان، ولا حتى تحليلا لحوادث الحرب وآثارها... وليس أيضا رسالة سياسية في صراعات الشرق الأدنى ومستقبله... ليس إذاً إلا تحليلا ذاتيا... وشهادة»[24].

ويرى أن فيه من الهنات والسقطات ما قد يحول دون تشكيله كتابا: «كُتبَ [هذا الكتاب] وأعيدت كتابته مرات طوال سنتين. وهذا ما يفسر عدم التكافؤ في عبارته، وتنوّع أسلوبه، وكثرة النواقص فيه، وقلة اتزانه»[25]. وهكذا فإن هذا الكتاب، المصنف بين أهم المدونات والمراجع عن حرب لبنان[26]، يدعو فيه مؤلفه إلى الخفر في تسميته كتابا لأنه ذاتي وليس موضوعيا، ولأن فيه نواقص.

وحدها الحرب، بسبب جديتها ودمويتها وعبثيتها وتمزيقها للوطن، أصلحت الحال بين غسان تويني وبين الكتاب، فأعطى لمجموعة مقالات 1975 و1976 عنوان كتاب الحرب: «كتاب الحرب هو إذاً مقالات الحرب... وهي تستمر، بعد الحرب، تحمل الرسالة ذاتها، حرباً وسلماً!»[27] الكلمة أقوى من العنف، واللهجة تجاه الكتاب تغيرت بلا ريب، ومعها الثقة بالمقالة، والثقة بالموقف. كانت المقالات «نذيرا» للحرب، واتهمها البعض «بأنها كانت هي التحريض... كأنما المقالات هي التي تصنع الحروب، وليس العكس هو الصحيح!»[27].

رأى الصحافي الحرب تأتي، ونبّه إلى قدومها، ودعا إلى معالجة أسبابها قبل وقوع الكارثة، فكان ما كان واندلع العنف، لذا استحال تبسيط علاقة الكاتب بالحرب.

تشكل المقالات مجموعةً «سجل العذاب اليومي، عذاب العقل قبل الجسد، فضلا عن الآمال والمطامح التي لم يتمكن الرصاص من اغتيالها، ولا خطفها أحد...»[28] أما وحدتها الحقيقية وتماسكها في كتاب، فيوضحه توينى قائلا: «قيمتها... كوحدة متسلسلة (ولو أننا تجاوزنا التسلسل الزمني أحيانا)، فتجدها إذذاك تعطيك صورة متكاملة، فيها وحدة الموقف، منطلقات ونظرة واستنتاجاً»[28].

ويؤدي صلح المقالة والكتاب إلى تماهي الكتاب بموضوعه: «أما الآن، فماذا بعد الكتاب؟ أي: ماذا بعد الحرب؟»[29] لا بل، أبعد من ذلك، يتناثر الموضوع بينما يبقى الكتاب محافظاً على وحدته: «كتاب الحرب... يبيّن – في المقالة بعد المقالة – كم أن هذه الحرب كانت في الحقيقة مجموعة حروب، بل وثورات كذلك»[29]. يبقى أن المواجهة بين «الموقف»، وعبره بين «العقل»، و«الواقع» بما هو «حرب»، أمرغير متكافىء ولا مضمون النتائج: «ومع ذلك، لن نحاول هنا تفسير ما حدث ولا التكهن بما سيحدث... ولئن يكن زمن التأريخ لم يحن بعد، فكذلك لم يحن بعد زمن استخلاص صورة المستقبل الذي ظنناه مرات ومرات في متناولنا، ثم نراه يهرب كلما أطل»[30]. وهكذا لا يتوحد الكتاب والمقالة إلا في التواضع والخفر، رغم التشبث بالموقف والثقة بالرسالة.

2) الاعتماد على مقدمات ومقدمين للكتب يساهمون في إضفاء صفة شرعية عليها. قدم شارل حلو للطبعة الفرنسية من «اتركوا شعبي يعيش»[31]، وقدم دومينيك شوفالييه مؤرخ لبنان في القرن التاسع عشر لـ«حرب من اجل الآخرين»[32]، وقدم أنسي الحاج لـ«سر المهنة... وأسرار أخرى» متحدثا عن «النفس العميقة المخبوءة تحت جبال الحياء والكبرياء»[33]، وقدم نواف سلام لـ«محاضرات في السياسة والمعرفة»[34]. وبينما يتمنى

العديد من المؤلفين أن يقدم غسان تويني لمؤلفاتهم، وقد فعل عشرات المرات، وتهرّب من ذلك مئات المرات، نراه يستحسن كتابة مقدمات لمؤلفاته.

وتتجلى في هذه المقدمات، على ما نراه، إرادته في تجاوز الخفر من عدم الإقدام على التأليف، ورغبته في التأكد من صحة الخيارات في الشكل والمضمون، ونزعته الدفينة إلى إدراك الذات في مرآة الآخرين، وقد يكونون الأقربين، وامتحانه كتّاب النصوص عبر دعوتهم إلى التعبير الواضح عن رأيهم.

أعطى شارل حلو، رئيس الجمهورية السابق والصحافي والكاتب الفرنكفوني القدير، غسان تويني الشهادة التي أرادها هذا الأخير لنفسه كاتبا ومؤلفاً، نوردها هنا للتأكيد على كل ما قلناه سابقا: «أسلوب غسان تويني... هو التناوب بين الواقع والصورة أو الحلم، الجمع المتناسق بين المنطق والشعور، بين الاستدلال المقنع والاندفاع الذي لا يقاوم. لذا يبدو عمله عقائديا وشاعرياً في آن، بل كأنه نشيد أحيانا. أمامنا صورة رجل يستنفد ذاته يوما بعد يوم بهدف الإقناع والإثارة، ويجند كل طاقات قلبه وعقله لخدمة قضية هي الأكثر عدلا وجمالا، وبالتالي الأشد تعذيبا، وفي خاتمة المطاف، الأكثر قدسية»[35]. رأى شوفالييه فيه وريث الامبراطوريات الثلاث البيزنطية والأموية والعثمانية، وفي كتابه «رسالة العقل والتوازن»[36]. وصفه أنسي الحاج[37] وصفاً لا تقل روعته عن صدقه وأمانته. رصد نواف سلام محاور فكره رصداً دقيقاً.

3) اللجوء إلى أسلوب الأحاديث الشفهية كما في «سر المهنة... وأسرار أخرى» وفيه يردّ المؤلف على أسئلة ساهم في وضعها وطرحها أصدقاؤه ومعاونوه. يخفف الطابع الشفهي من وطأة الكتاب وصرامته، ويتيح للحرية إمكانية الانتقال من مسألة إلى أخرى من دون التركيز على الأسلوب والقواعد المتشددة. من هنا كلام تويني على «الخفة» في الأسلوب التي «لا يخافها... كما لا يتصنعها»[38].

4) اختيار الصحافة موضوعاً وتناولها في الكتاب. وفي ذلك ما يذكر بـ«العود الأبدي» عند نيتشه، وبتأويله عند هايدغر: لما كانت الإرادة تريد ذاتها، فهي عود ابدي. وتويني الآتي من الصحافة إلى الكتاب يحيل الكتاب إلى الصحافة. والشاهد على ذلك كتابان على الأقل: «سر المهنة... وأصولها»، و«سر المهنة... وأسرار أخرى». الكتاب الأول هو «الإطار النظري للمهنة» مرفقاً بمجموعة مقالات عن كبار الصحافة في لبنان. ولم يكن ردم الهوة بين الصحيفة والكتاب، في هذين المصنفين، مقتصرا على الموضوع فحسب، بل تعداه إلى طريقة الإخراج أيضاً.

5) التعاون مع كتّاب آخرين في إطار مؤلف جماعي. فكتاب «الاستقلال» جاء، في صياغة موحدة، بالتعاون مع فارس ساسين ونواف سلام. وكتاب «البرج ساحة الحرية وبوابة المشرق» جمع مساهمات عدة مذيلة بتواقيع أصحابها بإشرافه وتنسيقه مع فارس ساسين. وكتاب un siècle pour rien (قرن بلا جدوى) حوار طويل بينه وبين الصحافي والكاتب الفرنسي جان لاكوتور والمؤرخ اللبناني الفرنسي جيرار خوري حول عصر النهضة العربية وما آل إليه.

يرفض تويني استباحة عمل الآخرين، ويصر على إعطاء كل ذي حق حقه في التأليف، محملاً مسؤوليات خاصة للمساهمين في العمل الجماعي. لكن سحر بصماته، دون الخروج على أناقة تعامله ولياقته، يطغى على المساهمات.

6) التأليف بالأجنبية. لماذا كتب تويني كتابه الأول بالفرنسية؟ هل يكفي إتقانه لغة بودلير ونجوميته الباريسية لتفسير الأمر؟ لماذا امتنع عن نشر «حرب من اجل الآخرين» بالعربية رغم تأكيده جهوز الترجمة؟ لماذا لم يسعَ إلى نقل «قرن بلا جدوى» إلى العربية ولم ينشره فيها؟ هل الكتاب الفرنسي أسهل إنجازا؟ هل يخفي تويني المعروف بصراحته اللامتناهية نوعا من التقية؟ أم أن الازدواجية اللغوية والثقافية في لبنان تفسر بكل بساطة ما يبدو للوهلة الأولى غريباً؟ تبقى هذه الأسئلة بلا جواب آحادي وحاسم.

مأساة توينى بالكتاب، وخفره أمامه حافزان للإنتاج لا للشلل والانكفاء. هذا هو معنى البراغماتية عنده، وهي في هذا الميدان تعطي دليلاً ساطعا على فعله الخلاق. يقول في تعريف البراغماتية: «البراغماتية الحقة هي فعل عقل صافٍ، ولا طلاق يجوز بين العقل والأخلاقية... هي براعة الوسيلة الواقعية في سبيل إنجاح المثل»[39]. وإنجاز الكتب هو هذه البراعة بالذات في سبيل إنجاح مثال الكتاب، الكتاب كما يفهمه هو: «هو محراب يطرح فيه المؤلف عصارة عقله وكل ذاته، بكل حرية»[40].

ولج غسان توينى باب الكتاب ناشراً وجامعاً لمقالاته (ونصوصه الأخرى) ومؤلفا... وترك في كل ميدان من هذه الميادين تراثا غنياً يصلح مرجعا للأجيال المقبلة. و عرف كيف يسبغ على التأليف والنشر «النسق» أو «الجمالية» أو «الستيل» الذي تغنى به في الصحافة والعمل السياسي[41].

شكل تأسيس «دار النهار للنشر»، عام الهزيمة العربية 1967، محطة في تاريخ النشر في لبنان والمجال العربي، لجهة نوع المؤلفات أولا (نذكر منها، على سبيل المثال لا الحصر، كتابات ألبرت حوراني وكمال الصليبي وزين نورالدين زين التاريخية...)، ولجهة الإخراج ثانياً. ثم كانت «سلسلة النفائس»[42] التي أصدرت أجمل كتب عربية، منذ عهد مصر الملكية، مزينة بريشة بول غيراغوسيان وإيلي كنعان وشفيق عبود... مخطوطة بخط مختار البابا... مخرجة على يد عجاج العراوي. واستعاد غسان توينى في أواسط الثمانينات مبادراته في ميدان النشر فأطلق بالفرنسية «سلسلة تراث» patrimoine التي كانت باكورتها المؤلفات الكاملة لناديا توينى، والتي دأبت منذ ذلك الحين على نشر المؤلفات الكاملة المدعومة بالصور والوثائق للأدباء اللبنانيين باللغة الفرنسية في إخراج جميل وأنيق. وكانت هذه السلسلة بين أولى خطوات التعاون بينه وبين سعد كيوان وقد قال عنه توينى: «صرت لا اطمئن إلى إخراج كتاب ولا إلى صناعة كتاب ولا إلى اختراع كتاب بدون من هو في نظري سيّد الفن، ولو قيل «يتفنن» ويسرف»[43]. ونجمت عن هذا التعاون كتبٌ عدة توّجت

المرحلة الثانية الذهبية لدار النهار مثل «بعلبك أيام المهرجان» و«البرج ساحة الحرية وبوابة المشرق» و«عهد الندوة اللبنانية»... وإذا كان إحياء التراث في قلب معظم هذه المؤلفات، فلا بد من ذكر مجموعات الدوريات التي أشرف تويني على إعادة طباعتها طبق الأصل fac-similé مثل «الأحرار المصورة» و«المعرض» وPhenicia وLa revue phénicienne... والتي فاقت الأصل طباعياً لجهة أناقة التجميع وإتقان التجليد وفخامة الورق.

دأب غسان تويني على جمع مقالاته منذ مطلع الخمسينات، واستمر يجمعها حتى مطلع الألفية الثالثة، أي ما بعد الغزو الأميركي للعراق (2003). وليس في المجموعة سوى ثغرة واحدة هي مطلع الستينات (1959–1967). وتظهر هذه الثغرة أهمية ما نمتلكه عبر الحاجة إلى ما نفتقده: ماذا قال غسان تويني يا ترى إبان عهد فؤاد شهاب[44]؟

وفي المجموعة ما يتخطى دائما المقالات، إذ إن الكل ينير العناصر ويسمح برفع اللّبس وإيلاء الموقف حقه. ويعطي جمعُ المقالات الصحافي شفافية لا تضاهيها شفافية، ويظهر تاريخه بالكامل ويسمح للمنتقدين أو المؤرخين ان يبرزوا هذا الوجه أو ذاك من مواقفه. فكتاب «منطق القوة» اتاح القول: «نظلم الحقيقة إذا لم نقل ان غسان عمل في بعض مراحل حياته للانقلاب العسكري تحت نظرية ضرورة القوة في الدولة»[45]. والشفافية تتيح المصارحة، وهي ما يسميها إمانويل كانط «العلنية» ويجعل منها الشرط الضروري لممارسة العقل نشاطه: «الطريق الوحيد للتفاهم... هو المصارحة وتحمّل النقد البنّاء وقول الحقائق باحترام»[46]. وفي جمع المقالات داخل مصنفات أوسع، مسعى أول لتمييز المراحل التاريخية، كما أن في تبويب الكتاب الداخلي محاولة لفصل المشكلات بعضها عن بعض في إطار وحدة الرؤية ووحدة الموقف[47].

قبل أن أشير بإيجاز إلى الكتب التي ألّفها غسان تويني وتبقى مراجع لنشء لبنان والعرب، لا بد لي من تقديم شهادة عن أسلوبه في كتابين عملت معه على إخراجهما إلى النور. في حقبة

بدا فيها استقلال لبنان من الماضي، أراد تويني أن يعيد بـ«الوثائق والصور» انتفاضة تشرين الثاني/نوفمبر 1943 إلى الذاكرة الشعبية وأن يحيي التراث التاريخي والاستقلالي. فتناولها بأسلوب طلي وكأنها موضوع تحقيق صحافي عن حوادث تحصل اليوم. إلا أن المؤرخ فيه كان يعود دائما إلى المراحل التاريخية السابقة ليدرك أصول ما يجري. اما الكاتب فكان يهوى تكسير الزمان (ثورة الغضب، فالأحداث التي سبقتها، فالمقدمات والجذور، فمعركة الجلاء) وإدخال الحركة «الباروكية» في قلب التسلسل المنطقي. هذا في ما يخص كتاب الاستقلال. فالاستقلال ليس ناجزاً قبل أن يسكن كتاباً، والكتاب بلا روح ما لم يكن الاستقلال حجر زاويته.

أما في ما يعني كتاب «البرج ساحة الحرية وبوابة المشرق» فما إن أولاه تويني عنايته حتى حوّله من كتاب تراثي إلى كتاب مستقبلي، أو بالاحرى إلى كتاب يجمع أبعاد الزمان كلها ويتوحد فيه القبل والبعد. وكم كانت نظرته صائبة واستشرافية إذ ما لبث أن عاد البرج إلى قلب لبنان ولو مضرجاً بدم الشهداء. كذلك رصدتُ عنده القدرة الهائلة على إعادة كتابة النصوص البدائية والفقيرة التقميش وتحويلها إلى مقالات مشوّقة وحافلة بالتفاصيل المستعادة من الذاكرة و... المبتكرة.

وفي الختام، لا يسعني إلا أن أنوّه بثلاثة كتب رئيسية ألفها غسان تويني ولها صفات الكتاب كما رآها هو وكما ذكرناها في مطلع المقال: «حرب من اجل الآخرين» (بالفرنسية 1985)، «محاضرات في السياسة والمعرفة» (1997)، «سر المهنة... وأسرار أخرى» (1995).

الكتاب الأول شديد الارتباط بالظروف التاريخية التي ولد فيها (سقوط اتفاقية 17 أيار/مايو وانتفاضة 6 شباط/فبراير وحرب الجبل...)، لكن أهميته تأتي من الحلقات الوسيطة التي يقيمها بين العناصر الداخلية (الطوائف) والصراعات الإقليمية والدولية:«ليست الحربُ أهليةً ولا يمكن ان تكون كذلك، بل ثمة انعكاس صراعات خارجية على بنى داخلية تتنازع

طبيعيا وهي على أتمّ الاستعداد لا لتقبل هذه الصراعات فحسب، بل أيضا لإنتاجها وشحذها آملة أن تجد فيها التعبير الأكمل عن ذاتها!»[48].

يقول غسان تويني: «ناهيك بطموحي الدائم الذي فات زمانه إلى كتاب يجمع عصارة تأملات فكرية لا علاقة لها بالسياسة ولا بالوطن ولا بالصحافة، فقط بالإنسان في الإنسان»[49].

هذا الكتاب حققه تويني جزئيا في الباب الثالث والأخير من محاضرات في السياسة والمعرفة، المجموعة التي تضم إلى أكاديميات رئيس جامعة البلمند، محاضراته في النظام اللبناني وإصلاحه (الباب الأول)، وفي العروبة والعالم (الباب الثاني). تبدو وحدة الكتاب للوهلة الأولى شكلية إذ إنه يجمع محاضرات تويني وتظهر الازدواجية في العنوان: تتناول المحاضرات السياسة والمعرفة. ثم تنقسم السياسة بدورها إلى سياسة لبنانية وسياسة عربية لكن التعددية المكشوفة تكشف بدورها وحدة المسائل المتباينة ظاهراً والمترابطة في بنيتها العميقة والتي هي بحاجة لجهد القارئ الخاص لاستكمال توحيد صياغتها وصولا إلى الخروج من مآزقها. المحاضرة تتخطى المقالة لجهة سعة افقها وكم العناصر التي تؤالف بينها. وهي شكلت على مر العقود الإطار الأهم لتشخيص النظام في لبنان ومحاولة الخروج من مآزقه[50].

وتشكل محاضرات تويني، في مجموعها ومفاهيمها وبُعد رؤيتها وجذرية طموحاتها وسعيها الدؤوب إلى الحرية والديمقراطية، كلاً متماسكا ما زال صالحا لرسم مكامن شلل النظام اللبناني وسائر الأنظمة العربية وعجزها عن الاضطلاع بمهام الحداثة وتأمين قواعد الحريّة والعدالة الاجتماعية، ناهيك بمهمة إنسانية الانسان.

يتخطى «سر المهنة... وأسرار أخرى» كل الحدود ويخرج على كل تصنيف لجمعه بين دفتيه الفردي والجماعي، الصحافة والسياسة، التاريخ والعقائد، الشفهي والكتابي، الشعر

والفلسفة، التفاصيل المادية والشطحات الروحية، الصورة والنص، المقالة والإطار، المنطق وما دونه وما يتخطاه، القانون وما يخرج عليه ومن يدافع عنه[51]... ليس الكتاب «موسوعيا»[52]، بقدر ما هو ملحمي إذ فيه السيرة الذاتية الملامسة للمسائل الحميمة، وألبوم الصور العائلي، ودليل مهنة الصحافة بأبعادها كافة (المالية والطباعية والتحريرية...)، وتاريخ صحيفة النهار، وتاريخ الصحافة اللبنانية في أوجها يوم كانت «السلطة الاولى والاخيرة»[53]، وتاريخ لبنان الاستقلال بألق عهوده ومآسيها وبعلاقاته الفلسطينية والسورية والعربية، ومختارات من المقالات التاريخية، ومجموعة ملفات.

«سر المهنة... وأسرار أخرى» ملحمةٌ عن العصر الذهبي اللبناني وعن عصر «النهار»، مقرونة برواية تنشئة Bildungsroman، متوازنة وحديثة بفضل الصراحة و«الخفة» و«السخرية» والنوادر الطريفة، مروية بأسلوب يتآلف فيه الشفهي والمكتوب، فيأتي عفويا وأنيقا. ولئن كانت العبارة الاولى في التوطئة: «هذا الكتاب ليس كتابا»[54]، فالإشارة ربما هي هذه المرة إلى ما يتعدّى الكتاب، لا إلى ما يبقى دونه.

... ولنُعذَر إذا أهملنا، في مقالتنا، المضمون وأولينا العناية للشكل!

الهوامش

(1) «سر المهنة... وأسرار أخرى»، 1995، ص 560. هذا وسنورده في الهوامش تحت عنوان سر المهنة...

(2) Une vieille poésie d'enfance, 1990 p. 9.

(3) Ibidem, p. 10.

(4) حديث خاص مع غسان تويني، أيلول/سبتمبر 2005.

(5) «سر المهنة... وأسرار أخرى» ص 553.

(6) المرجع المذكور، ص 212. وفي رواية أخرى شفوية تكمل السابقة ولا تناقضها، يروي تويني ان الكتاب والديوان صيغا معاً وكان كل منهما ترجمة للآخر. وفي مقدمته لـ«اتركوا شعبي يعيش»، أقام شارل حلو توازياً بين خطب غسان في الأمم المتحدة وديوان ناديا «عشرون قصيدة من اجل حب».

(7) المرجع المذكور، ص 49.

(8) المرجع المذكور، ص 82.

(9) المرجع المذكور، ص 83.

(10) شارل مالك، المقدمة، «سيرة ذاتية فلسفية»، دار النهار، الطبعة الأولى 1977، الطبعة الثانية 2001. هذا وفيما عدا هذا الكتاب الذي يشكل «الجزء الأول» من المقدمة لـ«لأعمال الفلسفية الكاملة»، لم ينشر شارل مالك سوى تقارير ومقالات ومحاضرات وخطب... جبران تويني الوالد لم يؤلف أي كتاب لكنه جمع مختارات من مقالاته تحت عنوان «في وضح النهار». ونشر له غسان، في ذكرى وفاته العاشرة، مجموعة ثانية تحت العنوان ذاته، وقدم لها، وخصص له كتابا رائعا في إخراجه: «جبران تويني بعد 25 سنة»، بيروت 1973. ونشرت دار النهار طبق الأصل المجموعة الكاملة لدورية «الأحرار» المصورة التي أصدرها جبران عام ولادة غسان، أي في العام 1926. «الوالد الثالث» انطون سعاده وحده من بين «الآباء الثلاثة» صاحب كتاب، «نشوء الأمم»، لكن لم يصدر منه غير الجزء الأول.

(11) على سبيل المثال: «محاضرات في السياسة والمعرفة»، 1997 ، ص 233-238، و«سر المهنة... وأسرار أخرى» ص 579-580.

(12) E. Kant: Was ist Aufklarung?, 1784. راجع الترجمة العربية في «الفكر العربي»، تشرين الأول/أكتوبر 1987، «كانط: جواب عن السؤال: ما هي الأنوار؟»، ترجمة حسين حرب.

(13) «سر المهنة...» ص 557.

(14) صدرت الطبعة الأولى عن المطبعة الكاثوليكية ودار النهار عام 1968، وصدرت الطبعة الثانية عن دار النهار عام 2000. صمم الطبعة الأولى عجاج عراوي والطبعة الثانية سعد كيوان.

(15) «يسوع المسيح بالإنجيل والأيقونة»، 1968، مقدمة غسان تويني.

(16) نسبة إلى بروميثيوس الجبار الذي سرق النار من الآلهة واعطاها للبشر.

(17) «سر المهنة...» ص 579.

(18) انظر Mythe et tragédie en Grèce ancienne, JP. Vernant, P. Vidal-Naquet: Paris, 1972. هذا ويرى المستشرق برنارد لويس ان عبارة «طاغوت» القرآنية هي اقرب العبارات العربية إلى الـ hubris اليونانية.

(19) «سر المهنة...» ص 554.

(20) «سر المهنة...» ص 562-563.

(21) «منطق القوة»، ص 5.

(22) المصدر السابق، ص 5-6.

(23) «سر المهنة...» ص 581: «أصلا، إذا استثنينا بعض الدراسات «الأكاديمية»، لم اكتب سوى كتاب واحد بالفرنسية، هو حروب من اجل الآخرين...».

(24) Une guerre pour les autres, p. 23.

(25) المصدر السابق، ص 24.

(26) نفدت الطبعتان الفرنسية واللبنانية من هذا الكتاب، وهو قيد إعادة الطبع نظراً للإقبال الدائم عليه.

(27) كتاب الحرب، ص 7.

(28) المصدر السابق، ص 8.

(29) المصدر السابق، ص 381.

(30) المصدر السابق، ص 382.

(31) قدّم الرئيس شارل حلو الطبعة «الأصلية» الفرنسية للكتاب وترجمت مقدمته في الطبعة العربية تحت عنوان: «رجل الرؤية المستقبلية». بدوره كتب تويني مقدمة لمذكرات شارل حلو «حياة في ذكريات»، دار النهار، الطبعة الثانية، 1995، تحت عنوان: «كاهن في غير هيكله».

(32) المقدمة تحت عنوان «امبراطوريات غسان تويني»، ص 11-21.

(33) المقدمة في الصفحات 13-16.

(34) المقدمة في الصفحات 9-12. هذا وقمت شخصيا بكتابة ثلاث مقدمات لـ«رسائل وتقارير مرحلة نيويورك» (1977-1982)، وهي وإن تعدت أحيانا اطار التحقيق الضيق للكتاب المنشور، تحاول أن تلتزم به التزاما وثيقا. نكتفي هنا بإيراد الفقرة الآتية: «استحالة السكون، وانتفاء الزمن القادر على تكريس الأوضاع على ما آلت إليه: هذا ما يأتي به تويني...» 1982 عام الاجتياح... الصفحة 10.

(35) اتركوا شعبي يعيش، ص 10.

(36) Une guerre pour les autres, p. 11 et p. 21.

(37) يقول تويني عن أنسي الحاج في سر المهنة... (ص 113): «ولكن يجمعنا شغفي الجمالي به، شخصاً وأسلوبا، وكأنه الشغف بالشعر يتمرد على المنطق».

(38) سر المهنة... ص 12.

(39) سر المهنة... ص 563.

(40) المصدر السابق، ص 554.

(41) «هناك جمالية في العمل السياسي تبدأ بوجود النسق، أو النهج الجميل. «ستيل». أي حتى الأشياء الغلط تعملها في شكل براق، وجميل، بل وساحر أحيانا... وتخسر!»، المصدر السابق، ص 569.

(42) سر المهنة... ص 212.

(43) المصدر السابق، ص 8.

(44) الغريب في الأمر اننا لا نجد من مقالات تلك الحقبة في سر المهنة... سوى مقالين لميشال ابوجودة، ص 431.

(45) منح الصلح، طاولة مستديرة عن سر المهنة... وأسرار أخرى، النهار 12-1-1996. غسان تويني تحدث بإسهاب عن تلك الحقبة في سر المهنة... ص 52-55.

(46) محاضرات في السياسة والمعرفة، ص 75.

(47) عن النصوص المجموعة من غير المقالات نورد ما ذكرناه في مقدمة 1982 عام الاجتياح (ص ل–م): «هو [الكتاب] وثيقة مهمة من وثائق الحروب العربية – الاسرائيلية والحرب اللبنانية تصلح للاستخدام، مع وثائق أخرى، لتصوير أحداث الحقبة المتناولة وتوضيح ما غاب عن الصورة. وهو صفحة من صفحات دبلوماسية بلاد الأرز... مليئة بالعبر، وتصلح كتاب تربية لكل دبلوماسي ناشىء. وهو دليل إناسي ethnographique يسجل بأمانة «شعائر» المجتمع الدولي المتعايش في القصر الزجاجي على ضفاف الهدسون... وهو مجموعة من الروايات تُقرأ بشغف أكيد عن الحرب في نيويورك وعن الحرب منها».

(48) Une guerre, p. 56.

(49) سر المهنة... ص 553.

(50) راجع مراجعتنا للكتاب يوم صدوره وفيها نقول أن المحاضرة (ميشال شيحا وجورج نقاش وكمال جنبلاط وتقي الدين الصلح وغسان تويني) أهم ما تناول بالبحث السياسة اللبنانية في الفترة الممتدة بين الاستقلال والحرب: Les combats inachevés, Farès Sassine: L'Orient-Express, mai 1997.

(51) نجد في الكتاب دفاعات محامين ومرافعات عن «النهار» ومسؤوليها، ص ص 336-339 و346-360.

(52) نقرأ على الغلاف الرابع للكتاب: «50 سنة من الصحافة والسياسة في اول «موسوعة» لبنانية وعربية من نوعها».

(53) روى منح الصلح، في مداخلته المذكورة سابقا، نقلا عن السفير المصري عبد الحميد غالب إبان تقاعده قوله عن الصحافة في لبنان: «قالوا سلطة رابعة اي سلطة رابعة يا شيخ؟ هي السلطة الاولى والاخيرة. ما فيش سلطة غيرها». وأضاف الاستاذ منح: «قيل في مبالغة أن الحزبين المتواجهين هما نهار غسان تويني وجيش فؤاد شهاب».

(54) ص 11.

مؤلفات غسان تويني

أ- المقالات المجموعة

1- «منطق القوة أو فلسفة الانقلابات في الشرق العربي»، دار بيروت، 1954.

2- «الأيام العصيبة»، أيار/مايو-آب/أغسطس 1958، ب ن.

3- «الخطر الأحمر... والعالم الحر؟ 1948-1959»، ب ن.

4- «رئاسيات 1970»، ملف النهار.

5- «ثورة الطلاب»، (مقالات، ملف 67-1968 وكلمات 1968-1970)، ملف النهار لبنان 1971.

6- فلسطينيات، (1967-1971)، ملف النهار 1971.

7- «خواطر انتخابية»، آذار/مارس-نيسان/أبريل 1972.

8- «الثورة الفلسطينية والحقائق اللبنانية»، 1971-1974.

9– «كتاب الحرب، 1975-1976»، دار النهار.
10– «نزهة العقل» 1983-1984، مجموعة مقالات، دار النهار.
11– «الجمهورية في إجازة»، لبنان 1988-1990، دار النهار.
12– «قبل أن يدهمنا اليأس»، مقالات الانتخابات 1992، دار النهار.
(جمعت لاحقا الكتب الثلاثة السابقة في كتاب واحد).
13– «مسارات السلام ودبلوماسية الـ 425»، أبحاث افتتاحية (1998-1999)، سجالات دار النهار، 1999.
14– «الإرهاب والعراق قبل الحرب وبعدها»، دار النهار، 2003.
15– «حوار مع الاستبداد»، دار النهار، 2003.

ب) المحاضرات

– «محاضرات في السياسة والمعرفة»، دار النهار، 1997. (يجمع الكتاب محاضرات وكلمات ألقيت بين 1950 و1996 نشر بعضها سابقا على شكل كراريس). قدم لها نواف سلام.
و«القرار 425 مأزق أم حل؟» محاضرة في مركز صيدا الثقافي– الهلالية 19 آذار/مارس 1998.
– «لبنان والأمم المتحدة وقضية السلام»، محاضرة في بيت الأمم المتحدة بدعوة من الاسكوا في 29 أيلول/سبتمبر 1998.
– «دور الثقافة في المستقبل العربي»، محاضرة في الرابطة الثقافية–طرابلس، 1999.
– «سعاده: القضية والتغيير والأبعاد»، 2004، مؤسسة سعاده للثقافة.

ج) الأحاديث والذكريات

– «غسان تويني يتذكر»، أحاديث نشرتها «الحياة» مع عبد الوهاب بدرخان 1990.
– «سر المهنة... وأسرار أخرى»، قدم له انسي الحاج، 1995.

د) الوثائق والمراسلات والخطب

– «من أجل مجلس حر. رصيد سنة في مجلس النواب»، 2 حزيران/يونيو 1951-31 أيار/مايو 1952.

– «100 يوم في الحكم»، ملف النهار، لبنان 1971.
– «آراء في السياسة والحكم»، آذار/مارس–نيسان/أبريل 1972.
– (مع جوزف نصر وآخرين...) «ملف الجنوب»، 1973.
– «اتركوا شعبي يعيش، لبنان في الأمم المتحدة»، مقدمة شارل حلو، دار النهار، 1984.
– «رسائل إلى الرئيس الياس سركيس 1978-1982»، حققها وقدّم لها فارس ساسين 1995.
– «القرار 425، المقدمات، الخلفيات، الوقائع، الأبعاد»، حققه وقدم له فارس ساسين، المراسلات الدبلوماسية 1977-1978، 1996.
– «1982 عام الاجتياح، لبنان والقدس والجولان في مجلس الأمن، القرار 508 والقرار 520»، حققه وقدم له فارس ساسين، 1998.

هـ) في الصحافة والتاريخ وبيروت

– «سر المهنة... وأصولها»، «النهار» كتاب التسعينات، محاضرات في الصحافة ومقالات عن كبارها، 1990.
– (مع فارس ساسين ونواف سلام) «كتاب الاستقلال بالوثائق والصور»، دار النهار، 1998.
– (مع فارس ساسين وآخرين) «البرج ساحة الحرية وبوابة المشرق»، دار النهار، 2000.
(كتاب بالعربية والفرنسية)

المؤلفات الفرنسية والإنكليزية

– Une vieille poésie d'enfance, 1940-1943, Dar An-Nahar, 1990.
– Laissez vivre mon peuple, Le Liban à l'ONU, préface de Charles Helou, Jean Maisonneuve, Paris, 1984.
– Une guerre pour les autres, préface de Dominique Chevallier, JC Lattès, 1985.
(nouvelle édition et postface de l'auteur 2004, Dar An-Nahar).
– 1981-1991 Conférences, Dar An-Nahar, 1992.
– Le livre de l'Indépendance, (en collaboration avec Farès Sassine et Nawaf Salam), Dar An-Nahar, 2002.
– Un siècle pour rien, (avec Gérard Khoury et Jean Lacouture) Albin Michel, 2002.

Le point de vue du politique in la responsabilité en droit public, —
pp 279-334, Bruylant, Bruxelles, 2005.
Rôle et Avenir des Chrétiens d'Orient Aujourd'hui, (Ghassan Tuéni et Samir Khalil Samir s.j.), —
Cahiers de l'Orient Chrétien, CEDRAC, Beyrouth, 2005.
Peace-Keeping Lebanon The Facts, the Documents, William Belder Group, New York,. 1979. —

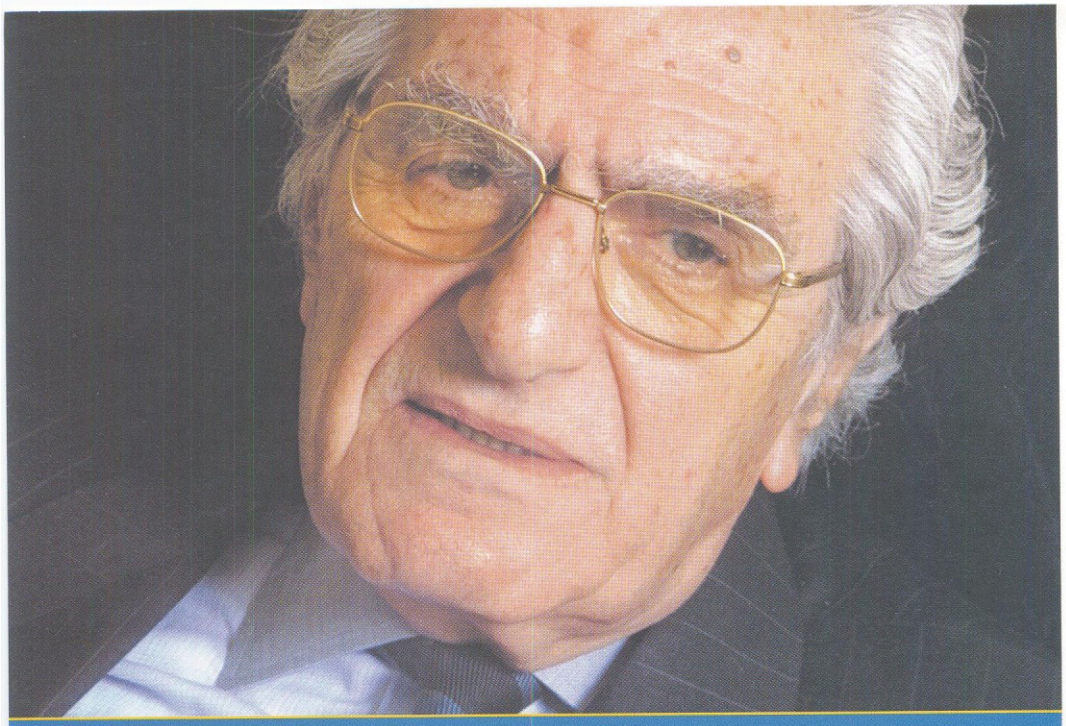

وصيـة غسـان تويني
المستحق وحده يدخل التاريخ

بقلم ادمـون صعب

ليس ضرورياً أن يكون المرء مؤرّخاً ليكتب عن غسان تويني الإنسان الذي اشترط على التاريخ أن يستحقه. فهو القائل: «لكي تستحق التاريخ عليك أن تعمل. وأن تتعلم. وأن تقوى. وأن تثور. وأن تبني. وأن تضحّي. وأن تؤمن. وأن تفرح. وأن تحبّ. وأن تبغض. والتاريخ هو كلّ ذلك. ولا أحد له حقّ عليه. إذ لم يستأجره أحد. ولا قطع بطاقة ليدخله كأنه مسرح. أو اشترى فيه سنداً عقارياً. فالتاريخ هو أن تستحق التاريخ».

ولقد استحق غسان تويني التاريخ، دون أن يكون للتاريخ فضل عليه.

والواقع أن الرجل تربّى على فكرة الاستحقاق، وكان دأب والده جبران تويني ان يحقق الابن الآمال المعقودة عليه.

وقد ذكّر غسان تويني والده مرّات كثيرة بأن هدفه الأساسي، وخصوصاً عندما كان يتابع دراسته العليا في الولايات المتحدة، أن يصبح ما أراده له والده أن يكون.

وكشفت ذلك بوضوح الرسائل المتبادلة بينه وبين والده صاحب «النهار»، كما ألقت أضواء على شخصية الفتى والقيم التي نشأ عليها.

بدأت قصة الاستحقاق مع قرار غسان تويني السفر إلى الولايات المتحدة للالتحاق بجامعة هارفارد. وكانت الأيام «أيام فقر وطفر».

ويقول في ذلك: «كان ذلك آخر صيف 1945 في المنزل صباحاً، وقد فتح والدي أحد أدراج خزانة أمي وأخذ منه حافظة أوراق، لم أكن قد شاهدت مثلها من قبل. قال انها «سندات البنك العقاري المصري»، أو ما يشبه ذلك. لا أذكر. أمي كانت صندوق الادخار. وكانت كذلك معين العاطفة.

تبادل والدي ووالدتي نظرات لم أفهمها، وأظن انها لم تخل من «المساءلة» المتبادلة.

نزلنا إلى «النهار» لإتمام بعض المعاملات، وبعدها حمل والدي حافظة السندات وتمشينا إلى شارع اللنبي، أو أحد الشوارع المتفرعة منه، حيث كان بنك مصر وسوريا ولبنان. فاستقبلنا مديره قريب أمي خليل سالم، وتحدث مع والدي ثم تطلّع اليّ نظرة ملؤها الاستغراب والأمل. ونادى أحد مساعديه وأعطاه السندات. ولمّا عاد المساعد يحمل ظرفاً فيه جنيهات مصرية (سافر غسان تويني إلى اميركا عبر الإسكندرية) وحوالة بالدولارات، أعطاني «عمّو خليل المال» وقال: «انشا الله ترجعهم أضعافاً وتفرح بك أمك اديل». واصطحبني والدي إلى المحطة لأسافر منها بالقطار إلى مصر، ثم بالباخرة إلى نيويورك.

أكذب إذا قلت اني لم أفرح بالدراهم. ولكنني أقسمت بيني وبين نفسي أن «أرجعها أضعافا»، وأن تعود إلى خزانة أمي مثل هذه الأوراق المزخرفة التي اسمها سندات».

وفي رسالته إلى والده المؤرخة «أحد الشعانين 1946»، وصف دقيق لحياته في أميركا، و«لأحد الشعانين» في بوسطن حيث حضر القداس والزياح في كنيسة القديس يوحنا الذهبي الفم السورية الأرثوذوكسية «وقد كنت أتذكركم وانقل نفسي بالفكر إلى «مار الياس» فأرى الأهل والأصدقاء في بهو الكنيسة الجميل والخوري الختيار والأيقونات (...)

وسأذهب الخميس إلى الكنيسة نفسها للمناولة، واني أرجو أن تذكروني بصلاتكم وتسامحوني وتشركوني بالقربان الذي تتناولونه، وانا معكم في كل حين».

وسأل والده مرّة إذا كان في إمكانه أن يدبّر له مهمة سكرتير في وفد لبنان إلى الأمم المتحدة، فربما كان ذلك «بدء دخولي السلك السياسي، وإذا كان ذلك ممكناً أرجو ابلاغي

ذلك بسرعة لأتمكن من تدبير أموري المدرسية في الوقت المناسب، وأذهب ذلك الفصل إلى جامعة كولومبيا (لدرس الصحافة) في نيويورك والاستفادة من التعرّف اليها وإلى مؤسسة الأمم المتحدة التي ندرسها».

وأشار في حاشية الرسالة إلى أنه زار «دائرة التعاون الثقافي» في وزارة الخارجية في واشنطن، «وهي الدائرة التي منحتنا المنحة، وتعرّفت إلى رئيسها وبعض موظفيها ومنهم حبيب كوراني الذي يقول اني أعطيت انطباعاً جيّداً جداً، (Très bonne impression) أرجو أن تشجعهم على الإكثار من منحهم».

الامتحانات

وفي رسالته المؤرخة 28 أيار/مايو 1946، وصف لأحواله الدراسية وانقطاعه عن أي نشاط حتى ينتهي من الامتحانات. وقال: «أنهيت أمس آخر واجباتي المدرسية لهذا الفصل، وبدأت اليوم عطلة عشرين يوماً. وكنت كتبت على باب الغرفة، بهزل طبعاً، «عدم الإزعاج قبل الأربعاء صباحاً».

وأضاف: «لعلك كتبت اليّ رسالتك هذه قبل تسلمك جوابي القصير على رسالة 30 أبريل وقد أشرت فيه إلى امتحاناتي (...) وأنا أدرك أن أول شيء يهمّك هو التعرّف إلى نتائج هذه الامتحانات التي هي محك لعملي في أميركا. لقد كانت امتحاناتي والأطروحتان اللتان كتبت هذا الفصل أحسن مما كنت أنتظر، وإن لم تكن كما أريد، وأنت تعلم اني أريد دائماً الأمثل.

وقد صرفت الأسابيع الثلاثة الأخيرة في عمل جدّي مضن، بالنظر إلى صعوبة المادة التي علينا تحضيرها، ولكوني اجابه هنا أوضاعاً دراسية وفكرية لست معتاداً عليها كما هو معتاد الطالب الأميركي (...). الخلاصة: كان عليّ ثلاثة امتحانات. الأول يوم الثلثاء الماضي في تاريخ الفكر السياسي من القرن السادس عشر إلى الثامن عشر، كتبت فيه امتحاناً لعلّه أحسن

امتحاناتي. وامتحان آخر يوم الأربعاء في العلاقات السياسية الانترنسيونية، أكثره عن الأمم المتحدة وجامعة الأمم والدبلوماسية والتنظيم الدولي وغيرها. وقد كتبت فيه امتحاناً لا بأس به، أظن أنه يسرّ ألأستاذ جيداً. وامتحان ثالث يوم الجمعة (وقد تنفست قليلاً يوم الخميس!) عن الفكر الاجتماعي والاقتصادي الحديث، من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين. وكتبت فيه أيضاً امتحاناً جيّداً وكان عليّ لهذا الدرس أطروحة عن نظرية كارل ماركس في التاريخ أنهيتها الساعة الرابعة صباحاً وكان حجمها عشرين صفحة فقط. وأستاذ هذا الدرس المساعد صديق لي وقد رأيته بعد الامتحان وتحدثت وإياه عن الأسئلة فسرّ جداً بما قلته له عن شكل أجوبتي.

وكنت أنهيت الاثنين الماضي أطروحتي عن «السيادة القومية والقضية السورية»، وهي الغرض الوحيد المطلوب لأهم دروسي، وقد أخذ مني جهداً كثيراً (...) ولن أعلم النتائج رسمياً قبل وقت، غير اني لست مهتماً بها كثيراً بل أريد التعويض عن سهري. كان معدل ساعات النوم 5 ساعات هذه الأسابيع الأخيرة».

ولم يخف متعته في الكتابة إلى والده، إذ قال له في هذه الرسالة «ما أعذب نهاراً أبدأه بالتفكير بك وبمكاتبتك». وكان كتب 4 صفحات منها ثم تابع الكتابة في اليوم التالي: «لقد ثرثرت أربع صفحات أمس، وها اني عدت إلى الثرثرة (...) وكأني أريد أن أنقل في رسالتي هذه الجوّ الذي أعيش فيه، وكل حركة وكل شاردة وواردة من حياتي هنا، في إرادتي وشوقي لكم».

وذكر أنه قرأ في «النيويورك تايمس» عن سقوط حكومة سامي الصلح، وقال: «ان حاجة البلاد هي إلى إصلاح راديكالي عميق لا يقوم به الا الشباب الواعي، المثقف، والمخلص. وان أمل البلاد، وأنا متأكد من ذلك، هو في الشباب هؤلاء. وعلى كلّ من أدرك ذلك ان يساعدهم بكل ما اوتي به وما يحتاجون اليه (...) وان كل تلويح بالإصلاح يقوم به فريق

من النواب وزمرتهم الحالية هو تدجيل يستر غايات خاصة وكلام فارغ لا معنى له سوى العودة إلى كراسي البرلمان العفن.

(...) واني انتظر أن تجيء الانتخابات القادمة بجديد إلى عالم السياسة عندنا، أو على الأقل أن تفتح باب الجديد، لأني مؤمن بأن الشعب اللبناني واعٍ لفكرة الإصلاح وضرورته، وهو سئم السياسة الحالية، وبات بسببها يشكّك بالاستقلال، ولا يفكر الا ببيع صوته والتفرّج على المجلس».

وأبلغ والده أنه سيكتب «أربع أو خمس رسائل باتت مادتها ناضجة في ذهني الآن، أرسلها معاً لتنشر تباعاً في «النهار» بعنوان «رسالة من أميركا» الأولى عن اميركا نفسها بإخلاص كلّي للحقيقة وللظروف والأمور. والثانية عن السياسة العالمية كما تبدو من اميركا، الأمم المتحدة وغيرها. والثالثة عن المهاجرين. والرابعة عن اليهود والصهيونية. والخامسة خلاصة في ما يتعلّق بنا. ولعلها تفي بشيء من واجبي ولذتي نحو النهار وقرّاء النهار». (تذكير هنا بأن الطالب غسان تويني كان في العشرين من عمره عندما طرح هذه القضايا).

إصلاح «النهار»

وتطرّق إلى إصلاح «النهار» فقال: «أما في شأن إصلاح «النهار» فاني مسرور جداً بما تقوله لي، ولكني أقلّ من أن أبدي لك النصائح والإرشادات، لا في شأن «النهار»، ولا في تصرفاتك السياسية – وكل ما لديّ إلى جانب الامتثال إلى نصائحك، هو الاشتراك بإبداء رأي مخلص كل الإخلاص، ولك أن تقدّر، في ضوء إخلاصه وفهمك قيمته وصحته».

ثم أورد مجموعة ملاحظات على الأخبار بغية جعلها «أغنى وذات توجيه في وضعها، وحياة في سردها»، مقترحاً إيجاد زاوية للتعليق على الأخبار الدولية، وأخرى لطرائف

الأخبار المحلية والعالمية، والإكثار من المقالات الخاصة والريبورتاجات الطريفة، والأحاديث الفريدة مع صور وجداول. وإعادة زوايا الأدب والسينما والاجتماع والاقتصاد والمرأة وغيرها «بالتداوم». إضافة إلى إصدار عدد أسبوعي خاص كل سبت أو احد ويكون بشكل مجلة صغيرة فيه خلاصة استعراضية لتطور السياسة في أسبوع خارجياً وداخلياً، وما قد يضيق بـ«النهار» اليومي. وتكون فيه قصة روائية، وشعر، وصور، وكاريكاتور، وغير ذلك مما يطالعه الانسان في جوّ الأحد. وسأرسل لك عدداً من «النيويورك تايمس» اليومي والأسبوعي، وإذا كنت تريد مطبعة سأرسل لك من نيويورك كتالوغات لينوتيب عربي ومطابع حديثة مع أسعارها وشروط الشحن، وتفاصيل استعمالها و«نصائحي» الخاصة بعد استشارة من أعرفهم من رجال «الكار» هنا. وأنا وإن لم أكن أدرس الصحافة الآن، فاني أحتك بها وأختبرها بالمراقبة والملاحظة. وقد زرت عدّة مطابع واستعملت اللينوتيب حتماً. وسأرى ما عند ايليا ابو ماضي في «السمير» من جديد في هذا الموضوع، لأن جريدته هي أرقى الجرائد الأميركية بلغة الضاد.

وأنوي بعد انتهائي من الدكتوراه في هارفارد، تمضية فصل في جامعة كولومبيا، ولديهم أحسن مدرسة للصحافة، والاشتغال بـ«التايمس» في شكل من الأشغال. وربما توصلت إلى اتفاق مع «التايمس» لتبادل الأخبار والمقالات وجعل «النهار» أو مكتبها وكيلاً لـ«التايمس» من الناحيتين الإخبارية والتعليقية في الشرق العربي، على أن تنفرد بنشر مقالات «التايمس» المهمة في الوقت نفسه، كما بين بعض جرائد أوروبا «الفيغارو» و«التايمس»، وان نتسلم من «التايمس» أخباراً فريدة في السياستين الدولية والأميركية.

لكن هذا المشروع لا يزال فكرة فقط، في الوقت الحاضر على الأقل» (واستمر فكرة إلى الآن!).

ثم قال: «أنا ضعيف في التعبير عن عواطفي وشعوري، أو في خشيتي التعبير عنها.

لا تدري كم أنا شاكر لك عطفك، ومحبتك. وكم أتمنى أن أكون عند حسن ظنك، وأن أتمكن من الإيفاء بقليل مما أنا مديون به لك. وكل ما بوسعي فعله الآن التأكيد مرة أخرى اني حريص على كل ما تريدني ان أحرص عليه. أن انشيء نفسي لتسلّم الإرث المعنوي والمادي الثمين الذي، لقيمته، يعني مسؤولية كبيرة أسعى لأن أكون جديراً بها، واني «حافظ نفسي لجهاد المستقبل ومسؤولياته»، كما تقول، وبالشكل الذي تريده. وانا أفكّر ملياً بالموضوع، وحتى الآن أثق بأن نصيحتك خير وصحة.

واني أختم رسالتي بشكرك وتقبيلك بحرارة راجياً أن تقصّر الأيام التي بيننا، والأميال، لأعود اليك كما تريدني أن أكون».

السخرية التوينية

وقد ردّ جبران توييني على الرسالة: «ولدي الحبيب غسان. أقبّلك بحرارة وشوق، واسأل الله ان يمدّ في أجلي لأراك معافى، موفقاً، تملأ عيني والديك معنوياً ومادياً فأبلّ حنيني الذي يزيده غيابك حرقة.

طالعت مكتوبك، فكنت ألتهم جمله التهاماً، ثم أتلذذ بإعادة قراءتها جملة جملة، فأكبر فيك المجهود الذي تبذله في تحضير أطروحاتك العديدة، وفي إرسال أطروحة أكبر إلى والديك في وقت يجب ان تخصصه للراحة، راحة البدن وراحة الفكر، ولكن محبتك وحنانك جعلا من وقتك المخصص للراحة فرصة لراحة عواطفك الرقيقة ولإراحتها بالتحدث الينا عما تفعل وعمّا تنوي أن تفعل. بارك الله فيك يا حبيبي غسان، وأدامك تعزية لقلوبنا جميعاً.

(...) أما في ما يتعلّق بآرائك الفنية يا حضرة الأستاذ، فانها جديرة بالاعتبار وقد أخذتها بعين الجدّ بالاتفاق مع وليد بك (شقيق غسان) وسندرس تنفيذ ما يُستطاع منها».

وبعد انقطاع عن الكتابة دام أشهراً، بعث غسان تويني برسالة إلى والده، ثم تلقّى منه جواباً فيه الكثير من العتاب والسخرية المحببة مثل «أشكر الله الذي ألهمك أن تكتب الينا بعدما يئسنا من الاطلاع على أخبارك الا تلغرافياً، فأرجو الا تطيل علينا الغياب مرّة ثانية، لأننا نحبّ أن نقرأ سخافاتك باستمرار».

وإذ استشعر جبران تويني أن ابنه قد اندمج في جوّ أميركا إلى درجة قد تجعله يفكّر في البقاء فيها، بادره بملاحظة عن «طيشه» في موضوع الصحافة وانشغاله عنها بأمور أخرى، وقال له: «إسمح لي بأن الاحظ أنك بعيد عن فكرة الصحافة بُعد الأرض عن السماء، مع أنك سافرت لدرس الصحافة. فقد قلت لي في كتابك أنك اجتمعت إلى صاحبة العصمة وسمعتها تتكلم الانكليزية في حفلة أقيمت لأستاذ في الجامعة الأميركية. فلو كنت صحافياً يا دكتور، (...) أو فرخ الدكتور لذكرت على الأقل اسم الأستاذ، ولخّصت أقوال صاحبة العصمة. وكنت نلت التقدير من أستاذ في الصحافة قبل أن يعطيك الشهادة الأساتذة الرسميون» (لعل هذا الدرس كان من أقسى الدروس وأعمقها في نفس غسان تويني بحيث لا يزال إلى الآن يلفت الصحافيين في «النهار» إلى مثل الخطأ الذي وقع فيه هو، ولا يتردّد عن توبيخهم احياناً تماماً كما فعل والده معه).

ويضيف جبران تويني في رسالته: «(...) ولكن انت معذور، فقد أبهرتك أميركا، كما بهرك الطفر. اما الطفر فآمل ان أشفيك منه بدفعة ثانية (إياك ان تبذّر)، واما اميركا فلا يشفيك منها سوى الحصول على الشهادة القانونية. فاجتهد الا تبحث عن أي تمديد اضافي لإطالة اقامتك فيها. لأني لمحت من خلال رسالتك «ملعنات» ولفّات ودورات أدركت منها بالاستنتاج أن هناك رقماً قد يكون لسنة 1950 موعداً لحضورك. فلا تسنّ اسنانك على إطالة بقائك أكثر من الزمن المحدّد من قبل، وهو سنتان فقط لا غير».

ولم يشأ الأب أن يقسو أكثر على ابنه الذي يحبّ فلاطفه بالقول: «بعد الانتهاء من هذه المقدّمة اسمح لي بأن اتقدم من حضرة فرخ الدكتور – على وزن فرخ الوزير – مهنئاً

بالنجاح بنصف الشهادة (الماجستير) متمنياً أن تصبح قريباً دكتوراً كاملاً، ورجلاً كاملاً. واني مع الماما واخوتك أطبع ونطبع على وجنتيك قبلات التهنئة بنجاحك ولو أنك – لشدّة كبريائك – تعتبره من قبيل الروتين، وتتقبّله بدون مرارة.

ثم أوصيك يا ولدي العزيز بأن تضع نصب عينيك مسؤولياتك الجديدة حتى تتسلّح بها وتستعدّ، فان مستقبلك هو في الجريدة، ومستقبل اخوتك أيضاً، ويجب الا تعتمدوا عليّ لاني «صابح ماسي» كما يقول المثل، وقد بذلت جهدي لتربيتكم وهو رأسمالكم في الحياة، فيجب أن تتعاونوا وأن يتمّم بعضكم بعضاً لتنجحوا. فان أطلت مكوثك في أميركا أضعت على نفسك وعلى «النهار» فرصاً عديدة، واعتقد ان المحصول العلمي الذي تزوّدته أصبح أكثر من الكفاءة لشاب ممتاز مثلك، ويمكنك أن تحصل بعدئذٍ على الشهادات العليا التي تريدها طالما انت الأساس.

وعلى كلّ فهذا بحث لا حاجة لي إلى التوسع فيه، فانت تعلم حالتك، وتقدّر استعدادك أكثر مني، وعندك من العقل – أحياناً – ما يغنيني عن إرشادك».

وكان جبران تويني يدرس في تلك الفترة قبول عرض بتعيينه وزيراً مفوّضاً في الارجنتين والتشيلي والأوروغواي، فأورد في أسفل الرسالة حاشية جاء فيها: «إذا سمعت شيئاً عن تعييني في مشوار إلى اميركا اللاتينية فلا تنقز، لأن ذلك منتظر وسأفيدك عنه».

«السخافات الغالية»

لم ترق غسان تويني طريقة مخاطبة والده له، فبدأ رسالته الجوابية بالآتي: «وصلتني رسالتك اليوم وقد فرحت بها وبرسالة الماما وفؤاد (شقيقه) كثيراً، وقد كنت أترقّب وصولها بشوق كثير، مع العلم أن ما فيها، على ما فيها، على ما قد انتظر، وتدرك طبعاً، جاء مُرّاً (!!!)، وانك ترى اني لا أبخل بسخافاتي الغالية على من يبدي رغبة في قراءتها باستمرار كما تشير. وأطمئنك –

ولعله لا ضرورة – انـي لا انوي مطلقاً البقاء هنا حتى 1950 كما تلمّح انك فهمت من رسالتي، فأنا جاد ومسرع و«معجق» ببرنامجي لأنـي اريد العودة بسرعة. ولكني واثق من أن ما تقوله مجرّد مزاح. ولكن للمسألة وجهة ثانية هي قرارك قبول منصب وزير مفوّض في الأرجنتين. فهل تعتقد أن هذا القرار مناسب؟ ليس ما يخوّلني إبداء رأيي في الموضوع (حتى ولا تخصصي في القانون والعلاقات الانترنسيونية) ولكني أتساءل عن الجريدة، والماما واخوتي وأمور كثيرة. مع ثقتي بانك تدرك تماماً هذه الأمور عند اتخاذ القرارات الخطيرة (...)

انا معجب جداً بحملة «النهار» الموفّقة للغاية حول الوضع الحاضر، فهي على درجة كبيرة من العمق والنضج والصراحة والشدّة والإخلاص المعهودة في صاحب «النهار». وأملي أن أصل إلى درجة من هذه القدرة والموهبة تخولني متابعة جهاد «النهار» كما تقوم به انت. وانـي لمدرك أن تحصيلي العلمي الحالي هو في جل الأهمية لهذا الجهاد، كما هو مهمّ لإفهامي مبادئ الأمور الأولى وحقائقها الأخيرة، فهماً يتعدّى القبول السلبي بالمعطيات مما اشعر أن فيّ دافعاً عقلياً ونفسياً وموهبة لإدراكه. ولا أظن أني بعيد عن الصحافة كما تقول، انما انا تعب فقط، أو كنت كذلك حين زيارة فخامتها، وعلى وشك أن أكون كذلك قريباً لأني أقوم بمجهود كبير وموجّه توجيهاً معيّناً، ولكني آمل أن أتحف «النهار» بمقال لائق بها قريباً جداً. وربما قررت كتابته الليلة (الساعة الآن الأولى صباحاً). وانتظر أن يكون لي فراغ في عطلة الأسبوع. وعليّ تحضير خطاب ألقيه في الراديو يوم الأحد عن أحوال البلاد، وهو حلقة من سلسلة خطب، وقد تأخرت هذه الحلقة بسبب تأجيلي إياها لانصرافي إلى الامتحانات والأطروحات وما إلى ذلك».

جوز ولوز وكحل...

وتلطيفاً للجوّ بينهما، طلب غسان تويني من والده ان يرسل اليه طرداً فيه كشك وزعتر وسماق وبن عدني وعرق بلابان زحلاوي وحلاوة بطحينة مع الجوز واللوز و...كحل للعينين «مع الامتناع من فضلكم عن الاستفهام عن الاتجاه والسبب الموجب!...».

وفي رسالته الأخيرة إلى والده المؤرخة مساء السبت أول تشرين الثاني/نوفمبر، أي قبل ايام من وفاته (في 12 تشرين الثاني/نوفمبر 1947)، والتي لم يتسنَّ لجبران تويني قراءتها، تحدث غسان تويني عن مشاريعه الشخصية في العمل والزواج (ربما من أجنبية) مما يوحي رغبة في الابتعاد عن الصحافة واتجاهاً إلى التعليم والدبلوماسية.

وأشار إلى أن إقامته في نيويورك بدت له «كأنها عطلة طويلة أخذتها. غير أنها في الواقع، فوق كونها اختباراً مغنياً، مناسبة لدعكي في الحياة العملية وبالتالي لإيقاظي – إن لَزِمَني إيقاظ – إلى أن عهد الدراسة قد قارب ينتهي، وإلى ان أمامي حقل الحياة الذي تؤخذ فيه وبشأنه القرارات المسؤولة والخطى الحيوية».

ووصل به التفكير في المستقبل إلى حدّ التشكيك في أهليته للصحافة.

وقال لوالده: «تجول في فكري الآن باستمرار، وهذا طبيعي، مسألة مصيري في المستقبل. مسألة كيف ارتّب حياتي، وماذا سأفعل بها (...) حتى الآن حلّيت المسألة بشيء من الاتكالية السهلة، فكنت اعتبر أن من المفروغ منه اني سأعود فأجد كل شيء على ابسط ما ينتظر ويشاء. أتسلم الجريدة وأحسّنها وأعيش بسلام الخ... وكما تعلم، مرّات عدّة جالت في خاطري شكوك حول اهليتي للصحافة، أو حول كون الصحافة اصلح شيء لي، وغير ذلك. وكثيراً ما اعتقدت ان المسألة تحلّ بان أنشىء مجلة ادبية أو أدرّس جزءاً من وقتي. ولعل ذلك لا يزال الحلّ الصحيح».

وينهي بأمل أن يقدّر والده وضعه ويفهم كيف «تجول الأمور» في نفسه، وإن يكن الكثير منها على غير ما كان يريده، سائلاً والده «ان تنصحني وتبدي رأيك كما عهدتك واتّكلت عليك في الماضي».

غسان تويني في «النهار»

وبوفاة جبران تويني تبددت أحلام غسان تويني بأن يصبح استاذاً جامعياً، ويؤسس مجلة أدبية تتجاوب مع مواهبه الأدبية، الشعرية والمسرحية. فعاد إلى لبنان ليواجه مسؤولية تأمين استمرار «النهار» وبقائها، في عالم الفقر والطفر.

ويقول في ذلك: «لما عدْت من أميركا، بعد وفاة والدي، دهمنا العيد الكبير، أي الفصح، وليس في «الخزانة» ثمن ما نصنع منه «شوربة العيد»، فاستدنت من ابن عمّي اندريه تويني مدير المالية آنذاك، خمساً وعشرين ليرة حتى لا يتغيّر شيء على أمّي واخوتي الصغار».

وأضاف: «لقد ظلّ شعاري طويلاً قول الامام علي «الدَين هَمّ في الليل وذلّ في النهار». وكان الهاجس الأول لغسان تويني» أن تعود «نهار» جبران تويني الجريدة الأولى. ولا يضيرني أبداً القول أن «النهار» لم تكن دائماً الأولى، أو لم اتمكن من أن أبقيها الأولى دائما». مشيراً إلى العيش في ظلّ أبيه، «ثم بين ذكرياته يجعلني أشعر باستمرار كأني ملزم، كلما حملت القلم، أن أكتب لرضاه أولاً، وكأنه لا يزال، حيث هو، القارئ الأول، بل معيار القراءة.

ولا أخالني في ذلك موضع استغراب او ملامة. فقد كان جبران تويني الأب في نظري وفي الواقع أفضل أب. وكابن ورث صحيفة، ولا خجل، أقول انني ورثت منه فقط الحبر والورق، ولا مال».

ولقد أدرك غسان تويني انه فَقَدَ بوفاة والده خادماً للشعب ومرشداً، قبل أن يصبح قائداً له.

وقد التزم المبادئ التي قامت عليها «النهار» وأعلنها جبران تويني في العدد الأول الذي صدر من الجريدة صباح 4 آب/أغسطس 1933، وفيها، «أودّ أن أنشيء جريدة لبنانية عربية، تدافع عن لبنان واستقلاله وكيانه، لا طائفية، مع الرابطة الوطنية لا المذهبية، غير متعصّبة،

منفتحة على القضايا العالمية، من غير أن يؤثّر ذلك على شخصيتها الوطنية والتراث العربي. ديمقراطية، تحارب الاستبداد، وتزاول الحرية ضمن حدود السلطة الوطنية، أي احترام القانون للمحافظة على كيان يريد البقاء حرّاً، وتحترم كل الآراء ما دامت لا تعارض النظام العام. غير حزبية، لا تتحمس للتنظيمات الطائفية، وتُقاس مواقفها من الحكّام على أساس إخلاصهم للبنان واستقلاله وعروبته».

وفي ردّ على سؤال طرحه صاحب «النهار» على نفسه خلال محاضرة ألقاها في الجامعة الأميركية في بيروت عام 1938، ويعود اليها غسان تويني دائماً وكان موضوعها «الصحافة حرفتي، فكيف أخدم بها وطني» قال: «إن على الصحافي أن يُدافع عن استقلال وطنه، وعن الحياة الدستورية فيه، لأن الحكم الدستوري هو الوسيلة الوحيدة للدفاع عن الحريات. إلى التزام سياسي آخر بأن يحافظ على استقلاله الشخصي وكرامته الذاتية. استقلاله ربما حتى عن صاحب الصحيفة التي يعمل فيها، واهتمامه بأخلاقه الشخصية. فإذا لم يتمتع بالأخلاق الحميدة لا يستطيع أن يخدم قضايا مهمة».

والتزم جبران تويني هذه المبادئ وثبت عليها لأن الثبات على المبدأ هو ما يطلبه القرّاء من الصحافي للاعتراف بدوره القيادي والسير وراءه كمرشد لهم.

وقبل أن تدخل «النهار» سنتها الرابعة عام 1936 خاطب جبران تويني قرّاء «النهار» بالآتي: «أعود لأقول لكم أني ما زلت على العهد الذي التزمته تجاهكم ولم أغيّر، واني ثابت على هذا المبدأ. أنا ملتزم أن تكون الجريدة صوت الناس ومنبرهم لتحقيق أمانيهم والدفاع عن القضايا العامة لا الخاصة، وان الهدف الأسمى هو تحقيق استقلال البلاد ونَيلها قرارها الحرّ، وانها ستسلك الاعتدال في هذا الاتجاه، وتحاول إقناع الحكّام أكثر من إثارة الفِتَن، وتمتنع عن استغلال شهوات الجمهور لأن الصحافي مرشد الجمهور، ولا يجوز أن يسير الجمهور خلفه فيما هو يستغلّ اندفاعه وصدقه وحماسته، وثقة الجمهور بالصحافة غالية جدا».

وقد عاهد غسان تويني القرّاء في «بيان وعهد» يوم تولّى رئاسة التحرير الثلثاء 6 كانون الثاني/يناير 1948 بأن تبقى «النهار» وفيّة لمؤسسها جبران تويني ولـ«المبادئ التي عمل بموجبها وقد تبنيناها وجعلنا منها دستوراً نتمشى عليه لنظلّ أمناء لذكرى جبران تويني ولنترسم خطاه في خدمة الوطن. وعلى هذا الأساس تُعاهد «النهار» قرّاءها على جعل جريدتهم لساناً للحق وسيفاً مصلتاً في وجه الباطل، ودعامة للحكم الصالح، ومعولاً لهدم الحكم الفاسد».

وهكذا انطلق غسان تويني متابعاً رسالة والده، ساعياً إلى تأمين استقلال «النهار» على النحو الذي شهده في «النيويورك تايمس» حيث استقلالية الصحافية، حتى عن أصحابها، هي ضمان حريتها. وان الصحف الشبعانة وحدها تستطيع أن تكون حرّة، تنفق هي على أصاحبها ولا ينفق أصحابها عليها.

وعاملاً كذلك على توسيع قاعدة قرّائها، على أساس أن صحيفة القلّة أو النخبة تبقى أسيرة لهذه القلّة، في حين أن صحيفة الكثرة أكثر حرّية، لأنها أكثر مسؤولية.

.. وانطلق القائد الشاب مضيفاً إلى وظيفته الصحافية، الالهام. وانخرط في الحياة السياسية وصار نائباً في البرلمان، وشارك في إسقاط الرئيس الشيخ بشارة الخوري من خلال «الجبهة الاشتراكية الوطنية» إلى جانب الزعيم كمال جنبلاط وكميل شمعون.

وعمل على تطوير «النهار» في ضوء ما اقترحه على والده من أميركا، فحوّل الجريدة من ظهرية إلى صباحية، وجعل الديك شعاراً لها، كما رفع عدد الصفحات من أربع إلى ثمان تحت شعار «جريدتان في جريدة واحدة»، وأدخل الانترتيب في التنضيد والروتاتيف في الطباعة، مما دفع «النهار» إلى مقدّم الصحف اللبنانية، تمهيداً لجعلها الصحيفة الأولى توزيعاً واعلانات، تربح وتعيّش أصحابها الطفرانين!

مفهوم التصنيع عند تويني

وما كان ليتحقق ذلك لـ«النهار» لولا دخولها عالم التصنيع، منتقلة من الانترتيب إلى التنضيد التصويري الذي مهّد للثورة التكنولوجية الكبرى في عالم الاتصالات حيث سادت التكنولوجيا الرقمية وأساليب معالجة المعلومات.

وكانت الخطوة الأولى في التصنيع إنشاء التعاونية الصحافية ش.م.ل. كشركة مساهمة شاءها غسان تويني «خطوة أولى في طريق رفع الصحافة اللبنانية إلى المستوى المهيأ لها».

وما لبثت التعاونية الصحافية أن أصبحت أكبر شركة طباعة وخدمات صحافية في لبنان والمنطقة «مهيأة لانتاج صحف عدّة وتوزيعها وادارتها، بحيث لا يبقى لـ«النهار» نفسها، بعدما أصبحت شركة مستقلة (برأس مال 500 ألف ليرة لبنانية مقابل 40 مليار ليرة حالياً) غير همّ التحرير».

وكان أطلق «النهار» خريف 1955 جريدة من ثماني صفحات وتبويب جديد. الا أن المرحلة المهمة في عملية التطوير انطلقت عام 1963 مع انتقال «النهار» إلى المبنى الجديد في شارع الحمراء، وتزودها آلة طباعة أوفست حديثة باربعة ألوان وبسرعة 18 ألف نسخة في الساعة. وقد مكّنت هذه الآلة المعروفة بـ«كولور كينغ» وتعتمد الـ«ويب أوفست» ولا تزال عاملة إلى الآن، «النهار» من الصدور بـ 12 و 16 صفحة، مع ملحق يومي بالألوان أثار ضجة كبيرة في الأوساط الصحافية، رافقها ضغط من أصحاب الصحف الأخرى على نقابة الصحافة لإجبار«النهار» على رفع سعر النسخة اليومية من 25 قرشاً إلى 35 قرشاً الأمر الذي رفضه غسان تويني، فكان أن أوقف الملحق اليومي ليُصدر عدداً ليوم الأحد شبيهاً بعدد «النيويورك تايمس». وهكذا أصبحت للقارئ طبعة خاصة آخر الأسبوع، فيها الجريدة كاملة ومعها مجموعة من الملاحق بالألوان: «الملحق» للثقافة والفنون، «نهار الرياضة

والتسلية»، «النهار الاقتصادي والمالي»، ثم «النهار الانمائي»، وبعد عقود «نهار الشباب»، و«النهار الرياضي».

وشرح غسان تويني عام 1963 مفهومه للتصنيع بالآتي: «ان هذه الخطوة تعني، بالأرقام، أن تستخدم الجريدة مطابع قيمتها مليون ليرة، مثلاً، من غير أن تضطر لامتلاكها.

وان تكون الادارة ادارات وأقساماً وفروعاً، تدرس وتحصي وتروّج وتخطط، وتنظّم، وكأنها، بتجهيزها، آلة كبيرة، بدل المحاسب العتيق الذي كان جالساً خلف نظارتيه يحسب بالقلم الرصاص غلّة فتات التحرير.

والتصنيع كذلك، وبنوع أخصّ، ان يرتفع عدد المحررين الأربعة إلى أربعين ويزيد... يصنعون للقارئ جريدة حيّة، متحركة وكاملة.

ويعني التصنيع ايضاً أنباء صادقة، سريعة ومؤكدة. تحييها الصورة، أفقها أشمل من المحليات والبرقيات العادية التي كانت تضيّق على لبنان عالمه، فتنبئه بأفضل ما يحدث وأسوأ ما يحدث. وتكشف له، في آن واحد، الخطير والرفيع والطريف.

ويعني التصنيع أيضاً مقالات تُجاوب أسمى ما في نفس القارئ، تترفّع عن الحزبيات والمهاترات، وتبلور للقارئ رأيه، ولا تفرض عليه رأيها. تحلل له الوقائع، وتعرّفه إلى الحقائق البواطن، وتدلّه على المواقف الحق. تدافع مع القارئ وتجاهه عن حقوقه كمواطن، ومصالحه وحرياته واستقلال بلاده.

ويعني التصنيع تالياً اخراجاً يصوغ مواد الجريدة دون غرض أو هوى، ويُعَنوِنها دون تضخيم أو تهويل. يساير الفنّ المتقدم كل يوم، ولكن دون خروج على

«التقليد»، فتتقدّم الجريدة من القارئ ملأى، جميلة، سهلة، جديدة كل نهار، ولكنها في شخصيتها ذاتها.

ولأن القارئ يتبنى الجريدة كما هي، ولا يريدها أت تتغيّر، فهو بالنسبة اليها كائن حيّ، وإن في زيّ عملاق عجيب له عقل خاص، وقلب خاص وأطوار خاصة. وله عادات يتمسك بها حتى تكاد تتحجّر.

وأصعب ما في مصاحبة هذا الانسان الغريب، بل معاشرته والتعامل معه، أنه كان ككل كائن مركّب، ذو آراء متضاربة، واحساسات متنافرة، وأذواق متفاوتة».

وكان أسهل بكثير أن تخاطب «النهار» قارئ جبران تويني عام 1933 من أن تخاطب قارئ غسان، قارئاً أضخم.

وفي اقتصاديات الصحف المرتبطة ارتباطاً عضوياً بالتصنيع الذي تصوّره غسان تويني أكثر من آلة ضخمة تطبع لمئات ألوف القرّاء، وتحوّل الجريدة وحشاً ضخماً ورهيباً، يقول: «حتى وقت قريب كانت الصحافة اللبنانية صحفاً ينفق عليها أصحابها، معرّضة لأن تتوقف عندما يتوقفون هم عن الانفاق عليها لشحّ في مواردهم الخاصة، أو لزوال الموارد، أو زوال موارد الموارد... ناهيك بزوال الصحافي نفسه الذي كان هو نفسه صاحب الجريدة ومديرها ورئيسها ومحررها الأول وربما الأخير...

فأي شيء غير التصنيع يطلق الصحافة من عقال أصحابها، فتتمكن هي من الانفاق عليهم بدل أن تظلّ مسترهنة لانفاقهم هم عليها. ذلك أن الصحافة التي ينفق عليها أصحابها لا تكون حرّة الا بنسبة ما يكونون هم أحراراً.

اما الصحافة التي تنفق هي على أصحابها فتكون ربيبة الحرية، متينة، مكينة، لأنها تتخلّص من الروابط المادية التي يمكن أن تعوق حريّة الرأي: ويكسبها الرواج مناعة لأنها تتحصّن بسعة الانتشار: كثرة القرّاء يؤلفون جسمها الحقيقي، والاعلان يتهافت عليها لحاجته اليها، فيطلبها بمقدار ما تطلبه هي وأكثر، تفيده فلا يتحكّم بها، لأن مصلحته ومصلحة صاحبه هما في رواج الصحيفة التي تحمله.

ذلك أن الحرية الصحافية ليست غير بقية حريات الانسان. وأي انسان مهما يكن تَوقه إلى الحرية ملحّاً، وايمانه بها قوياً، يقدر أن يمارس حريّته، ويتصرّف بارادته، إذا كانت ارادته مكبّلة بالمادة، محتاجة، جائعة؟».

الصحيفة القائدة

وقد أرسى غسان تويني، في هذه الأسس التي وضعها للتصنيع، دعائم المؤسسة – القائدة التي «تكبر ولكنها لا تشيخ»، وتستمرّ زمناً طويلاً بعد غياب أصحابها.

ويقول الخبير في موضوع القيادة في الصحافة جيم مان، في بحث مهم حول هذا الموضوع، أن «القيادة هي القوة الحقيقية للصحافة». وأعطى أمثلة على استمرار مطبوعات مهمّة مثل «النيويورك تايمس» و«تايم» و«فوربس» و«الريدرز دايجست» بعد غياب ادولف اوكسيس، وهنري لوس، ومالكولم فوربس، ودي ويت والاس.

وأكّد: «ان المطبوعة لا تعود في حاجة إلى قائد شخصي عندما تصبح مؤسسة يرى فيها عقل القارئ شخصية لها آراؤها، ومواقفها، وتحمل مسؤولياتها. وإذذاك تصبح المطبوعة أكثر قوّة وتأثيراً من أي محرر فيها».

ويستشهد جيم مان بقول لفوربس جاء فيه: «قبل أن يتوجّه المحررون إلى عقول

قرّائهم، يجب أن يتعلّموا التفكير كأنهم يقرأون ما في عقول قرّائهم، وكيف يفكر هؤلاء».

أغرب استثمار

وكان التحدّي الذي واجهه غسان تويني بعد الانتقال بـ«النهار» من الطور الحرفي إلى الطور الصناعي، أن يقنع المساهمين بمتابعة الاستثمار في نوع غريب من التوظيف، هو الحرّية.

ولعل نجاحه في هذا المجال قد جعله يَطمَئِن إلى استمرار «النهار»، وفيّة لرسالة مؤسسها جبران تويني، علماً أن الذين وثقوا بابن جبران، في بداية المطاف من محررين وعمّال طباعة وأصدقاء وعملاء مهنيّين (مصرفيّون ورجال أعمال وتجّار حبر وورق الخ...)، إلى جانب أفراد العائلة، فتنازلوا له عن تعويضاتهم (المحررون)، وأمدّوه بالمال اللازم – ما لبثوا أن تسابقوا على متابعة المغامرة معه دون أن يعوّلوا على عائدات لأموالهم. وقد تدرّجت أرقام رأس المال من 500 ألف ليرة يوم تأسيس شركة «النهار» التوصية المساهمة عام 1958، إلى آخر زيادة تحققت أخيراً ورفعت رأس المال الجريدة التي لا تملك أي وسيلة من وسائل إنتاجها، إلى قرابة 40 مليار ليرة.

ودرج غسان تويني على مخاطبة المساهمين في «النهار» والمستثمرين في الحرية، أغرب أنواع التوظيف في العالم، من خلال تقاريره السنوية اليهم والتي كانت تقسم جزءين، الأول يتعلّق بأوضاع الحريات ونضالات «النهار» من أجلها، والثاني للحسابات وأرقام الأعمال. وأطلق على هذه العملية الشراكة بين الحرية والحبر والورق.

وجاء في تقريره عن أعمال سنة 1967: «في 4 آب/أغسطس 1933 أصدر جبران تويني العدد الأول من «النهار» برأس مال مقداره خمسون ليرة ذهباً، بعضها كان دَيناً من الأصدقاء فأعيد، وبعضها كان هبة ممن لم يبح باسمه حتى لا يسترِدّ دَينه ولو عرفاناً بدل الجميل. وقد

أصبح رأس مال «النهار» نصف مليون ليرة، والمالكون أنتم، أول شركة صحافية من نوعها، استبقت الكثير من المفاهيم الاقتصادية المعاصرة، في محاولة فذّة لجعل ملكية الجريدة شراكة بين أصحابها الأصليين ومحرريها والمتعاملين معها، فضلاً عن الأصدقاء.

ومع أسهم «النهار» ش.ت.م.ل. قابلة للتداول، فان نظام الشركة قد صيغ بحيث تظلّ سياسة الجريدة في منأى عن تقلّبات الأسهَم وتبدّل المساهمين».

القارئ الملك المالك

وأشار إلى أن «النهار» التي «كانت تطبع عام 1933 ألف نسخة يومياً، قد ضربت أرقاماً قياسية في الطباعة والتوزيع: 68,826 نسخة في 8 نيسان/أبريل 1968، فبلغت مستوى من الانتشار يجعلها بالفعل ما أراد مؤسسها أن تصبح، عندما تمنّى، في إعلان الصدور «أن تكون «النهار» عند ثقة قرّائها – انهم عندئذ يزيدونها إقبالاً فتزيدهم هي تحسينا». وها هي الأرقام تثبت، فوق كل إثبات»، ان «النهار» هي جريدة القارئ أولاً وأخيراً، وان دخلها منه، أي من المبيع، يفوق دخلها من الإعلانات على ضخامته اليوم بالنسبة إلى بقية الصحف (...) وفي هذا شهادة بأن القارئ يطمَئِن إلى أخبارنا ويثق برأينا، وبأن صناعة الصحافة تظلّ كما نردّد معكم كل عام، «صناعة إنسان» سرّ نجاحها الجهد الصحافي المسؤول، ورفعة التحرير، رأياً وخبرا».

ومع تحولّها واحداً من مراكز القرار في البلاد، لعبت «النهار» دوراً حاسماً في المعركة الرئاسية عام 1970 كما ورد في تقرير غسان تويني إلى المساهمين ذلك العام: «ان القرار الذي اتخذته «النهار» واتخذه صحافيّوها بخصوص المعركة، كان مردّه إلى اقتناعنا جميعاً بأن مصيرنا كجريدة حرّة، إن من حيث الممارسة المهنية، أو من حيث الحرية الاقتصادية، مرتبط إلى حدّ بعيد بمصير الحريات الديمقراطية التي دارت حولها انتخابات الرئاسة.

وإذا كانت الحريات الديمقراطية قد انتصرت قضيتها بمجيء العهد الجديد، فان انتصار «النهار» كان مزدوجاً، لأنه كرّس كذلك دورها الفذّ وعلاقاتها الفذّة بقرّائها: فهي من جهة أثبتت انها تعبّر عن رأيهم تعبيراً حقيقياً، كما أثبتت من الجهة الأخرى انها تمثّل قوّة كبيرة تؤهلها لأن تضطلع بدور كبير في الرأي العام».

شخصية «النهار» الفذّة

ومع ظهور «النهار» مظهر «الوحش» الذي يفوق الدولة قوة، وكذلك تحوّل الصحافي غسان تويني «وحشاً هو الآخر بالمعنى الهوليوودي الذي يُخفي الإنسان فيه»، وخصوصاً أن ثمة خوفاً، على ما يرى غسان تويني، «ان تصبح الصحافة مُمَكنَنَة إلى درجة يختفي فيها الإنسان نهائيا»، وهو القائل «ان الصحافي وحش. وهذه حقيقة. الصحافي الحقيقي، وصار عندنا نادراً، رأسه يكون مثل الكرة الأرضية، ويستوعب كل 24 ساعة كل ما يحصل في العالم. ويقدر أن يعي كل ذلك ويعود ويفلشه على عدد من الصفحات. أليس هذا وحشاً؟».

ومع ظهور «النهار» وغسان تويني مظهر الوحش، فتحت الدولة معهما معركة متعددة الجانب من سَجِن لغسان تويني وملاحقة لـ«النهار»، إلى وضع عبوة ناسفة في مدخلها كاد انفجارها أن يقضي على العاملين فيها، فالى اختطاف ميشال ابو جوده أحد كتّابها الكبار إلى سوريا، فشنّ حرب إعلانات عليها بقصد اغتيالها اقتصادياً، فإلى التضييق عليها بإحياء مشروع مراقبة مداخيل الصحف...

وانتهت تلك الحروب بعودة ميشال ابو جوده من سوريا، ودخول غسان تويني الحكومة، بعدما اطمأن إلى سلامة وضع «النهار»، وقوة شخصيتها التي اختصرها في «مفكرة عمل» وجهها إلى هيئة التحرير في 24 تشرين الأول/أكتوبر 1970 إثر قرار دخوله الحكومة. ومما جاء فيها: «المرحلة التي تقبِل عليها «النهار» بمناسبة وجودي في الوزارة، تستوجب

توضيحاً لسياسة الجريدة يسجّل المبادئ العامة التي كنا نعمل بموجبها كأنها دستور حيّ، غير مكتوب، نجتمع على الإيمان به وبمعرفته، نقيس به الأحداث والمواقف، نقوّم الآراء، نقرر التوجيه، من غير ما حاجة في غالب الأحيان، إلى أكثر من مشاورة عابرة.

هذا الشعار لخّصته «النهار» في أكثر من مناسبة بشعار «الرأي الحرّ والنبأ الأكيد». وانطلاقاً من هذا الشعار كانت «النهار» تأخذ هويتها وطابعها تدريجاً، مع نموّها، حتى أصبحت لها الشخصية التي يهمّنا جميعاً، في هذا الظرف أكثر من سواه، الحفاظ عليها وتعزيزها».

ووصف هذه الشخصية بالآتي:

– أولاً: انها ضمير الرأي العام. وهي مسؤولة دائماً تجاهه وعنه.

– ثانياً: ان صاحبها الحقيقي هو القارئ، فهي إذاً في تعاقد معه دون سواه.

– ثالثاً: تعكس تيارات الرأي في البلد، وتقيم بينها وبين تيارات الرأي هذه تفاعلاً توجيهياً إيجابياً.

– رابعاً: تغطي الخبر من جميع نواحيه، وتفسح لجميع وجهات النظر في مجال التعبير عن نفسها، على أن يبقى لـ«النهار» رأيها الخاص المكوّن على أساس الوقائع والمبادئ في آن واحد.

– خامساً: ان رأي «النهار» المعبّر عنه في مواقفها العامة، لا يعني أن تكون جميع الآراء المنشورة فيها، وبالتحديد جميع المقالات الموقعة من كتّابها أو من كتّاب ضيوف، نسخاً طبق الأصل عن رأي واحد.

ويسأل مطمَئناً إلى المستقبل: «بوجود رئيس تحرير «النهار» في الوزارة، ماذا يترتب من تغيير على ميثاق «النهار» مع قرّائها ودستور تصرّف محرريها وحياتهم؟».

ويجيب: «لا شيء... أو هكذا يجب. فصيت «النهار» انها جريدة قادرة على الصدور وحدها، حتى وإن غاب جميع المحررين!».

وبقيت فكرة «الوحش» في ذهن غسان تويني، هاجساً مقلقاً إلى أن بلورها في حديث ألقاه في يوغوسلافيا في إطار حلقة دراسية دولية حول الإعلام المقارن نظمتها جامعة ولاية ميشيغن في تموز/يوليو 1971 وشاركت فيها «النهار».

وقد أنسن الوحش الأسطوري Leviathan وجعله ضماناً لاستمرار «النهار» ومعها الصحافة الحرّة.

ولقد أظهر له تحليله لتطور الصحافة، أن هذه «بدأت كتعبير عن الحرّية، ثم تحوّلت أداة للدفاع عنها، وخصوصاً بعد ولادة الجماهير، وحيث لم تَعُد القراءة حكراً على أقليّة». وقد أصبحت الصحافة هنا «حاضرة ناضرة»، كما يُقال، «للدفاع عن الحرّية كلما تعرّضت هذه للتهديد».

وبعدما كانت الصحافة واسطة لنقل الأفكار المجرّدة، فانها باتت تواجه حقائق ملموسة. وهي حقائق لم تَعُد الصحافة تعكسها، بل أصبحت تستخدمها كمصدر لقوتها، مادة حيوية لبقائها واستمرارها. وهنا أصبحت الحرية تقليداً، وحقيقة تاريخية، ومؤسسة تمثلها الصحافة.

وبدت الصحافة في هذا الطور قويّة جداً، وضعيفة جداً في آنٍ واحد. إذ إن قوتها أطلقت تياراً من الرأي العام تصعب مقاومته»، لأنه يشبه الوحش الأسطوري الذي تحدّث عنه غسان تويني.

كذلك بدا له ان على الصحافة التي أوجدت هذا «الوحش» وفرضته على الآخرين كمطلب وطني، عليها أن تتقبله وتؤنسنه في إطار مخرج للصحافة من «أزمة الحرية».

وفي هذه المرحلة لم تعد المواجهة بين الصحافة، كمدافعة عن الحرية، وديكتاتور في شكل وحش، بل بين الصحافة ووليدها «المتوحّش» الذي لا علاج له الا باستقلالية الصحافة، ووضعها في خدمة التقدّم والتنمية على أساس «ان لا تقدّم حيث لا حرّية في التفكير والمعرفة والعمل». وأوضح «ان التنمية ليست قيمة مطلقة، ولا هي هدف في ذاتها، بل هي سيرورة هدفها النهائي والأسمى إقامة مجتمع أفضل. وبمقدار ما تكون لدينا حريّة يكون لدينا مجتمع أفضل، نظراً إلى ان استقلال الأمم لا يمكن فصله عن حريات مواطنيه».

وقال إن هذا الأمر يتحقق من خلال الآتي، وهو الوصية الأخيرة لغسان تويني إلى الصحافة اللبنانية:

1- إيجاد تقليد في الحريات عريق ومتجذّر في وجدان الأمة، يوفّر تفاعلا مستمراً بين الصحافة وجمهورها.

2- قدرة الصحافة على توليد تصور للتنمية، وان تطلق حول هذا التصور تيارات في الرأي العام من شأنها ليس مساءلة التنمية فحسب، بل بالعكس إقامة مرجعية عامة تصبح فيها كل الخيارات مشروعة، وكذلك الانتقاد والمحاسبة.

3- إحساس بالمسؤولية المهنية والوطنية على السواء، من شأنه أن يساعد الصحافة على ان تنظم نفسها وتضبطها بحرية على نحو يُغني الحكومات عن فرض رقابة على المعلومات أو توجيهها مباشرة.

4- إيجاد تنويع في الأخبار والمواقف التي من شأنها التشجيع على الحوار، وإقامة قانون للإقناع في المجالات التي تلجأ فيها الحكومات إلى الفرض والإكراه.

وقال غسان تويني «ان الصحافة، بانجازها هذه الشروط، تكون قد حافظت على ديناميتها وعلى طابعها الخلاّق، كما تحاشت التحجّر في دورها كمدافعة عن الحرّية، وهو دور سرعان ما يصبح ساكناً ويجنح إلى السلبية».

وهو كان رسم صورة الصحافي الخارج من الوحش إلى التاريخ، في محاضرة ألقاها في الكويت في 3 شباط/فبراير 1970، فقال: «(...) القرّاء يظنون الصحافي شيئاً غريباً، فيه من الوحش ومن الآلة في آنٍ معاً. إنسان من ورق، دمه من حبر. عليه أن يعرف كل شيء، ما يُعرَف وما لا يُعرَف على حدّ سواء. ومنتظر منه أن يقول كل شيء. ما يُقال وما لا يُقال على حدّ سواء كذلك.

وفي علاقة الصحافي بالقارئ، تمتزج المحبة بالحقد، كما في القلب الواحد، والثقة بالنقمة كما في العقل الواحد، بحيث لا يعود الصحافي يعرف إذا كان قارئه سواه، ويصبح القارئ يظنّ انه هو الصحافي لو كان يكتب».

يبقى سؤال: هل يستحق هذا «المستحق» للتاريخ، ما رمته به الأيام، كأنها القضاء والقدر حيث لا عقل يعقل ولا قلب يرحم، من فقدان الابنة في عزّ صباها ثم الزوجة الشاعرة الكبيرة، فالابن الأصغر المتقد ذكاء، فالابن البكر الأمل الكبير، في مجموعة فواجع لم يواجه مثلها إنسان على وجه هذه الأرض؟

... ويبقى غسان تويني مؤمناً، يعفو عن قتلة ابنه الشهيد جبران، رافضاً الأخذ بالثأر، متمسّكاً بالرجاء على طريقة الرُسُل والأنبياء.

دور «النهار» وأثرها في الصحافة المقيمة والمهاجرة

بقلم مسعود ضاهر

في 29 كانون الأول/ديسمبر 2005، نشر عميد الصحافة اللبنانية الأستاذ غسان تويني مقالة بعنوان: «من جبران تويني... إلى جبران تويني». غسان تويني هو واسطة العقد بين الأب المؤسس الذي مات دفاعاً عن لبنان والعروبة، وولده الشهيد جبران التويني، مدير عام «النهار»، والنائب في البرلمان اللبناني والصحافي الجريء. وقد قضى شهيداً في 11 كانون الأول/ديسمبر 2005، دفاعاً عن استقلال لبنان وسيادته. ومناسبة المقالة أن جبران الجد كان يلقي خطابه الأخير دون أن يكمله إذ هوى على المنبر. فقدم غسان تويني لذلك الخطاب بالكلمات التالية: «عام 1947 كان جبران تويني سفيراً للبنان في الارجنتين، وقد أقامت له الجالية حفلة تكريمية في 13 نيسان/أبريل في بيونس أيرس شارك فيها أبناء جاليات سوريا ومصر وفلسطين. وألقى تويني خطاباً ركّز فيه على نضال اللبنانيين في الوطن والاغتراب من أجل «حقهم السليب» في الاستقلال، إلى أن أخذوه «من يد الغاصب، اخذ عزيز مقتدر، شأن كل امة تغتنم الفرص لتحقيق هدفها في الاستقلال». وأضاف بأن لبنان تفاهم «مع اخوانه وجيرانه، على أن يحترم كل منهم استقلال الآخر». كما وقف نفسه «على خدمة نفسه وخدمة اخوانه العرب». وأشار إلى أن «الاجيال لم تتمكن من ابتلاع لبنان، بل وقف في وجه الزوابع يقاومها ويدافع عن كيانه» فلبنان قد اختار لنفسه «الحرية والسماحة»، و«دفن سموم التعصب الطائفي»، داعياً «لسوريا الشقيقة بدوام الازدهار، ولمصر الكريمة ببلوغ كامل أمانيها، ولفلسطين العزيزة بزوال محنتها وانكشاف غمتها، حتى اذا نالت استقلالها، إن شاء الله، شاركناها الافراح، كما نشاطرها الاتراح». واذ تعيد «النهار» اليوم نشر خطاب جبران المؤسس في المكان الذي كانت تنشر فيه مقالات جبران الحفيد، وفي النهار نفسه، فلتؤكد على أن المبادئ التي سار عليها جبران الجد قد استشهد من اجلها جبران الحفيد، وستبقى تراثاً تلتزمه «النهار» على الدوام».

إنها لعبرة بليغة في مسيرة «النهار» المستمرة منذ عام 1933، وقد شكلت مدرسة رائدة في الصحافة الحرة في لبنان والعالم العربي. وانطلاقاً من هذا النص الثقافي الرائع يمكن دراسة مسيرة «النهار» المستمرة منذ 73 عاماً، والتي تميزت بكثير من الثوابت الفكرية، والخلقية، والإنسانية، بموازاة عناصر التغيير الإداري، والفني، والتقني، الذي دأبت عليه «النهار».

وساهم تفاعل هذين العاملين بصورة خلاقة في إبقاء «النهار» في موقع الريادة الدائم في طليعة الصحافة اللبنانية والعربية.

سيرة رائد عصامي عاشق للصحافة

في عام 1973، نشر غسان تويني كتاباً وثائقياً مهماً بعنوان: «جبران تويني بعد 25 سنة»، يروي حكاية أبيه بكثير من الدقة والموضوعية. فصورة الأب في ذاكرة الابن نقية. وهو ينظر بكثير من الإعجاب والتقدير لهذا المناضل الذي بنى نفسه بنفسه، وترك لأبنائه ذكراً عاطراً، وأسس في موطنه موقعاً ثابتاً ومتقدماً للصحافة الحرة.

تبدأ مسيرة هذا العصامي عام 1901 مع ولد في الحادية عشرة من عمره، كان يبيع الصحف على ساحة البرج في مدينة بيروت. كان البائع الصغير هو جبران التويني، ابن إندراوس تويني، بائع حلو «المعلل»، والفقير الحال. ذات يوم، سأل الأب مدير مدرسة «الثلاثة أقمار» الأرثوذكسية ما إذا كان بوسعه إدخال ابنه جبران مجاناً إلى صفوفها مع أبناء الفقراء فقبل طلبه. بدأ الولد يتعلم الحرف، مستمراً في بيع الصحف. كان يأكل خبزه بعرق جبينه، ويشتغل ليشتري كتبه.

وتشير السيرة أيضاً إلى أن أحدهم جاء يستحث همة أثرياء عائلة تويني التي تعتبر واحدة من كبرى عائلات بيروت السبع الغنية، لمساعدة نسيبهم الصغير على إكمال دراسته. فكان جوابهم أن هذا التويني المولود في بيت فقير في شارع «القيراط» بالأشرفية ليس من أقاربهم، ومنهم من قال بأنه من عائلة أخرى. وذات يوم عاقبه معلم المدرسة بالركوع أمام التلاميذ، فرفض الصغير بعناد. وعرف الجميع لاحقاً أن رفضه كان بسبب خجله من أن يرى التلاميذ حذاءه المثقوب وهو راكع.

ترك جبران تويني المدرسة عام 1907 ليعمل «صفيف أحرف»، في «المطبعة السورية» التي كان يملكها قسطنطين يني. ولما كانت كبرى الصحف آنذاك تصدر من القاهرة وباريس،

توجه جبران إلى عاصمة الفرنسيين برفقة جرجي طراد عام 1908 ليعمل «صفيف أحرف» على طريقة طباعة تلك الأيام في جريدة «نهضة العرب» لصاحبيها رشيد المطران ونجيب طراد، بصفته «صفيف أحرف» ومصحح «بروفات» وفي صياغة بعض الأخبار. وفي باريس تعلم تويني اللغة الفرنسية، وتمكن من دخول حلقات ماسونية وتحررية عربية، وساهم في صحف عربية كانت تصدر هناك. ولعبت الماسونية دوراً كبيراً في حياته فأصبح بعد ذلك أحد أبرز أقطابها في سوريا ولبنان.

في عام 1911، غادر التويني باريس إلى مصر التي كانت «قبلة الأحرار اللبنانيين» آنذاك. فالتحق بجريدة «البصير» التي كانت تصدر بالإسكندرية، بوظيفة «محرر بروفات». ثم انتقل إلى جريدة «الدلتا» التي كان يصدرها غبريال أنكيري في المنصورة بصفة محرر.

كان تويني ضليعاً بالعربية، يتحدث بلغة فصحى سهلة، وخالية من الأخطاء. وكان فخوراً بانتسابه إلى الغساسنة، إحدى أبرز القبائل العربية المسيحية في تاريخ بلاد الشام. كان متعصباً لعروبته وللغة العربية. وحظيت كتاباته في «الدلتا» باهتمام كبير، ورافقتها سجالات فكرية وردود واسعة. مرد ذلك إلى إيمانه العميق بأن «بيروت كانت عاصمة اللغة العربية، وأن لبنان وبلاد الشام هما حصن العروبة ومعتصمها، وأن الأدباء والكتاب والصحافيين الشوام هم الذين عرّبوا مصر».

في عام 1920، كان جبران تويني قد أصبح مراسل «الأهرام» في المنصورة. وبعد اعلان دولة لبنان الكبير عاد إلى بيروت، وعمل محرراً في مجلة «مينرفا» التي كانت تصدرها ماري يني، إحدى رائدات الأدب النسائي والحركة النسائية. وفي عام 1923، تولى رئاسة تحرير جريدة «الحرية» لصاحبها جورج عوض، فعمل على تغييرها، شكلاً ومضموناً. ابتكر أبواباً جديدة، وأعطى الأولوية للمقالات القصيرة، وأفرد مساحة أكبر للأخبار بحيث تظهر تحركات المجتمع اليومية. خاض معارك صحافية مع جريدة: «البشير»، التي كانت لسان

حال الآباء اليسوعيين في لبنان، ويرأس تحريرها الأب لويس شيخو، الباحث المعروف بعدائه للماسونية والماسونيين.

كانت «البشير» تروج لسياسة الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان، وللتقسيمات الطائفية التي أوجدها الفرنسيون في مناطق انتدابهم. فكانت الفرصة مؤاتية لبروز الصحافي الشاب جبران تويني كمدافع صلب عن قضايا «الحرية، والإخاء والمساواة»، وهي شعارات الثورة الفرنسية التي تبناها وجميع العلمانيين والاستقلاليين في العالم. وأثبت من خلال مقالاته الرصينة أن حكام فرنسا الجدد تنكروا لتلك الشعارات، وطبقوا في سوريا ولبنان تدابير استعمارية بحتة. فتركت سياستهم خيبة أمل كبيرة في نفوس اللبنانيين والسوريين الذين تربوا في المدارس الفرنسية على مقولات حركة التنوير الأوروبي وشعارات الثورة التحررية الكبرى في فرنسا التي غيرت وجه أوروبا والعالم. فأطلقت إدارة الانتداب الفرنسي على تويني وأعوانه صفة «الشعبويين». لكنهم استمروا في مجابهة سياسة فرنسا بالدفاع عن القيم الثقافية لعصر الأنوار في أوروبا، وهي قيم الوطنية، والإخاء، والمساواة، والديمقراطية، والليبرالية، والعلمانية، والنظام البرلماني الدستوري.

أصر تويني ورفاقه على موقفهم الثابت في الدفاع الثابت والدائم عن عروبة لبنان واستقلاله كوطن حر، فتدخلت إدارة الانتداب لتوقف «الحرية». لكن جماعة الماسونيين المعروفة باسم: «البناؤون الأحرار»، قررت الاستمرار في المعركة والرد على التحدي بإصدار جريدة «الأحرار» في 6 كانون الثاني/يناير 1924. فكشف صدورها عن وجود جماعة ماسونية منظّمة وفاعلة في لبنان وسوريا. فخاض الآباء اليسوعيون معركة شرسة ضد تويني و«الأحرار» دفاعاً عن مؤسساتهم ونفوذهم الكبير في مناطق الانتداب الفرنسي.

تعتبر الصيغة التي اعتمدت في إصدار «الأحرار» أول صيغة تأسيسية لشركة مساهمة في تاريخ الصحافة في لبنان. كان تويني صاحب الامتياز، ورئيس التحرير، والمدير المسؤول.

وقد تعاون «البناؤون الأحرار» على تمويلها كمالكي أسهم فيها، بعد أن حددت قيمة السهم بليرة ذهبية واحدة.

حمل العدد الأول من «الأحرار» كل الدفق الثقافي والخبرة المهنية التي تعلمها جبران تويني أثناء عمله في صحافة الآخرين. ومع صدور هذا العدد أدرك القراء أن «الأحرار» ليست ثورة سياسية فحسب، بل هي فوق ذلك، بمثابة ثورة مهنية. أبواب جديدة، ليس أقلها الافتتاحية بشكل جديد، كتاب كبار من صحافيين وغير صحافيين لهم زوايا و«أحاديث». ثم تحريك في إخراج الأخبار وتنويعها، ومراسلون دائمون حيثما كانت الأخبار: القدس، وحيفا، ودمشق (نجيب الريس)، وحلب (سعيد فريحة)، وبغداد والقاهرة. هذا بالإضافة إلى مراسلين ظرفيين ومن المناصرين والقراء. كان أحد الأبواب الأكثر رواجاً وأهمها هو باب «التحليل البرلماني ووقائع المجلس»، كتبه بأسلوب جديد الصحافي كميل يوسف شمعون الذي أصبح في ما بعد نقيب الصحافة اللبنانية. تجدر الإشارة إلى أن جبران تويني تزوج من أدال سالم في 31 كانون الأول/ديسمبر 1924. وكان قد تعرّف إليها أثناء إقامته الطويلة في المنصورة. وأنجب منها أربعة أولاد هم على التوالي: غسان، ووليد وفؤاد، وسامي.

وقفت «الأحرار» إلى جانب الثورة السورية الكبرى لعام 1925. ولم تنفع تهديدات إدارة الانتداب باعتقال جبران تويني ونفيه إلى خارج لبنان، بل استمرت تدافع عن الثورة العربية في فلسطين، والعراق، والمغرب العربي، وليبيا وغيرها. كما وقفت إلى جانب قضايا الناس اليومية، وشكلت منبراً متقدماً لكل فكر جديد، كالليبرالية، والديمقراطية، والقومية والاشتراكية، وغيرها.

ونجح تويني في نسج شبكة واسعة من الصداقات حول خط «الاحرار»، الإنساني، والوطني، والقومي. وكانت أبرز شعاراتها الثابتة: عروبة لبنان، والتعاون اللبناني – السوري، والدعوة إلى حياة دستورية، ونبذ الطائفية، والدفاع عن الحريات الفردية والعامة،

والعمل من أجل استقلال لبنان الكامل والناجز. استمرت «الأحرار» في تثبيت مواقعها حتى باتت واحدة من أهم الصحف الفاعلة في الحياة السياسية في لبنان وسوريا خلال سنوات 1926–1929. وأصدرت أول مجلة أسبوعية حديثة في بيروت بعنوان «الأحرار المصورة»، وصفت نفسها بأنها مجلة أدبية، انتقادية، فكاهية، روائية.

اشتهرت «الأحرار» بحملاتها العنيفة على الحكومات التي شكلتها إدارة الانتداب الفرنسي في لبنان وسوريا. ونشرت الكثير من فضائحها وملفاتها السوداء المشبعة بالفساد المالي والخلقي. وعرف تويني بمقالاته النقدية اللاذعة التي صدرت تحت عنوان «جمهورية الإخوان». فكانت تثير ردود فعل سياسية شعبية. فعطلتها المفوضية العليا الفرنسية مراراً لأيام، وأسابيع، وأحياناً لأشهر. في عام 1929، ترشح جبران تويني إلى الانتخابات النيابية عن المقعد الأرثوذكسي في بيروت، ولم يحالفه الحظ. فوجدت المفوضية العليا الفرنسية أن الفرصة سانحة لإسكات صوت «الاحرار» بإسناد وزارة إلى تويني لاسترضائه والتخفيف من حملاته على إدارة الانتداب. فعين وزيراً للمعارف والفنون الجميلة في الحكومة التي شكلها الرئيس إميل إده في 25 آذار/مارس 1930.

تجدر الإشارة إلى أن جميع مراسيم التعيين بأسماء الوزراء تضمنت الاسم والشهرة فقط ما عدا اسم تويني. فقد أضاف رئيس الجمهورية شارل دباس، وهو من الأرستقراطية الأرثوذكسية البيروتية، بخط يد اسم والد جبران. وصدر المرسوم باسم «جبران إندراوس التويني».

فعلق تويني بقوله: «هل يهتني بأن أبي كان بياع معلل وسمسمية؟ هذا شرف لي ولأبي لأني عصامي توصلت إلى الوزارة بكدي وبشجاعتي ووطنيتي، وسوف أريه نجوم الظهر».

كان وزير المعارف جبران تويني يرفض النظر بالرسائل أو المعاملات التي تصله باللغة الفرنسية، ويطلب تقديمها باللغة العربية لأنها وحدها لغة البلاد، مع علمه بأن الدستور

اللبناني كان يجيز استعمال الفرنسية كلغة رسمية. وأكد مراراً على أن معركة تثبيت اللغة العربية هي رمز أساسي من رموز الصراع بين عروبة لبنان واستقلاله وبين «فرنجة» لبنان بواسطة مراسيم الانتداب.

اشتهر تويني بتنفيذ مرسوم شهادة البكالوريا اللبنانية بعد أن وجده جاهزاً وموقعاً من قبل سلفه الدكتور إسبيريدون أبو الروس. وحين بادر إلى تنفيذه، تحولت المسألة إلى معركة وطنية كبيرة ربحها تويني وأنصاره لأنها كرست التعليم الثانوي الرسمي في لبنان بعد أن كان حكراً على التعليم الخاص بإدارة فرنسية. وأنشأ لجنة خاصة لوضع كتب لتدريس التاريخ في المدارس اللبنانية. وهي مسألة سجالية من الطراز الأول، لأنها ترتبط بكيفية تثقيف اللبنانيين بتاريخ بلدهم، ولم تنته إلى حل عقلاني حتى الآن.

تبنت «الأحرار»، مطالب الحركة الشعبية ضد شركة حصر التبغ الفرنسية (الريجي). وساندت المعارك المطلبية ضد شركة الكهرباء، وشجعت على مقاطعة الإنارة منها حتى تستجيب للمطالب الشعبية. واستمرت المعركة تتصاعد إلى حين تعطيل الحياة النيابية في لبنان وتعليق الدستور عام 1932. وبذهاب الحكومة عاد تويني إلى الصحافة التي لم يغادرها وهو في موقع الوزارة. وتعرضت «الأحرار» للتعطيل الإداري يوم كان تويني وزيراً. وكان يكتب الافتتاحيات وينشرها باسم أحد شريكيه فيها وهو خليل كسيب. وقد دخل كسيب عالم السياسة ليصبح نائباً ثم وزيراً للمعارف في عهد الرئيس إميل إده. وسرعان ما خاض شركاؤه معركة إخراجه من «الأحرار».

«النهار» تولد من رحم «الأحرار» وتكمل مسيرة الصحافة الحرة

تجرع جبران تويني طعم المرارة القاسية بعد نزاع قانوني غير متكافىء بين من يملك سلاح القلم دون سواه، ومن يملك سطان المال والدعم السياسي. فخسر «الاحرار» في معركة قانونية شغلت الأوساط السياسية والأدبية، كما شغلت المحاكم طوال سنوات 1930–1933

في نزاع قانوني حول ملكية الصحيفة، بعد أن انقلب شركاؤه عليه، وانتهت بانتصار المال على القلم.

بتاريخ 21 تشرين الأول/أكتوبر 1933 صدر «باسم الشعب اللبناني»، قرار معلل عن «محكمة بيروت البدائية الحقوقية»، قضى ببيع جريدتي «الاحرار»، و«الاحرار المصورة» بالمزاد العلني.

ورست المزايدة على السيد سعيد صباغة بمبلغ عشرة آلاف ومائة ليرة لبنانية سورية.

رغم المرارة، قرر جبران تويني على الفور خوض معركة «التحدي والاستجابة»، حسب تعبير المؤرخ الشهير أرنولد توينبي، لكي يثبت أن سلطان الفكر يمكن أن ينتصر على سلطان المال والسياسة. وكان على قناعة تامة بأن من «فاز» بملكية «الاحرار» عاجز عن الاستمرار في حمل رسالتها لتحقيق الأهداف التي تأسست من أجلها. أما جبران تويني، فتكفيه الإرادة الصلبة، والحد الأدنى من دعم الأصدقاء، لكي يواصل رسالة «الأحرار» عبر صحيفة جديدة تولد متحررة من متاعب الشراكة ومكائد الشركاء.

بعد شهور قليلة على فقدان امتياز «الأحرار»، أسس جبران تويني جريدة جديدة – قديمة حملت اسم «النهار». وصدر العدد الأول منها في 4 آب/أغسطس 1933 فكتب تويني في زاوية الصفحة الأولى من العدد الأول لصحيفة «النهار» إشارة ذات دلالة: «جريدة «النهار» جديدة الاسم، لكنها ليست جديدة الروح. فقد عرف القراء صاحبها في «الأحرار» منذ أنشأها سنة 1924 حتى قضت السياسة بنزع اسمه منها. وسيرون هذا القلم في «النهار» كما كان في «الأحرار»، لم تبدله السنون ولم تغيره الأحوال. جريئاً في كتابة ما يعتقده حقاً، وأميناً على العهد الذي قطعه لقرائه منذ زاول الصحافة في هذه البلاد».

كانت مهنة الصحافة منغرسة عميقاً في وجدان تويني فأعطاها الكثير من خبرته، وعصارة

فكره، وتوجهاته السياسية. «في كل جريدة شيء من الإنسان، يقول غسان تويني. مثله تولد وتكبر وأحياناً تشيخ. مثله تتعذب. بل مثل الإنسان تولد في الآلام. «النهار» كانت فريدة في أنها ولدت استمراراً لأمها «الاحرار». من نجاحها ولدت، ومن عذابها كذلك».

كانت الولادة صعبة للغاية. لا أسهم ولا مساهمون بل خمسون ليرة ذهبية فقط استدانها جبران تويني من الأصدقاء. وبدأ العمل حول طاولة خشبية يجلس عليها يومياً تويني مع ثلاثة أو أربعة صحافيين شباب «كانت الصحافة بالنسبة إليهم ثورة في الفكر والكتابة والحياة». ورغم هزال المصادر المالية، انطلقت «النهار» بزخم قوي بعد أن وضع لها المبادئ والأهداف التي لم تحد عنها طوال حياته، واستمرت بعد وفاته. ومن أبرز تلك المبادئ:

1– أن تدافع عن لبنان، وعن حقوق اللبنانيين في الوطن والمهجر.

2– أن تعرض للرأي العام، بصورة صحيحة ومبسطة، آلام الناس وآمالهم.

3– أن تبقى «النهار» دوماً طليقة من كل قيد إلا قيد الواجب العام، وأن تدافع عن حقوق الأمة، وأن تعارض بطريقة رشيدة لإصلاح أمور الوطن والمواطنين، وألا تتعنت في طلب أمور لا تتفق مع المنطق والمعقول.

حققت «النهار» نجاحات صحافية كبيرة ومستمرة إلى أن أصبحت من أبرز الصحف اللبنانية في مجال التغطية الإعلامية، والتوجيه الوطني، واحتضان أجيال متعاقبة من المبدعين اللبنانيين.

وكان جبران تويني أول من أدخل على العمل الصحافي ما يعرف اليوم بدوام الصحافي، مهما علا شأنه، إلى مكتبه ليكون على بينة من تطور الأحداث، وعلى اتصال مباشر مع

زملائه في الصحيفة. فكان أول القادمين إلى «النهار» وآخر المغادرين منها. وكثيراً ما كان يزور الصحافيين في مكاتبهم، يناقشهم في أعمالهم، ويتحادث معهم في كيفية تطوير الصحيفة.

وفي المحاضرة التي ألقاها من على منبر الجامعة الأميركية في بيروت بتاريخ 8 كانون الأول/ديسمبر 1938 تحت عنوان: «الصحافة حرفتي، ما هي؟ وكيف أخدم بها قومي؟» بلور الكثير من المقولات النظرية المتميزة التي آمن بها جبران تويني وعملت «النهار» على نشرها. وأبرز ما جاء فيها:

«إن حرفتي قوة لا تقل في هذا العصر عن قوة الأساطيل والجيوش. وقد سماها روبير دو جوانفيل السلطة الرابعة في الدولة على اعتبار التقسيم البرلماني الذي جعل سلطات الدولة ثلاث: السلطة الاشتراعية، السلطة التنفيذية، السلطة القضائية، ثم السلطة الصحافية، وهي خارجة عن التقسيم البرلماني قانوناً، وإن تكن منتسبة إليه عرفاً. ففي البلاد البرلمانية تعتبر الصحافة لسان الأحزاب. وتتمتع بحرية مطلقة لا حدود لها. أما في البلاد الأوتوقراطية، فقد زاد اهتمامهم بالصحافة إلى درجة أنهم سجنوها ضمن نطاق رسمي. فجعلوها مصلحة من مصالح الدولة، وسلبوها حرية الرأي، وأوجبوا عليها أن لا تنشر إلا ما تريد الدولة. ففي هذه الممالك لا تصدر الجريدة إلا إذا صدرت عن إرادة الحكومة. فمحرروها موظفون لا يكتبون إلا ما يوحى إليهم بكتابته، ولا ينشرون إلا ما يسمح لهم بنشره. على أن هناك بلاداً ليست بالديمقراطية ولا بالأوتوقراطية، بل هي حائرة بين النظامين، كبلادنا مثلاً. فإن حالة الصحافة في هذا النوع من البلاد من أسوأ الحالات وأشدها ارتباكاً. فالصحافة فيها حرة في الأصل، لكن سلطة الحكومة ترصدها على المنعطفات. فإذا نشرت ما يعكر مزاج الحاكمين نكبوها بالتعطيل الإداري، من غير أن يعطوها فرصة الدفاع عن نفسها، كما يعطون المجرمين على الأقل. فإنهم لا يحكمون عليهم إلا بعد أن يقيموا محامياً عنهم، وإن بالسخرة، بينما يحكم على الصحافي حكماً مبرماً».

وأضاف: «الجريدة، كما سماها جورج سواريز، كائن حي يتجدد كل يوم. وإذا لم يتجدد هذا الكائن الحي، كل يوم، أصابه الجمود، والجمود هو الموت. والإغراء في الفن الصحافي يكمن في إتقان الطباعة، وجمال المظهر، وحسن التبويب والتنسيق، واختيار العناوين الجذابة وما إلى ذلك من وسائل تستثير فضول القارئ وتدفعه إلى قراءة الخبر دفعاً».

لقد تلبست «النهار» روح «الأحرار» من حيث الحفاظ على المبادئ الوطنية والإنسانية الشاملة والدفاع عن قضايا الناس. إلا أنها تجاوزتها في مجال استعمال «المانشيت» والأخبار المصورة، وتنويع العناوين، وطريقة الإخراج الفني. وقد رسم تويني لجريدته خطة وطنية جعلت منها منبراً حراً لكل ذي قلم غير مسترهن لسلطة أو طائفة أو عشيرة. وتميزت «النهار» في عهد الانتداب بأنها كانت إلى جانب المعارضة، وأيدت الأنظمة الديمقراطية حيثما وجدت. ووقفت ضد الأحزاب الفاشية والنازية والتوتاليتارية. وساندت الحركات الديمقراطية بقوة على خلفية موقف ثابت لمؤسسها جبران تويني الذي نشر مقالة مهمة صدرت في أواخر آب/أغسطس 1939 تحت عنوان: «لماذا نحن مع الديمقراطية من جهة، والمعارضة الصلبة والدائمة لكل أشكال الديكتاتوريات والتسلط الفردي أو الحزبي أو الطائفي أو العرقي أو القبلي من جهة أخرى».

شاركت «النهار» بصورة فاعلة في معركة الاستقلال، وعلى كافة الصعد. ودافعت عن استقلال لبنان وسيادته ضد تعسف السلطات الانتدابية وملاحقتها للوطنيين اللبنانيين والسوريين. وناضل تويني بصلابة في سبيل الحصول على الحريات الدستورية، والاستقلال التام الناجز، والنظام البرلماني الحر، والتعاون المثمر مع الأشقاء العرب، على مختلف الصعد. وكان من أشد اللبنانيين اغتباطاً بعودة الحكم الدستوري إلى لبنان لأن النظام البرلماني والاستقلال هما الهدفان اللذان يجمع عليهما جميع اللبنانيين.

لقد وجدت «النهار» نفسها في موقع المعارضة للعهد الاستقلالي الأول بعد أن ثبت للقيمين

عليها أنهم يريدون الاستقلال وسيلة للحكم وليس منطلقاً للتغيير وبناء لبنان جديد. كان تويني يطمح في أن يصبح لبنان وطناً سيداً حراً، عزيزاً مستقلاً. وأن ينعم أبناؤه بالعدل والطمأنينة والمساواة، «فيعيش كل منهم في حماية القانون ورعاية الأنظمة، ويشترك مع إخوانه في بناء وطن صالح، أفسدته السياسات الملتوية، وكادت أن تقوده إلى التدهور الأخلاقي والإفلاس الاقتصادي. فأوشك أن يفقد معنوياته وأن يضيع ثقته بأهليته للحكم الذاتي، ويغفو تحت جناح التوكل على الغير، يطبخون له فيأكل، ويخيطون له فيلبس، قانعاً من الدنيا بما تيسر».

لكن نظام لبنان المستقل أقيم على أسس سبق لفرنسا أن وضعتها عندما كانت منتدبة. فبدأت «النهار» بنشر سلسلة مقالات انتقادية لتنبه إلى مخاطر السياسة المتبعة في العهد الاستقلالي الأول. إذ لا بد للحرية من وطن حر يحكمه الأحرار. فالاستقلال مطلب متلازم مع الحكم الدستوري. فساءت العلاقات بينه وبين رئيس الجمهورية اللبنانية الشيخ بشارة الخوري. وكان ذلك قبيل انتخابات 25 أيار/مايو 1947 النيابية التي باتت الأكثر شهرة في تاريخ الانتخابات اللبنانية من حيث كثافة التزوير، والتلاعب بالنتائج.

وبعد أن شعر تويني بأن لا مكان له في لوائح الحكومة، عز عليه أن يخوضها على لوائح المعارضة ضد رفاق دربه في النضال من أجل إعادة الحياة الدستورية. فقبل منصب السفارة في الأرجنتين حيث أسس أول مفوضية للبنان المستقل، ورفع عليها راية الأرز الخالدة. إلا أنه توفي بعد شهور بنزف في الدماغ وهو يلقي محاضرة دفاعاً عن لبنان المستقل، وعن النضال العربي آنذاك لمنع قيام دولة إسرائيل على أرض فلسطين.

ليس من شك في أن محاضرته في الحفل التكريمي الذي أقامته على شرفه الجالية اللبنانية في بيونس أيريس في 13 نيسان/أبريل 1947، تشكل مرجعاً مهماً لدراسة المقولات النظرية التي آمن بها وعمل لها طوال أيام حياته. وقد تركت المقولات النظرية التي تضمنتها أثراً واضحاً في مسيرة غسان تويني الذي أعاد نشرها في «النهار» بعد اغتيال ابنه الشهيد جبران تويني.

ومن أبرز ما جاء فيها: «لقد اعترف الموقعون على ميثاق جامعة الدول العربية باستقلال لبنان بحدوده الراهنة. وأعتقد أن دول الجامعة بلا استثناء تحترم هذا الميثاق إذا هي أرادت أن تصون كيانه من التصدع. لقد أراد لبنان أن يكون مستقلاً، لا لتكون حدوده موضوع مساومات، بل وقف نفسه على خدمة نفسه وخدمة إخوانه العرب ضمن الميثاق الذي ارتضاه وارتضوه. إن لبنان الراشد فتح الصفحات الأولى من عهده الجديد بأعمال اطمأن إليها كل أبنائه، من الذين كانوا يتنكرون للبنان المتأجنب، اي المرتمي في حضن الأجنبي. إن شمس الاستقلال أذابت كل النعرات، وقامت الدولة اللبنانية على أكتاف اللبنانيين من كل الطوائف. أصبحنا نرى خصوم لبنان في الماضي يقفون أنفسهم على خدمة العهد الجديد بعد أن تحرر لبنان من النعرات المذهبية، ولم يعد يعرف نعرة سوى القومية والوطنية اللبنانية التي لا تعرف سوى لبنان واستقلاله شعاراً أو مناراً. لم يعد لبنان يخشى الدسائس على استقلاله بعد أن انسجم أبناؤه على اختلاف طوائفهم في ظل العهد الجديد، واتخذوا القومية اللبنانية لهم شعاراً وآمنوا بها متحدين متفقين على أساس أن الدين لله والوطن للجميع. لا مجال بعد اليوم للدسائس تنفث سمومها وينفخ فيها الأجنبي ليستثمرنا بعد ان تعاهدنا على أن القومية هي أساس الوطن، فيخدم كل لبناني وطنه، منصرفاً إلى عبادة ربه كيفما شاء. إن سياسة لبنان الجديدة قد انبثقت عن تيار الحضارة التي تحترم الفرد وتجعل الضغط الفكري أساس كيانها انهارت، وسقطت تحت مطارق التحرر والانعتاق. إننا أنكرنا على الأجنبي أن يظلمنا، فليس من المعقول أن نرَى بأن يظلم بعضنا بعضاً. لقد تفتحت أمامنا سبل الحياة الحرة منذ تعلمنا القاعدة القائلة: «الدين لله والوطن للجميع»، وسنظل على هذا الدستور سائرين لأنه السراج الذي ينير طريقنا».

رحم الله جبران تويني الذي مات بعيداً عن وطنه في عالم الاغتراب وهو يحلم ببناء وطن حر مستقل، تديره دولة عصرية بذهنية منفتحة على تبدلات العصر وليست مشدودة إلى دولة الطوائف المتناحرة على أرض لبنان الجميل. لقد شغل منصباً بارزاً في الدبلوماسية اللبنانية، وكان وزيراً متميزاً، وسياسياً بارعاً، وخطيباً مفوهاً، وصحافياً لامعاً. وحمل إلى

اللبنانيين، في الوطن والمهجر، مبادئ ثابتة: لبنان العربي، السيد المستقل، يفاخر بتاريخه، يعتز بمغتربيه، يدافع عن حقوقه، يؤمن بالعدالة، يعمل للسلام. واستعاض عن الجاه الموروث بمجد ثقافي وسياسي وصحافي بناه لنفسه، وبعرق جبينه. فكان تراثه الفكري والنضالي في «الأحرار»، و«النهار»، مدرسة رائدة للصحافة الحرة في لبنان والعالم العربي. عمل من أجل لبنان الجديد المتحرر من قيود الطائفية، فإذا بالنظام الطائفي اللبناني يسجن ابنه غسان، ويغتال حفيده جبران اللذين سارا على خطاه في حمل راية الصحافة الحرة، ومواجهة النظام الطائفي اللبناني، وحمل راية الديمقراطية والليبرالية والعلمانية.

«النهار» في عهدة مثقف أكاديمي مشبع بقيم الحرية والديمقراطية والليبرالية

تختلف سيرة الأب المؤسس، بائع الصحف الذي دخل المدرسة من بوابة الفقراء وتنكر له أثرياء عائلته من آل تويني بسبب فقره، جذرياً عن سيرة الابن غسان الذي عاش في كنف والد بات من أكثر الصحافيين والسياسيين والدبلوماسيين اللبنانيين احتراماً بعد أن نال شهرة واسعة.

فبعد أن تحسنت أحوال الأب بصورة تدريجية، ارسل أبناءه، ومنهم غسان، إلى أرقى المدارس والجامعات. وازدادت فرص الترقي الثقافي والاجتماعي أمام الأبناء بعد أن تقلب الأب في مناصب النيابة والوزارة ومات سفيراً للبنان في الأرجنتين.

مارس غسان تويني الكتابة الصحافية وهو في سن الخامسة عشرة، وكتب في «النهار» حول بعض الموضوعات الدولية. كان والده جبران يتوسم فيه كاتباً متميزاً بعد أن نهل الثقافة العصرية من منابعها الأصلية، وبلغاتها الأم، وعلى مقاعد أرقى المدارس والجامعات في لبنان والخارج. لقد كتب لويس الحاج، رئيس تحرير «النهار» لاحقاً، ومن رفاق الدرب الطويلة لجبران تويني في العمل الصحافي، بأن غسان تويني عالج، وهو لما يزل على مقاعد الدراسة، موضوعات متنوعة كان ينشرها ضمن زاوية خاصة به، وتحمل توقيعه. «فكان إذا

عالج موضوعاً فكر بالفرنسية والإنكليزية، وطرح أفكاره في التداول بعربية كادت تكون صحيحة لولا تجاهل الكاتب الفتي، عن عمد، وجود شيء اسمه المثنى، ورفضه التقيد بقواعد النحو لجهة الأفعال الناقصة، وإن وأخواتها. كان جبران الصحافي يتكلف القسوة في نقد آراء نجله وأسلوبه الكتابي. ولكن، ما إن تصدر «النهار» وفيها مقال بتوقيع غسان حتى ينكب جبران الوالد على مقال ولده انكباب الأم على رضيعها. وإذا جاء زائر ذو شأن قرأ له المقال بنبرات اختلط فيها التأثر بالفخار والاعتزاز». تتلمذ غسان تويني في الجامعة الأميركية ببيروت على الفيلسوف اللبناني الشهير شارل مالك. مارس العمل السياسي في صفوف الحزب السوري القومي الاجتماعي، وأجرى حوارات ثقافية مطولة مع مؤسسه أنطون سعاده. ثم أكمل دراسته الأكاديمية في جامعة هارفارد حيث أنجز أطروحة بعنوان: «مفهوم الحرية عند إمانويل كانط». ثم دخل عالم الصحافة متأثراً دون شك بمسيرة والده، مؤسس «الأحرار» ثم «النهار» اللتين لعبتا دوراً بارزاً في تاريخ الصحافة اللبنانية. دخل الأب عالم السياسة في لبنان من موقع المؤمن عميقاً بالديمقراطية وبالقومية السورية. نشر غسان تويني الكثير من الدراسات العلمية والانطباعية حول مهنة الصحافة وأصولها. وقد وصف علاقته بالصحافة على الشكل التالي: «صحافي ترك الصحافة حيناً، بل أحياناً، لكن الصحافة لم تتركه، بل ظلت ملازمة لتصرفه سياسياً ودبلوماسياً». إنه نوع متميز جداً بين الصحافيين. فهو مثقف مشبع بثقافة إنسانية ديمقراطية، محب للفنون الراقية على انواعها، ومؤمن صلب بوحدانية التراث الإنساني عبر مختلف تجلياته وقد عمل بكل ما أوتي من قوة للحفاظ عليه وتطويره. كان سياسياً غرد خارج سرب الساسة المحترفين في لبنان لأنه تفرد في البحث دوماً عن بناء دولة ديمقراطية علمانية عصرية تساوي بين الناس على أساس المواطنية الحقيقية والمساواة في ما بينهم أمام القانون في الحقوق والواجبات.

لم يكن مجرد صاحب مقالة يومية أو أسبوعية، بل مثقفاً عميق المعرفة بالثقافة الإنسانية التي تعرف إليها من خلال مصادرها الأصلية، وبلغاتها الحية. وقد زاوج في عمله الصحافي بين فهمه العميق لتاريخ الإنسانية، ومحاولة استقراء تاريخ جديد للبنان والعرب على قاعدة

تعزيز الديمقراطية في العمل السياسي، والليبرالية المراقبة في المجال الاقتصادي، والعلمانية في مجال بناء الدولة العصرية. وكان هاجسه على الدوام بناء دولة ديمقراطية علمانية في لبنان والمنطقة العربية بأسرها، تقيم العدالة الاجتماعية، والمساواة بين المواطنين على اختلاف انتماءاتهم الطائفية والقبلية والعرقية، ودون النظر إلى توجهاتهم السياسية، ومواقعهم الاجتماعية.

مارس التدريس الأكاديمي في مجالات الفلسفة والتاريخ والعلوم السياسية، في جامعات لبنان وفي جامعات عالمية. ومارس كذلك العمل السياسي، فكان نائباً ووزيراً وسفيراً. لكنه بقي دوماً مثقفاً مشبعاً بهاجس الديمقراطية، وحريصاً على بناء وطن ديمقراطي، حر، ومستقل. خاض معارك سياسية، وشارك في تشكيل جبهة برلمانية. وأسهمت «النهار» في إسقاط عدد من رموز التسلط، وعرت فساد الجهاز الحاكم من رأس الهرم السياسي حتى مسؤولي الإدارتين المدنية والعسكرية. آمن غسان تويني بما اسماه «الصحافة الرسولية» انطلاقاً من القول المأثور «إعرف الحق والحق يحررك». وصاغ أفكاره حول هذه المقولة في محاضرة بعنوان «الصحافة اللبنانية رسولة فكر»، ألقاها في جامعة الروح القدس بالكسليك في 4 نيسان/أبريل 1965.

وأبرز ما جاء فيها أن الصحافة لا معنى لها إن لم تكن الأشياء الكبرى الثلاث: رواية الحق حتى يُعرف، والشهادة بما حصل حتى الاستشهاد، وإعلان ما سيحدث والتبشير به في ضوء تفسير ما هو حادث وإن أنكر. فلا قيام لدولة، ولا قيام لمجتمع حيث لا تكون الحرية. لا صحافة من دون حرية، ولكن لا حرية كذلك من دون صحافة. ذلك أن الحريات كلها إنما تتجسد في حرية التعبير. فالصحافة توجد حيث الحرية، بل الصحافة توجد الحرية. ولكن مظهر الحرية الأول يظل الرأي العام. «لقد قيل إنها سلطة رابعة لكنها في الحقيقة السلطة على السلطات. السلطة الرابعة هي السلطة لأنها سلطة المحاكمة والمحاسبة والمؤاخذة، سلطة تحديد المسؤولية، سلطة السؤال عنها، وسلطة الدينونة الأولى والأخيرة في الإطار

الاجتماعي، دينونة الشعب». فالصحافة للتاريخ، ولا يمكن الصحافي أن يكتب وينتظر أن ينصفه التاريخ لاحقاً. والصحافة تصنع عدداً عدداً، نهاراً نهاراً، مع الأحداث والأخبار. وتاريخها هو الرأي العام الحي المتكامل المتولد من تكاثف الأعداد المتلاحقة. وقدم تحليلاً سجالياً حول حدود التلاقي والتمايز بين الصحافي والمؤرخ. شرط التاريخ أن يكون الموضوع قد مات، وشرط الصحافي أن يكون الخبر العام الحي المتكامل المتولد من تكاثف الأعداد المتلاحقة. وقدم تحليلاً سجالياً حول حدود التلاقي والتمايز بين الصحافي والمؤرخ، وبالتالي بين الصحافة والتاريخ. «الصحافة بعيدة عن التاريخ بعد الحدث عن المؤرخ. شرط التاريخ أن يكون الموضوع قد مات، وشرط الصحافي أن يكون الخبر والرأي، لحماً ودماً نابضين بالحياة». أما الصحيفة الحرة فهي التي يقوم بينها وبين قرائها نوع من الشراكة الكلية، شراكة في الفكر والمادة، عبر الشراء الحلال الوحيد، شراء أعدادها يوماً بعد يوم. لقد تمعن طويلاً في تاريخ أعلام الصحافة من اللبنانيين والعرب. واستعرض أسماء الكبار منهم، الذين أسسوا لمجد الصحافة، داخل لبنان وفي العالم العربي وخارجه، من أمثال أحمد فارس الشدياق، وبطرس البستاني، وشبلي الشميل، وفرح أنطون، وعبد الرحمن الكواكبي، فضلاً عن العائلات الصحافية التي توارثت العمل الصحافي أباً عن جد. وأعاد تذكير الصحافيين الجدد بأن الصحافة الحرة هي مهنة البحث عن المتاعب. «فرسانها هم رجال شبعوا من الورق أكثر مما شبعوا من الخبز، وسال في عروقهم الحبر محل الدم. هؤلاء وصحفهم كانوا تاريخ حرية الصحافة، بل حرية الإعلام في بلادنا، وهم التقليد المستمر الآن فينا والذي نطمح أن يستمر فيكم».

وما دام التاريخ في حركة مستمرة ويولد ظاهرات من النمو لا حصر لها، فإن المعرفة يجب أن تكون دائمة ومستمرة. والصحيفة يجب أن تتطور باستمرار من خلال الإيمان الثابت بالفكر الحر والرأي الذي لا يخاف. ويكمن سر الصحافة الحرة في البحث عن الحقيقة، والمعرفة، والحرية. وبما أن التطور هو سنة الحياة، فإن لكل عصر صحافته. لكن العمل الصحافي الناجح لا يقتصر على العلم والموهبة بل يتجاوزهما إلى الشغف بالحبر والورق،

أي بالخبر والرأي، وبالحوار مع الناس». فالذي لا يأتي إلى الصحافة، يقول غسان تويني، عن شغف تلفظه، كائنة ما تكن مواهبه، ومهما بلغ علمه. غير أن الصحافي لا يمكن أن يكون صحافياً ناجحاً ما لم يكن في سباق مستمر مع المعرفة، يتعلم كل يوم ويسعى كل يوم إلى مزيد من العلم بالمعنى الأشمل: بالمعنى المعلوماتي وبالمعنى المهني».

وتساءل تويني مراراً: لماذا تكون الصحافة إذا لم تكن للفكر الحر؟ بل لماذا تكون الصحافة إذا لم يكن القارئ متعبداً للفكر الحر؟ ولماذا تكون الصحافة إذا لم تكن تؤمن بأن في طاقتها أن تتوجه إلى قوم يفهم الفكر ويؤمن به ويريده أساساً لحواره معها؟ أما أفضل الصحف، برأيه، فأوفرها ثقة عند الناس. وإن أروجها، ليس أكثرها تودداً بل أسلمها رأياً. الرأي الحر هو المدخل السليم لتنمية مجتمعية متكاملة. والرأي أو الخبر مقدس شرط ان يكون صادقاً. لذا، هناك أمر واحد لا يغتفر للصحافي هو أن يكتب خبراً كاذباً. «فالصحافي، هو هذا الجنس الغريب من الناس الذي تفرض عليه مهنته معايشة أحداث متضاربة إلى حد كاد يجن معه هذا الذي يعايشها، لولا قدرته، من حين إلى حين، على الربط بين الأحداث، بمنطق ما... منطق ليس منطق الصحافي نفسه، ولا هو بعد، بالطبع، منطق المؤرخ، إنما هو منطق الأحداث نفسها. يستقرئها الصحافي إياه، المرة بعد المرة، فيفهمها إذذاك كما لا يفهمها حتى صانعوها، فكيف بالمتفرجين عليها؟».

تحمل الصحافة الحقيقية دوماً قضية مجتمعية تدافع عنها. وهي تنطلق من احترام الخبر الصادق والتحليل العقلاني. ومن لا يحترم عقل القارئ ولا يؤمن بقدرته على التمييز والمحاكمة فهو صحافي فاشل. وقد تميز غسان تويني بفهم عميق لرسالة الصحافة الحرة ودور الصحافي في أن يلعب دور الباحث عن الحقيقة والبوصلة التي تهدي الناس إليها. والصحافة التي لا تخلق مجتمعاً بالغ التنمية، مجتمعاً ديمقراطياً حقيقياً، تفشل في تكوين رأي عام ثابت حولها، يستفيد من مقالاتها في بناء تنمية مستدامة على مختلف الصعد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتربوية.

انطلاقاً من «رسولية الصحافة الحرة»، دعا توينى إلى حرية الإعلام حرية تامة. فالحرية ممارسة فاضلة تنطلق من نفس حرة وفكر حر بحيث لا يخاف القلم الحر سلطاناً مهماً علا كعبه. الصحافي في الأصل رسولي في نظرته، يؤثر إيمانه بالحقوق على منافعه من السلطة. وقد طالب بإلغاء الرقابة السابقة للنشر، وإحلال المسؤولية القانونية محلها. كما طالب بإبطال القوانين التي كانت تسمح بتعطيل الصحف، وبالسجن الاعتباطي والتوقيف الاحتياطي. فالصحافة تحتاج إلى قوانين عادلة وعصرية انطلاقاً من مبدأ سليم بأن ممارسة الحرية تحتاج إلى قوانين تنظمها.

كذلك نبه توينى إلى مخاطر التضييق الذي يمارسه المجتمع لا السلطة فقط على الصحافة ووسائل الإعلام. وفي طليعتها الضغوط الاقتصادية، الخارجية والداخلية، التي تسيء إلى الصحافة الحرة والإعلام الحر.

وقد توصل إلى معادلة سياسية بالغة الأهمية حين قال: «إن الإعلام الحر وحده يضمن بقاء الحكومة العادلة عادلة، ووحده يحول دون الاستبداد».

بقي أن نشير إلى خصوصية الصحافة الحرة في لبنان، والتي ساهمت «النهار» في بناء تاريخها المشرق طوال عقود عدة من النضال الفكري النقدي ضد استبداد السلطة وتعسف الرقابة. فخاض أحرار لبنان معارك ناجحة تكللت بإصدار قانون عصري للمطبوعات يحميها من ضغوط الرقابة وتعسف التدخل الحكومي على حد سواء. وعبر نضال أهل الصحافة والإعلام تم إبطال الكثير من الممارسات ضد الصحافة الحرة في لبنان، كالتعطيل الكيفي، والتوقيف الاحتياطي للصحافيين.

وأنشئت محكمة خاصة تطبق قانون مطبوعات عصرياً. وقد شارك غسان توينى، ومعه صحيفة «النهار» وصحف لبنانية أخرى، بنشاط بارز، ومن موقعه كوزير في

الحكومة التي أصدرت قانوناً جديداً للمطبوعات يمنع إحالة الصحافيين على المحاكم العسكرية.

«النهار»، وهاجس الصحافة الرسولية دفاعاً عن وطن حر وشعب سعيد

انتسب مؤسس «النهار»، جبران تويني، طواعية إلى عالم الصحافة، بعد أن أحبها من كل قلبه، ووهبها حياته كلها. وانتقل هذا الحب الطوعي إلى الابن والحفيد ومعظم أفراد العائلة. ومن خلال متابعة دقيقة لتطور دور الصحافة الحرة في البلدان الديمقراطية، عرف التوينيون الثلاثة كيف يصوغون أهداف هذه المهنة الرسولية النبيلة التي تشكل الأداة الأكثر فاعلية في نشر قيم الثقافة الإنسانية وثمرات العلوم العصرية. فدافعت «النهار» بثبات دائم، وبصلابة لا تلين، عن استقلال لبنان، وعن التعاون المثمر بين لبنان وجميع الدول العربية لصالح اللبنانيين وجميع العرب. تعاقب على إدارة «النهار» ثلاثة أجيال من آل التويني هم جبران الجد المؤسس (1933 – 1947)، وغسان التويني (1948 – 1999) الذي دفع بها نحو المرتبة الأولى بين صحف لبنان وجعل منها منبراً حراً مفتوحاً لكل أشكال النقاش السياسي، والفكري، والفني، وجبران تويني (1999 – 2005) الذي لعب دوراً أساسياً في تطويرها، وكان وراء انتقالها إلى مبناها الجديد في ساحة الشهداء. وقدم حياته، إلى جانب سمير قصير، أحد ابرز كتاب «النهار» في السنوات الخمس الأخيرة، دفاعاً عن حرية الكلمة، والديمقراطية، واستقلال لبنان وسيادته. فتحولت «ساحة الشهداء»، بفضل تضحيات حماة الكلمة الحرة إلى «ساحة الحرية» بعد أن دفن فيها الرئيس الشهيد رفيق الحريري ومن استشهد معه، على بعد أمتار قليلة من مبنى «النهار» الجديد. وقد عاد غسان تويني، أمد الله بعمره، إلى إدارة «النهار» بعد استشهاد ابنه جبران في 12 كانون الأول/ديسمبر 2005.

إن تعاقب أجيال ثلاثة من آل التويني أعطى «النهار» نوعاً من خصوصية في الدور الذي يتسم بالاستمرارية والتغيير في آن واحد. فلكل منهم بصماته الخاصة في إدارتها والارتقاء بها نحو مرحلة جديدة ذات سمات تميزه.

ويحتاج التأريخ لدور «النهار» إلى أكثر من كتاب علمي موثق ليظهر موقعها في سيرة الصحافة اللبنانية والعربية عبر مراحلها البارزة. فقد واصلت تجديد نفسها ومتابعة أرقى ما يستجد في عالم الصحافة، والنشر والإعلام والإعلان. وكان لها أبعد الأثر في الصحافة اللبنانية المنتشرة في بلدان الاغتراب. وهناك صحف لبنانية كثيرة يصدرها الآن لبنانيون في الخارج، تتبنى أسلوب «النهار» في نشر الأهداف والقيم التي تدافع عنها في لبنان. وعرف عنها، عبر تاريخها الطويل، الثبات في الدفاع عن القيم الوطنية والمبادئ الديمقراطية والحضارة الإنسانية، إلى جانب التغيير الدائم في الشكل والتبويب والإتقان الصحافي تمشياً مع تطور الصحافة العالمية وتقنياتها الحديثة. وتضمنت أعدادها سجلاً حافلاً من المواقف الجريئة والتغطية الإعلامية الصادقة، والموضوعية، والشمولية.

و«النهار»، إلى جانب ذلك، مؤسسة ثقافية، واقتصادية، واجتماعية ناجحة يعتبر العاملون فيها أنفسهم أعضاء في عائلة واحدة هي «عائلة النهار». وقد اختطت لنفسها نهجاً متميزاً في الصحافة اللبنانية تعلم فيها صحافيون لبنانيون كبار أصول المهنة، وأسرارها، ومبادئها. ومنهم من أصدر صحفاً تحولت إلى مؤسسات كبيرة ما زالت فاعلة حتى الآن. وهي مدرسة في النقد الموجع الذي لا يحمل أي تجريح شخصي، أو تسفيه لآراء الآخرين. وفتحت صفحاتها لكبار الأدباء والشعراء والفنانين والباحثين الأكاديميين، ولكل مدافع عن القضايا الوطنية والقومية والإنسانية السليمة. هكذا تحولت «النهار»، منذ سنواتها الأولى، إلى منبر إعلامي يحتضن، بصورة منتظمة ومتواصلة، أفضل النخب السياسية في لبنان. وتخرج منها تيار إعلامي رائد في مجال الإعلام الحر، والخبر الدقيق، والنقد الإيجابي البناء. وشكلت سجلاً حافلاً للمواقف الجريئة، والتغطية الإعلامية المتميزة.

وهي مؤسسة عصرية متطورة على مختلف الصعد. وأسست لعلاقات وظيفية سليمة بين الإدارة والعاملين في المؤسسة بحيث أمنت لهم الاستقرار الوظيفي، والرواتب الكافية، والخدمات الاجتماعية المتميزة. وقدمت فرص عمل متكافئة بين الرجال والنساء. وتصنف

«النهار» في طليعة المؤسسات الإعلامية، اللبنانية والعربية، من حيث اعتمادها الكلي على المكننة الكاملة لتأمين خدمات صحافية وإعلامية وإعلانية متطورة. وأرست إدارتها تقاليد ثابتة في العمل الصحافي كرسالة وطنية وإنسانية. ونجحت في إطلاق مؤسسات اقتصادية تستند إليها وتسندها، في مجالات تحديث الطباعة، والتوزيع الجيد، والإعلانات المتميزة. فتم تزويد مؤسسة «النهار» بصورة متواصلة بالمطابع الحديثة، ودار للطباعة والنشر، ومؤسسة للإعلان وغيرها. فحققت بذلك قفزات نوعية في مجال التحرير، والتعليقات، وتحليل الأخبار، والعناوين الرصينة، والإخراج الفني المتقن. هذا بالإضافة إلى التبويب المتميز، والطباعة الفنية، والتوزيع الجيد، والتصوير، وترويج الإعلانات. وضمت إلى صفوفها نخبة من أفضل الأدباء والشعراء والفنانين اللبنانيين والعرب، بالإضافة إلى كوادر ثابتة ذات خبرة عالية في مجال الصحافة والإعلام. مارست إدارتها حيزاً واسعاً من الديمقراطية في تنظيم شؤونها الداخلية. فنال المحررون حرية تامة في صوغ الخبر، وعنونته، وتوجيهه ضمن المسؤولية الكاملة بالالتزام الأدبي، والخلقي والوطني الذي سارت عليه الصحيفة. كما أن القيمين عليها لم يتوانوا عن الدفاع الصلب عن أي محرر توجه إليه تهمة من قبل السلطات السياسية التي غالباً ما كانت تضيق ذرعاً بمواقف «النهار» الجريئة فتعمد إلى تعطيلها أحياناً، أو تحويل بعض محرريها إلى المحاكمة.

أخيراً، بين جبران التويني الجد الذي مات في الاغتراب الطوعي – القسري عام 1947 وهو يلقي خطاباً يدافع فيه عن لبنان وفلسطين، وبين جبران تويني الحفيد الذي قضى شهيداً في 12 كانون الأول/ديسمبر 2005 بانفجار مروع قرب بيروت دفاعاً عن سيادة لبنان واستقلاله الناجز وسيادته، ترتسم مسيرة «النهار» كأحد أبرز منابر الإعلام جرأة في لبنان والعالم العربي. ومسيرة «النهار» ذات صلة عميقة مع مسيرة آل تويني التي تتسم بالمواقف الشجاعة، والصلابة في الدفاع عن القيم والمبادئ التي يؤمنون بها. ورغم القناعات السياسية المتباينة أحياناً لدرجة التناقض، فإن الثلاثة كانوا يلتقون عند جوامع مشتركة أبرزها: الدفاع عن الحرية، والديمقراطية، وحقوق الإنسان، وبناء الدولة العصرية، ورفض

كل أشكال الطائفية والعصبيات الدينية والقومية والعرقية والتحزب السياسي الضيق. لذا تكمن أهمية مؤسسة «النهار» في أنها تجمع بين الإرث العائلي، والسياسي، والثقافي، والاجتماعي والاقتصادي في آن واحد. وقد أوضح غسان تويني هذه المقولة في حوار تلفزيوني بتاريخ 19 كانون الأول/ديسمبر 2005، ونشرته «النهار» في العشرين منه. فوصف دور «النهار» بقوله: «لا أريد ان أعظّم دورها، ولكن «النهار» هي أقدم الصحف (المستمرة بالصدور في لبنان). وهي الصحيفة الوحيدة التي أصبح عمرها 73 سنة بسياسة واحدة، وإدارة واحدة، وملكية واحدة، جوهرها آل تويني».

ختاماً، «النهار» حاملة رسالة وفكر ديمقراطي عقلاني علماني متجدد. وقد وجدت لتبقى وستبقى ما دام اللبنانيون يتوقون إلى المعرفة المتجددة، وممارسة الحرية، وينشدون بناء دولة عصرية ديمقراطية عقلانية وعلمانية. تاريخها النضالي حافل بالتضحيات، واثرها واضح وجلي في الصحافة اللبنانية في الوطن والمهجر. وهي مستمرة بالعطاء دفاعاً عن مبادئ الحرية والديمقراطية، وسيادة لبنان واستقلاله التام. لكن تاريخ «النهار» لم يكتب بعد. فهي، على حد تعبير غسان تويني، «لا تريد أن يستعجل أحد كتابة تاريخها، فتظلم لأن ما يجب أن يكتب عنها في الحقيقة هو سجل تفاعلها مع تاريخ وطن وشعب، وكيف ساهمت في صون الحرية وبناء المؤسسات والدفاع عن الدستور والحقوق، بل كيف كانت، في الأيام الظلماء، لسان المواطن وقلب الوطن وروح الأرض. وغالباً ما كانت كذلك بديل العقل عند الحكام، ترشد وتسترشد، وتحاسب ظلم ذوي القربى فتستطيب المرارة ساعة لا يستطيبون هم طعم حبرها ولا لون الورق».

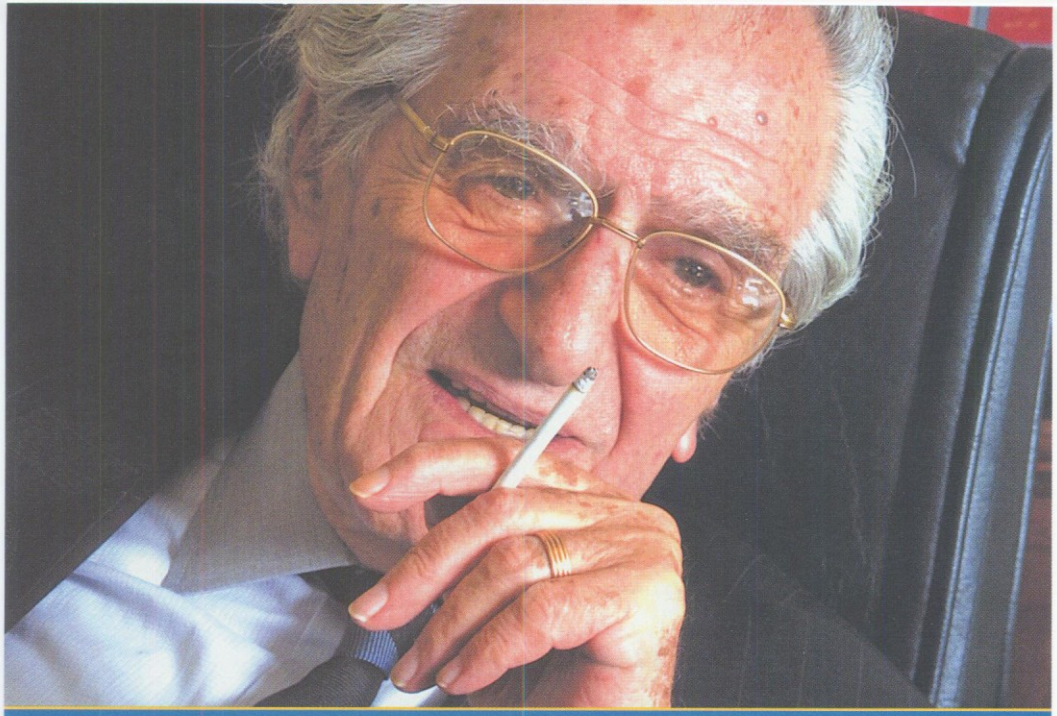

غسّان تويني
صحافيّاً - مفكّراً رؤيويّاً وإنساناً متعالياً

بقلم د. فكتور الكِك

الناظرُ، متأمّلاً بعمقٍ، في حياة غسان تويني وتراث أهل بيته، يجده محشوراً في مضيق يكتنفه بحران: القدر، ممثّلاً بجبريّة المأساة اليونانية؛ والعقلانيّة الصارمة الرافضة الانصياع لعبثه.

توالت عليه النكبات حتى صحَّ فيه قول المتنبّي في نفسه:

رماني الدهر بالأَرزاءِ حتى فؤادي في غشاءٍ من نبالِ
فصرتُ إذا أصابتني سهامٌ تكسَّرتِ النصالُ على النّصالِ

فمن رحيل والده المؤسِّس، إلى فقده بنيَّته زهرة ربيعه، إلى فقده زوجته المميّزة شعراً وروحاً، إلى فقده ابنه الثاني الواعد بمواسم حصاد، إلى استشهاد أمله الباقي جبران المناضل، أصرّ القدر على ترويض روحه الشَّموس. إلا أنه واجه طود عقلانيته المجاهدة المتشبّثة بـ«غريزة» البقاء وصناعة الحياة. فإذا «النهار» نهارٌ لا يعروه ليل، ولا تسوِّده ظلمات القدر؛ بل يبهر نوره الأَعشى المتسلِّل في الظلمات.

إلا أنّ الذي أَبقى على تماسكه إزاء نكبات القدر هو عقلانيته الفذّة حيّةً تناضل دون هوادة في سبيل استقلال لبنان وسيادته، وترسيخ الديمقراطية فيه، ونشر مبادئها في المحيط القريب، وفي الآفاق البعيدة. كان إيمانه الذي فاق حبَّة الخردل التي جعل منها السيد المسيح رافعةً للجبال.

إيمان غسّان تويني، وحده، تجاوز به غريزة البقاء إلى حبّ الحياة بل إلى تقديسها، خدمةً للأَحياء. إذ الحياة، في نظر المؤمن، هبة من الله يجب تقديسها بالحفاظ عليها وتجميلها وتكميلها لتعود إلى واهبها. لذلك لم يطالب بقتل نفس بنفس، حين امتدَّت أيدي الغدر إلى ابنه الشهيد جبران، بل تحلَّى بالصَّبر سجيَّة المؤمن والتسامح سجيَّة الأنبياء، متمثّلاً بالسيد المسيح غافراً للذين رفعوه فوق الجلجلة «لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون»، وبالحلاّج الذي

أفشى سرَّ «قُربه»، فلم يَبُح غسّان بسرّ تسامحه، بل كظم غيظه وعفا. ونظر إلى المستقبل من جديد، استكمالاً لرسالة «النهار» ورسالة لبنان.

روافد تكوينه

أمَّا الرجل في حياته المهنية والعملية فهو، على وضوح فكره، ونقاء تصوُّره، وصرامة منطقه، وسهولة عبارته – أنيق اللَّمح، بعيد اللَّمَع، باطنيّ الإشارة، ماضي العبارة تهبط في منازلها كالوحي على المختارين، في أسلوب جيّاش يجرفك معه إلى حيث يريد بك أن تستقرّ.

فإذا تدبّرنا هذه المواهب والمكتسبات أَلْفيناها أقرب إلى الأدب منها إلى الصحافة، كما تُمارس في أيّامنا، شرقاً، ولا سيّما غرباً.

ولا غرو، فغسّان تويني دخل عالم الصِّحافة عرَضاً، قبل مناقشة أطروحته للدكتوراه في العلوم السياسية بثلاثة أشهر، في جامعة هارفارد. ولم يكن، ثمة، رابط مباشر بين موضوع أطروحته والصحافة، إذ اختار «مفهوم الحريّة عند إمانويل كانط».

وكان سبق هذه المرحلة من حياته الفكرية مرحلةٌ أُعدَّ خلالها إعداداً فلسفيّاً، على مشاركة في العلوم السياسية، فدرس الفلسفة على شارل مالك في «الجامعة الأميركية في بيروت» وعلى سواه. وأكمل مسيرته الفلسفية من خلال تعاليم أنطون سعاده، على قلّة مخالطة ومعاشرة، لكنّه تأثّر، كذلك، بأبيه الصحافيّ الرائد جبران تويني في عالَمي الكتابة بالعربية ومهنة المتاعب. وكان ذلك العصاميّ، في نظري، ممّن طوّروا المقالة الصحافية التي أسّسها روّادها في القرن التاسع عشر إلى الافتتاحية التي أكملت ترويض العربيّة لتكون لغة حياة.

وقبل أن أنتقل إلى الكلام على لغة الحياة أودّ أن أشير إلى أن هؤلاء الأَعلام الثلاثة كانوا، بالنسبة إلى غسّان تويني، مناهلَ فكر وبيان ومنهجية عقلانية في التفكير.

وعندي أنّ ما نشهده في كتابات غسّان تويني من استقراء للتاريخ وتوظيف له في خدمة أفكاره وتنوّراته المستقبليّة هو نهج يعود، في منطلقاته، إلى مدرسة أنطون سعاده في فلسفة التاريخ. إلا أنَّ غسّان تويني جنحَ إلى تطبيق ذلك على الواقع اللبناني والعربيّ وصولاً إلى فهم عملانيّ له. كما أن تويني جعل من الفلسفة وفلسفة التاريخ منطلقاً لمسيرته البراغماتية في عالمَي السياسة والصحافة، فإذا به – وهو الطارئ على الصحافة – ينقلب إلى تسخير تنشئته الصارمة في خدمة صاحبة الجلالة، من دون إكراه، بل طبعاً وطوعاً، فيتحوّل هذا التسخير التلقائي إلى إغناء للصحافة بثقافة رَحبة المضامير، وبتطلّعات إلى الإصلاح المنهجي ينطلق من استقراء الواقع وتحليل الأوضاع.

وهذا قوام مدرسة غسان تويني في الصحافة. تضع يدها على الحدَث لتوجّه، وتقترح منهجاً للعمل، ونهجاً للتغيير أو للإصلاح. وهو، إن عمد، أحياناً، إلى التنظير والجدل، فليتجاوزهما إلى رسم إطار إصلاحي. وهذا من ثمرات دراسته الفسلفة والتاريخ والعلوم السياسية، وتمرّسه بالتعليم الجامعي في لبنان والخارج، واختباره الحياة العامة نائباً ووزيراً وسفيراً ورجل أعمال.

تجلّياته العمليّة

أما الشواهد على ذلك فكثيرة في إنتاج غسّان تويني. ويصعب على الباحث فصلها عن سياقها لأن العناصر المشار إليها تتداخل وتنسجم في نسيج متماسك تؤلّف خيوطه شبكة تفنى خيوطها المؤلفة في كلٍّ مرصوص.

هذه المدرسة يمكن أن نصفها بالأدب السياسيّ، وسنختار، لرسم معالمها، قطعة تنطوي على معظم خصائصها هي «عيد الجنون»، عنوانها الكامل «13 نيسان/أبريل؟... آه.... عيد الجنون!»، نشرت في «النهار» يوم 1976/4/14، أي بعد مضي سنة كاملة على اندلاع الحرب في لبنان.

ويمكننا اعتبار «عيد الجنون» من عنوانها هذا حتى آخر عبارة فيها قطعة أدبية رائعة، وتخصيصاً مسرحيّة مميّزة من مسرح اللامعقول الذي تذوب حواشيه في المعقول فيختلطان كما اختلطت الحقائق في عقول اللبنانيين والفلسطينيين وسواهم فوق الأرض اللبنانية.

كما يمكن النظر إليها والنظر فيها على أنها فكر سياسي يعود إلى ينابيع العِلَل ومراشح الفساد.

وإلى ذلك، فهي قطعة تسجّل أهم مراحل الحرب خلال سنة وتربطها بالحروب العربيّة – الإسرائيلية.

زِد أنها تقدّم نظرات تاريخية اجتماعية ثاقبة، إذ إنّ كل المعتقدات والعبادات تزعزعت، والمفاهيم انقلبت، فاختلط العقل والجنون!

قال تويني:

«– بدل أن توحّد الثورة المجتمع الذي كانت تتمثّل به، زادته فرقة وتمزيقاً...

– المنطق جُنّ؟... بل التاريخ كذلك: المسيحيّ لم يعد مسيحيّاً: كنت تدافع عن المسيحيّة بمحرّماتها، وتحصّن الإسلام بما حرّم الله والانبياء... تخربطت المعادلات... صارت الثورة طائفية، كما التقدميّة طائفيّة، كما الرجعيّة ملك طائفة، وأقلّها انغلاقاً على التقدّم فإذا بها تقطع على نفسها الطريق...».

وفي مقابل ذلك تنوَّر تويني اللامعقول الذي نحن فيه الآن من خلال مجانينه المتحاورين

في العيد الحادي عشر بعد الأوّل، فقال بلسان أحدهم: «أوتريدني أن أصدّق أنّ كل هؤلاء القتلى قد وقعوا، وأنّ الوطن أصبح مجموعة جثث وأشلاء... كلّ ذلك حتى نقيم إصلاحاً دستورياً يرأس بموجبه الرئيس ولا يحكم، ويتوزّعون بعض مقاعد من هنا، في مجلس نسينا وجوده، ثم يعلمنون من هنا ويطيّفون من هناك؟».

بيانه الرؤيويّ

أمّا أسلوب غسّان تويني في السرد والحوار وإيراد الوقائع والشواهد فجدول يترقرق فوق سفح، وإن تكن مياهه حمراء. ومع أنّ موهوبين من عندنا مسرحوا هذه الحوارية بنجاح، فإنها تبقى أدباً للنخبة إيجازه معجز كما في هذا المقطع منها:

«ما أغلاه هذا الجنون، وما أكفركم جميعاً.

– في القنيطرة نحن؟ سأل واحد...

– لا، بل قل في السويس، أو بور سعيد.

– أجاب ثالث: مثلنا مثلهم الآن...

ظننتم يا مجانين أن لبيتكم سقفاً، وأن في وسعكم أن تضحكوا على التاريخ إلى الأبد... أن تعيشوا سلماً بلا ثمن، وترفاً بلا حساب... ترفاً فكريّاً كالترف الاقتصادي، كالترف السياسيّ...

بلاد بلا وطن، ودولة بلا حكم، ودستور بلا حكومة، وحكومة بلا رجال، بل رجال بلا رجال...».

إنها لغة الحياة. وقد كتب غسّان تويني بها وما يزال. وكتب داعياً إليها، قبل سواه، عام 1944 في مجلة «الجديد»[1]. ومع أن لويس الحاج علّمه العربيّة فأحسن تعليمه، إلا أنّه أتقنها بالممارسة، وهو يجهل قواعدها، وهذا أمرٌ يتبدّى في بعض هنات تُفلت منه رفعاً أو خفضاً...

من خصائص لغته هذه التي سمّاها لغة الحياة، إضافة إلى البساطة في التعبير، استخدامه التعبير المباشر الحارّ يطوّع به قوالب اللغة ويخفّف ثقل العبارة باستعمال «أل» في مكان التي واستغنائه بها، أحياناً، عن استعمال الفعل. قال في رائعته «باراباس... أمّ بيالطس البنطي؟» («النهار»، 1972/4/24) التي لا تقلّ ابتكاراً حواريّاً وفكراً سياسياً متنوّراً للمستقبل عن «عيد الجنون»: «الطفلة الأميركية العمرها ثماني سنوات...»[2].

وفي مكان آخر منها: «إن الصبيان المن عمرها الذين التقيتهم هناك كبروا مثلها، وقال كاتب يهوديّ عن المثلهم مرّة إنهم «إرهابيّو» الجيل المقبل»[3].

وإني أشير، هنا، إلى رؤيا تويني المستقبليّة في الإرهاب الذي يعانيه العالم، إلى جانب رؤى له نثرها على دروب تأمّلاته.

هذا الأسلوب «الحياتيّ» يغدو أكثر حيوية عندما يترجم فيه تويني انفعالاته. إنّ أسلوب تويني يجمع العقلانيّة الواقعيّة الصارمة والانفعاليّة التي تنبع من شعور رقيق يندفع هدّاراً أحياناً ويترجم بتكرار العبارات منوّعة، وبتكرير الأسئلة[4].

كما يمتاز أسلوب غسّان تويني من النواحي العقليّة والنفسيّة بحضور التاريخ في كتاباته ولا أقول بالاستشهاد بالتاريخ. فكأنّه، في لا وعيه، يرى إلى الحقيقة على أنّها نهر جارٍ لا لوحات مسمَّرة تُعبد، كما الدساتير غير المطبّقة.

أضف إلى ذلك شموليّة تصوّره للموضوع الذي يتناول، وتفريعه بالتفاصيل حتى ينتهي إلى خطّة عمليّة، كما في مقالته «حُكمٌ فوق ركام الحكم»[5]. وهذا دأبه في حرصه على اقتراح الحلول. وهنا يتجلّى أثر السياسيّ المفكّر، والسياسي المجرّب.

عقل وقلب على المستقبل

ويتوِّج هذه الصفات النفسيّة لأسلوبه تفاؤله بالحياة وأمله في إشراق الشمس من جديد، واستمرار مسيرة الإنسانية نحو الأفضل. من أمثلة ذلك مقال له بعنوان «باب الأمل المفتوح» في أعقاب مؤتمر لوزان[6]، ومقال آخر بعنوان «القمّة الإسلاميّة والتاريخ المقبل» حول قمّة المغرب، إذ يدعو فيها اللبنانيّين إلى إرادة الخروج من الموت إلى الحياة، ومن الجنون إلى العقل والمحبّة والفرح الكبير[7]. كما أن خطبته بالفرنسيّة في الأمم المتحدة بتاريخ 82/6/22 طافحة بالأمل والفرح المقبل على لبنان.

هذا الاتجاه يجعل من غسّان تويني كاتباً يتوجّه إلى العقل والقلب معاً، وإن شكّلت الهيكليّة العقلانيّة البراغماتيّة إطار كتاباته وجوهر معالجته. فالشعور الرقيق، حيناً، والشعور المندفع الهدّار، حيناً آخر، والخيال المتغوِّل صُوراً ورموزاً وتمثيلاً حالماً، والعقل المنافح المكافح الصائب الحجّة، هذا السبيل كلّه ينصبّ في مجرى أسلوب مقحام، لا يتردّد، ولا يتوقف للراحة، بل للتأكيد والتكرار الجميل، إلى أن يصبّ في بحر الحياة[8].

يتوّج تلك القدرات جميعاً موهبةٌ ومِرانٌ في اختيار عناوين مقالاته وكتبه، ومناسبة ما بين العناوين سمّاها البلاغيّون مراعاة النظير. فمن مجموعاته الأخيرة واحدة سمّاها «نزهة العقل»، وهي، من جهة، تؤكّد إصرارنا على نزعته العقلانيّة لا لاستعماله كلمة العقل كثيراً في كتاباته، بل لدعوته إلى تحكيم العقل بإلحاح في الشؤون السياسية. وقد تبعتُه في نزهته هذه لأتبيّن وجه التسميّة، فاسترعى نظري عنوان فيها هو «عودة العقل». جاء في الفقرة

الأخيرة من المقال: «يجب أن نتوقّف علّ العقل يعود من نزهته الطويلة، وتنبت زهرة محبّة ولو واحدة وحيدة في أدغال الحقد التي نتنزّه فيها ولا ندرك»[9].

أما إذا تفحّصنا عناوين المقالات في هذه المجموعة فإننا نرى للعقل مكانة في مضامينها لا تَعدِلها مكانة، ونقع على ثلاثة عناوين متتالية – في فصل عنوانه استراحة المحارب – هي: عودة العقل! زمن التغيير والحكمة، زمن التوحيد والعُقّال.

فانظر إلى مناسبة المعاني بين عودة العقل والتغيير، لأن لا تغيير يمكن أن يحصل بغير العقل، ولكي يكون التغيير عاقلاً لا ثورياً مجّانياً، يربطه بالحكمة وليدة العقل. وبعد التغيير – والكلام على وضع لبنان خلال حروبه منذ 1975 – يأتي التوحيد، وهنا يبرز دور العقّال[10].

كأنّي بغسّان تويني – إلى جانب تأصّل عقلانيّته – ينظر إلى تراث زوجته الراحلة الحاضرة أبداً فيه، وهو تراث لبنانيّ أصيل.

لكنَّ تقديم غسّان تويني العقل وأخذ نفسه بالعقلانيّة الصارمة لم يمنعه من خوض غمار الجنون. ولمَ لا؟ أليس الجنون هو الوجه الآخر للعقل؟ قد تعجز أطر العقل وديناميّة تحرّكه عن تتبّع المتغيّرات في سرعتها أو خدع الفخاخ المنصوبة لأن موجات تلقّيه أو إرساله لا تنسجم وموجات الجنون الفرديّ أو الجماعيّ. وهنا يأتي دور الجنون في تصوّراته الغريبة، وإبداعاته، ومشاريع حلوله اللامعقولة التي قد تكون أقرب إلى الواقع. و«عيد الجنون» عند تويني نموذج للوجه الآخر من عقلانيّة غسّان الأديب المفكّر. ألم يقل أبو الفتح الإسكندري بطل المقامات الهمذانيّة:

زَجَّ الزمانَ بحُمقٍ ما العقلُ إلاّ الجنونُ![11]

هذا المنحى في تدبّر شؤون السياسة وهموم الصحافة هو منحى أدبيّ فكريّ يسلكه غسّان تويني حين لا ينفع القول المأثور: خير الطرق السوالك!

وميزة غسّان تويني من معظم صحافيّي عصرنا المبدعين في التحليل والتعليل والربط والافتراض أنّه زاوج بين الصحافة والأدب في توازن وتآلف بين ثقافة الصحافيّ والسياسيّ والمفكّر ومواهب الأديب. فلا موهبته الأدبيّة طغت على ثقافته ومهنته الصحافيّة كبعض صحافيّينا الكبار من الغائبين والحاضرين، ولا مهنيّته سيطرت على أسلوبه فجعلته وصفيّاً تقريريّاً تعليليّاً، خالياً من نكهة العبارة التي تحتمل تراثاً بعيد الغور، والتصوّر الأدبي الخلاّق للحقيقة الجامدة.

أسلوب غسّان تويني صورة حيّة عنه: ثقافة متعدّدة الوجوه لوجه معنوي واحد، ولغة متعدّدة المشارب لبيان عربيّ صاف، وفكر منفتح على الدنيا يحصد من هنا وهنالك ثم يذرّي حنطة حصاده ليبقى له الجوهر قمحاً يموت ليعطي ثماراً كثيرة، وينبعث أخضر من قلب الأرض رمزاً لقيامة الفداء وانبعاث لبنان.

الهوامش

(1) مجموعة «الجديد»، 1944.

(2) راجع مجموعة «الثورة الفلسطينية والحقائق اللبنانية»، 1971–1974، ص 37.

(3) المرجع نفسه، ص 39.

(4) راجع مثلاً: «حقوق الإنسان هي الهم»، في «النهار»، 84/1/5، أو في مجموعة «نزهة العقل»، ص 82–83.

(5) «نزهة العقل»، ص 114–116، أو «النهار»، 84/4/11.

(6) «نزهة العقل»، ص 68.

(7) المرجع نفسه، ص 125، «النهار»، 84/1/16.
(8) راجع في الثورة «الفلسطينية والحقائق اللبنانية: الباراباس... أم بيلاطس البنطيّ»، 37–39، «العدالة وانتقام الثورة» ص 15–16. وفي نزهة العقل: «بيلاطس والمجدليّة»، ص 120، «ثورة للأبرياء»، ص 87.
(9) «النهار»، 84/2/8. نزهة العقل، ص 97.
(10) «نزهة العقل»، ص 95–101.
(11) «مقامات بديع الزمان الهمذانيّ»، شرح الشيخ محمد عبده، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، المقامة المكفوفيَّة، ص 81.

يتذكرون

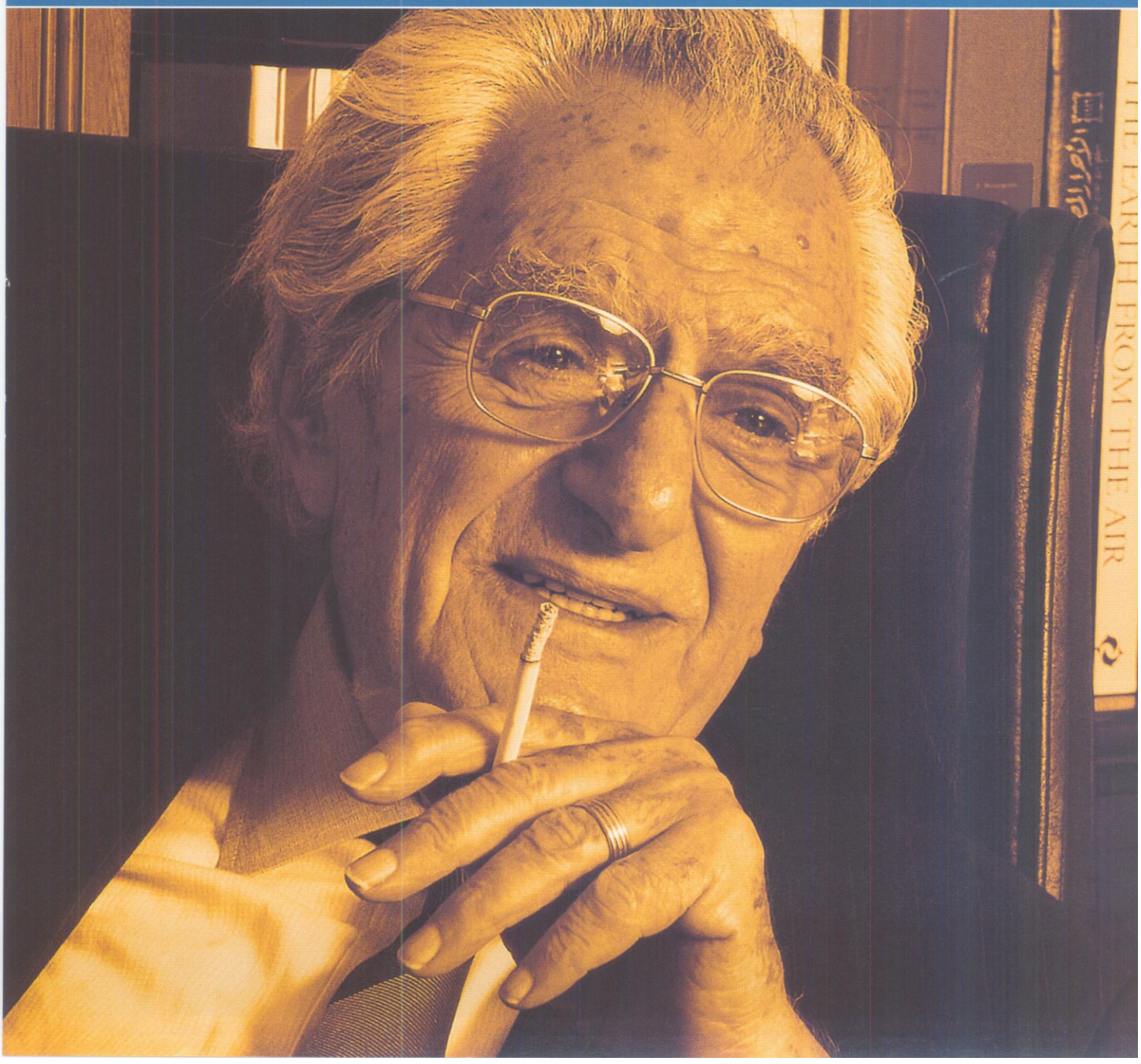

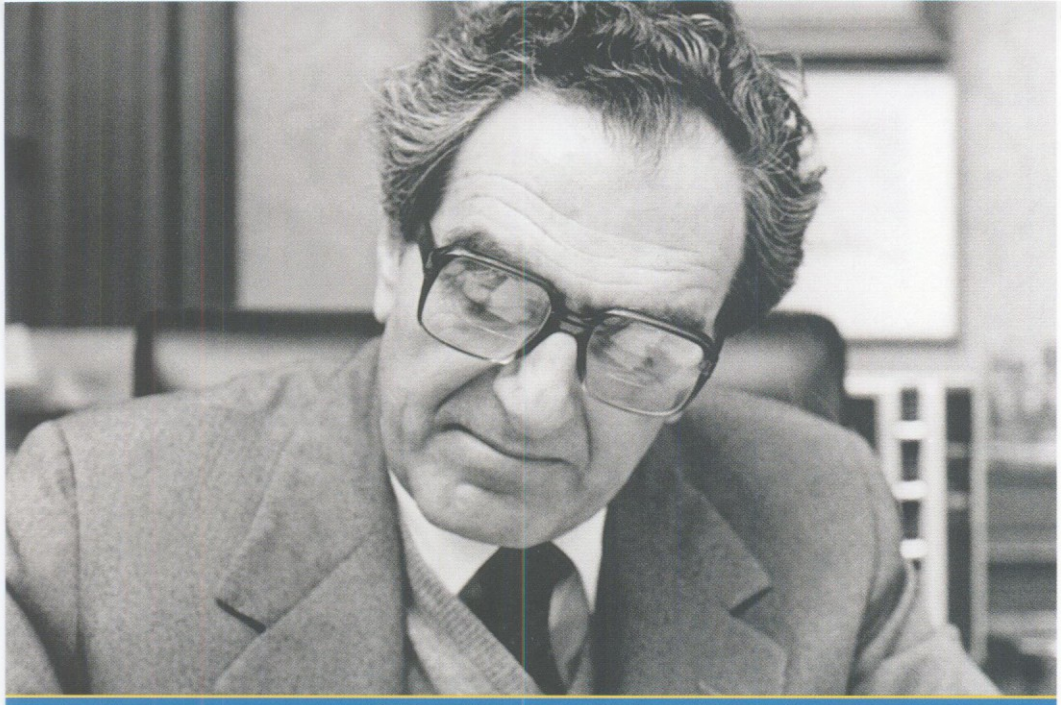

غسان تويني كما عرفته

بقلم طلال بن عبد العزيز آل سعود

منذ ثلاثين عاماً ونيف جمعتني صداقة حميمة مع الصحافي والسياسي والناشر العربي العريق غسان تويني ووجدت فيه الرجل المتعمق في قراءة الوقائع والأحداث، فتوثقت بيننا عرى علاقة فكرية متبادلة، وخاصة أننا كنا نتقاسم الهموم والرؤى حيال قضايا أمتنا.

وما خبرته طوال العقود الماضية أن هذا الرجل يسعى مخلصاً من أجل عزة ووئام أمته، وفي الوقت نفسه مدرك لأهمية المجتمع الإنساني بعامّة والصلات بين الدول والشعوب... ومع مزاولته للعمل السياسي انتقل من كونه نائباً في محيطه إلى سفير لبلده يوثق تعاون لبنان مع الآخرين، إلى مندوب في الأمم المتحدة يعمل على ترسيخ العلاقات الدولية بالفكر العميق والرؤية الواعية.

وجعل من دار «النهار» منبراً حراً لقضايا الحوار الحضاري والفكر الإنساني بالرغم من الأزمات والصعوبات التي واجهت لبنان الشقيق سنوات طويلة.

غسان تويني مدرسة صحافية وفكرية مرموقة، خرّجت الكثير من العاملين الذين تميزوا في حقول الإعلام والثقافة، وشخصية تستحق التكريم بما له من إنجازات كبيرة تحققت من خلال مدرسة دار «النهار» التي ورثها وانطلق بها إلى آفاق أرحب ومجالات أكبر.

شمس النهار

بقلم مكرم محمد أحمد

غسان تويني، ناشر «النهار»، عمر مديد، وتاريخ عريق، وقامة شامخة. شيخ الصحافة العربية وأميرها، اختارته مؤسسة سعاد الصباح الثقافية ليكون موضع التكريم هذا العام، تقديراً لدوره كناشر وصحافي وكاتب وصاحب فكر سياسي فأحسنت الاختيار، لأن غسان هو جميع هؤلاء ويزيد، دارساً لفلسفة العلوم تعلم في هارفارد، ومحاضراً في الجامعة الأميركية في بيروت، ووزيراً للتربية والتعليم، وسفيراً اختير للبنان في ظروف صعبة كي يكون صوتها وممثلها الدائم في الأمم المتحدة.

ورث غسان عن والده جبران تويني حرفة الصحافة كما يحب أن يسميها، لأنه يرفض أن يسميها مهنة لأن المهنة تأتي من الامتهان، أما الحرفة فتأتي من احتراف الصنعة واتقانها، ليجعل من صحيفة «النهار» واحدة من أكثر الصحف العربية صدقية واحتراماً.

تصدق الخبر وتحترم حرية الرأي، وترفض الغلو الطائفي وتحاربه، وتنهج في السياسة والاقتصاد نهجاً محافظاً معتدلاً ينبذ الشطط، لكنها تحرص دائماً على أن تبقى صحيفة عصرية تمد قرون استشعارها إلى المستقبل، وتساعد على نقل أمتها العربية إلى غد أكثر رحابة، وتدعو في الداخل إلى لبنان القوي بتماسكه الطائفي، وانتمائه العربي، وأبوابه المشرعة على الثقافة الأوروبية.

وعندما آن للفارس أن يستريح، ونقل غسان الأمانة إلى ابنه جبران الذي تولى رئاسة تحرير «النهار»، اغتالت يد التخلف والظلام الابن في عنفوان مجده، لأن الابن كان صنو أبيه. تلبسته روح قديس محارب شجاع، يرفض المهادنة، ويذهب في جسارته إلى حد التهور إن تعلق الأمر باستقلال وكرامة لبنان، يرى الغدر قادماً نحوه يطلق من عينيه الشريرة، يريد أن يقصف قلمه وعمره، لكنه ابن موت، لا يهاب ولا يخاف، ولا يرتدع ولا يهادن، يواصل حربه دفاعاً عن حق لبنان في وطن آمن مستقل يملك قراره.

وعندما لقي الابن مصرعه في حادث تفجير سيارة ملغومة، مدبر ومخطط مثل كل حوادث التفجيرات التي اغتالت رفيق الحريري وجورج حاوي وسمير قصير، وآخرين كثيرين، وحاولت اغتيال إلياس المر ومروان حمادة ومي شدياق كي تخرس ألسنة الجميع، نهض الأب المكلوم غسان من شيخوخته رغم المأساة فتياً عفياً يستعيد القلم السيف الذي منحه الجد جبران لابنه غسان، ومنحه الأب غسان لابنه جبران، ليواصل الحرب على القهر والظلم، ويدعو اللبنانيين جميع اللبنانيين إلى التكاتف دفاعاً عن استقلال لبنان،... فهل رأيتم في عالمنا العربي فتى شجاعاً مثل الفتى العجوز غسان!؟

نهض غسان على مهل من مقعده في الكنيسة وهو الشيخ المحزون على رحيل ابنه الذي قتلوه غدراً ليرد على عظة المطران وهو يودع جثمان ولده الوحيد جبران الذي تبقى له من أسرة غادر جميع أفرادها الحياة واحداً وراء الآخر، نهض ليقول سطوراً معدودات تكشف كم كان غسان تويني كبيراً وشجاعاً، وكم كان صفاء فكره وحكمة عقله رغم المأساة الكارثة التي ألمت به. قال غسان أمام جثمان ابنه المسجى شاهداً على القول أمام المذبح، «أنا لا أدعو اليوم في هذه المناسبة إلى انتقام ولا إلى حقد، ولا إلى دم، لكنني أدعو أن ندفن مع جبران الاحقاد كلها، أدعو الشباب جميعاً مسيحيين ومسلمين إلى أن يكونوا كلاً واحداً في خدمة لبنان العظيم وقضيته العربية...، لقد قلت الآن سيدي المطران، أن موتنا قيامة، والمسيح قام من بين الأموات، وأن جبران ذهب ليهيئ لنا مكاناً في وليمة عرسه، فهل ألاقيه هناك».

وبهذه الروح ذاتها كتب غسان في «النهار» بعد سبعة أيام من عرس ابنه الشهيد يوصي كل اللبنانيين، شيعة ودروزاً وسنة وموارنة...، «ينبغي أن نحصن عقولنا وقلوبنا ضد العصبيات المتطرفة والأنانية الطائفية، ونهدم الأسوار التي تسجن حوار اللبنانيين مع اللبنانيين ليس لنتفق على كل شيء، لأن الاتفاق على كل شيء مطلب غير ديمقراطي، والديمقراطية في مفهومها الصحيح تفترض الخلاف في الرأي، ولكن كي ينطلق الحوار بيننا دون شروط

مسبقة، لا من أقلية ولا من أكثرية، ولتكن نقطة البداية في حوارنا قانون انتخاب جديد يجعل إلغاء الطائفية إصلاحاً ممكناً حتى وإن تم الأمر على نحو متدرج».

ومع مطلع عام 2006، ولم يكن قد مضى على رحيل جبران سوى أسبوعين يكتب غسان تويني في افتتاحية «النهار»: «لا نريد أن تبدأ السنة الجديدة بالمزيد من الدموع. نريد أن نتجاوز محن العام الماضي إلى ما يمكننا من الابتسام واستقبال السنة الجديدة بشيء من التفاؤل بأن تكون سنة الحرية كما كان العام الماضي سنة الاستقلال، لأن الحرية ليست مجرد شعار مبهم، سنة الاستقلال، ولكنها تتجسد دائماً في أحرار يواصلون نضالهم لتحصين حقوق الإنسان وحقوق الوطن وحقوق المواطنين دون خشية من خوف أو إرهاب أو إفساد».

وعلى قدر سماحة غسان تويني وسعة أفقه وحكمة بصيرته، كانت صرامته وغضبته الشديدة من أطراف عديدة دولية وإقليمية يذكرهم بالاسم، أعداء وأشقاء وضيوفاً وحلفاء، اختاروا أن يخوضوا معاركهم على أرض لبنان لبسط أحلامهم، على أرض الآخرين!، أو لخوض الثورة في غير زمانها وأرضها الطبيعية!، أو لتسجيل انتصارات على بعضهم البعض بالنقط في أرض غير التي ينبغي أن يقوم عليها النضال!، أو لتصدير أزمة النظام السياسي لبلد جار إلى البعد اللبناني عبر الحدود المسيبة!، يساعدهم على تحقيق أهدافهم أمراء حروب لبنانيون، يعملون ضد السلم الأهلي، الذي ينبغي أن يكون شاغل كل لبناني لحمايته وضمان سلامته، لا يفرح بتوزيع الأسلحة المجانية، لأن السلاح يستدرج سلاحاً مقابلاً، ولأن اللبنانيين هم وقود كل هذه الحروب الخاسرة.

وما يزيد من قدرة وقامة غسان تويني في العالم العربي، أنه يعتبر نفسه صحافياً لبنانياً يتشرف بالانتماء إلى وطنه الصغير لبنان، لكنه يعتبر أقطار العرب وطنه الأكبر، ويرى واجبه الأول إزاء نفسه في الحفاظ على استقلاله الشخصي وكرامته الذاتية، يلتزم تقاليد حرفته ونزاهة

وحرية قلمه، يخدم القضية العربية في وطنه لبنان أولاً، يدافع عن استقلاله وحياته الدستورية وحرياته العامة والخاصة كما يدافع عن انتمائه القومي.

ولا تقتصر خدمات غسان تويني لوطنه العربي الكبير على مناصرة قضاياه السياسية، ولكنها تمتد إلى ميادين أوسع مدى وأبعد تأثيراً، حيث كان غسان ولا يزال يدعو إلى توحيد منابع التعليم وأهدافه في العالم العربي بما يصون الأمة من التفكك، ويهيئ لشبابها قدراً من التوافق والانسجام الفكري يحمي وحدتها، كما يدافع عن الثقافة والأخلاق والقيم العربية تأكيداً على الهوية العربية وحفاظاً على شخصيتها. ويعمل على صون اللغة العربية من الرطانة لتظل مرفوعة اللواء في كل بلد عربي لأن من يفقد لغته يفقد هويته، في الوقت الذي يدعو فيه إلى الحداثة والتطوير والابتكار حتى لا يتخلف العرب عن مسيرة التقدم الإنساني.

ولأن غسان كان يدرك منذ البداية خطورة حرفته التي لا تقل قوة في تأثيرها في هذا العصر عن قوة الجيوش والأساطيل، فقد كرس حياته لصون شرف الكلمة واستقلالها. لأن الكلمة الشريفة الشجاعة يمكن أن تكون أقوى من طلقة الرصاص وأكثر مضاءً من حد السيف.

ولأنه يعتبر الصحافة في جوهرها صورة من أصدق صور الحياة فقد كان من المستحيل عليه أن يرى صحافة تقوم على الرأي الواحد، تحاول أن تصب الناس جميعاً في قوالب متماثلة، وكان يعتبر صحافة من هذا النوع مجرد بوق، لأن من طبائع الأشياء أن تتنوع الآراء في الصحافة كما يتنوع الناس وغير ذلك مخالف لطبيعة البشر. لأنه لا صحافة إن لم تكن تحمل الرأي الآخر، وعندما تنحرف الصحافة عن حرفتها ولا تنشر سوى ما تريده الدولة تصبح مجرد أداة وتفقد هويتها ووظيفتها، ويتحول الصحافيون إلى مجرد موظفين ورجال علاقات عامة.

ويوجز غسان رؤيته لمهمة الصحافة وواجباتها، في أن تروي الحق حتى يعرفه الناس، وتصدق في الشهادة متى نقلت عن الآخرين، وتسعى إلى إضاءة المستقبل والتبشير به في

ضوء معرفتها وفهمها لما هو حادث، ولا صحافة من دون حرية، كذلك لا حرية من دون صحافة، لأن كل الحريات تتجمع وتجتمع في حرية التعبير، ومن خلال حرية التعبير يتشكل الرأي العام الذي هو جوهر الرأي الحر والفكر الحر، الذي يجتمع عليه أغلبية المجموع الوطني، ويعبر عن كل مواطن إذا ما تحرر من الضغوط على رأيه.

أحب غسان تويني حرفته، والتزم أصولها الحرفية والأخلاقية، لا يتسامح مع الاختلاق والكذب والتضليل، لأن شرف الحرفة يملي على الصحافي الأمانة في رواية الخبر ونقل الحادث على حقيقته.

وللصحافي أن يعلق على الخبر أو يناقشه، لكن الالتزام الأساسي يكون بصدق الخبر، لأن الكذب والاختلاق جرائم خطيرة تضلل الرأي العام..، ومن واجب الصحيفة أن تنقل إلى القارئ كل يوم الجديد الذي يحدث في عالمنا، لأن الصحيفة كائن حي إن لم يجدد نفسه أصابه الجمود والموت. ومن مسؤولية الصحيفة أيضاً، إغراء القارئ بمطالعتها، والإغراء لا يكون بالكذب أو الخداع، ولكن في اتقان الطباعة، وجمال المظهر، وحسن التبويب واختيار العناوين الجذابة. وإذا جاز للصحافة الغربية أن توغل في متابعة خصوصيات الأفراد والشخصيات بحثاً عن الجديد لإغراء القراء على مطالعتها، فإن ذلك لا يتفق مع قيم العرب وتقاليدهم، كما أنه لا يحقق الفائدة المرجوة من القراءة، لأنه يملأ الفراغ بفراغ مثله.

خدم غسان تويني لبنان وخدم عالمه العربي لأكثر من 60 عاماً، مدافعاً عن عروبة لبنان وحريته، يحارب من أجل لبنان عربي الوجه واليد واللسان، ويدافع عن حق عالمه العربي في حكم رشيد، يقوم على ديمقراطية صحيحة معيارها رضا الشعب وقبوله، ويوظف قلمه لخدمة قضية الاستنارة. يحارب العزلة والتقليد والجمود ويكره الرطانة، ويناصب الطائفية العداء ويصر على تقليم أظافرها لأن الطائفية هي الثغرة التي يتسلل منها الهدامون، ويفخر بالحفاظ على لغته العربية رصينة قوية دون ترهل لأن الإنسان إذا فقد لغته فقد هويته.

كان الأستاذ غسان ولا يزال أستاذاً في أدب المقال، أحياناً يكتب نثراً هو الشعر. وهو على وضوح فكره وصرامته ذكي الإشارة، يرسم بالحرف صوراً ورموزاً ترقى شاعريتها عند الصفو إلى حد النسيم، لكنها كثيراً ما تندفع عند الغضب جياشة كالسيل الهادر تقول الحق صريحاً قراحاً، وتكشف الكذب والنفاق، وتفضح الظلم والاستبداد، لكن جميع كتاباته تنطق بعمق الفكر، وحضور العقل، وسعة الأفق، والاحتفاء بالرأي الآخر.

غير أن كتابات غسان تويني خلال العقدين الأخيرين، اللذين فقد فيهما الزوجة والابنة والولدين، اتسمت بمسحة دينية عالية، حتى ليخال الإنسان أنه يقرأ في بعض مقالاته عظة بليغة لرجل دين موسوعي المعرفة، واسع الأفق، شديد التسامح، محزون لفقد الأهل والأحبة، ومحزون لانقطاع نسله، وحزين لكثرة شرور عالمنا لكنه يدعو الرب إلى غفران آثام الجميع. ويرى جوهر الأديان في الحض على الخير والحق والجمال، والايمان بإله واحد، ويجدل بمهارته اللغوية العالية لغة القرآن بلغة الإنجيل، ويمزج في استشهاداته بين أقوال، البابا الراحل يوحنا الرسولي، وابن عربي، والقديس أوغسطينس الفينيقي، وسماحة السيد محمد حسين فضل الله المرجعية الشيعية في لبنان. ويستشهد بتجليات الصوفية وعلماء الكلام للحض على نبذ التطرف، ورفض الغلو الطائفي، والبحث عما يجمع الناس لا ما يفرقهم.

وميزة غسان الأخرى لا الأخيرة أنه شديد الوفاء لأساتذته وأقرانه، وإن اختلف معهم في الرأي، وأول أساتذته والده جبران تويني صحافي الرأي العام كما يسميه غسان، الذي يكتب للشعب ما يحس به الشعب، وما يفهمه الشعب، وما يريده الشعب. وإذا كان غسان تويني قد فعل بلغة الصحافة اللبنانية المكتوبة ما فعله الأستاذ محمد التابعي بلغة الصحافة المصرية، عندما بسطها وحافظ على رصانتها، ونقّاها من المحسنات والسجع والتكلف، وأحالها إلى أسلوب سلس شائق فإن الفضل في ذلك يعود إلى والده الذي كان من بين الأوائل الذين ارتادوا هذا الطريق.

وعندما يكتب غسان عن اصدقائه ورفاقه القدامى سعيد تقي الدين، وكامل مروة، وعفيف الطيبي، وجورج نقاش وادوارد صعب، وكمال جنبلاط، وسعيد فريحة، وسليم اللوزي، ورياض طه، فإنه يكتب في الحقيقة عن جيله وحياته التي عاشها مع هؤلاء الرفاق، يرسم لهم بالكلمات صوراً ملونة يتداخل فيها الظل والنور، تكشف عمق إحساسه بهذه الشخصيات وما يداخلها من آمال وأحلام وخيبات أمل في بعض الأحيان، لكنه دائماً ينتقي أرق الكلمات ويكثف المعاني في كلمات موجزة تضيء عمق الحقيقة.

تحية لأستاذ عظيم، وحرفي قدير ومعلم نابه، ومحارب جسور، لا يزال مع عمره المديد يحارب معارك الغد.

غسان تويني.. هازم الأحزان، عاشق الأوطان

بقلم السفير عبد الله بشارة

شاهدت رجل الكتاب والآداب، الوزير غسان تويني في ثلاثة مشاهد تاريخية، كل واحد فيها ينطق بنسيج هذا الرجل. كل مشهد يسلط على المادة التي تنساب في عقل وجسم هذا الرجل. واقتنعت بأن غسان تويني نادر كإنسان، وفاخر كدبلوماسي، ورائع كسياسي. ورث عن والده جينات التحدي، يرتفع في المصاعب، وينهض في المواجهة، ويبدع في المنافسة، ويتميز في التفاعل مع الحق. طوال حياته عاش مع الباحثين عن الإنصاف، بصورة جعلته مؤتمناً على حقوق المظلوم وباحثاً عاش مع الباحثين عن الإنصاف، وبصورة جعلته مؤتمناً على حقوق المظلوم وباحثاً عن عدل من سطوة الحياة.

كان غسان تويني سفيراً وممثلاً لحكومة لبنان في الأمم المتحدة. جاء بثوب أكبر من المتوفر في خزائن لبنان، وبهيبة أعظم مما تهبه دبلوماسيته، وبأبهة تفتقرها وزارته، وبمكانة تتمناها قيادته. ليس من السهل لواحد مثل غسان تويني أن يندرج في لائحة الممثلين لحكومة لبنان في الخارج، فليس من المعقول أن يكون واحداً من الباحثين المغلوبين الذي يعيشون على ملفات ترسلها بيروت، يعدها كتبة من المدققين في سجلات الترقيات والتنقلات.

كان غسان شاهقاً لبلد ممزق وبارعاً لبلد مائع مغلوب الصوت، يقرأ الناس حالة حكومة لبنان أيام غسان في الأمم المتحدة، فنقع جميعاً، وأنا واحد منهم، مأخوذين بعالم غسان، ومحزونين لواقع حكومة لبنان.

ليس صحيحاً أن السفير مرآة لبلاده. كانت حياته في الأمم المتحدة آسرة وحياة لبنان بائسة.

كان السفير تويني شجاعاً ثابتاً بينما بلده متردد وشارد. لم يكن ما يقوله في مجلس الأمن وأنا شاهد على ذلك، دليل حيوية لبنان، وانما جزء من ثراء فكري وثقافي مرتفع للسفير الذي يكتب بخط نابع من خريطته الشخصية، بانفصام تام عن الخريطة التي نعرفها عن لبنان.

كنت ممثلاً لدولة الكويت في مجلس الأمن، وكان أدائي نابعاً من مواقف بلدي، وحجم دولتي، وأهليتها للمكانة التي وجدت نفسي فيها. غسان تويني لم يكن كذلك. كان موجوداً من تراثه ومكانته وثقافته وإنسانيته. وغير ذلك كان السفير التويني بمأمورية تاريخية حملها مثل الذين حملوا الرسالة في حياة الناس. كان مبدعاً من أجل لبنان. مبدعاً في حياته الإنسانية وفي خطواته اليومية، وفي أريحيته المثقفة، يعطي للآخرين لبنان وغير لبنان.

كنت أتصوره لاجئاً في صالون الأمم المتحدة، وهارباً من فساد السياسة في لبنان، ومن عقَد السياسيين ومن تفاهتهم، ومن ضآلتهم، وكنت أستعجب من ارتياحه للحياة في الأمم المتحدة شريكاً لنا نحن أهل الاحتراف الذين لا نملك «النهار» بسطوتها ولم نعش في بيئة سياسيين يتوددون لنا بزيارات ومجاملات، وكان شعوري بأنه لاجىء بالاختيار لإنقاذ لبنان من القرف الداخلي والإقليمي.

كنت أحرص على التنسيق معه من أجله شخصياً وليس حباً في بلده المحطم وحسب. وكنت أراه محبوباً في أروقة الأمم المتحدة، يدخل مكاتب الكبار ويرحب به أصحاب القرار. كان صديقاً للجميع، يتناقش مع أهل السياسة وأهل الأدب وأهل الفنون، وأهل الكتابة والخطابة. كانت له زوجة من فصول الملائكة أخلاقاً وعلماً وشعراً ورقة، ومنها يستخرج الوقود الناري الذي يشعله في صالونات الأمم المتحدة. وكانت حياته الدبلوماسية أناقة السلوك وأناقة اللمسات، وكل منا يعرف عند زيارته بأننا في داخل بيت النخبة.

أنجز غسان تويني حلم لبنان في إدخال الأمم المتحدة في الشأن اللبناني، وبقيت الأمم المتحدة في الجنوب رغم عجز لبنان المحطم عن الوفاء ببنود القرار الذي شاركت في كتابته.

ولا زال أهل لبنان في جنوبه يعيشون في أجواء إنجازات غسان، ويتجاسر بعضهم على الأمم المتحدة دون دراية بدور غسان.

شاهدت غسان تويني في يوم اغتيال ابنه الوحيد جبران، يخرج من وداعته في دور العملاق. الملائكي. ينادي لا ثأر ولا بكاء ولا عويل، لأن الديك سيصيح كل صباح، كل ذلك والناس مشدودة نحوه بالأحزان وبالدموع. يذهب الابن الشهيد إلى مكان آخر، وغسان في المأمورية التاريخية التي حملها معه في مجلس الأمن، وعاد بها إلى الصالون اللبناني الملغم.

كيف يعيش إنسان في وداعة غسان تويني في الحفر اللبنانية البائسة. دائماً أسأله هذا السؤال ولا يرد ولكنه يواصل مردداً بأنه لا يقوى على ترك لبنان تأكله الوحوش، التي أكلت ابنه الوحيد.

والمشهد الأخير مع غسان تويني المفكر والمبدع. قرأت أكثر من مائة سيرة حياة للكبار والمبدعين وغير المبدعين، معظمهم كان بائساً في حياته، أو مشرداً في مدارسه، أو معدماً في شبابه، ومحبطاً في شيخوخته. قليل من المبدعين محظوظون في مناعة طبيعية وهبها الخالق، أحياناً أقول بأن غسان تويني واحد منهم، من الذين أعطاهم الله مناعة ومكانة وهي هبة نادرة، وربما هذه مكمن السر في موضوعيته ونزعته إلى الإنصاف، وفي السخاء الإنساني الذي لم يفارقه في لحظات السواد التي صادفته في عمره المديد.

غسان تويني صديق سياسة في الأمم المتحدة، وصديق صحافة في «النهار»، وصديق قافلة يركبها الخيرون في عالم يتساقط فيه الخيرون..

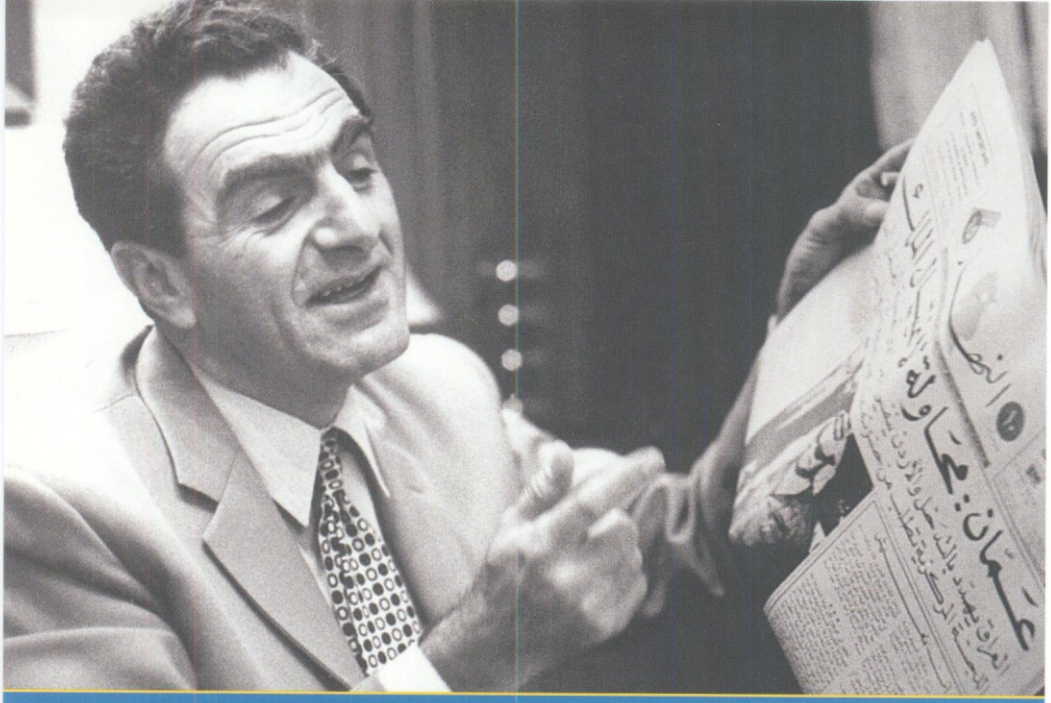

كبير المراسلين
رئيس التحرير الميداني

بقلم سحر بعاصيري

يطيب للاستاذ غسان في كل مرة يطلعني على معلومات خاصة او تفاصيل اضافية عن حدث ما ان يسألني بضحكته المعهودة: هل يعجبك هذا المراسل؟ ونضحك معاً.

ولهذا قصة.

عندما توليت مسؤولية قسم الاخبار العربية والدولية في «النهار» مطلع التسعينات كنا، كما لبنان، نخرج منهكين من الحرب. لا شبكة مراسلين لدينا ولا وسائل اتصالات او فضائيات تتيح وصولاً سريعاً إلى المعلومات في الخارج. ذات ليلة وجدت نفسي في مأزق. كنا نتابع وضعاً سياسياً متأزماً في فرنسا ولا معلومات كافية متوفرة وقد اقترب موعد ارسال الجريدة إلى الطبع. كان الاستاذ غسان يقضي اجازة في فرنسا. اتصلت به. اعتذرت لإزعاجه في ذلك الوقت المتأخر وقلت له: ليس لنا غيرك. هذا ما يحصل واحتاج إلى رسالة منك او ما يمكن ان يتوفر لديك من معلومات.

لم يتأخر. بعث لي ما يكفي من المعلومات لكتابة «المانشيت» ثم اتصل بي وسألني اذا كنت احتاج إلى المزيد. ولما اجبته بأن ما أرسله «عظيم» سألني: «هل يعجبك هذا المراسل؟ هل تقبلين به في القسم؟» كان ردي: «افضل مراسل».

وهكذا على مدى عشر سنين لم افوت فرصة للاستفادة من «الاستاذ المراسل» اينما وجد. وعندما كنت اتأخر في «تكليفه» بأية مهمة كان يتصل معاتباً. كنت اظنه يفعل ذلك من باب الدعابة او الدعم إلى حين اعادة بناء شبكة المراسلين. لكن شيئاً لم يتغير معها. ما تغير فقط هو أن «أفضل مراسل» صار «كبير المراسلين» وهو اللقب المحبب جدا إلى قلبه.

طبعاً ليس السبب رغبته في تجميع ألقاب، فمن يختصر «النهار» واكثر بأسمه وشخصه لا يحتاج إلى ألقاب ولا يطلبها، بل لان قلب الاستاذ غسان ينبض شغفاً بالعمل الميداني.

«المراسل» و«الرسالة» كلمتان محوريتان بالنسبة اليه. ففي اول اجتماع بيننا لترتيب اوضاع قسم الاخبار العربية والدولية كان همّه ضمان وجود مراسلين لـ«النهار» في العواصم الكبرى ومن ثم توسيعها إلى حيث نستطيع. وقد قدم لذلك كل الدعم والتسهيلات وفي اقل من سنة كان هناك مراسلون في واشنطن وباريس وموسكو والقاهرة والضفة الغربية وعمّان. لكن هذا، ولحسن الحظ، لم يخفف قلقه «الميداني». سؤاله الاول عندما يحصل تطور ما في اي بلد: هل لدينا مراسل هناك؟ وهاجسه الدائم: من سترسل «النهار» لتغطية هذا الحدث في هذا البلد او ذاك، سواء اكان الحدث حرباً او نزاعاً او مؤتمراً او بدايات تحوّل في اتجاه التطورات فيه. لا يتردد لحظة في اجراء كل التسهيلات لضمان «رسالة» من ارض الحدث. ويتابع «المهمة» بشغف كأنه هو المراسل الذي سيبعث برسالته.

وليس في هذا مبالغة. الاستاذ غسان مراسل بالفطرة، وفي اي موقع كان. حتى انه، على ما يروي في كتاب «سر المهنة واسرار اخرى»، عندما كان سفيراً للبنان في الامم المتحدة غالباً ما كان يتحول «في ندوات الجمعية العمومية واجتماعات مجلس الامن إلى «ريبورتر»، فأكتب تحقيقاً صحافياً (كانت بيروت تستطوله احياناً) حول ما يدور في الاجتماعات مما يعنيها، مع نصوص الخطب ان كانت فقرات منها تتناول وضع لبنان.

قد يكون احد تفسيرات «السفير– الريبورتر» هو الحنين إلى «الوظيفة الأولى» التي شغلها. «فالصحافي المبتدئ»، كما يقول «اسندت اليه اول وظيفة، ملحق صحافي بالوفد اللبناني في الجمعية العمومية الثالثة وهو كان لا يزال طالباً. انما طالب يحمل بطاقة مراسل يفاخر بها لأنها تحمل توقيع الصحافي والده وتخوله كتابة تحليلات وتحقيقات عن اخطر مناقشة في تاريخنا ومن اخطر حلبة انشأها العالم الخارج من الحرب بأحلام السلام والتنظيم الدولي الذي كنا ندرس في الجامعة قواعده والاصول».

لكن الحنين وحده لا يكفي. فتجاربه الميدانية الاولى لم تكن غنية بالاحداث التاريخية فحسب بل وضعته في قلب معنى المراسل الصحافي في تلك المرحلة. عمل المراسل كان يجسد كل سحر المهنة (والارجح ان في هذا سر المهنة!) والمغامرة والمعرفة الاولية للاحداث. فلا فضائيات تنقل الخبر مباشرة بالصوت والصورة ولا «انترنت» او هواتف خليوية، بل صحافي في ميدان الحدث ينتظر الجميع رسالته لفهم ما يجري. المراسل الصحافي في تلك المرحلة كان بكثير من المقاييس صاحب امتياز، فكيف بصحافي عربي في مرحلة دراماتيكية من تاريخ المنطقة؟ الاستاذ غسان الصحافي الميداني ينتمي إلى ذلك الجيل من اصحاب الامتياز وان كانت المسؤوليات المبكرة التي تولاها في «النهار» حالت دون اشباع نهم المراسل فيه. ففي اليوم الذي أتم فيه الثانية والعشرين، كان يتولى رئاسة تحرير «النهار». لكن المراسل فيه بقي ملحاحاً.

ويتذكر في «سر المهنة واسرار اخرى» انه «منذ تسلمي النهار في 5 كانون الثاني/يناير 1948، وحتى فترة متأخرة، كنت اتنقل، او انقل نفسي بين اعمدة الصحيفة وصفحاتها والزوايا وطبقات التحرير (..) إلى حد انني ارسلت نفسي – اذا جاز التعبير – إلى جبهة فلسطين، ودخلت القدس مع الجيش العربي الاردني في آذار/مارس 1948 بلباس جندي وشارة «مراسل حربي». وراسلت النهار من هناك، حيث تعلّمت مع المراسلين الاجانب ما هي صحافة الميدان الحقيقية قبل أن نختبرها في شوارع بيروت».

حتى انه في مراجعة لتلك «الرحلة التاريخية»، يجري مقارنة بين المقال الذي استهواه بقدر ما استهواه الريبورتاج، ليكون في استنتاجه درساً أساسياً من دروس المهنة. يقول «كتبت من الجبهة افتتاحية أرختها «فلسطين ليل 14–15 آذار/مارس»، بعنوان «اليوم الذي انتظرناه اجيالاً» لعلها كانت، بالنسبة الي اهم، مثلاً من وصف وصول الامير عبد الله، جد الملك حسين، إلى اريحا على رأس جيش ممتطياً جواداً ابيض.. ولو كتبت ذلك الوصف، كما لا ازال اذكره اليوم، وقارنت – شغفا بالتاريخ والفلسفة – بين سقوط اريحا آنذاك وسقوطها

في التوراة، بفعل «الابواق» التي هزت الاسوار، لكان للتحقيق رواج عالمي أين منه رواج افتتاحية وجدانية لم يعد أحد، ولا حتى أنا، يتذكر منها شيئاً ولا اثراً لها».

ومع انه كان في قلب الجبهة فإنه يأسف لعدم وجوده في جبهات اخرى فيقول «لو فكرت ملياً عام 1948 قبل القفز إلى الاردن لذهبت لتغطية اخبار «الجبهة اللبنانية–الاسرائيلية» حيث ذهب كامل مروة، مؤسس «الحياة»، حاملاً آلات التصوير ومتأبطاً احد انشط زملائه، رشاد بربير، وقد دخلا فلسطين من لبنان مع فوزي القاوقجي على رأس «جيش تحرير» ما، لم أعد اذكر».

هكذا يفهم الاستاذ غسان الصحافة: عملٍ ميداني حي وحيوي من دونه لا ميزة لها على نشرات وكالات الاخبار ولا دور لها فعلياً. فهل نستغرب قوله مطلع التسعينات انه «متى نعود نتأمل في هذه الامور اليوم، من الجانب المهني، نجد كم غاب عن الصحافيين العرب لا اللبنانيين وحسب، الاهتمام ثم الشغف بالقيام بدور «ريبورتاجي» على الجبهات. لا وصف حي يستهويهم، ولا تقديم ميداني، ولا دراسة عسكرية تقنية او استراتيجية، ولا سباقات صحافية... واستمر هذا الامر خلال كل حروبنا، بما فيها الاجتياح الاسرائيلي وما يحدث على الجبهة اللبنانية المفتوحة مذذاك حيث افضل الاخبار والتحليلات التقويمية يقوم بها مراسلون اجانب، ولا عربي هناك ولا حتى لبناني يذكر».

غياب لا يعتبره أقل من «ذنب غير مغفور» ساهم فيه انزلاق الصحافة العربية إلى «رتابة الرحلات الرسمية ودعوات العلاقات العامة وتغطية المناسبات».

ولعل المقارنة الاقوى، «مثل صارخ سحرني، وكدت اقول، قهرني حسداً، في اول تسلمي «النهار»، هو رحلة زهير عسيران إلى اليمن. ففي شباط/فبراير 1948 قامت ثورة في البلد العربي الذي كان يوصف بـ«السعيد»، ومذذاك صار ينافس لبنان في حروب اهله «من اجل

الآخرين» على ارضه. واذ بنا نسمع بأن الزميل زهير عسيران، مراسل «المصري» آنذاك وصاحب جريدة «الهدف» الحديثة التأسيس، قد استقل طائرة خاصة من القاهرة وهبط قرب العاصمة صنعاء في ما يشبه المطار المرتجل، فيجتمع بالفضيل الورتلاني والضابط العراقي لدى الجيش اليمني جمال جميل اللذين خلعا الحاكم الامام يحيى ودبرا قتله وهو في طريقه بالسيارة إلى الجبل لاخفاء كنز من النقود الذهبية. وعاد زهير بقصة حية وتحقيقات تجمع بين الوصف والتحليل (...) في ما لم يكن صحافي تمكن من مشاهدته ربما امين الريحاني و«الاستاذ الكبير» اميل خوري في اوروبا الثلاثينات.

وما اثار لعاب (!!!) كل صحافيي العالم هو الصور التي انفرد بها الصحافي اللبناني، انما لحساب الجريدة المصرية الكبرى: الرؤوس مقطوعة وهي تتدحرج، واجساد الامراء الذين اعدمهم الانقلابيون وهي لا تزال ترتعش على الرمال.

هذا الهاجس بالحضور الميداني هو العصب الذي يحرك الاستاذ غسان، والعصب الذي يحرك به الاستاذ غسان «النهار» وجميع الصحافيين فيها. بل غالباً ما تكون قدراتهم الميدانية هي مقياس نجاحهم. انه التحدي الاكبر لنفسه وللآخرين. وقد وجد نفسه امام هذا التحدي عندما نزل الانسان على القمر في 20 تموز/يوليو 1969 وقرر أن تغطي «النهار» الحدث «ميدانياً» وكانت النتيجة ما يعتبره افضل تحقيق كتبه. يقول: «لعله التحقيق الوحيد الذي لا يتوقع احد ان يكون لك فيه «مندوب خاص» يجريه «على الطبيعة» او مراسل يواكب الحدث و«ابطاله». البراعة هي ان يشارك واحدنا في ما يشبه المباراة بين كل صحافيي العالم وهم متساوون في الوسائل المتوافرة لهم، لان احداً منهم لم يكن هناك، على القمر، بل جميعهم يكتبون من مراكز مراقبة واحدة متشابهة.

ولما لم يكن في بيروت مركز مراقبة لعملية الهبوط انتقلت مع انسي الحاج إلى باريس، وكذلك انتقل صحافيون لبنانيون سوانا. وجلسنا طوال الليل وحتى ساعات الصباح الاولى

قبالة شاشة تلفزيون تنقل الرحلة الفضائية في مختلف مراحلها ومظاهرها بالبث المباشر. وكان في متناولنا، اضافة إلى القلم والاوراق، خط تلفوني مباشر مفتوح بدون توقف مع بيروت... وكنا ندون الملاحظات، ونتشاور انسي وانا، يحفز واحدنا قريحة الاخر، فنملي النصوص على «مطبخ» التحرير في بيروت مباشرة...

وبدأت «النهار» تفقد من الاسواق، طبعة طبعة، وفي كل طبعة كنا نغير «المانشيت» ونرسل صوراً جديدة بالراديو ومع الوكالات، ثم ننطلق من آخر ما وصلت اليه الرحلة، اي لحظات قبل الطباعة.

وهكذا ضربت «النهار» الرقم القياسي في الانتاج والتوزيع، اي البيع الفعلي الذي زاد مجموعه على المئة وثلاثين الفاً... اكثر من كل الحروب وكل الانتخابات وكل التصريحات».

وهكذا ايضاً يستمر الاستاذ غسان في تجسيد رؤيته لصحافة حقيقية لا تفقدها الفضائيات بريقها وان سبقتها في نقل الخبر، بل تثير مكملاً لها وتعطيها بعداً آخر. دائم البحث عن «رسالة خاصة» ودائم التفكير في احداث خارجية تحصل او احداث تتكون وتتطلب ارسال مندوبين لتغطيتها. ولحظة يصعد هو في الطائرة إلى اي اتجاه يصير مراسلاً.

اذا كان في أرض الحدث فان الرسالة او على الاقل بعض الاضافات إلى ما هو معروف عن الحدث تصبح مسألة مضمونة. واذا كان في «ارض» ما ولم يكن هناك حدث، فانه يصير مراسلاً في افتتاحيته لتبدأ «باريس–من غسان تويني»، «موسكو– من غسان تويني». وكم يمازحنا اذا استشهد بما كتب في افتتاحيته قائلاً «ألم يكتب لكم مراسلكم في باريس (او غيرها) كذا وكذا؟». وحتى في مضمون افتتاحيته عموماً لا تغيب نكهة الرسائل. بل لقد حوّل العديد منها إلى مساحة لنشر رسائل صحافية، تغطيات اخبارية لمؤتمرات او رحلات صحافية إلى فيتنام والهند وكندا واوستراليا والاتحاد السوفياتي قبل البيريسترويكا

وبعدها ومقابلات مع شخصيات عالمية كان من بينها في السنوات الاخيرة الملك عبدالله بن عبد العزيز.

«كبير المراسلين» بلا ادنى شك. لكنه اكثر من ذلك بكثير. انه رئيس التحرير الميداني بامتياز. لصيق بالخبر. موجود «على الارض» او دائم الاستنفار للانطلاق «إلى الارض». في الميدان هو مراسل يتحرك بحماسة صحافي في مهمته الاولى وفي مكتبه هو رئيس تحرير يحرك الجميع بخبرة أعتق مراسل.

ولعل في هذا المزيج افضل «رسالة» لا يزال يكتبها الاستاذ غسان كل يوم.

من السجن إلى الحكم

بقلم محمد البعلبكي

ليس أبهج للنفس من حديث أخ عن أخيه.

فهذا الحديث، إلى ما يتيحه لصاحبه من تأكيد أخوة وتجديد حب، يفتح صفحة الذكريات، وما أكثرها مع أخي الأعز غسان تويني، وما أجملها وما أغناها، لكي ينطلق القلم بعد ذلك انطلاقه شاهداً للحق، من غير أن تكبح الشهادة مودةٌ موصولة أو تحرجها آصرةٌ ما زادتها الأيام إلا صدقاً وثباتاً وحلاوة.

أجل، انني أشعر إذ أكتب اليوم عن غسان تويني ما أكتب، أنني انما أتكلم عن جزء من نفسي، عن بعضٍ مني لم يفترق عني على امتـداد أكثر من نصف قرن.

غسان تويني رفيق العمر هو، رفيق الحياة، رفيق العلم، رفيق القضية. فلكم هي غامرة سعادتي اليوم إذ اشارك في هذه الكلمة لهذا الكتاب الذي تصدره «دار سعاد الصباح»، في مناسبة تكريماً له كواحد من رواد الكلمة العرب الأخيار، مستعيداً بعضاً من ذكريات، وبعضاً من مراحل نضال.

لقد أضحى غسان تويني يرمز إلى جيل بأكمله تجاذبته مختلف الأحلام وتباينت منه العقائد، ولكنه لم يضنّ يوماً على بلاده بحشاشة القلب ونور العين وذوب العقل الصادق في البحث عن الحقيقة واعلاء شأن الحق مهما تعاظم الجهل أو استعلت حواجز التعصب. انطلاقاً من تشبث بالقيمة الانسانية العظمى التي هي الحرية والتسليم الراقي بحق الخلاف ضمن إطار الولاء للوطن الواحد، فإذا أنت جزء من تاريخ وطن في تاريخ انسان، وإذا أنت إزاء تطلعات أجيال في تطلعات رائد من رواد الفكر والنضال، وإذا أنت ازاء مرجع ضخم يكاد يكون مدرسة قائمة بذاتها لكل طالب علم سياسي أو ثقافة أو صحافة.

ومن أجل ذلك لن تفاجأ إذ تتوغل مع غسان تويني في عميق أغواره بأن تنتابك الحيرة: من

أين تبدأ معه وأين تنتهي. إذ الكلام متداخل هنا ومتداخل هناك في كل شأن، لكن في عفوية ومن غير افتعال.

ذلك أنه انعكاس لهذه الشخصية الالمعية الجوانب الواسعة التشعب، التي ندر أن عرفت مثلها صحافة لبنان بل كل صحافة العرب.

فهو الصحافي، وهو السياسي وهو المثقف المفكر، وهو المناضل العنيد، وهو هذا وذاك في آن معاً، يتساوى عنده في الجوهر جانب مع الآخر، في اندماج فريد قد يكون عند الناس هو وراء ما بلغه من جاه الامامة في عالم الصحافة. ولكأن الشاعر العربي قد تحدث عن غسان حين قال قبل ألف عام في بيتين من أجمل ما قيل في الخمريات:

رقَّ الزجاجُ وراقتِ الخمرُ فتشابها وتشاكلَ الأمرُ
فكأنما خمر ولا قدحٌ وكأنما قدحٌ ولا خمرُ

أفكان اذن عجباً أن يكون هذا الفتى القادم قبل أكثر من خمسين عاماً من جامعة هارفارد واحداً من القلة النادرة من رواد عصرنة صحافتنا عصرنة مستمرة لا ينقطع لها اندفاع الا لتبلغ او تتخطى ان استطاعت ارقى مستويات الاعلام عند أرقى الشعوب؟

وعندي أن سرَّ تألق غسان تويني هو ذاك الثالوث الأقدس الذي استحوذ عليه منذ الفتوة وحتى اليوم، عنيْت ثالوث التوق الأزلي الدائم إلى المعرفة، والتمرد المستمر على الواقع، وكلاهما لا يمكن أن يكون لهما يناع اذا لم تتوفر الحرية كل الحرية. وانما لثلاثة اقانيم لا بد من أن تكون في واحد، هو الموضوع وهو الغاية. لا بد أن تكون في واحد أحد هو الانسان.

فما لم يكن الانسان حراً في مجتمع حر كل الحرية، فأي بطولة عظمى يجب أن تتوفر له وقد تقتضيه الاستشهاد ليتمكن من التشبث بالتوق إلى المعرفة، ومن التمرد على الواقع، دفاعاً عن حقه الأقدس وحفاظاً على انسانيته المثلى.

ولقد عرفت غسان منذ فتوته، طالباً على مقاعد الدراسة، وزميلاً ورفيق نضال وصديقاً حميماً في السراء والضراء وحين البأس. فراعني فيه في كل حال وعلى تعاقب الاعوام تشبثه المستمر المتعاظم بالحرية سبيلاً إلى نور المعرفة، وإلى التمرد الخلاق بكل ما يفتح التمرد من آفاق التغيير والتطوير طلباً للأجمل والأكمل والأمثل.

انه المتمرد بامتياز: المتمرد على كل واقع، لا سيما على واقع الجهل والتخلف والفساد وعفن الضمائر، وأكاد أقول المتمرد حتى على الموت.

انه المتمرد في كل لحظة، حتى لتخاله في ذبذبات تمرده، ذلك الزئبقي الذي يستعصي على الضبط، كما يستعصي أحياناً على الفهم الا اذا سبر غوره من هذا المنظور.

فكيف لا يكون السجن إذن وقد كنا معاً في مقدمة رواده مطلع عهد استقلال لبنان من غير أن يحول بيننا وبين مواصلة الكتابة من وراء القضبان – كيف لا يكون السجن إذن سبيلك غسان تويني إلى أرقى مراتب السياسة، نيابة ووزارة وتمثيلاً للبنان في أعلى المحافل الدولية؟ وهو الذي كان ولا يزال يحلو له كما يحلو لنا النضال المستمر الذي تهون معه أغلى التضحيات انتصاراً للحرية، مرددين مع الشاعر ابن الجهْم:

قالوا حبستَ فقلت ليس بضائري ... حبسي، وأي مهندٍ لا يغمدُ
أو ما رأيت الليث يألف غيله ... كبراً وأوباش السباع تصيّدُ
والشمس لولا انها محجوبةٌ ... عن ناظريك لما أضاءَ الفرقدُ

انه ابداً، في كل ما كتب وكل ما فعل، في حضرة الحرية. ما أقبل يوماً على سكب مدادٍ ولا انطلقت يوماً له قريحة في ابداء رأي او اعلان موقف الا وكان في حضرة الحرية، حتى غدا في الصحافة وفي السياسة عرقها النابض دون كلل، لا تنال منه صروف الدهر أو تصيبه بأي وهن، بل لا تزيده تجارب الدنيا الا شباباً وحيوية وقوة ليستمر دافقاً بنسغ الحياة للانسان وللمجتمع وللوطن. وأين لمثل هذا المتمرد الحر أن يقع فريسة السأم أو يقعده اليأس على نحو ما قد يخيل إلى من يتوهمون ذلك أو يتمنّونه؟

دمت لنا يا أخي الأعزّ، ودام لنا تمردك الحي شعلة لا تنطفىء بإذن الله، بل تضيء على الدوام درب الحرية، فتنير السبيل للإنسان وتضع في وضح النهار لبنان وعالم لبنان.

ويبقى الفضل كل الفضل والشكر كل الشكر للشاعرة الكبيرة الملهمة الدكتورة سعاد الصباح التي يأتي تكريمها لغسان تويني صفحة من أنصع صفحات المروءات.

غسان تويني المحرك

بقلم رلى بيضون

صحافيون كثر من أبناء «النهار»، بعضهم ما زال في الأسرة الأم وبعضهم انتقل إلى صحف اخرى، يدينـون لغسـان تويني بنجاحهـم فـي هـذه المهنـة، بـل باعتناقهم اياها أساساً. فلولاه لكان قسم كبير من هذه المجموعة فوّت فرصة نادرة أو تعذّر عليه بلوغ القمة حيت تربع.

لماذا؟ لأن لدى غسان تويني أولاً حدساً يمكّنه من «اكتشاف» الصحافي الحقيقي، أحياناً، قبل أن يكون هذا الأخير قد اكتشف نفسه. ومنبتُ هذا الحدس علاقته الفريدة بهذه المهنة التي تعرت من أسرارها في حضرته، جاعلة منه أهم صحافي في لبنان، وأحد أبرز الصحافيين في العالم. فهو مزود «انتينات» تلتقط من هو مؤهل فعلاً ليكون صحافيّاً ماهراً، ومن منحته الملائكة المجتمعة من حول مهده لدى ولادته «موهبة» الفضول والشغف بالمعرفة وهاجس نقلها إلى الآخرين.

هو الذي مارس دور رئيس التحرير، حتى عندما لم يكن هذا منصبه الفعلي، يمتحن الجميع: البعض من خلال رؤساء الأقسام المعنيين، والبعض الآخر يثير اهتمامه سريعاً، مباشرة. وعندما يعتقد أنه وجد «تلميذاً» واعداً، يعمل على إخراج أفضل ما لديه، من طريق «الحفر» في أعماق ذاك الشخص، من دون كلل أو ملل. أما إذا لم يجد عطاء حقيقياً او موهبة، فيفقد الاهتمام كلياً.

ثقة ودعم مباشر

ما يميز غسان تويني أيضاً الثقة الكبيرة التي يمحضها الذين يكتشفهم، والتي كثيراً ما تفوق بأشواط ثقتهم هم بأنفسهم، أو على الأقل تسبقها. وهذه الثقة، إلى كونها شرفاً كبيراً لأنها نابعة من كبير الصحافيين، ترتب بدورها على التلامذة مسؤولية هائلة، اذ يشعرون بضرورة ألا يخيبوا ظنه.

وانطلاقاً من إيمانه هذا، وربما أيضاً لاثبات صحة رأيه في «المكتشفين»، يمنحهم ما هو ضروري لاثبات أنفسهم: الدعم. وإذ بهذا الرجل الذي يؤدي منذ أكثر من نصف قرن دور

«المحرّك» الأول لـ«النهار»، يتولى أيضاً «تحريك» هؤلاء فرداً فرداً، ومباشرة. فيتصل بالأول ليوكل إليه مهمة محددة، واذا لم يتلق سريعاً ودورياً أصداء منه، لا ينفك يلاحقه بنفسه حتى إتمامها. ويرسل إلى الثاني لائحة بأسماء أشخاص، كثيراً ما يكونون من أصدقائه، يمكن أن يساعدوه على إغناء تحقيقه. ويهدي إلى الثالث مجموعة كتب قد تعزز البحث المكلف القيام به. حتى المراكز المهمة، والزوايا المرموقة في «النهار»، يمنحها أحياناً من دون استشارة الشخص المعني، والذي يجد نفسه في مركز مسؤولية، فيجهد ليكون على مستواها. وهذه الطريقة جعلته «يخترع» صحافيين من الألف إلى الياء.

«جامعة الصحافة»

من تسنّى له أن يعد نفسه أحد هؤلاء «التلامذة» يكون محظوظاً جداً. فإلى كونه يتعلم الصحافة في إحدى أهم مدارسها في لبنان، أي «النهار»، يكتسب أيضاً الكثير من هذه العلاقة المباشرة مع غسان تويني، وهو «جامعة» في الصحافة والسياسة والثقافة... والحياة.

وفضلاً عن التوجيه المهني المرتبط بمقال أو بحث محدد، يتلقى التلميذ مبادئ مهمة في الصحافة، هي نفسها التي ضمنها غسان تويني مفكرة وجهها إلى محرري «النهار» عندما عين وزيراً للمرة الاولى عام 1970، وأبرزها: الأمانة الصحافية، استباق الحدث، تحريك المطالب والتيارات والحرص على تقديم أفضل نوعية. وفي المفكرة نفسها أن الصحافي هو «ضمير الرأي العام»، وأن صاحب «النهار» الحقيقي هو القارئ.

واكثر الصحافيين المتعلقين بجريدة «النهار» هم الذين يشاركونها مهنيتها وقيمها. ففي ما يعود إلى المهنيّة، من اللافت أن ما يتعلمه الصحافي «على الارض» في «النهار» يكاد يكون تطبيقاً حرفيّاً لكل النظريات التي درسها في كلية الاعلام وأوردتها الكتب المتخصصة والمحاضرات عن الصحافة. وهذا ليس أمراً مسلّماً به في كل وسائل الإعلام.

اما في القيم، فكم يسر الصحافي الذي يعمل في مؤسسة هي رأس الحربة في الدفاع عما يؤمن به. ولم تكن المعركة الاخيرة التي خاضتها هذه الصحيفة دفاعاً عن استقلال لبنان وسيادته وحريته الا نموذجاً آخر من نضالها من أجله، وهي لم تحِد مرة عن هذه الطريق. وقد دفع غسان تويني ثمناً باهظاً جداً في هذه المعركة، اذ استشهد ابنه جبران، احد ابرز قادة «انتفاضة الاستقلال» والركن الأساس في «النهار»، بعدما سبقه في الاستشهاد الزميل سمير قصير، الذي كان أيضاً من اهم قادة هذه الحركة، إلى كونه «الابن الروحي» لغسان تويني.

وتمسك صاحب «النهار» بهويتها صحيفة «لبنانية عربية، لا طائفية، ديمقراطية وغير حزبية»، بدا واضحاً منذ تسلمه رئاسة تحريرها في 5 كانون الثاني/يناير 1948، في عيد ميلاده الـ 22. فبدلاً من افتتاحية باسمه، حرص على نشر «الوصية الصحافية» لوالده جبران تويني، تحت عنوان «بيان وعهد» وبتوقيع «النهار». وقد عددت تلك الرسالة (التي أودع فيها مؤسس «النهار» بسبب سفره ابنه وليد الأمانة)، هذه الصفات.

تشجيع وإشادة

يحترم غسان تويني، المحترف إلى أقصى حد، الأشخاص المحترفين الآخرين، ويقبل اعتراضاتهم و«اقتراحاتهم المضادة» حتى عندما يكون هو بنفسه من طلب منهم عملاً معيناً. وكثيراً ما تتخطى العلاقة إطارها المهني الصرف، وينشأ نوع من «التواطؤ» تحول مع بعض من يعرفونه منذ زمن بعيد صداقة متينة.

وبمقدار ما هو صارم وغير متسامح مع الذين يستهترون بعملهم الصحافي، يعرف كيف يشجع من يعلم أنهم يبذلون أنفسهم من أجل «النهار»، ولا يتردد لحظة في الاتصال بهم وتهنئتهم عندما يرى أنهم حققوا، بتفوق أحياناً، ما كان مطلوباً منهم. ولا يجد حرجاً في

الإشادة بهم علناً، وبالتعريف بهم عندما يكونون إلى جانبه في مناسبة ما. وكم يفخر هؤلاء بافتخاره بهم...

وغسان تويني المنصرف لـ«النهار» (والذي لم يبعد عنها لحظة حتى خلال سفره أو شغله أبرز المناصب)، يتوقع الأمر نفسه من الآخرين، غير مدرك أنه ليس كبقية الناس. وفي حين أن هذا يتعب البعض فلا يعود يتسنى له «إغماض عينيه أو صمُّ أذنيه أو شرود تفكيره أو ذاكرته لدقيقة، إذ يجب أن يكون دائماً مستنفراً، وقد يكون ذلك احد أسباب مغادرة بعض الأقلام «النهار»، يرى البعض الآخر في هذا التصرف دفعاً قوياً وحافزاً لمزيد من العمل والتفاني، ويشعر مثله بإرادة العطاء من دون حساب.

«الأنا مكروهة»، هكذا تعلمنا الصحافة، فلم أستعملها يوماً في عملي الصحافي، لاحتشام ربما وتواضع ومهنية. إلا أنني سأخالف القاعدة، ولو قليلاً، للقول كم أدين لغسان تويني. فجزء كبير مما كتبته أعلاه مستوحى من تجربتي، لأنني من المحظوظين غير الكثيرين من الجيل الجديد (نسبيّاً) الذين تتلمذوا على غسان تويني.

عندما انضممت إلى أسرة «النهار» قبل تسعة اعوام تقريباً، كنت قد كونت خبرة في وسائل إعلام أخرى وخصوصاً الزميلة الناطقة بالفرنسية «لوريان لوجور»، حيث كانت تجربتي مهمة جداً بالنسبة إليّ وتعلمت الكثير منها، وقبلها «تلفزيون لبنان» وإذاعة «راديو فرانس».

وفي المرحلة الأخيرة من عملي في «لوريان لوجور»، في الطبقة السابعة من مبنى «النهار» في الحمراء، كنت أمر كل يوم تقريباً، أو بالأحرى كل مساء، بالطبقة الثالثة، وأمضي بعض الوقت مع محرري «النهار». ولا شك في أن «النهار» كانت تثير إعجابي.

مدخلي إلى «النهار» كان غسان تويني، الذي كان يقرأني بالفرنسية، لكنه «امتحنني»

بالعربية قبل دعوتي إلى دخول «أمبراطوريته»، بعدما أبديت رغبة في ذلك. وكنت أعدُّ «النهار» وقتذاك، ولا أزال، أهم جريدة في لبنان وأفضل وسيلة إعلامية يمكن الصحافي أن يعمل فيها، في ربوعه. فقدمت الامتحان المطلوب، ونجحت، و«اشتغلت» على نفسي، بمساعدة صديق وفي، حتى تمكنت من الكتابة بأسلوبي نفسه ولكن بالعربية.

وغسـان تويني الذي كلفني مهمتي الأولى (تحقيق عن قضية رأفت سليمان وطوابع وزارة المال)، أوكل إليّ تحقيقات أخرى كثيرة. وأيضاً تحت اشرافه خضت نمط «المقابلة – البورتريه»، بداية مع شخصيات أجنبية، ثم مع أخرى لبنانية وديبلوماسية. وكنت – ولا أزال – أنسق معه واستشيره وأسر كلما اتصل بي طالباً مني إجراء مقابلة مع شخصية مهمة أو تغطية مؤتمر كبير أو محاضرة. وهو الذي يحب الصحافي الماهر الذي يجب ألا يتخصص في مجال واحد، بل أن يكون في إمكانه تغطية أي حدث والكتابة في أي موضوع.

ولأنني افتخر بأستاذي، فمن يزر غرفة جلوسي يجد في المكتبة هديته لي لمناسبة زواجي، وخلفها الرسالة التي أرفقها بها، واعتبرها فأل سعد.

وأحتفظ في المكتبة نفسها بعدد من مجلة «الرجل» صدر قبل عام ونصف العام، يتضمن مقابلة مع غسان تويني أشار فيها إلي على أنني إحدى أفضل المحاورات في «النهار». قال بالحرف: «أحد أبرز الصحافيين الذين أجروا أحاديث في «النهار» هو فتاة، وأذكر هنا رلى بيضون فهي استطاعت أن تحظى بأحاديث مهمة وليس من منطلق أنها فتاة جميلة، بل لأنها درست مواضيعها بعناية ونسقت مع رئيس التحرير ووضعت خطة». وهذه، في رأيي، أهم شهادة في الصحافة يمكن أن أنالها في حياتي. وغالباً عندما أجلس قبالته، بداية في مكتبه في الطبقة التاسعة في الحمراء، واليوم في الطبقة السادسة في مبنى «النهار» في البرج، أشعر بفخر كبير. ها أنا أدردش مع غسان تويني، الذي طالما قرأته وقرأت عنه. هذا العملاق الذي

عرف الكبار في لبنان والعالم، وصادق بعضهم من دون أن يمنعه ذلك من انتقادهم إذا أخطأوا، ونذر نفسه للصحافة وخصوصاً للبنان. ها أنا أستمع إليه يشركني في أفكاره وانطباعاته ومشاريعه. وها أنا أشرب معه القهوة، محاولة الإفادة إلى أقصى حد من هذه الجلسات مع شخصية تاريخية، شاكرة لله هذه النعمة، ومتمنية أن تدوم طويلاً.

نهر الأحزان لا يجف!

بقلم عادل حمودة

لم يبق من لون الشيوعية الأحمر في حياة زعيمها ميخائيل جورباتشوف سوى لون جواز سفره الصادر في موسكو يوم 22 نيسان/أبريل عام 2002 ويحمل رقم 57988.. وقد حصلت على نسخة منه.. واحتفظت بها بين أوراقي التاريخية الثمينة.. مثل خطابات جمال عند الناصر العاطفية لزوجته تحية كاظم في حرب فلسطين.. ومثل يوميات اختطاف اللواء محمد نجيب ونقله سراً إلى جنوب مصر في حرب السويس.. ومثل بعض الخطابات التي أرسلها سيد قطب وهو في الولايات المتحدة الأميركية.

كان ميخائيل جورباتشوف يقيم في الجناح الرئاسي في فندق فينيسيا.. أشهر وافخم فنادق بيروت.. وكان يتنقل بسيارة «بي أم دبليو» تحمل رقم 288142 وترافقه 3 سيارات «شيروكي» مسلحة بالمدافع الرشاشة من الجيش اللبناني رغم أن زيارته التي جرت في 10 نيسان/أبريل عام 2003 لمدة يومين كانت زيارة خاصة بمناسبة إعلان تأسيس منظمة خيرية باسم الأميرة «أنستازيا رومانوف».. الأميرة الوحيدة المتبقية من قياصرة روسيا البيضاء قبل نجاح الثورة الحمراء وبعد ذبح عائلتها.

لقد قرر آخر زعماء الكرملين أن يرد اعتبار آخر سلالة القياصرة.. إنها مفارقة تبدو خرافية.. لا توجد إلا في شطحات وحكايات «ألف ليلة وليلة».. الدستور الدائم في حياة الشرقيين.. من الجنرالات إلى العشاق.. ومن الحكام إلى الأولياء.

في المصعد الذي هبط بنا من الدور العاشر كان جورباتشوف يتصرف بخفة ظاهرة لا تليق برجل حكم امبراطورية عظمى في يوم من الأيام حتى لو انتهت على يديه ووصلت خفته إلى حد محاولة تقبيل الفتيات اللآتي تصادف وجودهن. ولم يكن أمامنا أنا وغسان تويني سوى أن نتبادل نظرات الدهشة والاستغراب.. ونصمت.. فكيف تقول لرجل شغل منصباً مؤثراً في مصير الدنيا كلها: «عيب»!

كانت لحظات المصعد الخاطفة من الدور العاشر إلى الدور الأرضي هي اللحظات الأولى التي رأيت فيها غسان تويني أول مرة.. كنت أنا وهو وثالثنا جورباتشوف.. وأتصور أن هذه الصدفة المدبرة من القدر هي أفضل وسيلة تعارف بين صحافيين مثلنا يؤمنان بمتابعة الحدث عن قريب لا بتأمل من بعد.. كان كل منا قد جاء بحثاً عن إجابة لسؤال لا يزال غامضاً ومثيراً وصعباً: كيف انزلقت شخصية سياسية مثل جورباتشوف بقيمتها وقيمة بلادها من القمة إلى القاع بسرعة مذهلة لا يقدر عليها الشيطان نفسه؟.. كيف تحول الزعيم الأحمر إلى موديل إعلانات تروج للبيتزا والدجاج المتبل بالخلطة الأميركية السرية؟.

في تلك اللحظات بدا لي غسان تويني مثل كبار الأمراء في بلاط صاحبة الجلالة العربية الذين لا ينامون إلا إذا توصلوا إلى كل ما جرى في بلادهم من أخبار السياسة والنميمة والجريمة.. وقد عرفت منهم عن قرب الأكثرهم شهرة: محمد حسنين هيكل ومصطفى أمين وسليم اللوزي وأحمد بهاء الدين وإحسان عبد القدوس.. وغيرهم من يعرفون أكثر مما يكتبون..ويبيحون.. وينشرون.. ويتحدثون.

في صالة الفندق الكلاسيك سألت غسان تويني السؤال الذي شغل البشرية كلها: «هل تعتقد أن جورباتشوف كان عميلاً خفياً للمخابرات المركزية (الأميركية) لتدمير بلاده كما أشيع عنه فيما بعد؟».. وبصوته الهادئ وملامحه التي لا تتغير مهما كانت أهمية ما يقول أجاب: «الأميركيون ليسوا من السذاجة لتجنيد شخص أبله مثل هذا الرجل.. إنه فلاح ساذج من جورجيا جرى التغرير به.. هل عرفت أنه كان يريد السهر في ملهى ليلي ليعبث دون تقدير للعواقب؟».

والحقيقة أنني كنت أعرف الخبر.. وأعرف اسم الملهى الليلي.. بل إنني نصحت مستشاريه بالعدول عن الفكرة حتى لا تكون فضيحته مدوية بالصوت والصورة.. وتولى ترجمة هذه النصيحة المخلصة التي أخذ بها جورباتشوف الصحافي المصري المقيم في موسكو

الدكتور سامي عمارة الذي رافقه في رحلته وتولى التوفيق بين اللغتين الروسية والعربية حتى يفهم الجميع ما يقال بهما.

كان لا بد أن أتوقف عند سرعة غسان تويني في معرفة الخبر مهما كان خفياً وبسيطاً.. ولا أقول تافهاً.. إن غريزة الصحافي في عروقه لم تجف ولم يصبها غرور الكاتب بالتلبد.. هو صحافي ولو كان عمره قد تجاوز الثمانين سنة.. هو صحافي ولو كان يحمل درجة الماجستير في العلوم السياسية من جامعة هارفارد.. هو صحافي ولو عين سفيراً لبلاده لدى الأمم المتحدة ولدى الولايات المتحدة.. هو صحافي ولو كان وزيراً ونائباً لرئيس الوزراء.. هو صحافي ولو كان نائباً في البرلمان.. هو صحافي ولو كان صاحب صحيفة يومية شهيرة مثل «النهار».. إن ذلك كله لم ينسه أصل مهنته.. الخبر الصحافي.

إن الصحافي يبقى.. والحاكم يذهب.. فلا أحد يتذكر رؤساء الحكومات الذين امتلكوا السلطة في مصر في سنوات إبداع توفيق الحكيم.. وطه حسين.. وعباس محمود العقاد.. وعبد القادر المازني.. وصلاح عبد الصبور.. وفتحي غانم.. ولكنهم يتذكرون هؤلاء المبدعين ويكتبون اسماءهم في قلوبهم وضمائرهم بخيوط الذهب والفضة.. ونسي الناس أن محمد حسين هيكل باشا كان رئيساً لمجلس الشيوخ في مصر قبل الثورة.. وزعيماً سياسياً معارضاً.. لكنهم لم ينسوا أنه مؤلف رواية «زينب».. أول رواية عربية تنشر في القاهرة.

وربما لهذا السبب حافظ غسان تويني على سر الخلود.. الكلمة.. ونسي متاع الدنيا الزائل.. السلطة والثروة والقوة والمناصب الرسمية.. وأغلب الظن أنه استوعب الدرس نفسه الذي استوعبناه في مصر: بقاء الكاتب وزوال الحاكم، بقاء كامل مروة، وسعيد فريحة، ورياض طه، وتوفيق يوسف عواد، وعفيف الطيبي.. وميشال شيحا.. وغيرهم من مشاهير الكلمة في لبنان رغم أن كل ما اكتلموه هو قطرات دم.. وكان نصف رغيفهم قمحاً والنصف الآخر حرية.

على أن أغلب الظن أن غسان تويني مثله مثل غيره من الصحافيين اللبنانيين الذين لا يؤمنون كثيراً بهذه النظرية.. نظرية زوال السياسي وخلود الصحافي.. ويعتبرونها نظرية مصرية لا تصلح للأمة اللبنانية التي تمنح مساحة أكبر من ذاكرتها للسياسة على حساب الصحافة.. وان كانت في غالبية الأحيان لا تفرق بين النوعين.. وتعتبرهما وجهين لعملة واحدة يسهل صرفها من أي وجه.. فصحيفة «النهار» تحولت من صحيفة إلى حزب.. وتحول مؤسسها جبران تويني من صحافي إلى نائب في البرلمان وسفير ووزير للتربية والتعليم.. وهو ما تكرر مع ابنه غسان.. وحفيده جبران.

في اليوم التالي رافقت جورباتشوف إلى بيت وليد جنبلاط.. البيت عتيق.. يبعد عن قلب بيروت بنحو أربعين كيلومتراً.. تحاصره أسوار.. ويحميه حراس.. بني منذ ثلاثة قرون تقريباً.. ويبدو وكأنه قلعة صغيرة منحوته في جبل.. وفي مكتبه الذي يشبه المتحف الحربي.. راح الزعيم الدرزي الذي لا يكف عن الحركة يستعرض بحنان متدفق الأوسمة والنياشين والتذكارات التي حصل عليها هو وعائلته من الزعماء السوفيات المتتالين بمن فيهم جورباتشوف نفسه الذي أهداه «بلطة».. وفي فاترينات زجاجية وضع ثياباً عسكرية لضابط في الجيش الأحمر لم يعد لها مكان سوى المتحف.

ولم أمنع نفسي من أن أقول لجاري على مائدة الغداء في غرفة الطعام الضيقة: «إن جنبلاط بحماسته للاتحاد السوفياتي ينسى أنه لم يعد على الحياة».. فكان تعليقه: «فعلاً الضرب في الميت حرام كما تقولون في مصر».. وكان جاري صاحب ذلك التعليق الساخر.. المكثف.. هو غسان تويني نفسه.

ولم يمر الوقت هدراً كما أراد جورباتشوف الذي كان يميل إلى المزاح مثل مهرج في سيرك شعبي رخيص حتى لا يتورط في محاكمة نصبت له من ثلاثة صحفيين عرب أوجعهم ما

فعل.. غسان تويني وأنا وطلال سلمان الذي انضم إلينا.. وكان هناك رابع يرقبنا في صمت وابتسامة خفيفة.. هو جبران تويني.. ابنه.. المسمى على اسم والده.. مؤسس «النهار» قبل نحو ثلاثة أرباع القرن.. بالتحديد في عام 1933.

لقد قابل «الأرجوز» الشيوعي السابق حماسة مضيفه وليد جنبلاط للحوار معه بابتسامة بلهاء لا معنى لها.. واهتم أكثر بالطعام اللبناني الشهي الذي تفرغ لتناوله.. خاصة «التبولة».. و«البقلاوة».. وهو ما جعلنا ننصرف عنه بأحاديث جانبية.. منه ما دار بيني وبين غسان تويني عن قوة الاستقرار في لبنان الذي بدا أنه يسعى جاهداً لنسيان سنوات الحرب والخراب بمزيد من افتعال الفرح والمرح.. وكان رأيه: «إن ما يظهر على سطح الحياة في لبنان مكياج شاحب لما يغلي تحت السطح.. إن الكعكة المحشوة بالمتفجرات أكثر سخونة من طبقة الكريمة الباردة التي تغطيها».

لم يكن من السهل أن أقتنع بما قال.. فكل المؤشرات والسهرات والملاحظات تؤكد أن بيروت تعيش في رفاهية غارقة في المتعة حتى أذنيها.. ملاه ليلية لا تنام قبل الصباح.. فنادق فاخرة عامرة بالسياح الأثرياء.. محلات أنيقة تبيع آخر ما تنتجه عبقرية التسويق.. نساء يمشين في الشوارع وكأنهن يصورن مشاهد حية لقنوات ومجلات الموضة.. مطربون وطبالون وزمارون يعزفون بصخب يغطي على صوت البركان الذي يكشر عن أنيابه في انتظار من يستفزه كي ينفجر.. وهو ما حدث في عملية اغتيال رئيس الحكومة الأسبق رفيق الحريري.. لقد أيقظ اغتياله الوحش النائم فاستيقظ طالباً كميات هائلة من الدماء البشرية الساخنة.. الطازجة التي تعود عليها.. وحرم منها منذ نهاية الحرب الأهلية.

في تلك اللحظة صدقت غسان تويني عندما كتب يصف الصحافي بأنه «هذا الجنس الغريب من الناس الذي تفرض عليه مهنته معايشة أحداث متضاربة إلى حد اقترابه من حافة الجنون

ولولا قدراته على الربط بين الأحداث بمنطق ما لفقد عقله. والمنطق هنا ليس منطق الصحافي ولا منطق المؤرخ وإنما منطق الأحداث نفسها.. «يستقرئها الصحافي المرة بعد المرة فيفهمها كما لا يفهمها صانعوها».

إن القلم في هذه الحالة يكون عقل الحياة وصديقها والوحيد القادر على فهمها واستيعابها وإنصافها.. وبهذا التصور خرجت «النهار» للنور من رحم مطبعة متواضعة في وقت كانت فيه الصحافة العربية كلها مجرد «خبر متواضع» ورأي ساذج و«حروف غليظة وأعمدة متطاولة وصفحات متعارضة».. لا عنوان عريض.. ولا مانشيت نحيف.. بل مساحات من السواد تعمي العين.. لا تضيء بلون مختلف.. أحمر أو أزرق.. وعندما قامت الثورة في فلسطين عام 1939 نشر الخبر بعنوان بارز على عرض الصفحة الأولى. فكان ذلك بمثابة ثورة أخرى.. صحافية.. بعدها لم يعد القارئ يقبل بخبر هام دون إبرازه في مانشيت يليق به ويبرزه ويمنحه الأهمية التي يستحقها.

لقد قامت «النهار» بهذه الثورة.. ثورة المانشيت.. وقد تمنت أن تكون جاهزة بمانشيتاتها الضخمة في حوادث تاريخية شهيرة وقعت قبل صدورها.. بل وقعت قبل أن تعرف البشرية الصحافة أصلاً.. مثل إعلان الثورة الفرنسية.. ووصول العرب إلى إسبانيا.. واكتشاف كريستوفر كولمبس أميركا.. وتتويج الفرعون الإله في أهرامات الجيزة.. وربما كان الشعور بالعجز أمام تغطية أحداث ولدت قبل «النهار» بمئات السنين على الأقل وراء اهتمامها بالتاريخ القريب والبعيد باعتباره علم التجارب التي لم نعشها لا باعتباره علم الأحداث والحفريات الميتة.

لكننا في وطننا العربي لا نستوعب مثل هذه الخبرة ونصر دائماً على أن نبدأ من الصفر.. وكأن الذي خلقنا لم يخلق غيرنا.. ومن ثم فإننا نكرر – جيلاً بعد جيل – الأخطاء نفسها بالحماسة نفسها.. ولا نلدغ من الجحر نفسه مرتين بل مائة مرة.

ولا أعرف هل يتذكر «غسان تويني» فناجين القهوة التي شربها معه صحافيون من مختلف أنحاء العالم العربي في فندق «الجميرة» في «دبي» جاءوا إلى تلك الإمارة المثيرة للاهتمام والجدل والانبهار ضيوفاً على جائزة الصحافة العربية؟.. هل يتذكر كيف كان توصيفه للأمة العربية التي تتخبط في الماء ولا تغرق.. وتلبس ثياب السفر ولا تسافر.. وتكتب الرسائل الغرامية والسياسية ولا ترسلها.. وتحجز تذاكر على كل الطائرات المسافرة إلى كافة أرجاء المعمورة وتبقى بلا حقائب في المطار؟.. إن هذا التوصيف العابر الذي سمعته ذات صباح كشف لي عن رؤية ساخرة وربما عدمية في ما يقول غسان تويني أحياناً.. وهو ما جعلني أتأمله طويلاً.. وأسأل عنه كثيراً.

وقد قال عنه الشارد والوارد والقاصي والداني والقريب والبعيد الكثير.. مما جعلني أتصوره شخصاً استثنائياً.. خارجاً عن قوانين البشر.. ومتمرداً عليها.. إن الإنسان العادي يندر أن يعيش أياماً غير عادية.. قليلة جداً هي الأيام غير العادية في حياته.. الأيام التي يخرج بها من قفص بشريته ليصبح طائراً حراً.. يحلق بعيداً عن القيود والعهود.. ليقول ما يشاء... ويحرك جناحيه كما يشاء.. ويحب ما يشاء.. في الوقت الذي يشاء.. لكن.. غسان تويني كما أجمع كا من حدثوني عنه معتاد على الوصول إلى ذروة حريته.. معتاد على الخروج من الصندوق المختوم بالشمع الأحمر الذي هو العادات اليومية والمصطلحات الاجتماعية ليرى حريته على الطبيعة ويمارس معها التمرد والعشق على الطبيعة.

إن الإنسان في رأيي مهما كان مدعي حرية وليس حراً يتصور.. أنه ليس حراً –كما يقول سيد شعراء هذا الزمان نزار قباني– حتى في صلاته مع يديه وشفتيه وثيابه وكلامه وحواره اليومي.. لكن.. غسان تويني نجح في توسيع حريته.. وتخلص من صمغه ومساميره.. وخرج من صندوق النفاق الاجتماعي، ومن مغارة المخاوف والهواجس.. ومارس حريته كما يمارسها عصفور شارد في البرية.. أو طبلة صارخة الإيقاع في قبيلة أفريقية.. استوائية.

ولا جدال في أن هناك أسباباً مختلفة وراء ذلك.. منها الوراثة.. والموهبة.. والممارسة.. والخبرة.. لكن.. يضاف إليها سبب آخر خارج تماماً عن إرادته ومشيئته.. سبب لا فضل له فيه.. ولا جميل عليه.. هو أنه عاش موت أقرب الناس إليه.. وتجاوزه.. فلم يعد يخشى شيئاً.. لا حاكماً ظالماً.. ولا جلاداً قاسياً.. ولا سيافاً يطيح رقبة كل من ينتقد سيده الذي يحكم بأمره.. ولكنه يقول إنه يحكم بأمر الله.. لم تعد تغريه ثروة ولا شهوة ولا سلطة.. بل لم تعد له متعة سوى جمع الايقونات وكتب التراث والمخطوطات القديمة.. ولم تعد له رغبة سوى مواجهة الموت والانتصار عليه.

الموت ذلك السيد المجهول الذي يأتي في عربة طائرة تجرها جياد سوداء ليقصف عمر الأشياء الجميلة.. الزهور.. والأطفال.. والمشاعر الرقيقة.. لا يخيف رجلاً مثل غسان تويني تعامل معه أكثر من مرة.. وكشف وجهه الخالي من الملامح أكثر من مرة.. وتحداه أن يأخذه.. لكنه.. لم يقبل التحدي.. وأخذ منه أحب الناس إليه.. أولاده وزوجته.

لقد سرق الموت ابنته «نايلة» في ربيع الستينات وعمرها سبع سنوات.. أصاب براءة طفولتها مرض السرطان اللعين.. راح يتغذى على خلاياها دون أن يفرق بين خلايا صغيرة لم تنضجها الحياة وخلايا عجوز تجاوزت الحياة.

وسرق زوجته الشاعرة «ناديا» بعد نحو عشرين سنة.. وبعد هدنة قليلة تصور فيها أن الموت نسيه فقد ابنه الثاني «مكرم» في حادث مرور وهو في باريس التي جاءها في زيارة قصيرة من الولايات المتحدة الأميركية حيث كان يدرس هناك في جامعة هارفارد التي يتخرج فيها مشاهير السياسيين في العالم والتي سبق أن درس فيها أبوه.

وقد اختار الأب اسم مكرم لابنه رغم أنه ليس شائعاً في لبنان إعجاباً بالزعيم القبطي المصري «مكرم عبيد» الذي كان رمزاً يصعب تكراره للوحدة الوطنية.. المشكلة المزمنة

في لبنان.. حيث 18 جماعة عرقية ودينية.. حيث الطائفية تهدد كل شيء.. من نظام الحكم إلى أحياء السكن.. ومن تفسيرات الكتب المقدسة إلى ثياب النساء وأماكن السهر.. ومن دواوين الشعر إلى طلقات البنادق الآلية.. وكان ذلك المحامي المصري السياسي البارع الذي تولى وزارة المالية في حكومة محمود فهمي النقراشي الذي اغتالته جماعة الإخوان المسلمين يستشهد في خطبه بالقرآن قبل الإنجيل ويقول إنه مسيحي الديانة مسلم الثقافة.. وهو ما جعله يكسب احترام أشد خصومه تعصباً وتشنجاً وتطرفاً.

جاء مكرم تويني إلى باريس في الثمانينات ليقضي إجازة أعياد الميلاد مع عائلته التي اضطرت إلى الهجرة من بيروت بسبب الحرب الأهلية الدامية والمزمنة وهي الحرب التي وصفها أبوه بأنها «حرب الآخرين في لبنان».. وهي الحرب التي استمرت 15 سنة دون أن تحل مشكلة واحدة بين القتلى والاحياء.

إن الشيء الوحيد الذي لا يتوقعه ولا يتمناه الأب أن ينعى أبناءه.. ويدفنهم.. أن تسير الدنيا بالنسبة إليه في عكس السير.. الكبير يشهد نهاية الصغير.. الذي شبع من الدنيا وزهق منها يتقبل العزاء في من لا يزال مقبلاً عليها.. إنها لعبة الالهة الإغريقية مع البشر الضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة سوى الاستسلام لمقدراتها.

وكما جاء «مكرم» من هارفارد إلى باريس كي يلقى مصيره جاء ابنه البكر من باريس إلى بيروت كي يلقى مصيراً مشابهاً.. القتل العمد لا القتل الخطأ.. هذه المرة.. اغتالوه في انفجار 88 رطلاً من مادة «تي أن تي» تحت سيارته المصفحة.. لتنتهي ذريته أمام عينيه.. ولم يبق له سوى زوجته الثانية «شادية الخازن» التي فقدت هي ايضاً زوجها.. وتذوقت مثله طعم فراق الأحبة.

لقد هبت الفواجع على غسان تويني كالأعاصير وكأن بينه وبين الحزن علاقة لا تنفصم

عراها أو كأنه محرم عليه ان يفرح «على حد وصف» فؤاد مطر الذي يضيف: «لكنه رغم ذلك كان نبيلاً في حزنه.. صامداً.. لا يكاد يبدي ضعفاً.. وفي عزاء ابنه الأخير اختصر كل شيء في جملة واحدة ستعيش بعد أن يرحل هو: أنا أدعو اليوم لا إلى انتقام ولا إلى حقد بل أدعو إلى دفن الأحقاد مع جبران».

لكن.. ذلك السمو الروحي لا ينفي أنه ضمن خلوده بيده.. بقلمه.. بنشر 5 آلاف افتتاحية نشرتها «النهار» في ستين سنة.. إن الكتابات لا الأبناء هي التي تحافظ على سيرة الكاتب.. هكذا تعلمنا من مصطفى أمين ومحمد حسنين هيكل وصلاح عبد الصبور ونزار قباني وسليم اللوزي، فنحن لا نعرف أبناءهم لكننا نعرف أفكارهم.. بل هناك من لم يتزوج أصلاً مثل عباس محمود العقاد.. درس شهير يقطر حكمة وحنكة.. نتعلمه من جديد من غسان تويني.. وهل نملك سوى أن نواسيه بذلك؟

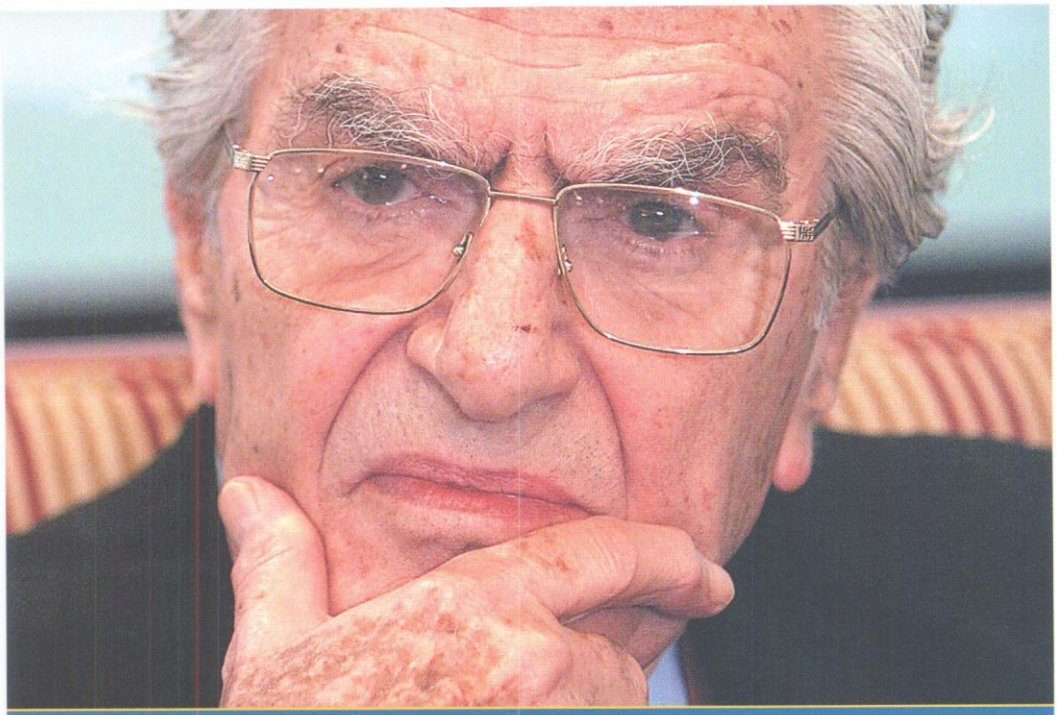

الـدم الأزرق زوم الحيـاة

بقلم راجح الخوري

الصحافة هي كل شيء جئنا إلى الحياة لنقوم به. انها الحقل اليومي لعملية التطور والارتقاء التي يكون منها حصاد الحقيقة في النهاية، اياً تكن الحقيقة في حلوها والمر.

ليست هذه خلاصة عن مهنة المتاعب الرسالية المتعة والامتاع، بل تقريباً للحديث عن «غسان تويني في الصحافة»، في اطار مسعى مستحيل تقريباً للحديث عن «غسان تويني الصحافي».

مستحيل بالتأكيد، ربما لانه من غير الممكن جمع عناصر طريق «جلجلة الحبر» مع اطراف اربع رياح الأرض، التي أريد دائماً لصياح ذلك الديك الفصيح ان يبلغها وان يعلن وصول النهار اليها.

عندما ابحرت في طوفان يشكل جدولاً من ارشيف غسان تويني، بحثاً عن كلمات او فقرات قالها عن نفسه كصحافي، وجدت انني في يم من افتتاحيات وتصريحات ومحاضرات ومناقشات، وعرفت ان «قاربي» لا يتسع لكل ما وجدت من لؤلؤ.
ولهذا حملت إلى القلوع ثلاثة اقوال له.

اولاً: أنه مقتنع حتى الصميم بأن الصحافة قدر لا فكاك عنه.

ثانياً: أنه مؤمن بأن الصحافة قصة حب لا مجال للخروج منها وعليها.

ثالثاً: أنه يجد ان الصحافة سحر يجري في العروق.

كيف؟

في 10 حزيران/يونيو 1990، سئل ما معناه، انه يكتب الافتتاحيات لجريدة «النهار» منذ اربعة

عقود أي انه اقدم صحافيي العرب في الممارسة، وان ما يعالجه في هذه الافتتاحيات من موضوعات وطنية وقومية ذات ابعاد مصيرية، سبق له ان عالجها من مواقع المسؤولية فقد كان سفيراً للبنان في الامم المتحدة وكان نائباً في السلطة التشريعية وكان وزيراً في السلطة التنفيذية كما كان مستشاراً لرئيس الجمهورية. وفي سياق جوابه رد تويني قائلاً: «الصحافي يحلم دائماً بالحكم، لانه يظن انه هكذا يحقق افكاره والطموحات. ثم متى صار في الحكم يصطدم بأن افكاره لا تتحقق. فيشفى من الحكم ومن الطموح اليه، ولكنه لا يشفى من الصحافة».

ربما يجب الانتباه إلى سياق الوصف، حيث من الضروري ان لا ندمج فعل الشفاء في موضوعي الحكم والصحافة. فالشكوى الضمنية من «المرض» تقتصر على الحكم عندما يقول: «يمكن ان تشفى من الحكم» وقد أصبت به وبالطموح اليه، و«لكنك لا تشفى من الصحافة» حيث لست بحاجة هنا إلى الشفاء فقد جئت لتحمل صليبك على طريق جلجلة الحقيقة.

وفي أي حال لم يتمكن غسان تويني من الانقطاع عن الصحافة لا نائباً ولا وزيراًولا سفيراً ولا مستشاراً، فقد كان «الحنين دائماً إلى الحبيب الأول» هكذا يقول، ويمكن من خلال التدقيق في مراحل عمله في المسؤولية والسلطة، اكتشاف بصماته من خلال الاخبار والمانشيتات واحياناً المقالات.

غير انه ارسى مفهوماً ممتازاً في خلق علاقة تفاعلية بين الصحافي والمسؤول، وهو امر لم يتح لغيره تقريباً، عندما مارس مسؤولية السلطة بعين الصحافي الذي يعرف نبض الشعب والناس.

وهو يقول صراحة في هذا السياق: «ان الحكم يحتاج إلى الكلمة والحوار، وعندي ان الصحافي في الحكم يستطيع عبر مراسه الصحافي، ان يزيد إلى السلطة بعداً آخر ليس في متناول سائر السياسيين او الديبلوماسيين، هو الحوار، الحوار مع الشعب، كرأي عام، والتأثير على الاخصام كالاصدقاء، فضلاً عن مخاطبة العالم الخارجي».

ولأن الصحافة عنده تحمل عنوان كل الحقيقة لكل الناس، فانه يتحدث عن «معاناة يومية» تقوم عنده كصحافي جاء إلى مسؤولية السلطة لا بل انه يتحدث عن «مآس».

يستعمل كلمة مآس بالحرف.

ولماذا؟

لانه احياناً كمسؤول يعاني. إذ ماذا يفعل بالاخبار والاسرار لما قد يتعارض مع مصلحة الحكم: «ماذا تقول كصحافي مما يسيء إلى الحكم وكيف تتصرف في الحكم من غير ان تدفع ثمناً غالياً من صدقيتك كصحافي».

نتصور ذلك الصراع الذاتي بين مسؤولية السلطة وواجب الصحافة: «اقول انني عانيت كثيراً ولكني غير نادم. لا على سر احتفظت به دفيناً ولا على سر بحت به صحافة».

هذا عن «الصحافة القدر» و«الصحافة الحب»، فماذا عن صحافة السحر في العروق؟

في 12 تشرين الأول/أكتوبر 1977 كتب غسان تويني من المستشفى في باريس، عشية اجراء عملية القلب المفتوح له افتتاحية بعنوان «رسالة من القلب» جاء فيها:

«قالوا سيكون لي غداً قلب جديد!

أصلي وأضرع اليك يا الهي ان يظل هذا القلب، هو ذاته. أحبه من تراب، صورته صورة أرض، والدم الجديد يسيل فيه حبر أزرق نبيل بالحب كما بالايمان.

لا تتركوهم، يا أحبائي، يعصرون من قلبي التراب الذي فيه، لانه ليس بعد رماد... ولا الدخان الذي تصاعد من ارضنا ايام كانت تحترق، كالبخور... ولا الحبر الذي هو زوم الحياة».

هكذا اذاً: في قلب الصحافي غسان تويني يسيل منذ البداية حبر أزرق، هو أزرق «النهار». انه الحبر الذي هو «زوم الحياة». الصحافة زوم الحياة وعصارتها وصفوتها.

والصحافة في غسان تويني تجاوزت قدرية المهنة وتجاوزت الرسالة، وتجاوزت حب الحبيب الاول وتجاوزت ايضاً الحبر الازرق الذي حل بديلاً من الدم في القلب. ولقد تضافرت كل هذه المفاهيم النبيلة في صنع ما يمكن ان يمثل هذا من سلطة تسمو على كل سلطة اخرى.

ففي اطار مناقشة معه حول السلطة الرسمية والصحافة ينحاز كلياً إلى الصحافة:

«كان كامل مروة يأخذ عليّ دائماً انني قبلت ان اكون نائباً وسياسياً وديبلوماسياً في حين انني اكبر من السياسة. آخرون كانوا يقولون ان غسان تويني اكبر من جريدته بينما هناك صحف اكبر من اصحابها ورؤساء تحريرها. فتحكي عن الجريدة وليس عن صاحبها غسان تويني، تحكي عنه وليس عن جريدته. ربما كان ذلك وذاك صحيحاً، انما لم اشعر في الحكم انني في بيتي. ولذلك لم اكن امكث فيه طويلاً. كان الحكم يلفظني ولم اكن اغادره دائماً على ما اريد وإنما على ما لا اريد وعندما استقيل يكون الحكم قد شبع مني. لماذا؟ لأن الصحافي الحقيقي يشعر، ولو في الحكم، بانه اقرب دائماً إلى المعارضة، لا كمنهج، وانما لان طبيعته ان يقوم بوظيفة الرقيب والضمير. على الصحافي ان يقول للحكم ما عليه ان يفعل...

يمكن من خلال هذه الكلمات تلمس ملامح العلاقة الاسطورية بين الصحافي والصحيفة. انها العلاقة التي تشمل ثالوث القدر والحب والدم. ولكن بقليل من الرمزية او المخيلة

يمكن ان نرى سباقاً تنافسياً مثيراً على سلّمين عموديين. غسان تويني يسابق «النهار» و«النهار» تسابق غسان تويني بكل الجهد الممكن وبكل الاعجاب وبكل الحرص على الفوز لكن السلم طويل جداً.

وبعيداً عن السباق في معناه التكاملي لا التنافسي، يمكن فعلاً ان نفهم معنى قول تويني: «على الصحافي ان يقول للحكم ما عليه ان يفعل» اذاً الصحافي هو الحاكم الحقيقي في الواقع، لانه لسان الشعب وضمير الناس، فماذا لو تذكرنا هنا القول بان ارادة الشعب من ارادة الله سبحانه وتعالى؟

غير ان لهذا ترجمة موضوعية عند غسان تويني حيث يقول رداً على سؤال:

«حملة الرئاسة عام 1970 التي انتهت بانتخاب الرئيس سليمان فرنجية، لم تكن من صنعي، ولكن «النهار» كانت أحد مراكزها. «النهار» كانت حزب الاحزاب، عندما تصبح الجريدة مصدر سياسة تتحول إلى تيار شعبي ولو في صراع مع الحكم القائم، كانت «النهار» المشروع السياسي الذي يجمع بين احزاب متعددة ويبلور رأيها حول قاعدة مشتركة، ثم تصبح الجريدة منبراً والمكاتب مركز تجمع وهذا ما حصل بالفعل».

اذاً ليس كثيراً ان يكون غسان تويني قد دعا إلى ان تكون الصحافة «صناعة الحدث» كما ان السقراطية «صناعة الحقيقة»، اذاً الصحافة عند سقراط وفي مستواه لا تنقل الحدث بل تصنع الحدث. واذا كان الرئيس الاميركي السابق بيل كلينتون قد جمع رؤساء تحرير الصحف الاميركية عام 1999 حيث ركز في حديثه معهم على اهمية دور الصحافيين في قيادة الناس وصناعة معرفة المجتمعات وسط الانفجار الهائل للمعلومات في الألفية الجديدة، حيث ان المهم ليس كثرة المعلومات بل كيفية انتقائها والافادة منها، فان تويني كان في كتاب اسراره الذي كان قد صدر قبل ثلاثة اعوام، قد اوضح ان صحافة المستقبل هي

صحافة المعلومات ولكن «يجب التسيّد» على المعلومات: السيادة ستكون للمعلومات وليس للاعلام ولكن ليس بمجرد معرفة المعلومات بل بمعرفة كيفية الاستفادة منها».

قبل شهرين كنت جالساً في مكتب غسان تويني، حيث طرح عليه احد معدي البرامج التلفزيونية سؤالاً تمهيداً لاجراء مقابلة معه، وكان السؤال: من هم حلفاء «النهار»، فرد بالقول: الحلفاء الدائمون لـ«النهار» هم الحرية والديمقراطية والسيادة.

ربما هو الثالوث الذي ينبثق منه السر الاعمق والاهم في تاريخ غسان تويني و«النهار» وهو الثالوث الذي حرص عميد «النهار» دائماً على ابقائه اساساً لأسطورة «النهار» كمفاعل صحافي اخذ على عاتقه منذ البداية مسؤولية الاعلان عن طلوع النهار.

وهكذا عندما وقف غسان تويني يوم الاربعاء في 3 أيار/مايو 2006 في «ساحة الشهداء» لمناسبة اضاءة شعلة الحرية في يوم حرية الصحافة وإلى جانبه حفيدته نايلة ابنة ولده الشهيد جبران تويني الذي سقط صحافياً ونائباً لأجل الحقيقة ولبنان والحرية، لم يتوان في القول: «لا يسعني إلا أن انوّه وانا اتطلع إلى مبنى «النهار» الذي شيّده جبران، بعد توليه المسؤوليات في الجريدة، بأننا اخترنا كلنا له ان يكون في ساحة الحرية. انه رمز التحدي ورمز الصمود والبقاء، والمقصود من الخيار أن نبني هنا في ساحة الحرية بالذات، في جيرة الشهداء أننا نذرنا هذا البناء وما ينتج من أجل استمرار الرسالة».

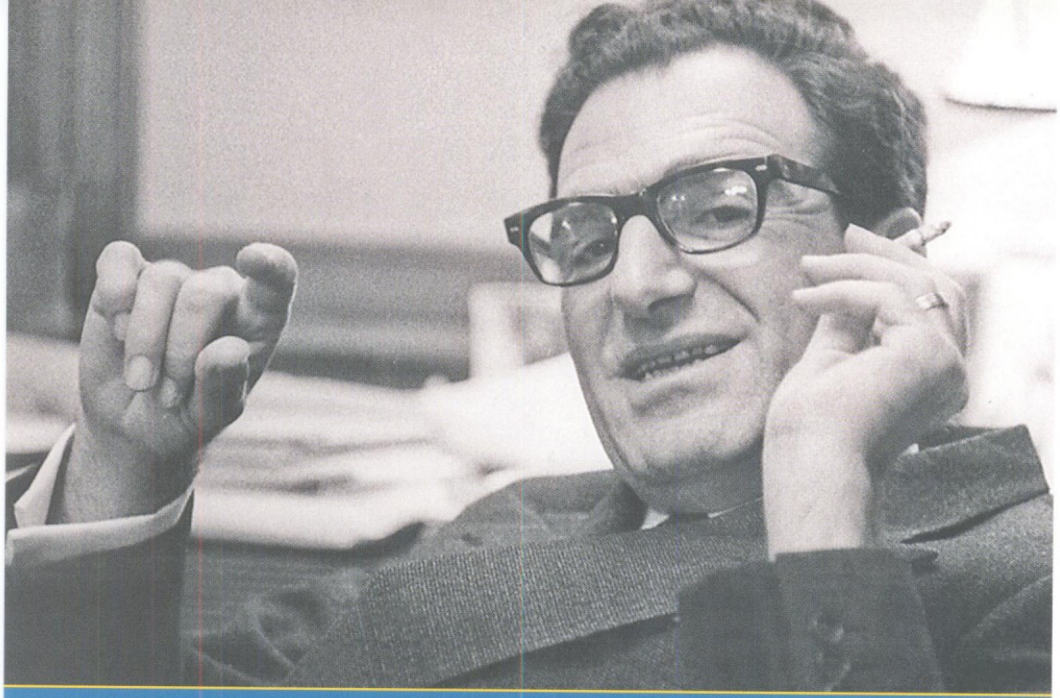

غسان تويني
«مُفْردٌ في صيغة الجمع»

بقلم الياس الديري

عندما دخلت ذلك الصباح مكاتب «النهار» في سوق الطويلة، كانت الرهبة تسبق خطواتي الاولى في عالم الصحافة. وكانت دقّات قلبي في تسارعها تسبقني إلى الباب الأول، الذي انفتح على ذلك الانسان الوديع المبدع الاستاذ لويس الحاج.

وكنت لا أزال ألهث واتصبّب عرقاً بارداً، إثر صعودي ذلك السلم الطويل الضيق، الذي وحده سمع تنهداتي وتمتماتي وأنا أقفز فوق درجاته، كأنني ذاهب إلى موعدي الأول مع الحبيبة الاولى.

لقد كنت على موعد مع الاستاذ غسان تويني، الذي سيقرّر بعد لحظات مجرى حياتي وموقعي، وما اذا كنت سأنضم إلى أسرة «النهار» ولو مبتدئاً أو متمرّناً، أو يكون اللقاء بمثابة وداع لاستاذنا غسان ولمكاتب «النهار» وسوق الطويلة والصحافة معاً.

حاولت أن استمدّ قوة اضافية تسند معنوياتي المرتجفة من الوجه الرضي للاستاذ لويس الذي كان رئيساً للتحرير، وكان هو يشجعني بابتسامة تشبه ابتسامة الاطفال، عندما حصلت المفاجأة.

وصل الاستاذ، قال المعلم يوسف.

انفرجت أسارير الاستاذ لويس، وتسارعت دقّات قلبي حتى كدت اسمع ضجيجها في صدري.

هذا هو الكوراني الجديد الذي انضمّ الينا اليوم، قال لويس الحاج للاستاذ غسان. وأرفق كلامه على جاري عادته ببيت من الشعر انتزع ضحكة عريضة من الرجل المنتصب في وسط القاعة، من دون أن ينظر ناحيتي.

ولكن، بعد سؤالين ثلاثة عن الاحوال العامة والخاصة، التفت صوبي وأطلق بعضاً مما يختزن ذلك الوجه المليء بالتعابير المقفلة، وبعضاً مما يلمع في هاتيك العينين من ذكاء حاد كنصل السيف، وفراسة عربية اصيلة، ونباهة ورجولة، مستكشفاً ما عندي، مختبراً «مكنونات» هذا الفتى الطري العود الآتي من تحت ظلال الزيتون إلى عالم مليء بالوعورة والدهاليز.

إذن، أنا في حضرة ذلك الرجل الذي أصبح رمزاً وحكاية، بالنسبة إلى كثيرين من ابناء جيلي.

هاأنذا، أخيراً، وجهاً لوجه مع الاستاذ، الذي نقول انه قال كلما كتب افتتاحية أو القى محاضرة، ونردّد ما يقوله كتابة او شفاهة.

حتى الآن لا أدري كيف امتنع العرق البارد عن مواصلة التصبّب من وجهي، ولا أدري كيف تمكّنت من استعارة ابتسامة الاستاذ لويس وصبغ وجهي بها.

فقط سمعت الاستاذ غسان يقول للاستاذ لويس: اختبره في مراحل «العمادة» المألوفة، ثم اطلعني على رأيك.

هكذا بدأت رحلة العمر مع الصحافة، مع «النهار»، مع غسان تويني الذي لا يزال حتى اليوم أمدّ الله عمره بعمر جديد يجعل كبار المحرّرين يرتبكون أمامه حتى وهو يهنئهم على مقال أو يشجّعهم على الاستمرار في نهج.

وكلّما استدعاهم مكتب رئيس التحرير الفعلي، أو رئيس التحرير الاعلى، أو رئيس التحرير الدائم لـ«النهار»...

الآن عليّ أن أكتب عن غسان تويني رئيس التحرير. ولكن كيف يمكن حصر هذا النهر وحشره في هذه الساقية؟

من أين أبدأ إذن، وهو كل شيء في «النهار»، كل صفحة، كل عنوان، كل كلمة، كل صورة. موجودة بصماته في أدق التفاصيل وأبسطها.

أنبدأ من رئيس مجلس الادارة المدير العام رئيس التحرير، كبير المحررين والمصحّحين، والقارئ الاول لأول عدد يطل من المطبعة؟

أم من ذاك الذي لا ينام ولا يدع أحداً ينام قبل أن تنزل الجريدة إلى الطبع؟

أم من ذاك الذي يستيقظ على رائحة حبر «النهار»، الممتزج برائحة القهوة، المختلط بدخان سلسلة من السجائر لا تغادر شفتيه الا إلى أنامله؟

من هواجسه الدائمة التطوير والتجديد في الشكل والاسلوب والمضمون، والحرص على رفد «النهار» بالموهوبين في حقول الصحافة والأدب والفن والعلم وكل ميادين الابداع، مما أتاح لـ«النهار» ان تحتل مرتبة مميزة وخاصة، حافظت عليها على مرّ السنين، ولم تدع الحروب القذرة تقترب من رسالتها وموضوعيتها، وشعارها أبداً الرأي الحر والخبر الأكيد.

وقد حرص دائماً، وخصوصاً في اجتماعات التحرير، وحين تكون «النهار» مقبلة على خطوة جديدة، ان يصارح جميع العاملين في هذه المؤسسة العريقة بأن الصحافة هي مهنة المتاعب. مهنة يوميّة متطلبة، لا تسمح بالاتكاء على أمجاد الأمس.

كل يوم بيومه، ومن أول وجديد. وكلما طلع الصباح صاح الديك، وخرج إلى القراء «نهار» جديد، من المفترض أن يكون جديداً في كل مادته من أول كلمة إلى آخر سطر.

وكم صارحهم وصارحنا، حتى في اوقات الراحة، بأن مهنة المتاعب والتعب والكد والسبق الصحافي والاخطار، هي مهنة عاقة.

تأخذ من الصحافي كل وقته، وكل عمره، وكل مشاعره، لقاء لا شيء يذكر. بالكاد يقولون عن المتقاعد أو المبتعد عن المهنة: كان في سالف الزمان.

رغم ذلك كله ورغم العقوق والاخطار، أعطى غسان تويني الصحافة عبر «النهار» والمؤلفات والمحاضرات ما لا يستطيع التاريخ المنصف الا أن يتوقّف عنده باحترام واجلال.

لقد أعطاها كل غسان تويني. أعطاها عمره، وحبه، وابداعه، وثقافته. وضحّى بالكثير في سبيل صاحبة الجلالة السلطة الرابعة، وبما لا يمكن تعويضه. ومن دون أن يتأفف أو يتبرّم أو يمنّن. لقد ارتضاها كما هي، وهو يعرف كم انها أنانية، وكم لا تغفر ولا تسامح ولا تكافئ.

منحها ذاته وطموحه، لا منّة ولا شكوراً.

من هنا القول تكراراً ان من الصعب إن لم يكن من المستحيل، بل ان لم يكن من الظلم حصر هذا العملاق بين قوسي رئاسة التحرير. وهو مَن هو في عشقها والاخلاص لها.

كيف يبدأ «رئيس التحرير الاعلى» نهاره؟ كيف يقود «حربه» اليومية؟

باكراً يستيقظ، مع انه يكون قد أمَّ سريره في ساعة متقدمة من الليل، وبعد ان يكون قد اطمأن إلى ان «النهار» صار قيد الطبع.

تكون «حبيبته» جاهزة في انتظاره مع قهوة الصباح ولائحة المتصلين هاتفياً.

بعد فنجان القهوة الاول يبدأ العمل الجدي:

أول ما يتفقَّد المانشيت، ثم عناوين الصفحة الاولى، فالصفحات الداخلية، فالمقالات، فنصوص الأخبار.

في هذا الوقت تكون الصحف الأخرى قد استوت بقرب «النهار»، فتبدأ المقارنة، ويبدأ تسجيل الملاحظات: بمَ تفرَّدت «النهار»، وماذا غاب عنها؟

وما هي الأخبار والتطورات التي تستوجب المتابعة والملاحقة؟

في هذا الوقت تكون ركوة أخرى من القهوة قد استوت على الطاولة الصغيرة، وتكون المنفضة قد غصَّت باعقاب السجائر.

ويكون تصوُّر العدد الجديد من «النهار» قد اكتمل تصوُّر عناصره الأساسية.

فيحين وقت الهاتف: مدير التوزيع، مدير المطبعة، مدير التحرير، قسم الأخبار المحلية، قسم الأخبار العربية والدولية...

اطلبوا فلاناً من المحررين، قولوا لعلان من المصورين...

عندما ينتهي توزيع المهمات الجديدة، يكون الرجل الذي لا يتعب ولا يرتفع صوته على أحد، قد أصبح جاهزاً لملاقاة لائحة من المواعيد ينتهي آخرها مع هبوط الظلام.

يتعب؟ بالطبع والتأكيد. لكنه لا يتساهل، لا مع نفسه ولا مع اسرة الجريدة اذا ما كان هناك تقصير أو اهمال. ولا يستسلم للأيام والسنين، بل يواصل مسيرته، وعلى الصورة ذاتها، وكأنه تسلّم المهمة أمس الذي عَبَر.

لا يجوز الكلام على رئيس التحرير، على حساب المفكّر، والكاتب، والمحاضر، والاستاذ، والدبلوماسي والنائب والوزير والسياسي، علما ان هذه الصفات أو هذه المسؤوليات توالت عليه مجتمعة أحيانا ودفعة واحدة، وفوقها عبء «النهار» الذي يهتز منه جبل.

مهما حاولنا الاحاطة والانصاف، فان من المحال إيفاء هذا الرؤيوي، المجدِّد المتمرد، المناضل، فارس العدالة والحقيقة والحق، رفيق لبنان عندما ينقلب عليه أهله وتنفك عنه عائلته، صديق الضعفاء والمغلوبين.

هذا الرجل المفرد في صيغة الجمع، كما يقول أدونيس، لا تقدر أسطر وصفحات أن تلمَّ به.

انه نجم «النهار» الدائم السطوع.

الفرنسيـة لغـة القلـب

بقلم صلاح ستيتيه

غسان تويني رجل مثلث الثقافة. الثقافة العربية التي هي ثقافة والده، الصحافي الكبير هو الآخر، وثقافة إرثه وطائفته، طائفة الروم الأرثوذكس التي، وكما نعرف، ومن خلال الغساسنة، ترقى أيضاً إلى الأزمنة الأولى لتكوّن اللغة العربية وتفخر بها. الثقافة الفرنسية التي كانت لغة جميع المثقفين اللبنانيين الذين ولدوا في مرحلة الانتداب الفرنسي، ومنها استمدّ غسان بعض عناصر نزعته الإنسانية، لا سيما طاقته على البرهان المنطقي الذي صنع قوته وانفتاحه على العالم والأفكار، وكذلك على الذين يفدون للقائه ويستقبلهم دائماً باهتمام وفضول، بل وبشغف. أخيراً، الثقافة الإنكليزية – الأميركية التي تؤلف جزءاً من تكوينه في الجامعة الأميركية في بيروت. تلك اللغة التي أمست لاحقاً أداة عمله الأساسية عندما أصبح سفيراً للبنان لدى منظمة الأمم المتحدة، حتى قبل مرحلة هي من أخطر المراحل في الحرب الأهلية اللبنانية. أي في وقت كانت القوى الاقليمية تصفّي حساباتها من خلال الميليشيات المحلية المتناحرة على أرض الوطن. هذا الوطن الذي اجتاحته إسرائيل واحتلّته وصولاً إلى بيروت، واستولت على جزء من أراضي جنوبه، مما دفع إلى إنشاء قوات ردع دولية تعمل الأمم المتحدة على التمديد لها منذ ثلاثة عقود.

هكذا وجد غسان تويني نفسه، على الرغم من كل الظروف، في قلب هذا التشابك من الانهماكات والمنازعات والمصالح، والشبيه بخيوط العنكبوت. بين مبنى الأمم المتحدة في نيويورك والسلطة اللبنانية الممزقة والمتناقضة، شكّل حضوره صلة وصل بين كافة الأطراف، وغالباً ما كان يبتكر هو نفسه، بصورة ملحة وعاجلة، السبل اللازمة لمساعدة بلده على الخروج من الأزمة. إنّ معرفته العميقة باللغات الثلاث التي أتيتُ على ذكرها، جعلت من غسان تويني، هذا الصحافي البارع، هذا الرجل السياسي من الطراز الأول، النائب السابق والوزير السابق، ونائب الرئيس السابق لمجلس الوزراء، رجلاً أساسياً في الدبلوماسية اللبنانية لحظة الحريق الكبير الذي كاد أن يودي بالبلد ويحرقه حتى أصغر جذر من جذوره.

أين هي اللغة الفرنسية في كلّ ذلك؟ نعم، الفرنسية بصورة خاصة؟ لقد كانت هذه اللغة، ولا تزال دائماً، بالنسبة إلى غسان، لغة القلب. هل هي فعلاً لغته الأحبّ طوال سنوات دراسته؟ لست أدري تماماً؟ أعرف أنه أمضى قسماً كبيراً من حياته مع شاعرة باللغة الفرنسية من الأكثر صفاء. إنها ناديا تويني العزيزة على قلوبنا والتي رحلت باكراً للأسف. ومع ذلك، نرى غسان يخصص جزءاً من جهده لإحياء ذكرى تلك الزوجة الغالية وأعمالها الأدبية، كما أنه أنشأ مؤسسة باسمها. ووفاء لما تمثله ولما أتت به الفرنكوفونية اللبنانية من إبداع، نرى غسان يستحدث سلسلة أدبية رائعة، على غرار سلسلة «البلياد» الشهيرة الصادرة عن دار «غاليمار» الباريسية. من خلال هذه السلسلة الأنيقة، أصدر الأعمال الكاملة لكتّاب لبنانيين باللغة الفرنسية، وهم من الكتّاب الراحلين الذين يؤلفون جزءاً من التراث الأدبي لهذه اللغة.

أسماء كبيرة تطالعنا في هذه السلسلة المتفرّدة بنوعيتها وبالدراسات التي وضعت لكلّ جزء منها. من هذه الأسماء، بالإضافة إلى ناديا تويني، الكبير جورج شحادة (شعراً ومسرحاً)، فؤاد غبريال نفاع الذي كنت أنا أول ناشر له، فؤاد أبي زيد، الرقيقة إيفلين بسترس، كأنها خيال يرتدي الدانتيلا، لوريس شحادة، أخت جورج شحادة الملهمة والتي لا تزال على قيد الحياة...

أظن أنّ غسان تويني، في عمله كناشر، يفضل سراً هذه السلسلة المختارة التي تأتي في موقع الصدارة مما ينشره بالعربية والفرنسية. ولئن كان ينشر القليل بالإنكليزية، فإنّ داره تنشر أيضاً باللغة الفرنسية روايات وأبحاثاً ومجموعات شعرية بلغتها التي أسسها والده منذ ثلاثة أرباع القرن، والذي استمرّ غسان مع ابنه جبران في تأمين إدارتها وتوجّهها.

حبّ ناديا وذكراها. حبّ الأدب باللغة الفرنسية. ذكرى علاقات فرنكوفونية عميقة: صداقة غسان تويني مع جورج شحادة، صداقة أخرى – ملتبسة لكنها قائمة على الإعجاب – ربطته

بصحافي فرنكوفوني كبير ذي موهبة فذّة هو الراحل جورج نقاش. هناك علاقات صداقة أخرى في لبنان وفي العالم يصعب تعدادها هنا. يبقى أن نقول إنه بمقدار ما يمضي الوقت نشعر بأن غسان تويني يطوي، إلى حدّ ما، اهتمامه بالإنكليزية – الأميركية التي ربما أصبحت لديه اللغة الإعلامية الأكثر استعمالاً على المستوى العالمي ويمنح نفسه أكثر فأكثر للّغة الفرنسية، لغة أهم ثقافة في عالمنا الراهن.

منذ الجنرال شارل ديغول حتى اليوم، وعلى الرغم من تباين المواقف أحياناً، كان دائماً لفرنسا، بلد حقوق الإنسان، ما يعرف بـ«السياسة العربية». إنها السياسة التي تمارس في الغالب من أجل إحلال التوازن بين السياسات المختلفة المتنازعة فيها بينها داخل هذه المنطقة البائسة من العالم، منطقة الشرق الأوسط المحكومة بعدائية إسرائيل وبتسلّطها المدعوم بالرضى المعلن أو المضمر للولايات المتحدة الأميركية.

غسان تويني، وهو الرجل السياسي الحاذق، يعاين، يوماً بعد يوم، أعمال العنف والأخطاء التي تقع فيها هاتان الدولتان. ويرصد، في المقابل، فطنة فرنسا وحكمتها. خلال الحرب الأهلية في لبنان، فقدت فرنسا سفيراً لها تمّت تصفيته بحقارة، كما فقدت أيضاً عشرات الجنود الذين كانوا ضحايا اعتداء انتحاري كبير (عملية «دراكار» الانتحارية). لكن فرنسا، وعلى الرغم من جرحها الذي أصاب الصميم، لم تنسحب من الساحة اللبنانية وظلت حكومتها تبذل كل الجهود من أجل مساعدة وطننا للخروج من المأساة التي يعاني منها. وهذا ما لا يمكن لمسؤول وطني كبير مثل غسان تويني أن ينساه، ولا أن ينسى الموقف الأخير لفرنسا إثر الأزمة اللبنانية – السورية العميقة الناتجة من اغتيال رفيق الحريري. هنا أيضاً، تتآخى فرنكوفونية القلب وفرنكوفونية العقل، وتدعم إحداها الأخرى. وهذه أيضاً فلسفة شادية تويني، الزوجة الجادّة والدائمة الابتسامة، والتي تشرف، وهي القارئة الكبيرة، على مكتبة «البرج» الأنيقة الواقعة في ساحة الشهداء التي أصبح اسمها ساحة الاستقلال.

لغسان وشادية الكثير من الأصدقاء الفرنسيين، من بينهم رئيس الوزراء الحالي دومينيك دوفيلبان، وهما يمضيان جزءاً من وقتهما في فرنسا، في باريس بالطبع، وكذلك في جنوب البلاد، في «أورانج» حيث يملكان منزلاً. فرنسا العطل الصيفية بالنسبة إليهما ترتبط عندهما بالموسيقى: بين أمسيات «أورانج» الكلاسيكية ومهرجان الجاز الموسيقى الشهير في «إكس أون بروفانس»، يعيشان في هذه المنطقة الأثيرة مشاعر حية وعميقة. أحياناً يضيفان إلى المشهد فترة مسرحية عندما يأتيان إلى «أفينيون» ليتابعا نشاطات أهم مهرجان مسرحي في العالم. هذا ما نتبيّنه إذاً: فرح الروح المفعمة التي تدعم فرنكوفونية القلب والعقل اللذين أشرتُ إليهما.

كل هذه الدوافع تنطوي على قيمة ومعنى، هي كافية لتفسّر فرنكوفونية صديقنا غسان، هذا الصرح الثقافي من لبنان. لكني من اولئك الذين يعتقدون أن كلمة السر ليست فقط في العقل، وإنما أيضاً في العلاقة العميقة الغامضة التي ينشأ عنها التناغم الكبير والتعاطف المتبادل، كما الحبّ والصداقة بأنواعهما المختلفة وغاياتهما. يروى أن الكاتب الشهير مونتان سُئل عند وفاة صديقه الحميم لابوييسي عن أسباب تعلقه به وحزنه الشديد عليه، فأجاب قائلاً: «لأنه كان هو، ولأنني أنا». هكذا الأمر بالنسبة إلى غسان وفرنسا.

دولـة النهـار

بقلـم سلامـة أحمـد سلامـة

من فوق الأعاصير والعواصف المحدقة بلبنان، يطل غسان تويني بقامته المهيبة، وعقله المستنير، وقلمه الرهيف كمشرط الجراح، يشق حجب الضباب ويطرح الرؤى الحكيمة، في أوقات غابت فيها الحكمة وضلت الطريق.

وعندما تختار الصحافة العربية باسم واحدة من أهم مؤسساتها – دار سعاد الصباح – غسان تويني لتكريمه هذا العام رمزاً لإعلاء قيمة الفكر ونزاهة القلم، نحن نشارك بهذه التحية تكريماً لعلم من أعلام النشر والصحافة والسياسة والأدب في العالم العربي. ليس فقط باعتباره ناشراً ورئيساً لتحرير صحيفة لبنانية عريقة هي جريدة «النهار»، ولكن أيضاً لأدواره السياسية والتعليمية والدبلوماسية، مثلاً على الصلابة والصمود والتعالي في وجه الأحداث والانكسارات والأزمات.

وتكريم رواد المهنة ومؤسسيها هو احدى السنن الحميدة التي جرت عليها الصحافة اللبنانية وحافظت عليها. وانتقلت منها إلى مؤسسات عربية أخرى.. عن طريق اصدار كتب تذكارية، تؤرخ للمهنة ولحقبها المختلفة باختلاف رموزها أو نجومها الزاهرة لتحفظ للتاريخ سر تطورها وازدهارها، وتعرّف الأجيال القادمة بأصولها وجذورها وفروعها وتقاليدها التي تضمن تواصل الحرية والتمسك بها.

وقد نما هذا التقليد في جريدة «النهار»، التي توالت عليها ثلاثة أجيال.. حين بدأت على يد مؤسسها جبران تويني الجد في الثلاثينات من القرن الماضي، ليرأس بعده غسان تويني الأب الذي عاد من جامعة هارفرد بعد أن درس العلوم السياسية، وظل يرأس تحريرها حتى عام 2000. وعندما قرر التنازل لابنه الوحيد عن ادارة الصحيفة بدأت «النهار» حقبة ثالثة مع جبران تويني الحفيد، فعكف على تطويرها تحريراً واخراجاً وانتاجاً وتجديداً لشبابها، حتى اختطفته يد الغدر في تشرين الأول/أكتوبر 2005 بسيارة مفخخة حولته إلى أشلاء في أعقاب اغتيال الشهيد رفيق الحريري.. وكأنه مكتوب على

الأب أن يتحمل قسوة الصدمة ويعود إلى رئاسة «النهار» من جديد، متحاملاً على أحزانه وسني عمره المتقدمة.

في الصحافة اللبنانية، التي لعبت دوراً رائداً في الصحافة العربية، يبدو الاحتفال بالأشخاص والأدوار جزءاً لا يتجزأ من تاريخ الصحافة ومعاركها من أجل الحرية، على عكس عادة فرعونية تتفشى في الصحافة المصرية الراهنة، يمحو فيها الحاكم الجديد آثار الحاكم القديم ويشوه تاريخه. فلا يبقى من ذكراه إلا ما تتناوله الشائعات والأقاويل.

والحاصل أن الصحافة اللبنانية لم تعرف صحافة التأميم التي عرفتها الصحافة المصرية، وكانت سبباً فيما تعانيه من تراجع في بعض الأحيان. بل استمدت الصحافة اللبنانية حيويتها من حيوية الشعب اللبناني وقدرته على تحويل مهنة الصحافة إلى مشروع اقتصادي واستثماري وسياسي يعتمد على المبادرات الخاصة والنبوغ الفردي والاتقان الجماعي. ولذلك تميز لبنان بمشروعات لمؤسسات صحافية لديه تجاوز تأثيرها في بعض الحالات حجم هذا البلد الصغير. وكان غسان تويني بمثابة مؤسسة بذاتها.. لم يكن مجرد صحافي يتابع الأحداث ويعلق عليها فحسب، بل كان وما زال صانعاً للأحداث ومصدراً للأخبار.

لعب أدواراً في السياسة حين عين رئيساً لوفد بلاده في الأمم المتحدة. وخاض كثيراً من المعارك السياسية اللبنانية.. فخرج من ذلك كله مؤمناً بأن الصحافة الملتزمة هي الصحافة الحرة.. والشرط الموضوعي لممارسة الحرية هو الحرية الاقتصادية في نطاق يسمح بالتعددية والتنوع. وهو ما كان ينقص الصحافة في مصر حتى وقت قريب.

وفي رأيه أن حرية الصحافة لا علاقة لها بشكل الملكية. فليس المهم أن ترتبط الصحيفة مثلاً بالنظام الليبرالي فتكون حرة. ولا أن ترتبط بنظام غير ليبرالي فتكون موجهة، ولكن المعيار هو ممارسة الصحافي مهنته. أي أن يكون الصحافي ذاته صاحب حرية نابعة من ايمانه بها..

«يشعر بأن التزامه لقارئه، الذي يتوسل الصحيفة لمعرفة أمرين أساسيين لا صحافة بدونهما، هما الخبر والرأي: الخبر كل الخبر. والرأي القائم على احترام الآراء الأخرى ومناقشتها بعيداً عن صحافة الرأي الواحد. ايماناً بأن الحرية هي إمكان الاختيار».

وفي الاحتفالية التي تقام تكريماً لهذا الرمز اللبناني الكبير، تظل دولة «النهار» في نظر المصريين الذين يعشقون لبنان، ويتابعون أخباره، ويقلقون على مستقبله، هي دولة الصحافة الحرة التي انتصرت لوطنها وارتفعت فوق الأحزاب والطوائف، ودافعت عن استقلاله، وضحت في سبيل حرية الصحافة بأغلى أبنائها. ويبقى غسان تويني رمزاً لكل ما حققته الصحافة العربية في لبنان من انجازات.

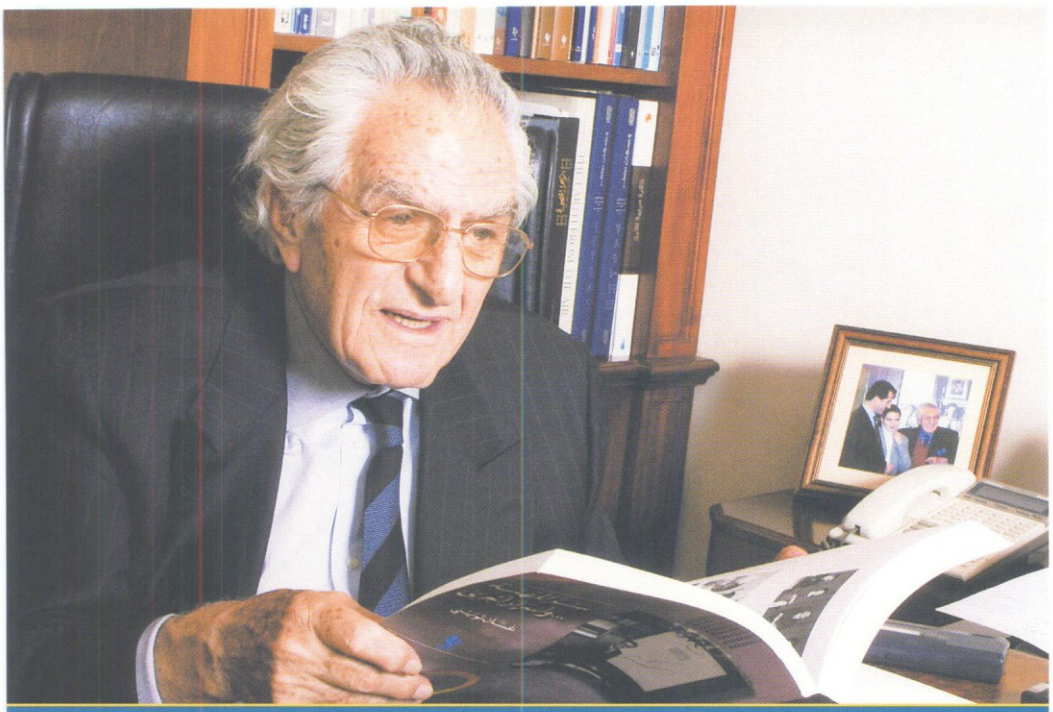

غسان تويني والمقال السياسي

بقلم ليلى شرف

كلما ذكر غسان تويني تتداعى إلى الذهن فضاءات ملأها بحضوره الباهر وحراكه المدوّي فكراً وعملاً.

كثيرون سيتحدثون اليوم، ومستقبلاً عن غسان تويني في المجالات العديدة التي خاضها؛ وكل فريق سيتحدث في المجال الذي عرفه فيه اكثر من غيره. سوف يتحدثون عنه سفيراً في المحافل الدولية ووزيراً ونائباً في مجلس النواب اللبناني ومستشاراً لرئيس الجمهورية ومثقفاً واسع الثقافة متنوعاً في اهتماماته الفنية والادبية والفكرية؛ ولعل السواد الاعظم سيتحدث عن غسان تويني الصحافي البارز.

غير ان تألقه الصحافي هذا له لون خاص؛ فغسان تويني هو من اولئك البناة الذين يشيدون الصروح المادية والمعنوية: صرح المؤسسات التي تصبح محطات فاصلة، مثلما فعل تويني في مؤسسة «النهار» وقد تسلمها فتياً؛ وصرح الفكر المؤثر والكلمة التي تحمل هذا الفكر، وهو وان لم يكن من جيل رواد الصحافة العربية الحديثة الاوائل، الا انه من جماعة هؤلاء الرواد، ينضم اليهم لأنه واحد ممن نقلوا هذه الصحافة من حال إلى حال: من حال الجمود إلى حال الديناميكية والتنوع. من حال الخبر وحده إلى حال الرأي ومن حال الرأي إلى التحليل ثم إلى الفكر المبادر الذي يفتح آفاقاً جديدة ويؤشر إلى مقومات بناء الاوطان ودعائم الحرية والديمقراطية واحترام الانسان وكرامته وحقوقه.

لذلك كان لحضوره الصحافي خصوصيته وبريقه. عن هذه الخصوصية وعن تجلياتها في المقال الصحافي اخترت الحديث هنا.

لقد جعل غسان تويني المقالة الصحافية السياسية ادباً سياسياً صريحاً، جريئاً، صادقاً، مترفعاً عن المهاترة والسجال. عنده تحمّل الكلمة من المعاني ما يثقلها حتى تكاد تتفجر في ذهن قارئها، حتى اصبح سيد هذه الكلمة التي ترسي دعائم مدرسة جديدة في

الصحافة العربية وفي مقاربة الشأن العام، شعارها الصراحة والجرأة والعقلانية دون غطرسة. وهو يكتب مقاله وكأنه يتجاوز الظاهرة الوظيفية العملية لواقع الحدث ونتائجه إلى الأبعاد المستقبلية.

في كتابته يبدو غسان تويني وكأن هاجس القيم الاخلاقية يحيط به دائماً وهو في أصعب حالات اليأس والتشاؤم يرشح بشيء من التفاؤل وكأنه يؤشر إلى الطريق؛ نقرأه فنشعر انه يرى الغابة في شموليته ولكن الاشجار لا تفوته ايضاً ولا يغفل عن انها مكون الغابة.

هو سياسي كاتب دائماً؛ برغماتي ولكن العاطفة لا تفارق جملته، تنضح معه الجملة بالجمال الادبي مثلما تكتنز بالمعنى لذلك فهو ايضاً اديب بفكر سياسي.

لقد أصبحت مقالاته ادبيات مرجعية لفترات متقلبة مجنونة حملت الألم والأمل مرّ بها لبنان، والوطن العربي كله منذ منتصف القرن الماضي ولا يزال، لتكون شاهداً على انه كان هنالك من تصدّى لذلك بوعي وبصيرة وبتجرد ولكن دون تسامح مع ما يشوه مسيرة الوطن.

ان ما يميز غسان تويني باعتقادي ليس فقط انه خاض مجالات عديدة وبرز في كل منها على حدة بل لأن تجاربه فيها تتفاعل عنده مع ثقافته الواسعة ليساهم تفاعلها وتداخلها في تكوينه الفكري والقيمي.

وقد اثرى ذلك كله نضالُه الفكري الصحافي الذي ادخله السجن اكثر من مرة، وإرثه العائلي في الصحافة الرائدة والكتابة المباشرة، ونمّته ممارسته المبكرة في الكتابة الجريئة تحت عيون الوالد المؤسس ليصب كل ذلك في المقال السياسي الذي يجسد عصارة ثقافته، وخبراته، وحساسيته، والتزامه الفكري والاخلاقي بالحرية التي تعزز بها كرامة الانسان،

وبالديمقراطية التي تحمي حراك هذا الانسان الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وما يمثلل كل ذلك من عزة للوطن واستقلاله وسؤدده. وهذا الذي سيبقى ليحمل اسم غسان تويني وفكره إلى الاجيال القادمة.

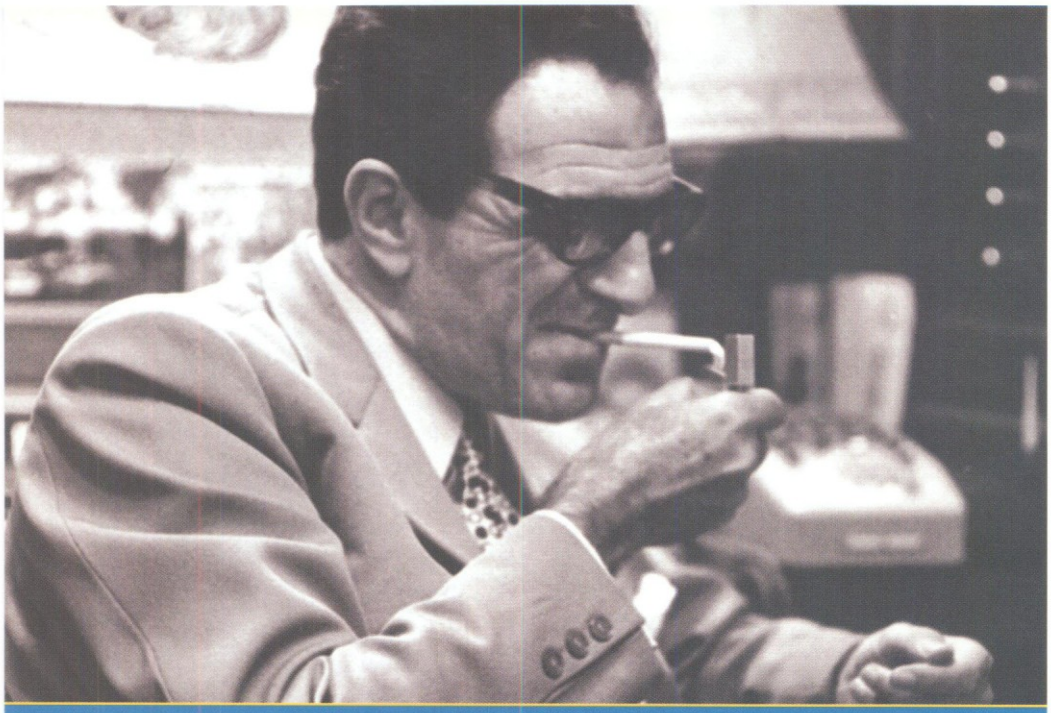

غسان تويني..
من المدرسة إلى السياسة

بقلم السفير عبد الرحمن الصلح

فوق نعش نجله جبران وأمام الحشود المشيّعة للرجل المتمرّد على الصعاب في أحلك الظروف غير هيّاب بالمخاطر، ارتفع غسان فوق جراحه ليدعو المواطنين إلى نبذ لغة الانتقام والحقد والدم وإلى دفن الخلافات والأحقاد مع جبران وأن يكونوا مسلمين ومسيحيين واحداً في خدمة الوطن العظيم وقضيته العربية.

وإذا كان الشهيد جبران قد أعطى المثل في التضحية فإن غسان كان المثل الأعلى لهذه التضحية. ولا يزال اللبنانيون يذكرون، خاصة الأجيال الصاعدة، صرخة غسان المدويّة في الأمم المتحدة «دعوا شعبي يعيش» محمّلاً المجتمع الدولي المسؤولية عن معاناة شعب لبنان في الأيام العصيبة خلال الحرب الأهلية.

ومثل هذا الموقف لم يكن مستغرباً منه لأن من عرف غسان منذ بداياته وعلى مقاعد الدراسة يعرفه شاباً يضجّ بالحيوية والنشاط لا حدود لطموحه. لا يهادن ولا يساوم على قناعاته الوطنية.

لقد ربطت بين عائلتينا علاقات ودّ وصداقة لا تزال قائمة على وشائج الحضارة اللبنانية في التسامح والتعايش والوطنية الصادقة.. تفتّحت آفاقه مع تجارب وتيارات عديدة هبّت رياحها في الوطن العربي، فآمن غسان ببعضها، وانتقد البعض الآخر. فيما كان إخوانه ينظرون إليه بعين التقدير والاحترام متوقّعين له مستقبلاً بارزاً على الصعيدين الإعلامي والسياسي. كيف لا، وهو نجل جبران التويني، ذاك الصرح الإعلامي الكبير والمرجعية البارزة والعصامي الذي أسّس صحيفتي «الأحرار» و«النهار» اللتين كانتا في الواقع تعبيراً عن تطلّعات الجماهير آنذاك حيث نشأ غسان في أجواء الصحافة والإعلام والسياسة منذ نعومة أظفاره لينغمس بكل كيانه ومشاعره في هذا الجوّ العابِق بالنضال السياسي وضجيج المطابع.

قد لا تكفي هذه العجالة للكتابة عن غسان تويني أو لإيفائه حقّه من التعريف بتاريخ

كفاحه الوطني الطويل. فبعد أن باعدت بيننا ظروف الحياة، عدتُ والتقيته مرات في مكاتب جريدة «النهار»، التي تصدّى لرئاسة تحريرها في سنّ مبكرة بعد وفاة والده.. كان آنذاك يجد متعة في تقليم أظافره في مكتبه فجراً، ويتسلى بحكّها بالمبرد، تنظيفاً لها من حبر المطبعة وهو غارق في التفكير العميق بعد ليلة من السهر لمتابعة صدور الجريدة في الصباح.

وككل الصحافيين الكبار، لم يكن العمل الصحافي وحده ليرضي طموحات غسان السياسية، فلم يقنع بالجلوس وراء مكتبه ليمضي وقته في كتابة المقالات والتعليقات والتحاليل السياسية للأوضاع في لبنان والساحة العربية، وإنما كان يرى دوره الفعلي يمتدّ إلى آفاق الوطن العربي الواسع، إيماناً منه بأنه يحمل رسالة قومية لا بدّ من رفع الصوت فيها للنهوض نحو التقدّم والتطوّر والتحديث، صاباً غضبه، بقلمه الحادّ، على الظلم والاستبداد والتخلّف، ومدافعاً عن الحرية بقوة وصلابة.. ومشاركاً في اللقاءات الوطنية والتكتّلات السياسية، ملقياً الخطب الرنّانة مثيراً الحماسة والحيوية في الشباب والجماهير.. كان يتطلّع دائماً إلى العدالة والمساواة بين المواطنين.

وتعود بي الذاكرة قليلاً إلى الوراء، يوم أن نشأت تلك العلاقة الحميمة بين جبران والد غسان ووالدي الذي رأى فيه معدناً من معادن الصدق والوطنية، وخلقاً إنسانياً يزخر بالخير والمحبة، فآمن بقدراته وكفاءته فبات أحد أهمّ أصدقائه، وجمعهما النضال المشترك لتحقيق المبادئ الإنسانية الوطنية التي آمنا بها، وغدا غسان الإنسان والمفكر والسياسي من أصدقائي الذين أعتزّ بهم.

وفي فترات عصيبة من تاريخ لبنان، برز غسان كمهندس لحركة المعارضة التي انتفضت ضد خرق الدستور لمصلحة الطامعين في البقاء على كراسي الحكم، وعندما تبنّت جريدة «النهار» بيان المعارضة المعنون بشعار «بدنا ناكل جوعانين» الذي وقّعه سامي الصلح

وكمال جنبلاط وكميل شمعون، وسارت الجماهير الغاضبة باتجاه وزارة الاقتصاد مردّدة لهذا الشعار على أثر تعطيل جريدة «النهار»، كان نصيب غسان الاعتقال ودخول السجن.

لقد لمع نجم غسان، ولكن انتصار المعارضة آنذاك لم يكن همّه الوحيد، فهناك الصراع العربي–الإسرائيلي الذي شكّل أكبر هموم غسان سواء كان إعلامياً أو سياسياً أو سفيراً أو وزيراً.. وكان سامي الصلح يزداد إعجاباً به مع الأيام، وأذكر أنه في مرحلة عانى فيها لبنان من ضعف التمثيل الدبلوماسي اللبناني في العالم، وخاصة في الدول الكبرى حيث موقع القرار، وقصور معيب على قدَم وساق، ارتأى والدي أن أفضل من يمثّل لبنان ويقوم بدور سياسي فاعل في الدفاع عن لبنان والعرب هو غسان. وحملته هذه القناعة على أن يفاجىء غسان، فأعدّ مرسوماً لتعيينه سفيراً للبنان في واشنطن، وقّعه مع رئيس الجمهورية ووزير الخارجية، واصطحبني والدي معه إلى منزل غسان في الأشرفية حيث اختلى به لبعض الوقت، ولكن غسان اعتذر يومها على خلفية اعتقاده بأن هذا المنصب سوف يبعده عن الساحة السياسية الداخلية مما سبّب لسامي الصلح خيبة أمل ودفع بعض انتهازيي الفرص لتخريب علاقة الصداقة بينه وبين غسان. غير أن غسان بعد أن تدهورت الأوضاع في لبنان أدرك أهمية هذا الدور ووافق أن يمثّل لبنان لدى الأمم المتحدة. وقد لمست بنفسي مدى أهمية غسان في هذا المنصب من خلال مشاركتي برئاسته في الوفد اللبناني في إحدى دورات الأمم المتحدة.

ويذكر اللبنانيون أيضاً يوم ثار غسان في بداية الخمسينات خوفاً على الاستقلال ضد انحراف بعض الذين استغلوا الظروف لمصالحهم الخاصة، وضد الفساد الذي استشرى في أجهزة الدولة فكان غسان من قادة المعارضة التي استطاعت إطاحة العهد بالتعاون مع سامي الصلح، رئيس الحكومة آنذاك، الذي كان مقتنعاً بصحة مطالب المعارضة حيث لقي غسان منه كل الدعم والتأييد. ولا يزال هذا شأن غسان.. ثورة على الفساد والانحراف لا تخمد ولا تستكين لأن هاتين الآفتين عدوتا الأخلاق.. وغسان رجل أخلاق.

وفي مرحلة لاحقة، وعلى أثر ظهور اتجاهات تدعو إلى قطع العلاقات مع الغرب، لم يكن غسان ليرضى بمثل هذه المواقف الانفعالية التي تترك الساحة الدولية لإسرائيل تستأثر بها سياسياً وإعلامياً وتوجّهها لمصلحتها ضد الأمة العربية، فساند التوجّه الرامي إلى تعزيز وتوثيق هذه العلاقات للحدّ من تأثير النفوذ الصهيوني في عواصم القرار والرأي العام الغربي، خاصة وأن الرئيس الأميركي إيزنهاور كان قد أوقف العدوان الثلاثي على مصر عام 1956 وأرغم المعتدين على الانسحاب، وأن مثل هذه المواقف يمكن الحصول عليها إذا ما أحسن التعامل مع الغرب والتواصل معه للحدّ من تفرّد الصهيونية بهذه العلاقة على الرغم من تمادي الغرب بدعم إسرائيل.

من يعرف غسان يمكنه أن يُدرك مدى شفافيته في عالم الفكر والصحافة والسياسة، حيث انصهرت ملامحه الإنسانية بمشاعره الداخلية التي كانت ولا تزال تدفعه إلى الوقوف إلى جانب الإنسان المعذب والمضطهد والفقير فيحمل على عاتقه هموم المواطنين ومعاناتهم اليومية سالاً قلمه من غمده يضرب به ذات اليمن وذات الشمال تفاقم الأزمات المعيشية، وسلوك أولئك العاملين من أجل الإثراء غير المشروع ومن ينهبون ثمن رغيف الخبز من جيوب الفقراء، وكيف تمازجت هذه المشاعر مع فكر صارم عقلاني ينظر بعبقرية هندسية تتراكم فيها حروف مقالاته تراكم حجارة أهرام الفراعنة في مصر.

ولأن هذه هي طبيعة غسان، أن يكون دائماً إلى جانب الإنسان والحرية، بلا قهر، ولا اضطهاد أو ظلم، كنا نجده دائماً متصادماً مع الأنظمة الدكتاتورية التي تأتي بالعسكر على دبابة، ليتسلّطوا على الحكم بالسوط والجزمة دافنين السياسة والسياسيين في مقابر ودهاليز السجون، إيماناً من غسان، بأن الحكم، هو سياسة شؤون الشعوب، لا استعبادها كما هي حال بعض الانقلابات العسكرية في العالم.

فلا عجب إذن وهذه طبيعة غسان أن نجده في السبعينات متأثراً بالثورة الطلابية في فرنسا

عام 1968، وثورة الاحتجاجات الأميركية على حرب فيتنام، تلك الثورات التي لَفحَت رياحها طلاب الجامعة الأميركية في بيروت والتي احتضنتها «النهار» لعلها تكون طريقاً إلى تغيير أساليب الحكم وطبيعة التفكير عند المتسيّسين في لبنان، غير أن روح الإصلاح، روح الخير والتقدّم ما كان ليُسمح لها بأن تتخطى الأسلاك الشائكة والحراب المشرعة التي تحمي القصور والجيوب التي اصطدم بها غسان مستقيلاً من الوزارة، فكان جزاؤه أن أدخل السجن للمرة الثانية خلال مسيرة كفاحه الطويلة.

مع اندلاع الحرب الأهلية في لبنان، هبّ غسان حاملاً قلمه بوجه المدفع مدافعاً عن لبنان، وكان أول من وصفها بأنها حرب الآخرين على الأرض اللبنانية بوسائط وأدوات لبنانية أثناء ترؤسه لبعثة لبنان الدائمة لدى الأمم المتحدة. ومن موقعه ذاك في نيويورك، لم يتطرّق اليأس إلى قلبه، وإنما استطاع أن يحقّق ما آمن به منذ وقت طويل، فكان غسان مهندس القرار 425 الذي قضى بانسحاب الجيش الإسرائيلي من لبنان الأمر الذي تمّ بفضل المقاومة الشريفة.

وعاد غسان إلى عرينه في مكاتب «النهار» في بيروت ليسلّط الأضواء على المخاطر التي يتعرّض لها لبنان، ويتصدّى لتجار الدماء وقتلة الشعوب، فلا عجب إذن أن يكون غسان وجريدة النهار في طليعة المناضلين بمعركة حرية واستقلال لبنان. وكان على جريدة «النهار» أن تدفع ثمن الفداء من دم سمير قصير وجبران تويني، بعد محاولة اغتيال الصديق الوزير مروان حمادة، ولا تزال النهار حاضرة لبذل أكبر التضحيات.

لم تكن مواقف وشخصية غسان التويني في مسيرته الصحافية والسياسية ونضاله الوطني، لتختزلها هذه الكلمات، بل إن إيمانه العميق بالحرية والديمقراطية جسّدت فيه تلك الروحانية التي صنعته مجبولاً بالأخلاق العالية والتي تميّزت بها طائفته الكريمة في علاقاتها الوطنية والإنسانية والاجتماعية مع غيرها من الطوائف في لبنان. تلك التربية

القويمة التي كانت بيروت منذ أقدم العصور خير شاهد على تفاعلها وانفعالها وانصهارها كنموذج حيّ للتعايش الوطني بالسلام والمحبة والتعاون والوئام، فكان هذا ما آمن به غسان وعمل له ولا يزال.

ولا أقول في ختام كلمتي هذه إنني أحطتُ بكل ما يمكن أن يعرّفنا بمسيرة غسان التويني، إذ إن مثل هذا التعريف يحتاج إلى موسوعة، وما ذكرت إلا القليل القليل عن غسان على أمل أن أكون قد أسهمت ولو بقسط ضئيل في التعريف بإحدى بصماتها على جميع العهود منذ الاستقلال حتى اليوم.

ذكريات عن الأمم المتحدة
مع الأخ السفير غسان تويني

بقلم د.عصمت عبد المجيد

لقد شاءت الظروف وجودي في نيويورك من سنة 1972 حتى 1983 وتزاملت والسفير غسان تويني في عملنا أثناء تلك الفترة كمندوبين دائمين لبلدينا لدى منظمة الأمم المتحدة. وأذكر بكل الخير علاقات العمل وكذا العلاقات الأسرية التي جمعت بيني وبين غسان آنذاك رغم الفترة الصعبة التي مرت بها العلاقات المصرية – العربية والتي انعكست آثارها بالطبع على مواقف بعض المندوبين العرب لدى المنظمة الدولية. وكان ايماني لا يتزحزح بأن السياسة المصرية كانت بعيدة النظر وكانت تحاول فتح الباب أمام السلام في المنطقة، وكما حرصت على مصلحة الشعب المصري في استرداد أراضيه حرصت في الوقت نفسه على مصالح أمتها العربية ودافعت عن قضاياها وتصدت لمحاولات تسعى إلى النيل من هذه المصالح. غير انني كنت احترم حق أي سفير عربي في التعبير عن رأيه والدفاع عن موقف بلاده، ورغم ان البعض تمادى في خلافاته وهزته مفاجأة زيارة الرئيس السادات للقدس في تشرين الثاني/نوفمبر 1977 وحتى بعد توقيع اتفاقيتي كامب دايفيد في أيلول/سبتمبر 1978 بفترة، تعامل غسان تويني بموضوعية ويظهر ذلك في المراسلات الدبلوماسية التي جمعها في كتابه «القرار 425 المقومات – الخلفيات – الوقائع – الابعاد» الخاص بالغزو الاسرائيلي للبنان في آذار/مارس 1978 ما نصه حول المقترحات – المصرية – الكويتية التي تبنتها المجموعة العربية في نيويورك في نفس يوم اجتماعها بناء على طلب منظمة التحرير الفلسطينية لمتابعة تنفيذ قرار مجلس الامن رقم 425 وينص على:

1. تشكيل لجنة لمتابعة الموضوع من لبنان والكويت ورئيس المجموعة العربية ومندوب المنظمة لمتابعة الاتصالات المكثفة مع الامين العام للأمم المتحدة ورئيس مجلس الامن (الاميركي خلال شهر نيسان/أبريل) لاستعجال تنفيذ القرار بانسحاب اسرائيل غير المشروط.

2. مواجهة الضغط والتلويح الدائم بدعوة مجلس الامن وتداول مشاريع قرارات عن طريق «الكلام المكتوب» لاحراج اصحاب العلاقة، والبحث في فرض عقوبات على اسرائيل من

دون تحديدها الآن، ومجابهة اعضاء المجلس والامين العام بورقة عمل على هذا الاساس، ووضعهم امام مسؤولياتهم التي لم تنته بمجرد اتخاذ القرارين 425 و426.

3. أن تكون دعوة مجلس الأمن في يد لبنان، بمساعدة المجموعة العربية (شدد على ذلك مندوب مصر مراراً) على ان يستعمل التلويح بمجلس الامن «كسيف مصلط دائماً بحكمة وحذر» وأن يطلب إلى الامين العام عدم الاكتفاء بتطمينات بيغن الشفهية، بل يتوجب الطلب منه القاء بيان في مجلس الامن يسجل التعهد الاسرائيلي بالانسحاب، فيكون هذا البيان وثيقة رسمية بيننا.

وكنت قد أجريت العديد من الاتصالات مع الأمين العام للامم المتحدة غداة الغزو الإسرائيلي للبنان ملحاً عليه التدخل شخصياً وباستمرار مع اسرائيل والقيادة الفلسطينية للتوصل إلى وقف اطلاق النار. وفي جلسة الجمعية العمومية للامم المتحدة التي انعقدت بعد ظهر يوم 21 نيسان/أبريل 1978 أثرت مجدداً موضوع العدوان الاسرائيلي على لبنان مشيداً بمجلس الامن الذي اتخذ قراراً واضحاً مؤكداً أهمية احترام الاستقلال السياسي والوحدة الاقليمية للبنان ضمن حدوده المعترف بها دولياً. وحذرت من محاولات اسرائيل تفسير القرار 425 أسوة بتفسيرها للقرار 242 محاولة بذلك التملص من تنفيذ التزامها الانسحاب الفوري والشامل من لبنان.

ومرة أخرى يسجل تويني في برقية صادرة منه تحمل رقم 146 ومؤرخة في 24 نيسان/أبريل 1978 تناولت مناقشات مجلس الأمن والجمعية العمومية وطلب من حكومته توجيه الشكر إلى عدد من الحكومات التي ساندت الموقف اللبناني ومن بينها مصر:

«السفير المصري عصمت عبد المجيد الذي كان بسبب ما يتمتع به من مكانة في الامم المتحدة، ونظر إلى سياسة بلده، عنصراً اساسياً في التنسيق مع اميركا والدول الغربية دون أي تطرف مما جعله يصطدم احياناً بالمتطرفين في كتلة عدم الانحياز».

وكانت لي كلمتان بالمعنى ذاته في مجلس الامن عندما قامت اسرائيل بغزو لبنان في آذار/مارس 1978، وعندما اعلنت عن ضم مرتفعات الجولان في كانون الأول/ديسمبر 1981.

ولا أنسى موقف زميلي غسان تويني اثناء زيارة الرئيس الجميل لمبنى الأمم المتحدة عندما طلب من مدير البروتوكول آنذاك أن يرتب مقابلة لي مع الرئيس الجميل في قاعة مجلس الأمن والذي أبدى رغبته في مصافحتي رغم عدم وجود علاقات دبلوماسية وقتها بين بلدينا وتم ذلك أمام الجميع.

وأمر آخر أود أن أسجله هنا هو تضافر الجهود العربية من اجل اعتماد اللغة العربية لغة رسمية في مجلس الأمن عام 1982. ويرجع الموضوع إلى تشرين الأول/اكتوبر عام 1973 حينما تقدمت مع ثمانية عشر مندوباً عربياً في المنظمة الدولية بخطاب إلى الامين العام للامم التحدة نطلب فيه اضافة بند إلى جداول أعمال الجمعية العمومية دورتها الـ 28 تحت عنوان «ادخال اللغة العربية من بين اللغات الرسمية التي يعمل بها في الجمعية العمومية ولجانها الرئيسية والفرعية». وأوضحنا في خطابنا أنه بفضل اللغة العربية تمت المحافظة على حضارة الانسان وثقافته وانتشارها، وان اللغة العربية ينطق بها – في ذلك الوقت – 120 مليوناً في تسعة عشر بلداً عربياً بالاضافة إلى الملايين في الدول الاسلامية الذين يستخدمون العربية في ممارسة شعائرهم الدينية. وعبرنا عن اقتناعنا بأن ادخال اللغة العربية كلغة رسمية سوف يؤدي إلى تفعيل دور الامم المتحدة بالمزيد عن طريق ابلاغ اعمالها ومقاصدها إلى الشعوب الناطقة بالعربية الامر الذي سيؤدي إلى زيادة التفاهم بيننا.

واذا كان لي أن أضيف شيئاً هنا فانه من الواضح ان المكانة التي اكتسبتها الدول العربية بعد نصر أكتوبر المجيد والثقل السياسي والاقتصادي الذي تمتعت به على الساحة الدولية، كان لهما أكبر الأثر في صدور قرار الجمعية العمومية في كانون الأول/ديسمبر 1973 بادخال

اللغة العربية ضمن اللغات الرسمية في الأمم المتحدة. وحديث الاستثمار السياسي والاقتصادي لنصر أكتوبر لا ينتهي.

ولا بد ان انهي شهادتي بالاشارة إلى ما قامت به مصر في الامم المتحدة غداة الغزو الاسرائيلي للبنان في حزيران/يونيو 1982 فقد بلورت مصر مع فرنسا ما عرف بالمبادرة المصرية – الفرنسية المشتركة، بعد اتصالات بين الرئيسين مبارك وميتران، بغية التوصل إلى حل لقضية الشرق الاوسط. وأول طرح للمبادرة كان في 2 تموز/يوليو بخطاب موجه مني ومن السفير الفرنسي إلى رئيس مجلس الامن. وكان الشق اللبناني من المبادرة يقوم على تأكيد الوحدة الاقليمية والاستقلال السياسي للبنان وسيادته على أراضيه وانسحاب القوات الاسرائيلية في مرحلة أولى إلى خارج بيروت، يلي ذلك انسحابها الكامل من لبنان.

شهادة أخيرة لا بد من الاشارة اليها نظراً إلى ما تحمله من معان، فلقد ألقيت محاضرة في معهد ايمانويل في نيويورك امام عدد كبير من أبناء الطائفة اليهودية في 17 كانون الأول/ديسمبر حذرت فيها من مخاطر الاحداث المأسوية الحاصلة. وقلت ان مصر لا يمكن ان تقبل غزو اسرائيل للبنان.

لقد استمرت العلاقات الطيبة بيني وبين صديقي غسان تويني وعندما فكرت في نشر كتابي «زمن الانكسار والانتصار» كان أول دار نشر فكرت فيها هي دار النهار التي يرأسها الزميل العزيز غسان تويني.

هذه بعض الذكريات التي أعتز بها كل الاعتزاز مقدراً الدور الهام الذي كان يقوم به الأخ السفير/غسان تويني تحقيقاً لأهداف عربية مشتركة.

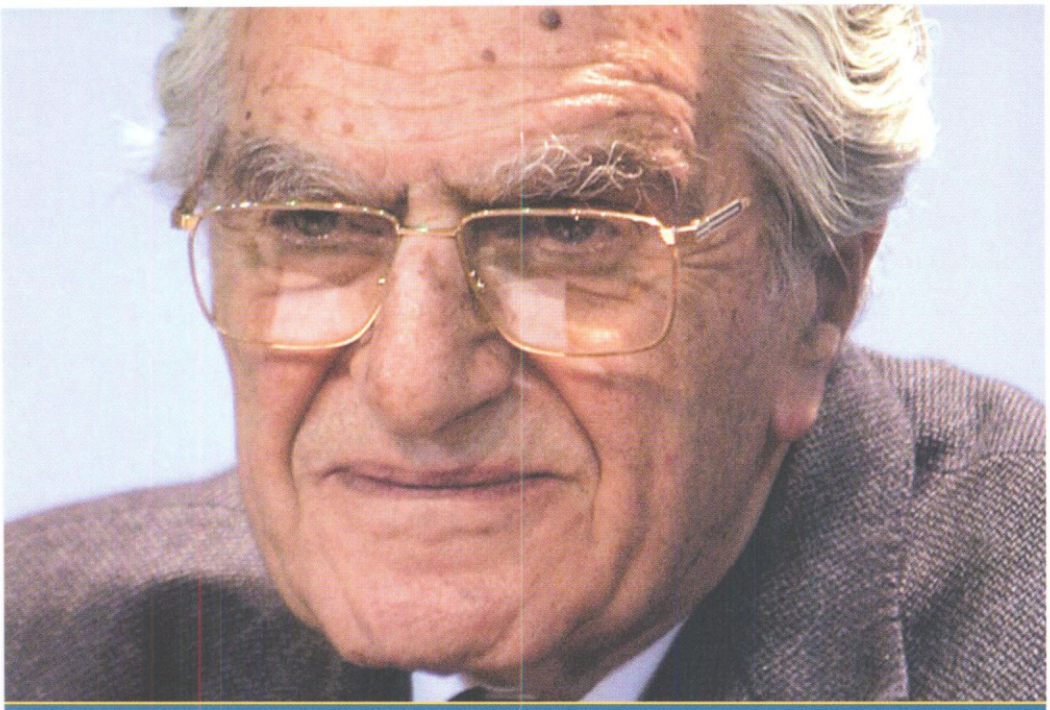

عن زميل كبير

بقلم زهير عسيران

الكلمة لا يعرف قدرها الا عند من يعنيها مجردة ممّا يشوبها أنانية وتزلفاً. وقد كان لهذه الكلمة عندنا ميدان تتسع فيه الجولات وتسمو فيه الغايات وتسخو به النفوس والقلوب والأيدي بما لا يعيه سخاء. كما كان لها أحد الفرسان الذين أغنوها بما قل أو جل من أمور الدنيا وأعلوها اعلاء له من القدر ما ندر أحياناً وأعلوها في النفوس والعقول والصدور حلول الفائدة والمتعة والأنس والحبور.

هذا الميدان هو ميدان الصحافة التي ندبت نفسها لتأدية رسالة الهدى الذي يخزن ولا يبخل به في الوطنية الصادقة والمعرفة الشاملة والتوجيه السليم والطرافة التي تكسوها من الملاحة الباهرة كما تبهر احدى الحسان سائر الحسان. وهذا الفارس هو غسان تويني المجيد في الوراثة واللامع في الابداع والمعرفة. إرثه المجيد انّه ابن جبران تويني أحد أركان الصحافة اللبنانية بل العريقة التي أرساها راسخة في اطلاقه جريدة «النهار» التي كان لها في اعزاز الزمن ما تنسب اليه الصحافة انتسابا كريماً. اما الابداع والمعرفة فهما حوزة الاطراف المترفة عند غسان تويني. فما باب دخله الا كان مدخلاً إلى شاهق من بناء ووسيع من فناء وبعيد يحبّ ان يدرك أثره. وكأن لا شي في الدنيا يعسر عليه انما العسر ما تنافس به يمناه يسراه حتى بات لا يقلقه الا ان يقصر الآخرون عن تناول ما يدفقه عليهم لا منّة ما دامت الدلالة موفورة الكرامة. خلف والده في حمل الرسالة وهو شاب مدلل فكان لها رجلها المؤثل، حتى كاد يكون الغاية التي توخاها في جريدته، وأوشكت هي ان تكون الوالهة بمقدمه المبارك، فكأنها الحسناء التي تنتظر غلوان شبابها لتفوض أمر مفاتنها إلى سلطان يفعل بالالباب ما يفعل وينزل بالقلوب ما ينزل.

ودخل نقابة الصحافة فكان الباحث في أمورها والعامل في انمائها وجلائها وتفويض الفكر في أعماقها، فاذا هو من علية العارفين فيها الذين وصفوا بالصفوة التي يشكر لها ذوق ورأي متعافيان.

هكذا عرفت غسان تويني وترافقنا وتصادقنا حتى العيش معاً في نقابة الصحافة منذ عهد بعيد نبرد الأمر حيناً ونذكي الجمر أحياناً وننسج الغلال التي تتباهى بها حسنا ورواء. هذا العهد الذي كان للصحافة فيه ما بين الألسنة والنطق ما يقصر سماعه ويطول امتاعه ويحفظه الزمن حفظ الذي يحلو ويغلو.

غسان تويني النقابي الصحافي ذو اللسان اللسن الذي ينطلق من أسئلته ما يلذ سمعه فينتهي إلى القرارة وقعه. وهو المخلص الصادق الذي تهون عنده التضحية ويحّم عنده الوفاء. وأيا كان المنحى الذي ينحوه، فكلامه ملكه يذهب به المذهب الذي يستهويه في دقة الحرص وسداد الرماية، وقد طاب له ان يدخل السجن دفاعاً عن الحرية والصحافة، فكان السيّد الذي يقهر ولا يقهر.

وغسان تويني لم يبرّز في ميدان الصحافة فحسب بل تجاوز به طموحه ما يحد لبنان في وجوده وكيانه فهو المفكر الذي عمرت بمؤلفاته المكتبات ودوت أصداء محاضراته في ارجاء الجامعات وعلى المنابر الدولية. وهو السياسي الذي أدى ادواره في النيابة البرلمانية مشترعاً ومناظراً وواضعاً القوانين وممثلاً الشعب في حقوقه وواجباته ابرع تمثيل. وهو الوزير النافذ في حمل أعباء المسؤولية وتحقيق ما يؤمن المصلحة العامة وبسط ميزان العدالة والحق. وهو السفير الذي يحلّ وطنه لبنان في أروقة الامم المتحدة المحل اللائق في المناقشة والتنسيق وكل ما يؤدي إلى صون حقوق الوطن. وهو يقوم بهذه المهمات مبروراً ويتخلى عنها مشكوراً.

الكلام على غسان تويني يمتد امتداد الشوق اليه عند من يجيد سماعه.

الاستاذ

بقلم سمير عطالله

عرفت غسان تويني منذ 45 عاماً. عملت معه محرراً مبتدئاً في «النهار». وسافرت معه في بلاد الغرب وبلاد العرب. ورافقته سفيراً لدى الأمم المتحدة في نيويورك. وفي كل هذه السنوات، وكل تلك المدن، كان يمكن اختصار غسان تويني في كلمة واحدة: الرقي.

عندما يكون الانسان راقياً، أي عالياً، تكون فيه كل الصفات الحسنة الأخرى. فالراقي، في طبعه، انسان متسامح. والراقي، في تكوينه، انسان متفهم لضعف الآخرين وعارف بنقاط القوة فيهم.

والراقي، انسان لا يتوقف عن البحث والسعي والترقي. ولذلك لم يتوقف غسان تويني أمام شيء: لا كارثة الحرب التي خربت لبنان، ولا الفواجع الشخصية الحميمة التي أمسكت به من عروق عينيه، تحاول أن تعصرها دمعاً. لكن فلسفة غسان تويني في الحياة والموت، رفضت الخضوع لقانون الضعف وشرعة الضغينة.

توفي ابنه مكرم في باريس في حادث سيارة يقودها رفيقه. وبعد جنازته ذهب غسان تويني إلى سرير رفيقه في المستشفى يطمئن عليه. وكان كلما أتى لندن فيما بعد، يقول لي، فلنذهب إلى زيارة صديق مكرم وأهله.

كنت أجد صعوبة في تحمل مثل هذا الامتحان، أنا الغريب البعيد، أما هو فكان يزور باشاً ويخرج مبتسماً. وظل، وسوف يبقى، يتحدث عن مكرم في صيغة الحاضر. صيغة الحياة.

كنت أعتقد أن الذين يريدون قتل جبران تويني لن يقتلوه،لأنه مهما بلغت قسوتهم فلن يحرموا عميد الصحافة اللبنانية ورمزها ورائد نجاحاتها من ابنه الأخير. لكن القاتل، على ما يبدو، لا يفكر بقلوب البسطاء وعندما استشهد جبران التويني، أميراً من أمراء الحرية في العالم، وقف غسان تويني فوق نعشه ودعا إلى التسامح.

حدث في بيته موت كثير وواجه الموت الحميم، كما واجه السجن السياسي، كما خاض معارك الحريات والاستقلال، بدرع الشجاعة والفروسية. الحزن شيء عظيم وداخلي. وسوف يطويه غسان تويني في داخله، بكل رقي، كما طوى السنوات الثمانين من حياته، شاعراً وكاتباً، ودبلوماسياً، ووزيراً وفارساً خصوصاً كالفارس.

وبسبب هذه المقدرة الذاتية المتفردة، بنى في مسيرته الصحافية ما بنى وأنشأ ما أنشأ.

قبل غسان تويني (وكامل مروة وسعيد فريحة) كانت الصحافة في لبنان تطبع في بيروت وتوزع في بيروت. وقد أراد غسان تويني لـ«النهار» التي تصدر في بلد من ثلاثة ملايين نسمة انذاك أن تكون شيئاً شبيهاً بـ«لموند» وذات بعد عربي كـ«الاهرام». ولم يكن من السهل تحويل لبنان إلى مصر، لكن غسان تويني جعل «النهار» في ألق الصحافة العربية الكبرى، لها وجودها في كل مكان، ولها اسم يرن في الدور والقصور. ولها أثر على كبار الحكام وأواسطهم وصغارهم.

كانت الصحافة قبله حرفية، بسيطة، مكتفية بما فيها ولها. وراح يحلم لها أحلام العصر. وحوّل الملكية الخاصة إلى ملكية عامة. وحوّل المحررين والعاملين إلى مساهمين. وأدخل الطباعة وسبل التوزيع إلى حداثة العصر. وأطلق المراسلين في العواصم. وألغى المركزية ووزع المسؤوليات التحريرية على الأقسام. ورفع مستوى المعيشة عند الصحافيين العاملين أضعاف ما عرفه الموظفون العاديون. وفتح الباب واسعاً ومطلقاً أمام المواهب والكفاءات. وكذلك أمام التيارات والآراء. ولم تعد الناس تعرف إن كانت «النهار» يسارية أو يمينية. والواقع أنها كانت صحيفة حرة وراقية مثل صاحبها، ولا تشتم ولا تهاجم ولا حتى تخوض تلك الحرب التي خاضها جميع اللبنانيين، أما هي فظلت، مثل غسان تويني، مع سلامة العقل وسلامة الوطن وخير الأمة.

في بدايتنا الصحافية في «النهار»، كنا نسميه «المعلم». أنا كنت أناديه «الأستاذ» دون الحاجة إلى الاسم العلم. فقد كان في «النهار» والصحافة اللبنانية أستاذاً واحداً ولا يزال. أطال الله في عمره.

غسان تويني
نظرة إلى عالم عربي أفضل

بقلم محسن العيني

ما الذي يمكن ان نقوله اليوم عن غسان تويني، بعد كل ما قد قيل واذيع وكتب ونشر، وخاصة خلال الشهور الأخيرة، بعد فاجعة جبران المروعة..

لقد برز غسان عملاقاً جباراً كبير العقل والقلب، مرفوع الهامة.. أذهل القريب والبعيد.. الصديق والعدو..

عشت في بيروت شهوراً.. كنت أسميها مرحلة التسكع..

فقد ابعدتني السلطات البريطانية من عدن عام 1960. فتوجهت إلى القاهرة مندوباً لمؤتمر عمال اليمن في الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب.

واختارت مصر في تعاملها مع اليمنيين الاحرار خطّاً لم أكن مقتنعاً بصوابه.. فانتقلت إلى بيروت، ممثلاً لاتحاد عمال اليمن واتحاد العمال العرب.

هناك لم اتعرف إلى غسان تويني.. طبعاً.. بل إلى ميشال ابو جوده ومنح الصلح ومحسن ابو ميزر وكمال ناصر.. والعديد العديد من «النهاريين» المتأثرين بـ غسان تويني.

كان ميشال ابو جوده قد كتب في عموده يوماً.. لا شيء يتم بدون مصر.. فقال احدهم ونحن نسير في شوارع بيروت في منتصف الليل.. وهل تمّ شيء بمصر..! وكانت مصر هي كل شيءٍ في حياة العرب يومها.. فقلت: نحن دوماً نبحث عن شماعة.. اسرائيل.. الاستعمار.. المؤتمرات.. المخططات.. ونحمل مصر مسؤوليات.. ونعفي انفسنا..وضحك ميشال ابو جوده.. وقال.. قليلاً ما اراك تدافع عن مصر..!

تعلمت يومها من منح الصلح.. ان للديمقراطية معنىً فلسفياً.. الاغلبية تتسامح مع الأقلية..

لا رحمة ورأفة. ولكن لأن رأي الأقلية قد يكون هو الصحيح.. والأقلية تقبل تحكّم الأغلبية لا لضعفها ولكن لأن رأي الاغلبية قد يكون هو الصحيح.. هذا فهم ونضج حضاري..

محسن ابو ميزر.. عاتبه احدهم لأنه في بيروت بعد معاناة ومعاناة في القدس.. فأخرج جواز سفره وقال.. انظر.. انا لست عنترة بن شداد.. انا محسن ابو ميزر..!

هذه كانت اجواء «النهار».. واجواء بيروت..

عندما تفجرت ثورة اليمن.. ورغم ان البعض تصورها في البداية انقلاباً عسكرياً.. لم يتردد غسان تويني وميشال ابو جوده ومنح الصلح في الترحيب بها.. وبرروا ذلك بسوء الاحوال في اليمن.. وبوجود أسماء في قيادتها معروفة بالنضال من اجل الحرية.. وبالتطلع لعالم عربي احدث وأفضل.

ويقول سمير عطالله.. ان غسان يتابع ويسأل عن كل شيء، وأنه عاتبه حين وضع عنواناً كبيراً في الصفحة الأولى في «النهار» «شكّل العيني حكومته الثالثة. فمتى يستقيل؟!». لكنه بعد ذلك هنأه.. لأنه حقق نصراً صحافياً.. لأني تركت الحكومة بعد شهور..!

غسان جعل من «النهار» رائدة للصحافة اللبنانية ومدرسة للصحافة العربية وبرغم كل ظروف وازمات ومتاعب وحروب لبنان.. ظل غسان تويني فوق الطائفية.. فوق الكتل الحزبية.. فوق التمزق والتشرذم.. ومع الوحدة والحفاظ على العلاقات مع الجوار ومع الجميع.. بل مع العالم.

لكنه دفاعاً عن الحرية كان مناضلاً شرساً، ومعارضاً صلباً، وقد اعتقل اكثر من مرة.. وتعرض وصحيفته للمتاعب.

عرفته للمرة الأولى في منزلي في صنعاء في السبعينات حين زارها وزيراً للتربية ومهتماً بالثقافة وشؤون اليونيسيف، ونحن نحبو في تأسيس جامعة صنعاء، واهداني مجموعة جبران خليل جبران..

وكان معنا احمد جابر عفيف وزير التربية يومها في اليمن.

بعد ذلك التقينا في الأمم المتحدة.. وبيتي مفتوح كل يوم أحد.. يتردد عليه الزائرون بدون موعد..

ويكون الضيوف رجال فكر، صحافيين، عرباً وأميركان واجانب.. يتبادلون الاحاديث في شتّى الموضوعات التي تشغل الأمم المتحدة، في جو بعيد من التكلف والرسميات.

وهو ونا ديا مهتمان بتهيئة اجواء الضيافة الحقيقية المريحة.. وينقلان الاحاديث من موضوع لآخر.. في بساطة ودون تكلف.. لعله بهذا.. كان يستعيد اجواء مكتبه في دار «النهار» في (الحمراء).. مع النواب والسياسيين والكتاب والصحافيين.

وعندما اجتاحت اسرائيل لبنان.. سمعت الدنيا صرخته في الأمم المتحدة.. «دعوا شعبي يعيش..» كان رجل لبنان ولسانه وصوته.. وعندما سأل السفير الاميركي في بيروت الرئيس الياس سركيس اذا كان قد اعطى تعليمات لسفيره في الأمم المتحدة.. اجابه.. «غسان يعرف ما يفعل»!

ورغم مشاكل لبنان.. كان غسان موجوداً وحاضراً ومتابعاً لكل القضايا العربية وغير العربية..

وعندما يطول السهر في مناقشات وحوارات.. تتدخل نادية وتقول لزوجتي «يا عزيزة قولوا لغسان بدكم تناموا.. حتى يتذكر ان عليه ان ينام..!».

وعندما تركت الأمم المتحدة، واستقررت بعد ذلك في واشنطن، ظل يلاحقني.. ويطلب مني ان اكتب وان اقول شيئاً عن اليمن.. بعد احداث واحداث..

وشجعني بأن مندوب «النهار» في وشنطن الصديق رفيق معلوف سيتولى اثارة النقاط والتسجيل والصياغة والكتابة.. وليس علي سوى الحديث.. وفي اوقات الفراغ..

كنت دائماً اتهرب، واتهيب، وفي نفسي.. هل يظن غسان تويني ان عندي ما يستحق ان يقال.. كما أني حريص دائماً على ان اكتب ما اكتب.. كلمة كلمة.. وصفحة صفحة.. بل وان اضع النقاط والفواصل وعلامات الاستفهام والتعجب.. واين يبدأ السطر في كل فصل.. ولا اعتمد على احد في وضع او تغيير اي كلمة..

وبعد سنوات وسنوات.. التقينا في اكثر من ندوة ومناسبة، ولم يكن قد نسي.. وكنت هذه المرة قد كتبت شيئاً.. لكني لم أكن اتصور كيف أنتهي منه وأنشره..

فطلب مني الاطلاع عليه.. وقال لي بعد ذلك ان «دار النهار» ستقوم بنشره.. ولم يبق امامي الا ان اكمل المشروع..

ولاسباب عاطفية معنوية.. كنت حريصاً على ان يصدر كتابي من القاهرة. وعلى استحياء ذكرت هذا بصورة عابرة.. واذا بغسان يرحب ويقترح ان يتم الاصدار شراكة بين «دار النهار» في بيروت و«دار الشروق» في القاهرة.. ويحضر بنفسه مع مساعديه إلى القاهرة للاجتماع بابراهيم المعلم ورجال «دار الشروق»..

كم اخجلني هذا.. فالموضوع لا يستحق كل هذا الاهتمام لا فكرياً ولا سياسياً ولا مالياً..

لكن غسان تويني.. الكبير.. يعطي لأبسط الاشياء.. اهتمامه ورعايته واشرافه ومتابعاته..

ولعل هذا هو سر نجاحه في حياته، في اسرته، في «دار النهار»، في عمله الصحافي، والنيابي، والسياسي والدبلوماسي والاجتماعي..

زيارته للقاهرة كانت هي المناسبة التي عرفنا فيها السيدة شادية.. زوجته الثانية.. والدور الذي تلعبه في حياته..

رنّ الهاتف في الغرفة المجاورة للصالون الذي كنا نجتمع فيه، فطلب غسان من إدمون صعب ان يتفضل بالرد.. وعندما عاد إدمون، اشار لي ان القي نظرة من فتحة الباب على الغرفة..

قبل ان نغادر الفندق.. كانت شادية قد اختارت لغسان الهندام الكامل.. بالألوان المتناسقة.. البدلة.. القميص.. رباط العنق.. المنديل.. ورتبتها بصورة يسهل ارتداؤها. شادية.. زوجة تطيل العمر.. يا لها من سيدة عظيمة، تؤدي بعض الواجب نحو رجل عاش حزيناً لفقد ناديا الشاعرة الاديبة، ام ابنائه.. التي امضى معها سنوات مرضها، بحب وحنان ووفاء ومعاناة وما زالت صورها واشعارها وذكرياتها تشغل بيته ومكتبه وحياته.. جنباً إلى جنب مع شادية دون غيرةٍ او تبرم..

غسان.. كانت العروبة في البيت.. فأبوه جبران تويني مؤسس «النهار».. سماه وهو اول ابنائه غسان.. تيمناً بالغساسنة.. المسيحيين العرب.. برهاناً على اعتزازه بالعروبة..

فغسان.. لبناني، سوري، عربي، انسان يتسع صدره وأفقه للعالم كله..

هل كان انتماؤه للحزب القومي السوري انطلاقاً من القطرية الصنيعة الصغيرة..؟ وهل ضاق بالحزب فانطلق بعد ذلك في رحاب اوسع وأكبر؟ شأنه شأن هشام شرابي وحليم بركات.. ومثل كثيرين ممن نضجوا وضاقوا بالاحزاب وانطلقوا مفكرين.. يتجاوزون الحدود والقيود ويحلمون بعالم عربي احسن.. وعالم افضل..! اليس هذا ما فعله الاديب الفرنسي اندريه جيد حين تمرد على الحركة الشيوعية..؟!

غسان.. أمام جثمان ابنه جبران.. نادى «بدفن الاحقاد، ورفض الانتقام والحقد.. ودعا اللبنانيين للوحدة دفاعاً عن لبنان والقضية العربية».

وقد اثار هذا اعجاب اللبنانيين وتقديرهم وإكبارهم.. لتعاليه على جرحه العميق..

وامام عواطف اصدقائه ومحبيه ومعجبيه.. قبل العودة إلى الصحافة والنقابة.. بل وربما إلى النيابة.

غسان تويني الصديق الأعز

بقلم علي غندور

الصحافي الذي يحبه الناس. هم على موعد معه صباح كل اثنين يقرأونه بلهف انما يهابه الحكام.

المحاضر الفذ الذي يثير الجماهير والمحاور المقنع والجريء الذي يقول ما لا يقال.

الأكاديمي الذي ساهم في تأسيس جامعة البلمند وترأس ادارتها كما ساهم في تأسيس الأكاديمية اللبنانية ودرّس فيها.

السياسي الديناميكي دخل مرّتين قبة البرلمان وقد تستقبله قريباً لثالث مرة لأنها بحاجة ماسة اليه في هذا الزمن العصيب، ووزير عدّة مرّات. من مآثره أنه ساهم في اسقاط رئيس الجمهورية عندما حاول خرق الدستور ليجدد ولايته كما حارب عسكرة النظام بدون هوادة.

الدبلوماسي المحنّك. سفيراً متجولاً في أنحاء العالم حاملاً رسالة لبنان. وسفيراً في الأمم المتحدة، بذكائه وحنكته وحكمته صدر القرار 425 الذي أصبح الركيزة الأساسية لسياسة لبنان الخارجية.

العقائدي الذي اصطفاه أنطون سعاده ليحمل رسالته فكتب له أهم رسائله.

الثائر المارد المتمرّد على كل ظلم وفساد يدخل السجن عدة مرات فيجعل منه مدرسة.

الوطني العروبي انما بنظرة جديدة واقعية ما يميّزها انها تصلح للتطبيق.

دائماً يتطلع إلى أفق جديد، إلى نظام جديد، إلى الجيل الجديد ودائماً يبحث عن الحقيقة. يؤمن بالحداثة والعصرنة مع المحافظة على التراث العريق.

غسان تويني انسان نبيل. اذا سألت معظم اللبنانيين يقولون: بئس هذا النظام الطائفي. نريده رئيساً للجمهورية وان لم يكن مارونياً. وحده يعرف طريق الخلاص.

غسان تويني هو كل هذا وأكثر. وربما لم يخطر في بال أحد أن غسان تويني رجل أعمال من الطراز الفريد.

نعم، نعم، وألف نعم هو رجل ادارة وأعمال بامتياز. هو يرفض هذا الاتهام ربما لأنه دارس فلسفة وذو ثقافة عالية يتعالى على الشؤون الدنيوية والمال والأعمال والاقتصاد والربح والخسارة.

يكفي أن تتأمل ما هي «امبراطورية النهار» اليوم وكيف كانت يوم ورثها عن والده الصحافي الأول والأهم في لبنان جبران تويني.

فجريدة «النهار» وربما هي الأولى في لبنان اسسها والده عام 1933 كانت تصدر أحياناً وتحتجب أحياناً بأمر من حاكم حاقد أو ظلم مستعمر أو بسبب الحرب. يتسلمها غسان في 1948/1/5 ويصبح رئيساً لتحريرها بعد ان تدرب فيها مراسلاً محلياً وفي الولايات المتحدة ثم مراسلاً حربياً في فلسطين. ومنذ تسلمها تنمو وتتجدد باستمرار. كلما لوحق غسان أو سجن زاد الناس ادماناً على قراءتها وولعاً بها. فنجاحها من جهده وجهاده في سبيل خدمة شعبه وتوقه إلى العدالة والحرية وكلمة الحق.

سألته: أنت دارس فلسفة فكيف استطعت القيام بهذا العمل الجبار يكاد يعجز عنه رجال الأعمال المميزون؟

يجيبني: «أنا لا أفقه شيئاً عن المال والأعمال والربح والخسارة انما منذ تسلمي «النهار»

عام 1948 كنت أعرف ان المهم هو القارئ والبيع. كنت أركض وراء الباعة ليحملوا «النهار» وينادوا عليها والاحق المتعهد قبل الصبح لأتبين مدى تقدم البيع واذا كان أقل من تقديري أسأل عن السبب وأعمل على تحسين النوعية». اذا منذ البداية كان همه كمية ونوعية الانتاج والسوق والباعة والمستهلك.

في محاضرة القاها في 1967/2/4 يقول: «نكاد ننسى كيف نبيع وماذا نبيع؟ ما هي السوق؟ ومن نبيع؟ وما عددهم، صفاتهم، أعمارهم، اهتماماتهم، أولوياتهم؟ كيف يشتري المستهلك؟ بماذا أو لماذا، ومن يؤثر به؟ إنه الاعلان أولاً وأخيراً».

ويتساءل: ان كان يشتري الجيل الجديد ما كان يشتري السلف؟

فيجيب: «طبعاً لا. اذ إن له عادات جديدة وحاجات مبتكرة».

ثم يتحدث عن الاحصاءات التي وحدها تظهر ان المزيد من الاعلان يؤدي إلى المزيد من المبيع والربح...

وهنا يؤكد على اهمية الترويج عبر الاعلان لأنه يعرف ان الإعلان هو الدخل الرئيسي للجريدة.

ويقول إن الاعلان هو الوسيلة للمنافسة التي تؤدي إلى خفض الاسعار انما يؤدي كذلك إلى زيادة الايرادات والأرباح.

ويقول إن تقصير الانتاج يعود إلى سوء التسويق وضعف الاعلان.

وفي نظريته يعتبر أن الاستهلاك هو أهم عناصر الدخل القومي وأكثرها استقراراً وبالتالي فإن

زيادة الاستهلاك معناها لا زيادة الدخل وحسب بل زيادة الرسملة فزيادة الانتاج فزيادة الفاعلية الاقتصادية، والمزيد من الاعلان معناه اذاً، كما يقول، المزيد من الاستهلاك أي من الانتاج أي من العمل أي من الدخل أي من الثروة ومن توزيعها تبعاً للانتاج والاستهلاك معاً.

كيف يقول انه لا يفقه شيئاً عن المال ويتحدث هكذا عن الاقتصاد من الناحية النظرية والعملية ويتحدث هكذا عن صناعة الاعلان اذ يقول «انها لن تتقدّم وتنمو ولن تبني لها رصيداً عند الجمهور يمكنها من أداء مهمتها الاقتصادية ما لم تبلغ مستوى رفيعاً في الخلق الفني والأدبي. اذا لم يفهم اهل الاعلان ذلك ولم يتسع صدرهم وعقلهم لهذه الحقائق فكيف تراهم يقدرون على تحمّل مسؤولية مساهمة الاعلان في تنمية الاقتصاد الحر ورفع مستوى المجتمع، هي مسؤولية لن ينجح صاحبها في تأديتها اذا غاب عن ممارسته لها عنصر الخلق والابداع والجمال».

عبر هذا الفكر الاقتصادي بنى غسان تويني امبراطورية «النهار»: شركات نشر، صحف وكتب ومطابع، توزيع واعلانات. لم يبن هذه الامبراطورية من مال ورثه ولا من تبرعات الحكومات والحكام والسياسيين. ورث عن ابيه النبل والكرامة والحس القومي وعشق الحرية والحكمة والحنكة الدبلوماسية.

يقول «المال ينشأ من الآمال اي من العمل وقد ينشأ معه وليس منه».

من بداية متواضعة مالياً انما ثرية برسالتها، وبثقافتها وبطموح لا يحدّ، بنى الامبراطورية. فالصحف، يقول، «تبني من الورق امبراطوريات» وهكذا فعل.

لم يكن يملك المال كما ذكرت ليحقق طموحه فراح يستدين من أحد أصدقائه بعض المال فقال له: إنه ليس معه نقدي انما يمكنه ان يخصم له كمبيالة. لم يكن غسان يفهم ما هي

الكمبيالة ولا كيف يخصمها. من يومها تعلم ذلك وبرع فيه والأصدقاء كثر والمشاريع كثيرة والثقة به بلا حدود.

كان لا بد من تحديث «النهار» طباعة واخراجاً وكذلك تحديث الجهاز الاداري. كانت الأولوية شراء المطبعة الحديثة الأوتوماتيكية لتحل محل صف الأحرف باليد فقام بمبادرة اقتصادية فذة، وهي عرض اشتراكات مدفوعة الثمن لإحدى عشرة سنة بثمن عشر سنوات. طبع سندات الاشتراكات وراح يعرضها على أصدقائه وكان المطلوب مئة مشترك ليجمع عشرة آلاف ليرة تدفع تعويضات صرف عمال الصف اليدوي ثم ابتياع الطابعة الأوتوماتيكية وهذا يحتاج إلى تمويل آخر، وكان قد تعلم فن خصم الكمبيالات. وهكذا انتقلت «النهار» إلى حلتها الحديثة. وهكذا نمت الامبراطورية تدريجياً لتضم:

شركة النهار

شركة التعاونية الصحافية

شركة النهار للنشر

شركة المطابع التعاونية اللبنانية

الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف الخ...

في نقلة نوعية هامة ومميزة حوّل غسان تويني جريدة «النهار» من ورثة جبران تويني إلى مؤسسة فتنتقل ملكيتها إلى «الشركة التعاونية الصحافية» التي بادرت عام 1960 إلى شراء أرض في شارع الحمراء وتبني داراً لها مميزة وتؤسس أول دار طباعة حديثة. بعد هذه النقلة

النوعية تعود «النهار» لتستقل مالياً عن التعاونية وتصبح شركة مساهمة شريكها المفوض غسان تويني.

وفي عام 1964 تشتري «النهار» امتياز الجريدة الفرنسية Le Jour وتعيد اصدارها عن شركة مستقلة وكانت هذه الجريدة منافسة لجريدة L'Orient. لم يؤمن غسان تويني بأن ينافس جريدة «الأوريون» في سوقها المحافظ فتوجه إلى سوق جديدة هي الشباب ودعاة التقدمية.

وبعد عام اشترت «النهار» جريدة L'Orient بقرض من أحد البنوك حيث إن غسان تويني أصبح خبيراً في فن التمويل وهذه الخبرة كانت دائماً ترافقها الثقة، ثقة البنوك وثقة الأصدقاء.

أسست «النهار» شركة خاصة لادارة جريدة L'Orient بإدارة صاحبها القديم جورج نقاش. الأكثرية في المجلس طلبت دمج الجريدتين. وقف معارضاً لأنه يؤمن بأن زوال المنافسة يؤخر التطور. ولكن الأكثرية رفضت فقبل على مضض.

كل هذا النمو وغسان تويني يقود هذه الامبراطورية وبنفس الوقت يتسلم مهمات سياسية نائباً مرتين وزيراً عدة مرات ودبلوماسياً عدة مرات ويدخل المحاكم والسجون ويشن حرباً دائمة على الظلم والفساد.

أذكر انه عام 1974 شنت الدولة اللبنانية حرباً اقتصادية على «النهار» وراحت تمنع نشر الاعلانات فيها. اتصل بي المرحوم جلالة الملك حسين بن طلال وكنت يومها رئيساً لمجلس ادارة «عالية» الخطوط الملكية الجوية الأردنية وقال لي: انشر اعلان صفحة كاملة لفك الحصار الاقتصادي عن «النهار» فلا يجوز أن تتراجع هذه الجريدة العريقة.

في عام 1976 احتل الجيش السوري مكاتب «النهار» ومنع صدورها فصدرت «النهار العربي والدولي» في باريس وانتقل اليها ايضاً عدد من المحررين وذلك لإيمانه بأن الاستمرارية هي اساس النجاح في العمل.

ثم أود ان اتناول بعد النظر عند غسان تويني وقدرته على الاستفادة من الفرص السانحة. أسس في عام 1958 شركة تتعاطى العلاقات العامة هي الأولى في العالم العربي بحثاً عن موارد مهنية خارج الجريدة. وضع خطة عمل وأمن رأسمالها من مؤسسات اقتصادية هامة يرأسها أصدقاء له. ولبعد نظره وللاستفادة من الفرصة السانحة أسس في نفس العام شركة Advision لادارة اعلانات التلفزيون عند انطلاقه.

بعد تأسيسها زاره في مكتبه المرحوم اسكندر رياشي «الصحافي التائه» سأله ماذا يبيع في هذه الشركة: أجابه علاقات عامة.

قال اسكندر رياشي: «والله نحن الصحافيين كنا نبيع حكي جئت انت يا غسان تصنعها تجارة».

غسان تويني: مؤسس شركات يطورها ويبنيها ويشتري شركات مفلسة يعيدها إلى الربحية ثم يبيعها، ينجح في بعضها ويفشل في بعضها فيتخلص منها قبل أن تصبح عبئاً ثقيلاً مثلما فعل بمجلة «الحسناء» و«مجلة الأطفال» و«الناس» و«للرجال فقط» ومجلتي «شعر» و«طبيبك» التي لم يتمكن من انجاحها بالقدر الكافي فقام ككل رجل أعمال ناجح بالتخلي عنها حتى لا تكون عبئاً.

وكل ذلك التوسع والنمو كان يمول عبر ثقة بيوت المال وكل ذلك في مجال المهنة التي يحسنها الصحافة–الكلمة– والاعلان. غسان تويني يعمل وكأن جسمه وعقله لا يعرفان التعب ليبني الامبراطورية كلمة كلمة ومقالات بقلم لا ينضب.

بعد كل ذلك يردد غسان تويني أن لا علاقة له بالمال والاقتصاد. ربما لأن ثراءه من نوع آخر فهو ليس ودائع في البنوك انما وديعة في قلوب الناس وضميرهم. قصته و«النهار» موضوع نموذجي في ادارة الأعمال يجب أن يدرّس في كلية سليمان عليان للأعمال في الجامعة الأميركية في بيروت التي هو أحد أمنائها وكرمته بالدكتوراه الفخرية عام 2005.

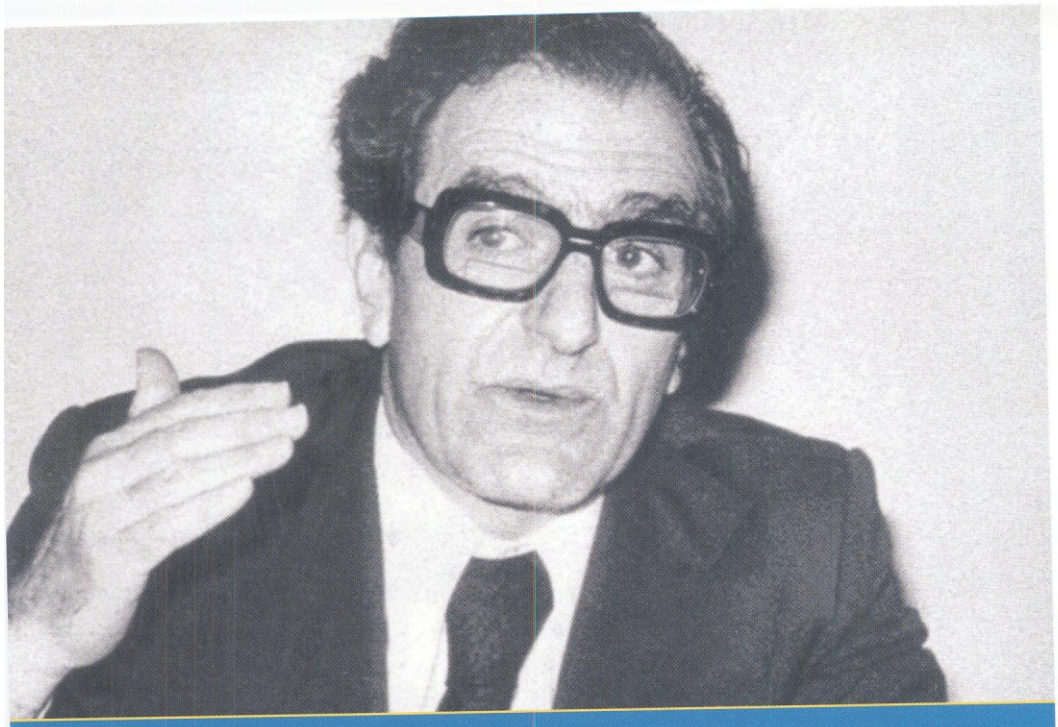

غسان تويني: القامة القيمة أو لبنان الذي يسهر في النهار

بقلم هاني فحص

لمعتاد على السباحة، على البلل، في المياه الضحلة، او في مسافة او مساحة تبدأ من شاطىء الرمل او رمل الشاطىء، وتقف قبل ظهر البحر او عرضه، وتتيح طفوا طفولياً سهلاً، لعباً بالماء او مع الماء، لأن اعماقها غير عميقة. لمثل هذا، ان لا يتهيب السباحة في بحر البحر، لأنه جاهل، يجهل ان العمق اعماق، لا يسلم فيها ومنها الا الغواص ذو الدربة والعضلة والمعرفة والتدقيق في حساب الخطر واحتمال النجاة... والشجاعة والحكمة... الا اذا كان المعتاد على السهولة، غير الدرب او غير الماهر، اذا كان عاقلاً... اي غير طائش... أي انه يخاف، لأن الخوف شأن العقلاء، كما أن الشجاعة شأنهم...

والشجاعة لدى العقلاء أخت الخوف. اما اذا كان البحر محيطاً، فقصارى السابح السبّاح او الغواص، ان يقارب مدى من مدياته او حيزاً منه... والا فان اغتر وتمادى واخذته العزة بالقوة... ابتلعته اللجج وصار طعاماً لأسماك القرش او السردين...

اقول هذا الكلام وأنا على شاطىء غسان تويني انزع يراعي من قرابه، وأكشف بياض اوراقي للسواد. أتخفف من شؤوني الجزئية، وأستعد لمعاقرة المياه الغسانية المتدفقة من دون انقطاع في نهر «النهار» منذ النهار الاول لجبران الاول في صحيفة لبنان الأولى...

لا أبالغ في غسان تويني، وأحاول أن أحبه اكثر مما أكتب فيه او عنه، لا أبالغ، اذا ما اخترت له المحيط نعتاً، او اختاره المحيط منعوتاً له او منعوتاً به. أريد القول بأنه يشبه المحيط، أو يشبهه المحيط سعة واعماقاً، تفصل بينها وتصل، تضاريس من المعرفة، بدءاً من الفلسفة التي تعلمها او مارسها عملاً، وانتهاءً بالشعر الذي هو فلسفة اخرى جميلة، ولجمالها لا يتعلمها أحد، بل تأتي من الشاعر كما يأتي المطر من السماء والعطر من الورد والعسل من النحل والقصائد من ناديا تويني... وتأتي من شاعر آخر، يتقن قراءة الشاعر والشعر، ويتحول إلى مرب للشعر والشاعر، إلى راع لخراف الشعر الوديعة تسرح وتمرح في بيت النهار لتضيء النهار بالنهار... اذن... فغسان تويني قال الشعر في قول ناديا تويني لأنه

اتاحه، أي انه لم تغره سلطة ذكورية غاصبة مغتصبة، بمحو ناديا الشاعرة لأنها زوجة، بل ربما كان احد شياطين شعرها، كما لم تغره السلطة السلطة، نائباً ووزيراً، بالبسمة الصفراء للشعر والشاعر مع التفكير العميق أو السطحي بضرورة تهميشه وقتله بكلماته... ولعله كان يشرع ابواب قلبه وعقله ومنزله لشياطين الشعر، يقدم لهم بيده كؤوس الشاي وفناجين القهوة، والمحرم من المشروب الروحي، فيسهرون حتى الفجر يدربون ناديا على قول القصيدة، التي تولد مع نسمة الفجر الأولى. وتنتظره ناديا ريثما يعود بعيد الفجر، وقد صدرت «النهار»، وقرأ افتتاحيته فيها للمرة العاشرة، وكأنه لم يكتبها، ولم يقرأها من قبل! تماماً كما تحدق الام الرؤوم بعيني رضيعها في كل رضعة مراراً وكأنها قد ولدته لتوها. مع فارق ان رضيع غسان توينى، افتتاحيته، تولد دائماً وأسنانها مكتملة ولا ترضع... بل تأكل الشر والاشرار كما تأكل النار الهشيم. ويدخن لفافته بنهم اضافي، يفطر عليها في اول النهار الذي يساوي عدداً جديداً من «النهار»، حتى لبإمكانك ان تسأل غسان توينى كم نهاراً عشت؟ اي كم «نهاراً» اصدرت؟

غسان توينى يدخن اللفافة الاولى حتى لا يدخن الثانية على الريق، ويشتغل على العدد الأخير من «النهار»، وكأنه يشتغل على العدد الاول. كل عدد من اعداد «النهار» هو العدد الاول عند غسان، وهو العدد الاخير في امنيات الأميّين ارباب الظلام...

قلت: انه محيط، اليست هذه التناقضات الجميلة، او الحالات التي تشبه التناقض في ظاهرها، وهي محكومة بنسيج داخلي يطابق بين مكوناتها، أليست علامات على السعة والعمق والتعدد في الواحد؟ والا فمن اين لغسان توينى ان لا يشيخ؟ يشيب ولا يشيخ، لا هو يشيخ بذاته ولا يشيخ فينا، وكلما تقدم به العمر وتقدم عمرنا فيه وتقدم بنا وفينا، كان عليه ان يصبح اكثر وقاراً ونسياناً وصمتاً وكسلاً ونوماً، ونصبح اكثر حكمة في التعامل معه، اي نوقره اكثر ونجامله اكثر، ونبكّل ازرار قميصه كلما اتى إلى حفلة لتكريمه ناسياً ان يبكلها، لأنه مشغول بفكرة جديدة وجملة جديدة، وايقونة قديمة.

ولكنه كأي فتى فتي ينشد الوقار في الحوار وفي التحرر من فواصل الاجيال، ويضحك قبل النكتة والمفارقة كأنه يستعد لهما، ويعدهما... ويحب مساخر الحكام، لأنه ليس مفتوناً بالسلطة، وعندما يقاربها تفارقه كأنها تعرفه، بل لقد عرفته على حقيقته وأنه يدخل فيها ليحكمها، فان كابرت طلقها، وآثر الثورة الدستورية عليها، وآثر الحرب عليها، وعندما ارتاب من اعراض السلطة في الحزب خاف من الشيخوخة المبكرة، فآثر القومية السورية على حزبها إلى عروبة غير متورمة، صافية من دون اوهام المانية، تستمد من غسان نسغها، وتضرب في ارض اذرعات جذورها، ولا تتصحر او تتحجر في عقيدة عقدة... وعلى لبنانية تأتي من التعدد إلى الوحدة، ومن الوحدة إلى التعدد، ومن الذاكرة إلى الرؤية ومن الرؤية إلى الحلم، تشتهي الحرية وتحلم بالديمقراطية. وتشرب قهوة الصباح على شرفة النهار، على تباشير الشروق اللبناني في الشرق العربي، باحثاً عن طريق إلى الحداثة، تمر بالارض ومحمولاتها، لتعبر المحيط ملتبساً بيوحنا الدمشقي، يقول للدنيا كلاماً توحيدياً عن ضرورة المشاركة الحضارية والثقافية والتنموية، التي لا ينسى ان لها شروطاً ذاتية، من دون تحقيقها يبقى العرب ارقاء لا يتحررون، وإن حررهم مالكو حكامهم وثرواتهم ورقابهم، شأن العم توم الاسود الاميركي بعد مفصل العظيم لنكولن في التحرير. ويبقون – العرب – اسرى الماضي الذي يأسرونه لأنهم يستقبلونه بدل ان يعصروه بينما يمضي المستقبل في غير وجهتهم لأنهم يستدبرونه ولا يبادرونه او يباشرونه، الا بالسذاجات والعنتريات وهو الحاشد بالاسئلة الصعبة والتحديات.

واعود إلى غسان تويني، الذي ترك الحزب وتركه الحزب كما قال... فهل هذه شهادة له على الحزب او للحزب؟ او شهادة للحزب له او عليه؟ نترك الجواب للأحزاب التي تكاد تكون في سيرتها دليلاً عملياً على بطلان نظرية داروين في النشوء والارتقاء وبقاء الاصلح، مع محبتي لكل الحزبيين والقوميين السوريين خاصة، فرداً فرداً، الا الافراد الحزبيين الذين لا يحبونهم... هم...

وأراه مستقيلاً من الوزارة لأنه مستقل، ولأن الحرية هي العقار الذي ورثه واحسن زراعته

وسقايته، وهي العقار الذي داوى به صداعه وادواءه وجدد شبابه، واقترحه لنا وللبنان علاجاً ووقاية ومنشطاً لكل المواهب وغرائز الخير والعمران. واكتشف اساساً انه مورث موفور في الجينات اللبنانية لولا ان اطباء السوء الذين يحنثون بقسم ابقراط، واليمين الدستورية، يخففون من فعاليته، ويحدون من انتقاله من المجتمع إلى الدولة، بالكورتيزون والأفيون، ويعالجه المستبدون الصغار بأدوات منع الحمل خوفاً من اخصابه لأن اولاده الاحرار اذا ما تكاثروا فانهم سوف يتحولون إلى وباء من الحرية... ولذلك يدبرون للبنان حرباً بعد حرب، يقيمون نظاماً للخدمات الداخلية، بأدوات وقرارات خارجية، ويحولون سلم لبنان إلى حرب حتى لا يلد، حتى لا يكتشف اسباب العقم، حتى لا يكتب رسالته إلى العالم. رسالة المختلف المؤتلف، وحتى توائم منغولية في السياسة والادارة لا تناسبها الا مدارس المعوقين.

لمثلي ان يقترف النقلة من المياه الضحلة، من البرك، او من محاذاة الشواطىء إلى وسط الموج او اعاليه، في اعالي البحر المتوسط، شرفة الحضارة التفاعلية، التي كانت والتي لا بد ان تأتي،... وعليه او عليّ ان احاذر، وأن استعد للطفو او للعوم طوق نجاة، او ان لا انفرد سابحاً حتى يتاح لصحبي من مكرمي غسان تويني، وفي مقدمتهم السيدة سعاد الصباح، صبيحة الوجه واللسان والقلب، ان يخلصوني من غرق محتمل واكيد، لدى هياج البحر... لدى غضب غسان وتدفقه كلاماً كلاماً، كلاماً حقاً في حضرة حكام او مثقفين او زعماء او شعراء او فنانين او صحافيين باطلين مبطلين... اما ان أقترف القول في غسان تويني، فهي ذات المخاطرة وعين المغامرة، لأن غسان تويني هائج من اول الماء إلى آخر الماء وفي كل المواسم والفصول، لأنه لا يرى الا تراجعاً وهبوطاً، وكأن مثاله وراءه لا امامه. كأنه يحدث نفسه بادانة شراكته في الثورة الدستورية، احتجاجاً على فساد العهد الذي لا يقاس عليه فساد العهود التالية... ولا يغرينك هدوؤه الخداع، فغسان تويني دهري وباطني جداً، ومن هنا اعجابه وحبه لكمال جنبلاط على خلافه او اختلافه عنه. انه يعمد إلى الصمت احياناً فيكون ابلغ واشد ايلاماً... والاصوات الجهيرة كثيراً ما تتبدد على مشارف الآذان المسدودة بالاصابع... وانكر الاصوات صوت الحمير كما في القرآن الكريم، ولا يصعّر الحكيم خدّه

للناس. ولا يمشي في الارض مرحاً، لأنه يعرف انه لن يخرق الارض ولن يبلغ الجبال طولاً... والمتواضع، المنكر لذاته كأنه لا يعرفها، المترفع، غير الوضيع، الرفيع ذو الرفعة، لا المستكبر كالدخان ولا المستعلي كالغبار، هو الذي يسامت الجبال علواً، او تنزل اليه الجبال لينالها من سموه في ذاته سمو... فاذا ما كانت جبالاً جبالاً، اعلاماً اوتاداً، سمت وتسامت، اما اذا كانت اخيلة او اشباحاً او اوهاماً، او كان احد قد دفعها خلسة، دفعاً إلى أعلى، إلى مقام سلطاني، في الدولة او الجريدة، عينها، فان ذراها لا بد ان تبقى ناكسة منكوسة وصاغرة امام من دفعها ولم يرفعها. هكذا اقدم اعتذاري عن عدم دراسة غسان تويني ببرودة اكاديمية، لأني لا املك ان اقوله عنه وفيه الا باعصابي، ولأنه عصب من اعصابنا. ولأني عندما قرأته مجموعاً او مجتمعاً بعدما قرأته متفرقاً، في مشاهد متكررة، منذ بداية وعيي، كان كل سطر من سطوره ينسيني الذي قبله. وكوني مكلفاً او متكلفاً بتحضير ماعون من قمحه خبزاً، ومن اوراقه كلاماً، جعلني اعيش اسابيع في كنف بيدر حاشد بالحنطة السمراء اللماعة كذهب عتيق، تأخذ بالعين وتستدر اللعاب وتعقد على الجائع الذواق مسألة اختيار الصنف الذي يتناوله.

لم يكن بامكاني ان اهمل سراً من اسرار المهنة وغيرها، لأنها كلها تضج بالاغراء... اذن اكتبه كله، وهو مكتوب!!

اذن اكتبه في غير ما كتب، اكتبه فيّ، في داخلي ومن داخلي، في عنايته بما اقول ودهشته التي تدهشني بما اقول... حنوه وعنايته بي، اغرياني بالشعور بالامتلاء، كاد ان يورطني في الغرور، ولكنه ورطني بالمسؤولية عما افكر واكتب واعمل. هذا المدني الذي ولدت فيه المدينة عندما ولد فيها، هذا المؤمن الذي يشاغب على المعبود والعباد والعبيد... ويقارع الاديان بمقدار ما يحبها ويلتزم بروحها قبل كلام رجالها يمسح الفارق بين اسلامي ومسيحيته، بين شيعيتي وارثوذكسيته. بين عمره وعمري، بين فلاحيتي وبورجوازيته، بين قريتي ومدينته، بين صحيفته اليومية وكتبي التراثية، بين جبتي وبذلته الباريسية، بين عمامتي

ورأسه الحاسر الذي تظلله من الشمس والكفر طابية المطران جورج خضر، ليبدو لك وكأنه نيتشه لبنان في «هكذا تكلم زرادشت»، ايماناً ملتبساً بالكفر، وكفراً ملتبساً بالايمان، وابداعاً في الحالين، وإن كان في ايمانه مؤمناً... ونقطة على السطر... أما في كفره فهو اقرب إلى الايمان، الذي يأتيه من باب آخر... من ثقب في الجدار الخلفي في الكنيسة، حيث يعبر المذبح ورتبة دفن المسيح، إلى صخرة المعراج في بيت المقدس... فاذا يسوع الملك هو المشترك البهي، الذي يدله على الرسول العربي، فيمضي إلى حيث تشير اصبع المسيح ولا يقف بعينه وقلبه على الاصبع التي يقف المحدودون نظرهم عليها، فلا يرون الا قليلاً. يمضي غسان من المسيح بن مريم إلى محمد بن عبد الله، عربياً طافحاً بالمعنى، يقول التوحيد والوحدة على طريقته، يقبّل يد رجل دين مسلم جهاراً في الكنيسة، فينفض الديك الازرق في رائعة النهار ريشه، ويصفق جناحيه، ويشرئب عنقه وعرفه ويصيح، تحية لغسان الواحد المتكثر والكثير المتوحد، كأنه لغز... هو لغز ولكن من يحل اللغز؟ من يحرزه؟ يحرزه البسطاء الذين يريدون وطناً ودولة ويحبون الحرية وتحبهم الديمقراطية. يحبه المبدعون في السياسة والفن والصحافة والدبلوماسية والعناد في الحق حتى الشهادة. الم يستشهد غسان تويني في جبران تويني مرتين!! اوليست «النهار» شهادة يومية للحق والحقيقة ولبنان الآتي الذي لم يأت!!!

ورث جبران الاول ولم يبذره، شأن الراشدين لا شأن السفهاء. اضاف اليه ولم يعش عليه، وقرر ان لا يورث جبرانه الا وجع الحرف وحساسية الحرية، والقول بالحق وإن قل انصاره. حرمه من الوراثة السياسية، ولم يمنعه من الاستحقاق، لأن السياسة والسلطة، نيابة ووزارة، لم تملك غسان تويني، وهو لم يعتبرها مرة من ممتلكاته. كان يرى نفسه اجيراً للناس، للوطن والمواطن. كان ولا يزال ضدها، او الموازي الجميل المكمل لها او الناقض، وكانت مشاعاً له، لم يسجلها على اسمه في الدوائر العقارية، وهو إن دخل فيها، ازداد قهره منها وقهره لها، كأنها ضرته التي لا فكاك لها منه ولا فكاك له منها، كأنها نقيضه الذي لا يكون الا به!!!

جبران الابن الصحافي النائب الشهيد، انتقل من وراثة الحبر الاسود الذي يشع بياضاً إلى اجتراح النيابة في لحظة شائكة وواعدة. ذهب الوعد الخاص مع الجسد، وصار جبران شهيداً، وعداً للبنان ووعيداً لأعدائه، لأن دم الشهيد كالنار الهادئة لا تخبو، هكذا يقول التاريخ. من اول الشهداء إلى آخرهم، ولا بد للشهادة ان تصبح شهوداً، قد يتأخر في موعده ولكنه يأتي... والزبد يذهب جفاء، وما ينفع الناس يمكث في الارض... لقد انتهينا مع آل تويني، إلى مفارقة غريبة، هي واحدة من مفارقاتهم الكثيرة، فغسان الوالد يرث جبران الابن، الشاهد يرث الشهيد... ولطالما قال اللبنانيون عن كثير من النواب، نواب الانابيب، بأن المقعد اكبر منهم، اما غسان فالمقعد اصغر منه بكثير... واصغر من «النهار»، برلمان غسان تويني الذي يقوم على نسبية الابداع في الادارة والصحافة.

لقد كان بهياً غسان تويني وتقياً عندما توشح وجهه بحزن الثكل المتكرر في يوم جبران تويني، مزيناً بورد الصبر وعسل الكلام، حتى كاد الحزن ان يكون فرحاً، لولا مكان جبران في القلوب...

«يا كوكباً ما كان أقصر عمره وكذا تكون كواكب الاسحار»

(من قصيدة لأبي الحسن التهامي في رثاء ولده)

والمفارقة من مفارقات غسان تويني، انه دخل على حشد المعزين وهم يحشدون دموعهم في مآقيهم في انتظار دمعته الاولى التي لم يذرفها، وذرف بدلها بسمته الاولى، لتهطل البسمات من شفتيه فتصيب الجميع بالرضا الذي لم يكن بامكانه ان يجتث الحزن من العيون التي غرغرت بالدمع غرغرة أبعد وقعاً وأشد لذعاً... ومن لم تعقد لسانه مفاجأة غسان تويني الجميع بالصمت البليغ، أدار وجهه عنه واسبل دمعه... في حين كان غسان يتعالى ويعلو على الجرح... ويقف سمحاً رحباً عميقاً كالبحر... ولا أقول المحيط، لأنه مظنة الضياع والتيه، أما البحر فهو مكان متعين لرواده. وقرب الضفاف بعضها من بعض، ولو نسبياً، يبعث على

الاطمئنان النسبي، ويوسع مدى الرؤية من دون ان يتركها سائبة لا ترسو على حال... ويعدك البحر بالآخر في الضفة الأخرى اكتمالاً لذاتك بالآخر والآخر بذاتك.

بوركت يا بحرنا المتوسط، الوسطي بما هو الوسط مضارع للحق، فاذا ما عدا على الحق عاد، نبتت مخالب الحق في يراعتك... بورك ماؤك المالح محلى بحبرك العذب. بوركت اعماقك التي يكتشف الواحد منا، في آخر موسم السباحة والغوص، انها اكثر أماناً من المستنقعات الضحلة... بورك موجك المتجدد، يحمينا من الركود والتكرار والطمأنينة الكسلى، ويمدنا بقلق السؤال ولغة الاعتراض. بوركت طحالبك التي تضارع السرو استقامة والارز ثباتاً والورد ضوعاً... بوركت اسماكك التي تخلقت باخلاقك فلا يأكل كبيرها صغيرها... ولا مكان فيها لسمك القرش والحيتان وأهل الكروش والرقاب الغليظة. بورك شطك منتزهاً للأحبة، ومطلاً للشعراء والفنانين، وملتقى لصيادي اللؤلؤ، ومدى للمشي والتخفف من الدهون في شرايين الوطن والتحديق في الأفق انتظاراً للآتي... لبنان الآتي، الذي دوماً يأتي، ولا يراه إلا أهل البصيرة، وان غاب فلا يغيب إلا قسراً، يوماً أو يومين، ثم يأتي وان لم يأت ذهبنا اليه، لنخلصه من شدق التنين. فإن أكلنا التنين كان لنا من جبران مثال وامثولة ومن الديك الازرق الصائح كل صباح بصوت جبران الذي يعلم العناد في الحق والمداومة على الحقيقة...

يا غسان... يا ريس، لا تصلح قلوعك، قلوعك كان صالحاً منذ اختار جبران الأول الحرية لنهاره ميثاقاً... وأشرع أشرعته لرياح اللغة التي تحيي وتميت، تحيي الورد وتقتل الشوك الوغد.

لقد قرأت قديم غسان تويني فلم أجده أقل جدة من جديده، وقرأت جديده فلم أجده أقل عراقة من قديمه... كأنه حبر مقطّر... أو كلام مثلث أي مقطر ثلاثاً، قليله يسكر وكثيره حلال... وبين السكرة والصحوة يدهمك غسان تويني بظرف وخفة دم لا تشيخ... هي لسعة نحل أشد ايلاماً من لسبة عقرب، أو لسبة عقرب اشهى من ثغر الحبيب والعسل الملكي.

غسان تويني... هذا الشمروخ المصقول كرخامة خضراء على باب كنيسة بيزنطية. هذا الطقس الغريغوري المموسق من دون صنوج. هذا الطفل في إهاب دهري. هذا الختيار الفرحان بكتاب القراءة العربية في الصف التمهيدي (درج عرج). هذا القومي بما تعني القيامة. هذا المولع بالسواد على البياض. هذا المولود بلبنان المهموم بالعرب... هذا الحنظل المجبول بالشمس في مضارب الغساسنة. هذه السجادة الشيرازية المحبوكة بأيدي العذارى والمعلقة في صدر «عالي قابع» في اصفهان... هذه اللوحة المرسومة على ايقاع كنسيات باخ، ومقامات زرياب، وبفحم من سنديانات جبران خليل جبران... هذا الفصل من الفلسفة اللبنانية، يمشي على أرض لبنان ويرسم جمهورية جبران وغسان وجبران وسمير قصير وموسى الصدر وعبد الله العلايلي وشكيب ارسلان وميشال شيحا وغريغوريوس الحجار. هذه اللغة العربية التي تشرب من نبع الانجيل وتتوضأ بماء القرآن وتسقي ورد «النهار» من نهج البلاغة وتعطر مكاتبها بشعر المتنبي... هذا الشاهد الذي يمسي في الجلجلة ويصبح في كربلاء... يتدثر بآلام السيد المسيح ويتوسد شهادة الحسين. ويبحث عن لبنان طالعاً من الشهادة إلى الشهود... ومن الفرادة إلى العروبة، مصدراً من مصادر النكهة في طعمها والبهاء في لونها والحيوية في حركتها والانسانية في غايتها.

هذا الذي نكتبه لأنه يكتبنا... ماذا يقول؟ ماذا نختار من قوله؟ وفي أمثالنا الشعبية، ان كثرة القمح تعمي قلب الدجاج... قلت هذا الكلام مرة في كمال جنبلاط... وأقوله الآن في غسان تويني، مختاراً بعضاً من قمحه دليلاً على دعواي فيه...

اذا صح القول بأن الكلمة تكون مقاتلة او مخاتلة، فإن المهارة والعمق والشجاعة هي ضمانة توجيه الحبر والكلمة إلى كبد الحقيقة، أي إلى الباطل. هذه الصفات كان يملكها غسان تويني وبذلك فهو لا يستعيرها الآن بحكم ميل الشيخوخة إلى المصارحة لآن الخوف يكون قد تراجع بعد طول العمر... وهذه علامات على ذلك:

«وكانت «الكوكب» قد نشرت وقتها (كانون الأول/ديسمبر 1947، يوم وفاة والده جبران تويني ودفنه)، بتوقيت لا ازال أحس بمرارته، حديثاً لأنطون سعاده يرد به على انسحابي من الحزب، مع فريق من الرفاق المفكرين، بالاعلان عن ان طردي كان قد سبق انسحابي، ولأسباب غير سياسية ولا فكرية!»... من الذي خسر بالطرد، الحزب السوري القومي الاجتماعي أم غسان تويني؟ لو ان احزابنا العربية كلها لم تضق ذرعاً بمفكريها وتعالج الفكر بالطرد او المصادرة أو التهميش، هل كانت وصلت إلى هذه الدرجة من التراجع والفشل والفراغ؟ (ص 20).

ويتحدث في صفحة 22 من «اسرار المهنة» عن اغتيال ولدي خليل درويش أحد أهم موزعي الصحف والذي لم يعترف هو وأولاده بتقسيم بيروت من بداية الحرب عام 75 وظل يحمّل أولاده صحف بيروت إلى المنطقة التي سمّوها شرقية. يقول غسان: «ذنبه في زمن القتل على الهوية، انه كان شيعياً ظن انه رغم ذلك في وسعه الاستمرار في توزيع الصحف وبيعها في منطقة المتن». ويضيف: «كل ذلك و«النهار» هي الاستثناء، وقل الشواذ، تستمر تعاند في مقاومة التقسيم في اشكاله وتصدر صحيفة للتوزيع في كل لبنان».

وعندما يتحدث عن رفاقه في «النهار» وكأنهم أولاده، يصل الوالد الثاكل إلى القول: «سامح الله الحرب، يقولون لا... الله لا يسامح» (ص 25).

عن «النهار» والصحافة مع أول رقابة مفروضة يقول:

«في كانون الأول/ديسمبر 1976، بعيد تأليف حكومة الرئيس سركيس الأولى، توقفت «النهار»، بسبب انتشار العناصر السورية في المكاتب والمطابع، واستمر الأمر هكذا حتى توجه نائب رئيس الحكومة الاستاذ فؤاد بطرس إلى دمشق، وعاد منها بالمرسوم الاشتراعي «رقم واحد» الذي أقام الرقابة على الصحف» (ص 28).

وعن هوية «النهار» النهارية يقول عنها: «مأساة «النهار» في كونها الصحيفة الوحيدة غير المنتسبة إلى أي فريق محارب في لبنان، ليس في آرائها فحسب، بل أيضاً في ارضيتها (لا هي شرقية ولا غربية) وخصوصاً في تكوينها المهني، فهي عاجزة عن الاستمرار اذا انقسم لبنان». (ص 30).

مع الأخطاء الاستراتيجية يعود إلى مبادئه الاصلية يقول معلقاً على دعوة الرئيس كميل شمعون عام 1958 الاسطول السادس الاميركي إلى لبنان: «... ولا نخال كميل شمعون يمكن ان يجهل ان الجيوش، حتى تلك التي تأتي محررة، تتحول مع الوقت إلى جيوش احتلال، فكيف بالجيوش التي يدعوها الحكام لغرض لا يؤمن به الشعب؟» (ص 43).

ومن كلامه القديم الجديد وعن لبنان عام 1958: «ان احداث العالم العربي الاخيرة واحداث لبنان، فضلاً عن تصرفات بعض الزعماء المسلمين، وبعض رجالهم، قد سهّلت للنظرة «الصليبية» مهمتها، وان ما لا بد منه – هو ان واجب المسيحيين تجاه الحفاظ على الكيان اللبناني، كياناً مسلماً مسيحياً، أعظم من واجب المسلمين، لأن مصلحتهم به أكبر من مصلحة المسلمين» (ص 43).

كيف يفهم غسان تويني الدستور؟ يفهمه كمواطن وكمثقف يرى القانون او الدستور صيغة متواضعاً عليها لمعطيات في الواقع المعيش، اي انه بنيان حقوقي وليس اساساً، أي انه يكشف بعدما يكتشف ولا يبتدع، لا يخلق، لذلك فهو بحاجة إلى فهم وانجاز دائم من خلال تنزيله على الواقع لا تنزيل الواقع عليه. يقول في ص 435: «أوليس الدستور حياة؟ ومتى كان الدستور حرفاً ميتاً وعظاماً بلا لحم وشرايين، بلا دم؟ الدستور هو الحكم الدستوري والممارسة الديمقراطية والتعامل الحر المسؤول، وشرط استقامته حوار الرئيس والشعب حوار الحاكم مع من يمثل...».

مبكراً وعام 1983، هذه السنة الصعبة، وصف غسان للبنانيين دواء ناجعاً، لم يلبثوا ان عادوا اليه بعدما تراكمت الخسائر وما زالوا مترددين. يقول عن المصالحة التي دعا اليها: «ليست لقاءً بين الزعماء والزعامات، او الاحزاب والفاعليات والميليشيات، ولا هي الدعوة التقليدية إلى وحدة صفوف واهية «وراء الحكم»... انما هي مصالحة الحكم مع المواطنين، كل المواطنين، في سبيل بناء الدولة الوطنية الجديدة. اما لماذا يتصالح اللبنانيون، بعضهم مع البعض ومع الدولة، فقصة طويلة لعل اولها وآخرها انهم بالفعل لا يتقاتلون، ولم يتقاتلوا، الا حيث كان الحكم غير لبناني، أو حيث هو الحكم اليوم لغير لبنان (ص 446). ويضيف بأن الشرط هو «دولة منيعة ضد الخارج، في الخارج والداخل، ومنيعة ضد الداخل اذا خرج عليها».

ويصرخ بملء فمنا: « لا تحرر ولا تحرير من دون ميثاق وطني». وإلى أحد الرؤساء يقول في 1990/2/8: «ماذا تفعل؟ تلعنهم جميعاً... وتحاول ان تخرج من النار حتى تنقذ لوطنك بقية من ارض وحياة، وحتى لا تكفر بالحرية والسيادة من فرط حاجتك إلى الخبز والماء... محك الحكم في الحرب، كما في كل سياسة، هو القدرة على منع الحريق». (ص 453).

في ص 455 يقول عن معشوقته الحرية: «وحده لبنان، قبل حروبه، كان لا يخاف الحرية بل يعشقها، ويجب ان نعلم ان للحرية كذلك تاريخها المقبل، وتاريخها حساب عسير...».

وعن ثقافة الديمقراطية أو الديمقراطية الثقافية... ناظراً بعيداً وعميقاً وبعيداً عن الاختزالات الارسطية للمفاهيم الكبيرة والرحبة. يقول بعد ان وصف مباراة المرشحين للرئاسة الفرنسية في المجالات الفكرية، كتابة ومعرفة بالكتاب والكتب ونقاشاً في محتوياتها: «أو تلك ثقافة فقط؟ لا... تلك هي الديمقراطية التي لا استقامة لها خارج الاطار الثقافي والخلق الفكري، الذي هو منظار المستقبل للذين ينظرون دائماً إلى المستقبل» (ص 456).

في حديثه عن لقائه لأول مرة برئيس عربي (حسني الزعيم) عام 1949 يقول: «عزائي انني لم أكن فريداً بين الذين ظنوا ان العسكر هم الجواب على التحدي (يقصد تحدي النكسة عام 1948) والدواء الشافي للديمقراطية التي كانت قد اهترأت قبل ان تنضج!» يقصد تلك الجرعات الخفيفة من الديمقراطية العربية قبل الانقلابات.

ولماذا هذه الشدة في المعارضة، لماذا هذا المرض في الاعتراض والذي هو أشد عافية من العافية؟ يجيب غسان تويني «مشكلة «النهار» المزمنة مع الانظمة العربية انها كانت قد صارت معارضة بالسليقة» (ص 463).

عن الرئيس حافظ الاسد يقول الكبير كلاماً كبيراً من دون ان يكون تابعاً صغيراً ولا كبيراً اذا كان في التابعين كبار علماً ان العلة هي في التابع لا المتبوع. يقول غسان تويني: «يصعب كثيراً على صحافي ان يكوّن موقفاً صحافياً محضاً من شخصية في قوة شخصية الرئيس الاسد وحضوره السياسي». وكان قد ذكر ان الرئيس الاسد كان يكرر معه الحديث والسؤال عن الحزب السوري القومي فيقول غسان معقباً: «كأنني لا ازال في الحزب وقد تركته وتركني... أو كأن له بالحزب شغفاً منسياً» لم يرد غسان ان يقول بأن الرئيس الاسد كان مهتماً بالحزب السوري القومي الذي انتشر اكثر من غيره في الجبل وفي القرداحة خصوصاً وكان من قيادته الكبرى في سوريا رجال من آل خير بك العائلة الأهم في القرداحة. (ص 465).

مع عبد الناصر وهل عرفه شخصياً؟ «نعم ولكن ليس بالمقدار الذي كنت أتمنى، غصة في قلبي، مع اني احترمه ولا أحبه، وقد بدأت بحبه وانتهيت باحترامه مع ما يشبه الغضب».

ويذكر انه كان فخوراً به كعربي في باندونغ على معارضته له «لأنه كان الأكثر حضوراً... على معارضتي له كلبناني». ويذكر انه كان حريصاً على قراءة «النهار» حتى عندما اصبحت

ضده... ويذكر انه في باندونغ سأل الصحافيين المرافقين للرئيس ناصر: مصطفى وعلي امين وهيكل كيف يغطون الحدث، فقال احدهم: «احنا يا أخي جابنا معاه كده، للزينة كاللعبة، للتغطية؟ أهي ماشية وحديها!» وعن شهامته العربية في التعامل مع المفاصل وعبد الناصر يقول: «وقد بكينا جميعاً في قاعة التحرير في «النهار» ونحن نشاهده يستقيل على شاشة التلفزيون... ولا شماته». ويعقب بسؤال مطلوب من كل منا الجواب عليه: «هل نحن بعد الحكم الاسطوري افضل ام أسوأ مما كنا، قبل الثورات والانقلابات، ومما كنا يمكن ان نكون عليه لو لم تحدث الانقلابات والثورات؟» (ص 469–470).

مصراً على الدقة والصدقية وكأنه عالم من علماء الحديث والدراية، او كأنه فقيه محقق يقول معرضاً بمن يروون عن الأموات الكبار وكأنهم كانوا شركاءهم في اتخاذ القرار من دون ان يكون هناك من يرد الرواية... وهم لا يكتبون تاريخهم الذاتي الا بعد موت من يشاركهم او يشركهم في الرأي يقول غسان «المؤسف في العالم العربي وفي الصحافة العربية بنوع أخص، ان لا مؤرخين عندنا ولا موضوعية. كل ما نكتبه اما ان يكون مع أو كله ضد، ولا نحقق ولا ندقق ولا نوازن بين الامور، واذا جلينا، فنكتب قصصاً وحكايات معظمها غير قابل للإسناد. ثم اذا كتب واحدنا مذكرات تجده صار حجر الرحى وقطب المرتجى في ما يروي، أي محور الاحداث، ما وقع منها وما لم يقع «(ص 471)... وفي نفس الصفحة يقول بجرأة «كل ما اعرفه ان احداً لم يسترجع أرضاً من اسرائيل غير السادات». وكان قد ذكر عن السادات الذي ظل سنة كاملة يتعرض للتشكيك في نيته في قتال اسرائيل وقد التقاه في لاهور عام 1974 انه سأله امام عدد من الرؤساء والزعماء قائلاً «فين اصحابك يا غسان؟ أهو حاربنا... هما كانوا عاوزيني اعلن من البلكون. غاظهم الضباب... هو اللي عاوز يحارب لازم يقول للعدو يستناه» (ص 470).

عن الملك حسين بن طلال يقول: «كان الأصرح والأكثر علماً بأمور العالم ولبنان بنوع أخص... ويظل ملك التحفظ والصراحة في آن واحد... كان أكبر دوراً من انور

السادات... ليس فرعوناً» ويذكر قوله في الأمم المتحدة بعد الهزيمة «لقد انهزمنا ولكننا نعدكم بأننا سنتعلم كيف ننتصر»؟ (ص 473).

سأتوقف هنا، والا اقتبست الكتاب كله. كتاب غسان تويني يقرأ كله ويقتبس كله، لأن غسان فيه وكلنا في غسان عندما يكتب لأنه يكتبنا ولذلك نستطيع ان نكتب عنه لا أن نكتبه.

شكراً للسيدة السيدة، الاميرة الشاعرة، من دون منّ من أحد عليها، شكراً للدكتورة سعاد الصباح، على ما أتاحت لي من فرصة القول في غسان تويني قولاً مخزوناً مكنوناً منذ عقود من الزمن... منذ اصبحت مقالاته في «النهار» اضاءة لدربي ونوراً في وجهي وبصراً في بصيرتي وبصيرة في بصري ومشكاة في ليلي، ولست وحدي... ومن دون افتئات على رصيفات «النهار» من جرائد حبيبة، أو على رفاق غسان تويني من قامات شامخة تكمله وتكتمل به على اختلاف او اتفاق ومن دون نفاق.

وامنيتي ان يكثر الأمراء والاميرات من اللائي والذين يحتفين ويحتفون بمن يكون الاحتفاء بهم احتفاء بالمحتفي ايضاً.

أسأل الله ان يطيل عمر سعاد الصباح إلى الوقت الذي قد أكون فيه قد أحرزت اسباب الاحتفاء.

واعداً ان اواصل جهدي المعرفي متعلماً من أهل المعرفة والخبرة والموقف، من أهل الاسئلة التي تعالج اقفال المستقبل من أجل ان ننهض معاً ولا نسقط فرادى.

غسان تويني
القيمة فضيلة

بقلم سماحة السيد محمد حسين فضل الله

لقد عرفت الأستاذ غسان تويني كقيمة فكرية يمنح الكلمة إشراقها الفكري، وينفتح فيها على آفاق الحرية الإنسانية في أبعادها القيمية، ويطلق من خلالها الحوار الذي يرتكز على الاعتراف بالآخر، ومتابعة المفردات الثقافية والمستجدات السياسية التي تتصل بالمنطقة كلها، وتواجه القضايا الحيوية ولا سيما القضية الفلسطينية التي تختصر التاريخ القريب المعاصر في واقعنا المتحرك في أبعاده المتنوعة.

فقد كان له دور مميز في خطوطها الدبلوماسية، وفي افتتاحياته «النهارية». في الجانب السياسي الذي يمتزج فيه الواقعي بالمبدئي، هذا بالإضافة إلى انفتاحه الكلي الذي يمتزج فيه الواقعي بالمبدئي.

هذا بالإضافة إلى انفتاحه الكلي على الساحة اللبنانية في تعقيداتها السياسية والأمنية بطريقة مثيرة لا تبتعد عن العقلانية بأسلوبه الخاص.

إنه من آباء الصحافة اللبنانية في انفتاحها على حرية الفكر، وشجاعة الكلمة، مع الإيمان بأن الحرية في لبنان هي سرّ معناه، وقيمة وجوده. بالإضافة إلى الدور الدبلوماسي الناجح في تجربته المميزة.. قد تختلف معه عندما تسمعه أو تقرأه، ولكنه معنيّ أن تفكر معه – موافقاً أو مخالفاً – لأنه لا يستهلك حديثه بل ينضجه ويعمّقه، مما يفرض عليك أن تحترم فيه الإنسان والكاتب والمفكّر، وتعترف به كقيمة ثقافية إعلامية، وتحب الاختلاف معه أو اللقاء به.

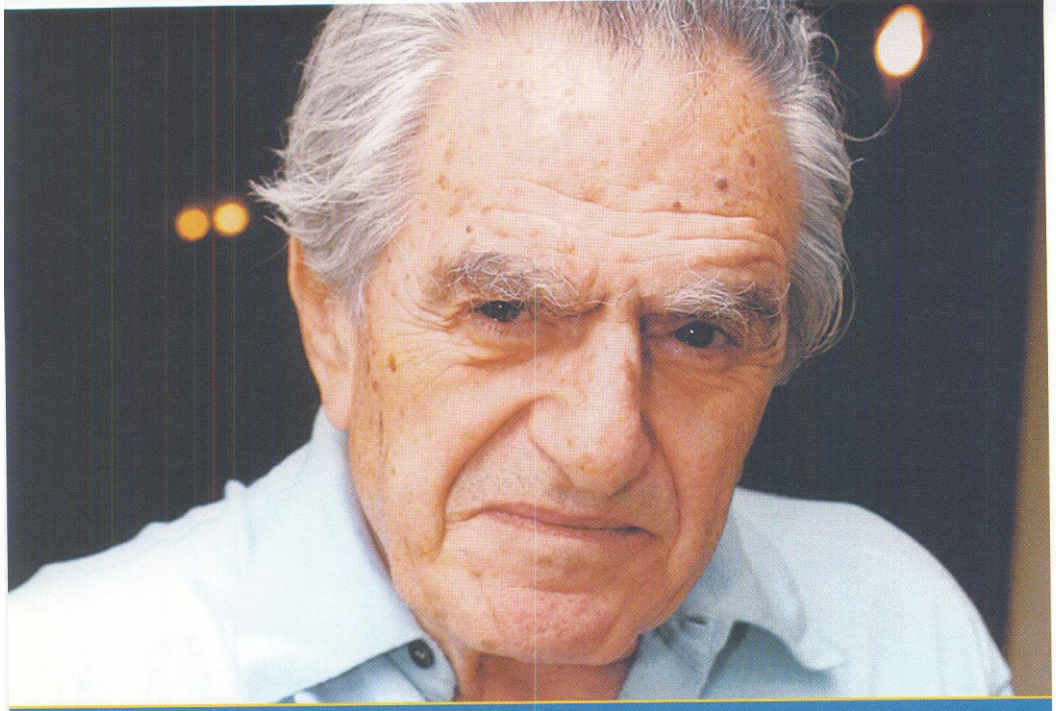

غسان تويني
الحزين والمبتسم

بقلم كلوفيس مقصود

عرفت غسان تويني منذ أكثر من نصف قرن. كنت اقرب إلى أخيه فؤاد عمراً وصداقة وفي ذلك الوقت كان تفاوت سنة أو سنتين في الأعمار كبيراً وكنا ننظر إلى غسان عنواناً للكفاءة والنجاح نسعى إلى التماثل به. ورغم أن ما يفرقنا في السن كان ذلك الحين بوناً شاسعاً وإلى حد ما بقي هكذا رغم أن أعمارنا تقاربت كثيراً، وعندما عدنا إلى لبنان في أوائل الخمسينات بعد اكتمال دراستنا، هو في هارفارد وأنا في جورج واشنطن، تقاربت سياساتنا أنا في الحزب التقدمي الاشتراكي وهو نصير للحزب القومي السوري آنذاك وتبلورت المقاربة في الانتخابات التي خاضها غسان تويني مع الجبهة النيابية التي قادها كمال جنبلاط وكميل شمعون عام 1953.

وبقيت هذه العلاقة السياسية والعقائدية تتأرجح بين اقترابات مؤقتة وابتعادات موقتة وكان هذا إلى حد كبير نتيجة البصمات السياسية التي أوجدها الرئيس الراحل عبد الناصر على كل منا. بمعنى آخر كان هناك تباعد – دائماً نسبي – في حقبة النهضة القومية العربية والتي كان تأميم قناة السويس ومن ثم العدوان الثلاثي على مصر بينما رمزية عبد الناصر الذي نظرنا إليه كحاضن لوحدة عربية طالما شكلت أملنا في التحرر والتقدم.

كان غسان تويني في هذه الأثناء منغمساً في السياسة اللبنانية مع حنين إلى الفكر القومي السوري الذي تباين وتعارض في مرحلة ما بعد العدوان الثلاثي مع إنجاز الوحدة بين مصر وسوريا والتي بكل أسف أدت إلى تداعيات في لبنان عام 1958 والتي رسخت ظاهرة ابتعادية في الموقف السياسي بيننا دون أن يؤثر ذلك على ذكريات العلاقة وحالة الود التي كانت تجمعنا. في هذه المرحلة تصرفت أنا ورفاقي في السياسة والعقيدة وكأن ما حصل من وحدة بين قطرين عربيين هو خطوة أولى نحو تواصل الخطوات إلى الوحدة المرغوبة، في حين أن غسان تويني في انغماسه في إحاطته بحقائق الحالة اللبنانية نفذ إلى محدودية الوحدة التي حصلت وإلى الظروف الموضوعية المختلفة التي رسخت قانونية الكيانات القطرية بحيث جاءت استقلالات الدول بأوقات مختلفة ومن استعمارات وانتدابات متباينة، وبالتالي كان لا

بد على مرور الزمن أن تتجذر في كثير من المجتمعات دون أن يعني ذلك التخلي عن الروابط القومية–خاصة الثقافية واللغوية والفكرية. لكن من منطلق محاولة التنسيق والتعاون. كان غسان تويني في هذا المضمار اكثر واقعية واكثر استعداداً للتعامل مع الواقع بغية تطويره في حين كنت أنا اكثر التصاقاً بالحلم الوحدوي– وقد لا أزال!. لأني اعتبرت أن الوحدة داخل الأمة العربية مهما تباينت ظروف نشوء أقطارها تبقى هي الحائل دون الاختراقات التي استنزفت ولا تزال طاقاتنا وبعثرت ولا تزال إمكاناتنا وفوتت على الأمة العربية قدرة صناعة تاريخها ومستقبلها. وقد يكون هذا الحلم واقعاً مستقبلياً ولا أريد أن أفكر بأنه لن يكون كذلك، لأنني اعتقد أن الوحدة أو حتى التنسيق الملزم بين الأقطار العربية من شأنه أن يوفر لكل الأقطار والأوطان المكونة للأمة المناعة التي تمهد لاستقواء العرب بعضهم ببعض بدلاً مما نشاهده اليوم من هدر لحيوية كامنة لدى شعوبنا.

هنا تأتي الإشكالية التي تفرض على من يعتبرون القطرية أكثر أهلية لتنظيم المجتمعات وتنميتها وبين «الحالمين» الذين يعتبرون أن الأمة العربية أمة غنية وشعوب فقيرة لن تستقيم ولن تستديم تنميتها إلا من خلال تدرج متواصل في إنجاز «الحلم». إذن كان هناك تلاق وإلى حد ما تلاحق فكري وسياسي من خلال التزاماتنا بالحاجة وطنياً وقومياً، إلى تنمية إنسانية قادرة أن تهيئ للأمة العربية ولأوطانها الالتحاق بمسيرة التحرير والتنمية. هذا اللقاء جعل الاقتراب ممكناً وصائباً وممكناً في مراحل عديدة من الاقتراب إلى مفاهيم موحدة من شأنها تفعيل الانفتاح الديمقراطي وتمكين المرأة والتأكيد على أولوية تأمين حقوق الإنسان. كان غسان تويني سباقاً في تأكيد أولوية هذه المفاهيم وكنت متبايناً وفي بعض الأحيان مختلفاً معه – لكوني مثل عديد من العاملين في الحقل العربي القومي – غلبنا ضرورة التحرر على الحاجة إلى الحرية وكان التفريق خطأ أدركناه متأخرين، مما أوجد الثغر التى انسابت إليها أنظمة وتيارات شمولية أفقدتنا استكمال التحرير وإلى فقدان الحرية. أقول هذا من منطلق ضرورة نقد الذات دون أن يعني أي تقليص لالتزامي بضرورة قيام الوحدة العربية وان كان على أساس يوفر لامركزية تقرّ بالظروف الموضوعية التي فرضها على الأمة العربية تاريخ نضالاتنا المعاصر.

لقد أدركنا بعد قيام الكيان الصهيوني في وسط الأمة كم أن هذه الثغر أدت إلى أنظمة تلطت وراء شعارات القومية العربية وأفقدتنا فرصاً متاحة أمعنت في تعميق وتجذير ما يفرقنا ويحول التباين إلى اختلاف والاختلاف إلى خلاف والخلاف إلى أزمة والأزمة إلى ما حصل لنا ولا يزال من نكبات واحدث للجماهير من إحباطات ولمجتمعاتنا من نواقص.

إلا أن المشروع الصهيوني وتحديه لارضنا وكرامتنا وتصميمه على تعجيز العرب كلهم من صناعة تاريخهم وهندسة مستقبلهم ومحاولة ممارسته للإذلال وسلوكه العنصري المتجبر الذي وظف مأساة المحرقة لخدمة أغراضه في ممارسة محرقة بالتقسيط على شعب فلسطين وما أدراك ما بعد فلسطين. هنا حصل التلاقي مرة أخرى بيننا في مجابهة هذا المشروع الصهيوني والذي جعل كلاً منا خاصة أثناء تواجدنا في الأمم المتحدة يدرك بالتفصيل هذا الخطر الداهم علينا لبنانياً وعربياً وعالمياً مما دفعنا أن نجابه بشكل موحد واقعية الوطنية وحلم التنسيق والتوحد العربي، أدركنا الحاجة المتبادلة لدفع تجاربنا المتنوعة لخدمة لبنان والعرب. وكان غسان تويني أثناء غزو لبنان نموذجاً للبناني العربي وكان هو المحرض الافعل للتعبئة الدولية في إدانة إسرائيل ورفع القضية الفلسطينية والعربية من خلال البعد اللبناني إلى حالة من الوعي الأخلاقي والوجداني.

غسان تويني في تلك اللحظة كان متألقاً لدرجة أنه جعل لبنان كما عرفه البابا بولس يوحنا الثاني «الرسالة قبل الوطن»، حوله غسان تويني من شعار إلى حالة قائمة. أثناء تمثيله لبنان في الأمم المتحدة جعل منزله بيت العرب وجسراً لتعريف العرب بغيرهم وتعريف الغير بهم، فكان أقرب إليّ مما اعتقدت، واعتقد أنني كنت أقرب إليه مما اعتقد إلا أن التوتر الفكري الذي لازمنا كان دوماً إسهاماً في صقل ما رغبته من دور لي ولامثالي وإلى حد ما كانت المقاربة الفكرية والسياسية يميزها توتر خلاق جعله عنصر إثراء وعنصر اعتراف بالواقع وتحريض على تغييره نحو الأفضل – واترك لغسان أن يدفعه نحو الأمثل.

أهمية غسان تويني أنه جمع بين الحداثة والتواصل التاريخي واعتبر التاريخ إرثاً مكوناً للهوية شرط أن لا تصبح الهوية سجينة للتاريخ. كان ولا يزال غسان في خطابه العام مؤرخاً ومساهماً في صناعة التاريخ، كان المفكر بين السياسيين وكان سياسياً بين المفكرين. إلى حد كبير لم يفرق بين السياسة والثقافة، لذا كانت مؤسسة «النهار» – اركز على مؤسسة– ساحة تلاقح لثقافة سياسية جعلت من «النهار» منبراً للتفاعل الفكري والحوار المجدي ولجدلية الخلاف الذي يخرج ما يبدو متناقضاً ليصبح متكاملاً. أفسحت «النهار» – المؤسسة الحوار العربي أثناء عهود تعمدت إقفال الحوار، وكانت «النهار» – المؤسسة تجدد عندما كان الكثير من الإعلام العربي يجتر. لذلك كان غسان تويني هو من تحدى محاولات إخراس الكلمة العربية. فما اعتبره العالم جرأة اعتبره غسان تويني مهنة، فكانت «النهار» مع قلة من غيرها خميرة الحرية القادمة.

هذا الرصيد من العطاء السخي للمواقف الشجاعة جعلته في كتاباته وإسهاماته وخطبه يجسد معنى استقلالية الرأي ويجسد أيضاً الرغبة الملحة على التجديد والتكيف. كل هذه العناصر جعلت من تعامله مع مآسيه ملحمة ما دفعه إلى التفوق حتى على ذاته. لذا لا أجد إلا أن أعيد بعض ما ورد في مقالي في «النهار» يوم 18 كانون الأول/ديسمبر اثر اغتيال ولده الشهيد الحبيب جبران تويني، لأن هذا كان اصدق تعبير عن خلاصة شعوري وتقييمي لهذا الإنسان الكبير:

«أشعر بصدق أن غسان تويني ابتعد عني، أو بالأحرى نشأت مسافة بيني وبينه، وكنت اعتبر أني من أقرب الناس إليه. عجيب هذا الشعور الذي يبدو أنه كان موجوداً لكنه لم يكن ملموساً، أو بالأحرى واضحاً. غسان تويني لم يتعمد الابتعاد، لكن الابتعاد حصل. كلنا عرفناه طليعياً مبدعاً ومفكراً مرموقاً وإنساناً طيباً ولبنانياً مقتحماً، وحبيباً لكل من عرفه وعمل معه. كان جزءاً من كلنا لذا كان قريباً وكنا قريبين منه، كنا نشعر بتفوقه ونعجب به ونعمل لنقتدي به من دون أن نعلمه ذلك. وإذا اكتشف مسعانا، أعلمنا أم لم يعلمنا، تعامل

معنا كأنه يريد أن يغرف منا مثلما نغرف نحن منه. كانت العلاقة التي جمعتني به حميمة للغاية مثلما كانت مع الآلاف المؤلفة ممن عرفوه وأيدوه وعارضوه. كان خلال غزو لبنان عام 1982 دولة لبنان في غياب الدولة. كان هو في الأمم المتحدة بمثابة غطاء لبنان وجامع العرب، وكان أيضاً المواجه الأمامي لمقاومة العدوان الإسرائيلي لا على لبنان فحسب بل على فلسطين..... ولا يزال في هذا المجال في المقدمة.

إذاً لماذا اعتبره اليوم مبتعداً عني؟ لأنه في قوله «ندفن مع جبران الأحقاد كلها». بدت أعصابه اشد وقعاً من عصبيات سائدة، ثم أضاف «وندفن الكلام الخلافي كله» كأن الصدمة المأساة كانت الفرصة لترسيخ قدسية الكلمة ومسؤولية الحرف. بمعنى آخر تحول من الوالد المنكوب إلى بوصلة لبنان في سيرته وضمير لبنان ودافعه إلى استئناف دوره الحضاري عربياً وعالمياً. وفجأة اكتشف اللبنانيون أنه اصبح والدهم الروحي والجد الحنون لا لأحفاده فحسب، بل يعلمهم جميعاً كيف تكون روعة الحنان وعفويته مدخلاً دافئاً لتواصل الأجيال ولحوار مثمر فيما بينها.

نشعر قليلاً (أرجو أن يظل قليلاً) بالابتعاد لكونه بما أبدى من قوة تحمل فائقة تجاوز حدود ما يستطيع معظمنا تحمله. وكان ما ظهر منه طبيعياً في حين نضطر إلى المكابرة لامتصاص نكبات شخصية أو عائلية أو وطنية. لكن مآسي أبي جبران التي رافقت معظم مراحل حياته مكنته من النفاذ إلى أعماق ركائز الإيمان الأصيل، مما حول مآسيه قدرة فائقة على تجسير المأساة بالأمل، الحزن بالوضوح، الألم الموجع «باستقامة الرأي».

وعندما كرر غسان القسم الذي أطلقه جبران ورددده خلفه مئات الألوف في أوج الانتفاضة البيضاء «نقسم بالله العظيم أن نبقى موحدين...» أخاله تلعثم عندما عرف عنهم «مسلمين ومسيحيين»، كأنه مع جبران يأسف لأنه لم يحن بكل أسف وقت العلمانية التي هي الضامن لحرمة الدين من التبعثر الطائفي، وبالتالي التفكك الوطني. في

وقفة غسان التي ناشد فيها اللبنانيين دفن الأحقاد كان يناشدهم دفن الطائفية حرصاً على الدين من عيوب وشوائب التطيف وأخطاره. وعندما يكون الإرث المشترك لجبران الجد وغسان وجبران هو التزام «خدمة لبنان الوطن العظيم» وخدمة قضيته العربية، هل وصف جبران لبنان كما هو اليوم «العظيم»، أم أدرك ما يختزنه لبنان من عناصر عظمة عليه السعي إلى تفعيلها واستحضارها لتكون منارات مضيئة تؤكد عروبة قادرة على التكيف والتجدد، فيبقى لبنان واحة للجوء ومن ثم للانطلاق ويستعيد دوره رئة النفس لأحرار الأمة ويبقى لبنان كما كان عام 1967 رافداً إعلامياً يفند التزوير الصهيوني ويمد الصحافة العالمية بالحقائق والوثائق. ألم تكن «النهار» البيت لامثال كمال ناصر و«ابو يوسف النجار» و«ابو عمار»؟ ألم يكن هذا الاحتضان امتداداً لمدرسة، وتاريخ مؤسسة «النهار» التي دعت وتدعو إلى الدفاع عن قضية فلسطين ووحدتها؟ ألم توفر قيادة غسان ومن ثم إدارة جبران المنبر والفرص للفلسطينيين وأحرار العرب لمناقشة قضاياهم المصيرية؟ ألم تتباين وتتعارض آراؤهم على صفحات «النهار»؟ ألم يكن جبران عندما يحاور الرئيس الأسد يستدرج إلى التفتيش عن قواسم مشتركة؟ أليس من عادة «النهار» تسهيل المساءلة حول بعض مضامين مقالات من اعتبروا وضوح النص حدة وصراحة التعبير مشاكسة؟ كل هذا يدل على الرعاية التي وفرها غسان للناشطين العرب في كل مكان، وان طغت أحداث لبنان في كثير من المراحل الأخيرة على هموم الصحافة اللبنانية إجمالاً وعلى الأخص «النهار».

نشير إلى هذا السياق لنفسر ظاهرة غسان تويني التي كانت شهادة جبران مناسبة استوعب لحظتها ما شكله اغتيال الشهيد الحبيب جبران من استفزاز تجاهله غسان وتحد امسك بمفاصله فتجلى وتعملق... فكان التسامح ولكن ليس على حساب المتابعة والتحقيق.

تجلى غسان بدون تخطيط منه وصار عملاقاً واصبح في خيالنا مثال الإنسان المتعالي على الجراح. اختزل تجربة المهاتما غاندي. في إطلالته الرائعة أجاب عن سؤال لطالما راودنا:

«أين مانديلا العرب؟». وكان يقدم توجيهاً بأن السماح لا يلغي الملاحقة، وكما جاء على لسان ابنة جبران نايلة: إن عين الديك... بالمرصاد!

هل وضحت صورة الابتعاد؟ لم يبتعد غسان عنا. صار غسان تويني منا وفينا، فهو البوصلة، ولذا تحرك في اتجاه اللحمة المفقودة مثلما تحرك جبران لإزالة ضبابية الالتباسات في الأوضاع السورية اللبنانية... وكانت هذه مساهمة في دفع هذه العلاقات نحو الاستقامة والاستقواء المتبادل.

لم يعد وارداً التلطي وراء الطوائف، ولم يعد مقبولاً أن يتحكم فينا التخويف المتبادل كما عرفه غسان تويني وحفيدته نايلة ابنة جبران إصراراً على ملاحقة المجرمين وكشف الحقيقة. الآن صار للبنانيين مرجعية.... وأخيراً، تلبية لرغبة غسان سوف ندفن الأحقاد، لكن اللبنانيين وأحرار العرب يستأذنونه أن يصروا على غضبهم وعند ذلك فحسب يستطيعون أن يدفنوا أحقادهم، لأن معرفة الحقيقة وحدها تمكنهم من تلبية رغبة غسان في عض الجراح.

من هنا اعتقد أن غسان تويني صار بالنسبة لي ولكل من عرفوه ما قلت عنه بعد استشهاد جبران وهو ما اشعر به واعتقده عنه.

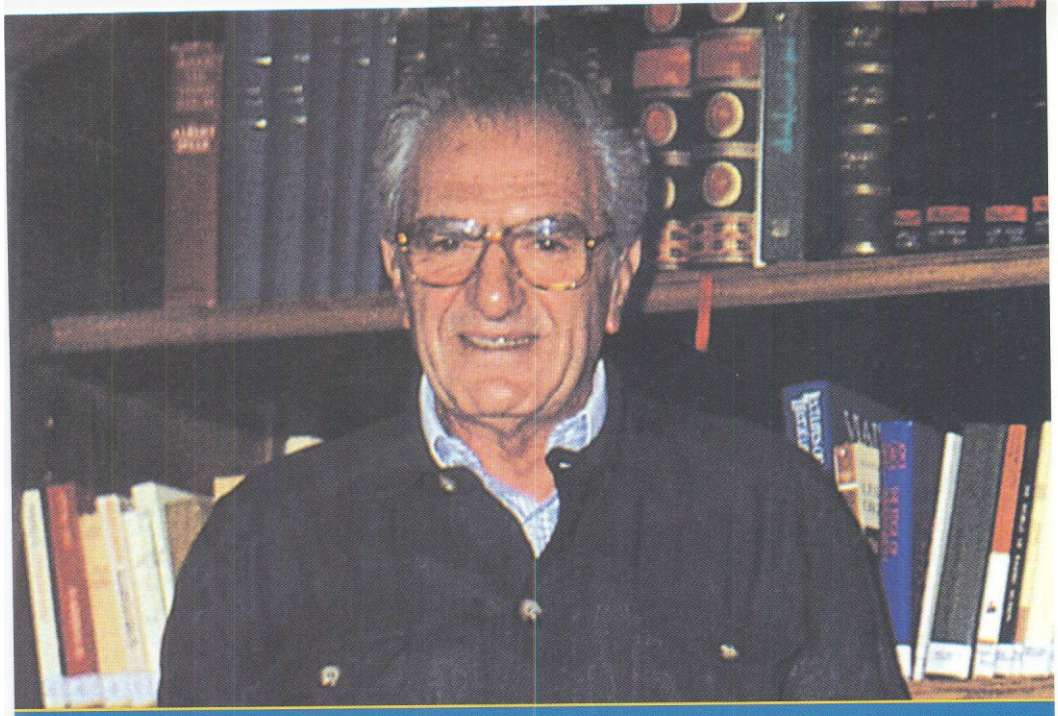

انسـان الأحمـال

بقلم البطريرك أغناطيوس الرابع هزيم

«غسان تويني لي معه تاريخ، كل التاريخ، حتى هذه الساعة. تقصر كلماتي عن التعبير عما في قلبي لرفيق صباي، لمن قال له عني ابوه جبران، رحمه الله، عندما التقاني في منزله في ايامنا الجامعية الدراسية، وصولاً إلى الرفقة الطويلة، في ظل معلمنا الدكتور شارل مالك: «يا غسان، هذا اخ جديد لك».

عرفت غسان منذ ايام الطفولة على الاقل، عندما كان يرتدي البنطلون القصير. في عائلته، اذكر خصوصاً والده جبران، ووالدته اديل تلك السيدة التقية التي لا يزال يقول غسان انه اكتسب منها ايمانه. كان والده يهمّه ان يرافقه ابناؤه الاحد إلى كنيسة القديس نيقولاوس للصلاة. كان من الارثوذكس الذين لم تمنعهم الوطنيات التهاون، لا بقيمه الروحية، ولا بقيمه الاخلاقية. كان بيت غسان نظيفاً خلقياً.

عرّفني والده بي. رأى انني اكليريكي بسيط. كان ذلك في الثلاثينات. قال له والده: «صار لديك اخٌ اكبر منك». في بداية حياته، لم يكن غسان هادئا كثيرا، على ما كان يطمح اليه والده. وبتعريف والده بي بهذه الطريقة، اراد ان يُسمعه ويُسمعني أيضاً، عسى يكون لي ثقل معيّن لدى غسان، فيصير هناك توازن في حياته كان يتمناه والده. لكن غسان كان ولدا مثل بقية الاولاد في سنه، ومثلي انا عندما كنت ولدا.

كان بيت عائلة تويني آنذاك قريباً جداً من مقر مطرانية بيروت للروم الارثوذكس في الاشرفية. شعروا بأنني ابن قرية، من عائلة ليست معتادة الحياة البيروتية. لم اكن سافرت قبلا خارج بلدتي بحردة قرب حماة. لن انسى ما كانت والدة غسان تفعل من أجلي. فعندما كانت تعدّ «الملوخية»، وانا الذي لم اكن عرفتها او تذوقتها قبلاً، كانت ترسل اليّ الفتاة مريم التي كانت تعمل لديهم، إلى المطرانية لتدعوني إلى تناول الطعام عندهم. لقد عنى لي الكثير هذا الامر، لانني لم اكن اعرف احداً عندما جئت إلى بيروت. كان هذا البيت يقدّم

اليّ الدفء اكثر من أي مكان آخر. كانت عائلة غسان محبّة جداً. وانا فخور بأن هذا الامر انشأ بيني وبين غسان علاقة اخوّة غالية جداً.

وترسّخت علاقتي بغسان خلال مسيرتنا التعليمية المشتركة. كنا معا في القسم الفرنسي في الجامعة الاميركية في بيروت. وكان غسان بارعاً في اللغة الفرنسية. كان طلق اللسان. ساعدني كثيراً في مسائل اللغة، وتعلّمت منه الكثير. كان يكتب قصائد بالفرنسية، ويعطيني اياها لاقرأها. لكنني اذكر ان الفيزياء والكيمياء والحساب كانت «كرشونة» بالنسبة اليه، ولكنها لم تكن كذلك بالنسبة اليّ. كان هناك رباط بيننا. كان غسان يتمتع بالعشرة الحقيقية الشبابية.

من البداية، كان لغسان وسط غير محدود. لذلك، كانت آفاقه مختلفة جداً. كان متمكناً من كتابة الشعر بالفرنسية. وكان محيطه مختاراً جيّداً. كان يحب من يُحَب.

وانتقلنا معاً إلى الجامعة، حيث درسنا الفلسفة بالانكليزية. وكنا ثلاثة في الصف: غسان والراحل ريمون كرم، وانا. نجحنا معا في امتحان الانكليزية، ومشينا معاً إلى النهاية. كنا سعداء جداً.

في تلك المرحلة، شهدت حياة غسان مرحلة استثنائية. فجو الجامعة كان سياسيا بامتياز. وقد اصبحت لغسان وريمون اهتمامات سياسية، بينما بقيت انا بعيداً عن هذا الجو، وخصوصاً ان همّي الوحيد كان التعلّم. لقد شكّلنا آنذاك ثلاثياً مهمّا، وأمضينا أياماً جميلة جداً. في تلك الاجواء، كان غسان صاحب فكر. كان «يقوّم القيامة» سياسياً، وانا اكليريركيا. عشنا حرية الفكر واحترام الآخر مئة في المئة. كنا متحررين كلياً.

لم نشعر في الجامعة بانه يجب ان نكون محدودين. كان محيطنا ثقافيا، كنا نستمتع

بالاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية في جامعة القديس يوسف. في هذا المحيط الثقافي، شعرنا بان هناك جناحين في متناولنا ان ننهل منهما: انكليزي وفرنسي. وقد اغنانا ذلك كثيرا.

نعم، اتذكّر اننا شعرنا عندما كنا في السنة الاولى في الجامعة باننا بازاء أبواب جديدة تفتح امامنا. صرنا نحس بان اعجابنا يجب ان يكون محدوداً اكثر، لاننا صرنا نعجب اكثر او اقل بالاشياء القيّمة. في كل الاحوال، حافظنا على مودة كاملة لاساتذتنا، وخصوصا الدكتور شارل مالك والدكتور قسطنطين زريق.

بعد مدة، توفي والد غسان. وكان جنّازه في كاتدرائية القديس جاورجيوس في بيروت. في ذلك اليوم، اختبأت في الهيكل، لانني بكيت كثيراً عليه، ولم استطع ان اظهر ذلك امام الناس. فهذه العائلة تبنتني بصدق، واتمنى ان اكون تبنيتها انا بصدق كذلك. لاحقاً، صرنا، غسان وانا، نلتقي، ولكن ليس مثل السابق، وخصوصا ان غسان العائد من جامعة هارفارد أصبح مدعواً إلى شيء اكبر. لقد انهمك بـ«النهار» التي صارت ابنته. هناك ايضا امضينا اوقاتا ممتعة في المقر القديم للجريدة في بيروت الاسواق العتيقة. وكتبت مقالات كان يطالبني بها غسان، لكنها ظلّت قليلة جداً.

لم تتمكن الاحداث، على تنوعها وتضاربها، من ان تحدث اي خلل في هذه الاخوة التي جمعتنا. لاحقاً، أُخذ كل منا في اتجاه مختلف. وفي وقت من الاوقات، حملتني مسؤولياتي الكهنوتية، فالاسقفية، من بيروت إلى دمشق، فالبلمند، فاللاذقية، ثم إلى دمشق... وكأنني سائح.

غسان نشأ وكلّم كل طبقات الشعب. وكانت كتاباته متميّزة بغنى شخص كانت تهمّه الكلمة ورنينها ومعناها. كان هو الذي يتكلم الجمال، حيث يجب الجمال كشاعر. كان

شاعرا. حتى اليوم، اذا اراد قول الحقيقة، فلا يعطّل الجمال. واذا اراد التكلم على الجمال، فلا يعطّل الحقيقة.

غسان واقعي جداً. لا شيء يهزّه. لا يستغرب شيئا، كأنه يعرف طبيعة الحياة. يعرف انه يجب الا يدهش بشيء، مع انه يُعجب ببعض الاشياء. لم يبع لبنان باي شكل من الاشكال. ولم يشارك أحداً في لبنان. كان قادرا على ان يحب الحب البشري، وهي نعمة من الله، انما لم يضع شريكا في محبته للبنان وفكره.

غسان مدرسة.

لا شكّ في انه يعرف كيف يحبّ. وأكثر ما احبّه هو لبنان. آخرون يتغنون به شعرياً، بينما يتغنى هو به واقعياً، انما بطريقة شعرية.

من لم يقرأ غسان كل هذه الاعوام الاخيرة، غاب عنه شيء لا يجوز ان يغيب عن شخص واعٍ في هذا البلد.

لبنان ليس كلمة بالنسبة إلى غسان، انما هو نوعية وجود. ولا يزال كذلك بالنسبة اليه حتى اليوم.

كشخص، امتداد غسان لا حدود له. وهذا لا يعني انه اصبح مائعاً، بل انه يعيش أموراً حياتية كثيرة، وحده. اتجاسر على القول انه يفرح مع الناس، لكنه يفرح خصوصاً عندما يكون ذلك فيه هو. ويحزن مع الناس، لكن حزنه يبقى عنده. لا يحمّل احداً اثقالاً. يحمل كل شيء وحده، كما حمل وحده «النهار» احدى المرات. انه انسان الاحمال.

مهما قلت، لا استطيع ان أنصف غسان بطبيعته الحقيقية. يمكن المرء ان يحب غسان، وغسان يقدر على الحب. يستعمل القلم كثيرا، لكنه لم يصبح القلم. بقي هو الكاتب، المتكلم. اينما نظرت عيناه، تريان شيئا له معنى بالنسبة اليه.

لا استطيع ان أنصفه. أحبه، لكن هذا لا يعني انني اوافق على كل شيء قام به. هو لا يسير من دون وعي، كذلك انا. وما أراه، أراه بكل وعي وادراك، واقوله بكل صدق.

رغم تخصصه في اميركا بالفلسفة والفكر السياسي وفلسفة التاريخ والقانون، بينما كنت انا اتابع في فرنسا دروسي اللاهوتية العليا، لم اكن اشعر، عندما كنا نعود نلتقي او نتكاتب ان غسان يتغير. لا يزال البُعد الكبير الذي خلق منه الكثير، وخاض فيه، ولا يزال يخوض فيه. انه واسع إلى اقصى درجة، علميا، انسانيا. الحياة، البلد، الكائنات البشرية... بدأ بها وتعمّق فيها، لكنه لم يخرج منها. لا يزال فيها. رأيته في ساعات عصيبة، وسمعت الناس يقولون: «ما هذا الانسان الكبير؟». عندما يتكلم، كأنه اصبح مخاطباً لك مئة في المئة.

وحده الله يعرف ما يشعر به غسان حقيقة في قلبه. سألته من مدة قريبة: لماذا يشعر احيانا المرء بشيء من الكآبة والانفراد، في وقت يبدو انه حقق نجاحات متعددة، وفي ظل كفاءات يقدمها بشر يعرفون ان يقولوا له نحبك. كيف يبدو لك الامر؟ فأجابني: «انا أختبر أيضا هذا الشعور».

غسان يحب ان يواجه الناس، مثل مواجه في الدنيا. وهذا يتطلب ان يكون كبيرا. وهو كذلك. انه كبير. اذكر انه عندما كان رئيسا لجامعة البلمند، لم يكن يقدر على الحضور دائما إلى الجامعة، واحياناً كان يأتي من بيروت إلى طرابلس بالطائرة بسبب الحرب وحواجزها. ومع ذلك، كان يُشعرنا جميعاً بانه في الجامعة ومنها بكليته، ويتابع كأنه دائم الحضور ابديّه. أذكر جيداً كلماته عندما اخبرني عن واقعة حصلت معه هناك. كان متوجّهاً إلى مكتبه،

مروراً بالأروقة، واذ بطلاب ينظرون اليه قائلين: «هذا رئيسنا». قالوا هذا تعبيرا عن محبتهم له، ولو لم يتعاطوا معه بقدر ما يريدون، وهو إلى ذلك كان يطمح.

غسان موجود. انه وجود، ولا يمكن تغييبه، وفوق كل الاعتبارات. حفظه الله لنا. اتمنى له كل الفرح في قلبه. عسى الصلابة التي يتمتع بها تجاه ما هو محزن عادة، تكون فرحاً عميقاً انه خدم وانحبّ، وانه يعطي ما لديه من دون تردّد.

غسان تويني

دنياه صور وحكايات

لطالما تساءل غسان تويني من هو الصحافي الذي يظنه قارئه «شيئاً عجيباً، فيه بعض من الوحش والآلة معا، انساناً من ورق، دمه حبر، مفروض فيه ان يعرف كل شيء، ومنتظر منه ان يقول كل شيء».

واذ نبحث عن هذا الرجل الذي نصفه انسان ونصفه آلة، ومصنوع من ورق، ودمه حبر، فلا نجده سوى في الاساطير.

يبقى الانسان الآخر المن لحم ودم الذي رافقت الصورة مختلف مراحل حياته التي تنبسط امامنا في هذه الصفحات كما في مشهد طبيعي تنعكس اطيافه على صفحة بحيرة ساكنة.

إ. ص.

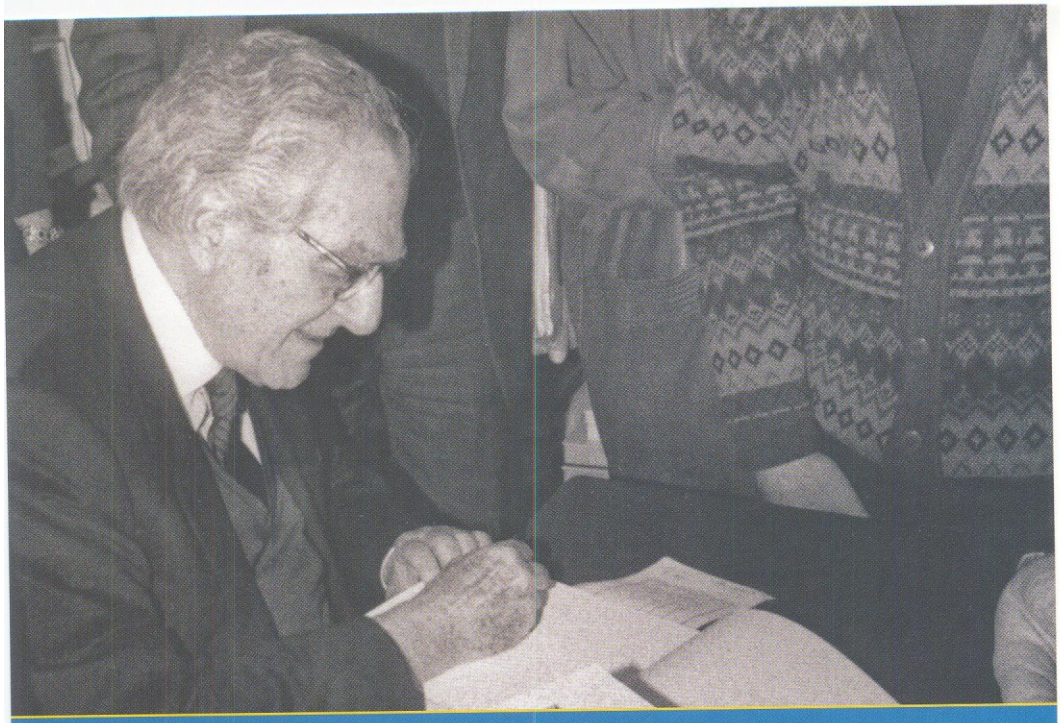

محطـات

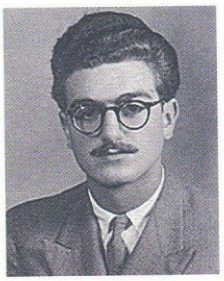

غسان تويني شاباً.

1945

صيف عام 1945 سافر غسان تويني إلى أميركا بغية إكمال دراسته العليا في الفلسفة والعلوم السياسية. وكان قد نال بكالوريوس في الفلسفة من الجامعة الأميركية في بيروت. وفي آخر رسالة كتبها إلى والده قبل وفاته بعد تخرّجه في جامعة هارفارد بماجيستير في العلوم السياسية وفلسفة التاريخ، صارحه بأنه يميل للانصراف إلى التدريس والتأليف الفلسفي، وانه لا يفكر في العودة إلى «النهار»، ولا ربما إلى لبنان، ويميل إلى قبول عرض من الجامعة للعمل هناك بينما هو يحضّر الدكتوراه. الا أنه اضطر للعودة إلى لبنان في كانون الأول/ديسمبر 1947 بعد وفاة والده.

غسان تويني خريجاً من الجامعة الاميركية، وفي أقصى يسار الصورة البطريرك أغناطيوس هزيم (إذذاك الشماس الذي تتلمذ وغسان في الفلسفة على يد الدكتور شارل مالك).

غسان تويني بين زملائه خريجي العلوم السياسية. في وسط الصف الأمامي رئيس دائرة العلوم السياسية البروفسور شكري عيساوي، وخلفه في وسط الصف الواقف غسان.

صورة التخرج كما أرسلها غسان تويني إلى والده مع تعليقه عليها: «شهادة وصداقات (زميلين في الدراسة)».

1945

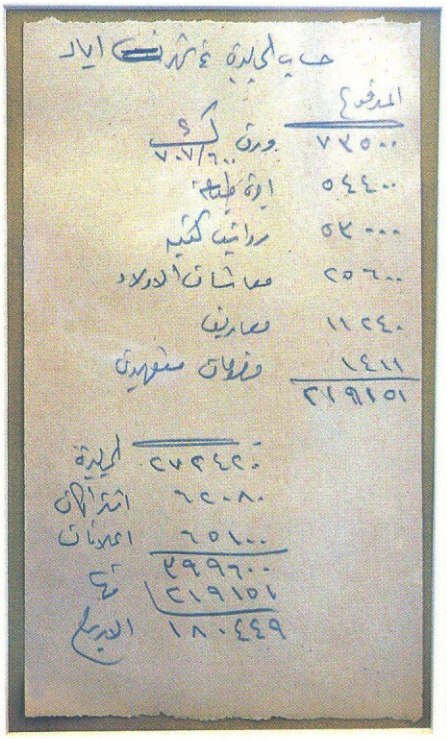

حساب الجريدة في شهر أيار/مايو لعام 1945، بخط جبران تويني المؤسس.

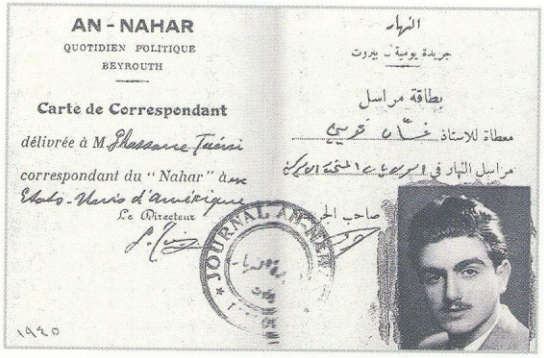

بطاقة مراسل تعود إلى عام 1945.

المبنى القديم (سوق الطويلة، مطلّ على شارع طرابلس) حيث كانت مكاتب «النهار» ومطابعها بعد تأسيسها بقليل، منذ 1934.

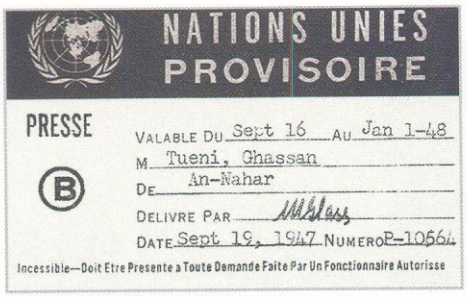
NATIONS UNIES
PROVISOIRE

PRESSE

VALABLE DU Sept 16 AU Jan 1-48

M. Tueni, Ghassan

DE An-Nahar

DELIVRE PAR

DATE Sept 19, 1947 NUMERO P-10564

Incessible—Doit Etre Presente a Toute Demande Faite Par Un Fonctionnaire Autorisse

بطاقة صحافية
لغسان تويني من
الامم المتحدة.

1947

المأتم الوطني للمؤسس جبران تويني لدى مروره في ساحة البرج، ويبدو من اليمين: سامي تويني، الدكتور بهيج سالم شقيق اديل جبران التويني، غسان تويني، المدير العام لوزارة المال اندره تويني، فؤاد تويني، الرئيسان صبري حماده ورياض الصلح والوزير جبرائيل المر وسائر الوزراء.

في 11 تشرين الثاني/نوفمبر 1947 توفي جبران تويني في التشيلي حيث كان وزيراً مفوضاً لديها ولدى الأرجنتين واورغواي، وأحضر جثمانه إلى بيروت وأجريت مراسم دفنه في 24 كانون الأول/ديسمبر.

وكان في ظنّ غسان تويني لدى عودته أنه سيمضي في لبنان بعض الوقت ليرتّب شؤون العائلة ثم يعود إلى أميركا. الا أن كونه الأكبر في العائلة بين أربعة شبان جعله يغيّر رأيه ويتسلّم الجريدة. علماً أن والده كان يحلم له بالصحافة ويوقّع مقالاته باسم «أبو غسان». وكان غسان تويني قد عمل، وهو طالب، مراسلاً لـ«النهار» في الأمم المتحدة. وكان يرسل مقالات تحليلية إلى «النهار» عن مناقشات الجمعية العمومية ومداولات مجلس الأمن، وهو لم يتجاوز بعد العشرين من عمره. كما سعى لدى والده إلى إلحاقه بالوفد اللبناني لدى الأمم المتحدة والذي كان برئاسة وزير المال آنذاك كميل شمعون. وكان غسان تويني على اتصال وثيق بشمعون وبأعضاء الوفدين اللبناني

غسان تويني بلباس مراسل حربي مع الجيش الأردني داخل فلسطين وإلى جانبه صحافي صيني.

1948

في 5 كانون الثاني/يناير أصبح غسان تويني رئيساً لتحرير «النهار»، وحمل العدد الذي صدر في ذلك التاريخ اسمه للمرة الأولى، وصادف عيد ميلاده الثاني والعشرين. وقد استهوته الصحافة الميدانية فأرسل نفسه إلى جبهة فلسطين بعد شهرين من توليه رئاسة التحرير، ودخل الأردن مع الجيش الأردني بعدما ارتدى سترة جندي أردني عليها شارة «مراسل حربي»، وراح يكاتب «النهار» من هناك.

النهار

حكمة النهار

طبخة وزارة «جبابرة» لانقاذ ما يمكن انقاذه

نواب الجنوب يؤيدون الرئيس الصلح بشروط!

ملكة اليونان تزور كونتزا

وزير الحربية اليونانية يعلن ان هيئة اركان حربية اجنبية دبرت هجوم الثوار

نصر كونتزا في راديو انقره!

كيف اصبح مار كوس وانور خوجه جنرالين؟

١١٢ قتيلا وجريحا عربيا في يافا

انزال ١٢ الف مهاجر يهودي غير شرعي في قبرص

أيوفق في فلسطين كما وفق في الهند؟

البوليس الاميركي يضبط ٧٧ صندوقا من المواد المتفجرة في طريقها لفلسطين

انفصاليو السودان يساعدون فلسطين

الكنيسة الارثوذكسية تؤيد الجمهورية الرومانية

الميزان التجاري في ٧ سنوات

ارقام تنطق بعجز سنوي قدره ٧٢ مليونا

ديغول يطالب بانتخابات جديدة

الجنرال يحمل على نظام الاحزاب المتبع في فرنسا

بلوم ينعي القوة الثالثة!

حكومة شومان لن تعيش تحت رحمة عدوين

أول عدد من «النهار» يحمل اسم غسان تويني رئيساً للتحرير، في 5 كانون الثاني/يناير 1948 (عيد ميلاده الثاني والعشرين).

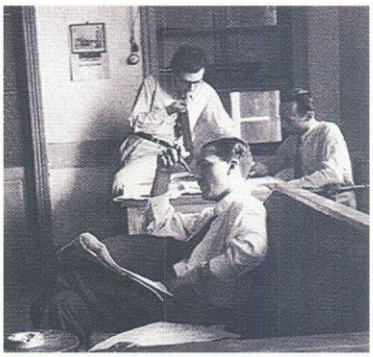

غسان تويني مع لويس الحاج، خلف طاولته ووليد تويني في مكاتب الجريدة في سوق الطويلة.

النهار

السنة ١٥ – العدد ٣٨٩٢ – الاحد ٢٣ ايار ١٩٤٨

قوات الجيش المصري تصل الى مدينة القدس

لتساعد القوات الاردنية في معركة التصفية

الحاميات اليهودية في القدس بين التسليم والفناء

المجاهدون يحتلون حائط المبكى

من اريحا نقطة انطلاق الجحافل المحررة

الى نابلس مركزا احتشادها قبل اقتحام مراكز العدو

بعثة السلام تصل متأخرة ...

ومع ذلك لا يزال ايفانس متفائلا

العرب لن يطيعوا امر وقف القتال

اذا تبنى مجلس الامن اقتراح اميركا

الموقف الحربي

العدو بين فكي الكماشة المصرية

بريطانيا تحلب اميركا وتعطي العرب

هذا ما يعتقده شيوخ الولايات المتحدة!

ممثل روسيا

لدى «المولود الميت»

صوت موسكو في لندن

أيجلو الانكليز عن حيفا قبل آب؟

ترومن يتهم

روسيا بقلة اللياقة

بين رئيس و«رئيس»...!

الصفحة الأولى من «النهار» وفيها تغطية كاملة لحرب فلسطين.

المؤسس
جبران تويني.

1948

بيان وعهد

تدخل « النهار » الآن في مرحلة جديدة من مراحل نموها وتطورها، وهي تجدد لقرائها العهد بان تنهج الخطة التي رسمها لها مؤسسها مسترشدة بوحي المبادىء التالية :

« النهار » جريدة لبنانية عربية —

تدافع عن لبنان واستقلاله و كيانه في وجه المطامع أياً كان مصدرها . وتعتبر ان مصلحة البلاد العليا هي في التعاون الوثيق مع الدول العربية الشقيقة، على ان لا يؤدي هذا التعاون الى المساس بشخصية لبنان و كيانه .

« النهار » جريدة لا طائفية — فهي وطنية تحلق فوق الطوائف وتدعو الى احلال الرابطة الوطنية اللبنانية محل الطائفية المذهبية، وتعمل في حقل الحدمة العامة على اساس قومي، غير متعرفة الى الاقليمية الضيقة والعصبيات التي لا يشيد الوطن من وجودها وتتافيها شيئاً .

موقفها من الاجانب — « النهار » لا تعادي الاجانب عن تعصب اعمى لانها لا تنكر ان لهم فضلا على البلاد، ولكنها لا تريد ان يؤدي هذا الاقرار بالفضل الى تذويب شخصيتنا واضاعة استقلالنا والقضاء على كياننا . لذلك فهي تحارب كل تدخل اجنبي في شؤوننا أياً كان لونه .

أما في ميدان الثقافة فترى « النهار » ان يظل لبنان ذا طابع ثقافي تقدمي، فلا ينكر كل ما يأتينا من الغرب من فنون جميلة وعلوم حديثة وآداب رفيعة على ان نصهره في ثقافتنا الخاصة ونضيفه الى تراثنا العربي الغالي .

« النهار » جريدة ديموقراطية —

فهي تحارب كل استبداد في الحكم او في الفكر . ولا يعني هذا انها من انصار الاباحية . فالديموقراطية في نظرنا تعني مزاولة الحرية ضمن حدود الساطة الواجبة المحافظة على كل كيان يريد البقاء حراً . وهي تعني ايضاً احترام كل الآراء والمذاهب الفلسفية مادامت لا تعارض النظام العام .

نحن نحترم النظام الديموقراطي، وندافع عنه ما دام ضمن نطاق الشورى لا يتعدى الى درك المساومات المصلحية الخاصة . اما اذا خرج من هذا النطاق فلن نتردد في محاربته دون هوادة، لان « النهار » كانت وستبقى حرياً على الاستبداد سواء مارسه فرد او جماعة او حزب .

« النهار » غير حزبية — ليست « النهار » حزباً ولا منظمة . فهي مستقلة عن الاحزاب والهيئات كافة . ولكنها لا تتحسس لقيام منظمات طائفية الطابع في وطن تريده لا طائفياً . اما موقفها من الحكام فيملية، سلبياً او ايجاباً، اخلاص هؤلاء «للبنان واستقلاله وعروبته ومدى نشاطهم في حقل الخدمة العامة

* * *

هذه هي المبادىء التي عمل بوحيها مؤسس « النهار » وقد تبنيناها وجعلنا منها دستوراً نمشي عليه، لنظل امناء لذكرى جبران تويني، ولنترسم خطاه في خدمة الوطن

وعلى هذا الاساس نعاهد قراء « النهار » على جعل جريدتهم لساناً للحق وسيفاً مصلتاً في وجه البغاة، ودعامة للحكم الصالح، ومعولا لهدم الحكم الفاسد . وعلى الاساس نفسه ندعوهم الى مؤازرة « النهار » لتستمر في نهجها، وليوماً لها من عطف قرائها وتأييدهم ما يجعلها قادرة على مجابهة الصعاب، وانهم لقادرون باذن الله .

« النهار »

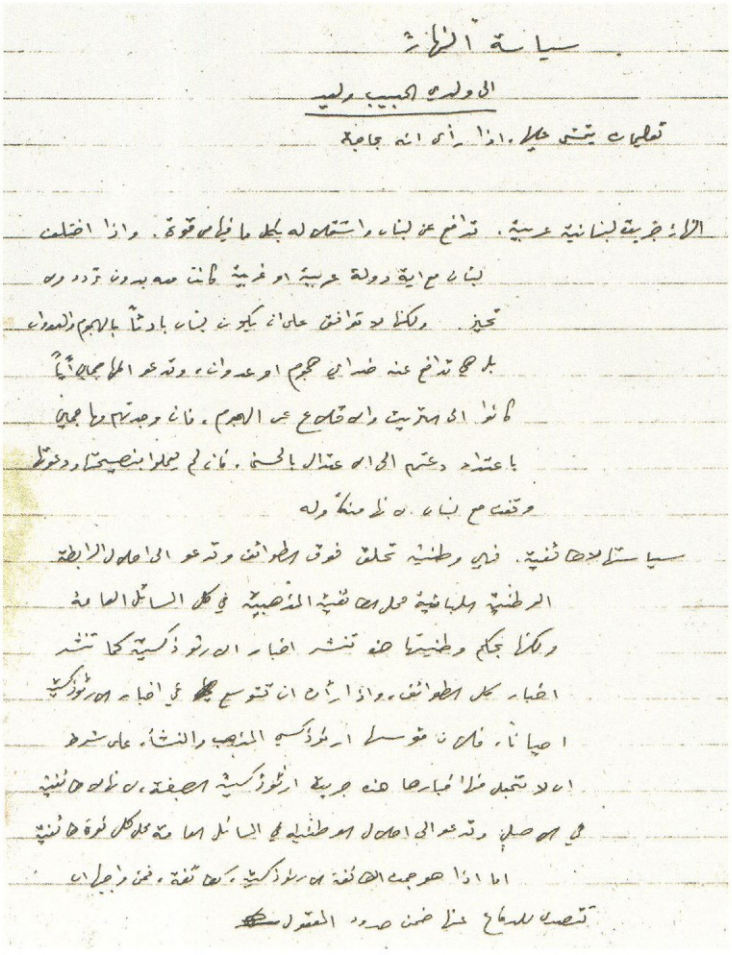

بيان تعليمات من جبران تويني إلى ولده وليد الذي تسلم إذذاك مسؤولية «النهار» وهو بعد طالباً في كلية الحقوق، قبيل مغادرته لبنان سفيراً إلى الأرجنتين عام 1946، وقد أعاد غسان تويني نشرها يوم تسلم رئاسة التحرير تحت عنوان «بيان وعهد».

غسان تويني ورياض طه في جولة صحافية في الهرمل.

1949

غسان تويني متوسطاً هيئة التحرير المؤلفة من الأساتذة لويس الحاج، سليم ابو جمرا، عبد الغني بنداق، جبران حايك. ويبدو الشاب عدلي لويس الحاج.

1950

حوّل غسان تويني «النهار» في تشرين الثاني/نوفمبر 1950 من ظهرية إلى صباحية تنضّد على الانترتيب ويزيّنها الديك الذي صاحَب الشعار الآتي: «كلما صاح الديك طلع «النهار»».

غسان تويني وفؤاد سليمان الذي ساهم في اطلاق الصيغة الجديدة بتحريره زاوية «صباح الخير» يوقّعها «تموز/يوليو»، في مكاتب «النهار» في سوق الطويلة.

في مهرجان انتخابي في عاليه محمولاً على الأكتاف مع المرشح فضل الله تلحوق.

1952–1951

غسان تويني نائباً عن الشوف (5 حزيران/يونيو 1951).

غسان تويني نائباً للمرة الأولى عن الشوف (5 حزيران/يونيو) ممثلاً غير معلن للحزب القومي الاجتماعي المنحل، وقيادته في السجن. وكانت قد تشكلت نواة معارضة قوية فازت في الانتخابات وتألفت منها «الجبهة الاشتراكية الوطنية» وضمّت السادة كمال جنبلاط وكميل شمعون وغسان تويني واميل البستاني وانور الخطيب وبيار اده وعبدالله الحاج وديكران طوسباط. وشارك غسان تويني في مهرجان الباروك الذي أطلق معركة الشوف باصطدام دامٍ مع رجال الأمن. ثم في مهرجان دير القمر (17 آب/أغسطس 1952) الذي أقامته الجبهة وحلفاؤها وأبرزهم حميد فرنجية وتقي الدين الصلح وعادل عسيران وعلي بزي وقبولي الذوق مطالبة باستقالة رئيس الجمهورية. وتجاوبت البلاد مع دعوة الجبهة إلى إضراب عام مفتوح حتى استقالة الرئيس. ودام الاضراب ثلاثة أيام وانتهى باستقالة الرئيس بشارة الخوري في 18 أيلول/سبتمبر 1952، ثم انتخب المجلس كميل شمعون خلفاً له (23 أيلول/سبتمبر 1952).

في قاعة مجلس
النواب، وبدا الرئيس
رشيد كرامي متحدثاً.

1952–1951

في قاعة مجلس النواب الذي شهد
تأليف «الجبهة الاشتراكية الوطنية».
في المقعد الأمامي، كميل شمعون
وأنور الخطيب وكرسي كمال
جنبلاط الذي كان متغيباً عن
الجلسة. ويبدو غسان تويني متوسطاً
النواب بيار إده وعبدالله الحاج
وديكران طوسباط.

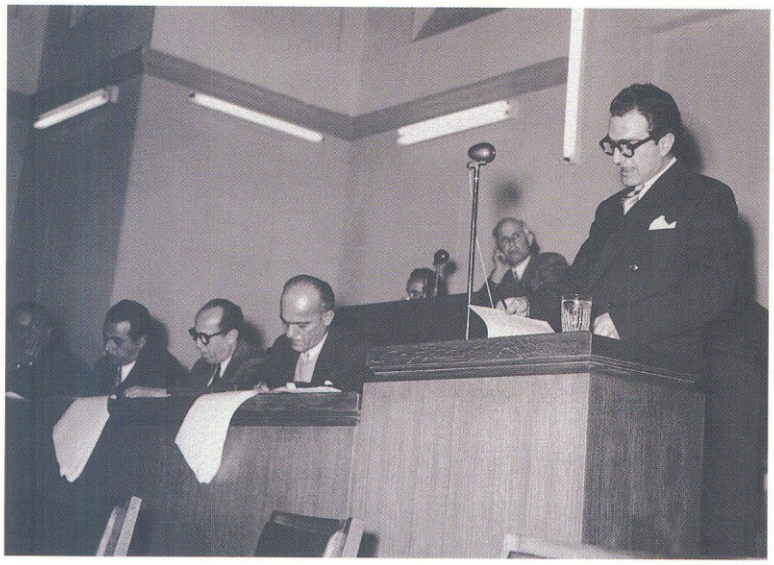

متحدثاً من على
منصة البرلمان.

يحيي الجماهير مع الرئيس كميل شمعون في مهرجان دير القمر (17 آب/أغسطس 1952).

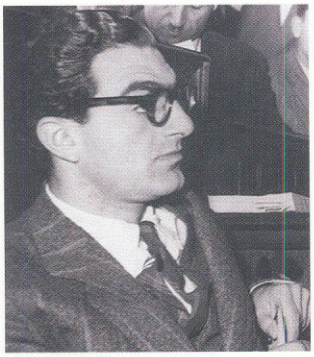

في احدى جلسات مجلس النواب.

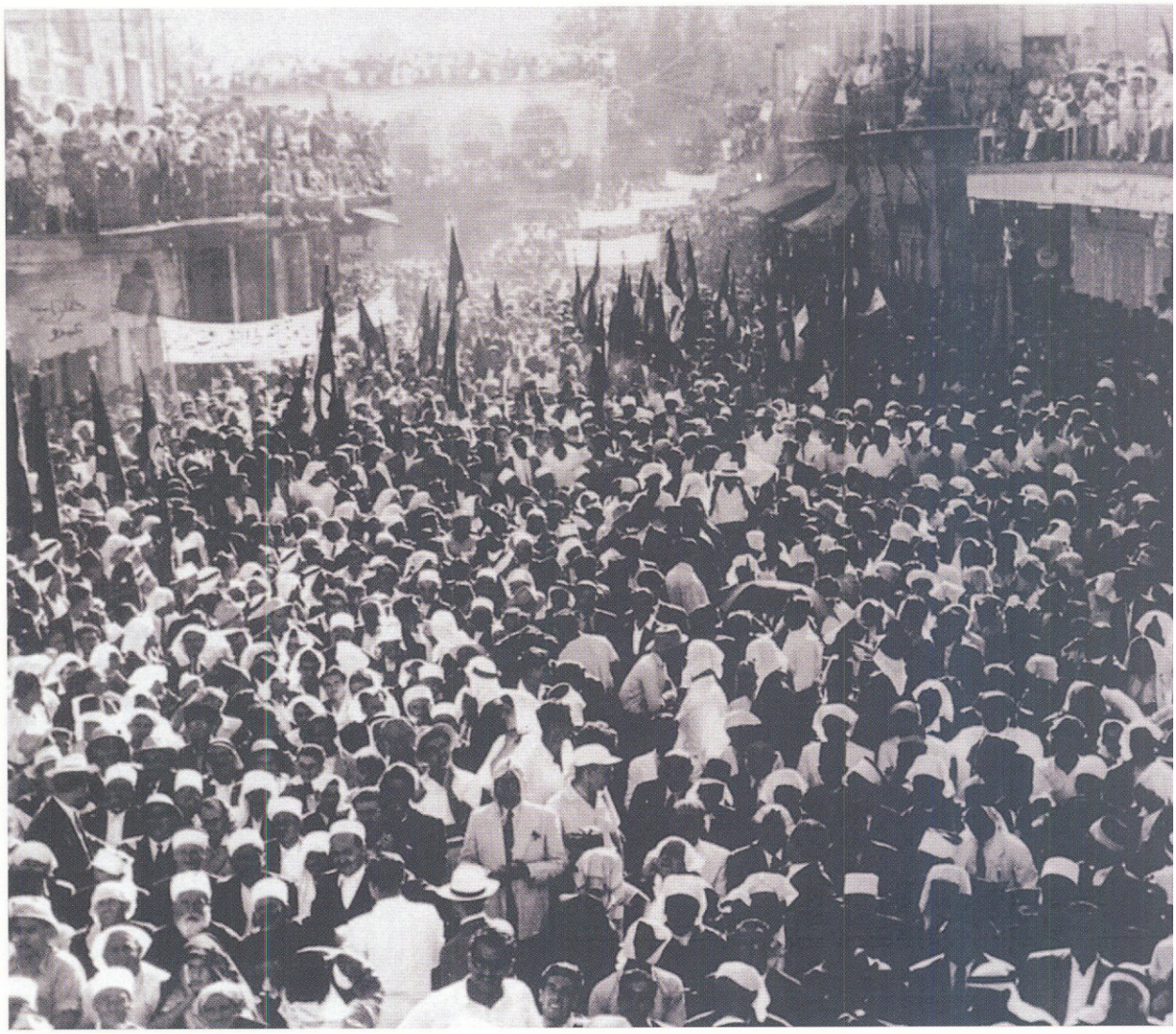

الحشود الشعبية في مهرجان دير القمر 1952.

غسان تويني نائباً عن بيروت ونائباً لرئيس مجلس النواب عادل عسيران.

1953

انتخاب غسان تويني نائباً عن بيروت ونائباً لرئيس مجلس النواب.

في جولة انتخابية في بيروت.

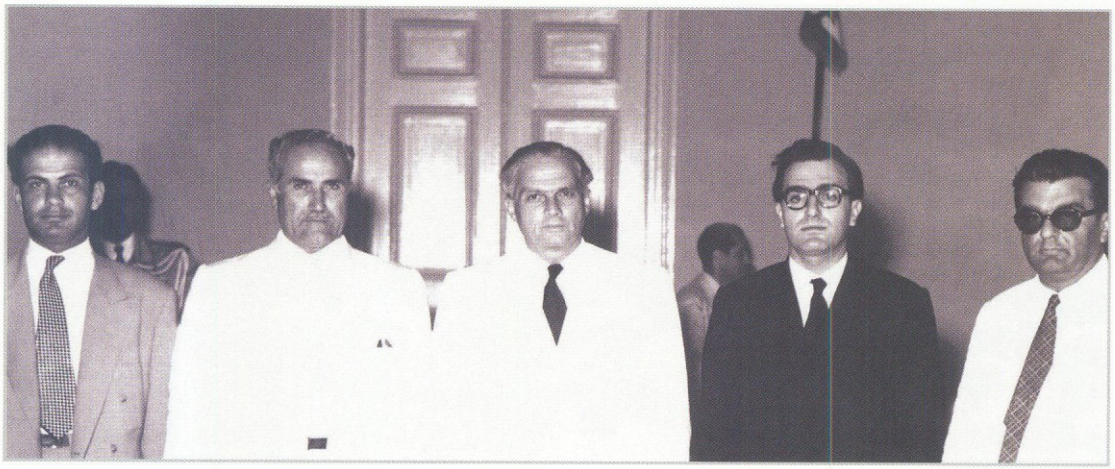

مع الرئيس كميل شمعون: الرئيس عادل عسيران وهيئة مكتب المجلس في الزيارة البروتوكولية إلى القصر الجمهوري فور انتخابهم.

خطيباً في مهرجان انتخابي في بيروت.

في موكب انتخابي في بيروت في سيارة مكشوفة.

1954

في 31 كانون الأول/ديسمبر زواج غسان تويني ونادیا حمادة، كريمة السفير محمد علي حمادة.

غسان تويني وزوجته ناديا حمادة في لباس سهرة ميلاد 1954 في أثينا حين تزوّجا.

1956

في 30 أيلول/سبتمبر أحدث انقلاباً في «النهار» باستفتائه، والصحافة اللبنانية، القرّاء وإشراكه اياهم في تطوير الجريدة، من الأحرف والعناوين والألوان، إلى كتابة الأخبار وحجمها، والصور والزوايا والتعليقات. لينطلق من ثم في جريدة من 8 صفحات بإخراج وتبويب جديدين. إضافة إلى سياسة جديدة معارضة شعارها «الرأي الحرّ والنبأ الأكيد»، نازعاً عنها صفة «جريدة العهد».

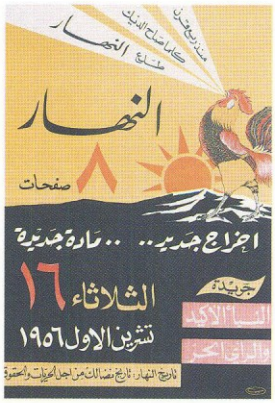

الجريدة في حلّة جديدة.

«الرأي الحر والنبأ الأكيد» الشعار الذي نزع عن «النهار» صفة جريدة العهد الدستوري.

غسان تويني في جولة انتخابية في الأشرفية وإلى جانبه الحاج نقولا مراد والنائب خاتشيك بابكيان.

1957

سقوط غسان تويني في انتخابات (9 حزيران/يونيو) بيروت وفصله من الحزب القومي وتعيينه عضواً في الوفد اللبناني إلى الأمم المتحدة.

غسان تويني مع المفتي محمد علايا وأعضاء لائحة بيروت التي كان يترأسها الرئيس سامي الصلح وهو في المستشفى قيد المعالجة. وقد نجحت اللائحة بكاملها باستثناء غسان تويني. يرى السادة خاتشيك بابكيان، بيار اده، خليل الهبري وعبد الرحمن الصلح في لقاء انتخابي (7-6-1957).

مهرجان انتخابي في بيروت وقد ظهرت لافتة تؤيد الرئيس سامي الصلح.

في التلفزيون يقدم مع صحافيي «النهار» تغطية العمليات الانتخابية بالاشتراك مع هيئة تحرير «النهار» ومراسليها في الدوائر.

1958

مع الرئيسين رشيد كرامي وتقي الدين الصلح والنواب عبده صعب ونصري المعلوف وألبير مخيبر.

في إطار البحث عن موارد جديدة لـ«النهار» أسس غسان تويني شركة للعلاقات العامة عرفت باسم BSR وأسند ادارتها إلى السيد سمير سوقي.
وإثر تأسيس الجنرال سليمان نوفل ومجموعة من المتمولين الشركة اللبنانية للتلفزيون CLT بالاشتراك مع الفرنسيين، فكّر غسان تويني في إنشاء شركة لاستثمار اعلانات التلفزيون وادارتها فكانت «ادفيزيون» (1957) التي نالت عقداً حصرياً لبيع اعلانات أول تلفزيون في لبنان وادارة هذه الاعلانات. وتولى ادارة هذه الشركة السيد منير طقشي، أحد الخبراء البارزين في هذا الحقل.
وكان التلفزيون يخسر في تلك الأيام بينما «ادفيزيون» تربح.

مع مجلس التحرير الذي يتألف من لويس الحاج، ميشال ابو جوده، فرنسوا عقل، وكمال حاطوم.

1960

غسان تويني ينشىء التعاونية الصحافية (1958). ويعود اليه الفضل في الصيغة التعاونية للنشر الصحافي. ثم تفرّع عنها ما بات يعرف بـ«مجموعة شركات النهار». وقد تمّ شراء قطعة أرض في شارع الحمراء لتشييد مبنى لدار التعاونية يضمّ المطابع ومكاتب الشركات التابعة لها.

مترئساً مجلس التحرير.

المبنى الجديد لـ«النهار» في شارع الحمراء.

1962

في نقابة الصحافة مع النقيب رياض طه وآخرين للبحث في التصدّي لمشروع قانون مراقبة موارد الصحف واقتراح مشروع بديل، قرر بعده الرئيس فؤاد شهاب طيّ الموضوع.

1963

انشئت «النهار» شركة توصية مساهمة يديرها شريك مفوض هو غسان تويني. وقد انتقلت إلى شركة «النهار» من التعاونية الصحافية ملكية امتياز «النهار» والاسم التجاري.

وهكذا كلما تطور قسم في التعاونية انشئت له شركة يساهم فيها المعنيون بالقسم. فصارت هناك شركات للطباعة والتوزيع والاعلان والخدمات الصحافية، إلى شركات شقيقة مثل«الأوريان لوجور»، والشركة العامة للصحافة التي تصدرها، و«شركة المطبوعات المصورة»، و«دار النهار للنشر»...

وشيّدت التعاونية الصحافية مبنى عصرياً في شارع الحمراء انتقلت اليه «النهار» من سوق الطويلة وضمّ مكاتبها ومكاتب التعاونية الصحافية ومعظم شركات المجموعة، إلى جانب مطبعة أوفست روتاتيف، هي الاولى في المشرق العربي.

في مطابع «النهار» يوم استبدال «الروتاتيف» بالأوفست.

مقال ميشال ابو جوده في الذكرى الثلاثين لتأسيس «النهار».

دنيا من الأشياء

غسان تويني « النهار » تركة اورثها جبران تويني للبنان لا تزال تغل فهما وحسن تدبير للامور الخيرة والشريرة على السواء الى حد انها اصبحت مؤسسة لبنانية النجاح ، اي معرضة كل يوم اما للانهيار حجرا فوق حجر او للازدياد في التوسع الى ان تصبح دولة ضمن الدولة .

وغسان تويني « النهار » دنيا من الاشياء . عربي المنشأ كتائبي الصبا قومي الشباب لبناني الثلاثينيات ارثوذكسي الهوى الشرقي اميركي الهوى الغربي انكليزي الاهواء خوري الاعجاب بالشيخ الرئيس شمعوني المغامرة السياسية شهابي الامر الواقع ادي الامل بالمستقبل المجهول .

و « النهار » في الثلاثين مر عليها ، او مرت هي ، على خمسة رؤساء جمهورية ، خمسة عهود ، ولم تتزوج احدا . وها هو العميد يخطبها وهي عانس وفي ظنه انها ستتزوجه وفي ظنها انه سيبقى عانسا .

ذلك ان « نهار » غسان تويني « مستقلة » ـ وهي حالة اصبحت مستحيلة تقريبا الى حد ان « النهار » تبدو غير معقولة ، غير قانونية ، بربرية ، وسط عالم من الانحياز والتحيز والحزبية والتحزب والالتزام والملتزمين والعهود والمتعهدين .

ذلك ان « نهار » غسان تويني « هدامة » ـ وهي حالة اصبحت مستنكرة ـ منذ دخل السيد الهيكل وضرب باعة الحمام بالسوط ـ الى حد ان « النهار » تبدو كالعين التي تصر على مقاومة المخرز وسط عالم من البناة والبنائين والتعمير والمعمرين والاشادة والمشيدين .

ذلك ان « نهار » غسان تويني مع كل من هو ضد ضد كل من هو مع . والقابض عليها ، قانونا ، كالقابض منها ، تأييدا ، كالقابض معها ، خصومة . جميعهم كالقابض على الريح او القابض على الماء او القابض على النار .

ومحرر « النهار » عصفور بري في رف نظامي . وهي للمحرر امه وابوه وحموه وفوه وذو ماله .

ومحرر « النهار » دنيا من الاشياء .

وعدد « النهار » ، كل يوم ، دنيا من الاشياء .

ذلك ان العالم والناس والقراء دنيا من الاشياء .

ميشال ابو جوده

غسان تويني يشير إلى ماكيت «لوجور» وإلى جانبه بيار حلو، ميشال إده، بيار فرعون، روبير بولس وحبيب نحاس.

1964

اشترى غسان تويني ومجموعة من الشركاء امتياز جريدة «لوجور» وأعيد إصدارها.

ناديا تويني تتصفح العدد الأول من «لوجور» التي تولت فيها الصفحة الثقافية في مطابع «النهار» وبدا واقفاً خلفها جبران تويني. وفي الصورة منى كتانة جريج مديرة الادارة وأندريه بركوف محرر الأخبار الخارجية.

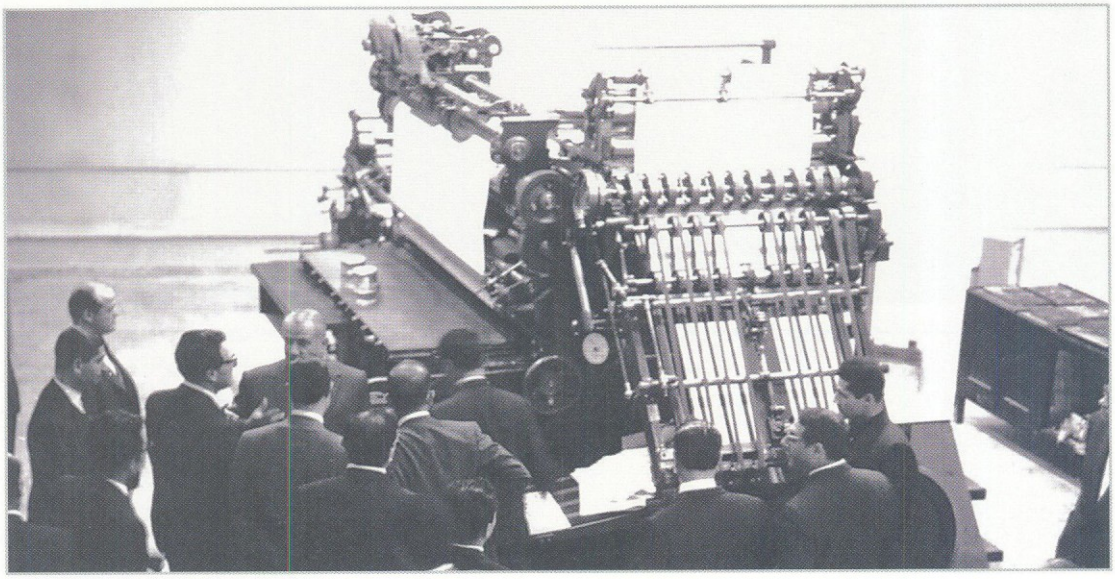

آلة الروتاتيف التي حلت مكانها الأوفست، ويبدو غسان تويني وإميل البستاني أحد كبار المساهمين في شركات «النهار» الذي مكنتها مساهمته من الانتقال إلى الأوفست.

1964

غسان تويني واللورد طومسون أمام آلة الطباعة الروتاتيف على الأوفست التي كانت قد اشترتها «النهار» حديثاً، وكانت احدى أوائل الصحف اليومية التي تنتقل إلى طباعة الأوفست.

مؤسسة الأبحاث والمعلومات: الثمار الأولى في آخر آب
جديد "النهار" يحقق ويبحث ويستفتي بمساعدة جامعيين ودماغين الكترونيين
من اليسار : اوسكار سعد ، رياض نجيب الريس ، الدكتور نفحة نصر ، الدكتور مروان اسكندر ، غسان تويني ، فرنسوا عقل ، الدكتور حليم بركات ، وليد سليمان .

الاعلان عن تأسيس مؤسسة الابحاث والمعلومات في «النهار».

1967

الرئيس شارل حلو يعيّن غسان تويني سفيراً لمهمة في الأمم المتحدة وأميركا.

غسان تويني في الأمم المتحدة ممثلاً للبنان.

1969

غسان تويني محاضراً في
جامعة القديس يوسف.

غسان تويني مترئساً لجنة تعديل المناهج التربوية.

1970

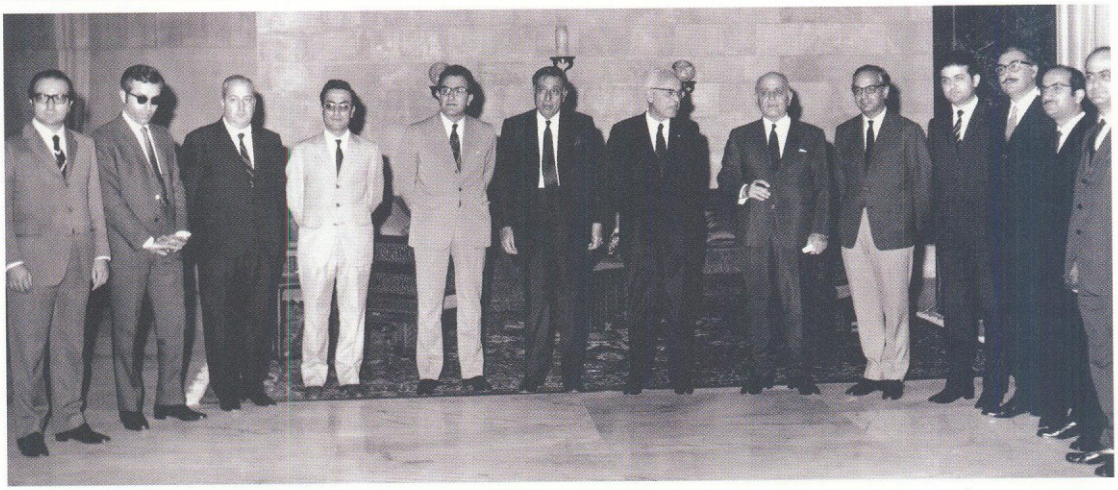

غسان تويني وزيراً للتربية الوطنية والإعلام في «حكومة الشباب».

«النهار» تشتري «الاوريان».
في 13 تشرين الأول/أكتوبر عيّن غسان تويني نائباً لرئيس مجلس الوزراء ووزيراً للتربية الوطنية والاعلام ثم استقال بعد 100 يوم.

الوزير غسان تويني يحاور طلاب مدرسة الصنائع المهنية وإلى يمينه مدير التعليم المهني والتقني جان عقل.

الوزير المستقيل
والعائد إلى الصحافة.

1970

كاريكاتور بيار صادق عن
مسلسل جلسات الثقة التي
جرى للمرة الأولى في
العالم نقلها مباشرة على
التلفزيون لعدة أيام. واطلق
على ذلك عبارة
«الديمقراطية المتلفزة».

غسان تويني في حديث
تلفزيوني مع الإعلامية ليلى
رستم في حديث مباشر جرى
على أثره منعها من
الاستمرار في برنامجها.

غسان تويني في مقابلة
تلفزيونية مع
الاعلامي عادل مالك.

تظاهرة طالبية احتجاجاً
على استقالة وزير التربية
غسان تويني.

الجائزة التي قدمتها منظمة اليونيسيف إلى غسان تويني.

1971

غسان تويني ممثلاً شخصياً لمدير «يونيسيف» وسفيراً في مهمة خاصة في الخليج، قبيل نهاية عام 1970، وتأليف الحكومة التي كان فيها وزيراً للتربية والإعلام.

اشترى غسان تويني جريدة «الأوريان» من صاحبها جورج نقاش الذي استمر في إدارة الجريدة حتى جرى فيما بعد دمجها بـ«لوجور». وقد صدر العدد الأول من «لوريان – لوجور» في 15 حزيران/يونيو 1971 بعد استقالة غسان من الحكومة.

غسان تويني وزيراً للتربية يتفقد ورئيس الجامعة اللبنانية الدكتور إدمون نعيم الأعمال في المبنى الجديد لكلية العلوم في الحدث.

مع جورج نقاش عند شراء «الأوريان» منه.

غسان تويني مع الرئيس كميل شمعون والعميد ريمون اده ورفاقه في لائحة عاليه فضل الله تلحوق، عصام العريضي، فؤاد السعد، واميل مكرزل.

1972

غسان تويني يترشح في عاليه ويفشل.

في احدى الجولات الانتخابية في عاليه.

طائرة تلقي صور المرشح غسان تويني في مناطق قرى عاليه.

المرشح غسان تويني
في جولات انتخابية.

1972

المرشح غسان تويني في عاليه.

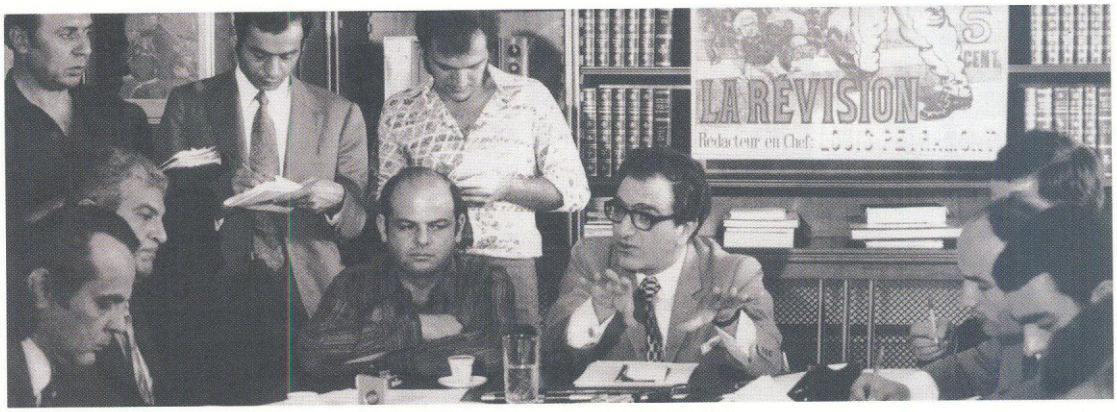

غسان تويني يعلن في مؤتمر صحافي ولادة حركة «الاتحاد الشعبي اللبناني» التي تتخطى الخلافات العقائدية والطائفية، ويبدو النقيب ملحم كرم فالزميلان وفيق الطيبي وإميل داغر.

في جولة انتخابية في المتن دعماً للدكتور ألبير مخيبر.

مع الرئيس
رشيد كرامي.

1975

حكومة ائتلافية برئاسة
رشيد كرامي يشترك فيها غسان
تويني ويعتصم تويني وكرامي
في السرايا احتجاجاً على
استمرار الحرب.

غسان تويني في حكومة
الرئيس رشيد كرامي
الائتلافية، يوم تلقي
التهنئة بنيل الثقة في
مجلس النواب.

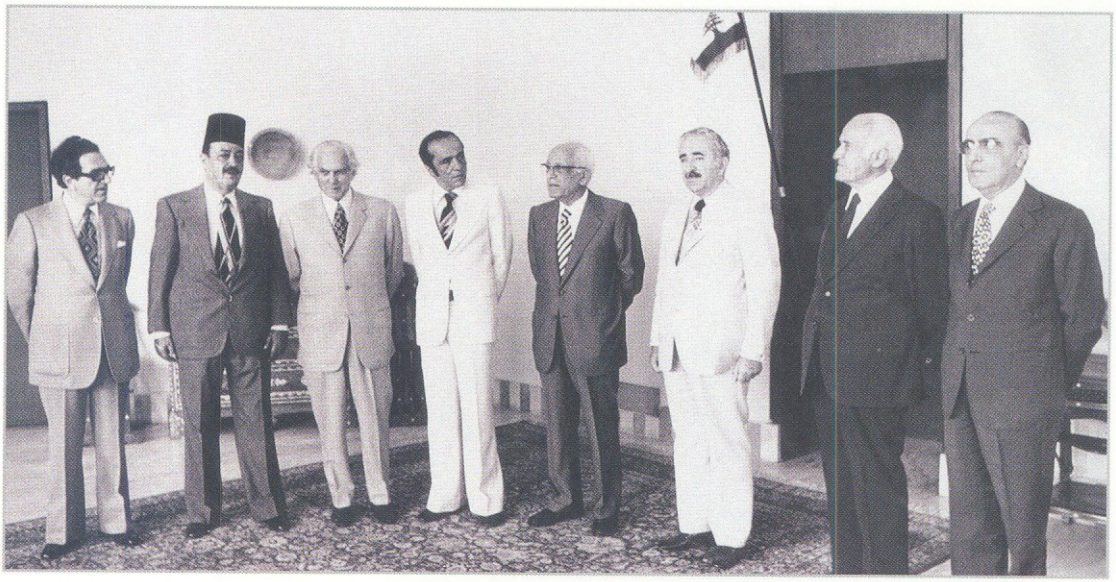

الصورة التذكارية للحكومة الائتلافية برئاسة الرئيس رشيد كرامي ويبدو رئيسا الجمهورية ومجلس النواب سليمان فرنجية وكامل الأسعد وأعضاء الحكومة الاستاذ فيليب تقلا، الرئيس عادل عسيران، الرئيس كميل شمعون والأمير مجيد أرسلان.

يوم اعتصام الإمام موسى الصدر
في الكلية العاملية احتجاجاً
على الحرب الاهلية، ويبدو
غسان تويني والشيخ محمد
مهدي شمس الدين.

الوزير غسان مع المحامي حسن مطر يتفقد منطقة المسلخ - الكرنتينا بعد انتهاء حربها، لدراسة إمكانية اعادة اعمارها.

1975

الوزير غسان تويني يزور بلدة الدامور مع رئيس بلديتها وبعض المسؤولين والصحافيين اثناء قيام الجيش اللبناني بإزالة الدمار وتأمين المساعدات للأهالي.

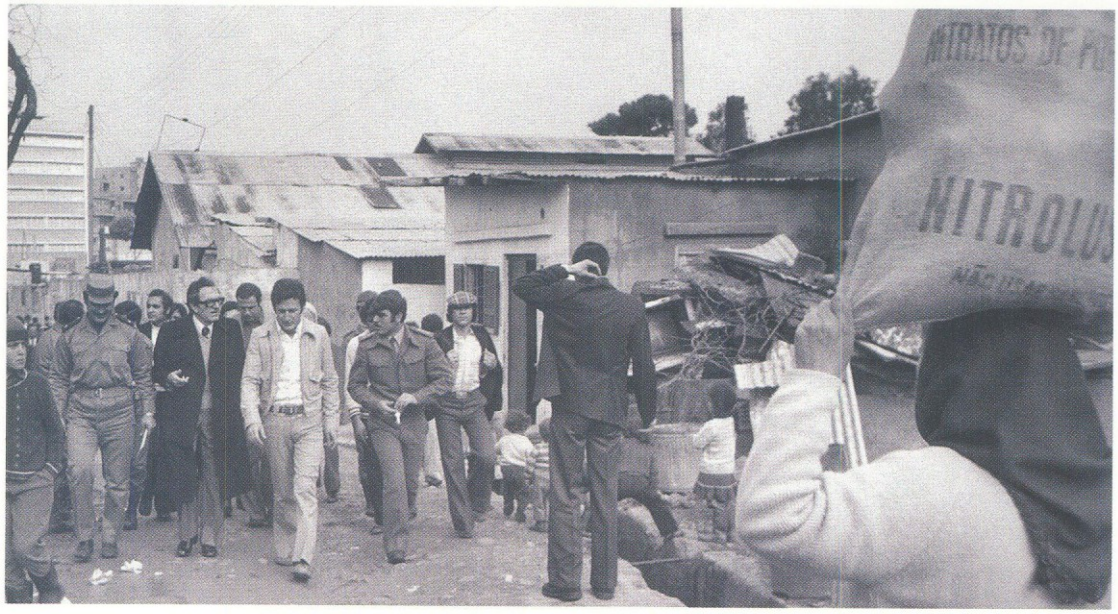

الوزير غسان تويني في جولة تفقدية لمخيم تل الزعتر بعد اخلائه.

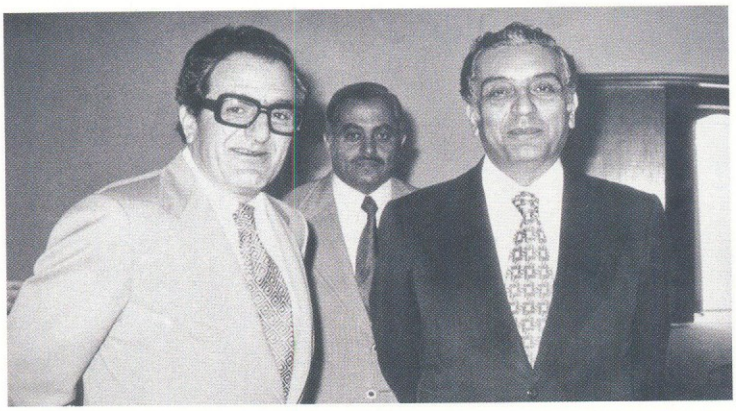

مع الرئيس
الياس سركيس.

1976

مع الأمين العام للأمم
المتحدة كورت فالدهايم
خلال تقديم أوراق اعتماده
في أيلول/سبتمبر 1978.

مع الوزير فؤاد بطرس
والسفير قباني في الجمعية
العمومية عام 1977.

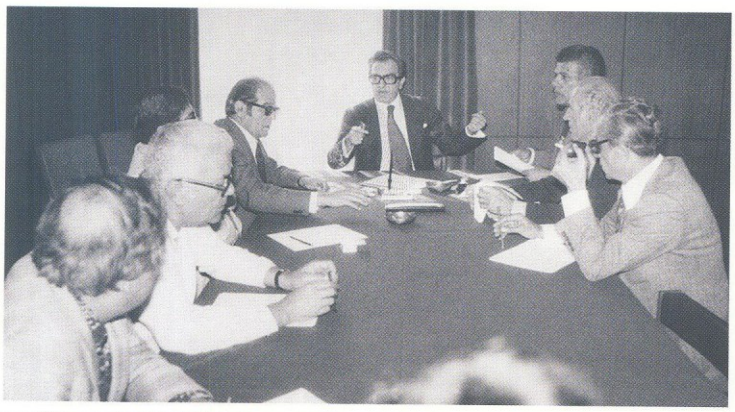

وزير العمل غسان تويني
مجتمعاً مع أركان
النقابات العمالية.

1976

وزير الصناعة والعمل غسان تويني مجتمعاً مع عدد من الصناعيين والنقابيين في زحلة خلال جولة تفقدية.

الوزير غسان تويني مغادراً السرايا الحكومية في بيروت حيث كان معتكفاً مع رئيس الوزراء رشيد كرامي احتجاجاً على الحرب.

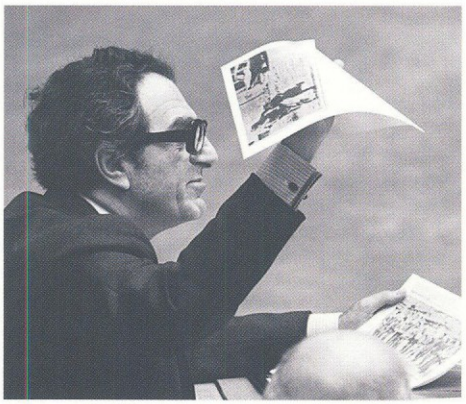

صورة نشرتها الصحافة العالمية لغسان تويني يعرض في مجلس الأمن مناظر الدمار الذي خلفته الغارات الإسرائيلية إثر الاجتياح الإسرائيلي عام 1978.

1982–1977

السفير غسان تويني يتحدث مع السفير الأميركي لدى الأمم المتحدة أندرو يونغ وسفير المانيا ومندوب منظمة التحرير زهدي الطرزي.

غادر غسان تويني بيروت (في 23 أيلول/سبتمبر) سفيراً للبنان في الأمم المتحدة. واستمر حتى عام 1982 نهاية عهد الرئيس الياس سركيس. وغلب فيه طبع الصحافي على الدبلوماسي. وقال ذات مرّة: «غالباً ما كانت دورات الجمعية العمومية للأمم المتحدة واجتماعات مجلس الأمن تحوّلني إلى «ريبورتر» فأكتب تحقيقاً صحافياً»، فيما هو كان يرسل تقارير دبلوماسية يفترض أن تكون لها لغة خاصة.

وأبرز القرارات التي عمل لها من أجل لبنان القراران 508 و509 حول الاجتياح الاسرائيلي للجنوب عام 1978، ثم القرارات التالية وصولاً إلى القرار 520، إلى مشروع قرار لم يصدر باعلان بيروت مدينة مفتوحة قبل أن يدخلها الجيش الاسرائيلي عام 1982.

ولعل أشهر القرارات التي ارتبط اسمه بها هو القرار 425 الذي يقول عنه انه «تحوّل العمود الفقري لسياستنا الخارجية وأعطى القضية اللبنانية بُعداً دولياً».

وزير الخارجية الأميركي سايروس فانس مستقبلاً السفير غسان تويني (1978).

1982–1977

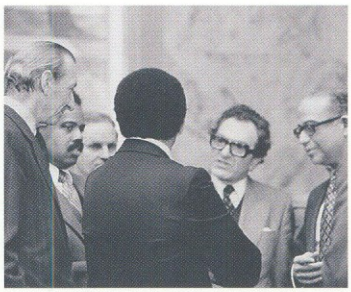

مع الأمين العام للأمم المتحدة كورت فالدهايم والمندوب الأميركي لدى الأمم المتحدة السفير اندرو يونغ.

السفير الإسرائيلي لدى الأمم المتحدة حاييم هرتزوغ الذي أصبح بعد ذلك رئيساً لدولة إسرائيل يراقب نظيره اللبناني غسان تويني لدى إلقائه خطاباً في مجلس الأمن وإلى يمينه مندوب منظمة التحرير الفلسطينية زهدي الطرزي.

غسان تويني في جلسة لمجلس الأمن.

محررو «النهار» ليلة الاجتياح ينامون في المطابع بين لفات الورق ويبدو مدير التحرير فرنسوا عقل.

محررو «النهار» يتحلقون حول مدير التحرير فرنسوا عقل والمدير المسؤول جوزيف نصر في قاعة التحرير المؤقتة في المطابع بسبب احتلال مكاتب «النهار»..

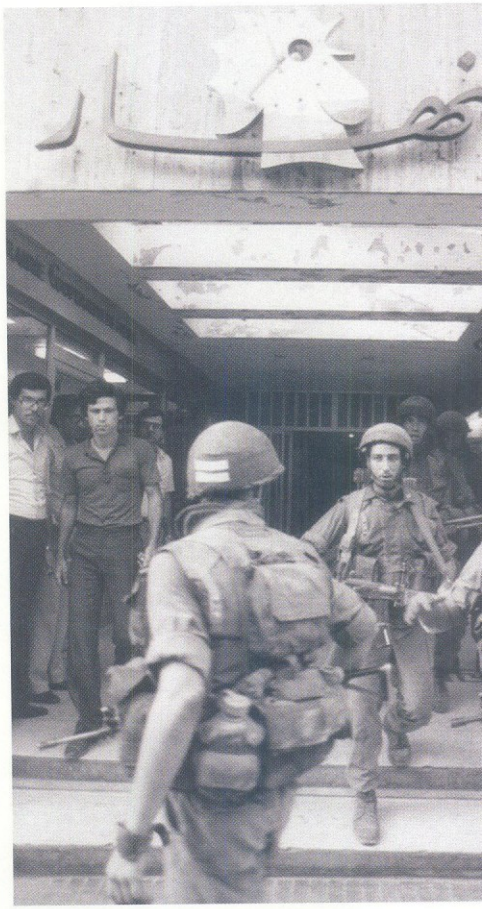

الجيش الإسرائيلي بعد اجتياحه بيروت (1982) امام مبنى جريدة «النهار» في الحمراء.

1982–1977

آثار القصف الإسرائيلي لمبنى «النهار» في شارع الحمراء.

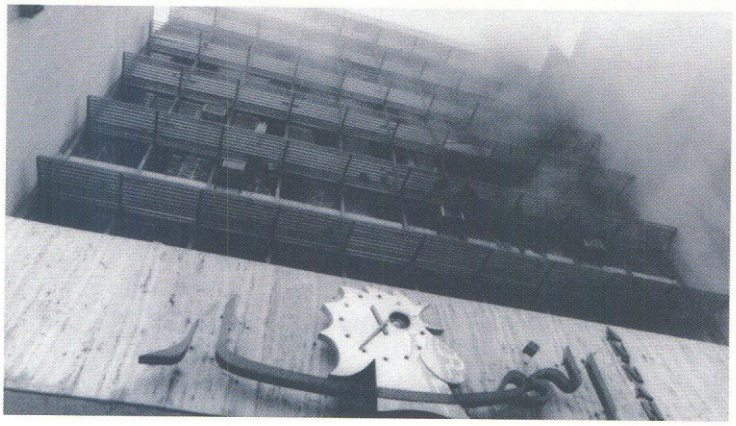

اجتياح 1982.

1984–1983

غسان تويني مستشاراً للسياسة الخارجية للرئيس الشيخ امين الجميل.

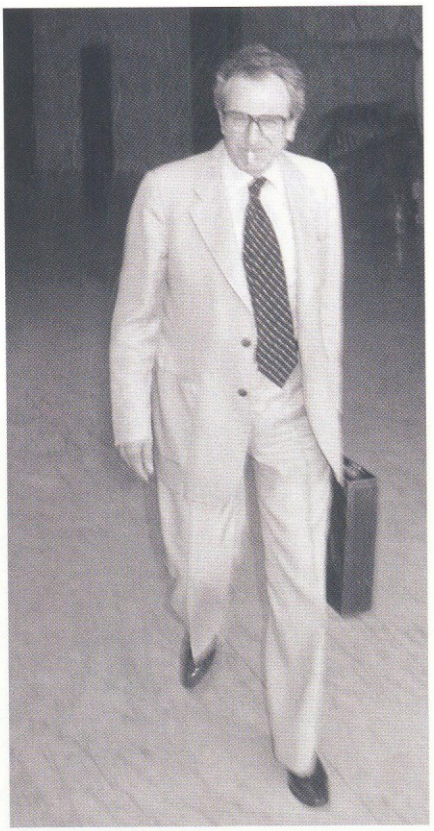

غسان تويني مستشاراً للرئيس أمين الجميل في قصر بعبدا (1983).

غلاف كتاب غسان تويني «اتركوا شعبي يعيش».

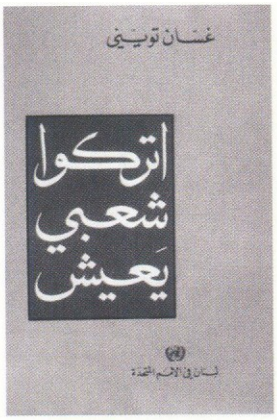

يترأس هيئة الارتباط العليا في القصر الجمهوري في بعبدا.

1988

غسان تويني رئيساً لجامعة البلمند التي شارك في تأسيسها (1988) ويبدو البطريرك أغناطيوس الرابع هزيم والمطران الياس عودة والدكتور ايلي سالم.

جوائز
جمعية مصطفى أمين وعلى أمين للصحافة
مسابقة ١٩٨٨
شهادة تقدير
تقرر منح الأستاذ غسان تويني
جائزة مصطفى أمين وعلى أمين للصحافة عن دوره الكبير في الصحافة العربية

غسان تويني ينال جائزة جمعية مصطفى وعلي أمين للصحافة.

مع الرئيس
صائب سلام.

1993

ИМПЕРАТОРСКОЕ
ПРАВОСЛАВНОЕ ПАЛЕСТИНСКОЕ
ОБЩЕСТВО

IMPERIAL ORTHODOX PALESTINE SOCIETY

N 5

ДИПЛОМ

Настоящим удостоверяется, что гражданин Ливанской Республики
Его Превосходительство Гасан Туэйни,
ректор православного Университета Баламанд,
редактор бейрутской газеты "ан-Нахар" (Ливан),
является членом Комитета почетных членов
Императорского Православного Палестинского Общества

Основание: решение Учредительной
конференции ИППО от 9 декабря 1992 г.
об избрании Почетных членов.

ПРЕДСЕДАТЕЛЬ ИМПЕРАТОРСКОГО
ПРАВОСЛАВНОГО ПАЛЕСТИНСКОГО
ОБЩЕСТВА — проф. О. ПЕРЕСЫПКИН

УЧЕНЫЙ СЕКРЕТАРЬ — В. САВУШКИН

"3" июня 1993 г.

121019, Moscow, Volkhonka Str. 14, Tel. 203-9398, Fax (095) 244-1878

غسان تويني عضو
شرف في الجمعية
الامبراطورية الروسية
الأرثوذكسية.

1994

مع نجله جبران تويني في اليوم الثاني من مؤتمر إدارة الصحف في العالم العربي.

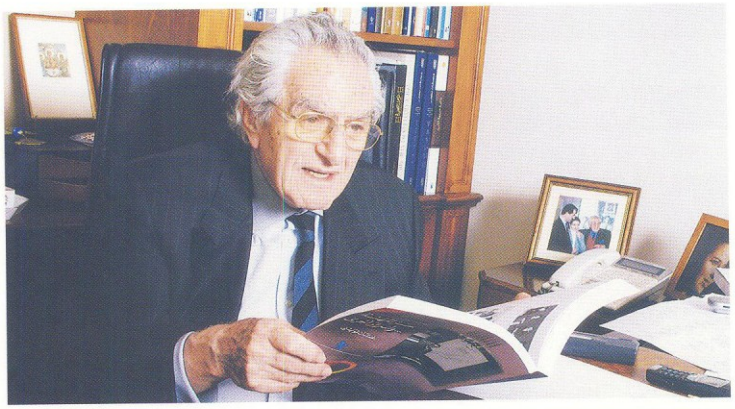

يتصفح كتابه «سر المهنة وأسرار أخرى»

1996

... ويوقعه.

حاملاً شهادة عضو شرف في نادي خريجي جامعة هارفارد للأعمال في بيروت ويبدو رئيس النادي حبيب الزغبي.

1998

محاضراً في الاسكوا.

موقّعاً «كتاب الاستقلال» للرئيس نبيه بري.

1999

مع الرئيس سليم الحص في جناح دار «النهار» يتصفحان كتاب «لبنان: القرن في صور 1900-1999».

غسان تويني مع
وزير الثقافة
غسان سلامه.

2001

من المؤتمر الصحافي الذي عقدته المؤسسة الوطنية للتراث واعلنت فيه عن اطلاق «اليوم الوطني للتراث» ويبدو في الصورة غسان تويني، وزير الثقافة غسان سلامه، السيدة منى الياس الهراوي، الوزير السابق ميشال إده، الوزير مروان حماده، ونقيب الصحافة محمد البعلبكي.

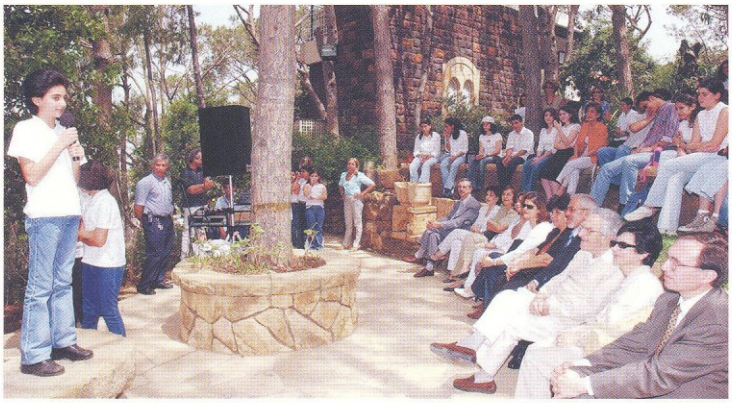

في باحة «بيت الشاعرة» ناديا تويني في رأس كفرا مع طلاب زهرة الإحسان.

2002

محاضراً في معهد غوته.

2002

مع الرئيس رفيق الحريري ووزير الثقافة غسان سلامه في معرض الكتاب العربي في بيروت في جناح «دار النهار».

موقّعاً في المعرض.

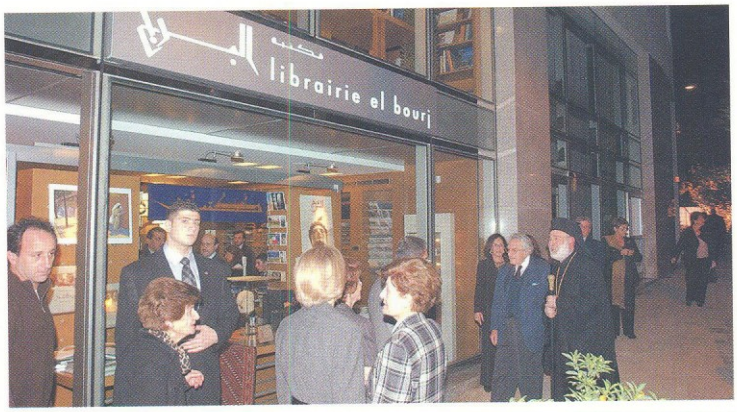

مع المطران الياس عوده أمام مكتبة «البرج» في وسط بيروت.

2003

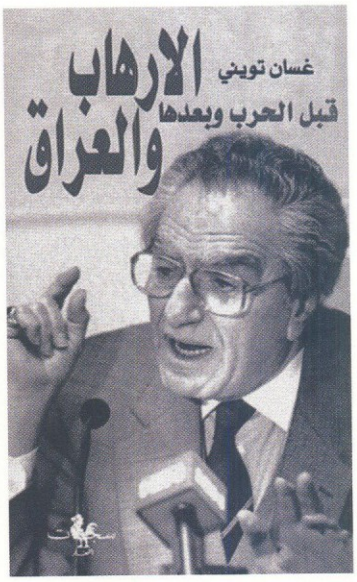

على غلاف كتاب «الإرهاب والعراق».

في مكتبه في رأس كفرا.

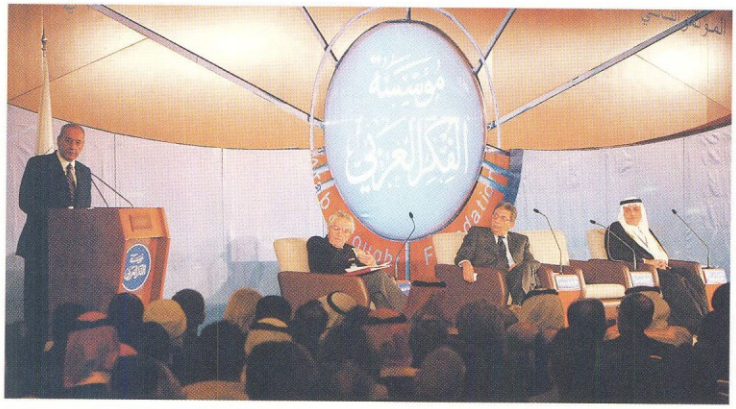

في افتتاح اعمال مؤتمر مؤسسة الفكر العربي ويبدو الرئيس نبيه بري خطيباً والامير خالد الفيصل والأمين العام لجامعة الدول العربية عمرو موسى.

2003

مع جبران تويني وأسرة «النهار» في احتفال إطلاق مشاريع في الذكرى السبعين لتأسيس الجريدة.

2004

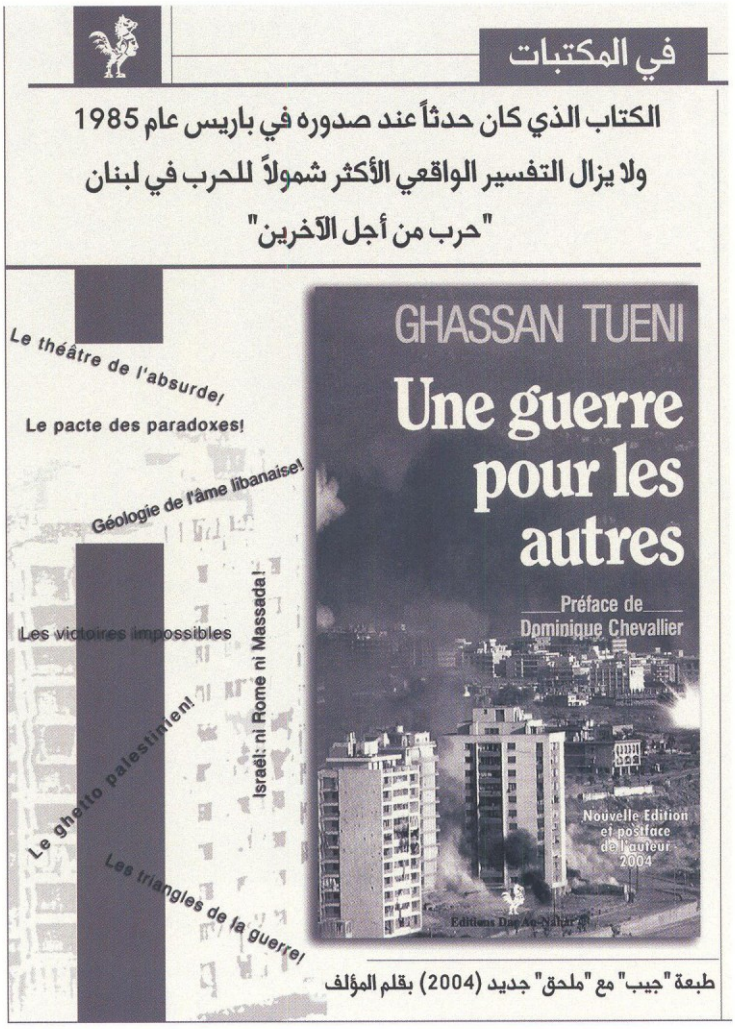

غلاف كتاب «حرب من أجل الآخرين».

رئيس الوزراء الفرنسي دومينيك دو فيلبان يقلّد غسان تويني وسام جوقة الشرف الفرنسي في احتفال في قصر ماتينيون في باريس.

2005

مع جبران تويني ومروان حماده ونقيب الصحافة محمد بعلبكي ونايلة تويني في تظاهرة احتجاج على اغتيال الصحافي سمير قصير.

غسان تويني نائباً عن بيروت اثر استشهاد نجله المدير العام لـ«النهار» جبران تويني في 12 كانون الأول/ديسمبر 2005، ثم حلوله مكانه في شركة «النهار».

في احتفال الجامعة الاميركية في بيروت احتفاء بمنحه دكتوراه فخرية متوسطاً السيدة فيروز والعالم المصري احمد زويل.

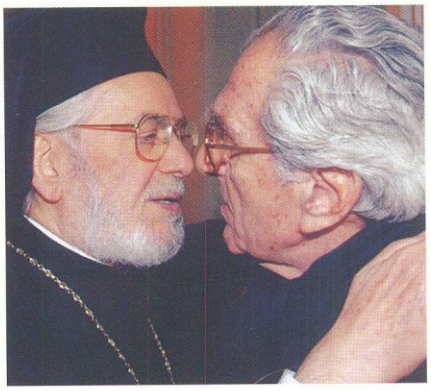

غسان تويني والبطريرك أغناطيوس الرابع هزيم.

مع العلامة السيد محمد حسين فضل الله.

في مقعد النائب جبران تويني في مجلس النواب وتبدو النائب صولانج بشير الجميل.

2006

مشاركاً في طاولة الحوار الوطني.

غسان تويني خطيباً.

مع قادة قوى 14 آذار/مارس ويبدو وقوفاً إلى جانبه الرئيس أمين الجميل وجلوساً دوري شمعون، سمير جعجع، سعد الحريري، نايلة معوض، وليد جنبلاط وكارلوس إده.

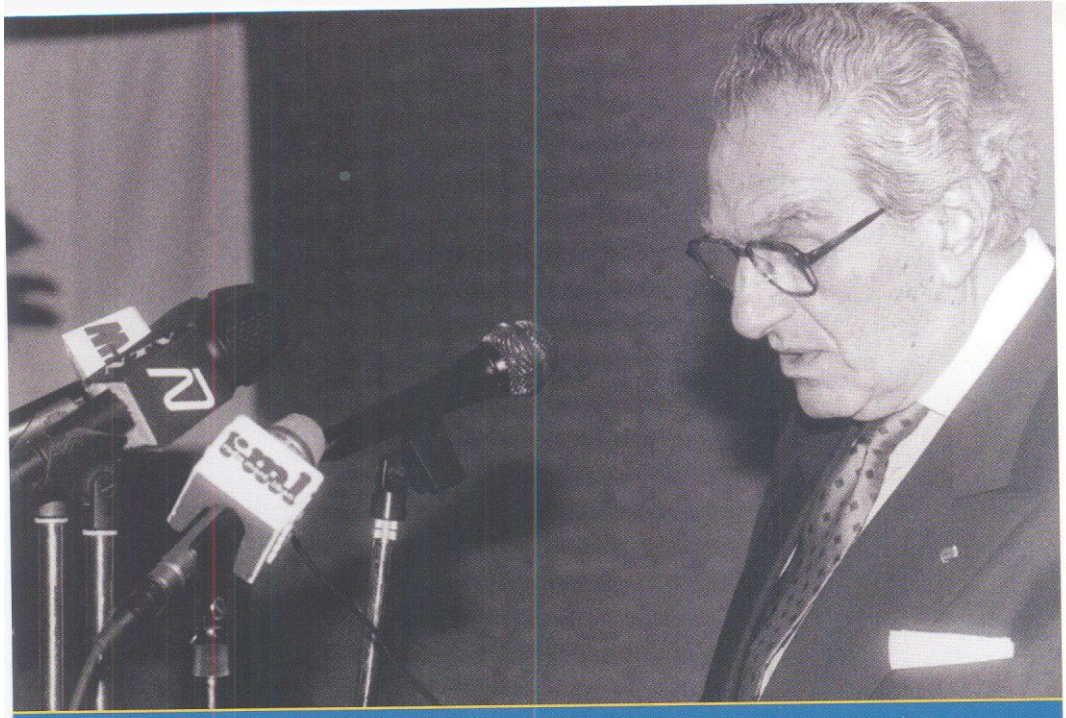

رجـل الحرّيـات

1948

لم تكن مضت على غسان تويني في رئاسة تحرير «النهار» سوى اسابيع حتى كان «أول طلوعو شمعة عا طولو» كما يقول المثل اللبناني. وهو يقول في ذلك: «ورثت مع رئاسة التحرير عندما توليتها جوّاً صحافياً مشحوناً ضدّ ما صرنا نسميه «العهد» والحكومة بسبب انتخابات 25 أيار/مايو 1947 التي زورت الارادة الشعبية وألغت المعارضة، فانتقلت هذه إلى الصحافة. غير اني لم التحق بالركب بل فتحت جبهتي الخاصة ضدّ الرئيس رياض الصلح حول موقف لبنان من القضية الفلسطينية، ربما بتأثير مما كنت أحمل من الأمم المتحدة».

وكانت الملاحقة الأولى لغسان تويني في شباط/فبراير بعد نشر «النهار» خبراً عن الهدنة بين لبنان واسرائيل انطلاقاً من نشرة معلومات من الأمم المتحدة فيها صورة لضباط لبنانيين واسرائيليين يتفاوضون، وسيارة ركبوا فيها معاً. وكان الرئيس رياض الصلح قد دأب على نفي وجود أي مفاوضات هدنة بين بيروت وتل ابيب.

وما ان ظهرت الصورة في «النهار» حتى لوحق غسان تويني وتوارى عن الأنظار لاجئاً إلى مطرانية الروم الارثوذكس في حمى عرابه المطران ايليا الصليبي. وكان يستقبل في المطرانية النواب والوزراء والأصدقاء. بينما كانت الشرطة تتجاهل ذلك وتقوم بأعمال دهم لمنزله لاعتقاله، فلا تجده فترعب والدته واشقاءه.

...إلى ان صدر بلاغ رسمي يعلن توقيع اتفاق الهدنة مع اسرائيل، فاعتبرت الدعوى ساقطة حتماً وخرج غسان تويني من ملجئه عائداً إلى مكتبه في الجريدة.

غسان تويني في سجن الرمل (تموز/يوليو 1949).

1949

لوحق غسان تويني ثانية بعد خمسة أشهر على الملاحقة الأولى إثر محاكمة زعيم الحزب السوري القومي الاجتماعي انطون سعاده بسبب قيامه بمحاولة انقلاب فاشلة ثم إعدامه في أقلّ من 24 ساعة، الأمر الذي اعتبره غسان تويني اغتيالاً كما اعتبر انطون سعاده شهيداً، فكتب في 9 تموز/يوليو مقالاً بعنوان «سعاده، المجرم الشهيد». فحضرت الشرطة العسكرية إلى منزله فور صدور «النهار» واعتقلته وساقته إلى نظارة المحكمة العسكرية. وحوكم في 13 تموز/يوليو موقوفاً امام المحكمة العسكرية اياها التي حاكمت سعاده، وأرسل إلى السجن حيث أمضى شهرين ثم عشرين يوماً في المستشفى.

ورفض توقيع طلب العفو عنه إلى أن أطلقه وزير الدفاع الوطني آنذاك الأمير مجيد ارسلان بعدما اكتشف ان لديه صلاحية وقف تنفيذ العقوبة. ولم تدم حريته أكثر من 10 ايام، إذ سرعان ما أعيد إلى السجن الذي أدخل اليه آلة تصوير التقط بها مجموعة من مشاهد للسجناء وحياة السجن التعيسة. وأمضى هناك ستة اشهر.

أمام المحكمة العسكرية.

زاوية من القاووش الذي حلّ فيه رئيس تحرير «النهار» ضيفاً لبضعة أيام، وقد تجلت ديمقراطية السجناء بحرية وإخاء.

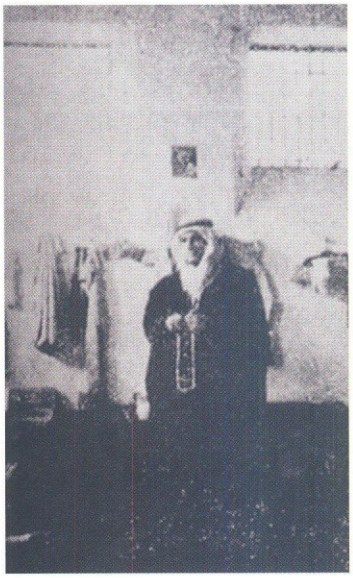

رئيس تحرير «النهار» في وقفة رسمية بالكوفية والعقال وقد بدت الثياب معلقة على جدران القاووش على الحبال التي تصلح ان تكون خزائن ولا تصلح لأن تكون مشانق.

غسان ووليد تويني أمام المحكمة.

النهار
الثلاثاء ٢٨ شباط سنة ١٩٥٠ — السنة ١٧ — العدد ٤٤٣٩
١٥ قرشاً لبنانياً
المسز اتلي يعرض على الملك لائحة وزارته الجديدة
لم يكن في مقالي « النهار » اي مساس بالمحكمة العسكرية، وبالتالي، بالجيش
المحكمة العسكرية تقضي بتبرئة غسان تويني
... ويهتف الناس : « ليحي العدل ليحي الجيش ! »
ملاح لبكي : اثبتوا لغسان انه لم يخطىء بحسن ظنه ببلاده
غسان تويني : الجيش ملك الشعب ، وامل الشباب
عادل شهاب ، ايها الجندي

براءة غسان تويني.

1950

وفي تتمة لقضية سعاده، نشر غسان تويني في 27 شباط/فبراير 1950 مقالاً بعنوان «الجراح التي لم تندمل» رافق تصريحاً لعصام المحايري أحد زعماء الحزب السوري القومي صدر في دمشق حول استمرار ملاحقة القوميين في لبنان رغم أن احكام الاعدام كانت نفّذت في حقّ ستة منهم متهمين في «الثورة القومية»، حوكموا بعد اعدام سعاده. ووجهت إلى غسان تويني هذه المرة تهمة المس بالجيش. ووضعت هذه الدعوى في إطار المعركة ضدّ العهد، وخصوصاً ضدّ رئيس الجمهورية الشيخ بشارة الخوري.

وجرت تبرئة غسان تويني لاحقاً من هذه التهمة.

وبعد 4 أشهر نشرت «النهار» في 28 حزيران/يونيو خطاباً عنيفاً لنائب المعارضة كميل شمعون ألقاه في بدادون، قضاء عاليه، وجاء فيه: «أي احترام لمن ائتمنوا على وظيفة أو منصب لخدمة الشعب، فبدّدوا الأمانة استجلاباً للأنصار، وما الأنصار الا لحفظ المناصب، وما المناصب الا للطمع (...) وما الطمع الا لإشباع جشعهم وبئس الرذيلة (...) واي احترام لمن تقربوا من كل مرتكب، من القاتل إلى السارق، إلى المتجر بالحشيش؟».

وتحرك مجلس الوزراء وقرر إحالة «النهار» على المحاكمة بتهمة القدح والذمّ والتحقير لرئيس الجمهورية ورئيس الوزراء.

المعلومات بين مصر وسويسرا تختار رمزاً شريفة

اذاع راديو القاهرة ان العلاقات تأزمت بين مصر وسويسرا بسبب الحفلة التي اقامتها لجنة سويسرا على مصر وقد استدعى وزير الخارجية وزير سويسرا المفوض للاجتماع به سباح عند الثامنة وقال الراديو ان هذا الازمة اخرج ازمة عنيفة في تاريخ العلاقات بين الدولتين وان يتردد وزير الخارجية في اتخاذ اشد التدابير

النهار

الثلاثاء ٢١ شباط سنة ١٩٥٠ السنة ١٧ — العدد ٤٤٣٣

عن المنسية ١٥ قرشاً لبنانياً

مؤسسها: جبران تويني ● رئيس تحريرها الأستاذ غسان تويني

الاشتراك في لبنان: ٢٥ ليرة في الخارج: ٥٠ ليرة لاسترليني

مراسلات الجريدة - بيروت ص. ب: ٢٢٦ - تلفون: ٦١-٢١

قطع المعلومات الدبلوماسية بين اسبرطا وبلغاريا

تتوقع الاوساط المطلعة ان يعلن المستر اتليسون في اجتماعه الصحفي يوم الاربعاء قطع العلاقات الدبلوماسية بين اسبركا وبلغاريا الا ان نظارة الخارجية سند كر بلغاريا عداً بلد كر ثاني وجهتها اليها منذ شهر والتي هددتها فيها بقطع العلاقات اذا لم تعدل صوفيا عن طلبها بسحب سفير اسبركا .

الجراح التي لم تندمل !...

ظن الناس، بعد تلك المأساة التي اودت بحياة سبعة اشخاص وخربت بيوت العشرات، ان الفتنة الحزب السوري القومي قد انتهت ولكن احداً لم يدنك في ان الحزب نفسه، كعقيدة، وكاشخاص تربط بينهم تلك العقيدة، لم يمت. فالفرق عظيم بين الحزب وبين «القضية» التي اهتزت لها الدولة ووكل الى المحكمة العسكرية امر تصفيتها. أما تملن الحكومة ان زعيم الحزب السوري القومي واعضاءه قد احيلوا الى المجلس كما انه لا يجرد تأليفهم حزباً جديداً لانهم ثاروا على الدولة ؟ اما انهم كانوا قد ثاروا قبل احالة قضيتهم للقضاء، او تدروا امر الثورة قبل اتهام «القضية»، فمسألة لم يفصل بها بعد، ولكن الراهن الا كيد هو ان الحكومة قد تمكنت من القاء القبض على جرم من يشتد الثورة بل ثورة على الدولة.

واذا كان من الانصاف ان نعترف للدولة بتعقلها استقلال القوة عند من يشتد القوة تقليداً، فان المنطق والحرص على التفكير السليم يفرضان علينا ان نتساءل عن الموقف الذي يتخذه هذا اعضاء الحزب السوري القومي اليوم ازاء مرحلي الدولة... ترى هل تهزل الدولة عندما تقول ان هذه القصة من الثبات، الذين انهكهم تعباً لم يعرف شبابنا لها مثيلاً من قبل، والذين تعلموا ان «العين التي تقاوم المخرز تفقأ»، او تكاد - ان هؤلاء الثبات يأمرون لقلب الدولة ؟...

«في القضية شؤون اخطر بكثير مما تتصورون !»

هذا هو المعقل الوحيد الذي يبدو من جانب السلطات، حيناً لو تدرك السلطات ذوق الشعب لمعرفة هذه الشؤون التي تفوق خطورة «ما يتصورون» ! وحينما لو تدرك السلطات ان الشعب لن يتخدع «بالشؤون الخطيرة» التي تحاك في الخفاء، فاذا باخرم يتلبس به افراد ما كان ليخطر على بالهم الخرم.

في كلمة مخلصة توجه بها الى المسؤولين الذين ينتظم امن المسؤولية تعاهدنا الشعب، فاقد يعفو بتقدير كم وهذا الشعب الذي تألم مأساة انطون سعاده ورفقائه لا يتحمل مأساة اخرى، بل قد لا يكون مستعداً للسكوت عن مأساة اخرى، وجراح بيوت العشرات، ان فتنة الحزب السوري القومي قد اتهت، ولكن احداً لم يدنك في ان الحزب نفسه، كعقيدة، وكاشخاص تربط بينهم تلك العقيدة، لم يمت. فالفرق عظيم بين الحزب وبين «القضية» التي اهتزت لها الدولة ووكل الى المحكمة العسكرية امر تصفيتها. أما تملن الحكومة ان زعيم الحزب السوري القومي واعضاءه قد احيلوا الى المجلس كما انه لا يجرد تأليفهم حزباً جديداً لانهم ثاروا على الدولة ؟ اما انهم كانوا قد ثاروا قبل احالة قضيتهم للقضاء، او تدروا امر الثورة قبل اتهام «القضية»، فمسألة لم يفصل بها بعد، ولكن الراهن الا كيد هو ان الحكومة قد تمكنت من القاء القبض على جرم من يشتد الثورة بل ثورة على الدولة.

واذا كان من الانصاف ان نعترف للدولة بتعقلها استقلال القوة عند من يشتد القوة تقليداً، فان المنطق والحرص على التفكير السليم يفرضان علينا ان نتساءل عن الموقف الذي يتخذه اعضاء الحزب السوري القومي اليوم ازاء مرحلي الدولة... ترى هل تهزل الدولة عندما تقول ان هذه القصة من الثبات، الذين انهكهم تعباً لم يعرف شبابنا لها مثيلاً من قبل، والذين تعلموا ان «العين التي تقاوم المخرز تفقأ»، او تكاد - ان هؤلاء الثبات يأمرون لقلب الدولة ؟...

«في القضية شؤون اخطر بكثير مما تتصورون !»

هذا هو المعقل الوحيد الذي يبدو من جانب السلطات، حيناً لو تدرك السلطات ذوق الشعب لمعرفة هذه الشؤون التي تفوق خطورة «ما يتصورون» ! وحينما لو تدرك السلطات ان الشعب لن يتخدع «بالشؤون الخطيرة» التي تحاك في الخفاء، فاذا بأجرم يتلبس به افراد ما كان ليخطر على بالهم الجرم.

في كلمة مخلصة توجه بها الى المسؤولين الذين ينتظم امن المسؤولية تعاهدنا الشعب، فاقد يعفو بتقدير كم وهذا الشعب الذي تألم مأساة انطون سعاده ورفقائه لا يتحمل مأساة اخرى، بل قد لا يكون مستعداً للسكوت عن مأساة اخرى، وجراح بيوت العشرات، ان فتنة الحزب السوري القومي قد اتهت، ولكن احداً لم يدنك في ان الحزب نفسه، كعقيدة، وكاشخاص تربط بينهم تلك العقيدة، لم يمت. فالفرق عظيم بين الحزب وبين «القضية» التي اهتزت لها الدولة ووكل الى المحكمة العسكرية امر تصفيتها. أما تملن الحكومة ان زعيم الحزب السوري القومي واعضاءه قد احيلوا الى المجلس كما انه لا يجرد تأليفهم حزباً جديداً لانهم ثاروا على الدولة ؟ اما انهم كانوا قد ثاروا قبل احالة قضيتهم للقضاء، او تدروا امر الثورة قبل اتهام «القضية»، فمسألة لم يفصل بها بعد، ولكن الراهن الا كيد هو ان الحكومة قد تمكنت من القاء القبض على جرم من يشتد الثورة بل ثورة على الدولة.

واذا كان من الانصاف ان نعترف للدولة بتعقلها استقلال القوة عند من يشتد القوة تقليداً، فان المنطق والحرص على التفكير السليم يفرضان علينا ان نتساءل عن الموقف الذي يتخذه اعضاء الحزب السوري القومي اليوم ازاء مرحلي الدولة... ترى هل تهزل الدولة عندما تقول ان هذه القصة من الثبات، الذين انهكهم تعباً لم يعرف شبابنا لها مثيلاً من قبل، والذين تعلموا ان «العين التي تقاوم المخرز تفقأ»، او تكاد - ان هؤلاء الثبات يأمرون لقلب الدولة ؟...

اتفاق مبدئي سوري مصري
حول الشؤون الاقتصادية والسياسية والعسكرية

التحاس باشا والى يمينه السيد الدواليبي وزير الاقتصاد السوري والى يساره محمد صلاح الدين بك وزير الخارجية المصرية

دمشق ٢٠ — وكالة انباء الشرق قبل ظهر اليوم وصل الى مطار المزة وزير الاقتصاد الوطني الدكتور معروف الدواليبي، وكان في استقباله رئيس الوزراء وكبار موظفي الحكومة، وعلى الاثر عقد اجتماع دام ساعة ونصف الساعة اوضح فيه الوزير المذكور نتائج المباحثات التي دارت بينه وبين السلطات المصرية، ثم قصد الوزير الى دار الرئاسة حيث اجتمع الى رئيس الدولة وفي الساء اقيل الوزير ببيان مفصل عن نتائج رحلته في اجتماع مجلس الوزراء.

بدوع مشترك

وكان قد أذيع مساء الاحد البلاغ المشترك السوري — المصري التالي:

«تدبت الحكومة السورية حضرة صاحب المعالي السيد معروف الدواليبي وزير الاقتصاد الوطني لزيارة الحكومة المصرية وتبادلها واجراء محادثات معها ترمي الى مصلحة العرب عامة ومصلحة القطرين الشقيقين بصورة خاصة، وقد جرت هذه المحادثات بروح الاخلاص والصداقة والصراحة.

وكان من دواعي السرور والاطمئنان للغيرتين انهما سجلا اتفاق وجهات النظر بين الحكومتين في المسائل التي تناولها البحث.

ولم يقتصر امر هذه المحادثات على النواحي النظرية ولكنه تناول ايضاً النواحي العملية ومحاسة في ميداني الاقتصاد والتعاون السياسي وقد اتفق الفريقان على ان توفد الحكومة السورية الى مصر في اقرب وقت بعثة تجارية لمفاوضة المختصين من موظفي الحكومة المصرية في عقد معاهدة تجارية بين البلدين كما اتفقتا على ان تكون فاتحة مفاوضاتها السياسي بتبادل الملحقين العسكريين واستقدام بعثة عسكرية مصرية لتدريب الجيش السوري».

بين دمشق ورحمان

صرح السيد خالد العظم انه ابلغ امس وزير الاردن المفوض السيد فرحان التبيلات رغبة الحكومة السورية في عقد اتفاقية تجارية بين الدولتين كما ان الوزير الاردني ابلغه ان لا صحة للانباء القائلة ان الاردن يقوم بمفاوضات مباشرة مع اليهود

وتم تلقي الحكومة السورية بعد رد العراق على عرضها القاضي بعقد اتفاقية تجارية بين الدولتين.

الاردن واسرائيل لا تزالان تفاوضان
مشروع التدويل

جنيف ٢٠ — خاص — عندما استأنف مجلس الوصاية مناقشة قضية القدس اعطى الكلام لممثل المملكة الاردنية الذي الق اصغر خطبة في تاريخ الامم المتحدة هي عبارة عن جملة واحدة اكد فيها ان موقف حكومته لم يتبدل من هذه المسألة فهي لا تزال تعارض التدويل.

وهنا لاحظ المسيو غارو رئيس المجلس ان ممثلي الاردن واسرائيل لم يدعيا لبدئها بوجهة نظرهما في التدويل وهو امر ثبت به اهمية الموضوع بل ابهما المجلس مبلغ استعدادهما لمباشرته في تطبيق قرار الامم المتحدة ثم تكلم مندوب اسرائيل فعارض تدويل القدس ورر معارضته ببيان مسهب قال فيه ان المشروع المطروح على المجلس تجاوزته الحوادث وان الامم المتحدة تهربت في الوقت الذي كانت تستطيع ان تعمل فيه بحدوى، ولن يسعها الرجوع الى الوراء والادعاء بتجزئة اسرائيل التي اصبحت حقيقة واقعة، والقدس ليست في حالة تبرر وضعها تحت الوصاية ولا يتتج عن مشروع نظامها غير تقويض الامن الموطد في القدس والاتفاق بين اسرائيل والاردن، الا ان الحكومة اليهودية لم ان تأخذ على عاتقها حماية الاماكن المقدسة بالقات، لكنها تتعهد بهذه الحماية دون ان يتبدل النظام السياسي القائم.

وقد أثار مندوب اسرائيل اعتراض المندوبين العرب فهب السيد فاضل الجلالي واخذ يتحدث عن قرار تقسيم فلسطين الاصلي وتشريد ابناء فلسطين وكيف ان العرب رضوا بالتدويل كاهون الشرين وتكلم المعنى نفسه السيد احمد الشقيري مندوب سوريا ثم تأجلت الجلسة الى بعد ظهر غد الثلاثاء

اليوم يصدر الحكم على المواطن الاميركي وشركائه
المتهمون يؤكدون انهم اعترفوا بحرية وصراحة..

بودابست ٢٠ — خاص — استؤنفت اليوم محاكمة المواطن الاميركي بول هادرونر كاله المتهوم بريطانيون وامير كيون بتهمة التجسس وتهديم اقتصاد المجر، وينتظر ان يكون الحكم قاسياً بعض الشيء لا كثيراً نظراً لاعترافات المتهمين وفضحهم السياسة الانكلوامير كية. والجدير بالذكر ان اميركا وبريطانيا احتجتا مرتين على عدم السماح لمراقبين عنهما بحضور المحاكمة.

هربرت وصراحة

وقال فوغار يصوت منخفض انه يأسف لما بدر منه، لان بقاءه كثيراً هو الولايات المتحدة اوفد الى بلد صغير هو المجر، رجالا لا يتجاوز العشرين سناً وألقى لم يسمح فيها بحرية تعامي الدفاع لكي يحضر دفاعه. اجل تحضر في تلك الصورة فلا اتحبى تصرف الحكومة حيي كعضو في الجمعية التأسيسية وكممثل للامة فيها. وعلى لا ادكر المذكرات التي وصبها الاشخاص المتهمون والذين وضعوا اليوم مذكرة الاحضار بحقي — والتي طلبوا فيها من حكومة حمي الزعيم تسليم الزعيم الخالد سنداد محجة ثبوت خيانته وحجة اتصاله باليهود وهي المذكرة التي لا تمت الى القانون والعدل بصلة الا في صياغتها المقفلة وكيلها الخارجي، حتى اذا ما جرت محاكمة القوميين وتلت الوثيقة التي استندت عليها مذكرة طلب التسليم هذه، اتكشف الامر عن وثيقة تدين اعوان الحكومة اللبنانية وحلفاءها باصالتهم المزيفة باليهود وتخدمتهم لاغراض اسرائيل وسياستها.

قول زاي لا اتوقع اليوم اذا كشفت حكومة لبنان عن الوثائق والبيانات المزعومة التي تملكها لتبرير اعتقالها لمن اعتقلتهم مؤخراً في لبنان واصدار مذكرة احضار بحقي ان لا تبرأ الناس ونيفة الحي تعادل في قيمتها ونيفة الاتصال السابقة باليهود، التي اشهرت منذ ذلك اليوم جاسوسة ونيفة محمد جميل بولس اما رأيي في اساس حملة الحكومة وما تحم عنها من اعتقال ومذكرة بل وتحضير في تلك المحاكمة الحربية باجراءاتها الخارقة لكافة الاصول والقواعد التي جرى فيها استنطاق ومحاكمة واعدام في مهلة لا تتجاوز العشرين ساعة والتي لم يسمح فيها بحرية تعامي الدفاع لكي يحضر دفاعه. اجل تحضر في تلك الصورة فلا اتحبى تصرف الحكومة حيي كعضو في الجمعية التأسيسية وكممثل للامة فيها. وعلى لا ادكر المذكرات التي وصبها الاشخاص المتهمون والذين وضعوا اليوم مذكرة الاحضار بحقي — والتي طلبوا فيها من حكومة حمي الزعيم تسليم الزعيم الخالد سنداد محجة ثبوت خيانته وحجة اتصاله باليهود وهي المذكرة التي لا تمت الى القانون والعدل بصلة الا في صياغتها المقفلة وكيلها الخارجي، حتى اذا ما جرت محاكمة القوميين وتلت الوثيقة التي استندت عليها مذكرة طلب التسليم هذه، اتكشف الامر عن وثيقة تدين اعوان الحكومة اللبنانية وحلفاءها باصالتهم المزيفة باليهود وتخدمتهم لاغراض اسرائيل وسياستها.

قول زاي لا اتوقع اليوم اذا كشفت حكومة لبنان عن الوثائق والبيانات المزعومة التي تملكها لتبرير اعتقالها لمن اعتقلتهم مؤخراً في لبنان واصدار مذكرة احضار بحقي ان لا تبرأ الناس ونيفة الحي تعادل في قيمتها ونيفة الاتصال السابقة باليهود، التي اشهرت منذ ذلك اليوم جاسوسة ونيفة محمد جميل بولس اما رأيي في اساس حملة الحكومة وما تحم عنها من اعتقال ومذكرة

— البقية على الصفحة الرابعة —

في حديث ادلى به الى الزميلتين «النصر» و«العلم»
عصام المحايري لم يستغرب صدور مذكرة الاحضار بحقه ولكنه يبشر حكومة لبنان بفشل محاولتها للمساومة على الحزب !

دمشق ٢٠ — لمراسل البلاد — ادلى الاستاذ عصام المحايري عضو الجمعية التأسيسية لصحيفتي النصر والعلم حديث صريح جريء قد يعرض صاحبه لخطر الاغتيال، هذا نصه:

قد يعجب اي مواطن من تجاوز حكومة لبنان اصلاحيتها ومن خرقها لكافة القواعد ومن جرأتها لاستغرب ما تقوم به اليوم وبذهب في التفكير بعيداً فاستعيد ذكرى المعركة التي خاضها وكيف ابتدأتها الحكومة اللبنانية بان اعتقلت من هو جو لا من هاهم، كما استعيد صورة رفيق الحرية بير صاصو الذي علق من رجليه والدم يترف من جراحه في القسم المحرقة والذي بقي يحمد، يوحشية الى ان لفظ انفاسه بين يدي. جلادية وهو ينادي بأصرار وعناد: تحيا سورية. كما استعيد صورة رفيق الاخر الذي دخل السجن صحيحاً سليماً لجسم يعد بضعة ايام مشلولا قد كسر منه عمود الفقري هذا لانهم بحصوا به الى مستشفى الدادي بل ابقوه سجيناً في حالته هذه الى ان تحرأ طبيب كريم فارسل صرخته القاوية بالاحتجاج والانذار، وتحضر في ايضاً وايضاً سورة رفيق الاخر الذي سيق منذ بضعة ايام من فراشه وهو اصابته بترب دموي في معدته من جراء قرحة فيها تعاصب اخفاق بنيه الى الاثنين فقط وهو يرجه معتقلوه مع ذلك بل المعنوا في قسوتهم وضغائنهم مهددين والده وشقيقه الذين اخذا بالانتحاب والصراخ وجروه وعنيفك حافياً عارياً وكيس الثلج على معدته ليشفي ما يقاسيه نصب كيو متر دون ان يسمحوا لاشقائه بحمله على الاقل وكان ذلك بسبب المؤامرة المزعومة لاغتيال اشخاص معينين مع انه في وضع لا يستطيع معه قتل نملة فكيف بمن اتهم بهم

اما انا فاقول لك الحق الذي لم اعجب فعلا الا في قد نمت عن كتب وينتابني خلال المعركة اخارة التي شنتها حكومة لبنان على الحزب من التصرفات والاتهامات ما يجعلني لاستغرب ما تقوم به اليوم وبذهب في التفكير بعيداً فاستعيد ذكرى المعركة التي خاضها وكيف ابتدأتها الحكومة اللبنانية بان اعتقلت من هو جو لا من هاهم، كما استعيد صورة رفيق الحرية بير صاصو الذي علق من رجليه والدم يترف من جراحه في القسم المحرقة والذي بقي يحمد، يوحشية الى ان لفظ انفاسه بين يدي. جلادية وهو ينادي بأصرار وعناد: تحيا سورية. كما استعيد صورة رفيق الاخر الذي دخل السجن صحيحاً سليماً لجسم يعد بضعة ايام مشلولا قد كسر منه عمود الفقري هذا لانهم بحصوا به الى مستشفى الدادي بل ابقوه سجيناً في حالته هذه الى ان تحرأ طبيب كريم فارسل صرخته القاوية بالاحتجاج والانذار، وتحضر في ايضاً وايضاً سورة رفيق الاخر الذي سيق منذ بضعة ايام من فراشه وهو اصابته بترب دموي في معدته من جراء قرحة فيها تعاصب اخفاق بنيه الى الاثنين فقط وهو يرجه معتقلوه مع ذلك بل المعنوا في قسوتهم وضغائنهم مهددين والده وشقيقه الذين اخذا بالانتحاب والصراخ وجروه وعنيفك حافياً عارياً وكيس الثلج على معدته ليشفي ما يقاسيه نصب كيو متر دون ان يسمحوا لاشقائه بحمله على الاقل وكان ذلك بسبب المؤامرة المزعومة لاغتيال اشخاص معينين مع انه في وضع لا يستطيع معه قتل نملة فكيف بمن اتهم بهم

— البقية على الصفحة الرابعة —

سعيد عقل، الشاعر الاقطاعي...

... هكذا رماناً به ادوار حنين. فصدقنا ... المسحورة، بلسة من عساه ... أغنى الاقطاعية في ارضنا سماحة وشعراً.

ونبقى نحن هكذا، الى الابد عبيداً حتى في دولة الشعر ...

وأخيراً، ان كلمة ادوار حنين في سعيد عقل، كانت طيبة، ولكنها صعقت الجمهور صعقاً، فلم يعدنا الحق في ان نبدي او نعيد ... انما نحن مدعوون لسماع شاعر الفطاحل في اقطع لقطه له الناس منفعلة كبيرة في ارض الشعر ... ولعلنا سلاحنا، ورفعنا ايدينا وانتظرنا الناشر يقول شعره ...

والحق، ان سعيد عقل، لم يكن اقطاعياً بقدر ما كان ساحراً. هذا شاعر ساحر ... كل ما فيه يعطيك صورة عن هؤلاء السحرة الذين يتوهمون الاقاعي، ويتوهمون الناس ... وان الشاعر يأتعمل، قد تخلق في الجمهور، بقوة سحرية عربية، قوتها جميعاً، وما استفقنا الا والشاعر الساحر في زحمة الناس، يتهافتون عليه، كأنهم عادوا من الارض الخربة، بعد تلك المأساة التي اودت بحياة سبعة اشخاص وخربت بيوت العشرات، ان فتنة الحزب السوري القومي قد اتهت، ولكن احداً لم يدنك في ان الحزب نفسه، كعقيدة، وكاشخاص تربط بينهم تلك العقيدة، لم يمت. فالفرق عظيم بين الحزب وبين «القضية» التي اهتزت لها الدولة ووكل الى المحكمة العسكرية امر تصفيتها. أما تملن الحكومة ان زعيم الحزب السوري القومي واعضاءه قد احيلوا الى المجلس كما انه لا يجرد تأليفهم حزباً جديداً لانهم ثاروا على الدولة ؟ اما انهم كانوا قد ثاروا قبل احالة قضيتهم للقضاء، او تدروا امر الثورة قبل اتهام «القضية»، فمسألة لم يفصل بها بعد، ولكن الراهن الا كيد هو ان الحكومة قد تمكنت من القاء القبض على جرم من يشتد الثورة بل ثورة على الدولة.

واذا كان من الانصاف ان نعترف للدولة بتعقلها استقلال القوة عند من يشتد القوة تقليداً، فان المنطق والحرص على التفكير السليم يفرضان علينا ان نتساءل عن الموقف الذي يتخذه اعضاء الحزب السوري القومي اليوم ازاء مرحلي الدولة... ترى هل تهزل الدولة عندما تقول ان هذه القصة من الثبات، الذين انهكهم تعباً لم يعرف شبابنا لها مثيلاً من قبل، والذين تعلموا ان «العين التي تقاوم المخرز تفقأ»، او تكاد - ان هؤلاء الثبات يأمرون لقلب الدولة ؟...

«في القضية شؤون اخطر بكثير مما تتصورون !»

هذا هو المعقل الوحيد الذي يبدو من جانب السلطات، حيناً لو تدرك السلطات ذوق الشعب لمعرفة هذه الشؤون التي تفوق خطورة «ما يتصورون» ! وحينما لو تدرك السلطات ان الشعب لن يتخدع «بالشؤون الخطيرة» التي تحاك في الخفاء، فاذا بأجرم يتلبس به افراد ما كان ليخطر على بالهم الجرم.

في كلمة مخلصة توجه بها الى المسؤولين الذين ينتظم امن المسؤولية تعاهدنا الشعب، فاقد يعفو بتقدير كم وهذا الشعب الذي تألم مأساة انطون سعاده ورفقائه لا يتحمل مأساة اخرى، بل قد لا يكون مستعداً للسكوت عن مأساة اخرى، وجراح

تبرئة غسان تويني.

وصدرت مذكرة توقيف بحق غسان تويني، وارسلت الشرطة لدهم منزله فرفضت والدته تبلّغ مذكرة الإحضار وتوارى غسان تويني عن الأنظار متوجهاً إلى سوق الغرب.

ومن هناك أرسل مقالاً نشر في «النهار» في اليوم التالي بعنوان «شمسهم اذنت بالمغيب».

واستمر متوارياً يتنقل من منزل إلى آخر. وحوكم غيابياً في 6 تموز/يوليو وصدر الحكم بسجنه شهرين ومنعه من مزاولة المهنة مدّة مماثلة، اضافة إلى تعطيل «النهار» 20 يوماً، مع البراءة لجهة التهجّم على رئيس الجمهورية، وإسقاط الملاحقة بالقدح والذمّ والتحقير في حقه. ثم مثل أمام المحكمة في أول آب/أغسطس وحكم عليه وجاهياً بالسجن شهراً، وأدخل السجن فوراً رغم إضراب للصحافة تضامناً واحتجاجاً.

النهار

الاربعاء ٢ آب سنة ١٩٥٠ — السنة ١٧ — العدد ٤٥٧٢

مؤسسها: جبران تويني • نسيب المتني رئيس التحرير: غسان تويني

ثمن النسخة ١٥ قرشاً لبنانياً

الاشتراك في لبنان: ٢٥ ليرة — في الخارج: ٥٠ ليرة

الادارة: شارع المصرفية — بيروت — ص.ب ٢٢٦ — تلفون ٢١٠٦١

واشنطن ١ — وص.ف — جاء في رسالة تردمن الى مجلس النواب التي تضمنت طلب اربعة مليارات دولار لمساعدة الخارج عسكرياً بان امن منطقة الاطلنطي ذو اهمية رئيسية لقوة العالم الحر واشار اليها نه سيخصص للقوميين على الحلف ثلاثة مليارات و٤٥٠ مليون دولار يوناً زادا لمساعدة العسكر بالقيو نان وتر كيا وايران ١٩٣ مليوناً وتتلقى ام الشرق الادنى (ولايذ كر تردمن منها غير القليلين) ثلاثمائة وثلاثة ملايين دولار

العثور على كميات من اورورانيوم في كندا

برلس البرت — كندا ١ — وص.ف — عثر على قطع بلورية تحتوي من ٨٠ الى ٩٠ بالمئة من الاورانيوم (معدن ثمين يستعمل في صنع القنبلة الذرية) في منطقة بحيرة نوث على بعد ١٤٠ ميلا شمالي شرقي برنس البرت، وقال موظف الحكومة الكندية الذي اذاع هذا النبأ ان قطر قطع البلور هذه ستة أمتار ونصف

غسان تويني امام محكمة المطبوعات، مثله وراء مكتبه في «النهار»

راجي الراعي يريد من القلم ان يكون رفيقاً بالحكام، يداعبهم ولا يجرحهم فيصرخ لبكي:

نحن شعب نأبى على الدولة ان تصير الها ومعبوداً

«ان غسان تويني زعيم رأي في هذا البلد وليس زعيم عصابة

وهو مع رفاقه يطلبون سبباً للاعلان بالدولة فعليكم ايها القضاة انقاذ هذا الاعلان»

غسان تويني: هذا القلم ليست انا الذي يكتب به، انما يكتب به الشعب الذي يقرأ النهار

رفاع غسان تويني

«وليس هنا مجال الدخول في مساجلة فلسفية حول معاني الحرية ومعاهيم الحكم، ولكنني اقول انني استوحي فيما اكتب حريتنا شعبها حقاً من حقوقي، ذلك لعلمي انني لم اقصد الخروج على الشارع». يقول حضرة النائب الهام الذي اثير زوابع اثر زوابع، ان هذا القلم ليست انا الذي يكتب به، انما الشعب الذي يقرأ «النهار» هو الذي يكتب به». وان المدافع بأحضرة النائب الهام ليس ولا م المحاماة من النجوم التي تريد ان تعشي هذا البلد. لقد قلت ذلك ليعلم الناس انني محامٍ قام من بين هذا الشعب وحقر من يحب ان يحقر في سبيل كرامة الدولة»

كان مشهوداً واعماً، وغسان تويني يمشي بين جمهور من الشباب الى قاعة المحكمة، وعلى الابواب وفي الردهات جمهور آخر ينتظر بفارغ الصبر، ان تفتح الابواب ليشهد محاكمة الصحفي الذي شاء ان يعبر عن اراء الشعب، فحاكمته الحكومة الى القضاء... فكان الحكومة ساقت الشعب الى المحاكمة... وكان غسان تويني يمشي برأس مرفوع، ويرد على تحيات الجمهور المحتشد بهذه الابتسامة الحلوة المطمئنة، والجمهور يحوم بقلبه وحبه، على الفتى الذي احتضن قضيته...

وان قصر العدل، شهد امس في محاكمة غسان تويني، حدثين هامين اولهما: هذه الجرأة التي اظهرها رئيس تحرير «النهار»، اذ وقف بشجاعة يقول: «اريد ان امارس حقوقي الدستورية»، وثانيهما: هذا الادب الرائع الذي حمتاه من الاستاذ سلاح لبكي، فقد كان القانوني يمشي بجناب الاديب الكبير، يرد به على اديب كبير لم يخلع جبة الصوفية والادب الرفيع، حين كان يقف في منصة الادعاء العام يتهم غسان تويني... انهما حدثان كدنا نحمد الله بعدهما ان سبق غسان تويني الى المحاكمة، لنسمع مطالعة راجي الراعي، ودفاع سلاح لبكي...

افتتحت الجلسة في الساعة الحادية عشرة وربع. وكانت الهيئة الحاكمة مؤلفة من الاستاذة الشيخ شفيق الحازن رئيساً وجورج شحاده واحسان بيضون مستشارين ومثل النيابة العامة الاستاذ راجي الراعي، وحضر محامي الدفاع الاستاذ سلاح لبكي.

القلب لا تنفع

بدأت الهاكمة بسؤال الاستاذ تويني عن هويته فقدمها للهيئة الحاكمة وبعد ذلك اعطى الكلمة ... وحين هم بالكلام قال له الرئيس:

— بدون خطاب، لان الخطيب ما يتنفع.

قال الاستاذ تويني:

— انني اقتم فرصة مثولي امامكم لاصرح بانني كنت كتبت كل ما كتبت عن وعي وادراك، ولكنني اعتبر انني ما كتبت وما سأكتب هو حق من حقوق الدستورية، كما انني اعتبر ان ذلك لا يخرجني عن نطاق القانون فلا تصح مؤاخذتي عليه. واحب ان اعلن مرة اخرى انني لا ازال عند رأيي فيما كتبت.

الرئيس — استمعت عبارات غير لائقة في مقالاتك. وقد ابلغت رئيس الحكومة في الكتاب المقتوح ان في عهده اشتمت الفوضى واستبيحت الكرامات... ثم تكلمت عن الطائفية بشكل استفزازي... الا تعلم ان هناك نصاً في قانون الجزاء يحرم استغلال الطائفية.

اسوأ المستغل ؟

— انا لم استغل الطائفية، بل هو الذي استغلها!

وسأله الرئيس عما يقصد بالاساليب والطرق الخصوصية وهي جملة وردت في احدى مقالات النهار الرئيسية فاجاب:

— سأعطيك يا حضرة الرئيس مثلا على ذلك. حدث في مجلس النواب مرة ان وجه الاستاذ كميل شمعون سؤالا للحكومة، فاجابه رئيسها بما يلي: «انا ما بدي جاوب حي طرق الخصوصية... ليس ذلك خروجاً على الدستور؟

— كنت بعن مجلس النواب ما بي: «الذي افسد النظام وعرقل لا سلاح»، انه منذئ من جريمة وبقاؤه جريمة الخ...». الا تعتبر ذلك تحقيراً بالمجلس ؟

اور تقاد جريئاً

غسان تويني — لقد كنت اعبر عن رأي النقادي، حين كنت عن المجلس ما كتبت... وكنت اظن اننا نعيش في ظل نظام يتوفر احراري... وانه من حق الصحافي بل من واجبه ان ينقد. وما كنت اتوقع ان من يقول عن المجلس انه اخطأ يرتكب جريمة!

مطالعة النيابة العامة

وهنا وقف النائب العام الاستاذ راجي الراعي وقال:

— القضية قضية قلم فلا يد لي من كاتفيه، الصبر عصر آلي كما تقول، ولبه الواقع. ولكنه على الرغم مما فيه من آلات ما زال آلة الفكر وهي يشيء نفوراً بين سطوره، تلك السطور التي تقذف بها الام المجبلة الآلة الطابعة في ساحات الفكر، القلم الذي تقف حوله الان، القلم الذي تنبض صدر القامة، وله دماء التي تقف الى جانب هذه الدنيا وتقول لها ذا خلاقتي تفوق خلاقتك عداً ورفعة».

وليس السرقي طول القرطاس وعرضه وفي غزارة المداد ولو، وفي البيارة الصحيحة والانتاء المنتمي وما وراءهما من رماد يذر والسود وطول تدق، وانما سر القلم، في اصالق حامله بتقي ما اختصه به الفطرة من بتابيع خبرة يمكنها في كؤوس جبلة».

«لقد خاق القلم حراً ولست انا عدو القلم الحر بقي القلم. ولكن هذه الحرية ليست الحرية المطلقة التي لا رسم لها الاعلى لوحة الخيال. وليس في العالم حرية مطلقة، حرية الخيال، حرية شاعر ينظم الشعر في ابراجه، حرية كاتب يكتب ما يشاء وهو في غرفة يسبح في آفاق تضارها هو، ولقد كنا نود لو كانت الحرية مطلقة وان ينطبق الخيال على الواقع».

«ان للحرية حدوداً!.. فالمبي مقيد بالفظ... والفظ بالسطر، والسطر بالصفحة والصفحة بالكتاب... وان في التدح والذم والتحقير خروجاً عن البيان. ان فيها رداء يتمزق وفي طبيعة القرآن يتمزق الرداء، لا ان يرقع، وللقرافف حقل وحقل، من تلك الحقول، حق الرأي، وله اهابه وبينهم الصحفي الذي يثير خيال الجماعات كيفما شاء ومتى شاء وحيث شاء فهو من قادة الرأي العام، ولكن هذا القائد كثيراً ما ينسى النظام العام والنائب العام كثيراً ما يطرح جريدة في الشارع... وينسى الشارع.

— البقية على الصفحة الثانية —

ليو بولد يتنازل عن العرش لولي العهد

فيوافق الاشتراكيون ويقفون الزحف على بروكسل

بروكسل ١ — م ش — وافق الملك ليوبولد، ذلك بالجيكا على ان ينقل سلطاته الملكية الى نجله الامير بودوان البالغ الثامنة عشرة من عمره. وطلب الملك ليوبولد الى البرلمان البلجيكي ان يصدر قانوناً يخول ولي العهد حق ممارسة جميع السلطات الدستورية التي يتمتع بها الملك على ان يتلى العرش عندما يبلغ سن الرشد في السابع من شهر ايلول سنة ١٩٥١.

وقد قبل زعماء الاشتراكيون هذا الاقتراح بوصفه حلا مرضياً واصدروا اوامرهم بوقف معارضة الزحف الى بروكسل التي كان مقرراً ان تجري وقد اعلن عن هذا الاتفاق اثر اجتماع وزاري برئاسة ليوبولد. وقد ارفض الاجتماع في صباح اليوم الياكر بعد ان استمر منعقداً بضع ساعات.

— البقية على الصفحة الرابعة —

رسالة الملك للشعب

ووجه الملك ليوبولد رسالة الى الشعب البلجيكي اذيعت من راديو بروكسل جاء فيها قوله ان نقل السلطات الملكية الى ولي العهد اصبح خطوة ضرورية قضتها التسوية التي تنهي باعتلاء نجله العرش عند مايبلغ سن الرشد.

وقال ليوبولد: انه اتخذ هذا

— البقية على الصفحة الرابعة —

مصرع آمر الطيران السوري

دمشق ١ — وكالة انباء الشرق — في الساعة الثانية والنصف من مساء امس، كان القيد محمد ناصر القائد الاعلى لسرب الطيران السوري يقوم بزحمة مع صديق له في سيارة هذا الصديق ولدى وصول السيارة بهما الى قرب محطة كبريان وتبعد عن دمشق حوالي الكيلومترين، اعترض سبيل سيارتهما سيارة مجهولة اطلق وكلها النار من بنادق سريعة الطلقات على القيد وصديقه السيد عبدالوهاب عيوش وسائق السيارة فقتل الاخيران في الحال، وجرح رجال الاسعاف وقد اتصل بهم النبأ الى نقل القيد المتحى حيث اجريت له عملية جراحية وفي الساعة الثالثة صباحاً، اجريت له عملية جراحية ثانية ولكن اصابته كانت بالغة جداً فتوفي صباح اليوم.

تغلب القدد فيها على براعة الطب فلاقى المقيد وجه ربه عندما كانت الساعة تدق الرابعة صباحاً. وقد كان لهذا الحادث صدى سيء في الاوساط كافة.

وظهر اليوم، شيعت جنازة القيد من المستشفى العسكري في المزة بموكب كبير مهيب سار فيه مندوب عن رئيس الجمهورية التأسيسية ورئيس الحكومة والوزراء وضباط الجيش.

والقى رئيس الحكومة تأبيناً حاراً، بالنيابة عن رئيس الدولة، كما القى احد كبار ضباط الطيران كلمة باسم الاركان العامة للجيش. وبعد تشييع الجثمان عقد مجلس الوزراء جلسة مستعجلة، قلت اعمالها سرية، ويجري التحقيق على نطاق واسع لمعرفة الجناة.

باكثرية ٨ اصوات ضد روسيا والهند ويوغسلافيا

مجلس الامن يرفض قبول الصين الشيوعية

فيعلن ماليك ان القرار غير شرعي

لايك ساكسيس اول آب — خاص — عندما اجتمع مجلس الامن هذه المبلة شرح بدوس جدول الاعمال الموقت الذي حضره الرفيق يعقوب مالبك الروسي رئيس المجلس لهذا الشهر وهو يتضمن ١ — اقرار جدول الاعمال ٢ — قضية الاعتراف بتمثيل الصين الشيوعية، تمثل الصين في مجلس الامن ٣ — حل منكلة كوريا حلا سلمياً

وبعد ان اقر المجلس جدول الاعمال اعلن رئيس المجلس بصفته رئيساً ان مندوب الكيومنتانغ لم يحق له ان يجلس الى جانب الاعضاء وان لرئيس بساطته الاجرائية الحق بدعوة مندوب الصين الشيوعية الى الاجتماع.

فاعترض مندوب الولايات المتحدة وايده مندوبا بريطانيا وفرنسا وسائر الاعضاء ما عدا مندوبي الهند ويوغسلافيا. وقد قال مندوب الهند انه يؤيد رأي الرئيس لانه يعتبر قضية تمثيل الصين قضية نمس السلم العالمي. اما مندوب مصر فقد عارض بشدة موقف المندوب الروسي.

وعندما طرح اقتراح الرئيس على التصويت نال ٣ اصوات ضد ٨ ولكن الرئيس اعلن ان الاقتراح نال ٣ ضد ٧ متجاهلا صوت مندوب الصين الوطنية فاحتج مندوب الولايات المتحدة منهماً الرئيس بالدكتاتورية فاجابه الرئيس محتجاً بدوره وقال انه لم يقل سيمة، بل قال «غانية» بما فيها صوت مندوب الكيومنتانغ»

وعلى اثر ذلك القى مندوب الصين الوطنية خطاباً اعلن فيه انه يمثل حكومة الصين الحقيقية، واعلن الرئيس انه بصفته مندوب الاتحاد السوفياتي يعتبر قرار مجلس الامن غير شرعي.

الشيوعيون على ابواب بوزان

استراليا تقدم ٢٥٠٠ رجل... ولكن في غضون شهرين

كبرا ١ — خاص — اجتمعت الوزارة الاسترالية اليوم لتقرير نوع وعدد القوات البرية التي سترسلها استراليا الى كوريا. وقد فهم ان الوزارة قررت ارسال فرقة من ٢٥٠٠ رجل الى كوريا وستتألف هذه الفرقة من المحاربين القدماء وستعد بأسرع ما تطرب في مدة شهرين.

طوكيو ١ — خاص — تواصل القوات الشيوعية ضغطها في جميع الجهات وتقوم الان بهجوم يوصف بانه اقوى هجوم قامت به حتى الان في جبهة تمتد خمسين كيلو متراً على الساحل الجنوبي. وقد اصبحت وحداتها الامامية على بعد ٢٤ كيلو متراً من مدينة ماسان ومغرق الطرق الرئيسية على طريق بوزان قاعدة الجيوش الامير كيانا للقاء وعلى بعد ٦٤ كيلو متراً من بوزان نفسها. وفي الجبهة الوسطى احتلت القوات الشمالية بعض الاراضي في وحلها نحو مدينة تايجو الساحية الموقتة لكوريا الجنوبية ويجري قتال عنيف حول مدينة كيمي التي زادتها الايدي عدة مرات والتي ذكرت الانباء الاخيرة انها لان في ايدي الشيوعيين.

والى الشمال من ذلك اضطرت القوات الامير كية الى الانسحاب من بعض الاماكن من وجه الهجمات القوية التي شنتها قوات الفداء الشيوعية تؤيدها الدبابات الا انه على ان القوات الامير كية تستعد الان لشن هجوم معاكس في تلك المنطقة.

وفي الساحل الشرقي تواصل قوات كوريا الجنوبية شن هجماتها

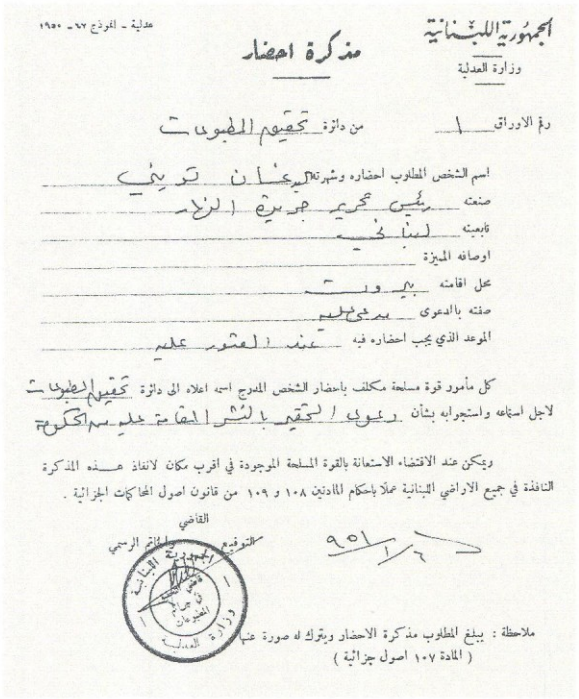

الجمهورية اللبنانية
وزارة العدلية

عدلية - انموذج ٦٧ - ١٩٥٠

مذكرة احضار

رقم الاوراق ١ من دائرة تحقيق المطبوعات

اسم الشخص المطلوب احضاره وشهرته غسان تويني
صنعته رئيس تحرير جريدة النهار
تابعيته لبناني
اوصافه المميزة
محل اقامته بيروت
صفته بالدعوى مدعى عليه
الموعد الذي يجب احضاره فيه عند العثور عليه

كل مأمور قوة مسلحة مكلف باحضار الشخص المدرج اسمه اعلاه الى دائرة تحقيق المطبوعات لاجل استماعه واستجوابه بشأن دعوى التحقير بالنشر المقامة عليه من الحكومة

ويمكن عند الاقتضاء الاستعانة بالقوة المسلحة الموجودة في اقرب مكان لانفاذ هذه المذكرة النافذة في جميع الاراضي اللبنانية عملاً باحكام المادتين ١٠٨ و ١٠٩ من قانون اصول المحاكمات الجزائية .

القاضي
التوقيع والخاتم الرسمي

٩٥١/١/٦

ملاحظة : يبلغ المطلوب مذكرة الاحضار ويترك له صورة عنها
(المادة ١٠٧ اصول جزائية)

1951

نظّمت تظاهرة شعبية في بيروت في 4 كانون الثاني/يناير 1951 وتوجّهت إلى مقرّ وزارة الاقتصاد رافعة لافتات كتب عليها «بدنا ناكل جوعانين»، وذلك احتجاجاً على الأزمة الاقتصادية وارتفاع أسعار القمح والخبز وتلاعب الأفران بالرغيف، ولا من يبالي في الحكم.

وكتب غسان تويني في 6 كانون الثاني/يناير مقالاً في «النهار» بعنوان «بدنا ناكل جوعانين»، فتحركت النيابة العامة وحضرت الشرطة إلى مطابع «النهار»، واعتقلت غسان تويني ونقلته إلى المحكمة فالسجن. وما كان منه الا أن كتب مقالاً في اليوم التالي «ما بدنا ناكل مش جوعانين».

وقد أثار المقالان ردود فعل سياسية وشعبية عاصفة. وتبنى المقال السادة كميل شمعون وكمال جنبلاط وفؤاد رزق نائب رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي آنذاك، وسامي الصلح رئيس الحكومة السابق، ونعمة تابت، ونسخه فؤاد رزق بخطه ووقعه مع زملائه ثم راحوا يوزّعونه على الشعب. كما أعاد عدد من الصحف المعارضة نشره في تحدّ سافر للحكومة. وأعلنت الصحافة الاضراب العام عن الصدور ابتداءً من 11 كانون الثاني/يناير وتضامنت معها الصحافة السورية احتجاجاً على التوقيف الاحتياطي للصحافيين.

في 9 كانون الثاني/يناير انعقدت المحكمة، وكان مضى أسبوع على توقيف غسان تويني، وخلّت سبيله.

ثم أعيد إلى السجن في 16 من الشهر لينفّذ فيه حكم صدر في 17 كانون الثاني/يناير بسجنه شهرين، بعد تعطيل «النهار» 20 يوماً ومنع تويني من مزاولة المهنة فترة مماثلة للسجن.

القاهرة ٥ — وص ف — أعلن مصدر حسن الاطلاع ان سفير افغانستان في مصر نقل نظر وزير الخارجية المصرية بقلق الى التصريحات التي مزمعا الصحف اليها كتابة الى عبد الوهاب مزام بك سفير مصر في اليابان حول مسألة كشمير ، وقول ذات المصدر ان حكومة دهلي الجديدة ترى ان هذه التصريحات خطيرة بنوع خاص وقد تؤثر على العلاقات بين مصر والهند .

السبت
٦ كانون الثاني سنة ١٩٥١
السنة ١٨ — العدد ٤٧٠٠
عن الفسحة ١٥ قرشا لبنانيا

النهار
مؤسسها: جبران تويني ● نجله المرحوم: غسان تويني

الاشتراك
في لبنان ٢٥ ليرة
في الخارج ٥٠ ليرة
للاذاعة
مرسى البصرة — بيروت
ص.ب ٢٢٦ — تلفون ٢١٠٦١

الجواب الفرنسي على المذكرة السوفياتية

باريس ٥ — وص ف — سيقدم الجواب الفرنسي على المذكرة السوفياتية التي تتهم فرنسا بمخالفة معاهدة التحالف المتبادل العراقية السوفياتية ، بعد ظهر اليوم الى وزارة الخارجية السوفياتية في موسكو ، وسيذاع النص صباح الاثنين المقبل

«بدنا ناكل، جوعانين...!»

«ان لبنان في حالة نزوح ... والنزوح داخلي ... اذ لسطوح هذه «العصابة على كل شيء ، أشبيح كل شيء ... تظاهرة لنفس «هي اول أسلحتي يدكه التعب في صرح هذه العصابة «الآثمة ...» بيروت للغاء

من ذا الذي تلذّم هذه التظاهرة التي قام بها الناس امس تجاه بناية «مجيول ، مركز وزارة الاقتصاد الوطني ؟؟؟

من قال للصوت « وقم حال لان ينفوا : بدنا ناكل ، جوعانين ... ؟؟؟

ومن قال للاولاد ان ينفوا كذلك انهم يريدون الخبز ، والى لم ستأتي الحياة ؟؟؟

ومن قال لهم ان يجبروا اقسام البناية « قفلة دكتاتوريه » والا حراب لهم من امتيازاتهم ، ولمطالبهم بأدنى الحقوق التي تلائمان ، حق الخبز بسعر «معين ، حق الحياة ؟؟؟

ان هؤلاء لم يطالبوا شرعة حقوق الانسان ، وانما هم لم يسمع بها شارل مالك ، ولم يسمع حتى بوجود الامم المتحدة ... ان هؤلاء يعرفون انهم يشبعون مالهم ، مثل وزير الاقتصاد وغير وزير الاقتصاد من الذين يعرفون انهم اولئك الذين لم يأكلوا خبزاً ، وانما أكل وزراء الدولة واغنيائهم الخبز الكثير ، وغير الخبز ايضاً مما لا يشبع المتظاهرين الذين لم يأكلوه ، وما لا يتجرأون حتى على احلامه ...

وهؤلاء المتظاهرون يعرفون ايضاً ان وزير الاقتصاد وزملاءه الحكام لا يتطوعون بكتابة امام الله ، وانهم سيتلون « تلهم امام الله في يوم لا «مهرب من دونه ، اذا كانت دعوتنا التعب لا تهمهم ...

وبين هؤلاء المتظاهرين ايضاً من يعرف ولا ريب ان سكان بناية «مجيول وسائر السرايات العام حيث هم لا يتهم قد يتطوعون المتظاهرين بقدر تهم على تولي مصالح التعب ، والى التعب يدفع لهم من ثمن خبزه ليسيروا على تأمين خبزه ...

والمتظاهرون يعرفون ولا ريب ، من جانبهم الدوري ومن جانبهم الناس ، ان الذي يتقاضى اجراً ليقوم بعمل معين لا يقوم به ، يكون قد اساء الامانة وتصبح معاقبته على اساءته ...

وبعد ، فسواء كان المتظاهرون يدرون ان حكماً قد اساؤوا الائتمان تصح عما كتبهم ، وان لها كتبهم طرقاً وطرقاً ، سواء كانوا يدرون ذلك ام لا ، فانهم يعرفون على كل حال ان الانسان الذي يجوده الجوع يلجوء حلبه الى يدافع عن حياته عند حد الموت ، اياً كانت اداة الموت ...

ويعرفون ايضاً ، المتظاهرون والشعب الذي هم منه ، يعرفون ان الدولة لا يقوم حكماً بواجبهم تجاه التعب ، ولا يؤدون الامانة ، ولا يحكمون بالعدل ، ان حكمنا دولة ، انما هي جلب ، ليست دولة ...

يعرفون ذلك ، حتى وإن كان الذين قرأوا قول الله ورأوا فلسطين تلاقاه جماً : « الفرق بين الدولة وعصابة اللصوص هو ان الدولة تعرف الله وتعرف العدالة والقانون ، وعصابة اللصوص لا تعرف الله ولا تعرف عدالة ولا قانوناً ... »

ان على الدولة ان تكون دولة ، او لا تبقى ...

غسان تويني

الصينيون يحتلون مرفأ سيول

القوات المتحدة تدمر مطار انشون قبل جلائها عنه

طوكيو ● — تقول معلومات واردة من الجبهة ان الصينيين اجتازوا بحدد كيو نهر هان وامعن الطيارون الى عدة الاف من الصينيين يتدفقون جنوباً جنوب مطارين من قوات الامم المتحدة التراجية .

واحتلت القوات الصينية مرفأ سيول في اخر المساء ، بينما كان معظم قوات العدو تزحل على طول طريق سيول — سيون .

وفي القطاع الشرقي لا يزال الموقف غامضاً . وقد اقتت الطائرات الاميركية بواسطة المظلات المؤن والاسلحة والمحروقات لفرقة تابعة لقوات الامم المتحدة .

والمعروف ان قيادة الامم المتحدة قد وحدت وتصير كوريا المحتوى الى بوزانة « بناء على نصيحة المستشارات العسكرية »

وجاء في بلاغ القر العام الاميركي ان مقدمات مرفأ انشون دمرتها قوات الامم المتحدة والوسع ان كل القوات الحليفة والاس. الهيلي الذين الكوريين واسرع قد جلوا من المدينة ساء الخميس بالتفاق بجانبه مدفعية البحرية التي كانت تحمي القوات الصينية من التقدم . وفي منتصف الثامنة من مساء امس ، كانت المدينة خالية ، وقال البلاغ ان ملايين المدنيين في الدوض لم تتضرر وان التدمير اقتصر على مستودعات الجيش وعطات سكك الحديد وارصفة المرفأ .

وتقول دوائر المراقبين في طوكيو ان الجلاء عن سيول تأتي ذو عواقب جسيمة لانه اذا عرفت القيادة العليا انها قواتها في كوريا فلا يمكنها ايقاظها الا في وقت جسر جنوبي شبه الجزيرة ، ولكن هذه القوات ستواجه حسابياً اكبر من الصعاب التي لاقتها في الشهر الحرب الاولى ، لانه اذا كانت مشاكل المؤون هي نفسها ، فالتضاؤل الشتاء والزوادة لقاط الثوار سيجعلان الاتصال بين الجبهة وبين مرفأ بوزان في غاية الصعوبة .

واعلن مصدر حسن الاطلاع ان قوات الامم المتحدة جلت اليوم من مطار وجو .

لئام الطيران

هاجمت الطائرات الاميركية مطار كيو واجهزت على المدنيين فيه وقال بلاغ القيادة ان الطائرات احدثت خابوراً سيئاً كان بالمطار ودمرت ١٥ مدافع وشيع المطار جنوبي نهر هان ، ووجود الطائرة وقطع المدافعية دليل على ان الصينيين تقدموا مسافة كبيرة وضربت الطائرات الاميركية ١٩ مدينة ودمرت ١٣٠ بناية تؤوي العدو .

السعيد يحضر اللجنة السياسية

وزارة الخارجية تعترض على الباجه جي

بغداد ٥ — وص ف — صرح السيد شاكر الوادي وزير الخارجية العراقية ووزير الدفاع لوكالة الانباء العربية الحرة بان نوري السعيد باشا رئيس الوزارة العراقية قرر ان يحضر شخصياً اجتماع لجنة السياسة بالجامعة العربية المقرر عقده في القاهرة ، وقال ان نوري السعيد باشا اتخذ هذا القرار اجابة لرغبة الجامعة العربية في حضور رؤساء وزارات الدول العربية هذا الاجتماع ، وقد ان من بين المسائل المدرجة على جدول اعمال الجامعة مسألة البحث في الموقف الذي تتخذه الدول العربية من الازمة العالمية الحاضرة ، وأكد وزير الخارجية العراقي سياسة العراق الخارجية ترمي الى توثيق روابط الصداقة والتعاون بين جميع الدول العربية حتى يتسنى لها مواجهة الحوادث في هذا الوقت بجبهة واحدة لا انقسام فيها ، وقال من الضمان الجماعي انه قد تم الاتفاق على التصديق على الغي القرارات العراق حلف الدفاع المقترح وانه كان هذه التصريحات قد اعقبها اشتباكات سياسية معينة .

توسيع الوزارة

تتابع الاتصالات بشأن تعديل نوري باشا السعيد واعضاء الوزارة وتوسيع الوزارة المذكورة في منتصف شهر كانون الثاني الماضي بتعيين ثلاثة وزراء بدون وزارة .

وقد صرحت على السيد مزاحم الباجه جي وزارة الخارجية الى وفدوم السيد شاكر الوادي وزير الدفاع بأنهما سيشكلان الوزارة الجديدة ، وتؤكد الاوساط المطلعة في بغداد ان سمو الامير عبد الاله ولي العهد هو الذي عرض هذا المنصب على السيد الباجه جي بواسطة السيد كمبين فندري مدير التشريفات بناء على طلب رئيس الوزارة نفسه .

وتؤكد ذات الاوساط ان الباجه جي احتفظ بجوابه ، وقد ذكر بان الباجه جي طلب اليه عدة مرات منذ عودته الى العراق في سفارة كانون الاول المنصرم ، بعد مكوثه في الخرجية ، الاشتراك في الوزارة وعرض عليه ايضا منصب في مجلس الاعيان ولكنه رفض .

الجنرال ايزنهاور يزور اوروبا ليدرس معنويات دولها

واشنطن ● — تقول الاوساط المتصلة بالقائد الاعلى لقوات الحلف الاطلنطي ان قرحة الاولى التي سيقوم بها الجنرال دوايت ايزنهاور الى اوروبا سمة سلمية ، فالجنرال اقفى يجمع الى مزاياه كقائد حربي معلومات وتجارب وشيرة عميقة في الشؤون السياسية والاقتصادية لاوربا الغربية ، يحرص على ان يطلع بنفسه على الحالة المعنوية لكل من الدول الرجيبة المطلوب منها الدفاع عن اوروبا

والاسبوع صرح الجنرال ايزنهاور انه لا بد من توزيع عبء التسلح والدفاع قال توزيعاً عادلاً بين كل من الدول المشتركة في الحلف بوستير عادلة في اوروبا وبين سي هذا الاهتمام ، وسيكون التقرير الذي سيرفعه الجنرال ايزنهاور عند عودته الى واشنطن الهمية جوهرية لان اعلن لدى البيت الابيض والكونغرس ثمانية ساعة .

اما الان فان الجنرال يدافع في اوروبا مدنياً بالتفاؤل والاستعداد ، ولم يأثر مطلقاً بما يقال ، « ما كذبه الصحف الاميركية » من ان اوروبا مستغلة الى الانهزامية ، اكثر من استلاماً لمجيء موقد تكون التصويت على الاعتمادات العسكرية في فرنسا امراً طبيعاً في واشنطن ، واعتبر ايزنهاور من التطلع على نفسية اوروبا . اما المذكرة الشائكة التي سيواجهها في باريس الا انها ليست كذلك في نظر الجنرال ايزنهاور ، الذي يعتبر ان الاعتراف بالدفاع من القارة الجديدة .

مؤتمر الكومنولث بحث مسألة السلام

هل يقدر لياقت على خان حضور المؤتمر؟

لندن ● — وص ف — عاد خطاب الملك كليمنت اتلي رئيس الوزارة البريطانية في مؤتمر الكومنولث ، من نضال السياسة الخارجية التي يترتب على الكومنولث عالجها حول مواد ان الحرب غير محتمة ، وحول المراقبون ان اليوم الاول من المؤتمر يمكن اعتباره من الاتفاق على المبادئ التي ستقرر لسياسة الدفاع في الشرق الاقصى واسيا الجنوبية ، اما اعمال يتلقى تأجيل القيام بنخذ قرارتها بالاعتراف بقولسيه توقع جانبا من البدائل التي لم تتخذ به حتى الان كتكديد او استراتيجية الشرقية الوزراء الاعضاء على امل ان لا يكون الوقت قد فات ، وامل : ارجو ان نجيز في ظرف سنة حتى فرق وتتلك خطى اخرى ، وستكون الاسلحة وفقا لقوعد يومينتحقق توحيد السلاح ، بالتالي ما يتفق بالسلاح الذي تصنعه كل بلاد بنفسها عوضاً توفت ، وتكلم بعد ذلك اعضاء فور وزير الميزانية ، فخطب مراعاة نص مشروع المجلس الوطني وقال : بدلا من انشأ أمثلة للجيوش والى الوطني الفاتر منها الحكومة قدمت ، مشروعاً لا يمسنا القبول به » .

وجرى التصويت فوافق مجلس الجمهورية ، على نص مشروع سوا ٤٨٧ صوتا ضد ١٨٠ صوتا .

بينما كان مجلس الجمهورية يدرس ميزانية التسلح

موك يطلب اقصاء الشيوعيين عن المناصب الرئيسية لانهم يخضعون لاوامر اجنبية !

باريس ● — وص ف — بينما قرر المجلس الوطني مواصلة مناقشة مشروع تعديل قانون ١١ المؤرخ ١٩٤٦ المتعلق بالصحافة والمطبوعات ، قرر مجلس الجمهورية الاجتماع طيلة الفصل للانتهاء من مناقشة ميزانية التسلح التي عرضت في المجلس الوطني ، وكان ابرز ما في المجلس خطاب جول موك وزير الدفاع ، وقد رد الوزير على اعضاء فكرة الاعتمادات الباقية التي تقدمها المجلس الوطني وقال انه قبل بتخفيض مشروع ميزانية التسلح ورفع ، وخصائص التبرير بين وجيهيهم التدابير التي تلزم بمتابعة جهد التسلح والاقتصاد ، ان هذا المقابل الدقيق لا يعيد بها الا لرجال مخلصين لعهد الجمهورية ، ولن يبقى في الحكومة مدير واحد تليع لحزب مرتبط بالخارج ، وهدده الاصرخات يجب ان يصغى اليها الذين يتمرون في البلاد بعمل تخريبي دائم ، ويجب ان يضرب مدير مصنع يعرف انه عدديد عندما يذرك الجهاز لدعاية ميثاق الدفاع عن نفسها .

وختم موك بوجوب طرد الشيوعيين من مناصب الحكم ، دون ان يستبعد اعضاء الحزب الشيوعي ، اذا كفوا عن الانضمام لاوامر اجنبية في حالة حربية .

وانتقد اندريه دوتمو رئيس كتلة العمل الجمهوري الديمقراطي طريقة تقديم الميزانية وطلب الى الحكومة ان تسوس وراء القوى الحية لتدبر اطية ، وتواجه التعب ، في اتخاذ اجراءات ما ، وختم قائلا : انا نحذر الحكومة على امل انا لا يكون الوقت قد فات ، قرره جول موك بانه يرى ان لغاء بعض الخطط الثراتيجية امر خطر ، اما الاختلاف على السياسة الخارجية فلن يؤثر على استراتيجية الحلفاء المشتركة ، واضاف : ارجو ان نجهز في ظرف سنة حتى فرق وتتلك خطى اخرى ، وستكون الاسلحة وفقا لقوعد يومينتحقق توحيد السلاح ، بالتالي ما يتفق بالسلاح الذي تصنعه كل بلاد بنفسها عوضاً توفت ، وتكلم بعد ذلك اعضاء فور وزير الميزانية ، فخطب مراعاة نص مشروع المجلس الوطني وقال : بدلا من انشأ أمثلة للجيوش والى الوطني الفاتر منها الحكومة قدمت ، مشروعاً لا يمسنا القبول به » .

وجرى التصويت فوافق مجلس الجمهورية ، على نص مشروع سوا ٤٨٧ صوتا ضد ١٨٠ صوتا .

عزام يريد «جبهة روحية» لمواجهة خطر «الالحاد المادي»!

روما ● — تحدى عبد الرحمن عزام باشا الامين العام لجامعة الدول العربية بمصر في اول جريدة ايطالية وجهها الى الشعب الايطالي والمسيحية الدفاع المشترك ضد تهديد الالحاد المادي .

وتحدى عزام جريدة في قاعة الجامعة العربية في القاهرة ، وقال ان الغرض من زيارته الى ايطاليا هو درس قضية خاصة بين البحر المتوسط والصدام الذي يهدد العالم بالالحاد ، وقال عزام باشا : « ليس الغرض من زيارتي

محاكمة غسان تويني.

ولكن رئيس تحرير «النهار» لم يكمل عقوبته إذ خرج في 5 شباط/فبراير بعفو (رفض توقيع طلبه)، إثر احتجاجات سياسية وشعبية صاخبة.

ثم ما لبث أن لوحق، رغم انتخابه نائباً في نيسان/أبريل بتهمة «إقامة علاقات مع الأجانب». فقد نشرت «النهار» مقالاً مترجماً عن مجلة «الايكونوميست» البريطانية يتحدث عن «الفوضى التي تجتاح البلد التي صارت مركزاً للمقامرة المكشوفة والحركات الشيوعية وتجارة الحشيشة والمخدرات التي انتشرت انتشاراً عظيماً». وقالت أن هذه «دلت على أن النفوذ الشخصي لا يزال أقوى من نفوذ الأحزاب، مما يخيب آمال الأميركيين والانكليز الذين كانوا يعتقدون ان لبنان قد استحق فعلاً استقلاله».

وعندما أقيمت الدعوى على غسان تويني كان في دمشق ضمن وفد نيابي معارض برئاسة كمال جنبلاط، بدعوة من مجموعة نيابية سورية معارضة برئاسة اكرم الحوراني.

وكان تويني نائباً فأرسلت مذكرة الجلب إلى مجلس النواب، فتسلمها رئيسه احمد الأسعد ووضعها في درجه ولم يعرضها على النواب إلى ان الحّ غسان بطرحها ليبتّ المجلس لا دستورية «ملاحقة نائب بسبب آرائه ومواقفه السياسية» وجرى اقتراع على طلب رفع الحصانة، فردّه المجلس بالاجماع.

اما «النهار» فكان تعطيلها نظرياً لأنها صارت تصدر باسم زميلتها «صدى لبنان». وجاء التعطيل بقرار من الغرفة الإدارية في محكمة المطبوعات، على أن يستمر العمل بهذا القرار طوال فترة المحاكمة وحتى صدور الحكم.

وفي 26 تموز/يوليو اجتمعت الغرفة وقررت الافراج عن «النهار» فيما احتفظ غسان تويني بحصانته النيابية.

«بدنا ناكل، جوعانين...!»

«ان لبنان في حالة غليان... والغليان داخلي... اذا قطعت هذه
«العصابة على كل شيء، فستبيع كل شيء... تظاهرة امس
«هي اول اسفين يدقه الشعب في صرح هذه العصابة الاثيمة...»
بيروت المساء.

من ذا الذي نظّم هذه التظاهرة التي قام بها الناس امس تجاه بناية دعبول، مركز وزارة الاقتصاد الوطني؟؟؟
من قال للنساء والرجال ان يهتفوا: «بدنا ناكل جوعانين...»؟؟؟
ومن قال للاولاد ان يهتفوا كذلك انهم يريدون الخبز، وان لهم حقاً في الحياة؟؟؟
ومن قال لهم ان يجرّبوا اقتحام البناية، لمقابلة «المسؤولين» والاعراب لهم عن استيائهم، ولمطالبتهم باولى الحقوق التي للانسان، حق الخبز، حق العيش، حق الحياة؟؟؟

ان هؤلاء لم يطالعوا شرعة حقوق الانسان، واكثرهم لم يسمع باسم شارل مالك، ولم يسمع حتى بوجود الامم المتحدة... ان هؤلاء يعرفون انهم بشر، مثلهم مثل وزير الاقتصاد وغير وزير الاقتصاد من «المسؤولين»... ويعرفون انهم اول امس لم يأكلوا خبزاً، بينما اكل وزراء الدولة واغنياؤهم الخبز الكثير، وغير الخبز ايضاً مما لا ينبغي للمتظاهرين ان يأكلوه، ومما لا يتجرأون حتى على الحلم به...

وهؤلاء المتظاهرون يعرفون ايضاً ان وزير الاقتصاد وزملاءه الحكام لا يفضلونهم بكثير امام الله، وانهم سيمثلون مثلهم امام الله في يوم لا مهرب من دينونته، اذا كانت دينونة الشعب لا ترهبهم...

وبين هؤلاء المتظاهرين ايضاً من يعرف ولا ريب ان سكان بناية دعبول وسائر البنايات انما هم حيث هم لانهم قد يفضلون التظاهرين بقدرتهم على تدلي مصالح الشعب، وان الشعب يدفع لهم ثمن خبزه ليسهروا على تأمين خبزه...

والمتظاهرون يعرفون ولا ريب، من حياتهم اليومية ومعاملاتهم مع الناس، ان الذي يتقاضى اجراً ليقوم بعمل معين لا يقوم به، يكون قد اساء الامانة وتصح معاقبته على اساءته...

وبعد، فسواء كان المتظاهرون يعلمون ان حكامنا قد اساؤوا الائتمان تصح محاكمتهم، وان لمحاكمتهم طرقاً ولمرتكبي، سواء كانوا يعلمون ذلك ام لا، فانهم يعرفون على كل حال ان الانسان الذي يهدده الجوع يحق عليه ان يدافع عن حياته ضد الموت، اذا كانت اداة الموت...

ويعرفون ايضاً - المتظاهرون والشعب الذي هم منه - يعرفون ان دولة لا تقوم حاكمها بواجبهم تجاه الشعب، ولا يؤدون الامانة، ولا يحكمون بالعدل - ان هكذا دولة، انما هي غاب، ليست دولة...

يعرفون ذلك، حتى وان كان الذين قرأوا لفنديس اوغسطينس قلائل جداً: «الفرق بين الدولة وعصابة اللصوص هو ان الدولة تعرف الله وتعرف العدالة والقانون، وعصابة اللصوص لا تعرف الله ولا تعرف عدالة ولا قانوناً...»

ان على الدولة ان تكون دولة، او لا تبقى...

كمال حبنا... جميل حمد
حسن الصح
نظارة
(نعوب)

«بدنا ناكل، جوعانين».

1952

كتب كمال جنبلاط مقالاً في جريدته «الأنباء» في 30 أيار/مايو 1952 بعنوان «جاء بهم الأجنبي فليذهب بهم الشعب». فأمرت حكومة الرئيس سامي الصلح بمصادرة الجريدة في المطبعة. وكانت هذه آخر حكومات عهد بشارة الخوري.

وقد بادر غسان تويني، وكان نائباً آنذاك، بالاشتراك مع النائب المعارض بيار اده إلى تهريب كمية من أعداد الجريدة من شرفة المطبعة.

ووجّه في اليوم التالي، إثر إحالة «الأنباء» ورئيس تحريرها على المحكمة، استجواباً إلى الحكومة طالباً طرح الثقة على أساس مخالفة الحكومة حقّ الصحف المقدّس، بل واجبها، أن «تعبّر عن كل ما يقول به الشعب، وإن يكن في ذلك انتقاد لأسمى المقامات». وتبع الاستجواب بيان أعلنت فيه «الجبهة الاشتراكية الوطنية» تضامنها مع «الأنباء»، بينما كان كمال جنبلاط يطلب محاكمته هو لا محاكمة رئيس التحرير اميل مكرزل.

اما الصحف المعارضة فاجتمع رؤساء تحريرها في مكاتب «النهار» وقرروا أن يعيدوا جميعاً نشر مقال جنبلاط مكان افتتاحياتهم. وهكذا كان. فردّت الحكومة باحالة مجموعة الصحف المعارضة على المحكمة دفعة واحدة وهي: «النهار»، و«الاوريان»، و«الشرق»، و«صوت الأحرار»، و«النداء»، و«صوت لبنان»، و«التلغراف»، و«الدستور»، و«كل شيء»، و«لوسوار». وجرت هذه المحاكمة في 4 حزيران/يونيو، فتحولت تظاهرة شعبية اشترك فيها زعماء المعارضة ومحازبوهم، واخترقت التظاهرة المدينة من ساحة البرج إلى قصر العدل ذهاباً واياباً، كما نظمت نقابة الصحافة إضراباً اضطرت حتى الصحف الموالية إلى التقيّد به، ثم دعيت المدينة إلى إضراب عام تضامناً مع الصحافة. وكانت تلك بداية نهاية العهد، إذ لم تتمكن الحكومة من إدخال أي من الصحافيين السجن، انما هي التي استقالت بتواطؤ سرّي مع المعارضة، ومع نقابة الصحافة كذلك...

1956

كتب غسان تويني مقالاً بعنوان «مجلس الوزراء السماسرة». فقررت الحكومة على الاثر ملاحقته متجاوزة النيابة العامة ومسألة رفع الحصانة عن غسان تويني التي لم تطلبها من مجلس النواب، معتبرة المقال «جرماً مشهوداً». فردّ غسان تويني بأن تقدّم بطلب للنظر في رفع الحصانة عنه قائلاً ان الحصانة تشمل كتابة المقالات. وقد أظهر النواب تأييداً له فتراجعت الحكومة ولم تطرح الموضوع عليهم وبدت كأنها أخذت برأيهم.

في نقابة الصحافة تضامناً مع «النهار» (اجتماع سياسي).

1973

نشرت «النهار» في 4 كانون الأول/ديسمبر 1973 المقررات السرّية لمؤتمر القمة العربي في الجزائر في ما عرف بـ«الملف الأحمر».

في باحة سجن الرمل.

تظاهرة طالبية تضامناً مع غسان تويني.

فأقيمت دعوى على «النهار» امام المحكمة بتهمة «إفشاء أسرار الدولة وتعريض سلامتها للخطر»، طالبة اسقاط غسان تويني من حقوقه المدنية وسجنه. وأدخل غسان تويني ووفيق رمضان (الذي أحضر المقررات من الجزائر) السجن في 5 كانون الأول/ديسمبر بتوقيف احتياطي، وقد برّأتهما المحكمة بتغيير المادة التي أحيلا عليها بموجبها، أي المسّ بأمن الدولة، فاذا بها تعتبر الأمر إفشاء أسرار مهنية وأبقيا في السجن حتى نهاية المحاكمة وصدور قرارها.

وهرّب غسان تويني مقالاً من وراء القضبان داخل علبة سجائر نصف فارغة بادلها بعلبة ملأى مع نقيب الصحافة آنذاك رياض طه. وكان عنوان المقال «إلى الرئيس فرنجية من وراء القضبان... مع محبتي». وقد فتح تحقيق في اليوم التالي مع مدير السجن واتخذت تدابير تأديبية في حقّه، كما منعت المقابلات عن غسان تويني ورفيقيه.

لافتة على مدخل إحدى المدارس احتجاجاً على توقيف غسان تويني عام 1973.

واستمر التوقيف ثلاثة اسابيع، لتبدّل هيئة المحكمة العسكرية مرّات، إلى أن انعقدت أخيراً برئاسة العقيد توفيق جلبوط وقررت تخلية غسان تويني ووفيق رمضان بحق.

وقد ميّزت النيابة العامة الحكم، فاجتمعت محكمة التمييز في 9 كانون الثاني/يناير 1974، وبعد 6 ساعات مذاكرة، قررت المحكمة تبرئة تويني ورمضان من جريمة الخيانة وجعل القضية جنحة إفشاء أسرار مهنية لا مساس فيها بأمن الدولة. وكان مجلس النواب قد استبق المحاكمة وعقد جلسة تداول فيها الأمر وشنّت المعارضة خلالها حملة مركزة على الحكومة كان أبرز المشاركين فيها الرئيس رشيد كرامي الذي قال أنه اطلع هو، في لجنة الدفاع الوطني، على «الملف الأحمر» الذي يقول الادعاء على «النهار» انه كان يحتوي أسراراً عسكرية. وبالفعل فان الملف يحتوي على مثل هذه الأسرار، ولكن «النهار»، على افتراض انها حصلت على الملف وأخذت منه المقررات، فانها امتنعت عن نشر «الأسرار»، مما يدلّ على وطنيتها ومهنيتها، فلا تستحق بالتالي الملاحقة، بل العكس.

وكانت هذه آخر معارك الحريات الصحافية.

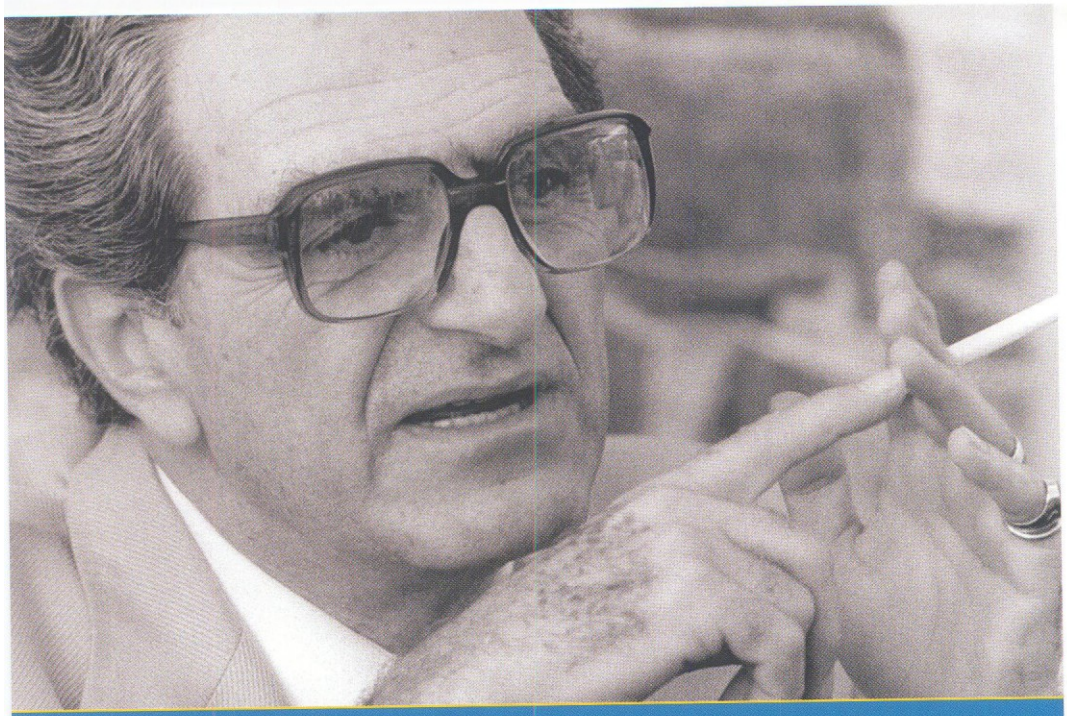

القومي

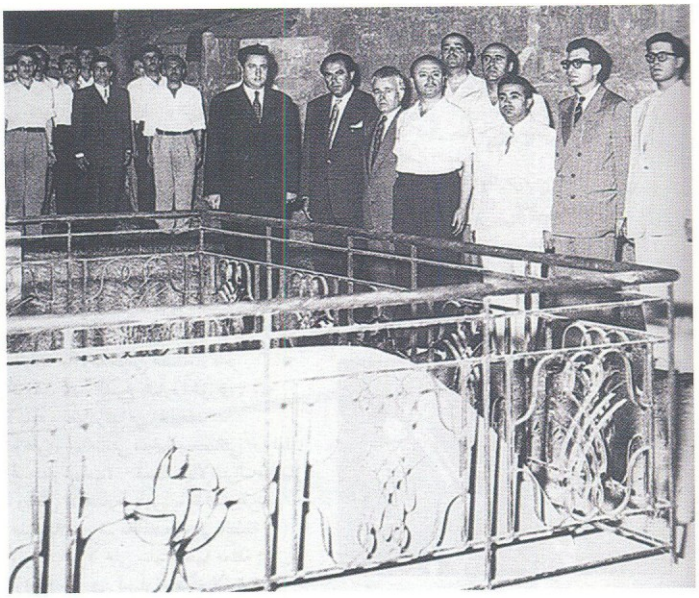

مع قيادة الحزب القومي
أمام ضريح انطون سعاده.

انتمى غسان تويني إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي عام 1943 رغم إرادة والده الذي لم يكن منسجماً، وهو العربي الهوى، مع العقيدة السورية.
وكان غسان تويني طالباً آنذاك في الجامعة الأميركية، والحزب سرياً، وقيادته في المعتقل، وزعيمه في المهجر.

وثمة مفارقة هنا هي أن غسان تويني كان كتائبياً في الثانوية، فصار قومياً في الجامعة!

كان العمل الحزبي سرياً، وأقرب الرفاق اليه في الجامعة يوسف الخال ورشدي وفوزي وحلمي معلوف، وكمال وبهجت خولي ويوسف نويهض.

وعيّن منفذاً عاماً للطلبة، ثم أصبح ناموساً لرئيس المجلس الأعلى نعمة تابت، فوكيلاً لعميد الاذاعة الدكتوركريم عزقول، ثم وكيلاً لعميد الثقافة الدكتور فايز صايغ. وكان عمره آنذاك بين السابعة عشرة والتاسعة عشرة.

وعندما سافر إلى أميركا صيف 1945 تابع نشاطه الحزبي هناك، وكان مكلفاً الاتصال بالزعيم انطون سعاده المنفي إلى الأرجنتين.

وكانت لديه ونعمة تابت نظرة لتطوير الحزب ولبننته في ضوء الاستقلال. وقد طرد نعمة تابت ومعه «التجديديون» في الحزب، وبقي تويني، حتى بعد طرد فايز صايغ.

في مهرجان حزبي.

بعد وفاة والده عاد غسان تويني إلى بيروت عام 1947، واجتمع بالزعيم انطون سعاده الذي كان عاد بدوره من الأرجنتين، فوجد أن أبواب التغيير موصَدة في شأن لبنان والحريات. وما لبث أن أصدر بياناً مع مجموعة من الرفاق بينهم يوسف الخال وحلمي معلوف ويوسف نويهض، بالانسحاب من الحزب. فما كان من الزعيم انطون سعاده الا أن أصدر مرسوماً بطردهم.

وبعد إعدام انطون سعاده في 8 تموز/يوليو 1949 كتب مقالاً قاده إلى السجن. والتقى هناك مجموعة من الرفاق بينهم الدكتور عبدالله سعاده وفؤاد ابو عجرم واديب قدوره. وأجرى هؤلاء تقويماً لمرحلة ما بعد «الثورة القومية الاجتماعية» التي قام بها سعاده. وعرضوا لمستقبل الحزب في غياب الزعيم. وقرر غسان تويني، إثر ذلك، العودة إلى الحزب وأقسم اليمين مجدّداً.

وأسندت اليه مسؤوليات سياسية ظلّت سرّية إلى ان انتُخب في 5 حزيران/يونيو 1951 نائباً على أساس المبادئ القومية (الاصلاحية).

وظلّ الحزب سرياً حتى مهرجان دير القمر عام 1952، ونظّم آنذاك تظاهرة كان غسان تويني في طليعتها.

واستمر عضواً في الحزب حتى انتخابات عام 1957 فترشح على أساس غير حزبي، الأمر الذي أوجد له مشاكل مع الحزب الذي أصدر قراراً بفصله. وقد خسر تلك الانتخابات.

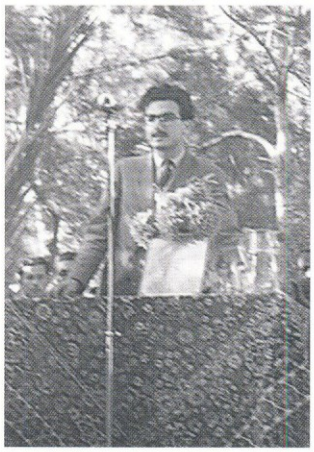

غسان تويني خطيباً.

واعتبر غسان تويني قرار فصله تصفية حسابات سياسية بعد التشرذم الذي اصيب به الحزب إثر اغتيال العقيد عدنان المالكي في دمشق، وطرد جورج عبد المسيح من الحزب بعد محاكمة داخلية.

واعتبر غسان تويني أن فصله من الحزب قد حرّره وحرّر الجريدة من المحازبة. وهو كان في تلك الأثناء منشغلاً بالعودة إلى «النهار» وفي جعبته أفكار كثيرة لتطويرها.

وقد أدرك، على ما قال مرّة، أن الصحافة لا تنسجم مع الحزبية، وخصوصاً مع التحزّب العقائدي.

ورغم ذلك يعترف غسان تويني بأنه لا يزال عضواً في تيار النهضة التي اطلقها انطون سعاده، وأنه ينتمي إلى جيل الخريجين مع كثيرين ممن تربّوا على العقيدة القومية التي أيقظت وعيهم.

ويقول عن تأثير انطون سعاده في حياته: «تعلمت من انطون سعاده نظام الايمان بالعقيدة، وتربية النفس بالنظام، فضلاً عن امثولة الاستشهاد التي هي التكريس التاريخي والمناقبي الوحيد لأي مثالية».

ويعترف بأنه لم يعرف «كالحزب مدرسة في الممارسة والنظام وتلقيح العقل بالولاء».

الأرثوذكسي

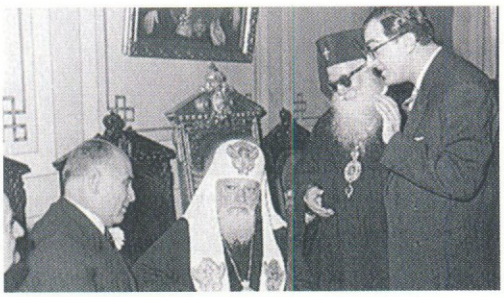

مع ألكسي الأول، اول بطريرك بعد قيام الدولة السوفياتية والرئيس صائب سلام والمطران ايليا الصليبي.

لطالما أثارت ارثوذكسية غسان تويني، و«النهار» تالياً، الكثير من التساؤلات وعلامات الاستفهام، علماً ان الرجل علماني وغير طائفي، ويبشّر بفصل الدين عن الدولة، بفعل انتمائه في شبابه إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي يحارب الطائفية، ثم اقترانه بالشاعرة نادية تويني ابنة الدبلوماسي الدرزي السفير محمد علي حماده.

مع البطريرك أغناطيوس الرابع هزيم رفيق الدراسة والحياة.

مع البطريرك أغناطيوس الرابع هزيم والمطران الياس عوده ورئيس جامعة البلمند الدكتور ايلي سالم.

والواقع أن غسان تويني، كما والده جبران تويني، لم ينكرا ارثوذكسية «النهار»، الا أن ذلك لم يعنِ جعلها ارثوذكسية الصبغة. وقد أوصى جبران تويني أبناءه بألا تكون «النهار» طائفية وتحُلّ الوطنية في المسائل العامة مكان كل قوة طائفية. لذلك كان رئيس مجلس المراقبة في شركة «النهار» منذ تأسيسها عام 1964 مارونياً عريقاً عميق الجذور هو المحامي فارس الزغبي. ولكن الرجل علماني التفكير، ولعله في نظر غسان تويني «أكثر موارنة جيله انفتاحاً وثقافة مدنية».

وربما سهل على «النهار» الا تكون طائفية اتّخاذ مؤسسها جبران تويني اللاطائفية شعاراً لـ«الاحرار»، ثم لـ«النهار»، على أساس «أن الارثوذكسية هي طائفة اللاطائفة»، كما يصفها البطريرك الارثوذكسي أغناطيوس الرابع هزيم.

في احتفال وضع الحجر الأساس لإعادة ترميم مقام سيدة النورية في الوسط التجاري.

وفي الحديث عن الارثوذكسية والبطريرك هزيم، نشير إلى ان الشماس هزيم الذي رافق غسان تويني في الدراسة الثانوية ثم في الجامعة الأميركية، لا يزال أقرب الأرثوذكس اليه. وقد جمعتهما على ما يقول غسان تويني «إلى الولاء البنوي رفقة عمر وتربية. بدأت بالدراسة الثانوية واستمرت مع دراسة الفلسفة معاً عام 1945 في الجامعة الأميركية. ثم الموافقة والمواظبة في الفكر والعمل حتى تأسيس جامعة البلمند».

وثمة ثلاثة ارثوذكس آخرون يقول غسان تويني إنه تتلمذ عليهم هم: والده جبران تويني، وزعيم الحزب السوري القومي الاجتماعي انطون سعاده، واستاذه في الجامعة الأميركية الدكتور شارل مالك.

وقد قادته ارثوذكسيته إلى روسيا عام 1988 للمشاركة في احتفالات العيد الألفي لمعمودية الروس.

داخل كاتدرائية القديس جاورجيوس التي أشرف على ترميمها.

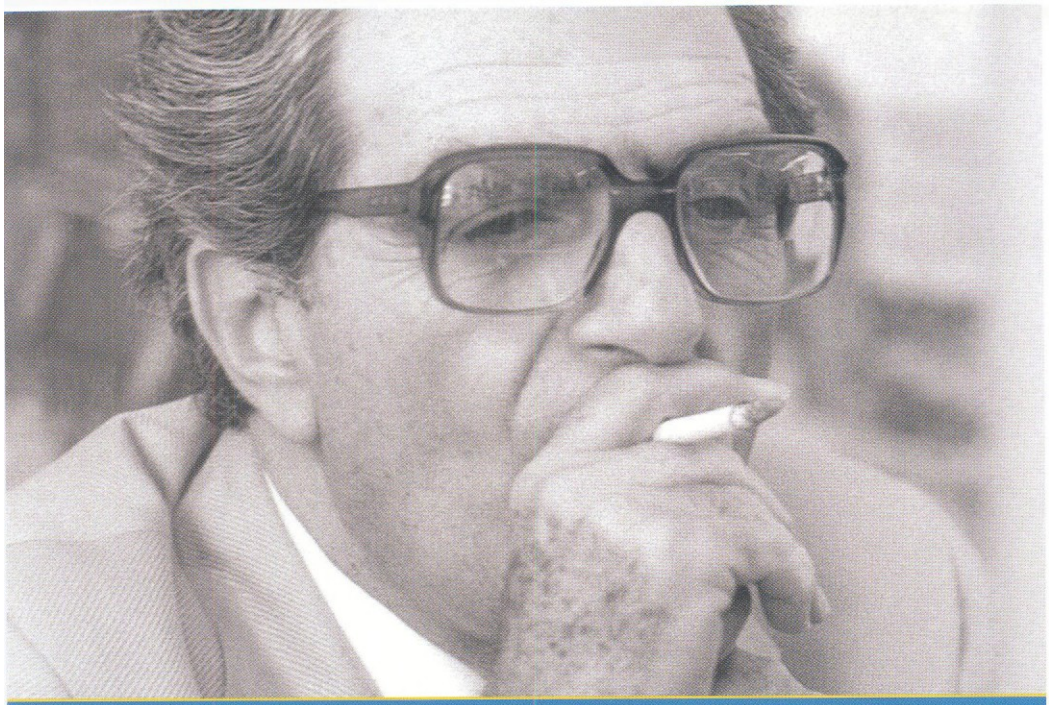

أقوى من الاغتيال الاقتصادي

لم يواجه غسان تويني في حياته حرباً كتلك التي شنّها الرئيس سليمان فرنجية عليه وعلى «النهار» في ما وصفه تويني بأنه محاولة اغتيال سياسي.

فقد كلّف فرنجية الأمن العام في أيار/مايو 1974 إرهاب المعلنين وشركات الاعلان لمنعهم من نشر اعلاناتهم في «النهار» بغية دفعها إلى الافلاس وتشريد العاملين فيها انتقاماً من غسان تويني الذي كان له ولـ«النهار» دور رئيسي في ايصال فرنجية إلى الرئاسة، لكنه رفض ان تكون «النهار» جريدة العهد الفرنجي.

وفشل فرنجية في حربه هذه، وانتصرت «النهار» ومعها غسان تويني. فقد وقف معها القرّاء والنقابات وسائر هيئات المجتمع المدني، إلى عدد من الوزراء وأكثرية مجلس النواب. وشهد مجلس الوزراء جلسات عاصفة جاهر فيها عدد من الوزراء بمواقفهم المنددة بالحملة ضدّ «النهار»، كما اشترى معلنون مساحات بيضاء في «النهار» متحدّين السلطة ورئيس الجمهورية، وواقفين بجانب «النهار» مبادلينها الوفاء لوقوفها بجانبهم على الدوام.

وعقد اجتماع نيابي في فندق البريستول في 22 أيار/مايو بدعوة من نقابة الصحافة تحوّل مهرجاناً، حضره 38 نائباً وعدد من رؤساء الحكومة السابقين.

وأقامت «النهار» 3 دعاوى على الدولة. وفي 9 حزيران/يونيو صعد الرئيسان كميل شمعون وصائب سلام إلى القصر الجمهوري وناشدا الرئيس سليمان فرنجية وقف الحرب الاقتصادية ضدّ «النهار». فصدر على الأثر أمر من فرنجية بوقف هذه الحرب، الا أنها لم تتوقف، إذ خطف رئيس التحرير ميشال ابو جوده ونقل إلى سوريا ثم اعيد في 8 تموز/يوليو لتنتهي الحرب في 12 منه.

كاريكاتور بيار صادق يتناول منع الإعلانات عن «النهار».

اجتماع في نقابة الصحافة ويبدو النقيب رياض طه متحدثاً دعماً لـ«النهار» في الحرب الاقتصادية عليها.

اعلان

هذه المساحة الاعلانية دفع ثمنها أحد تجار سوق بيروت الذي حالت مضايقات الامن العام دون تمكنه من الاستمرار في حملة الاعلانات التجارية التي كان يقوم بها في النهار. وقد طلب ان نعيد في هذه المساحة نشر نص البيانين اللذين اصدرتهما غرفة التجارة والصناعة وجمعية تجار بيروت دفاعاً عن حرية الاعلان وذلك في ٢٣ و ٢٤ أيار ١٩٧٤ وفي ما يأتي نص البيانين:

بيان غرفة التجارة والصناعة

« ان مجلس ادارة غرفة التجارة والصناعة في بيروت ، بعد اطلاعه على المشروع المعلق بانشاء مكتب للاعلانات الصحافية ، وبعد استماعه الى وجهة نظر نقيب الصحافة اللبنانية وممثلي أعضاء مجلس النقابة حول المشروع ، لا يسعه الا ان يؤكد حرصه الشديد على صيانة الحريات العامة، بما في ذلك حرية الصحافة وحرية رجل الاعمال في اختيار وسيلة الاعلان التي يراها محققة لمصالحه .

ويرى المجلس ان كل تقييد لحرية الصحافة او تعطيل للمنافسة في ما بينها ، هو بمثابة تقييد للحريات العامة وتعطيل للمنافسة المشروعة في اطار النظام الحر .

والمجلس كله ثقة بتجاوب المسؤولين وحرصهم على تأمين صيانة الحريات العامة وحسم سير مرتكزات النظام الحر » .

(٢٤ أيار ١٩٧٤)

بيان جمعية تجار بيروت

« استقبل رئيس جمعية تجار بيروت السيد فيكتور قصير واعضاء مجلس الادارة في السادسة والنصف من مساء اليوم مكتب الصحافة الاستاذ ريمن طه ووفدا من اعضاء مجلس النقابة تلبية في مقبه حرية الصحافة . وبعدما عاقش المجتمعون المشروع المقترح لمراقبة توزيع الاعلان . اكد مجلس ادارة الجمعية حرصه على الحريات في لبنان ، مذكرا بدعوة الجمعية السابقة الى صيانة الحرية وتأمين المناخ الملائم لتشجيع المبادرة الفردية والمنافسة المشروعة في كل النشاطات التي تخدم لبنان اقتصاديا واجتماعيا . ويعتبر مجلس الادارة ان الحرية هي مبدأ لنظام الحكم وسبب نجاحه وتبرير بقائه به . واكد مجلس ادارة الجمعية دور الصحافة و تدخله في الحريات ودعمها بالنصح والتوصية و تدريبه في حقل الاعلام . هذا هو لبنان و هذا دوره وسائله الاعلان التي يراها ضامنة لصحافته وحقيقة لاعلامه » .

(٢٣ أيار ١٩٧٤)

يوم منع رئيس الجمهورية سليمان فرنجية شركات الإعلان من التعامل مع «النهار».

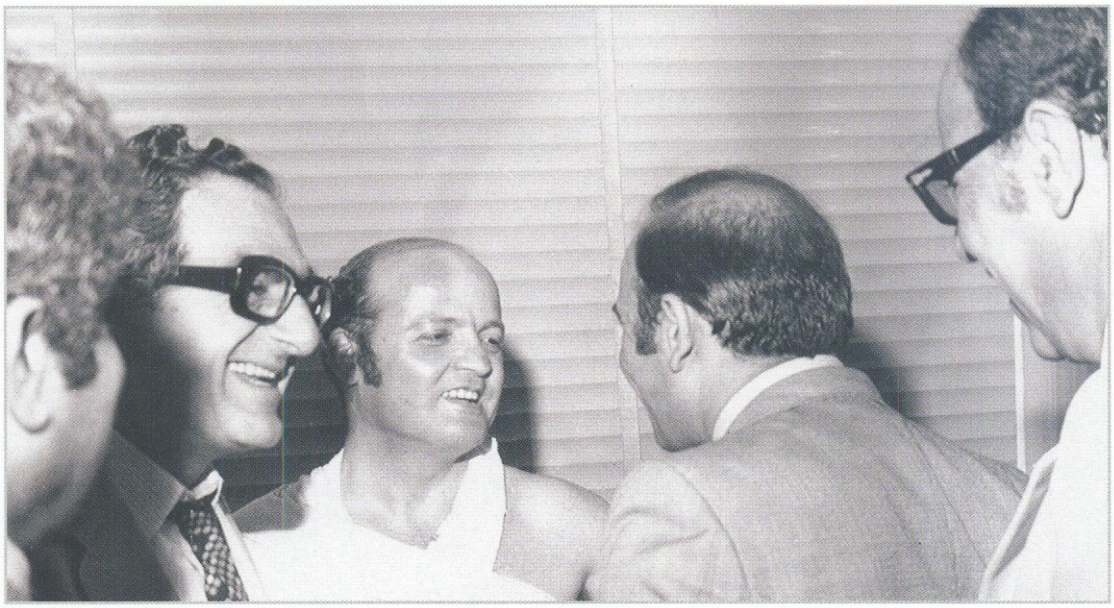

مع ميشال ابو جوده بعد عودته من الخطف.

مع الرئيس حسين الحسيني ومجموعة من النواب الذين تضامنوا مع «النهار» بعد وقف الإعلانات عن الصحيفة بقرار رئاسي.

لقاء سياسي-صحافي تضامني مع «النهار» بسبب الحصار الاقتصادي الذي فرضه الرئيس سليمان فرنجية عليها.

«نهار» الأحد

منذ عودته من الولايات المتحدة حلم غسان تويني بأن يصبح لـ«النهار» عدد ليوم الأحد يشبه أعداد الأحد في الصحف الأميركية. فكان أول ملحق صغير عام 1948 لمناسبة مؤتمر الاونيسكو في بيروت. ثم توالت الملاحق، بدءاً بملحق يومي بالألوان عام 1964 وكانت «النهار» رائدة فيه، وقد أفادت من تجهيزات إنتاجية لم تكن متوافرة آنذاك حتى لدى الصحف العربية الكبرى، من خلال آلة طابعة على «ويب اوفست» من طراز «كولور كينغ» تطبع 16 صفحة بالألوان بسرعة 18 ألف نسخة في الساعة.

وكان الملحق اليومي ثورة في الصحافة والنشر في لبنان. وصدر العدد الأول من الملحق في 25 شباط/فبراير 1964 لكنه لم يستمر طويلاً بسبب العبء المالي الذي شكله على «النهار»، والضغط الذي مارسته الصحف الأخرى على نقابة الصحافة لإجبار «النهار» على زيادة سعر بيع النسخة من الجريدة اليومية، فتحول أسبوعياً باسم «الملحق» وصدر في 15 أيار/مايو من تلك السنة، تبعه «النهار الاقتصادي والمالي» في 5 كانون الثاني/يناير 1969 فـ«نهار الرياضة والتسلية» في كانون الثاني/يناير 1971، فـ«النهار الانمائي». واضطرت «النهار» تحت وطأة الأحداث التي اندلعت شرارتها في 13 نيسان/أبريل 1975 إلى قفل كل الملاحق، ليعود ويصدر منها «الملحق» و«نهار الشباب» و«النهار الرياضي». ومرّة أخرى تضطر «النهار» إلى قفل الملحقين الأخيرين بفعل الأزمة الاقتصادية التي عصفت بالبلاد وكانت موارد الصحف من الاعلانات إحدى ضحاياها، فلم يبق من الملاحق سوى «الملحق».

نموذج من غلافات الملاحق
التي اصدرتها «النهار»
خلال مسيرتها.

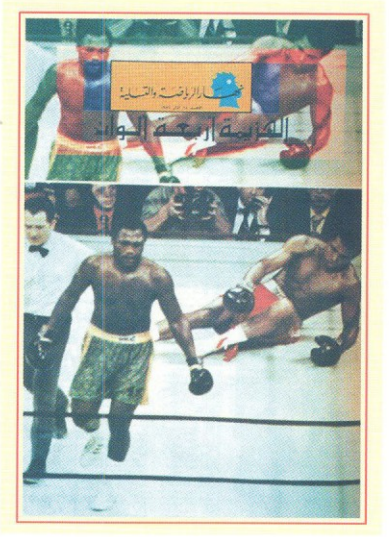

الرياضة والتسلية
فرحة كروية زغرتاوية
٣ جبهات في الدوري

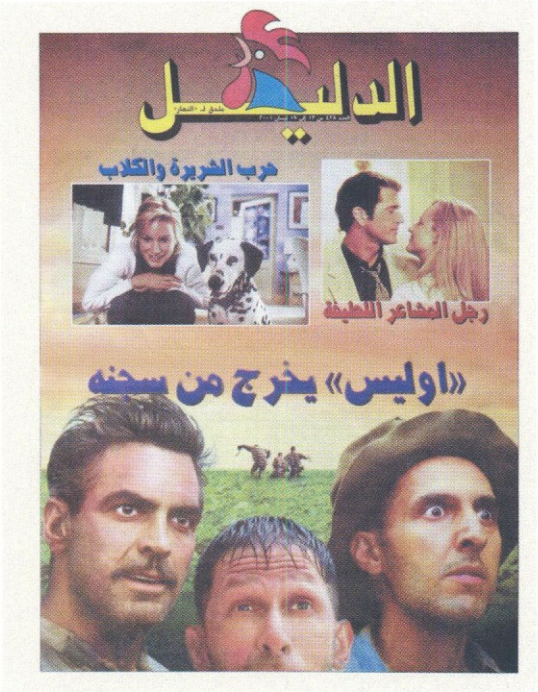
الدليل
حرب الشريرة والكلاب
رجل المشاعر اللطيفة
«أوليس» يخرج من سجنه

نهار الشباب
جولة الحوار الرئاسية
- المضمون قبل الشكل!
- هل أصبح الممنوع ممكناً؟
قيصر معوّض:
المواطنية ثقافة والتزام
رفقا قديسة لبنان: رجاء جديد للقلوب

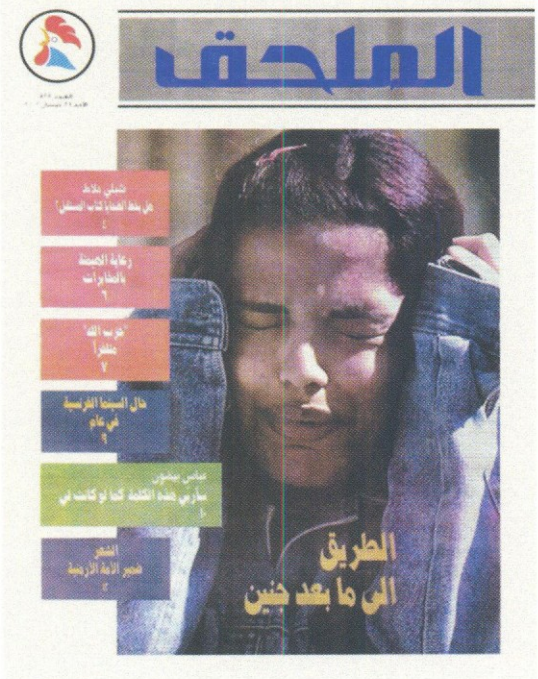
الملحق
الطريق الى ما بعد جنين

شاهد على عصره

ندر أن اجتمعت في شخص واحد الصفات التي وهبها الله لغسان تويني.

كذلك ندر أن تصارعت في شخص واحد الأدوار التي مثّلها غسان تويني.

ويصعب لديه رسم حدود الصحافي والمفكّر والشاعر والمسرحي، والكاتب والسياسي، والفيلسوف، والاستراتيجي.

لذلك كان محطّ أنظار على الدوام من السياسيين اللبنانيين والعرب والأجانب، وكذلك من الصحافيين والقادة في المنطقة العربية والعالم. وألبومه زاخر بالصور الشاهدة والمعبّرة.

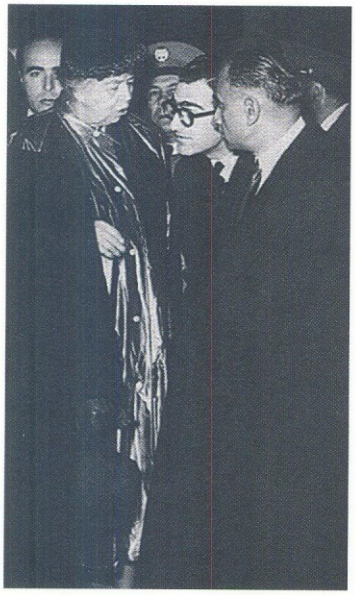

مع السيدة ايليونور روزفلت
في بيروت، ويبدو نقيب
الصحافة كميل يوسف شمعون.

مصافحاً وزير خارجية
الولايات المتحدة الأميركية
هنري كيسينجر.

مع الرئيس جورج بوش الأب، ويبدو الرئيس نبيه بري في القصر الجمهوري في بعبدا.

مصافحاً الرئيس الفرنسي جاك شيراك ويبدو الرئيس رفيق الحريري.

مع رئيس الجمهورية الاسلامية الايرانية محمد خاتمي في جامعة القديس يوسف.

مع وزير خارجية بريطانيا جاك سترو في مبنى «النهار».

مع الملك فيصل بن عبد العزيز في الرياض ممثلاً لليونيسيف.

مع الملك فهد بن عبد العزيز حين كان ولياً للعهد.

مع الملك خالد بن عبد العزيز.

مع الرئيس المصري أنور السادات في الاسكندرية.

مع الزعيم الليبي معمر القذافي.

مع الرئيس السوري حافظ الأسد.

في حوار تلفزيوني مع الملك حسين.

مع الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات في مبنى «النهار» ويبدو ميشال ابو جوده وعبد الكريم ابو النصر.

مع الرئيس المصري حسني مبارك والسفير نديم دمشقية.

مع الرئيس العراقي صدّام حسين.

مع وزير خارجية الكويت جابر الأحمد الصباح.

غسان تويني يلتقي جعفر النميري في الخرطوم (1974).

مع الشيخ محمد بن راشد في دبي بعد إهدائه غسان تويني كتابه «رؤيتي».

مع الملكة رانيا في زيارتها «النهار» ويبدو السيد علي غندور والصحافي سمير قصير والسيدة سهام جبران تويني ونايلة تويني والسفير الأردني.

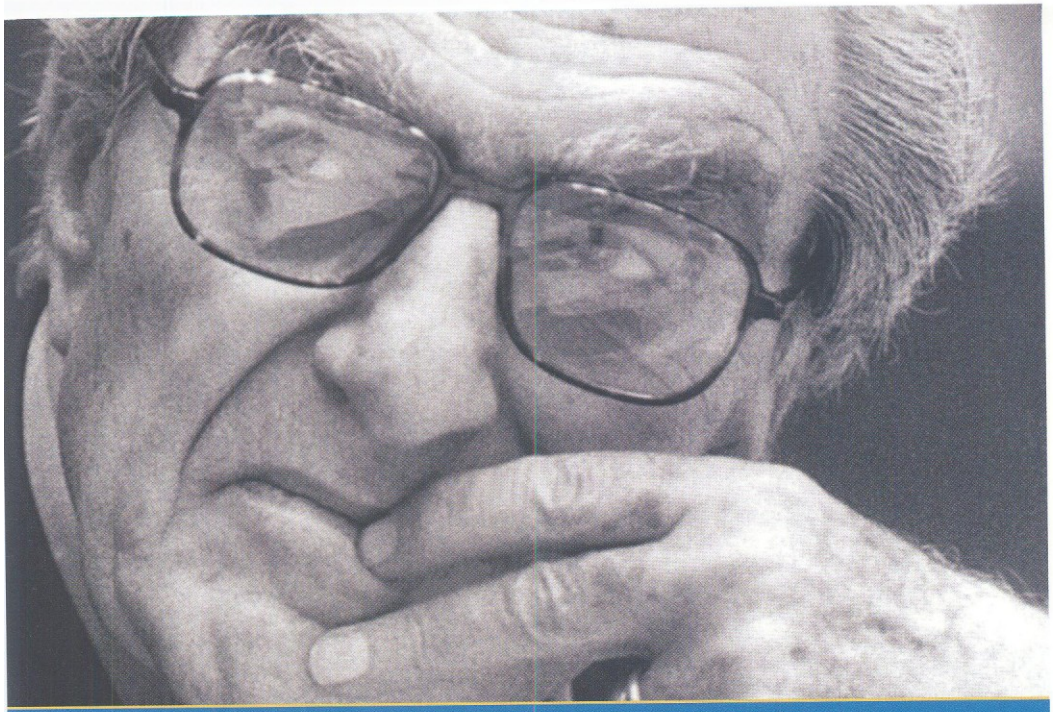

العائلة التوينية

صور من ألبوم العائلة من أيام جبران توينى الأب

جبران تويني الأب.

اديل سالم التويني.

على سطح المنزل العائلي في بيروت.

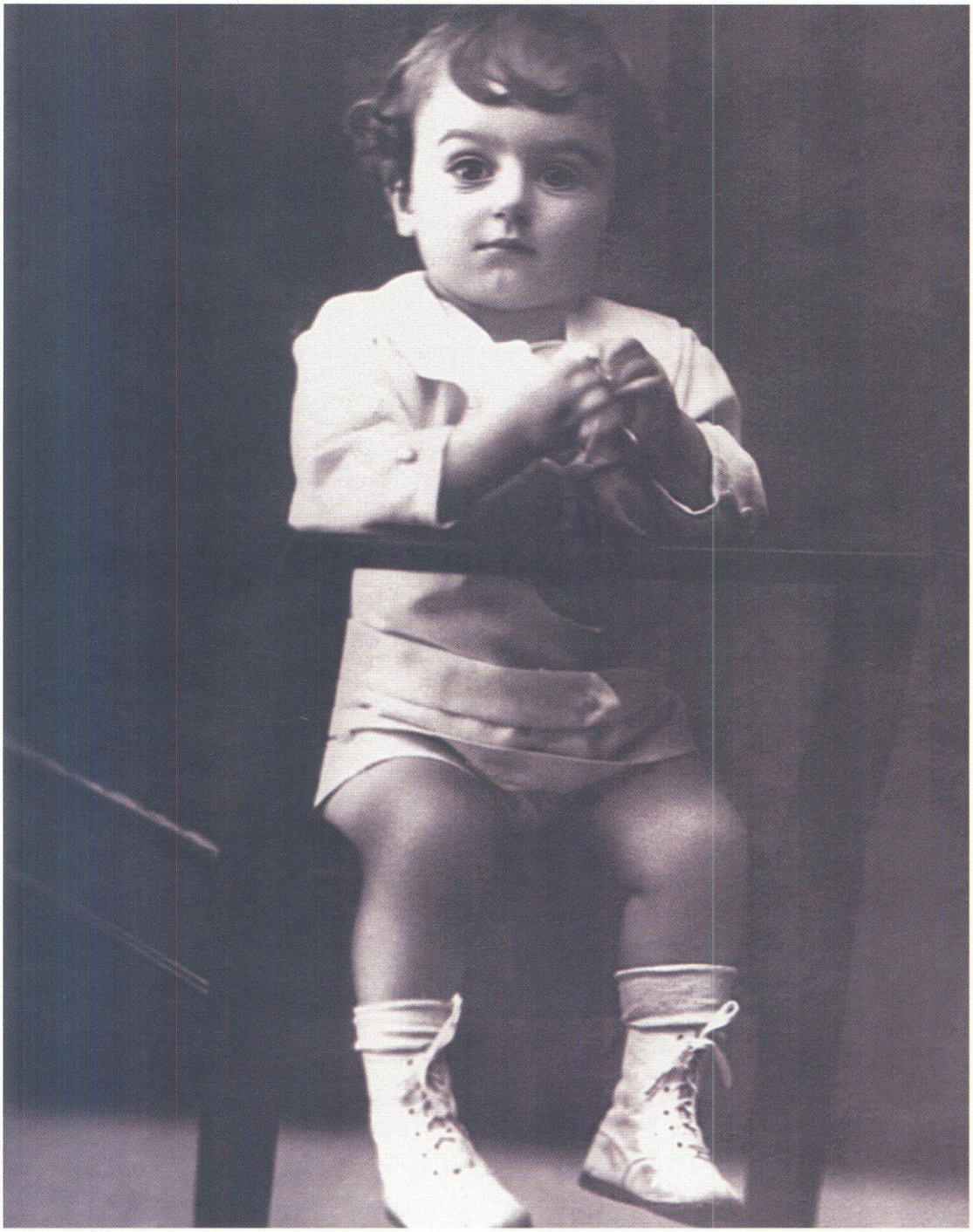

غسان تويني طفلاً.

مع والده جبران وملك اليونان لدى زيارته كاتدرائية القديس جاورجيوس في بيروت خلال حرب 1939.

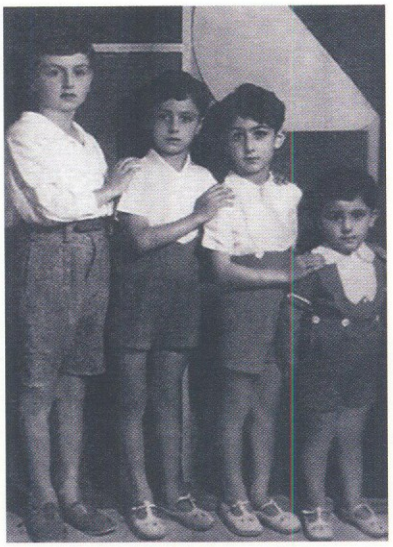

مع اشقائه، من اليمين: سامي، فؤاد، وليد.

مع خالته ماري في «مقهى ميشال تويني» في طرابلس (ساحة التل التي أزيلت).

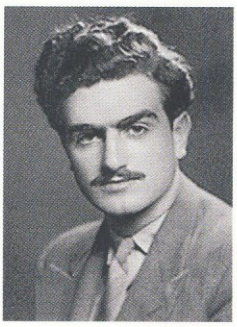

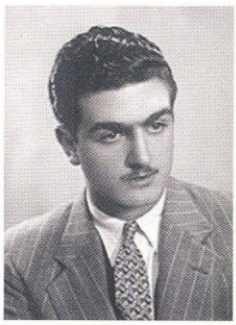

غسان تويني شاباً.

غسان ونادیا تويني في مصر بعد زواجهما.

في مقهى مطار بيروت محتضناً ابنته نايلة وهي ذاهبة للمعالجة في لندن. وتبدو ناديا تويني الثانية من اليسار وعدد من الاصدقاء.

في احد الشعانين مع ابنه مكرم.

مع جبران الصغير.

مع ناديا وجبران ومكرم.

مع مكرم.

مع السيدة ناديا.

غسان ونادیا تويني.

نايلة جبران تويني في
مكتب جدّها غسان.

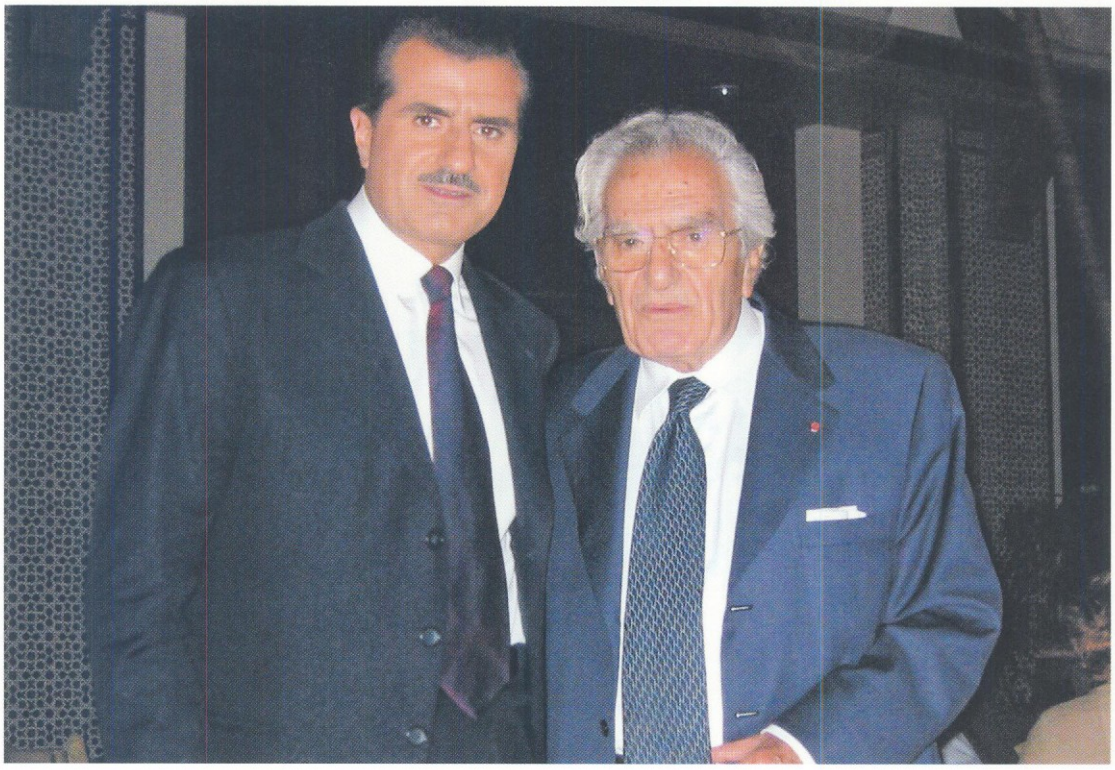

غسان وجبران بعد تولي جبران الادارة العامة لجريدة «النهار».

بين اشقائه سامي وفؤاد ووليد وابنائهم جبران وبسام وزياد وناجي وتبدو صورة ابنه مكرم.

نايلة توينى تتوسط جدها غسان ووالدها جبران عندما تسلم جبران رئاسة مجلس إدارة «النهار».

مع جبران وسهام تويني احتفاءً بفوز جبران في الانتخابات النيابية.

غسان تويني متوسطاً زوجته شادية وأرملة جبران السيدة سهام تويني.

غسان ونايلة تويني يوم 14 شباط/فبراير في ساحة الشهداء.

في ذكرى مرور 40 يوماً على استشهاد جبران تويني في كاتدرائية القديس جاورجيوس الأرثوذكسية في الوسط التجاري ويبدو غسان تويني محاطاً بزوجته شادية وأرملة جبران سهام وحفيداته الأربع نايلة، ميشال، ناديا وغبرييلا.

مع ناديا الصغيرة في الكنيسة.

مع جيل الأحفاد الصغار. غسان وشادية، ويبدو النائب غسان مخيبر والسيدة رينيه بابادوبولوس في عيد الشعنينة في بيت مري.

من أعماله

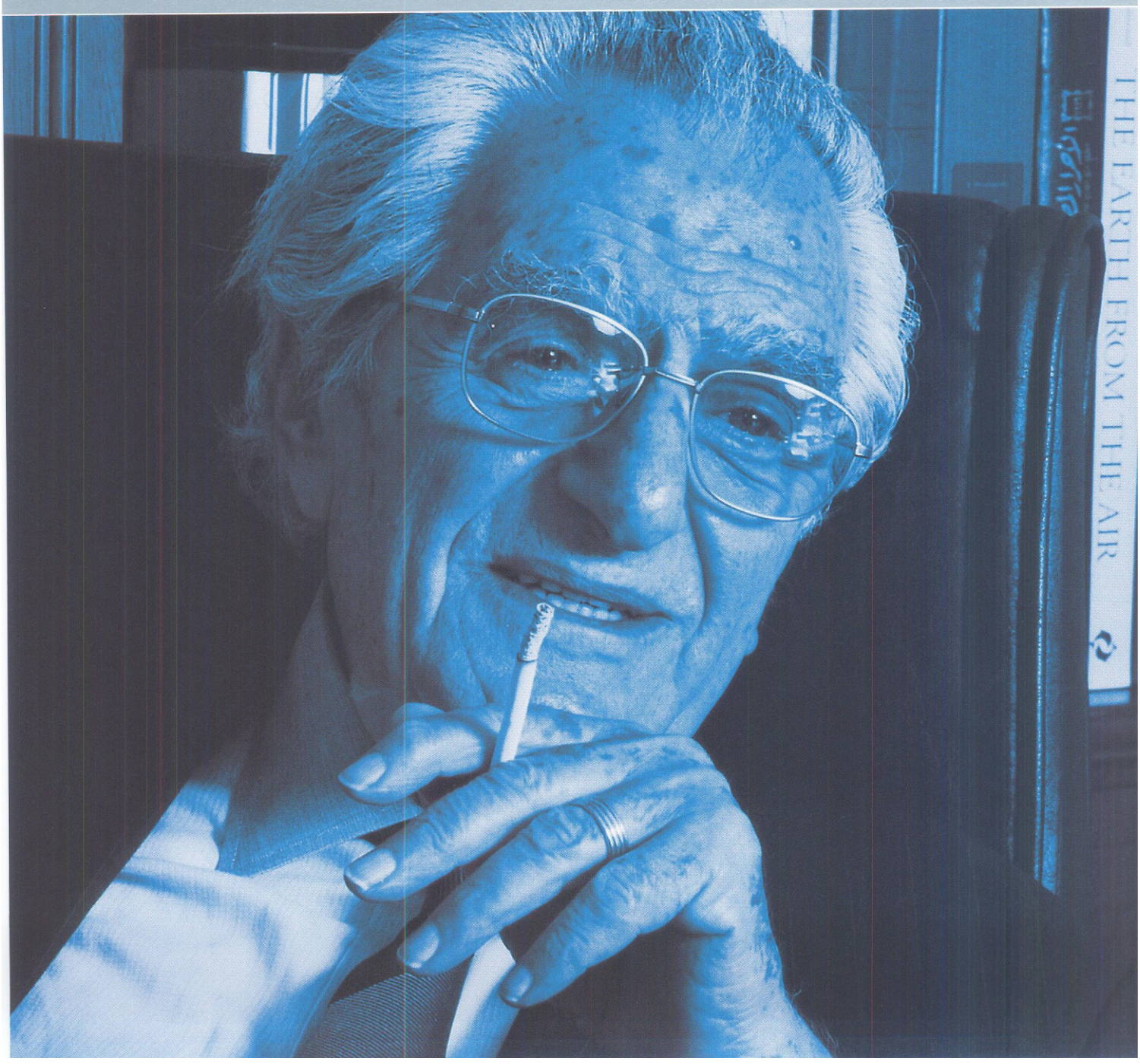

إلى رؤساء لبنان: كلمات ستبقى

تعاقب على رئاسة الجمهورية اللبنانية
أكثر من رجل. تغيرت الأسماء والبرامج
والنهاريات ولكن رسائل غسان تويني
إلى هؤلاء بقيت في ذاكرة التاريخ شاهداً
على ما يطمح إليه المؤمن بالحرية
والعدل والارتقاء.

ظل غسان تويني يخاطب الرؤساء وهاجسه
الأول: الحرية والعدل وبناء الدولة، ولا
يزال هذا الهاجس حلمه بالأمس والدعوة
إلى إقامة لبنان الجديد حلمه غداً.

بشارة الخوري 1943-1952

الرئاسة ودورها الدستوري

في مثل هذا اليوم من عام 1943 انتخب المجلس النيابي اللبناني الشيخ بشارة الخوري رئيساً للجمهورية مدشناً بذلك عهداً جديداً حفل باحداث وطنية تاريخية فدعي بحق عهد الاستقلال. ولئن تكن البلاد قد عيّدت، في مثل هذا اليوم من كل عام طيلة ستة اعوام، فليس تيمناً بجلوس الرئيس – والبلاد الديمقراطية لا تقيم الاعياد لذكرى جلوس رؤسائها – بل لأن اليوم الذي ارتفع فيه إلى سدة الرئاسة الرجل الذي جعل الجهاد من اجل الدستور سبيله إلى الحكم، هو يوم الدستور. فالعيد اذاً ليس ملكاً لشخص يزول بزوال رئاسته، بل هو ملك لبنان الذي حيّا في الشيخ بشارة الخوري رمز الدستور.

وانه لمن مفارقات السياسة اللبنانية أن يستهل فخامة الرئيس ولايته الجديدة التي مهّد لها بتعديل الدستور وثمة من يطعن في شرعية رئاسته مفسداً على العيد معناه...

انه ولا ريب مما يؤلم اول رئيس دستوري في لبنان، بل مما يؤلم كل لبناني مخلص، ان يقال ان اول مجلس انتخب في عهد الاستقلال كان مجلساً مزوراً، وان القصد من تزويره انما كان ضمان اكثرية نيابية تعدّل الدستور بحيث يتمكن الشيخ بشارة الخوري من البقاء في كرسي الحكم! فاللبنانيون المخلصون – الذين لا يملكون وسائل الفصل في مسألة شرعية المجلس وما انبثق عنه – يتطلعون اليوم إلى الرئيس آملين ان تأتي الولاية الجديدة – واخصامها لا ينكرون انها واقع قائم – بما يجعل شرعيتها او عدم شرعيتها مسألة شكلية يصح تجاوزها.

ذلك انه لا يفوتنا، ونحن من الذين لم يأخذوا على المجلس انه انتخب في 25 أيار/مايو، ولم يأخذوا على تعديل الدستور انه خرق للدستور – لا يفوتنا ان الدستور ليس نصوصاً متحجرة، ان هو الا نظام حي يقوم على العدل في الحكم، وعلى ثقة المواطن بان الاحكام القائمة تضمن حقوقه وتصون مصالحه، والتاريخ يشهد بان الشعوب تنتفض على اوضاع قامت شرعاً، فلم تحل شرعيتها بينها وبين ضرورة زوالها، وفي التاريخ ان اكثر من دولة قامت على خرق للدستور، ثم باتت اوضاعها شرعية لمجرد تكريس رضى الشعب لأوضاعها القائمة.

انها اذاً امنية نتوجه بها إلى الرئيس، وهو الذي عاهد المجلس يوم جددت له الولاية، بان

يكون «الخادم الامين للشعب اللبناني الأبي النبيل» فيؤمّن «التطور المطرد من الحسن إلى الاحسن» ويحقق «ما يصبو اليه الشعب من اصلاح واسع شامل» – انها امنية نتوجه بها اليه، ان تأتي هذه الولاية الجديدة حافلة بالاحداث التي تكفّر عن نشأتها في نظر الذين يلصقون بها وصمة التزوير.

ولسنا نرى في دستورية الرئيس ما يعفيه من هذا الواجب، فان جوهر الحكم الديمقراطي هو في كون الحكم امانة يضعها الشعب بين يدي الحاكم، يسأله عنها ويحاسبه على تأديتها. وان للرئيس في الدور التوجيهي الذي يلعبه، ما يجعله المسؤول الفعلي، ان لم نقل الشرعي، عن تحقيق ما ينتظره الشعب من فخامته، والشعب هو السيد الوحيد الذي لا يزول سلطانه.

وبعد، فان فخامة الرئيس يعرف تمام المعرفة ان التاريخ له بالمرصاد، وان حساب التاريخ ليس كحساب البرلمانات...

والتاريخ، يا فخامة الرئيس، هو تلك الاجيال الطالعة التي تؤكد اليوم ارادتها بالاشتراك في سياسة دولتها. انها، يا فخامة الرئيس، ترجو ان تترك لها بقية من الرجاء بان الدولة التي لم يستقم صرحها في ست سنوات، ليس صرحها بمستحيل الاشادة.

(النهار، 1949/9/21)

كميل شمعون 1952-1958

الاسطـول الســادس

(الاسطول السادس... المسلمون والمسيحيّون)

نعرف ان الاسطول السادس لم يأت لاحتلال لبنان... ونعرف ان كميل شمعون لم يدع الاسطول السادس ليسلمه مقاليد الحكم!...
ولكننا نعرف كذلك – ولا نخال كميل شمعون يمكن ان يجهل – ان الجيوش، حتى تلك التي تأتي محررة، تتحول مع الوقت إلى جيوش احتلال، فكيف بالجيوش التي يدعوها الحكام لغرض لا يؤمن به الشعب؟
ان القرار الذي اتخذه رئيس الجمهورية ووزراؤه هو اخطر قرار اتخذه حاكم لبناني منذ الاستقلال... بل قد لا يعادل هذا القرار خطورة سوى قرار الاستقلال نفسه...
والصلة بين القرارين اكثر من صلة الشبه، وهي تتعدى حدود المقارنة إلى نطاق السبب والمسبب...
ماذا نقول؟ وماذا نعني؟
نقول، ونعني ما نقول، ان الاسطول السادس في بلادنا قد يؤدي إلى نهاية الاستقلال اللبناني...
ونقول، ونعني ما نقول، ان الايدي التي سجلت، في تاريخنا، دعوة الاسطول السادس إلى المجيء، سجلت اسود نقطة، وأحلك صفحة في تاريخنا الحديث...
ونقول، ونعني ما نقول، ان الرؤوس التي قررت هذا الطلب لا تعرف كيف تحب لبنان، ولا تحرص عليه، فضلا عن انها لا تعرف كيف تحافظ على «العالم الحر» وعلى صداقة الغرب و... على ما هو أثمن وأعز من صداقة الغرب: على احترامه لنا ولبلادنا ولكرامتنا!
ولنكن صريحين، ولنسم الامور باسمائها: في لبنان اليوم، اكثر من اي يوم مضى، تمييز لا بد من قياس الاحداث بالنسبة اليه: تمييز بين المسيحيين والمسلمين.
فأما المسلمون، فقد بعثت فيهم الحركة الناصرية احلاما وعواطف لا مجال للتعامي عنها، منها ما يستثير البطولات الدفينة، ومنها ما يحرك الطموح إلى العظمة، ومنها ما يغذي التوق إلى الوحدة المفقودة...
واما المسيحيون، فقد عرفت سياسة العهد، منذ زمن غير قصير، كيف تبعث فيهم، او في اكثريتهم الساحقة، نظرة نحو الغرب كانوا في طريق التحرر منها: نظرة الاطمئنان إلى حماية من الطراز الصليبي البالي...

ولئن يكن من حق الانصاف علينا ان نقول ان احداث العالم العربي الاخيرة، واحداث لبنان، فضلا عن تصرفات بعض الزعماء المسلمين وبعض رجالهم قد سهلت للنظرة «الصليبية» مهمتها، فان ما لا بد من قوله كذلك، انصافا، هو أن واجب المسيحيين تجاه الحفاظ على الكيان اللبناني، كيانا مسلما – مسيحيا، اعظم من واجب المسلمين، لأن مصلحتهم به اكبر من مصلحة المسلمين...

فالى بعض المسيحيين الذين لا يزالون يعللون النفس بان عهد الحمايات والحروب الصليبية لم يولّ بعد نقول، بالصراحة ذاتها، ان الاسطول السادس لم ينزل عسكره لحمايتهم، بل لحماية مصالحه الحيوية... وان مصالحه الحيوية لا دين لها، واذا كان لا بد من تسمية الذين هي في عهدتهم تسمية دينية، قلنا انهم المسلمون الذين يقبضون على زمام المصالح الغربية، وهم المسلمون الذين سيتودد اليهم الغرب وسيسعى لكسب صداقتهم.

من هنا ان على اللبنانيين الذين يريدون الحفاظ على لبنان ان يقابلوا الاحداث التي نقدم عليها باحلال الشعور الوطني محل اي شعور آخر، فيحولوا دون تحول مجيء الجيوش الاجنبية إلى مناسبة لاعادة النظر في الكيان اللبناني مرة ثانية، فيتفسخ جغرافياً بعد ان كاد يتفسخ اجتماعيا وسياسيا!

وبعد، فالجيوش الاجنبية لن تحل القضية اللبنانية، التي فتح ملفها اليوم على مصراعيه.

واذا كان من المستحيل على اللبنانيين ان يدفعوا الجيوش خارج حدودهم بالقوة، فانه في وسعهم بعد ان يعودوا إلى الاتحاد، وان يلقوا خلافاتهم جانبا، وان يجتمعوا على صعيد الحفاظ على لبنان، فيقطعوا على المجرمين العابثين باستقلال هذا الوطن مجال الاجهاز عليه!

(النهار، 1958/7/16)

فؤاد شهاب 1958-1964

رسالة إلى الرئيس العائد فؤاد شهاب... إذا عاد!

قيل يا فخامة الرئيس انهم لن يدعوا المجلس إلى الاجتماع الا متى سو كروا لك الرئاسة التي عقدوا لك لواءها. وانك بالتالي منتصر حتما، وهم منتصرون بك...
فمبروك، وهنيئا لك مثل هذا العهد سلفا، ثم هنيئا لك قوة ناخبيك، بل هنيئا لك شعار القوة الذي يرتسم فوق عودتك!
صحيح انك ستأتي بأصوات قليلة، تكون قنعت بها بعد طول تردد... وقد جمّعوا لك اكثريتها صوتا صوتا، من هنا وهناك وهنالك، ومعظمها مما لا تحب سماعه لو كان يتكلم.
غير ان ثمة ما بات عليك سماعه الآن، مما لم تكن ثمة حاجة إلى قوله لو لم يقولوا انك عائد.
هذا الشيء قوي كذلك، لأنه من صوت القلوب والعقول التي ظلت، طوال سنوات، ولا تزال، مقفلة دونك ولم تحاول انت ولا مرة فتحها.
لعلّك لا تؤمن بالمحبة، كما لم تؤمن بالحوار.
جالس على «البلكون»، كنت تقول. تفرج.
وأسير في الرئاسة، كنت تقول. ثم أسير في العزلة. ولعلك أسير عودتك، من يدري؟
لقد اشتروا لك عقولا كثيرة، اشتروها بالمعقول وبغير المعقول.
حتى القلوب، اشتروا لك بعضا منها غير قليل.
لكنهم لم يتمكنوا – سبحان الله – من فتحها، ولا انت فتحتها، لأنك لم تفتح قلبك.
ثم سبحان الله مرة ثانية، وثالثة.
المحبة يعطيها من يشاء.
هي شيء عجيب غريب، لا منطق له ولا تفسير. فإما ان توجد، أو لا توجد.
ترى وشائجها تشد الشعب إلى رجل لا سبب لحبه، حينا... وتراها احيانا تهرب أمام رجال تتوافر فيهم كل صفات المحبة، يقبلون على الناس والناس تصدف عنهم نفوسها، ولا سبب...
فكيف اذاً بمن لا يقبلون على الناس بلهفة وتوق وحنان؟

نهجوك أم نمدحك؟
لا هذا ولا ذاك.
نخاطب الرجل الذي أنت.
الانسان والرئيس
فأما الانسان، فحر ألا يسمع وألا يصدق، وحر أن يسخر.
وقد تسخر الآن، لا يعنينا ذلك، وقد لا يهمنا.
أما الرئيس، فعليه أن يسمع.
فاسمع، أيها الرئيس.
ان كنت ستعود اليوم فلأن الذين يسلمون بعودتك اكثر من الذين يظنون ان خصامك افضل مما ستكون.
فلا بد اذاً من التذكير بعهدك الذي مضى، حتى يكون عهدك الآتي غير الذي كان.
من يدري؟ المقارنة قد تجدي، وقد تنفع الذكرى، لأنه قيل كذلك ان الذي كان، كان غير الذي اردت، وانك بالفعل تريد شيئا جديداً، ولو لم تقل انت ذلك.
فاسمع، ايها الرئيس القديم الجديد.
قلنا ان الناس لم تحبك لأنك لم تطلب حبها.
والحقيقة ان ثمة ما هو اكثر.
الحقيقة انهم اقاموا حكمك السابق على الرهبة بدل المحبة، فتحولت الرهبة إلى ارهاب، وقام الحقد مقام الحب، ثم الاستسلام مقام الاطمئنان.
فهل كنت انت الذي أراد ذلك؟
وهل كنت تعرف؟
ان جهلت، فاعرف، وصدّق.
وان أردت، فصدقنا وبدل!
ذلك بأن الحرية تغفر.
الحرية تنسى، لأنها اكبر من الذين اساؤوا اليها.
حتى عندما تتذكر الحرية جراحها، تتذكر كذلك انها منتصرة، فتنسى ادبار المدبرين عنها متى عادوا وتعشقوها.
لأنها هي القوة الحقيقية.
فتحصّن بها، او تزول قوتك، بالغا ما بلغ جبروتها.

واسمع كذلك، ايها الرئيس.
متى عدت، ستعود من الماضي، والناس تريد التطلع إلى المستقبل.
لو كان عندك ولد لعلمت كم هو المستقبل قاس في احكامه، وكم هو كذلك رؤوف.

نحن العندنا أولاد نعرف ظلم الطموح وضراوة التجديد.
نعرف بالرغم منا احيانا...
فنسلّم اولا. ونتفهم ثانيا.
وننتهي اخيرا إلى الشغف حتى بما يتخطانا ويلغينا.
أفهمت، أيها الرئيس؟
تلك هي الايام المقبلة حقا، بريئة صافية.
فافتح لها ذراعيك، مد يديك اليها، اركض وراءها واترك وراءك الجيف التي تثقل صورتك والسنين التي ماتت.
اذذاك تفتح للبنان ولك، عهدا بالفعل جديداً، وتكون انت العائد إلى لبنان، ليس لبنان الراجع اليك.
لأن الحياة لا ترجع إلى وراء.

واسمع ايضا، ايها الرئيس.
نسي الناس انك كنت تبشّر بالنظافة من فرط ما ترك عهدك وراءه من أوساخ.
ونسي الناس انك جئت، من زمان، للاصلاح، من فرط ما تغلّب الفساد حتى على اعظم منجزاتك.
خلفت اشياء عجيبة غريبة.
تماثيل جميلة، تغطيها كمخة سوداء.
ورجال يتفانون في انشاد الخير الذي فيك، ثم يصنعون باسمك كل شر...
وشرائع كإبداع الهياكل، الا انها مسكونة من أسوأ السماسرة وليس من يتجرأ على طردهم منها!
أفتلوم الناس اذا هي ظنت ان هياكلك صنعت من اجل التجار، وان أقوال رجالك هي تغطية للافعال، وان الكمخة القذرة ليست سوى الزينة التي اردتها للتماثيل؟
التماثيل صنعتها أنت ولم تصنعك، فلا تخف منها بل حطمها كالاصنام...
والشرائع شبكات تسربل تقدمك، فمزّقها ولا تتركها تصبح أكفانا للعقول تحنّطها وهي بعد حيّة...
نريدك ان تهدم هياكل ماضيك على تجارها، ولا تخف منهم ولا عليهم، فقد تاجروا بك ولم تتاجر بهم، وانت الذي صنعهم ولم يصنعوك، وانت الذي حماهم ولم يسيّجوك...
فهل تقدر؟ هل تسمع لتقدر؟

اسمع، اسمع، يا فخامة الرئيس.
لبنان الذي تركت غير لبنان الذي تلاقي.

كان منقسما فاتحد.
لكنه كان مزدهرا ففقر.
جمّدته – ربما لحكمة – فتحرّك.
أملته، فيئس.
فيه ثورة وفيه سأم.
فيه عطاء وفيه جشع.
الهاربون منه اكثر من الفازعين اليه.
ومع ذلك لا يزال عنيدا في طموحه.
فإن لم تحاك مثالياته، فلن تغلبه على كبواته.
لا تتذكر من كنت، فتتمسك به، بل كن ما يريده الشعب من حاكم اليوم وقائد الغد.
انصرف عن بعث الشعارات، ولو جميلة، إلى اختبار الحياة، ولو بأخطائها.
فتش عن الحاجات الجديدة. فتش عن كل جديد. وليكن رائدك هذا الذي كان سر نجاح سواك، وسر الأمل فيه، ولو كرهت.
اقبل الشعب كما هو، بخيره وبشرّه.
ثم اعلم ان الشر الذي فيه ليس لك ولو انتسب اليك.
انما انتسابك إلى الخير الذي في لبنان هو الذي يقيم لك سلطة وهيبة واحتراما.
وقد ينشىء لك ذلك محبة جديدة.
فاحترم الصغير يهبْك الكبير.
يكبرك الناس ان لم تتكبر.
ويحبونك ان لم تتجبر.
ولا خوف عليك الا من الخوف الذي فيك.
وسيكون اللبنانيون معك على صورتك معهم ومثالك.
فكن معهم، وثق بهم، واطمئن اليهم، يطمئنوا اليك ويثقوا بك، ويكونوا معك.
وان لم تهدم انت الاسوار التي حولك، ولو كانت من لحم ودم، ومن عقول متحجرة، تعالت حول الشعب أسوار لا طاقة لحاكم، بشرا كان أم إلها، على اجتيازها.

يا فخامة الرئيس.
نعرف ان ليس اكره على الحكام والأمراء من مثل اللغة التي نخاطبك بها.
حاكم نحبه يردد دائما انه ليس بحاجة إلى نصح ناصح، لأنه قادر على... ارتكاب اخطائه وحده، من غير حاجة إلى ارشاد!
لكنها تعزية الشعب –وقل الأهالي– ان يخاطبوا الحكام، وان يحلموا عنهم وهم يحلمون بأفضلهم.

ثم، ما همّك، والأرجح انك لن تقرأ هذه الرسالة غير ذات موضوع، وقد يبطل الغرض منها لأنك قد لا تأتي...
فان لم تأت، فرجاؤنا ان تجهل انها كتبت، وأن تنسى ما قد تكون عرفت منها، لأننا نحن كذلك اذذاك سننسى.
اما اذا أتيت، فرجاؤنا ان تكون المعرفة طريق المحبة، فنفرح. لأنها ان اصبحت طريق حقد جديد، حزنا كثيرا، ولو لم نخف.
لان لبنان اليوم، اكثر من لبنان الأمس، يخيف ولا يخاف.
فكيف بلبنان المقبل على الغد؟

(النهار، 1970/8/3)

شارل حلو 1964-1970

الرجل والذخر والوزر

الرجل الذي ينتخبه المجلس اليوم رئيساً للجمهورية، كان يمكن ان يكون مرشحنا لولا ظروف المعركة واطارها والطريق الذي عبّد امام الرئاسة –ولا طريق سواه– عبر «مجمع الكارلتون» إلى عجلتون فساحة النجمة فصربا، او القصر الجديد على سفح بعبدا...
ملاحظة لا بد منها، قلناها وليس في نيتنا التودد إلى الرجل – وله عند الناس من الرصيد ما يغنيه عن تودد متوددي الساعة الاخيرة – كما ليس قصدنا من ابدائها اثارة الغبار في عيد الهيكل. انما همنا ان نسجل اننا لم نأسف لنجاح الرجل الذي عارضنا ترشيحه.

وبعد، انتصارنا نحن بالرجل اكبر من انتصار المنتصرين له.
مجرد وصوله – وهو من هو – تكريس لنظرية في الحكم ونظرة إلى لبنان كان يكون من حقنا التبجح بالايمان بها، لو لم تكن هي نفسها، هذه النظرية، ضد التبجح، متواضعة على عناد، مطمئنة على اضطهاد، هنيئة في طبيعتها لانها واثقة من منطقها، امينة من التاريخ الذي انصفها ولا بد ان ينصف!

هذا التاريخ، اسمه اليوم 18 آب/أغسطس، اردناه هكذا، وهكذا كان...
لا شماتة، نقولها، كما لم نتبجح، انما حتى نسجل، إلى جانب التحفظ، بعض التهليل الذي لنا به حق.
ذلك ان 18 آب/أغسطس قد غدا رمزاً للديمقراطية، سيذكر في سجلها ابرز ذكرى.
وسيقال عنه انه اليوم الذي تكتلت لمقاومته قوى ما كان يحلم غلاة الحالمين بانها يمكن ان تخسر او تسلم.
ومع ذلك، حدث 18 آب/أغسطس، وارتدى طابع عيد اين منه الاعياد الآخر!

ولكن 18 آب/أغسطس بداية، وليس نهاية.
فاذا كانت معركتنا هي التي انتهت عنده، فالمعركة الاكبر هي تلك التي يبدأها به الرجل الذي يأتمنه لبنان اليوم على اعز ما عنده: سيادة الشعب واستقلاله ودستور حرياته وحقوقه.

والرجل من خير من يؤتمن، بل قد يكون خير من يؤتمن اليوم، وقد عرف كيف يجعل فرقاء المعركة التي لم يخض يتجاوبون معه في ما هو مقبل عليه، فلا يضطر للتجاوب مع الفريق الذي فتح له طريق النجاح دون سواه.

هذا عن 18 آب/أغسطس.
ثم يأتي 23 أيلول/سبتمبر – ولا مناص لنا من التحدث عنه والمجال مجال مصارحة نطوي بها صفحة لنفتح صفحة.
في 23 أيلول/سبتمبر يبدأ «العهد الحلو»، بعد العهد الشهابي. وقد شاء الرئيس العتيد ان يعلن ان ذاك سيكون استمرار هذا، على علمه بان «الشهابية» ليست كلها ذخراً، بل بعضها كذلك وزر...
اما الذخر، فمن حق الانصاف علينا ان نقول انه غني بمعانيه، حافل بالآثار التي تبقى تشهد عن ذاتها بذاتها، ولا يزيدها جمالاً تبخير المبخرين.
واما الوزر، فلا نخاله سيكون ثقيلاً على كاهل رجل له ما لشارل حلو من مراس بالحرية، ومن حرص على كرامة الرأي وايمان بقدسية الكلمة.
حسب الرئيس العتيد فخراً رجاء الناس، ولو خاصموه، بان يكون عهده للعقل اولا وآخراً.
(النهار، 1964/9/18)

سليمان فرنجية 1970-1976

الصوت الواحد... صوت الشعب!

رئيس جمهورية واحد؟
نعم، بصوت واحد في المجلس... لكنه كان صوت الشعب، الشعب الذي هلّل وفرح وابتهج.
صوت الشعب الذي هو من صوت الله...
وكم من ديمقراطية كانت ولا تزال ديمقراطية الصوت الواحد، هذا الصوت الواحد بالذات...

حسابيا، الصوت الواحد أصوات وأصوات.

أولا: الذين اقترعوا في جانب سليمان فرنجية يمثلون، عدديا وانتخابيا، أكثرية شعبية ساحقة.

ثانيا: الذين اقترعوا في جانب سليمان فرنجية لهم، كزعماء تقليديين وكأحزاب، قوة تمثيلية اين منها قوة الذين اقترعوا ضده.

ثالثا: الذين اقترعوا في جانب سليمان فرنجية يمثلون وحدة وطنية تمتد من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، ومن أقصى المسلمين إلى أقصى المسيحيين، بحيث يمكن ان تتولد من هذه الوحدة قاعدة متوازنة لميثاق وطني جديد، في حين ان الذين اقترعوا ضد سليمان فرنجية يشكلون كتلة مفقودة التوازن.

ثم، ثم، ثم ما لنا وللحسابات...
انتخاب سليمان فرنجية يمثل ارادة التغيير... الارادة التي عبرت عن نفسها عندما حيل دون التجديد، ثم عبرت عن نفسها اكثر واكثر في انتخابات 1968. وليس صدفة ان يكون الذي انتخب رئيسا للجمهورية هو وزير داخلية تلك الانتخابات، أي الرجل الذي حسبه انه حافظ على حريتها، فجاء انتخابه اليوم وكأنه الاحد الرابع للانتخابات...

هذه الوحدة العضوية بين انتخابات 1968 وانتخاب رئيس الجمهورية الجديد هي سر هذا الانتخاب وتلك.
كان لا بد للديمقراطية، كإرادة شعب وكمؤسسات، من ان تنقذ نفسها كيفما كان. ولعلها انقذت نفسها وانتصرت رغما عنها، أي رغما عن ضعفها العضوي، وحدودها القانونية والانسانية، بل رغما عن بعض ساكنيها واسيادها!
من هنا ان مسؤولية الرئيس الجديد مسؤولية ضخمة. ضخمة ومزدوجة: عليه ان يحيي الروح الديمقراطية في الشعب، ثم عليه ان يستلهم ارادة الشعب في اعادة النظر بنظام حمّلوه أوزار خرقه وخارقيه، فبدا فاشلا وهزيلا لأنهم افسدوا حيث طبقوه، ثم عابوا عليه كونه عجز عن التغلب على افساده والتمرد على المتسلطين عليه...
وبعد، اعادة الديمقراطية تبدأ بشيء بسيط جدا. بالسلام. بالطمأنينة. بالثقة. ثقة الناس بعضها ببعض، فثقة الناس بالحكم والحاكمين.
والثقة فعل محبة.
في كل هذه المعركة، كانت المحبة هي المحور. بالمحبة انتصر المنتصرون. وبالمحبة وحدها يكتمل انتصار لبنان.
بحاكم يحب لبنان واللبنانيين ويجعل اللبنانيين يحبون لبنان من جديد.
سليمان فرنجية، تلك هي الامانة وهي في عنقك الآن.

(النهار، 1970/8/18)

الياس سركيس 1976-1982

نعم لرئيس مع سوريا... ولا لمرشح باسمها!

من الصعب ان تقول شيئاً للبنانيين، في صدد معركة الرئاسة التي بدأت، من غير ان يسمعه السوريون كذلك، كذلك الفلسطينيون وسائر العرب...
ولعل ذلك امر حسن، كما هو امر حسن الا يكون في وسعك بعد ان تخاطب المسيحيين بشيء لا يعرفه المسلمون، او ان تكاشف المسلمين بشيء لا يدركه، في اللحظة ذاتها، المسيحيون...
وأهم ما في هذه الظاهرة – الاعلامية في ظاهرها والتاريخية في ابعادها – انها تضع حدا للرياء المتبادل الذي كشفته الاحداث الاخيرة ودفعنا ثمنه غاليا وغاليا جدا...
وقد آن أوان المصارحة، المصارحة في كل شيء، لانه اذا كنا نظن انه لا يزال في وسعنا، بعد آلاف القتلى، ان ننتخب رئيسا للجمهورية تماما كما كنا نلعب قبل الدماء والعذاب والدمار، فاننا لمخطئون، ومخطئون جدا!

ولنبدأ المصارحة بموضوع السوريين. يقولون، في الترويج لهذا المرشح او ذاك، وفي دفع ترشيح هذا المسترئس او ذاك، ان السوريين يريدون هذا ولا يقبلون بذاك...
على هذا القول، لن نرد بالكلام «الاستقلالي» الذي يبدو سخيفاً، وسخيفاً جدا في مثل هذا الزمن الرديء، ان لبنان دولة سيدة مستقلة، وان النواب هم المؤتمنون على السيادة الوطنية، وان من العار الاستماع إلى غير ارادة الشعب... إلى آخر الكلام اياه!
كما اننا نرد بالكلام الدراماتيكي الكبير: ان فريقا معينا من اللبنانيين لم يغضب كل هذه الغضبة على «تعديات» معلومة على السيادة والشرعية حتى يجيء الآن يسلم مفاتيح الحكم والدستور، شرعية وسيادة، لرئيس جمهورية «يرضى» عنه السوريون او غير السوريين...
كل هذا الكلام الكبير لن نتوقف عنده، بل نتجاوزه للبحث بصراحة، كما قلنا، مهما كانت الصراحة جارحة ومؤلمة، على امل الوصول إلى مبادئ واقعية عملية نستهديها في اختيار رئيس الجمهورية المقبل، ثم في اقامة علاقات سليمة مع الجمهورية الشقيقة. وسنجعل هذه المبادئ في شكل اجوبة قد تبدو «وقحة» عن الاسئلة التي لا تقل عنها وقاحة، والتي يتداولها الناس و«المسؤولون»:

السؤال الاول:
هل لسوريا مرشح معين؟
نعم، يقال ان دمشق عندها من تفضل... واسمه على كل شفة ولسان... ونحن نحترمه ونعتبره، وليس هنا مجال مناقشة شخصيته ومزاياه.
ويقال في تبرير ذلك انه يحق للشقيقة سوريا ما يحق لسواها... فلماذا ننكر عليها ما لا ينكرونه على الأبعد منها عنا؟
ويقال اخيرا ان سوريا تستطيع ان تؤثر على عدد كبير من النواب، ولا سيما النواب الذين لمناطقهم مصالح مباشرة، او جوار مباشر مع سوريا...
هذا ما يقال، مع العلم ان ليس لدينا برهان على صحة القول، ولسنا هنا في معرض محاسبة حتى نبحث عن البراهين!
غير ان الانصاف، فضلا عن المنطق، يفرض علينا ان نضع في المقابل، وفي المرتبة ذاتها، قول القائلين ان شيئاً لم يبدر بعد يدل على ان لسوريا مرشحاً، لأن احدا لم يثبت بعد، وقد لا يستطيع ان يثبت انه سار مع «المرشح السوري» لانه سوري... انما ربما كان يريد السير معه، فوجد في «سوريته» مبررا او عذرا!

السؤال الثاني:
هل لسوريا مصلحة في الترشيح؟
كلا... ومع اننا لا ندعي حق توجيه سوريا إلى ما لها فيه مصلحة وإلى ما ليس من مصلحتها ولا من حقها او واجبها... فاننا نميل إلى الرأي – الرأي السوري المسؤول – القائل ان المتهافتين على دمشق، يدللون لديها على هذا المرشح او ذاك، هم المسيئون اليها...
فدمشق لا بد تعرف – وهي ليست في حاجة الينا لكي تعرف – ان اي مرشح يحسب عليها ستضطر هي إلى حمل اوزاره مرشحاً ثم رئيساً، اذا انتخب... فضلا عن انها ستحمل اوزار الذين ينتخبونه ويحمّلونها هي منة انتخابه في سبيلها واكراماً لها!
وفي المقابل ستضطر سوريا، اذا كان لها مرشح معين، إلى ان ترى الذين لا ينتخبونه – لاسباب لا علاقة لسوريا بها – بمنظار العداء لها، فتخسر هكذا صداقات عدة كانت لها، ولعلها هي الصداقات الافضل، لانها الاصدق – وقد صدقت ولو لم تصدّق!!!

السؤال الثالث:
هل لسوريا مصلحة في الرئيس؟
نعم... فبين الحكم السوري والحكم اللبناني توأمية تاريخية عضوية لعل بعض اسباب المأساة اللبنانية ان ثمة من انكرها... والمفارقة المفارقة ان الذين انكروا هذه العلاقة في الامس، فكانت المأساة، هم اليوم اشد الناس تهافتاً على التمسك بها!

وللمرة المئة، نكرر هنا ما قيل وما يقال في كل زمان ومكان – في بيروت (وفي جونيه!) وفي دمشق، اليوم وامس وفي التاريخ القديم والحديث: انه يهم سوريا، ويهمها جداً، ان يكون في لبنان حكم يعرف كيف ينسجم معها، ولكن من غير ان يستزلم لها... حكم تنبثق علاقته بالحكم السوري من الواقع الجغرافي والتاريخي، والاجتماعي والاقتصادي، والشعبي والسياسي، الذي يربط البلدين، ولكن على اساس احترام متبادل وتعاون صادق وتقدير مشترك لمصالح كل من البلدين المستقلين.

السؤال الرابع:
هل للرئيس مصلحة في سوريا؟
نعم، والف نعم... فالرئيس المقبل مضطر، اكثر من اي رئيس مضى، إلى ان يتكل على الشقيقة سوريا، فتستمر في مبادرتها التي اجمع اللبنانيون على الترحيب بها والتعاون معها. مضطر، الرئيس المقبل، إلى ان يستعين بالجيش السوري... ولكن لاغراض لبنانية... نكرر: لاغراض لبنانية!
ومضطر، بسبب استعانته بالجيش السوري، ولان العلاقات بين الدول ليست علاقة «خيرية» بل تقوم على المصالح الآنية والتاريخية... مضطر إلى ان يبادل المساعدة بالتعاون، مع كل ما يرتبه ذلك علينا من تعديلات جذرية في نظرتنا إلى القضايا الامنية المصيرية التي تهم سوريا وتهمنا، وفي طليعتها بالطبع الحرب مع اسرائيل.
وكل رئيس للجمهورية اللبنانية سيلجأ، خلال الساعة التي تلي انتخابه، إلى طلب مساندة دمشق وإلى اقامة علاقات خاصة أمينة وعميقة مع رئيس الدولة السورية...
ولعل ابعدهم عن سوريا، في الترشيح، قد يصبح اقربهم اليها في الرئاسة، لان العلاقة التي سيبادر إلى اقامتها لن تكون مشوبة بشوائب الانتخاب:
لن تكون تسديداً لدين...
ولن تكون عرفاناً بجميل شخصي...
ولن تكون وليدة مصلحة حزبية...
ولن تكون امتداداً لولاء سابق للرئاسة!

ومن هذه الاسئلة والاجوبة، ما هو الموقف الذي نستنتج؟
اولا: التمييز بين علاقتين، علاقة المرشح بسوريا، وعلاقة الرئيس بسوريا... كذلك علاقة سوريا بالمرشح، وعلاقة سوريا بلبنان عبر الرئيس!
ثانيا: اننا نريد رئيسا للجمهورية يتعاون مع سوريا، لكننا نرفض – ونظن ان سوريا ترفض اذا سئلت هكذا – الا يكون لها تعاون مع الرئيس الذي لا يكون قد كان مرشحها.
ثالثا: ان مصلحة لبنان – كذلك مصلحة سوريا الصافية – تتحقق بحرية اكثر وبكرامة اكثر

مع رئيس يتعاون مع سوريا من غير ان يجعل علاقة لبنان بسوريا رهينة علاقته الخاصة السابقة كمرشح بالبلد الشقيق.

... والآن، وبالصراحة ذاتها التي قد لا تعجب اليوم لكنها تجدي غداً... نستمر في طرح «الاسئلة الوقحة» ومحاولة الجواب عنها:

السؤال الخامس:
ما هي علاقة سوريا بالمسلمين؟
من الخطأ الظن انه يمكن ان تكون لسوريا، اياً يكن نظام الحكم فيها، العلاقة ذاتها بالمسلمين والمسيحيين في لبنان، اذا ومتى كان المسيحيون والمسلمون يميزون في علاقاتهم بعضهم بالبعض، ثم في علاقة كل منهم بسوريا...
ولعل من المجدي التذكير – من غير ان نعود إلى السوابق التاريخية، القريبة (1957–1958 مثلا) والبعيدة – بأن المبادرة السورية انطلقت هكذا: رئيس الجمهورية الحالي، السيد سليمان فرنجية، اعتبر نفسه ناطقاً باسم المسيحيين وممثلاً لهم، ولجأ إلى الرئيس السوري السيد حافظ الاسد، لانه اعتبره المحاور الصالح باسم المسلمين اللبنانيين، قائلا انه عجز عن لقاء محاور «محلي» يربط المسلمين...
هكذا كانت المبادرة، ثم كان هذا الشيء العجيب الغريب – لولا ما بين البلدين من وشائج تتحدى المنطق الدستوري وكل منطق: صدور «وثيقة دستورية» تتعلق بمستقبل الحكم في لبنان نتيجة اتفاق بين رئيسي دولتين مستقلتين... وكانت تلبية الحكم اللبناني – الذي كرّسوه هكذا ماروني الصفة – لمطالب المسلمين بضمانة سورية!
من هنا ان المسيحيين، ولا سيما الموارنة بينهم، يخطئون اذا ظنوا ان في وسع سوريا ان تصبح حليفتهم، دون سواهم، وتظل مع ذلك قادرة على القيام بدورها والمبادرة... فهي اولاً غير طائفية. وهي ثانياً دخلت المبادرة او ادخلوها فيها، كمحاور باسم المسلمين. وهي ثالثا ملتزمة بمطالب المسلمين في «الوثيقة الدستورية»، فضلا عن التزامها العقائدي بالفريق الذي يظن بعض غلاة المحاربين المسيحيين ان سوريا ستحميهم منه وتنتخب لهم رئيساً ضده! واذا عقل المسيحيون، كان عليهم ان يريدوا سوريا هكذا، وتستمر هكذا، ملزمة للفريق الآخر ملتزمة به، حتى تتمكن من الاستمرار في الحوار وتستمر المبادرة... بدل العكس المستحيل!

السؤال السادس:
ما هي ضمانة سوريا للفلسطينيين؟
ما يقال عن دور سوريا في الحوار المسيحي – الاسلامي، يقال مثله عن دورها في ضمان علاقات سليمة مع الفلسطينيين واكثر.

فعندما تعهد الرئيس حافظ الاسد بضمان تنفيذ «اتفاق القاهرة»، لم يتعهد بذلك كبوليس عسكري على الفلسطينيين، وهذا ثبت... لان مثل هذا الدور ترفضه سوريا ويرفضه الفلسطينيون، فضلا عن كونه مستحيلا.
انما تعهدت سوريا بضمان الاتفاق اللبناني– الفلسطيني نظرا إلى ما بينها وبين المقاومة من وحدة حال عميقة وروابط قومية وعقائدية وسياسية وعسكرية.
فاذا تعطلت هذه الروابط، او بَطلت الثقة المتبادلة بين النظام السوري ومنظمة التحرير (وهذا مستحيل، كما ثبت، لألف سبب وسبب) تعطلت الضمانة السورية للعلاقات الفلسطينية–اللبنانية...
فلا يبنين لبناني اذاً على استعداء سوريا على فلسطين او على استظهارها ضدها... والعكس هو الصحيح: ان مصلحة لبنان الحقيقية البعيدة هي في ان تظل العلاقة بين دمشق والمقاومة سليمة قوية. والمطلوب، اذاً، رئيس للجمهورية اللبنانية يجيء انتخابه ايجابياً في اطار تفاهم مثلث الاضلاع.

السؤال السابع: هل لبنان، اذاً، «ساحة» سورية؟
كلا، كلا... انه بعينه سوء الفهم التاريخي للدور السوري في لبنان، وللرسالة اللبنانية تجاه سوريا.
فسوريا لا مصلحة لها – ولا مصلحة للبنان طبعا– في ان يصبح الحكم اللبناني امتداداً، مجرد امتداد، للنظام السوري.
من هنا إن العلاقات الوثيقة بين البلدين لا تحتم ان يصبح لبنان طرفا في الصراعات السورية... ولا حكماً طرفاً في الصداقات السورية، دون سواها... تماما كما ان وجود اتفاق لتوحيد القيادة بين سوريا وفلسطين لم يلزم المقاومة بالعلاقات الوحدوية الطابع القائمة بين دمشق والملك حسين!
فلبنان سيظل الاقرب إلى دمشق، لكنه لا يمكن ان يلتزم، مثلاً، بصراعها مع بغداد، اذا استمر الصراع... حسبه الا يكون الساحة التي تحاول فيها بغداد اسقاط نظام دمشق!
ولبنان سيظل الاقرب إلى دمشق، لكنه لا يمكن ان يلتزم بصراعها في القاهرة، اذا استمر الصراع كما لا يمكن ان يلتزم لبنان بالا تكون له علاقات بالسعودية الا عبر دمشق... ولا ان تمر طريقه إلى عمان الا عن طريق الشام... ولا ان تكون علاقاته بالخليج او بالمغرب، الا من خلال علاقات سوريا بهذا او ذاك!

ما هي مترتبات هذه الاجوبة على قضية انتخابات الرئاسة اللبنانية؟
في بساطة، وصراحة، ان الرئاسة يجب ان تكون لبنانية، وان يكون الانتخاب امراً لبنانياً، وان يجيء الاختيار وليد حل لبناني...

فلا اللبنانيون يريدون – ولا نعتقد ان سوريا تريد – حكماً سورياً في لبنان حتى يأتي إلى الرئاسة مرشح سوري الانتساب، او رئيس ينظر اليه العرب جميعاً كأنه «مسؤولية» سوريا، لأنها هي التي رشحته، فيحملونها، ويحملون لبنان، اوزاره واوزار سوريا معاً!

انما المطلوب رئيس لبناني يعرف كيف يتعاطف مع سوريا، لانها الاقرب ولأن لبنان «الاولى».. من غير ان يعني انتخابه تنازلا لبنانيا عن الدور الذي يجدي سوريا ويفيدها بنسبة ما لا تتحمل سوريا تبعاته والاوزار...

فضلا عن التنازل الآخر: التنازل عن الرسالة اللبنانية والذاتية اللبنانية...

ولو لم تكن سوريا تؤمن مثلنا بالذاتية اللبنانية هذه، لطلبت منا الانضمام إلى وحدتها، صراحة، بدل ان تطلب لنا رئيسا يكون معها– معها فحسب!

فنعم، نعم لرئيس لبناني يكون مع سوريا.

ولا، لا لمرشح للرئاسة يأتي من دمشق ولا يجلب لسوريا، ولا للبنان، خيرا ولا سلاما.

(النهار 1976/4/26)

عهد الرئيس... وبقية الحكم

في السياسة – يقولون – يجب ان تعرف كيف تخسر!
وريمون اده، من كبرى ميزاته انه كذلك... فضلا عما قيل ويقال من انه يخسر معاركه ضد نفسه، لأنه، بصراحته المتناهية، اقوى عدو لريمون اده...
طبعاً، كان يجب ان نكتب اليوم اولا عن الياس سركيس، الرئيس الياس سركيس، الرئيس المنتخب، فنتمنى له، هو الآخر، كل الشجاعة التي سيحتاج اليها ليمارس اصعب حكم في اصعب دولة تجتاز اصعب حقبة من تاريخها الحديث...
ومع ذلك، ترانا نريد قبل كل شيء ان نشهد مجدداً لريمون اده بكل الذي له... لانه يظل للذين يؤيدونه هذا الفخر الذي ليس لكثيرين سواهم: انهم يشعرون معه، حتى ساعة يبدو خاسراً، كأنهم المنتصرون، ولان ثمة انتصارات في السياسة وفي الحياة اكبر من الانتصار بمقعد او الانتصار لرئاسة...
لذلك، ترى مؤيدي ريمون اده يتكاثرون احياناً بينما يتهافت الآخرون على الانتصار للمنتصرين!
هذا ما فعله بعض الذين رفضوا، وبكثير من البطولة (كواحد نحبه بنوع اخص ونعرف ما قاسى) المشاركة في جلسة مجلس تعقد على هذا النحو لانتخاب رئيس كما انتخبوا الرئيس!

وماذا الآن عن النصر والمنتصرين؟
نظلم الرئيس المنتخب اذا نحن غبطناه انتصاره...
نظلمه مرتين: مرة لاننا نكون نظنه يعتبر الرئاسة مجرد كسب في سباق وقهر لعدو... وهذا ما لا نظنه في وارده، ولو كان سواه يريده له!
ومرة ثانية نظلمه... لأننا نكون نظنه يجهل ما ينتظر ولايته والعهد الجديد!
فهو يرث رئاسة بالكاد بعدها موجودة... ليمارس حكماً قد انهار ولم يعد له من قواعد الحكم شيء...
اما الدولة التي سيرئس، فقد فقدت كل مقومات الدولة وهياكلها والهيكليات... حتى منازل الدولة ودور الحكم قد نسفت ونهبت وفقدنا معها كل اثر للحكم، والذكريات!

واما الوطن الذي يفترض فيه ان يبقى، فلم تبق منه الا الارض... ولكن ممزقة مدنّسة، وقد استبحناها وأبحناها، فقطعناها وتوزعناها وتناتشناها، ونهشناها، وكان لنا، ولا يزال، في ذلك مئة شريك وشريك!
واما المواطنون، اما الشعب، فشراذم مسلحة اخترعت لنفسها اوهام دول واوطان... واوهام جيوش كذلك، تتحارب باسم ولاءات وولاءات تفسّخ ولا تجمع، حتى اذا ما بذل واحدنا–كالكثيرين الكثيرين الذين نحب ونحترم– دماء البطولة في سبيل مثال، تساءل الرفقاء من بعده من وماذا كان البطل يفتدي، وهل هكذا نحيي ما كنا من اجله نقاتل ونتقاتل؟ وبدل ان نكتب تاريخاً من الاساطير الحلوة كنا نحلم بها، اذا بنا جميعاً نفيق اليوم في مدائن كانت عناوين الحضارة، فأصبحت مجموعات مقابر وخرائب لا نسمع فيها غير صراخ الوحوش وبكاء المعذبين!

هذا ما يرثه، بل هذا ما نورثه كلنا، الرئيس المنتخب اليوم... كيفما كان انتخابه، فهل هذا حكم يشتهى؟
وحده مثل هذا الارث يستحق ان نفرض على انفسنا الاحترام كل الاحترام للمقبل على الحكم، فضلا عن الولاء له كل الولاء لمجرد انه يريد ان يحاول...
ولكن... يحاول ماذا، وكيف؟
لا نعرف بعد ماذا سيحاول وكيف، لكننا نعرف ما هو المطلوب من الرئيس المنتخب حتى يظل لبنان لبنان ويظل هو رئيساً له...
فالمطلوب منه اولا نظام حكم جديد، بل دستور حياة جديدة تنطوي به صفحة الثورة والحرب، وصفحة المواثيق البالية والتي ماتت قبل ان تعيش...
ومطلوب منه – وهو الآتي باسم الذي احجم عن الحكم، من 6 سنوات، لانه اكتشف بعد 12 سنة، ان لبنان لا يمكن اصلاحه ما دام هذا نظامه والقواعد والتقاليد –مطلوب منه بناء لبنان جديد يبدأ غداً، من غد، ولا يبدأ من ركام اليوم ولا من حطام الامس واحقاده والصداقات الهفوات...
ومطلوب منه تعمير هذا اللبنان الجديد لا بالحجارة القديمة، و«الرجال–الحجارة» اياهم، بل باللبنانيين الجدد الذين طهّرت الآلام قلوبهم وصقل التألم من الظلم نفوسهم وبلورت انوار المعرفة كالطموح عقولهم...
ومطلوب منه، مطلوب خصوصاً ان يحافظ على هذا اللبنان... ان يعيد إلى ارضه محبة الارض وتقديسها، وان يردم الجراح التي حفرناها حدوداً بيننا... ان يخترع للبنان رسالة جديدة في سمو ما كنا نحلم به واحسن من تلك التي حطمناها... وان يقتطع للبنانيين مركزاً بين الامم ودوراً بين الناس، لا تسولاً وانما حقاً كريماً، ولا عطاء من احد وانما استحقاقاً.

كل ذلك، مطلوب من الرئيس المنتخب؟
بل اكثر... او اقل: الامن، الامن!
اي حق العيش، حق الاطمئنان إلى الحياة... ابسط الحقوق وأولها، فيعود هذا الانسان انساناً!
هذا الامن، كيف يؤمن؟
ومن تريدوننا ان نأتمنه عليه؟
تلك هي المسألة الكبرى والادق.
فالحرب التي بدأت بغضبة الغاضبين لأن الامن كان يفلت زمامه بسبب «مسلحين غير لبنانيين يهددون سيادتنا» – هذه الحرب انتهت امس بانتخابات رئاسة «أمّنها» بعض هؤلاء «المسلحين الغرباء»، ويتحدثون عن ضمانها بمعاهدة أمنية خارجية...
هل هكذا نبني لبنان الجديد؟
ربما... ولا بأس اذا حاولنا، اذا لم يكن من سبيل آخر خلّفته لنا الحرب، انما بشرطين لا لبنان من دونهما، لأن لا جمهورية ولا ديمقراطية ولا من ينعمون بسيادة او حقوق.
اما الشرط الاول، فألا يصبح «امن المواطن» اهم من «امن الوطن»... فنكون هكذا قدمنا الوسيلة على الغاية، وفرطنا بالدولة وباستقلالها، فتزول حرية الوطن وحرية المواطن في آن معاً!
واما الشرط الثاني، فأن يجيء الامن وليد توافق سياسي وطني، بدل ان يصبح طريق حرب اهلية جديدة... ذلك ان الامن – بأدواته و«الاسلحة» والمؤسسات – اما ان ينبع من ارادة اجتماعية موحدة، فيكون في آن معاً أمناً بالقمع، أي أمن «البوليس» ولا قانون يردع من يجب ردعه ويفزع اليه الفازعون...
ورئيس الجمهورية، عندما يقسم اليمين التي بموجبها يصبح مؤتمناً على الاستقلال والسيادة والحريات الدستورية، انما يقيم بينه وبين الشعب تعاقداً هذا جوهره.
والشعب لم يخرق مرة تعاقده مع حكام لم يفرّط بالسيادة او يحاول ان يقهر الحريات!

تلك حقوقنا على الرئيس المنتخب، كيفما كان انتخابه، واحببناه ام لم نحب...
فاذا هو احترمها، الزمنا بالتعاقد الذي يجعل ولاء المواطنين له، كل المواطنين، اقل الواجبات... وفتح امامنا، ولنفسه، المجال الفسيح الكبير لان نبني كلنا معاً لبنان الجديد.
أما اذا كانت فوق تعاقد الرئيس مع المواطنين عقود وقيود، فان ابواب العصيان لا تزال مشرعة، تقدر السيادة على الهرب عبرها، كما يهرب الامن، كما يخرج واجب الولاء، دامياً ربما، ولكن مرفوع الجبين مطمئنا.

(النهار 1976/5/9)

حكم في حجم الثورة

... ثورة اذاً هو ما ننتظر من العهد الجديد؟
نعم. ثورة، أو حكم في حجم الثورة.
حكم يجمع إلى قوته المستمدة من الشرعية الدستورية قوة المطامح الثورية والتصميم الثوري وقدرة ثورية على التحرك والعمل البناء.
وما لم يكن حكم العهد الجديد هكذا، ظلت الثورات التي نعيش هي الاقوى، وتغلبت «الشرعية» التي اصبحت لها بفعل انهيار الدولة على شرعية المستقبل وآمالنا فيها.
بل اكثر: الثورية في الحكم قد تكون هي مصدر القوة الوحيد الذي يمكّن الرئيس سركيس لا من التغلب على كل القوى الاخرى التي تتقاسم الحكم وتتصارع على اشلائه فحسب، بل من ايجاد «الجامع المشترك» الذي يبحث عنه اهل الحوار الذين لا يزالون يؤمنون بأن وحدة لبنان، ارضاً وشعباً وحكماً، لا تزال ممكنة، يلزمنا بها تاريخنا كالمصالح والاهداف الوطنية ومثل لبنان العليا.

بماذا يمكن ان يكون حكم العهد الجديد ثورياً، وكيف؟
اولا وقبل كل شيء، بالاقرار معنا بأن كل هذا الدور الذي ستخلفه له الحرب وثوراتها لا يمكن ان يعالج نفسه بنفسه ولا ان يتعالج بالوسائل التقليدية الماضية، بحيث يعود كل شيء إلى ما كان عليه: كل مواطن إلى موقعه وكل ادارة إلى اعمالها، وتسري الانظمة والقوانين كأن شيئاً لم يكن.

هذا اولا، من الناحية السلبية، اما من الناحية الايجابية، فالمطلوب، عملياً، ما قلناه في هذا المقام وكررناه مراراً:
1- دستورياً: شرائع جديدة تنبثق من تطلعات لبنان الجديد، ومن الواقع العضوي الجديد، في كل حقل وعلى كل صعيد.
2- عسكرياً: مؤسسات جديدة، من جيش وقوى أمن وحرس شعبي تقدر على ضمان سلامة لبنان، خارجياً وداخلياً، وعلى تأمين سيادة مواطنيه وحقوقهم من غير ان

تتحول قوى الامن غير اللبنانية الموجودة على ارضنا او التي نستعين بها إلى قوى دائمة تجعلنا تحت وصايتها، حتى لا نقول اكثر... واذا قيل ان عبء المؤسسات العسكرية الكثيفة التي ننشد سيكون ثقيلاً على دولة خارجة من مثل ما نحن فيه، قلنا ان الجيش يجب ان يكون جيش «كل مواطن جندي» يؤمن انضباطاً وطنياً من جهة ومن الجهة الاخرى يساهم في العمل الاجتماعي واعادة التعمير، على نمط جيوش الدول الصغيرة والنامية المماثلة اوضاعها واحجامها لما عندنا، فضلاً عن رسالة الدفاع عن الوطن حدوداً وشعباً وكرامة واستقلالا.

3- اداريا: هيكلية جديدة ورجال جدد، بحيث تكون الدولة مؤسسة الخدمات المثلى في لبنان، اقوى من القطاع الخاص وافضل منه وفي مثل طاقته على التحرك السريع والتجاوب مع حاجات المواطنين والقيام بالعمل الجبار الذي ينتظرنا، من دون «روتين» ولا من «يتروتنون» في الانظمة والقوانين البالية وما كانت تغطي من فساد وافساد!

4- اقتصادياً واجتماعياً: نظرة جديدة إلى امكانات لبنان وما خلفته الازمة وبعض ما تسبب فيها، بحيث تتحمل الدولة واجباتها في الانماء الذي تعطيه حجماً اجتماعياً يشرك كل المواطنين وكل المناطق في «المشروع الوطني» من حيث المنافع ومن حيث المسؤوليات، مع ضرورة تدخل القطاع العام اكثر من ذي قبل لا في التخطيط فحسب بل كذلك في اطلاق الاقتصاد من جديد، حيث كان الاقتصاد وقفاً على القطاع الخاص على نحو تولدت معه الاحتكارات وفقدت العدالة الاجتماعية بين الطبقات كالعدالة بين المناطق... آخذين في الاعتبار انه اذا كان لبنان ما قبل الحرب قد عرف انه بلد غني لشعب من الفقراء، فلبنان بعد الحرب اصبح فقيراً كله ومخرباً، رأس ماله الكبير عاد يكون الانسان اللبناني وطاقته على ان ينجب من هذه الارض ما يطمح اليه من ثروة وما له فيه حق من ازدهار.

تلك هي الثورة، كل الثورة؟

نعم، ولا... لا اذا كان المقصود بالثورة موقفاً عقائدياً وعاصفة جامحة في النظر إلى المجتمع والحكم. وهذا مستحيل لحكم ينطلق من الشرعية ولعلها حصنه الوحيد في وجه العواصف القائمة والمقبلة.

نعم، هذه هي الثورة، اذا فهمنا بالثورة الطاقة على التخلي عن الماضي ورواسبه والانطلاق صوب المستقبل من دون «عقد» ولا مركبات، فيتجاوز الحكم كل ما هو قائم وموروث بقوة من الدفع ثورية مستعدة لأن تغيّر كل شيء وتبدل كل شيء ولا تتراجع امام اي شيء. اذذاك، واذذاك فقط يحق للبنان ان يطمح، في انتظار الرئيس سركيس، إلى مستقبل افضل يغني عن الثورة مجدداً من اجله.

(النهار 1976/8/28)

أمين الجميل 1982-1988

القضايـا المصيريـة

أبعد من المفاوضات، تنتظر الحكم اللبناني قضايا مصيرية لعلها هي هي قضايا الحكم والوطن.
ذلك انه لا يكفي ان يتأمن بالمفاوضة – هذا اذا تأمن – جلاء اسرائيل وسائر القوات غير اللبنانية حتى تعود إلى لبنان ارضه، كل ارضه، ويتلبنن الحكم والناس.
فالمفاوضات–التي هي الآن هاجس اللبنانيين، حكما وشعبا، وشغلهم الشاغل– المفاوضات لن تعطينا وطناً، ولا نحن نرضى ان نعيد بناء الوطن والحكم بالمفاوضة مع اسرائيل او بالمخابرة او المشاركة مع سواها.

نقول ذلك الآن لأن الكثيرين من اللبنانيين – ولا نستثني بعض المسؤولين منهم– يعاملون كل شيء ويتعاملون مع كل شيء عبر المفاوضات وبمعيارها... كل شيء، من الاقتصاد، إلى الامن، إلى الادارة، الي التعامل بين المواطنين ومعهم.
في حين ان احد اضخم التحديات التي برزت عبر المفاوضات، خصوصاً في مرحلتها الاخيرة، هو قدرة اللبنانيين على العيش معاً، في وطن واحد ودولة واحدة، وطاقة الدولة– أي الشعب – على بناء المؤسسات القادرة على تحمل مسؤوليتها كل مسؤولياتها، من تلك التي تتناول تأمين ضرورات الحياة اليومية، إلى المسؤوليات التاريخية الجسام، مروراً بالمحافظة على الامن اللبناني والمساهمة في صناعة السلام الدولي في المنطقة بكاملها.

من هنا، من هذه الزاوية، يجب ان نفهم رسالة الحكم وهمومه عندما يتصدى العهد لكل ما يتصدى له، ابعد من المفاوضات، واحياناً عبرها.
ولا نرانا نغالي اذا نحن قلنا اننا سننجح في المفاوضات بنسبة ما نثبت اننا دولة، وتحكم... والشواهد على ما نقول اكثر من ان تعد وتحصى. حسبنا في هذا المقال ان نتناول قضية تبدو لنا هي الاخطر، والحديث عنها يعود الآن، مرة اخرى، إلى الواجهة: عنينا قضية المصالحة بين اللبنانيين.
والمصالحة هذه يمكن ان ينظر اليها، كما كان تقليدياً، كأنها تتم بمجرد مصالحة او لقاء

بين الزعماء والزعامات... كما يمكن ان نظن انها التقاء ما يوصف بـ«الفاعليات» فضلاً عن الميليشيات والاحزاب... هذا فضلاً عن خطر الانسياق وراء التجربة، تجربة المطالبة، التقليدية كذلك، بوحدة الصفوف، وما ادراك ما اكثر الصفوف، والتفافها حول الحكم والعهد.

والحقيقة ان الحكم مدعو إلى العمل على استعادة لبنان الارض شبراً شبراً، واستعادة اللبنانيين للبنان واحداً واحداً، اي مواطناً مواطناً...
ذلك اننا كنا قد فقدنا لبنان قبل ان تحتله الجيوش وتجتاحه الجحافل، وكان اللبنانيون قد اغتربوا وتغربوا في ارضهم من سنوات، بل عهود، قبل ان تهجرهم الاحتلالات ويستقطبهم «الغرباء» —اشقاء اكانوا ام اصدقاء ام اعداء، على حد سواء!
واذا كان بسط السيادة اللبنانية على الارض كاملة، غداً، عندما يتحقق الحلم، سيعيد إلى الارض الوانها وإلى الناس هويتها، فالاهم يبقى ما تحمله السيادة معها، وهي تعود، إلى الرض وإلى المواطنين.
هل تحمل اليهم الامن؟ ام يستمر العذاب؟
هل تحمل اليهم الخبز والرخاء ام يستمر الحرمان؟
هل تحمل اليهم العزة والحرية ام يستمر العسف والذل؟
ثم، ثم، الاهم ما تطلبه الدولة من المواطنين في تعاقدها الجديد معهم، وكيف يتجاوبون وبأي ولاء؟
هل يتعاملون مع الدولة كأنها محتل آخر جديد، يحل جيشه محل الجيوش الذاهبة؟ ام يتبلور الولاء للدولة والحكم ثقة واطمئنانا، فتنشأ اذذاك قاعدة الامن الحقيقية الوحيدة: الامن الاجتماعي والاقتصادي، فالامن السياسي الذي من دونه لا امن ولا من يؤمّنون؟
تلك هي المصالحة الوطنية الحقيقية التي ننتظرها من هذا العهد ولا نظنه يريد سواها: مصالحة الحكم مع المواطنين، كل المواطنين، في سبيل بناء الدولة الوطنية الجديدة.
تلك هي الآفاق التي آن لنا، حكما ومواطنين، ان نبدأ نتطلع صوبها معاً، عبر المفاوضات وابعد منها، اذا كنا فعلاً نريد ان نخرج من الدوامة بوطن قادر على البقاء، والبقاء لنا لا للآخرين!

(النهار 1983/3/21)

ميثـاق وطنـي للتحريـر

من «المصالحة الوطنية» – التي قلنا انها ليست رهنا بالمفاوضات، ولا يمكن، ويجب الا تكون – يسوقنا البحث، ابعد من المفاوضة، إلى الموضوع الاهم المرتبط بالمفاوضة والمصالحة في آن معاً: عنينا التحرير، تحرير لبنان.
وهو موضوع يتردد الكاتب في التصدي له، هكذا ببرودة، من فرط ما اقترن بالمنابر وادبها، بل من فرط ما شيّدنا له منابر، واية منابر، يمينا ويسارا، ووسطا كذلك!
في حين ان تحرير لبنان، دولة ووطنا ومواطنين، كان يجب ان يكون هو هو الموضوع الذي يوحد ولا يفرّق، يصهر ولا يمزق، يبلور الفكر العام والنفسية العامة بدل الاثارة والمزايدة.

ذلك ان التحرير كان قد غدا، في لبنان، ككل شيء آخر، اشكالا والوانا.
والواقع ان التحرير مراتب كيانية متواصلة، تبدأ من تحرير الإنسان الفرد وتنتهي إلى تحرير الجماعة، مرورا بالمؤسسات الحرة التي هي عنوان اجتماع حرية الامة وحرية المواطنين.
وفي تاريخنا الحديث، كما في كل تاريخ، الشاهد الحي على ان لا حرية ولا تحرر ولا تحرير من دون ميثاق وطني. هكذا كان يوم استقل لبنان، عام 1943، وقبل ذلك يوم اطلق عقاله من الامبراطورية العثمانية.
وهكذا يجب ان يكون اليوم وغداً: لا تحرير للبنان من غير ميثاق وطني جديد، يتوحد عنده اللبنانيون، فيوحد بينهم، ارضاً وشعباً، ويقيم بينهم وبين الدولة علاقة ثقة واطمئنان هي جوهر الحرية والتحرر.
وتلك تكون اذذاك المصالحة الوطنية الحقيقية: مصالحة الدولة مع المواطنين.
اما كيف يعلن هذا الميثاق الوطني الجديد، وكيف تكون المصالحة، وكيف ينشأ التعاقد الاجتماعي الذي ندعو اليه، فمسألة تقررها الحياة وسنتها والضرورات – لا تتقرر بالكلام والكتابة.
فبعيد عن تفكيرنا والدعوة ان تجتمع الناس لتتصالح، كائنة ما كانت المصالحة وبعيد عن تفكيرنا والاقتراح ان يدعو داعية، ايا كان، مجلسا يتناقش في ميثاق يستكتبه بعد المفاوضة في بنوده بندا بندا: لهؤلاء بند، ولأولئك بند، وبنود للآخرين، تحسب كلها بدقة وتوازن.

فاذا كان من مؤتمر وطني حقيقي، فهو تعايش اللبنانيين اليومي بعضهم مع بعض...
انه العذاب المشترك، والعمل المشترك، والطموح المشترك، وشركة في الحلم والامل بوطن جديد وحكم جديد ينشأ من الاختبارات المريرة التي حفرت امثولاتها في عقولنا والقلوب، يوما بعد يوم وسنة بعد سنة، من عشر سنين وتزيد.
ذلك ان لا احد سوانا تعلم اكثر منا امثولة الحرية ودفع مثل الثمن الذي دفعنا لها...
ولا احد سوانا تعلم اكثر منا ان لا شيء غير الدولة الحرة، دولة الوطن والمواطن، تقدر على حماية الانسان وتأمين حياته وكرامته وحاجات عيشه، لا تتآمر عليه بل تثأر له اذا تآمر عليه سواها، كما تثأر منه اذا هو تآمر عليها... لا تهاود ولا تتهاون ولا تستهين!

خلاف الحروب التي مزقت لبنان، كنا كثيرين نتوق إلى دولة جديدة يستحقها لنا المئة الف شهيد الذين يتحدث عنهم رئيس الجمهورية.وهو حديث كان يكون نظريا فحسب، لو لم يكن المتحدث امين الجميّل، المقاتل الذي اصبح رئيساً.
ذلك ان لا شيء يعطي كلمة الحرية معناها مثل طعم الرماد في فم الذين عايشوا الموت شهادة، بل شهادات.
ثم ان لا احد يقدر ان يردم الهوة بين المتاريس افضل من مقاتل تجاوز متراس عشيرته واهله ليقيم للوطن والحكم متراسا في وجه كل من يهدد حرية الوطن ويعوق ترسخ الحكم بين العشائر والناس.

في ستة أشهر منذ تبوأ امين الجميل، كان الحكم مفاوضة.
ولا نظن الرئيس، وهو يحسب الايام ويحاسب نفسه اليوم، في حاجة إلى من يتذكر معه او يذكره بان احدا في مثل حاله لم يبن وطناً بالمفاوضة ولا صنع حكما بعد حرية... بل كان الحكم طريق التوحيد، وكان تحرير الوطن حصيلة اجتماع الاحرار، فتهون امام ميثاقهم العهود، بل المعاهدات، ويلتزم التاريخ تعاقدهم، متى اجتمع لهم عقد فريد.

(النهار، 1983/3/23)

ميشـال عـون

كتاب مفتوح إلى العماد عون... ومنه إلى السادة النواب

يا دولة الرئيس،
وباللقب الذي اظنه لا يزال الاحب اليك:
يا دولة العماد،
في ايام الحماسة والاندفاع التي نعيش، ليس سهلا على صحافي ان يخاطب حاكما بما قد لا يطيب له سماعه. ومع ذلك، هي «الحرية المسؤولة» التي يطالبوننا بها تلزمنا ان ندعوك للقيام بمبادرة تاريخية كبرى لعلها تصبح في حجم «حرب التحرير» واعظم.
«سوق غرب» اخرى، انما سلمية هذه المرة، تنقذ بها وحدة لبنان، كل لبنان، فضلا عن وحدة الصف الذي بات ينتمي اليك، رفيقا في الدعوة الشرسة للحفاظ على السيادة واخراج القوى الغريبة –والقريبة– من ارضنا.

لقد قيل انك دعوت مجلس الوزراء إلى عقد جلسة، بقيت مقرراتها سرية، وانك ابقيت جلسات مجلس الوزراء (اي مجلس وزراء؟...) مفتوحة لمواجهة – قيل – شتى الاحتمالات، او «الخيارات» حسب تعبيرك.
غالب الظن، اذا صدق المعلقون، ان القرار السري الذي اتخذته هو حل مجلس النواب.
هذا ما سمعنا... ولا نصدق!
لا، لا نصدق.
ذلك اننا نعرف انك، يا دولة العماد، تعرف ولن تتجاهل ان حل المجلس النيابي – كائنا من كان اعضاؤه وايا كان رأيك ورأينا في بعضهم – سيقود الحكم، بل الكيان اللبناني، إلى شفير الهاوية بل إلى القفز في المجهول.
فالدستور اللبناني – معدلا او غير معدل – سيكون اذذاك في مأزق، اما الديمقراطية ففي مهب الرياح. ولا نظنك تجهل، يا دولة العماد، ان لا لبنان من دون ديمقراطية، لان اجتماع العائلات الروحية التي منها يتألف لا اطار ممكنا لديمومته غير الاطار الديمقراطي... ويشهد تاريخنا الحديث كيف ان التعايش انما كان يتفجر كلما ضاق الاطار الديمقراطي، وخاف معه الحكم فضيق على الناس، مواطنين ومجموعات!

لقد استمعنا اليك، يا دولة العماد، واستمع اليك كل لبنان تدافع عن السيادة وتطلب لها الضمانات.
وشاهدنا آلاف المتظاهرين يهتفون.
فاسمح لنا ان نسألك اي تمييز تقيم بين السيادة والديمقراطية؟
وهل يعقل – هل يعقل حقا، هل تصدق – ان الشعب اللبناني يمكن ان يكون وحيدا مختلفا، في عالم يتظاهر فيه مئات الالوف، بل الملايين، من اجل استعادة ديمقراطية سلبية؟
اي ان يكون الشعب اللبناني وحده يطالب بزوال القليل من الديمقراطية التي عنده؟
لا، كلا، يا دولة العماد.
الممارسة الديمقراطية عندنا تحتاج إلى كثير تصحيح. لكن ذلك يتم من ضمن الممارسة الاصولية الحرة، لا بقمعها او بالانقلاب عليها.
والذي منا يعود يدرس اسباب هذه الحرب، بل الحروب التي تدوم خمس عشرة سنة يقتنع ولا ريب ان المجتمع اللبناني انما تفجر لا بسبب الحكم الديمقراطي، بل لأن المؤسسات الدستورية قد جمدناها فلم تستوعب، بمزيد من الحرية، كل ما كان يعصف بهذا المجتمع وما كان اللبنانيون يتوقون اليه.
واللبنانيون الذين تظاهروا غضبا معك، ايها العماد، من اجل السيادة التي انت حارسها، انما يريدون من السيادة مزيدا لحرياتهم، وليس العكس!

يا دولة العماد،
فلنعد إلى حديث الدستور.
سمعناك توافق على الاصلاح الدستوري وتعلن انك كنت تدعو إلى الاكثر منه.
فماذا بعد؟
لو مكّنوك من السير في الاصلاح الدستوري قبل ان تعلن حرب التحرير لربما بلغت الحرب اهدافها وكان معك فيها علناً من صفق لك لحظة، في السر، ثم ارتد خائفاً على حياته يغمر اولاده ويستظل البقية الباقية من بيته الذي استحال او كاد وطنا ضمن الوطن، وأعزّ!
اما اليوم، فالوضع احرج، وانت تعرف.
فاذا انت اقدمت على حل المجلس، او منعت انتخابات رئاسة الجمهورية، ولو بحجة طلب الضمانات، فالى اين من هنا؟
ان الدستور – وكل الدستور – يفرض عليك، فور حل المجلس، الدعوة إلى انتخابات نيابية عامة. وعلى افتراض ان حل المجلس يتقبله النواب، ولا سيما منهم الموجودين في مناطق غير خاضعة اليوم لسلطتك، فهل في وسعك، او وسع سواك، اجراء انتخابات – وحرة، من فضلكم! – للمجيء بمجلس جديد، يكون اصدق تمثيلا او افضل تكوينا من المجلس المنحل؟

من اين لك، او لسواك، ان تجري اليوم انتخابات، وكيف تضمن سلامتها وحريتها والبلاد في الوضع الميليشيوي المعروف، يغلي سلاحها بمئة ثأر وثأر، فضلاً عما – وعمن– يحرك هذا السلاح ويغذي بالذخائر من عملاء دول ومؤامرات، ودول مؤامرات؟
تخطيء – نعم تخطيء، يا دولة العماد الرئيس – اذا تركت احدا يقول لك او يقنع حكومتك وصحبك ان العودة إلى الدستور هي عودة إلى الماضي.
ان المؤسسات الدستورية، حيثما توجد وكيفما تكون، هي هي الطريق الوحيد إلى المستقبل، انما بسلام ومن دون مجازفات...
وحيث تتعطل المؤسسات، تكون المجازفة، وربما كانت احيانا مجازفة حلالاً، شرط الا تصطنع ولا تفتعل.
وان المؤسسات الدستورية هي التي توحد بين المجلس والحكومة، فكيف نريدنا – وتريدنا – ان نجعل الدستور سيف القسمة؟
ثم ان الحكم الدستوري وحده، متى استقام بفعل انتخاب رئيس جمهورية، يتعهد تعديل ما يجب، وتوافق انت على تعديله –الحكم الدستوري وحده قادر على استعادة الزمام من الذين اغتصبوا الحكم والتمثيل على حد سواء... وان يحرر – نعم يحرر العهد المقبل الجديد من استرهان اهل الحرب للسلطة.
أوليس هذا ما كان يحاول العماد عون القيام به، شرقا وغربا، وفي رأيه ان بين الاحتلالات الاجنبية والتسلط «الحربجي» تواطؤاً تاريخياً راسخاً؟
حرب التحرير الحقيقية هي هذه، يا دولة الرئيس.
هي هذه، لان البديل منها هو الانتحار، وانت لا تريدنا ان ننتحر.

الانتحار، اذا رفضت السلوك الدستوري، هو انك قد تحرر – قد، قد، ومشروطة جداً! – جزءاً من لبنان، لعله الأعز على قلوبنا، لكنه يظل جزءاً ليس اكثر!
أوتريد هكذا لبنان؟
لبنان لا اعتراف به، ولا شرعية دولية له، لان الاعتراف الدولي بدستورية الحكم، متى زال، يزول معه الاعتراف حتى بوجود الدولة...
اي بوجود الوطن والكيان!
وانت تعرف، يا عماد، ما أكثر الذين يريدون ذلك، وينتظرونه بفارغ صبر، ويتمنون اكثر ما يتمنون ان تتسبب انت فيه!
اين الضمانات آنذاك؟
مرحبا ضمانات...
لا ضمانات، لا اذذاك، ولا الآن – اذا تصارحنا – غير قوة، هي بدورها غير مضمونة الاستمرار!

يا دولة العماد الرئيس،
جدل دستوري عقيم، كل ذلك؟
مناظرات ادبية نظرية لا تجدي؟
فلنتحدث قليلا بلغة الواقع.
في يدك انت ان تفتح امام لبنان ابواب عهد السلام وفي يدك ان تنشر رايات الحرب!
في يدك ان يكون عهد السلام عهد التحرير، اي عهد استعادة السيادة واخراج الجيوش الغريبة وتحصين الاستقلال. كما في يدك ان تجازف حتى بما حققت إلى الآن!
فاليك يعود، يا ايها العماد، انك جعلت حرب التحرير (التي كانت القلوب معها حتى حين كانت العقول ضدها...) جعلت حرب التحرير تفرض على العالم التصدي لمعالجة قضية لبنان ساعة اردت وأراد اللبنانيون ذلك.
وكان لنا من ذلك نصر مبين، لعله في حجم الانتصار العسكري الذي قلت انت انه سيكون مستحيلا.
ومات منا من مات، الف وخمسمئة شهيد. واحترق ما احترق، وتدمر ما تدمر، وخسرنا من الحياة واسباب الحياة.
وكان الثمن لا وثيقة الطائف، بل اعتراف بحقوقنا وتكريس لاستقلالنا من كل دولة، كبيرة وصغيرة، ثم هذا التعهد العربي للسلام اللبناني الذي كان ممنوعا، لان سوريا كانت هي التي تمنعه عنا، والعرب صاغرون!
وقد تبلور الاهتمام العالمي حول وثيقة الطائف ومضى، عن حق او عن غير حق، بتحفظ او من دون تحفظ، يطالب بتنفيذها.
وقد جعلت النواب، والاكبر منهم، ممن وافقوا على وثيقة الطائف او شاركوا في صنعها، يدمغونها بالتحفظ، ولا يلتزمونها الا وهم يلتزمون، في الوقت ذاته، جعلها مدخلا إلى استرداد الارض والاستقلال.
فهل نهدر كل هذا الاهتمام لنخوض حربا جديدة انت نفسك قلت عنها انها مستحيلة الانتصار، لا ضد اميركا وحدها، على افتراض انها المتآمر الكبير، بل ضد روسيا المتوافقة معها، واوروبا المتعاطفة مع العرب، والعرب كلهم، وحتى ايران، وقد قالوا، بكثير من الصدق، ان هذا كل ما عندهم وكل ما في وسعهم بذله من اجلنا؟...
كان ذلك هو الحصاد.
وفي رأينا انك حصدت الكثير.
فهل تريد ان تحرق الحصاد؟
اننا نأبى عليك، ونأبى لك، ان تبدو كأنك، اذ تخالف وحدك العالم بأسره الذي يدعوك إلى السلام، انما تضحي بالكل من اجل الجزء، وتهدر هذا الذي جنيت لنا ودفعنا معا ثمنه غاليا من ارضنا والحياة!

كل ذلك، قد يقال، لانك ترفض – بغير حق – ان تأتمن سواك ممن قد يأتي به تطبيق اتفاق الطائف وليس في متناوله قوتك، ولا ربما الرسولية التحريرية التي اقترنت باسمك وجعلت لك عند الشعب هذا الشغف بشخصك والثقة بترفعك.
ذلك انك، عندما عينت في رئاسة الحكومة، كانت مهمتك الدستورية – ولا تزال – تأمين انتخاب رئيس للجمهورية. واذا بك تطور، عبر مواقفك، هذه المهمة إلى رسالة جعلتها بمثابة المقدمة التي من دونها لا انتخاب لرئيس!
يا دولة الرئيس العماد،
نحن معك – ونذهب ابعد – في الاصرار على النواب ان يعودوا...
لا لتهديد سلامتهم –معاذ الله! – ولا للتهويل عليهم – وقد اكدت العكس!
نحن نريدهم للانتخابات، لأن لا انتخابات شرعية خارج لبنان!
اما انت، يا دولة الرئيس، فقد قيل انك تريد عودتهم لكي تحافظ واياهم على الوضع الراهن، وقد سمي «الستاتوكو»، تجلس ويجلسون عليه، تتناقشون – وربما تتظاهرون – إلى ان يقضي الله امرا كان مفعولا!
ما هو، هذا «الستاتوكو»؟
انه الرجوع إلى ما قبل 14 آذار/مارس.
واذا كان الامر كذلك، فلماذا كان 14 آذار/مارس، اذا صار مثالنا الأعلى الآن هو الرجوع إلى ما قبله؟
ومن يرجع القتلى إلى الحياة؟ من يعيد الينا الضحايا؟ والمهجرين؟ والعمار؟
ثم من يضمن اننا اذا لم نحارب نحن فان سوانا – وسواك – يا دولة العماد لن يحاربنا، فنضطر إلى خوض الحرب من جديد، ولا حليف غير الثقة بالنفس والأمل في الله ومحبة الوطن؟
وحتى لو لم يحارب احد منا احدا، فمن يقول ان الحفاظ على «الستاتوكو» لن يصبح مجرد طموح إلى الجمود، كأنما الجمود في الحياة ممكن، او كأنه، اذا كان، ليس تقهقراً، فيأسا، فانهزاماً؟
اذذاك، حتى تحرير الارض المحروقة لا يعود يجدينا نفعا.
لا، لا يا دولة الرئيس العماد،
ليست هذه شيمتك ولا شيمة الابطال: ان ينتهي بهم المطاف إلى حراسة الجمود.
وليست شيمتك ان تظل قابضا على زمام حكم مستحيل الممارسة يقوم على تعطيل المسيرة الدستورية التي عادت تنطلق، والتي ما جئت في الاصل الا لتأمين انطلاقها وحراسة سلامتها، لا حراسة جمودها!

يا دولة الرئيس العماد،
المطلوب منك الآن مبادرة تاريخية عظمى، في حجم ما تطمح للبنان، لا ما تطمح لاشخاصه وحكامه...

اول هذه المبادرة ان تؤكد للسادة النواب انك لا تصدّق، ولا نحن نصدق، ان بينهم من بلغ به شعور الغربة، نتيجة حروب الآخرين على ارضنا، حد التفكير، مجرد التفكير، في انتخاب رئيس سلام للجمهورية خارج الارض المطلوب من الرئيس ان يرويها، هذه المرة، بغير الدماء والدموع.

نعم، قل لهم: تعودون، وفوراً!

قل لهم اننا لا نريد ان نصدق انكم تتأخرون عمداً او تتلكأون لأننا، مع العماد، في قوله ان ليس بالخوف ندافع عن السيادة والاستقلال.

ومن اكثر من المجلس النيابي، بل من، فوقه، يأتمنه الدستور على السيادة؟

النواب – قل لهم – في كل نظام وكل عرف، لا يمثلون السيادة الوطنية فحسب بل هي السيادة – سيادة الشعب وسيادة الامة – تتجسد في مؤسستهم. فهلا يصونونها؟!

واذا كان من معركة استعادة ثقة، ثقة الشعب وثقة المحررين، ففي معركة تخوضونها، ونخوضها كلنا معاً، كل اللبنانيين، «على ارض المعركة»!

هذه المعركة، هي اختيار الرئيس.

ورئيس الجمهورية المقبل هو الذي لن ينتظر، بل يربح المعركة بفرض نفسه ودوره، اكبر من الحرب، فيتجاوزها، واقوى بشخصيته وشجاعته من اسياد الحرب، كل الحرب، بما في ذلك حرب التحرير...

لانه اذذاك يستمر في التحرير عبر الحكم، يجعل من الحكم اداة تحرير الارض والسيادة، كتحرير المواطن.

ذلك هو الدور المستقبلي الذي يكون عظيماً بنسبة ما يبدأ مستقبله من الحاضر بدل ان يغرق في الماضي، حنينا يتغنى بالذي كان!

اينكم تسألون العماد الرئيس اذا كان في نفسه ما يمنعه ان يتجاوب مع هذا الدور، بل هذه الدعوة، متى قامت؟

اينكم، ايها السادة النواب، اين البطولات نحلم بها، اين الرئيس التاريخي البطل؟

(النهار 1989/11/30)

رينيه معوّض

حقنا في الحياة... وحقنا عليها؟

جفت عيون شعبنا، فلم يعد احد يقوى على بكاء...
نكاد نصير كلنا غضبا، وجنونا!
ترى، في عيد الاستقلال، هل هو رينيه معوض الذي مات، أم لبنان يحاولون، مرة اخرى، اغتياله، بل افتراسه؟
المؤامرة لا تشبع... ولا ترحم!
وهي تفترس الشهداء في كل صوب، كأنها توحدنا هكذا...
توحّدنا المؤامرة في الموت، من رئيس إلى رئيس، ومن زعيم إلى زعيم: كمال جنبلاط وبشير الجميل، طوني فرنجية ورشيد كرامي، ثم حسن خالد واليوم رينيه معوض...
فدور من يأتي غداً؟
وهل نستمر، هل يستمر لبنان يعاند، يرفض ان يزول، يرفض الدرس، لا يتعلم، لا يفهم، لا يدرك؟

عندما يذهب كبير إلى الدنيا الآخرة، تحار ماذا تتذكر عنه ومنه: آخر الاقوال، ام اول الصداقة؟
امس، امس فقط، كان يقول الرئيس: «أنحني بخشوع امام شهداء الوطن الابرار من كل مناطقه ومن اي انتماء... وقد ادوا ضريبة الدم وتركوا في القلوب جروحا لا تندمل وفي الاعماق دموعا لا تجف».
هل كان يعرف رينيه معوض انه كان كمن يرثي نفسه؟
لا... كان يؤمن بالحياة ويحبها، لا يكاد يصدق ان الموت لنا في المرصاد.
وحدنا، اصحابه من ايام الصبا، كنا نعرف كم كان تعبّده للحياة هو الاقوى، حتى ساعة يذر الخصام قرنه...
وحدنا كنا نعرف كم كان السلام، بل كم كانت المسالمة، في نفسه، وفي عينيه، وفي العقل البراق خلف العين تلمع به... كم كانت المسالمة شعاره، حتى في دنيا العنف التي عايشها، فيجتاز امواجها هادئا راضيا مترويا!

«اوجه دعوة حارة ملحة إلى كل اللبنانيين اينما كانوا للانضمام إلى مسيرة السلام والبناء تحت شعار الوفاق...»
أمن اجل هذه الدعوة قتلوه؟
«ان الوطن في حاجة الينا جميعا، فلنضع حدا نهائيا للعنف والانقسام. ولنكف جميعا عن الاحتكام إلى السلاح، فمن حق شعبنا ان يستعيد حق الحياة»!...

«حق الحياة»؟...
لعل هذا الحق هو ما دفع رئيس جمهورية السبعة عشر يوما ثمنه من دمه والكلمة والآمال والاحلام الكبار!
«اعاهدكم بأنني لن اسمح لنفسي بلحظة راحة الا وقد استتب الامن اللبناني الشرعي في آخر بقعة من ارضنا»...
«لن ارتاح الا وقد تم اعمار ما تهدم واسكان من هجّر واعادة من هاجر...»
... وينقطع الكلام!
هل ترتاح حيث انت اليوم يا فخامة الرئيس الحبيب؟
لعلها المؤامرة سمعتك، فلا هي ارتاحت، ولا ارادت لك الراحة، ولا لنا! ولا هي ارادت ان ينعم شعبك بهذا الذي سميته:
«حق الحياة»!
فهل غدا لبنان بلا حارس لدستوره، ولا رادع يفزع اليه، ولا وازع يرد عن الحق الاذى؟
وماذا عن الاستقلال نحتفل بعيده كأننا نغسله بأغلى دماء؟
وهل يقضى على الاستقلال في يوم عيده، ويستسلم الاحرار صاغرين!...
يا لهول الفراغ!...
ولكن، ما اعظم الانتقام اذا كان يرد على العنف بالسلام...
نظلم التاريخ اذا نحن اليوم استسلمنا لبؤس الحزن ويأسه، خائفين...
يجب الا يكون في قلبنا مكان لخوف، وان يكون الايمان بلبنان هو الاقوى.
ما اعظم الانتقام اذا نحن اليوم انتقمنا من المؤامرة بأن نلبي النداء، فنتوحد ونتحد لنعلن على الحرب حربا، علنا نقتل الموت بالحياة!

يا اجراس اهدن، نريدك ان تعزفي غدا انغام الحرية والحياة!

(النهار، 1989/11/23)

الياس الهراوي

أهـلاً بالرئـيس الجديـد، إذا...

بنسبة ما «المجلس سيد نفسه»، شرعا، تسقط كل الاعتراضات على «سرعة تشبه التسرع» في انتخاب رئيس الجمهورية الجديد، قبل ان يدفن الرئيس الراحل!
الشرط ان تنشأ من الخطوة النيابية هيكلية دستورية معترف بها وقادرة على تأمين معالم الحكم والاعتراف الدولي. وفي طليعة هذه المعالم، قانوناً، بل في طليعة الشروط –شروط الحكم والاعتراف – بسط السيادة والقدرة على الحفاظ على الامن.
اذذاك، تنشأ من الوضع الجديد، ولو استطاب البعض الطعن في شرعيته، شرعية دستورية مستحدثة تصبح هي هي الشرعية.
فإلى الرئيس الجديد، الياس الهراوي، تهانينا ولو مغسولة بالدموع...
دموعنا على الرئيس رينيه معوض، الذي قضى شهيد التصميم على إنهاء الحرب واستعادة السيادة كاملة فيعيش لبنان في الشرعيتين: شرعية الدستور الذي ظلت الحرب تمعن فيه تمزيقا حتى كاد يزول، فجاء انتخاب رينيه معوض يعيدنا اليه... ثم شرعية التوافق الوطني، اي شرعية الميثاق الاجتماعي والسياسي الذي من دونه، ومن دون التزامه بسلام ووئام، لا تقوم للشرائع قائمة، ولا يكون للدستور معنى، ولا للسيادة منعة ولا حتى للاستقلال حقيقة.
وبعد، لعل الرئيس الهراوي قد اراد ذلك كله باستعجال المراحل، هو الرئيس الحسيني والرئيس الحص وما، ومن استندوا اليه من توافق نيابي وحزبي وعربي ودولي.
ومن حقهم جميعا على كل لبناني، في هذه اللحظات التاريخية، التجاوب مع الحدث الضخم لا وفاء لشهادة رينيه معوض فحسب، بل وفاء لاستشهاد كل الذين كان اللبنانيون يبكونهم، سنة بعد سنة، بل يوما بعد يوم، خلال خمس عشرة سنة من العذاب والخراب.
يبقى ان التحدي الذي يواجهه الرئيس الجديد هو كذلك في حجم المأساة، ورد التحدي يجب ان يكون في حجم المؤامرة لينتصر عليها.
وليس لنا ما نقوله، امام ضخامة الحدث وعنف ردود الفعل، غير تكرار المبادئ العامة التي لا نظنها تخرج عن اطار الايمان العام:
اول هذه المبادئ ان السلام لا يتحقق بالحرب، ولا الوحدة تعود بالقوة...
فحذار، حذار!

وثاني هذه المبادئ ان لا حياة للبنان ولا مستقبل للتعايش فيه من دون ديمقراطية...
فحذار، حذار!
وثالث هذه المبادئ، ولعله اهمها، ان السيادة الوطنية، كالاستقلال، تبنى من الداخل ولا تؤخذ من الخارج، بأمن مستعار قد فشل، فكيف بدفاع مستعار...
فحذار، حذار، حذار!

ثم لا بد من كلمة إلى الرئيس الهراوي وعنه، وهو من عرف في حياته السياسية بالمرونة في الشكل والعناد في الجوهر.
انه من بلد عزيز، زحلة، له في لبنان مقام مميز، وله على لبنان افضال امجاد، انما يعيش الآن ازمة تكاد تصيب جوهر هويته.
وهي امور نعرف ان الرئيس الهراوي مدرك لها كلها.
وساعة ترتفع اقلام العاملين في خرائط الشرق الاوسط تقسيما وتوزيعا، كما ترتفع اصوات المشككين في البقاء اللبناني، تقسيما وتوزيعا كذلك، نحب ان نرى الرموز في انتخاب «زحلاوي» لرئاسة لبنان، بل فعل الايمان ببقاء لبنان واحدا موحدا، بكل اصقاعه وبقاعه، لا «عروس» تخطف منه، ولا «جبل» يعزل ولو في شموخه.
لان لا حياة لاي لبناني من دون كل لبنان!
تلك يجب ان تكون رسالة الرئيس الجديد.

(النهار، 1989/11/28)

خواطر من «جمهورية المقابر»!

«.. ولأنه كان لا بد لهذه المأساة من نهاية مفرحة، ضاحكة، فقد انتخب المجانين رئيساً وسلموه مفاتيح القبور وشرائع القتل وتاريخ الحضارة التي تحطمت كالدمية من فخار (...) رئيس الاموات؟ جمهورية ام مقبرة؟
(...) – الاموات لا يحتلون الاموات. ارضنا باتت لها الآن حرمة الموت...
– خطيئتنا التاريخية اننا ظننا انه كان يمكننا الدفاع عن الارض بالنار التي تحرقها، وعن الوطن بالآلات التي تدمره، وعن السيادة بطرحها في اسواق الحمايات الوهمية والضمانات الواهية!».

«النهار» 14 نيسان/أبريل 1976

1

اذا كنت تكتب وانت في وسط حريق، يرقص من حوله المجانين، ففيم تفكر؟
في ان الذين اشعلوا الحريق هم المجانين الذين يرقصون حوله، وقد افلت منهم زمام العقل كزمام الحياة، فضلا عن زمام القدرة على اطفاء الحريق؟!
تجلس تفكر، وسط الحريق، في الاسباب والعلل والذرائع؟
لا، لا... لا تفكر وسط الحريق!
ولا يمكنك ان تجد للذين أشعلوه عذراً.
ذلك ان احراق الناس لا ينقذها، واحراق المدائن لا يعمرها، واحراق الوطن لا يحرره، واحراق التاريخ لا يبطل احكامه ولا يصحح مجراه.
تقول: كلهم مجانين، وكفى؟...
لان محك العقل – والقدرة على الحكم والسياسة – كان يكون ان يمنعوا الحريق، ويحولوا دون الانتحار الجماعي.
ماذا تفعل اذاً؟
تلعنهم جميعاً... وتحاول ان تخرج من النار حتى تنقذ لوطنك بقية من ارض وحياة!
وحتى لا تكفر بالحرية والسيادة من فرط حاجتك إلى الماء والخبز!

نكرر: محك الحكم في الحرب، كما في كل سياسة، هو القدرة على منع الحريق.
اي القدرة على النجاح.
السياسة، كالاتفاقات (داخلية كانت ام اقليمية ام دولية)، كالاصلاحات الدستورية، تقاس بما تنتج في الحياة وما ينجم عنها على الارض وبين الناس. لا يهمنا ان تكون جميلة، كالاحلام، وصحيحة على الورق، كالنظريات... المهم ان تنجح!
واذا فشلت، كان الحريق.
وحتى لا ينتهي الحريق إلى انتحار جماعي، يهزم المسؤول نفسه قبل ان يهزمه الناس ويلعنوه، ينتحر قبل ان ينتحروه، ينقذ البقية الباقية من الحلم حتى يبقى له في التاريخ موضع.
ذلك ان التاريخ لا يريدنا ان ننسى الاحلام، ولو مجنونة، ولو ذكرتنا بالعذاب والخراب...
شرط ان نتغلب عليها في قلوبنا وعقولنا والاجساد، فنحيا!
لان الحقيقة لها دائما، في الحرب، وجهان... وليس الوجه البشع اقل من الجميل علينا حقا!

2

عمليا، اين «الطائف» واتفاقه من كل ذلك؟ أو نكتفي بالرموز، نشرعها ونمشي؟ لا، كلا... الامثولات كي نتعظ بها.
كنا مع «الطائف» وهللنا له وكبّرنا لأنه كان يراد منه، وكنا نريد، اتفاق سلام ووئام.
واذا به يفشل في اقامة السلام وتحقيق الوئام.
على الورق «الطائف» ممتاز، وما ليس منه ممتازا فقابل – ظننا – للتعديل والتصحيح. كان المهم السير على طريق السلام. فماذا حدث؟
خطفوه... خطفوا الاتفاق والسلام معا، واخذونا كلنا، وطنا ودولة وشعبا، رهائن للفشل.
بدليل كل الذي يحدث، من اقليم التفاح إلى «الشرقية»، مروراً بـ«الغربية» وضاحيتها الجنوبية، وسائر الضواحي والاقاليم، ناهيك بتطبيع اسرائيل للجنوب وليس من يسأل، والاستعداد لتوطين الفلسطينيين حتى يصير المجال فسيحا امام «توطين» اليهود السوفيات المهاجرين... بينما لا يهاجر من لبنان الا اهله، وليس من يسألون!!!
عمليا، عمليا... ماذا نفعل؟
على الرئيس الياس الهراوي ان يصير بالفعل رئيس كل لبنان، رئيس جمهورية... الاحياء، لا جمهورية القبور، ومكلسة!
وعلى الشرعية ان تنقذ مؤسسات الشرعية، فلا تبني نفسها على شرعية الحرب ومؤسساتها ولا تترك نفسها اسيرة اسياد الحرب واسياد الاسياد وجيوشهم البديلة!
الرئيس الهراوي قال انه لا يريد «امناً مستعاراً»؟
مرحبا بالقول. ننتظر الفعل.
لكننا لا نظن الطريق إلى دولة الامن يمر بما سماه «تحييد البندقية السياسية»... لان لا مكان

في دولة الشرعية، دولة القانون والنظام والامن –لا مكان في هذه الدولة لبندقية (فكيف بالمدافع والدبابات والصواريخ؟) الا تلك التي في حوزة الجيش وقوى الدولة الذاتية.
خصوصاً اذا كانت «البندقية السياسية» (وبقية الاسلحة، خفيفة وثقيلة) هي الاقوى، وقادرة على استرهان الدولة عبر وجودها السياسي في داخلها.
«الحريات السياسية» يجب ان تكون مضمونة، كما يطالب الدكتور سمير جعجع؟
طبعا، ونحن معه في ذلك. ولا نظنه يجهل انه من المستحيل ان ينفرد لبنان– ساعة يقدم الاتحاد السوفياتي نفسه على التنازل عن نظام الحزب الواحد والقمع الذي يرافقه والارهاب – من المستحيل ان ينفرد لبنان بحصر «الحرية السياسية» بالميليشيا الاقوى عدة او عدداً او عضداً.
الحرية السياسية تضمنها الشرعية الديمقراطية دستوريا. اما عملياً، فيضمنها غياب «البندقية السياسية» وليس مجرد تحييدها!
فكيف بتوزيرها وهي السلاح الاقوى؟

3

والآن، ماذا عن القمة العربية العتيدة؟
بعد كل الذي قلناه لها وعنها في مقالات سابقة، لا نجد الا ما قل ودل:
عجّلوا، عجّلوا قبل فوات الاوان.
قلوبنا تنزف، اكثر من الاجساد، عندما نجدكم ظننتم انكم اتفقتم وكفى!... فأين المتابعة العملية الموعودة، واين التنفيذ، اين الانسحابات بدل المزيد من الانتشار؟... ثم اين العناية حتى بمن لم يلتزم، داخل لبنان وخارجه على حد سواء؟
ونعود نؤكد ان المطلوب قمة عربية للعرب لا للبنان وحده... قمة تدرس المصير العربي وتدرأ عن دنيانا الاخطار التي ترتبها لا القضية اللبنانية وحدها بل كل ما يعصف بالعالم العربي وما يعصف بالعالم الخارجي من احداث، المنظور منها وغير المنظور، والمنتظر وغير المنتظر!!!
وليس اقل الاخطار ما يحدث في فلسطين وما يهيأ لها وما يستكثرونه عليها وعلينا جميعا.
وختاماً: قيل ان حرب لبنان كانت «حروب الآخرين» على ارضه. والاصح انها كانت مجموعة حروب بديلة:
الفلسطيني حارب اللبناني بدل الاسرائيلي!
واللبناني كذلك حارب الفلسطيني بدل الاسرائيلي!
ثم حارب السوري اللبناني بديلا من الفلسطيني حيناً ومن الاسرائيلي حيناً آخر...
وحارب العراقي اللبناني بديلاً من السوري.
وحارب الايراني اللبناني بديلاً من السعودي، فضلاً عن العراقي...

وكان الليبي قد حارب كل الناس في لبنان، وكذلك سالمهم فيه!
إلى آخر الأغنية العربية...
فضلاً عن حروب الدول الكبرى، والاصغر من الكبرى بقليل، من اقصى الغرب إلى اقصى الشرق، ولا استثناء.
كلهم حاربوا اللبنانيين؟
بل الاصح: كلهم «استحربوهم»، وخطفوهم وخطّفوهم واستخطفوهم، وارهبوهم واسترهبوهم ولا يزالون.
أفلا يكفي؟
واذا كان قد آن أوان توبة اللبنانيين واستفاقتهم وتنبههم وخروجهم من جحيم الحريق الذي هم فيه يرقصون مجانين...
فقد آن، بالاحرى، أوان تنبّه العرب واستفاقتهم قبل ان تلتهمهم النيران من كل صوب: نيرانهم، ونيران لبنان، ونيران... «الآخرين»، وكذلك «حروب الآخرين»!

(النهار، 1990/2/8)

متى الخروج من الجنون إلى التاريخ؟

مرة اخرى، شكرا للديبلوماسية العربية، وقل ديبلوماسية «التعريب».
لقد اصدرت بيانا آخر جديداً، (بماذا هو جديد؟) تؤيد فيه ذاتها وحالها، فتتعهد استمرار التزامها اتفاقات الطائف ودعمها والتقيد بتنفيذها!
اما كيف، فكلام.. تعريب!
اي، مرة اخرى، قول الشاعر: «لا خيل عندك تهديها ولا مال..» ولا رجال، خاصة لا رجال... «فليسعد النطق ان لم تسعد الحال»!
حبذا لو اكتمل البيان بنداء إلى اللبنانيين ان «تنبهوا واستفيقوا ايها اللبنانيون...».
والشاعر كان يكون هذه المرة لبنانيا، توجه بشعره إلى العرب... وكانت الثورة الكبرى!

اما اللبنانيون الذين يجب ان تتوجه اليهم الرسالة، هذه المرة، علّهم لا يزالون يسمعون ويعون، فثلاثة:

اولا – اهل «الشرقية»:
نسألهم متى يحين أوان الخروج من الجنون؟ وماذا بعد ينتظرون؟
اي عذر، بل اية ذريعة بعد، للاستمرار في حرب يتسابق الفريقان في وصفها بالعبثية، ولم يعد ثمة ما يتحارب الفريقان من اجله يستحق حرباً:
لا الارض بعدها ارض، وقد احرقناها...
ولا المدائن تستأهل، وقد صارت خرابا، ان يحتلها محتل، ولو كان غريباً، فكيف هو منها وكانت في الاصل له؟
ولا الانسان لا يزال انساناً، وقد قلص اسياد الحرب حقوقه والطموحات من اقصى التحرير وأرفع المثاليات إلى ابسط حاجات الحياة، فضلا عن الهجرة إلى اي مكان، ولا مكان، هرباً من هوية لم تعد تعني غير التحول إلى مغانم في اسواق النخاسة واسلاب في بازارات السياسة!
أوليس في الجماعة بعد زعامة او قيادة تنطلق بالبقية الباقية من الارض والناس في حركة

رفض كبيرة تحرر لبنان التعيس من عبث العابثين بمصيره، المتسابقين إلى استسلامه وتسليمه، بعد ان تكون قد زالت كل مقومات الحوار الكريم الخلاق، وغدت البقية الباقية من الوحدة الوطنية فزعاً من المستقبل إلى رواسب الماضي؟

ثانيا– اهل «المشاركة»:

أي الذين وجدوا في اتفاقات الطائف اطاراً دستورياً يجعلهم يطمئنون إلى لبنان المساواة والعدالة...

إلى هؤلاء نقول ان اليوم يومهم والساعة ساعتهم لتكريس العروة الوثقى بين الدستور والسيادة، بين المشاركة والاستقلال، بين الوحدة والتحرر. وذلك بوضوح وصراحة وبلا مراوغة ولا لف ولا دوران.

ان لبنان المستقبل ليس، ولن يكون رهناً بعون او رعاية او التزام يتجاوز حدوده وقواه الذاتية.

والمطلوب من اهل المشاركة، وهي تتحقق، ان تقوم من صفوفهم زعامة الاستقلال الثاني، والسيادة النهائية، والحرية غير المسترهنة ولا المتطلعة الا إلى لبنان حتى تبطل ذرائع المدعين التحفظ والخوف المطالبين بالضمانات تغطية لحروب الاقتسام.

زعامة لا تنتظر من «التعريب» ان يصبح هو ممثلها في الحكم، ولا تتأخر في المطالبة بجلاء الجيوش الشقيقة كالجيوش العدوة، حتى لا يظل ثمة من يظن ان اتفاقات الطائف شرعت وجود غريب، ايا كان، فجعلت الجلاء شأنا يتجاوز طموحات اللبنانيين واتفاقهم، فضلا عن قدرتهم ولو على المطالبة والالحاح.

ثالثاً– اهل «الحكم»:

إلى هؤلاء ماذا نقول، وقد صار الموت في لبنان ابقى من الحياة؟

أجمهورية مقابر يريدون؟

أم جمهورية المغانم والاسلاب اياها، بل جمهورية التهافت على جثة لبنان نتناتشها ونفترس عظام الجيفة ونسكر بدماء القتلى؟

حتى يستحق الحكم ثقة العالم ودعم العرب وولاء لبنان، يجب ان يصير اكبر من اهله ودعاته، فلا يلزمه احد بفضائحه ولا بالهفوات والعنتريات... لا «ميليشيوية» تحميه طمعا بخيراته، ولا حزبيات ترعاه توقاً إلى اغتصابه.

وما لم يصبح الحكم الجديد اداة استنارة بلبنان المستقبل وطريقا اليه، فانه لن يستعيد لبنانيا من غربته، أغربة الذات كانت ام طلاقاً واغتراباً...

ولن يستعد الحكم الجديد، بنوع اخص، ثقة الاجيال التي ضيعت سنوات الحرب احلامها والقدرات، وهي تتساءل اليوم: أمن اجل هذه الحروب، والثورات، وكل الشهداء والبطولات؟... فاذا بنا نرث خرابا وقحطا وتقزيما وابتزازاً!

وبعد، المغزى الكبير لبيان اللجنة الثلاثية هو ان خلاص لبنان يجب ان يأتي من لبنان... او يظل لبنان العوبة في ايدي المتحاربين على ارضه إلى ان يزول وتزول مبررات الحروب.
ساعة يقارب العالم العربي القرن الحادي والعشرين بكل التردد الذي نرى وندرك، لا عذر للبنانيين ان هم اختاروا الغرق في المستنقع التاريخي الكبير.
وحده لبنان، قبل حروبه، كان لا يخاف الحرية بل يعشقها، ويجب ان نعلم ان للحرية كذلك تاريخها المقبل، وتاريخها حساب عسير.
اجيال كثيرة ستتحرك متى عاد لبنان ينعم بحرياته، ولن يقولبه نظام يشترع اليوم ولن تسربله شرائع.
غداً، وبعد غد، سيقوم من يحاسب الحاضر والماضي... جيل يسأل جيلا لماذا كانت الحرب، ثم لماذا كان هذا السلام، وماذا كان ثمن ماذا؟!

لا أحد يحمي نفسه من المستقبل المقبل على الحياة...
يوم يتظاهر، في اسرائيل الخائفة ابدا على مصيرها وتسلطها، يوم يتظاهر هناك مئة الف مواطن يطالبون بتعديل النظام، برغم الحرب وربما بسببها... ماذا يمنع ان يتظاهر غدا، او بعد غد، وفجأة، مئة الف لبناني من كل لبنان، يأساً وقهراً، يطالبون بنظام حياة جديد، فضلا عن الحكم؟
ثم ماذا يمنع ان يطل القرن الحادي والعشرون على سائر النائمين في حمى البيانات والشرائع والتصريحات بمثل ما اطل به عند الذين كانت بياناتهم آية في الغطرسة وكذلك الشرائع والنظم و... التصريحات.

(النهار، 1990/4/9)

غسان تويني وكلام عن الأب وعن المزروعين في الروح..

جبـران تويـنـي
في وضـح النهـار

اي شيء اصعب من ان يكتب الانسان عن ابيه؟
لو كان جبران توينـي لي ابا فحسب، لما كتب القلم الذي ورثت عنه سطراً، ولما سالت من القلم الا الدموع!
ولكني اشعر، وانا اجلس إلى طاولته، بعد عشر سنين، ان الاب قد مات، ولكن الصحافي والكاتب خالد حي.
اذ لحم الصحافي هو هذه الورقات الصفر، ودمه هذا الحبر الذي لا ينشف، يسيل ابداً في عروق نابضة، تتحرّك على الورق في اشكال الحرف!
ماذا اقول؟
بل هو وجه الرجل في المقال، تنظر اليه العين، عبر السنين، فتجده عابساً في هذا السطر، ضاحكاً في نهاية الجملة، وراء ثلاث نقاط فيها كل شيء...
هذان حاجباه تقطّبا في حكم، بسطر، اقسى من النسيان!
وهذي عيناه هنا، في كلمتين انفتحتا على الحقيقة التي لا تموت!
وهذا جبينه الوسيع، يتعالى وكأنه ارفع من وضح النهار وارحب!
بل ماذا اقول؟
جبران توينـي قد جمّد الحياة في ما تناول: الحياة الحلوة، والحياة البشعة... حياة الكبار وحياة الصغار!
لم يكن، في صحافته، الشاعر الذي يرتفع من الموضوع الحي إلى المطلق الخالد في ذاته.
ولا كان الفيلسوف الذي لا يشغف عقله بغير المثل ولا تلمس يداه الاّها.
بل كان صحافي الرأي العام، يكتب للشعب ما يحسّ به الشعب وما يفهمه الشعب وما يريده الشعب. حتى ان القارئ كان يشعر، وهو يقرأه، انه يقرأ نفسه... لو اعطي له ان يكتب، بل لو اراد، لما كتب غير ما كتبه عنه وله جبران توينـي!
تلك كانت قوّته... في انه كان، وهو يوجّه، يوهم انه انما يتوجّه ممن يوجّه!
وكان لذلك اسلوبه بسيطاً سهلا، تظن، وانت تقرأه، انه ليس عصارة عقل وقلب، بل قد سال من القلم عفواً، او هو وجد مع الورق، لم يكلف حتى القلم مجهوداً!

بل تظن انك لا تقرأ شيئاً مكتوبا... انما شبّه لك انك تقرأ، في حين لا يوجد على الورق غير خيال افكارك وخلجات صدرك.
اذ اعود اليوم، في ذكراك يا ابي، انشر من جديد هذه الورقات العتاق على قرائك، يتراءى لي اني لا افعل اكثر من الوقوف بالناس امام مرآة، صافية صفاء نفسك!
مرآة نرى فيها اليوم صورة الامس، فندرك ان في الصحافة تخليداً، لا لذكرى الصحافي بل لهذا الاله الصغير: الحدث الذي ما ان يفوت حتى يعود، وكلما عاد استعاد معه الرأي الذي، متى كان حراً، لا يتغيّر ابداً!

شـارل مالـك
ينـام في كهف الأسطورة

بين اربعة او خمسة رجال صنعوني، اضع شارل مالك في مرتبة ابي لانه كان معلمي...
ذلك ان بعضنا لا يزال من جيل كان فيه المعلم بمثابة «سقراط»، يمسك بعقلك كما تمسك الام بيد وليدها ويقودك إلى المعرفة قيادة نيرة بالحب كما بالمنطق... فتتواضع امام الحقيقة بنسبة ما تشغف بوجهها بينما الحجب تتساقط حجابا حجابا إلى ان تكون لك الرؤية العظمى.
ذلك كان حظنا من «الدكتور مالك».
وتكاثر شركاؤنا في الحظ، بل في نعمة المعرفة، فصرنا شعبا بكامله يوم نادى لبنان معلمنا ليمثله في العالم.
وكان لبنان، عام 1945، بالكاد بدأ استقلاله، فأراد من شارل مالك امرين: ان يرى العالم بأي رجال نتمثل، فيحترم فينا القيم الفكرية، نفاخر بها ثروات الطبيعة التي لم تكن لنا والقوى المهولة التي تحرّرنا من غير لجوء اليها!
تلك كانت ايام الزهو والعز...
بل ايام الايمان العظيم بلبنان يعود لبنانا، كما كان في أبهى تاريخه، برجال كالأنبياء يحاكون التاريخ.
وذهب شارل مالك، ابن الفلاح من بطرام الكورة، لا ليكرز في الامم المتحدة عن لبنان فحسب، بل ليدخل، عملاقاً اكبر من وطنه، في صراعات الامم كأنه فريق في قضايا السلام والحرية وصوغ النظام الافضل للامم التواقة إلى حقوقها، بينما نصفها لا يزال بعد غارقا في مستنقعات الدماء والدمار التي خلفتها الحرب العظمى وزلازلها الذرية والعقائدية.
فصار لبنان الصغير كبيرا لانه حاجم العالم وجعل نفسه شريكا في مصيره، لا متسكعا على ابوابه، ينتزع بالكلمة الحق حقه في تقرير مصير الانسان، فكيف بتقرير مصيره هو ومصير استقلاله.
ولما، بعد سنوات، عام 1958، انتخبت الجمعية العمومية للامم المتحدة الدكتور مالك لرئاستها – وكانت برلمان العالم – فهم العالم، ولكن لبنان لم يفهم، انها رسالة من الامم ومن الانسان إلى البلد الصغير ليظل كبيرا، بحجم شارل مالك، ولا يعود يتصاغر إلى حجم الصراعات التي كانت قد عادت تفتت اوصاله والتاريخ المقبل فيه على التاريخ.

واليوم، اذ يغادرنا شارل مالك بعد صمت طويل لعله كان شكلا من اشكال الرحمة، تعود الاسئلة التي كان يطرحها علينا، الفينة بعد الفينة، خلال ما يقارب النصف قرن من التعليم...
ماذا حفظتم من الناموس؟
ماذا فعلتم بالحقوق؟
اين هي قدسية الانسان في وطن لم تعد لنا من الشركة في حياته ومجده غير المشاركة في اغتصاب حرياته والسباق إلى تسويقها في الازقة المظلمة؟
اين هو النور في حياتكم؟
اين هي المعرفة وماذا تعرفون؟
اين هو الحب؟ والفرح؟ اين هو خوف الرب؟
اين هي الحقيقة التي عنها تبحثون، وفي ساحات الاجرام وملاعب الجهالة؟
بل اين، اين هي كرامة الانسان التي بعضها كرامة المواطن في كرامة الوطن؟

تنام يا معلمي في كهف الاسطورة التي كم حدثتنا عنها في قراءة جمهورية افلاطون.
ذلك اننا لا نزال نعتبرك حقيقة ذاتية من تلك التي عندما تمر في النور، نشاهد نحن خيالاتها فنحسب الخيالات حقيقة.
كم تتكاثر اليوم، بينما الحاجة إلى حقيقة هي، في من تسكن، حكمة لا تموت.

جـورج نقـاش
هنـدس دنيـا جديـدة

كنا ثلاثة، نسافر دائماً معاً.
ثلاثة، من ثلاثة اجيال.
واحد، كامل مروة، كان يغبّ الحياة غباً. يغمرها، يضمها إلى صدره، يدخلها أحشاءه، يبتلعها مقهقها، يسابقها إلى الحياة. تظنه كان يستعجلها.
وجورج نقاش، تتفرج عليه، فتظنه يتفرّج على الحياة. غير ان قوة خارقة كانت كأنها في متناوله، تجعله يحرّك الأشياء والاحداث، يجيء بها صوبه، ثم يحدفها عنه، يبعدها، ويرد يقرّبها. لا تعود تعرف لماذا، لكنك تدرك أن الاشياء والاحداث فقدت منطقها – وقل عقلها– لتتحرك بمنطق جورج نقاش، وعقله. تدرك أن الاشياء والاحداث اسلست له ارادتها.
يجب ان تسافر مع الانسان حتى تعرفه وتتعرف عليه. هناك تعيش معه كما هو في الاصل، وكما يخلد حياً.
في بيئته، يكون قد أصبح شخصاً آخر.
نفسه والبيئة. هذه القشرة التي تظل نمو سماكتها، تغلّف الجوهر، فتخفيه، تكاد تخنقه.
تصير البيئة هي جوهراً، الجوهر الآخر، ملتصقاً بالانسان، ملازما له كطبيعته ونفسه.
جورج نقاش وراء المكتب، سلطة.
وجورج نقاش بين الناس، كائن عجيب تشعّ منه هيبة باسمة تخيفك بمقدار ما تجذبك.
وجورج نقاش في المقالة، احرف مصفوفة في اغرب اشكال، لتقول غير ما تقوله الكلمات ذاتها عندما يكتبها سواه. وتوجع، آخ كم هي توجع. وتصيب. وتنفذ. تفتح امامك نوافذ على عالم آخر، عجيب غريب، كأنه مسحور.
وتنبهر، ثم تبتسم، ثم تضحك، ثم تذهب تقهقه وحدك.
وحدك؟ لا، تشعر ان معك جورج نقاش، بل حولك، يلفك بابتسامته الساخرة والبريئة في آن.
تنتظره حتى يقهقه، حتى يضحك معك.
ثم تدرك ان وراء ابتسامته فلسفة من حزن.

وتدرك اذذاك انه ليس، في الحقيقة، ساخراً، ولا مستخفاً، بل هو حزين حزين. حزين على من يكتب.
ويتسم للذين يفهمون.
ثم يحصّن نفسه ويحصنك بقشرة الاستهزاء، فقط من اجل الدنيا والناس وقواعد المجتمع.
ليس مصادفة ان يكون قد عمّر، من فرط ما حصّن نفسه، وضع بينه وبين الحياة ابعاداً وحجباً. وكان يمد إلى الحياة بتأن، من بعيد، كدت اقول من فوق، يختار منها ما يستحلي ويستطيب. ثم يصنع هذا الذي يختار من جديد، ينحته، يقولبه صوراً وافكاراً وكلمات.
ليس مصادفة ان يكون قد عمّر. كما ليس مصادفة ان يكون رفيقي الذي استعجل الحياة قد استعجل كذلك رفيقها الموت.
ما احلاهما الآن معاً، في آخر سفرة.
كنا ثلاثة نسافر دائماً معاً.
حتى الرفقة الاخيرة هذه، بالكاد لا اشتهيها.
ترى، هل في الآخرة جرائد؟
ومن هم القراء؟
أصحيح ان قراءنا اسبابنا إلى الحياة، يشدّوننا إلى الدنيا، فنبقى؟
كان جورج نقاش يهندس للقراء كل يوم دنيا جديدة في زي جريدة ومقال.
يريدها خالدة كل يوم، فيمزّقها له القراء الذين أعطيت لهم، كل يوم، كل يوم، إلى نهاية الايام...
جمالي في نظرته إلى الدنيا، كان يريد القراء ان يكونوا مثله، جماليين، يتمتعون بما يرى لهم وبما يصنع. يتمتعون حتى بالناس، بالصورة التي يرسم عن الناس. يتمتعون باليوم. كأن ليست لليوم نهاية.
وكلما بدت الصورة بشعة، كانت اجمل. ما همه الا تكون واقعية، المهم ان تؤيد الصورة رؤياك للناس والاحداث والاشياء. تلك هي الواقعية الاخرى. واقعية الهندسة، واقعية الفن، واقعية الخلق.
الخلق، الخلق...
لا بد ان تكون عند الخالق جريدة.
اذ ماذا أحسن منها واحلى، يقولون لنا فيها من الآخرة كم هو الخلود مكتوب للذين يعرفون كيف تؤخذ الحياة، هؤلاء الذين يفكّون اسرارها حروفاً حروفاً، ثم يصنعون من الحروف كلمات، وينفخون في الكلمات روحاً، ثم يتفرّجون على الكلمات تعيش حياة من ذاتها جديدة.
ويتسمون.
تظنهم يسخرون.

وفي الحقيقة، لا يستهزئون.
خلف عيونهم، وعلى شفاههم، طبعت الحياة لونا من حزنها هو هو قبس خلود. لان الحزن سيد المرح. اقوى من الفرح. ان هو الا الفرح الاصلي. فرح الادراك. فرح الكلمة.
هناك، هناك، ارى رفيقيّ فرحين، كما كنت وحدي، معهما، افهم فرحهما والحزن.

كامـل مـروة
مـاذا يبقـى من الصحافـي؟

كامل مروة كما عرفته...
او كما احببته.
ذلك ان لا معرفة من دون محبة.
ولا تعلّم من دون محبة – وكانت معرفتي الاولى بكامل معرفة تعلّم. لم اكن تلميذا له – وان تكن صورته الاولى التي اتذكر لقاء شبه يومي في الترامواي إلى الجامعة: وسط الهرج والمرج، شاب جالس والكتاب على ركبتيه، كأنه وحده في العالم، يقرأ، يقرأ، يقرأ.
في ذاكرة الصبي، انطبعت هذه الصورة، وكانت دائماً ماثلة امام عيني، طول ربع قرن ويزيد...
ربع قرن كنت اشاهد خلاله كامل مروة بما يشبه الاستمرار: كمحرر في «النهار» اتردد عليه لأتفرّج، وكرئيس تحرير «الحياة» ازوره لأتعلم، وكصديق جهاد وشريك ورفيق واخ، عشت معه وعاش معي ايام فرح وحزن، وامل ويأس، ومرح واسى، ولهو وطموح.
من قال ان الموت يزيد الراحل موتاً كل يوم؟
ترى، هل اخذ كامل معه تلك الذكريات؟
احس، وانا اكتب عنه اليوم، ان بعض ما كنت اريد قوله يعصوني، وكأنه ملك له يأبى اباحته، او كأن الحياة، حياة الذكريات، قد ذهبت معه، فلم تبق طوع القلم سوى الصور الباهتة، الميتة، لا لحم فيها ولا دم.
ترى، هل تشيخ الذكريات، فتقسو، تعجز، تتمرد؟
لا... الذكريات ملك القلب، تخفرها الايام بمقدار ما تعمّقها.
وللاقلام، تبقى اصداء المعرفة والعقل.
من كامل مروة كما عرفته، تبقى للقلم صورة الصحافي الذي خلق للصحافة اللبنانية ثورة التجدّد التي لا نزال نعيش، ونجني ثمارها.
جاء الصحافة من باب الرأي، ساعة كانت لا تزال بعد رسولية اولاً وآخراً، فتكون له اختباران: ان صحافة الرأي تضيّق على الصحف افقها، افقياً وعمودياً في آن: افقياً، لان توسعها لا يمكن ان يتعدى اطار المشاركين الصحيفة في رأيها، وعمودياً لان عمرها لا يمكن ان يتخطى صاحب الرسالة والرأي، اي صاحب الصحيفة.

هذا اختبار، والآخر ان كثرة في الناس اكثر شوقا إلى المعرفة منها إلى المواقف.
والمعرفة معناها الخبر.
والخبر معناه الصورة.
والخبر والصورة معناهما الوقت.
والوقت معناه السبق.
والسبق معناه الكلفة.
والكلفة معناها التوسع.
والتوسع معناه الكثرة، فتقفل هكذا الحلقة.
الحلقة المفرغة؟
لا، الحلقة المتقدمة، الحلقة الدائرة صعوداً أبداً.
الحلقة التي لا تتوقف، التي لا نهاية لها.
حلقة الصحافي، حلقة الحياة.
بالتعابير الصحافية، ما معنى ذلك؟
معناه اشياء كثيرة. آن اوان الشهادة لكامل مروة، والمفارقة فيها انها قد اصبحت مدرسة لمخوّنيه ومصدر فائدة، بمقدار ما هي مصدر الهام لمشهّديه.
بالتعابير الصحافية، معنى ذلك، مثلا، «المانشيت»: اي العنوان الكبير للخبر الكبير، ومن ثم البحث الدائم عن خبر كبير، البحث فالاستنباط حتى الخلق، لان الخبر خبر لمن يراه هكذا، فكأنه يكبر ببراعة الصحافي وفنه اكثر مما يكبر بمضمونه.
بالتعابير الصحافية، معنى ذلك، مثلا، ان الصورة ترافق الخبر وتسابقه: لا خبر بلا صورة، ولا صورة تتأخر عن خبر، إلى ان تصبح الصورة نفسها خبراً، ثمّ حدثاً بما ومن فيها...
بالتعابير الصحافية، معنى ذلك، مثلا، التجميل في الاخراج، فيتفنّن الصحافي في جعل الصفحة مشوّقة بل ملوّنة، الصفحة الاولى، ثم الثانية، ثم الثالثة، ثم الرابعة، ثم الثماني الصفحات، فتستهوي الجريدة القارئ ثماني مرات، ثم تستهوي ثمانية قراء، لا تفرض على واحد، ولا يفرضها هاو على سبعة آخرين.
بالتعابير الصحافية، معنى ذلك، مثلا، اكتشاف القراء الثمانية للصفحات الثماني: من قارئ السياسة إلى قارئ الرياضة، مروراً بالالعاب والتسلية، بالطرائف، والعلم، والاقتصاد، والمجتمع، وبالقارئة كذلك...
بالتعابير الصحافية، معنى ذلك، مثلا، الهرولة وراء القارئ المجهول حتى التعرف اليه: من القارئ الواحد الذي كان يكتب له صحافي الافتتاحية، ومن مجموعة القراء التي تتحلّق حول صاحب الجريدة للتغنّي بها او التندر بما فيها، ومن مدينة الجريدة، من «الثغر» الذي تكتب الجريدة اخباره، من العشيرة، من الحزب، من الطائفة، من «البلد» الذي تنتسب إليه، إلى المجموعات الشعبية، إلى المدن المتعددة والقرى، إلى ما وراء الحدود، إلى هذه

الدولة، ثم تلك، وتلك، وإلى تلك القارة السوداء، وإلى المهجر الذي فيه قرّاء عربية، وإلى كل عاصمة نائية فيها مسافر يمكن ان يقرأ...
بالتعابير الصحافية، معنى ذلك، كذلك، الكمية، والسرعة: اي التصنيع، الآلة المنضّدة تعرّب لتحل محل «صفيف الاحرف»، والمطبعة الدوّارة تحل محل اربع طابعات على اليد، ثم الانفتاح على كل اختراع جديد، حتى الساعة الاخيرة...
ويموت الصحافي.
وتبقى الذكريات؟
لا تبقى الصحيفة:
صحيفة الصحافة التي اراد كامل مروة ان تكون اكبر من صاحبها وان تعمّر اطول منه، ما عمّرت الآلة ويعمّر الخبر ويستمر فوق الكثرة إلى معرفة الكثير الكثير من الاخبار والصور واحداث الاخبار والصور والآراء خلف الاحداث.
الصحيفة تظل تمشي، تحمل الكلمة، ليس هو الصحافي الذي يقول كلمته ويمشي.
وتبقى من الصحافي اشياء واشياء لا تُذكر له، تظنها، متى تذكرتها، انها مأخوذة من كتاب تاريخ أو قواعد، وهي في الحقيقة سرّ المهنة: سرّها في انها، متى شاعت، نسي الناس انها دخلت الحياة في يوم معين، ما كانت قبله، وانها من صنع رجل ما كانت قبله كذلك، لكنها تظل بعده، بحيث ينطلق منها كل ما هو بعدها.
إلى ان يتطلّع رجل يوماً إلى خلف، يستفقد صديقاً او معلماً، غالباً ما يسأل عنه ليسأله شيئاً، فيجد ان الحياة ظالمة، ان لا صاحب لها، لانها كالصحافة تقدر ان تترك الصحافي يموت – وقتلا – وتعيش من بعده، وتحتمل العيش.
لان الصحافة اقوى من الاصحاب، ولا تعرف، ولا تحب.

غسان تويني
العالم منبره

ليست حياة صاحبنا مشواراً سياسياً في أروقة بيروت.

تعدت ذلك إلى الموقع الذي اختير له: لبنان في الأمم المتحدة. ولعله، إذ ذهب وإذ خطب وإذ تذابح مع الآخرين من أجل وطنه، كان يسترجع في خطوه ذكرى كبير آخر سبقه إلى هذه المنابر والأروقة والزمن:

مغلقة حتى الهمس، ومفتوحة على حدود الدنيا.

غسان تويني في الأمم المتحدة: شهادة مكتوبة على جدار العالم.

أعيـدوا إلي وطنـي

كلما انضمت دولة صغيرة اخرى إلى الامم المتحدة، يفرح لبنان. فاسمحوا لنا ان نحيي فانواتو وبليز خصوصا التي لنا بين مواطنيها جالية من أصل لبناني نعتز بها.
(...) ندر ان كان لانتخابات رئاسة الجمعية العمومية مثل المعاني التي كان لها بانتخاب رئيس الدورة الحالية. وليسمح لي بأن اتجاوز التهنئة الشخصية التقليدية التي تستحقون، إلى التحدث عن بلدكم العراق، العزيز على قلب كل عربي.
نحن نشعر بغبطة لرؤية عربي يرأس الجمعية العمومية. نشعر بالفخر، ونشعر كذلك بالعزاء. ذلك باننا نرى في انتخابكم، وان في أغرب معركة، بادرة تأييد ضمني للعراق واستنكار للعدوان الاسرائيلي على عاصمتكم بغداد.
غير ان بغداد، ما كانت لتضرب لو كان المجتمع الدولي قد سبق له ان ردع إسرائيل يوم اغتصبت أرض لبنان واستباحت اجواءه والبحار. تماما كما ادى عجز المنظمة الدولية عن الحفاظ على فلسطين العربية إلى احتلال سيناء والجولان، ثم أدى العجز عن استعادة سيناء والجولان إلى العبث بالحدود اللبنانية ونقل الحرب إلى داخلها. واذا ظل الامر هكذا، ظل كلامنا على الامن الدولي والسلام في الشرق الاوسط كلاما، بينما العدوان يخلف العدوان ورقعة الحرب تتوسع واشكالها تتعدد.
فهل كثير علينا اذاً ان ننتظر من عهد رئاستكم ولو محاولة للانتقال بالجمعية العمومية من اطار القرارات المبدئية إلى تغليب النظرة العملية البراغماتية في البحث عن الحقوق الضائعة والعمل على ايجاد حل عادل شامل؟
أقول ذلك لان بيننا وبين الامم المتحدة عهد ثقة وميثاقا. فقد نال بلدي لبنان من المنظمة الدولية ما لم يتسنّ لسواه، ولعله الدولة الوحيدة التي استرجعت أرضا محتلة بقرار من مجلس الامن. فنحن اذا نعرف طاقة المنظمة الدولية، حتى اذا ما طالبناها بالمزيد، فعن أمل بها وايمان بأن لا طريق إلى الامن الدولي الا ضمنها ومن خلالها.
وباسم هذا الايمان، نعلن ان الامم المتحدة التي تعاقب مندوبوها على هذا المنبر يؤكدون تمسكهم بلبنان حينا ويبكون على اطلاله أحيانا، الامم المتحدة مسؤولة انسانيا، بل حقوقيا، عن الحفاظ على لبنان، ملزمة بمساعدته على استعادة سيادته كاملة غير منقوصة،

وعلى بسط سلطته على اراضيه كاملة والحفاظ على وحدة كيانه وشعبه ودولته. تماما كما هي مسؤولة، انسانيا وحقوقيا عن انقاذ القدس الشريف من التهويد، وعن تمكين الشعب الفلسطيني من الوصول إلى حقوقه المشروعة التي تقترع معها الجمعية سنة بعد سنة، وهي تظل مهدورة سائبة.

أقول ذلك وفي نفسي غصّة. فقد كان في ود لبنان ان يكون في وضع يتكلم على قضايا العالم، بدل ان يتكلم والعالم على قضيته.

كان في ود لبنان مثلا ان يساهم في معالجة مسألة الشمال والجنوب، من منطلق موقعه الجغرافي والحضاري الفذ الذي يجعل منه العروة الوثقى وأرض الحوار الحي والتلاقي التاريخي. ولكن، كيف نفعل وقد تقطعت أوصال أرضنا وتمزق شعبنا وتبعثر، لان اهل الشمال والجنوب، والشرق والغرب اختاروا رسم حدود مواقعهم على اجسادنا، جروحا تنزف كل يوم، فاذا المدائن، «دار السلام»، خرابا، والناس تجن، فتنطق بدل العقل صراخا وبكاء.

في تقريره السنوي إلى الجمعية العمومية، يقول الامين العام ان الحالة في لبنان منذ 1975 هي «احد الشواغل الرئيسية للمنظمة» ولا تزال حتى الوقت الحالي لانها تشكل – والكلام للدكتور فالدهايم – «فصلا من الفصول الرئيسية والمأسوية التي تدور على المسرح الدولي». (الوثيقة 361 /أ ص 3).

لا أحد يجهل، ولا يتجاهل، حكمة الامين العام الفائقة في تقويم الاحداث، وتأنيه في تحميل المنظمة مسؤولياتها بموجب الميثاق. ومن هذا المنظار، نجده يمضي يتحدث عن لبنان في تقريره فيقول: «ان مأساة لبنان المستمرة هي مذكر شديد الاثر بالحاجة المطلقة إلى سلوك طريق المفاوضات، مهما ظهر وعرا وصعبا. ووقف اطلاق النار الذي جرى ترتيبه اخيرا يوفر فرصة يجب ألا تفوت، اذ انها لن تتكرر بسهولة. فلا وقف اطلاق نار، ولا عملية حفظ سلم، ولا أي وسيلة أخرى لاحتواء النزاع تستطيع، في نهاية المطاف، ان تمنع حصول انفجارات عنف جديدة ما دامت العناصر الاساسية للمشكلة لم تعالج في مفاوضات يشترك فيها كل الاطراف المعنيين...» (المرجع السابق، الصفحة 7).

ان كلام الامين العام، في هدوئه، يحتوي على التنبيه، بل الانذار الذي سبق للبنان ان قال وردد مثله سنة بعد سنة أمام جمعيتكم وأمام مجلس الامن، فضلا عن الهيئات الاقليمية المعنية منذ بدأت الحرب على أرضنا. ثم انه يحدد اطار القضية اللبنانية على نحو يفرض علينا ان نعلن، بادئ ذي بدء وبمنتهى الصراحة، ان وقف اطلاق النار الذي دعا اليه مجلس الامن في القرار 490 (1981) في تموز/يوليو 1981، ليس غاية في ذاته، ولا يمكن ان نسمح بأن يصبح غاية وهدفا فنكتفي، كما طالب اكثر من متكلم في هذه القاعة، بتدعيمه من هنا وتوسيعه من هناك والتصفيق له من هنالك.

طبعا ان حرصنا على عدم استئناف القتال الذي لم نكن طرفا فيه، لا يقل عن حرص سوانا

لان الخراب كان في دارنا وأغلبية القتلى والجرحى كانوا مواطنين لبنانيين أبرياء. لكننا نعرف وتعرفون ان كل وقف نار هو تدبير موقت، وانه اذ أصبح دائما، أو شبه دائم، فانما يكون ذلك على حساب الضحية والمعتدى عليه.

فالذي نطلبه اذاً هو الا يبقى لبنان الضحية تحت رحمة وقف اطلاق النار هذا، فننسى وينسى العالم ان العدو داخل حدودنا، وان بيننا وبينه قضية لا تزال عالقة في مجلس الامن، هي اخراجه من أرضنا ووقف اعتداءاته المتكررة علينا وتنفيذ قرار مجلس الامن الرقم 425 والقرارات اللاحقة تنفيذا كاملا غير منقوص بحيث يتحقق انتشار القوات الدولية انتشارا فعالا شاملا وتعود حدودنا المعترف بها دوليا حدودا آمنة، في ظل أحكام اتفاق الهدنة المعقود عام 1949 والذي يؤكد احترام هذه الحدود.

يطيب لنا، في هذا المقام، أن نوجه شكر لبنان وتقديره إلى الدول، شقيقة وصديقة، قريبة وبعيدة، التي جاءت أمام جمعيتكم تسجل مسؤولية اسرائيل وتنتصر للبنان، ونخص منها دول عدم الانحياز والمجموعة الاوروبية مكتفين الان بتسجيل الافكار والاقتراحات البناءة التي اطلقت داخل هذه الجمعية وخارجها والهادفة إلى تمكين الامم المتحدة من تحمّل مسؤولياتها تجاه لبنان كاملة غير منقوصة.

والمسؤوليات الدولية هذه تزداد تشعبا في حقول عدة ابرزها التنمية والتعمير حيث تقوم المنظمات الدولية، ولا سيما «اليونيسف»، فعل ايمانها بلبنان، نخصّ قوات حفظ السلام بتحية اكبار لبطولتها، وقد جاء رجالها من الشرق والغرب يسقون ارضنا بدمائهم في سبيل السلام.

«ضفة غربية» جديدة؟

صلاتنا أن يستحق لبنان شهادة الشهداء، وايمان المؤمنين به. لقد وجه لبنان قبل العدوان الاسرائيلي الاخير مذكرة إلى الامانة العامة للامم المتحدة يعلن فيها، تجاوبا منه مع مجلس الامن وتنفيذا للقرار 448 الذي اتخذ في حزيران/يونيو 1981، استعداده لارسال قوات من الجيش اللبناني إلى ثكن مرجعيون ورأس الناقورة وصور والنبطية وحاصبيا لتتحمل تبعاتها الامنية، بالاضافة إلى الجنود اللبنانيين الذين يمارسون الآن مهماتهم في منطقة العمليات الدولية بقيادة الامم المتحدة. وأعلم لبنان الجامعة العربية عندما وجه الدعوة إلى عقد مؤتمر قمة عربي للبحث في قضية الجنوب بأن الجيش اللبناني عازم على القيام باعبائه الدفاعية كاملة غير منقوصة، في وجه اي عدوان اسرائيلي جديد، وانه يطلب مساعدة الدول العربية له وتحملها معه في اطار ميثاق الدفاع العربي المشترك مسؤولية ما يمكن ان يحدث في الجنوب بعدما تحول وطننا المعذب ساحة حرب وحيدة في الصراع العربي – الاسرائيلي، حرب استنزاف للبنان وللقضية الفلسطينية وللامة العربية بأكملها.

ويهم لبنان أن يؤكد أمام جمعيتكم العمومية، وهو يذكّر بميثاق الدفاع العربي المشترك ان المادة الحادية عشرة من هذه المعاهدة تنص صراحة على عدم المساس بالحقوق والالتزامات المترتبة بمقتضى ميثاق الامم المتحدة، أو المسؤوليات التي يضطلع بها مجلس الامن. وقد أوضح لبنان للمراجع المعنية، ويؤكدها هنا، ان اي تحرك يطلبه، في اطار المعاهدة العربية، لا ولن يتنافى مع التزاماته بموجب اتفاق الهدنة وقرار مجلس الامن (425) والقرارات اللاحقة، لان اسرائيل هي التي تخرق الهدنة وتتحدى القرارات الدولية باستمرار، بينما يتمسك لبنان بهذه ويطالب بالمحافظة على تلك.

نخاف ان نكون في الجنوب أمام «ضفة غربية» جديدة، وهو ما يجب ألا يسمح به المجتمع الدولي. فأرضنا كذلك مقدسة، وهي ليست للبيع ولا للايجار ونرجو أن يرفض العالم معنا لجوء اسرائيل إلى تحويل الجنوب سلعة اخرى في سوق مطامعها والمبادلات، فتبقى الامم المتحدة، كلبنان، رهينة حالة اللاحرب واللاسلم. ان هذه الحالة تكرس الاحتلال الاسرائيلي ومؤامرات التهجير والتوطين والتقسيم التي يرفضها لبنان ولن يسلم بها أحد في عالمنا.

واذا كان قد بدا يوما انه يوافق الكثيرين، اعداء واصدقاء، ان يبقى الجنوب – وربما لبنان بكامله – هكذا تحت رحمة وقف اطلاق نار من هنا واستئناف قتال من هناك، فاننا نذكّر بان قرارات مجلس الامن لم تكتف بتأكيد استقلال لبنان وسلامة أراضيه، بل هي الزمت المنظمة الدولية بمساعدة لبنان على بسط سيادته وسلطته من جديد على أراضيه كاملة، بحيث يتحول الجنوب منطقة أمان، تنطلق منها مسيرة السلام اللبناني كما انطلقت منها الحرب بالامس.

ولعل في استمرار هذه الحرب مشتعلة حينا ونصف مشتعلة أحيانا، تذكيراً كافياً بأنه من المستحيل، في الجنوب كما في زحلة وكما في بيروت، الاكتفاء بالرجوع كلما انفرجت أزمة إلى حالة «الامر الواقع» السابقة للانفجار، وتصوير ذلك كله كأنه انتصار كبير للسلام. من هنا كانت ضرورة اعطاء المقررات الدولية، كالمقررات الاقليمية، أبعادها السياسية كاملة غير منقوصة، فيعلن ملتزمو هذه المقررات انهم انما يلتزمون عمليا، فعلا لا قولا، تأمين السلام في الجنوب، ومن ثم في كل لبنان، ويتصرفون هكذا، من غير تحفظ ولا مواربة.

اذا كانت الحرب في لبنان متصلة، كما قيل هنا مراراً، بقضية الشرق الاوسط عضويا وتاريخيا، فان السلام في لبنان لا يمكن ان يظل ينتظر السلام الاقليمي والحل العادل الشامل. وبنسبة ما كان السلام في لبنان ضحية حروب فلسطين، نخشى اليوم ان يصبح السلام في الشرق الاوسط بدوره ضحية الحرب، بل الحروب في لبنان. بل وأكثر، اذا لم تبدأ مسيرة السلام من لبنان، فاننا نخشى ان تتعثر المسيرة وتنقطع عليها الطريق.

بعض الحقائق

واليكم بعض الحقائق تأكيدا لذلك:

أولا: ان فسح المجال لاستمرار الصراعات الدولية والاقليمية داخل لبنان حوّله، بل يحوّله أكثر فأكثر، مجموعة قنابل تفجر مجتمعات المنطقة ودولها، يأسا من هنا وثورة من هناك وحروبا أهلية من هنالك. ومن خلال خراب لبنان، والطمع بأشلائه، وبملء الفراغ الذي يتركه غياب دوره لم يتشرذم اللبنانيون وحدهم بل هي المنطقة كلها فقدت توازنها، فمضت عواصمها تردد، الواحدة بعد الاخرى، انها لا تريد ان تصبح لبنان آخر... وبات من حق لبنان الاصيل ان يتساءل بدوره: هل يقدر العرب بعد، ان يربحوا انفسهم، اذا هم خسروا لبنان؟

ثانيا: ان حرب اسرائيل على لبنان المتذرعة بضرب المقاومة الفلسطينية ما هي الا المظهر الاشرس لاستراتيجيتها الاقليمية. وعندما يقتطع العدو جزءا من الجنوب، ويساهم في خلق الظروف الموضوعية لتفجير المجتمع اللبناني ومؤسسات الحكم ولاطلاق الحروب الاخوية داخل لبنان، بين اللبنانيين وأشقائهم، فانما يفعل لابعاد العرب عن الارض المقدسة ولإلهاء الفلسطينيين بثورة بديلة واغرائهم بوطن بديل والتشبيه لهم بدولة بديلة كذلك. وقد أدى ذلك ذلك كله، بالفعل، إلى اقامة أسوار من الحقد والخوف، داخل لبنان وخارجه، تكاد معها حدود لبنان الدولية توضع قيد بحث، مما يمهد السبيل لا إلى اعادة البحث في الكيان اللبناني فحسب، بل في كل الكيانات وكل الحدود، وفي كل استقلال آخر، لأن دول المنطقة وحدودها تشكل وحدة متكاملة فاما أن تستمر في توازنها أو ينفتح مجال رسم خريطتها كلها من جديد.

ثالثا: لا يقلل من أهمية لبنان انتقال الثقل الدولي في المنطقة إلى الخليج، بفعل اعتبارات وعوامل اقتصادية غيّرت موازين «الجغرافية» الحديثة. انما العكس لا يزال صحيحا: فاذا كان النفط ينتج ويصدر من هناك فان البدائل لا تزال تستورد من هنا، من عندنا، على شاطىء المتوسط حيث صلة الوصل الدهرية التي لا تنقطع: مع الحضارة والثورة عليها، مع العمران والارهاب، مع التحرر والاستعمار، مع عوامل الاستقرار الفعالة، والقوى المهولة التي يطلقها الغضب والحقد فتحطم كل شيء.

ليست هذه مجموعة أشباح نفلتها في هذه القاعة وفي أروقة السياسة العربية والدولية لنعذب بها أنفسنا والاخرين، انها بالفعل حقائق. هي الواقع المأسوي المرير، كما يتعرى امامنا جميعا.

الانقاذ ممكن

ومع ذلك، ها نحن هنا نجيء نؤكد انه لا يزال من الممكن انقاذ لبنان، على رغم الاخطار التي لا تزال تحيق به، تهدده بمثل المصير الذي أصاب شعوبا ودولا سواه. فعلام يراهن لبنان اذا؟ ولماذا، وإلى ماذا يطمئن؟

في الخطاب الذي ألقاه، في 23 أيلول/سبتمبر الماضي الذكرى الخامسة لتوليه رئاسة الجمهورية اللبنانية، قال الرئيس الياس سركيس:
«ان لبنان، في البداية والنهاية، هو ثمرة وفاق على وطن نموذجي، تسوده الحرية، وتحكمه الديمقراطية.
لقد صبر لبنان على جروحه وآلامه التي لا تطاق وصمد غير مرة، كما عبر التاريخ، في وجه أخطار هددته في الصميم الا أنه كان دوما يتغلب على المحن والاخطار ويستعيد عافيته فينتزع من العالم اعجابا بعد عطف، واهتماما بعد لامبالاة.
ان الفضل الاول في ذلك، يعود إلى توحيد الارادة اللبنانية التي تجلت في الاصرار على الانتماء إلى لبنان الواحد وعلى الشعور الشامل بالحاجة الملحة إلى الشرعية، في ظل الحرية والديمقراطية والسيادة الوطنية.
على هذه الارادة الوطنية راهنت (...) – يقول الرئيس – ولا خيار وطنيا أمامنا سوى (...) الحوار الهادف إلى انقاذ الوطن».
أيها السادة، ان لبنان الحوار، المطل دوما من خلف الركام والاطلال، عندما يراهن على وحدته الوطنية، فانما يراهن كذلك على انتسابه العربي ورسالته الحضارية في محيطه وفي العالم.
لقد اثبتت الاختبارات التي مرّ بها لبنان ان ما يفرّق بين اللبنانيين أقل أهمية بكثير مما يجمع بينهم، وان ما يميزهم كمجموعة حتى عن أقرب الاقربين، لهو أعمق مما يميّز واحدهم عن الآخر داخل المتحد الوطني.
حسبنا برهانا على ذلك أنه ليس في لبنان من لا يزال اليوم يقدم على انتسابه اللبناني الوطني، اي علاقة أو شراكة أو محالفة، تنزع به خارج حدود الوطن ومؤسساته. والخلافات التي تضيق شقتها على الارض كل يوم قابلة كلها للاستيعاب في اطار المؤسسات الديمقراطية التي تغلبت، وان جريحة، على استرهان دام ثماني سنوات، فلم يفلح العنف في خنق الحريات وبرزت شراسة اللبنانيين في التعلق بأرضهم والدفاع عنها مثالا يحتذى. اذ قل أن تمكن بلد صغير من أن يجتاز كل الذي اجتزنا، ويظل واحدا وسيدا، متمسكا بالحياة، قادرا عليها، كلما تهدم له بيت أقام بديله في أرضه، وكلما أغلق امامه باب رزق فتح بديله أبوابا، وكلما انقشعت غيوم حرب وهدأت أصوات قنابل اندفع إلى الحياة بشهية وايمان، كأنما الموت ليس حقيقة بل سراب.
واللبنانيون يتطلعون اليوم، أكثر من أي يوم مضى، إلى تاريخ قريب لعله موعد مع الامل، تعود الدولة كاملة المؤسسات منيعة تبسط سيادتها على كل بقعة من لبنان.
ان «ورقة العمل» التي قدمها لبنان إلى «لجنة المتابعة» المنبثقة من القمة العربية، ما هي الا تعبير عن ثقة لبنان الشرعية بأن الدول العربية، ولا سيما الشقيقة سوريا، ستساهم لا في تحقيق مصالحة وطنية عابرة بل في توفير المناخ المؤاتي والظروف الموضوعية الملائمة للوصول إلى وفاق تاريخي، يتمثل في مجتمع جديد ومؤسسات وطنية قادرة على مواجهة تحديات الازمة وحلولها، تحديات الحرب والسلم.

ولبنان، الذي بات يؤمن بأن قوته ليست من ضعفه، بل هي في طاقته على الدفاع عن أرضه وحقوقه، يعتبر ان عليه الآن اتمام تهيئة الجيش، بمساعدة الاشقاء قبل الاصدقاء، حتى يتمكن وحده، تدريجيا، من القيام بأعبائه الامنية والدفاعية كاملة غير منقوصة ويشارك في المسؤوليات الاستراتيجية العربية مشاركة كاملة غير منقوصة كذلك. واذذاك فقط يصبح لبنان الامين ضمانا حقيقيا لامن الاقربين، بدل ان يكون مصدر خوف على أمنه وأمنهم في آن، أو يعود يوما، يستعير أمنه من أمن الغير، ولا جدوى.

واذا كانت بطولات تاريخ لبنان العسكري، القريب والبعيد، غنية بالمغازي فاننا نعرف أنها لن تصبح يوما اعظم ما عند لبنان ولا أحلى ما يقدم. ولكنها التصقت دائما، كما في أيام عزها أيام الامير فخر الدين، بانصهار الطوائف اللبنانية في البوتقة الوطنية. وما أحرانا بأن نتعظ بهذه الامثولة، وهي احدى ركائز رهاننا الحضاري والعالم من حولنا يهزه الخوف من النزاعات الطائفية التي لم تعد ضحاياها وقفا علينا، كما تهزه تيارات «السياسات» الدينية التي لا حياة لنا في لبنان اذا هي تغلبت في محيطنا.

حسبنا شهادة بذلك، ما قاله أغناطيوس الرابع، بطريرك انطاكية وسائر المشرق، عندما خطب في القمة الاسلامية في الطائف، في كانون الثاني/يناير 1981، اذ ساوى بين القدس ولبنان، قائلا:

«في القدس نلتمس وجه الله، وفي لبنان نلتمسه كذلك. (....) لبنان دفء للجميع، ومكان تلاقي الافكار وتفاعلها، ليصبح كلها للكل. وحلاوة لقيا المسيحيين والمسلمين فيه لا تضاهيها حلاوة. انه غاية ومرام، منبر للابتكار والخلق ووجه مشرق باسم الجميع، بل انه تعزية للجميع.

وحدتنا متأثرة بوحدة لبنان، وعافيتنا من عافيته. ووحدته حق له، وعافيته حق له، وسلامه حق له.

ان لبنان اليوم يناجي القدس في فرادته وأصالته، والقدس اليوم تستدعي لبنان في فرادتها وأصالتها.

القدس ولبنان في دنيا العرب قطبان ركنان وضرورتان لكل سلام».

السلام ضرورة كيانية

السلام، السلام. ما كان مرة مثله اليوم ضرورة كيانية لنا وتاريخية. ليس هو هدفنا في لبنان فحسب، بل لعله أحد الاهداف القومية التي توحدنا في دنيا العرب.

واسمحوا لي، في خاتمة هذا العرض، أن أعود إلى السياسة الدولية لاقدم بعض المواقف – البراهين على تعلقنا بالسلام الحقيقي وشروط تحقيقه:

أولا: الاجماع العربي، وبنوع أخص في لبنان، على رفض مفاوضات الحكم الذاتي المتفق عليها في كامب دايفيد، لانها تبحث عن السلام في غير موقعه. فالقضية الفلسطينية ملك

الفلسطينيين، والسلام المنشود يجب أن يكون سلام الارض والشعب، بحيث تقوم الدولة الفلسطينية في الوطن الفلسطيني، عبر مفاوضات مع منظمة التحرير التي هي الممثل الشرعي للحقوق الفلسطينية. ولا سلام يتحقق لا فلسطينياً ولا في الشرق الاوسط، اذا كان مصير الشعب الفلسطيني بنتيجته هو الاستمرار في التشرد، واستمرار ثورته في الهجرة، عندنا في لبنان أو في غير لبنان.

ثانيا: الموافقة العربية المستمرة على قرارات الامم المتحدة لحل قضية الشرق الاوسط حلا عادلا وشاملا، وقد استخلص منها أكثر من مسؤول عربي، أمام هذه الجمعية وخارجها، ما يصلح لأن يصب في مشروع سلام متكامل، قائم على اقرار حق جميع شعوب المنطقة ودولها، ومن ضمنها الدولة الفلسطينية العتيدة، بالعيش في أمان وعلى الاعتراف المتبادل.

ثالثا: المعارضة العربية لقيام تحالف استراتيجي بين اسرائيل والولايات المتحدة، في الوقت الذي كان العالم ينتظر فيه من واشنطن أن تتوسل رعايتها لاسرائيل وحمايتها لها في سبيل اخضاعها لقرارات الامم المتحدة ومنعها من الاسترسال في سياستها العدوانية المتسترة بالحاجة إلى حدود آمنة تقيمها حيث تريد وتطمع، مهددة العالم بحرب ذرية جديدة. وبديهي أن يحول هذا «التحالف الاستراتيجي»، اذا استمر، دون اية مساهمة اميركية جدية في تأمين الاستقرار في المنطقة، من خلال ما وصفته واشنطن بالتوافق الاستراتيجي الذي لا امل له بالانتقال من الوهم إلى الحقيقة ما لم يستند إلى قاعدة من التوافق السياسي المنسجم مع حقوق الشعوب وايمانها المشترك بحرياتها وعدالة قضاياها.

رابعا: التجاوب العربي، ومن ضمنه تجاوب لبنان، مع الدعوة السوفياتية إلى عقد مؤتمر دولي لحل قضية الشرق الاوسط واحلال السلام فيه. وهي دعوة نفترض أنها تنطلق من مقررات الامم المتحدة، وتهدف إلى تحقيقها، من غير أن يرافق ذلك لا «توافق استراتيجي»، يقارع توافقا استراتيجيا، ولا مشاركة عقائدية يقارع بها نظام نظاما، لا داخل الشرق الاوسط ولا خارجه.

ما عرضته أمامكم هو بعض التعابير اللبنانية عن النظرة العربية إلى السلام كما يقول بها ويعمل من أجلها وطني لبنان، اقتناعا منه بانها بعض سياج سلامته ووحدته.

ليست هي اذا سياسة حكام فحسب، انما نحن في دنيا العرب أمام توق عميق في نفوس شعوب معذبة مغلوبة على أمرها شهد القرن العشرون تحررها من الاستعمار وخروجها مجدداً إلى النور، فاذا بها مهددة من جديد، وقبل انتهاء جيل التحرر، باستعمار يحل محل الاستعمار، متعدد الاشكال والابعاد، يمنعها من التقدم على دروب الحرية والازدهار ومن التنعم بخيراتها الطبيعية المستحدثة ومن المساهمة البناءة في صناعة عالم جديد، شرقا وغربا، شمالا وجنوبا.

تلك هي، المثالية العربية الحقيقية، وذلك هو الوجه الاعمق للمأساة العربية، المتمثلة في القضية اللبنانية كما في القضية الفلسطينية. لقد ساوى الاستعمار بين الشعبين وجعل من ظلم

الواحد طريقا إلى ظلم الاخر، ومن ضياع الارض المقدسة مدخلا لتحطيم وطن الحريات والمحبة وتعذيب شعبه وتشريد أهله. فلا سلام في الشرق الاوسط، ولا عودة إلى الارض المقدسة، الا بعودة لبنان إلى عافيته ووحدته وحرياته، وبعودة السلام إلى أرضه الشهيدة.
فباسم هذا السلام، يصرخ اليوم شعبنا المعذب، في وجه أمم الكون المجتمعة هنا: اعيدوا إلى وطني... اننا لن ننسى ولن نغفر، ولن نتهاود ولن نسالم قبل أن يعود لبنان.

الدورة السادسة والثلاثون للجمعية العمومية، 1981/10/5

اتركوا شعبي يعيش

انها ايام استثنائية مفجعة لبلد تعرض على مدى السنوات الثلاث الماضية لمأساة لم يسبق لها مثيل. ان مدنا تهدمت وعشرات الآلاف قتلوا ومجتمعنا تمزق وما زالت في جسمه آثار نزف عميقة – كل هذا في أقدم ارض في العالم واعرقها هدوءاً وسلاما.
لبنان، بلدي، يرقد نازفا مرة أخرى، نتيجة عدوان كأن المقصود به ارغامه على دفع ثمن التزامه مثل السلام والحرية وقاعدة القانون والنظام الدولية.
وبالفعل، فان المجتمع الدولي قلما اظهر مثل هذه اللامبالاة حيال مصير بلد له عند العالم حب كبير، لأنه نادرا ما يعطي بلد في هذا الصغر مقدار ما أعطى لبنان العالم والتاريخ البشري. ولكن كفانا من هذا الكلام في الوقت الحاضر.
هذا المجلس يجتمع الآن كي يضع حداً لواحد من أكثر اعمال العدوان همجية. وأود التشديد على ان اهتمامنا الرئيسي هو بتمكين الأمم المتحدة من الحفاظ على روح ميثاقها ونصه ومنع اسرائيل من أن تمنح نفسها حق وضع القانون الدولي بين يديها والتصرف كقاض ومحلف ومنفذ للأحكام في آن، فيما مجتمع الأمم يلتقي هنا ليراقب، في بلاده، احتضار دولة عضو.
لن أتورط في مهاترات خطابية لا فائدة منها، لأن وقائع القضية معلومة من الجميع. فقد عرضت صور كثيرة، وغالبا بوقاحة لامثيل لها، صور لمشاهد الموت والدمار اللذين تنشرهما بوتيرة منتظمة عقلية متعجرفة قاتلة. كأن قدرنا ثمن الجرائم التي ارتكبها كل منا، او جميعنا، خلال نحو ثلاثين سنة – جميعنا، واحدا واحدا، ما عدا لبنان، البلد الوحيد في ذلك الشرق الاوسط المبعثر المرهق الذي آمن دائما وبثبات بحقوق الأمم.
والآن، يا سيدي الرئيس والسادة اعضاء المجلس، ماذا نطلب منكم؟
سيكون كلامي مقتضبا جداً، على ان احتفظ بحق الكلام مجددا لتقديم اقتراحات وأجوبة.
ولكن ما نطلبه الآن هو ان يسمح لنا بالعيش موحدين في سلام، وان تعاد الينا سيادتنا على ارضنا، على أرضنا كلها، وأن يحمى شعبنا من الاغتيال الدولي.
ان الوقف الفوري لعمليات العدوان والانسحاب الفوري للغزاة يجب ان يكون المطلب الاجماعي لمجلس الأمن وللمجتمع الدولي، كما هما مطلبنا في لبنان. لذلك، دعوا شعبي

يعيش. دعونا لا نكتفي باعادة بناء لبنان، ارض المحبة القديمة، بل كذلك نعيد تأسيس السلام مع نظام عالمي في الشرق الأوسط يكون مقبولا، بحيث يتاح لكل دولة ممارسة حقوقها الانسانية والقومية الأساسية، بما فيها حقها في حرية الدفاع عن حدودها وتطبيق قوانينها الخاصة وحماية مواطنيها ومؤسساتها. ودعونا لا نسمح لأي ادعاء كاذب، بان يمنع الحكومة من استخدام قواتها الخاصة، أو تلك القوات الموضوعة أو التي قد توضع في تصرفها، للدفاع المشروع عن وحدة لبنان الوطنية وعن امنه. ودعونا لا نسمح لأي فريق بأن يتخذ من وضع غير طبيعي ذريعة ليقتل ويدمر ويخرق أبسط مبادئ القانونين الوطني والدولي.

مرة أخرى، وباسم لبنان، اقول هنا للعالم: دعوا شعبي يعيش. دعونا نحصل على السلام والأمن ونستعيد الثقة بالانسانية وبنظام عالمي افضل. ودعونا، في هذا الاطار، نترك الأمم المتحدة تتحمل مسؤولياتها.

مجلس الامن، 1978/3/17

حـول نـزع السـلاح

كلمة السفير غسان تويني في الدورة الخاصة الثانية للجمعية العامة للأمم المتحدة حول نزع السلاح.
(1982/6/23)
(ملحق البرقية الصادرة 275)

سيدي الرئيس،
تفهمون ولا ريب موقف لبنان، ولا شكّ في أن مندوبه سيكون معذوراً إذا لم يكن لديه اليوم أي كلمات حول نزع السلاح العالمي، غير الصلاة بأن يتمّ ذلك عاجلاً ونحن ولا نزال أحياء.
بينما كانت هذه الدورة الثانية الخاصّة بنزع السلاح تبحث أموراً أهميّتها الكبرى بالنسبة إلى مصير البشرية والكون، كانت أمّة صغيرة، أمّة أحبّها هذا العالم على الدوام، تترك فريسة للاستشهاد والصلب.
فهل بامكاننا، إذاً يا سيدي الرئيس، أن ننتظر بكل واقعية من لبنان، او من أي أمة أخرى مماثلة، محبّة مثله للسلام، أن تستمع بثقة إلى خطب حول الإبادة الذريّة بينما ديناميكية الحرب تستمرّ في خطّها الثابت؟
إن الإبادة الذريّة الممكنة في المستقبل تصبح خطراً بعيداً، يكاد يكون غير حقيقي، لأولئك الذين يعيشون الإبادة الآن، إبادة أرضهم الام، والرجال والنساء، والأطفال الذين يدمّرون مع المدن التي بنوا وأحبّوا.

سيدي الرئيس،
إنه أكثر من اختيار بين الاطمئنان والقلق. إنه اختيار بين الغد واليوم، بين تجاوز الموت الفوري، والتفكير مجرد التفكير في منع الدمار.
ليس من أمّة في العالم، أو في التاريخ، يمكنها أن تدعى لتجاوز محنة الحاضر هذه، وتغامر بحياتها مقابل خطة، لا تزال في إطار الوعد.
مع ذلك، سيدي، فإن شعبي يستقي اسمه التاريخي من أسطورة طائر مقدّس، «فينيق»، قيل إنه يعود دائماً إلى الحياة من الرماد. مثله، استطاعت مدننا القديمة التي دمّرت وحرقت مرّات عديدة، أن تقوم وتزدهر من جديد، وقدّمت إلى تاريخ الإنسانية رسالتها الخالدة في الحريّة والمحبّة.
تلك المدن لها أسماؤها التي ورقنا الآن في كل ساعة من كل يوم:

صور التي كانت منذ ستّة آلاف عام عاصمة لامبراطورية لم تقم على الحرب بل على الحوار، على التجارة والعلم، وصيدا التي أحبّتها الآلهة، وبيروت، التي كان اسمها «بيريتس» مدينة الشرائع.
لكن «إطلالة لبنان» ليست اليوم، كما وصفها سليمان الحكيم في نشيد الأناشيد: «ممتازة كالأرز». الآن، بقايا طائر الفينيق تغطّي «مرابض الأسود (...) وجبال الفهود (...) وشلال الجنان، وينبوع المياه الحيّة والجداول».

سيّدي الرئيس،
لسنا هنا للبكاء بل للرجاء.
إن شعبي سيعرف كيف يضمد جراحه. وفي وقت قريب، جراح أرضنا ستجفّ وتغطّى بالأشجار والأزاهير. البيوت والمصانع سوف تبنى من جديد، حيث تعرض الآن أدوات الموت والدمار بدون حياء. وحيث تدفن الجثث تحت أنقاض المدينة.
قريباً سوف نعود أقوياء.
لكن، هل المجتمع الدولي مهتم حقيقة بعودة لبنان معافى وقوياً؟
إذا كان كذلك، فإنه من الواجب إفساح المجال لأن تحكم مستقبل لبنان المبادئ التالية:
- أولاً: أن لا يكون لبنان بعد اليوم المكان الملائم لحروب الأصدقاء والأعداء على السواء.
- ثانياً: أن لا يسمح لبنان بعد اليوم بأن تصبح حريّته رهينة الذين شملتهم.
- ثالثاً: ان يكون لبنان قادراً على الدفاع، ليس فقط عن حريّة شعبه وأرضه، بل كذلك عن مؤسساته الديمقراطية الحرّة.
- رابعاً: أن يكون للبنان جيش وطني قوي ليس لحمايته ضد مزيد من الاضطراب فقط، بل لبلورة مجتمعه المتنوع وتوحيده ولاستيعاب وصهر القوى المتعدّدة المتفرّقة.
- خامساً: إن سلامة لبنان وأمنه والدفاع عن وحدة أراضيه وحماية سيادته، وتأكيد استقلاله، يجب أن لا تبقى مرتبطة باعتبارات خارجية من أي نوع، إقليمية كانت أم دولية.

سيّدي الرئيس،
كثيرون هم الذين يتطوّعون الآن لإعادة رسم خريطتنا أو كتابة دستورنا، بل والمفاوضة باسمنا على مواثيقنا الوطنية العتيدة.
لكل هؤلاء، أصدقاء وأعداء على السواء، يقول لبنان إن مستقبله سوف يقرّره اللبنانيون، واللبنانيون وحدهم. ليس في ظلّ السلاح، كل السلاح، كل السلاح، سلاح القتل والدمار، يمكن أن يعاد بناء لبنان، بل من خلال إرادة اللبنانيين الجامعة، كل اللبنانيين، لأي فئة انتموا، في توحّدهم مرّة أخرى، ليس في «عقد اجتماعي» عابر، بل في ذلك التعاقد التاريخي المديد بين الاجيال، الماضية منها كالحاضرة، واللاحقة كذلك.

إن اللبنانيين، في رفضهم التبعية كأدوات الاستراتيجية، مصمّمون على تحقيق السلام في لبنان ليس بمعزل عن الحلّ العادل الشامل لمسألة الشرق الأوسط، وإنما من غير انتظاره. ذلك أننا نشعر أن لبنان قد انتظر طويلاً ودفع ثمناً غالياً. إن السلم الفوري في لبنان ليس فقط واجب الوجود أخلاقياً بالنسبة إلى اللبنانيين، بل هو كذلك ضرورة جدلية عملية للأمن الإقليمي والدولي. وبالفعل، فإن أحداث الأسبوعين الماضيين قد برهنت فوق الشكّ ما خفنا منه على الدوام: أن الحرب في لبنان أصبحت خطراً ليس على لبنان وحده، بل على الآخرين كذلك وربما على العالم اجمع.

غير أن هذا يجب أن لا يفهم وكأنه يعني أن لبنان يستقيل من دوره العربي. بل على العكس من ذلك فإننا، أكثر من أي وقت مضى، مصمّمون على ممارسة دورنا الإقليمي والدولي كاملاً غير منقوص.

إن تحفّظاتنا الماضية والحاضرة، حول النشاطات الفلسطينية المسلّحة في لبنان لا تقلّل من تضامننا مع القضية الفلسطينية والتزامنا بدعم الحقّ المشروع للشعب الفلسطيني في أرضه ودولته.

وكما رفضنا في السابق أي حلّ لقضية فلسطين على حساب لبنان، فإننا لن نقبل اليوم، كنتيجة لحرب إسرائيل ضدّ منظّمة التحرير الفلسطينية، تسوية للقضية الفلسطينية تفرض على نصف مليون فلسطيني يتواجدون في لبنان، كمسلّحين أو غير مسلّحين، التخلّي عن «حقهم في العودة»، والبقاء في لبنان. إضافة إلى ذلك، فإن الاجتياح الإسرائيلي لا ينقص من حق لبنان في الانفراد بممارسة سلطته السياسية والعسكرية على كل أراضيه بدون منازع، وتقرير مصيره بحريّة.

وقد يكون من الضروري، في هذا السياق، التأكيد على أن تصميم لبنان على تدعيم بناء جيشه سوف يطلق قوّات الردع العربية من دورها الحالي في لبنان. وهذا التصميم ليس بجديد، ولن يتغيّر تبعاً للتطورات الأخيرة. وقد تمّ إبلاغه رسمياً للهيئات العربية المعنية منذ أكثر من سنة، كما تمّ ذكره في خطابنا في الدورة 36 للجمعية العامة للأمم المتّحدة في 5 تشرين الأول/أكتوبر 1981.

وهكذا، وبتعابير عملية، فإن ما يسمّى بوقف إطلاق النار بين القوّات السورية والإسرائيلية التي اشتبكت في لبنان، لا يمكن أن ينظر إليه إلا كإجراء مؤقت وفنّي فقط. وتبعاً لذلك، فلا يمكن لأي إجراءات وقف إطلاق نار أو أي وقف للعمليات العسكرية على الأرض اللبنانية، أن تعطي قوات غير لبنانية أية حقوق على الأرض اللبنانية، كما أنه لن يكون من حقّ أي طرف غير لبناني الإيحاء بما يسمّى «مطالب أمنية» نتيجة تواجد موقّت داخل الحدود المعترف بها دولياً.

ولا حاجة للقول بأن أخشى ما نخشاه هو القول بفكرة «الانسحاب المتوازي» كذريعة لتواجد متوازٍ مطوّل.

سيّدي الرئيس،
حين نطالب بانسحاب القوّات الإسرائيلية الفوري غير المشروط من لبنان، وإعادة إقامة السلطة الوحيدة للجيش اللبناني على كامل الأراضي اللبنانية، فإننا نعتمد على الدعم المزدوج من الأمم المتحدة ومن جامعة الدول العربية. ونحن مطمئنون إلى أن أكثر تعابير الدعم العربي تأثيراً وبلاغة قد أتت، بالفعل، كما هو متوقّع، من عاصمة عربية قد تكون بعيدة جغرافياً – وهي الرياض – قيل إنها مشغولة عن مصيرنا بحرب اخرى.
وبأقصى الوضوح تحدّث الملك فهد، ملك المملكة العربية السعودية، فقال إن المملكة سوف تأخذ مبادرة تحمل «المسؤولية التاريخية» في الدفاع عن لبنان، بكل الوسائل المتوفرة. وقد حذّر الملك فهد كذلك من أن اجتياح عاصمة عربية، بيروت «سوف يبطل كل جهد سياسي ومسعى عربي».
ومما يطمئننا كذلك، بالطبع، المواقف التي اتّخذها قادة عالميون لدول أكثر بعداً، كعرض التجاوب مع أي مطلب لبناني الذي أعلنه الرئيس الفرنسي ميتران، أو التدخّل الفعّال عبر الجهد الدبلوماسي الأميركي المتواصل، أو التحذير الموجّه للعدو الذي أطلقته موسكو، فضلاً عن شعائر التضامن من بقية الدول في كل أنحاء العالم.
هذا الموقف العالمي ضدّ الاجتياح الإسرائيلي تجسّد في القرارات الإجماعية التي صوّت عليها مجلس الأمن الدولي، وخاصة القرار 509.
نعرف أن القرارات ليست حلولاً. كما نعرف كم أصبحت سلطة مجلس الأمن مهلهلة. لكننا نعرف أيضاً قيمة أداة القانون الدولي مثل القرار 509، الذي يجزم بكل وضوح وبدون لبس أن الانسحاب الإسرائيلي يجب أن يكون فورياً وغير مشروط.
إن استمرار إسرائيل في تحدّي هذا القرار لا يضعف من عزمنا على المثابرة على إعادة تأكيده. ونحن نصرّ على أصدقائنا في المجتمع الدولي أن يساهموا، باسم الشرعية الدولية، وبكل جهد ممكن، في فرض ما يعتبر قراراً تنفيذياً ملزماً للمنظمة الدولية وفقق شرعتها.

سيّدي الرئيس،
لقد اتّخذ مجلس الأمن كذلك قراراً يؤكد على وجود الأمم المتحدة الفعلي ومسؤوليتها المحسوسة في لبنان، هو القرار 511 تاريخ 18 حزيران/يونيو، الذي جدّد انتداب «اليونيفيل» بصورة موقتّة لمدّة شهرين، بالرغم من الظروف غير المؤاتية التي تجد قوّة حفظ السلام نفسها فيها.
إن النهج الماضي لـ«اليونيفيل»، والوضع المأساوي الذي تتواجد فيه، يجعل من الضرورة أن نعيد هنا تأكيد ما كنّا قلناه تكراراً في مجلس الأمن. لقد أنيطت بـ«اليونيفيل» أكثر المهامّ ديناميكية وطموحاً في حين لم تعط القوّة سوى صلاحيات جامدة ليست في مستوى مهمتها.

إن مستقبل عمليات حفظ السلام هو الآن على المحكّ. هل يجب أن يستمرّ حفظ السلام مرهوناً بما يسمّى «تعاون جميع الفرقاء المعنيين» أم أنه حقّ الأمم الصغيرة، المهدّدة مثل لبنان، أن تنتظر تمكين قوّات حفظ السلام من الدفاع عنها ضدّ العدوان، «وإعادة الأمن والسلام الدوليين»، و«مساعدة» الحكومات (كما نصّ القرار 425 بتاريخ 10 آذار/مارس 1987) على ضمان عودة «سلطتها الفعلية»؟

بالنسبة للكثير من المشتركين في هذه الجمعية يمكن التمعّن في هذه المسألة بصبر، وإنعام النظر فيها عبر مناقشات طويلة.

أما بالنسبة الينا، في لبنان، فإن هذه قضية ملحّة جداً.

وخلال شهرين، ستدعى حكومتي لاتّخاذ قرار كياني لا نظري في الموضوع.

هل نحن بحاجة إلى قوّة تابعة للامم المتّحدة؟ وإذا كنّا كذلك، فأي نوع من قوّات الأمم المتحدة يمكن أن يضمن انسحاب القوّات المحتلة ومساعدتنا على إعادة سيادتنا على كل أرضنا؟

وإذا لم يكن بالإمكان انتظار هكذا قوّة من الأمم المتحدة، فمن تكون تلك القوى الدولية الأخرى التي يمكن أن نلجأ اليها؟

هل نطلب المساعدة في الإطار الآخر، القابل للمناقشة إطار حفظ سلام إقليمية أو متعدّدة الجنسيات؟ وماذا تراه يكون تأثير ذلك على مستقبل الأمم المتّحدة ودورها في تسوية المشكلات وإقامة الأمن والسلام الدوليين.

سيّدي الرئيس،

هذا السؤال لم يولد اليوم.

لقد ساند وفد بلادي، منذ أربعة أعوام، خلال مناقشات الدورة الخاصّة الأولى حول نزع السلاح، فكرة قديمة ليست الآن، مع الأسف، في التداول ألا وهي: إقامة «قوّة حفظ سلام دولية»، تضمن بطريقة عملية ومحسوسة، استقلال ووحدة أراضي تلك الأمم الصغيرة التي ليست لديها الرغبة في الإسراف في الإنفاق في ميدان التسلّح، على حساب حاجاتها الأكثر ضرورة، كالإنماء والتقدم.

إن السؤال، سيدي الرئيس، يبقى صارخاً لبلد مثل بلدي، هو ضحية دائمة للتهديدات الخارجية والاضطرابات الخارجية والاضطرابات الداخلية.

سيدي الرئيس،

في إطار تلك المناقشة حول نزع السلاح، تحدّثنا كذلك عن مبدأ للحياد الدولي «ينطبق على تلك الدول التي تجسّمت فيها الصراعات الخارجية، وما تزال، في انقسامات داخلية، بحيث تنعكس الهيكليات الداخلية في حروب خارجية كالحروب الأهلية».

سيّدي الرئيس،
إن أحداثاً كثيرة خلال السنوات الأربع الماضية قد برهنت، وبأي ثمن، على حاجتنا لمثل هذا الحياد المضمون دولياً وكذلك، إلى أمم متحدة، مستعدة، كما رجونا، «لممارسة مسؤولية جديدة: تأمين ملجأ للضعفاء ضد الاقوياء، للفقراء ضد الاغنياء، للأقل تطوراً ضد الأكثر تطوراً، للمحبين للسلام ضد الغزاة».

سيدي الرئيس،
بدلاً من طلب السلام عبر تسوية عادلة للنزاعات، عرض الوفد الإسرائيلي، في أشد الأشكال غرابة، اقتراحاً قديماً، ألا وهو إقامة منطقة خالية من السلاح الذرّي في الشرق الأوسط.
ترى، كيف يمكن أن ينتظر منا أن نأخذ هذا الاقتراح على محمل الجدّ في حين يشهد الشرق الأوسط ليس أكثر الحروب شراسة منذ سنوات فحسب، بل تنافساً بين الأسلحة التقليدية المطوّرة بهدف تحقيق أقصى قدر من الدمار؟ وأقصى السخرية أن يجد البعض في اجتياح لبنان مجالاً فريداً لاختبار التقدّم التقني المتطوّر.
إذا لم يكن هذا هو أبشع أشكال سباق التسلّح، فما الذي يمكن أن يكون أشدّ هولاً وأكثر هراء، يا ترى؟

سيّدي الرئيس،
قبل أن نقيم منطقة خالية من السلاح الذرّي في الشرق الاوسط، لنضع حداً للعدوان ونتائجه على مستقبل الانسان والدولة.
لنجمد سباق التسلح التقليدي الذي يجعلنا ننزف جميعاً، فقراء وأغنياء. حتى اولئك الذين يبنون أمنهم على قوّة وهمية، قد يصبحون في وقت قريب مجتمعاً فقيراً يولّد عنفه الذاتي. وسوف يصبح توسّل الحرب والإرهاب الخارجي طريقاً لامتصاص الإرهاب الداخلي والثورة.
ولا حاجة لتذكير هذه الجمعية أن الخيار الذرّي، المتوافر حالياً لإسرائيل فقط في كل منطقة الشرق الأوسط، كمظهر لما يسمّى «التفوّق النوعي»، يمكن أن يصبح يوماً ما سلعة للإرهاب الدولي. إن «العصابات النووية» التي هي حالياً إحدى ظواهر «الخيال السياسي»، يجب أن لا تصبح غداً، الحقيقة الممكنة لتطرّف جديد يولد من منطق اليأس.

سيدي الرئيس،
إن الأسلحة، تقليدية كانت أم نووية، ليست هي المشكلة، وإنما هي التعبير. والمعضلة تبقى سياسية: إنها مسألة السلام.
وبعبارات بسيطة ومباشرة، فلنسع إلى حلّ المسألة اللبنانية ولنصل إلى تسوية عادلة وشاملة

في الشرق الأوسط. عندها، لن يكون هناك سباق تسلّح في تلك المنطقة الحيوية من العالم، ولن يستمر النظام الدولي في التفسّخ كما هو الآن بسبب شبح الحرب.
إن بلدي لبنان، وهو الآن شهيد الحرب والسلم معاً، يناشدكم ألا تسمحوا بأن تتحول جمعيتكم هذه عن العمل إلى القول، فتكتفي بالبيانات المجرّدة عن السلام، والتحليلات التجريدية لأسباب الحروب.
ولنتذكّر، نحن المهتمّين بضرورة وقف السباق نحو الإبادة الذريّة غداً، حقائق الرؤيا المأسوية التي نعيش اليوم واقعها.

غسان تويني محاضراً

هذه الشخصية الواحدة، المتشظية عطاءات متعددة، المشرئبة كلمات، لا تعرف كيف أمكن لصاحبها أن يدونها. بمعنى من أين أمسك بالوقت لتدوينها: افتتاحيات، مراسلات، محاضرات ومشاركات فكرية وسياسية وهوامش، تحولت في معظمها إلى وثائق تشهد للعقل وللرؤيا.

غسان تويني، تحسب لو قرأت ما حمل اسمه أنه يعيش العمر عمرين واليوم يومين وليله باليقين ليلين. من عطائه، خزانة من المحاضرات، هذا بعضها:

نحن في المعتـرك

محاضرة ألقيت في دار الكتب الوطنيّة في حلب (الجمهورية السورية). نشرت وقائعها في الصحافة السوريّة واللبنانية، ثم صدرت فيما بعد في منشورات «دار الكتب».
1952/3/14

نحن في المعترك!
وكيف لا نكون، والعالم بأسره قد انقسم إلى قوى متعاركة، تحتّم على الانسان، وتفرض عليه فرضاً، هذا الصراع الذي فيه تستميت من أجل السيطرة على العالم وعلى عقل الانسان، ومن أجل بناء ما تسميه، هذه القوى وتلك، وما تظنه، عالماً أفضل، يعيش فيه انسان أفضل!
كيف لا نكون في المعترك، وكل أمة تجد نفسها في عراك مع نفسها، من أجل أن تختار لنفسها، لا سياسة – والسياسات عابرة – بل تخطيطاً لمستقبل أفضل، في عصر، سرعة التطور فيه تصرع المخطّطين، ولا يكاد الحاضر يوفّر مجال التطلّع إلى المستقبل، حتى يكون المستقبل قد صار حاضراً، وليس من تأهب له بعد...
ثم كيف لا نكون، نحن، في المعترك، وهذه الأرض التي عليها نعيش قد كانت، وقد لا تزال، بل وقد تظلّ، ملتقى الجحافل، وساحة اصطراع الشرق مع الغرب... يفاخر بعض اهلها، في ما به يفاخرون، بأنها كانت كذلك، وأنها وصلت العوالم ببعضها، ووفّرت للحضارات مجال الالتقاء والمفاضلة والالتحام...
كيف لا نكون، نحن، في المعترك، وما إنْ تمزّقت غشاوات الأجيال من أمام عيوننا ومن حول عقولنا، حتى بدأت قوى العالم المتصارعة تشدّنا من هنا وهناك وهنالك... ونحن نتطلّع، وتاريخنا حمل على اكتافنا، وقلوبنا مثقلة بأحلامنا – نتطلّع حيارى إلى هنا وهناك وهنالك، ثم نتطلّع إلى الماضي لنستمدّ منه قوى الحياة، والقدرة على ارادة الحياة الفضلى، نتوسّط به، بمفاخرة وبمثله وببقاياه، لبناء الصرح الذي فيه نحيي أحلامنا!

نحن في المعترك!
ولكن هل يعارك الحاضر والمستقبل بالماضي؟ وهل يقاتل الحيّ بالميت؟ وهل تشيّد حضارة جديدة من آثار الحضارات الغابرة؟ وهل يعيد الحضارات من دفنوا طموحهم، كل طموحهم، في اكتفائهم بأنّ ابطالاً من امّتهم كانوا ابطالاً، وما تمنطقوا بغير التلذّذ بذكرى الأبطال؟

هل تبنى الحياة الفضلي من فتات الحيوات المندثرة، مهما كانت جميلة في حينها، ومهما عظم اثرها؟ وهل يحرر الناس اناس رهنوا حرّيتهم ثمن لوحات رخاميّة على قبور، وإن قبور الأحرار؟

سيداتي، سادتي،
من حقّكم علي وموضوعنا الليلة هذا نطاق اتساعه –من حقكم علي أن نسعى هنا معاً لتحديد بعض التعابير والمفاهيم التي تتوارد في حديثنا، لعل ذلك يساعدنا في تفهّم ما نشير اليه من اوضاع ووقائع وحقائق.
وحسبنا أن نعرف، قبل كل شيء، ما هو هذا المعترك، من يعارك فيه، وماذا يعارك، وكيف يعارك، ومن أجل ماذا يعارك المعاركون، ونحن منهم...
ثم أن نعرف نحن، من نحن؟
أمّا المعترك هذا، فهو التاريخ، والتاريخ ليس سجلّ ما حدث ويحدث، انما هو عراك بين مجموعات انسانيّة تحشد كل ما في وسعها من قدر حتى لا يحدث غير ما تريد هي أن يحدث، وحتى لا تكون الأحداث سوى تجسيد الكمال الأقصى الذي تطمح إليه، وحتى تعمّ العالم المثاليّة التي تحمل هي رسالتها، فيطبع عقل الإنسان في كل عصر، بما تخلفه هي لتراث الإنسان الحضاري.
والتاريخ هو، خلال ذلك، صراع بين الأمم حاملة رسالات الحضارة، من أجل اقرار حقها بالحياة، وإحقاق مصالحها التي بدونها لا يكون لها وجود ذاتي، من أجل بناء هياكلها القوميّة التي منها تنطلق في رسالتها إلى العالم.
والتاريخ هو، من أجل ذلك، مدى حيوي للرجال الأفذاذ، الأبطال الذين تحبل بهم بطون الأمم المتأججة بإرادة التفوّق، العمالقة الذين يطلّون من الماضي على المستقبل، فتبصر الأمة بأعينهم النور الذي يبصرون، وبوشائج الإيمان يشدّون بني قومهم في طريق الرسالة التي عليها يسيرون، من اجل ان يكون لهم ما يجب ان يكون!
واما نحن، فأمّة ابتليت بجهلها لذاتها، ولو عرفت قبل اليوم من كانت، ومن هي، لكان لها قبل اليوم، المجد الذي بدأت تبني.
ومن يدري، فقد يكون منطق التاريخ، في ظلمه، قد أراد لنا أن ننام تحت ركام الماضي، وفي فيء الاستعمار، هذه الأجيال الطويلة، فلا نتململ إلا والعالم في زحمة الرسالات الكونيّة، وقد ضاق بمن عليه، وضاق الوقت به والإنسان قد اكتشف آلة الإفناء التي يستحيل معها الاطمئنان إلى غدٍ قد تطلع فيه الشمس فلا تجد عيناً تنظر نورها؟
أزحمة أخصام كلّها، هذه القوى التي تتجاذبنا وهي تتقاسم العالم، وبوحي اي ايمان نعارك اذا نحن عرفنا من نحن، ودخلنا هذا المعترك؟

سيداتي، سادتي،
يتميّز وجه العالم اليوم بظاهرتين اساسيّتين. أما الظاهرة الأولى فهي انقسامه – اذا جاز لنا اعتبار الاتفاقات السياسية والقربى العقائدية مقياساً– إلى معسكرين اثنين: المعسكر الشيوعي السوفياتي القائم على ركنين لعلّهما يؤلفان أكبر مجموعتين بشريتين: روسيا والصين، يدور في فلكهما عدد من الدول المتشيّعة التي تشدّها صلة مباشرة إلى الإدارة الشيوعية العالمية المركزية. ثم معسكر الديمقراطيات القوميّة: ويضمّ اميركا المتطرفة في رأسماليتها، وبريطانيا العظمى التي كانت قد بدأت تميل إلى الاشتراكية، تدور في فلكهما او تتعاون وإياهما، الدول المرتبطة بهما او بإحداهما، قومياً او استعمارياً او اقتصادياً. وأما الظاهرة الثانية، فهي ان العالم هو العالم، وللمرّة الاولى منذ ان صار للعالم تاريخ، عالم واحد من حيث تحسّر الجزء بالكل ومعرفته به، وأن مفهوم الكون والكونيّة أصبح، بفضل التطوّر المادّي، حقيقة ملموسة، وأضحت التزعة الكونيّة ذات حظ بأن تحقّق نفسها، بعد أن كانت الكونيّة مفهوماً نسبياً، وكان الطموح إلى نظام كوني حلماً تحدّ مجالاته حدود للعالم ليست هي حدود. ويكرّس هذه «الكونية» في أيامنا، تنظيم دولي يشمل الكون بأجمعه كما تكرسها محاولات تطمح فعلاً إلى تأمين سيطرة كونيّة حقيقية، مداها المجموعة الإنسانية بكاملها.
وانقسام العالم إلى حركات تطمح إلى السيطرة الكونية ليس بالظاهرة الجديدة، فقد كان العالم دائماً مسرح انقسامات كهذه الانقسامات، ولا يتغيّر مع التاريخ سوى نطاق الانقسام وموضوع صراع القوى المقتسمة العالم، والجوهر او العقيدة التي يقوم من أجلها هذا الصراع. بقي أن نتساءل، مع المتسائلين القلقين على مصيرهم المريدين السلم الدائم، عما إذا كان الصراع من أجل الاستئثار بتقرير مصير الإنسان، سيكون حتماً صراعاً حربياً، ام ان السيطرة الكونية يمكن ان تتمّ، كما يمكن حسم النزاع العقائدي الذي يتبطّن به السعي إليها، دون اللجوء إلى الحرب؟
والواقع أن ليس في التاريخ مثال واحد لحرب نشبت لمجرّد الحرب وحباً بها، حتى ولا بين القبائل الهمجيّة. فثمّة غاية سامية يرفق بها كل محتل احتلاله ويبرر بها كل حرب، ألا وهي إحقاق حق أو نشر حقيقة. فالحرب تبدو لنا في تشعّب العوامل الدافعة إليها، اقتصادية وسياسية واجتماعية، بل واستراتيجية، انها تبدو لنا ظاهرة حضرية، بمعنى الحضارة، أو الثقافة، الشامل لجميع نواحي النشاط الإنساني. إن هي إلا نتيجة تضخّم القوة الحضارية في مجتمع معيّن، وبلوغ هذه القوة في جوهرها العقائدي الثقافي ومتطلباتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، حدّ اضطرار المجتمع هذا إلى التوسع، وهي تحصل عند اصطدام القوى المتوسعة بقوة المجتمع الذي تتوسع على حسابه، اذا كانت لا تزال تتوفّر في هذا المجتمع مقوّمات الحياة والحضارة، مقوّمات الاستمرار التاريخي. وفي منطق تطوّر الحضارات أن كل واحدة منها تهدف، ايماناً منها بحقيقتها وتفوقها، لأن تعمّ الكون، أو ما

هو معروف عنه، فالأمة التي تحتل أرض أمة أخرى، وتستعمر شعبها، إنما تعتقد أنّها، اذا احتلّت واستعمرت، فليس لمصلحتها هي وحدها، بل لمصلحة الأرض التي تحتل والشعب الذي تستعمر. من هنا ان المناعة الوحيدة القمينة بدفع الاستعمار هي الرقي، هي الحيويّة الحضريّة، هي توفر وسائل استثمار الموارد والدفاع عنها، وتوفّر الإيمان بضرورة الدفاع، وهي، فوق ذلك توفّر الوعي المجتمعي الخلاّق الذي يدفع بالأمة قدماً، والذي منه تتغذّى عقول بناة الأمة وبه تتقوّى سواعدهم.

ومن هنا كذلك، أن كلّ حرب تهدف في النهاية إلى إقرار السلم.. لا حالة السلم السلبيّة التي هي مجرّد انعدام النزاع او انتظار النزاع أو التحفز له – وقد لا تكون ثمّة فريسة اسوغ للاستعمار من الأمم التي تقنع بهذه الحالة السلبيّة حياة لها ومطمحاً – إنما السلم الحقيقي، الذي هو يناع الحضارة التي من أجلها كان النزاع، ومن أجلها كان الطموح إلى السلم.

فهل هذا السلم ممكن، وما هو ثمنه، إذا كان لا بدّ من الحرب، باردة أو ساخنة، سبيلاً له؟ أم أن العالم الواحد قد يتمكن من تحقيق أعجوبة التاريخ: سلم يتمرّد على الوحدانية، مفسحاً لأكثر من حضارة واحدة في مجال التعايش، تنمو كل واحدة في نطاقها، ولا ترجو من الأخرى أن تنسجم معها في أكثر من التسليم بإمكان وجود الاختلاف والتنوّع.

سيداتي، سادتي،

لو كان هذا الموضوع بالذات موضوع حديثنا الليلة لتوقّفنا كثيراً عند هذه الإمكانيّة، ولتساءلنا إلى أي حدّ يمكننا أن نأمل، واقعياً، استمرار تعايش النظامين، بل الحضارتين، اللتين تتقاسمان العالم – والنظامان من طبيعتهما أنهما تياران حيّان متطوران متوسّعان، يسعى واحدهما إلى ثورة عالميّة تحقّق سعادة الإنسان عند انتهائها إلى ما يسمّيه كارل ماركس تلاشي الدولة بزوال الوضع الطبقي الذي يبرّر وجودها – زوال هذا الوضع من العالم بأسره، طبعاً – بينما يسعى النّظام الآخر إلى ما يعتبره ضمان الحريّات عن طريق انتظام الدول القوميّة السيّدة المحبّة للسلام في منظّمة تحترم حقّ كل أمّة في تقرير مصيرها، وتحول بالتالي دون اعتداء أيّة أمّة على الأخرى لاغتصاب هذا الحق...

وكنّا نشير إلى مفارقات تعايش النظامين أو التّيارين: وجود الاتحاد السوفياتي وسائر الدول المتشيّعة في صميم منظمة أممية مؤسسة على مبادئ؛ يعتبرها التراث الشيوعي برجوازية بالية محكوم عليها بالزوال وواجب زوالها، ثم على صعيد آخر، وجود أحزاب شيوعيّة في داخل الدول الديمقراطية القوميّة البرجوازيّة، تفيد من تركيب هذه الدول لنشر إيمانها الصريح بضرورة قلب هذه الدول، لكي تسعد شعوبها ويسلم العالم!

ولكنا أخيراً دخلنا في تحليل ما يعود إليه هذا النظام وذاك من جذور، وما ينطلق منه هذا التيار وذاك من أصول، ثم ما يختلفان عليه وما يمكن أن يلتقيا عنده... غير أني لا أخال أحداً بيننا إلا ويعرف عن هذه المسائل ما يكفينا لمعالجة ما نعالج الليلة. وحسبنا، من ذلك، أن نوضح

كيف أن النّظامين أو التّيارين ينبثقان من ثورة العقل، التي بها كان العصر الحديث، التالي من الثورة على العقل التي أنجبتها ثورة العقل من ذاتها... مأساة العقل هي، هاتان الثورتان.. واذا كانت القرون الوسطى عصر اللّه ومجده على الأرض، فإن القرون التي انقضت بين انهيار عمارة الحضارة المتوسطيّة وقيام عالم القرن العشرين يملأها سعي العقل لبناء حضارة انسانيّة منطقيّة، لها من نفسها مقوّمات البقاء والتقدّم، ولا تعتمد حافزاً للاستمرار أية قوى أو عوامل لا إنسانيّة، لا طبيعيّة، من شأنها أن تقلّل ثقة الإنسان بذاته أو أن تفسد عليه قدرته المطلقة على ذاته والطبيعة. وقد اجتاز العقل، في سعيه هذا، مراحل مرت به من فرحته لاكتشاف قدرته، إلى جهده للتحرّر من التراث وإن عقلياً، إلى ثورته على كل يقين موروث وجنونه على كل ما لم يبنه العقل المجرّد المتحرّر – حتى انتهت به، وقد شكّك ونقد وقيّم ما حقّقه وما في وسعه تحقيقه، إلى التفتيش عن أسس جديدة لليقين العقلي الجديد. والمأساة في أن العقل، وقد تمرّد على كل ما هو غيبي لا إنساني، لا طبيعي، وجد نفسه والايمانات الجديدة التي لا تتجوهر بغير العقل: تتجوهر بالمادة أو المنفعة، قيمة مطلقة، يدركها العقل، ولكنّها مستقلّة الوجود، أو تتجوهر بالطبائع الإنسانيّة، بالقلب والنفس، عناصر إنسانية تتحكّم بالعقل ولا تخضع لسننه ومفاهيمه. وتكتمل المأساة في أن العقل نفسه، وقد أنجبت ثورته على الإيمان هذه الايمانات اللاعقليّة التي تتجاذبه اليوم – أن العقل نفسه يبرّر شرعيّة القوّة في تقرير مصير الكيانات الإيمانيّة، وبالتالي تقرير مصير الإيمان نفسه ومصير العقل. ومن أجل تقرير هذا المصير، العالم اليوم في انقسامه وعراكه...

قد يقال إنّ هذا التحليل ليس سوى فلسفة لوقائع لا يحتاج فهمها إلى كلّ هذا التفلسف، وإن العالم اليوم منقسم إلى شرق وغرب يتسابقان بغية جعل العالم كلّه شرقاً أو كلّه غرباً... والحقيقة ان العالم كان دائماً ينقسم إلى «شرق» و«غرب» يتسابقان ويتنافسان... وكان «الغرب» دائماً تمثله القوى البحريّة، والشرق تمثّله القوى البريّة؛ مثال تنافس الشرق والغرب في العالم القديم، في حروب الفرس، الدولة البريّة، مع الإغريق، الدولة البحريّة. ألم يحلم أباطرة فارس بنشر ملكهم على الكون وبتوحيد شعوب العالم كلّه في ظلّ تاجهم؟ والذي يلاحظ تاريخ النزاعات الكونيّة يرى ان القوى البحرية كانت دائماً تمثّل الانفتاح والترقّي والتحرّر والعقل، والخطيئة باسم التحرر والعقل أحياناً، وذلك بفضل وضعها والعوامل الاقتصادية الملازمة لوجودها، بينما كانت القوى البريّة تمثل النزعة المحافظة وثقل التقاليد والرجعية أحياناً، وأحياناً السلطة المطلقة المركزة على إيمان الشرق بالغيبيّات إلى حدّ السحر! ويلاحظ من دراسة التاريخ كذلك ان البحر السوري أو ما يسمى البحر المتوسط أو بحر الرّوم، الذي عرف ببحيرة الحضارة في العالم القديم، كان حوض النزاع بين الشرق والغرب لنشوء القوى الغربيّة على ضفافه وبنائها مدائنها ومدنيّاتها من حوله. وكأني بنقطة الثقل قد انتقلت اليوم إلى المحيط الأطلسي، هذا «البحر المتوسط» الحديث الضخم بنسبة تضخّم القوى البحريّة وتوسّع أفق العالم المعروف...

وبمقدار ما تؤثر البيئة والموقع الجغرافي على طبائع الأمم، وبالتالي على ما تدين به وما تبشّر تختلف حضارة الغرب عن حضارة الشرق، وتختلف عقائد الشرق عن عقائد الغرب، على أنّ هذا الاختلاف لا يبطل وحدة الإنسان والحضارة الإنسانية الجامعة للشرق والغرب. فليس هنالك شرقٌ وغرب لا يلتقيان، بل شرق يتفاعل مع الغرب، وغرب يستمدّ من الشرق، في التقاء مستمر...

سيداتي، سادتي،
ويشاء بعض كبار المفكّرين من أهل بلادنا أن يجعل من هذا الالتقاء في أرضنا أقصى ما نطمح إليه وجلّ ما نفاخر به... يعتزّون بأننا الجسر الذي عبر عليه الشرق إلى الغرب والغرب إلى الشرق، ويرتاحون لأن ما يعتبرونه تراثنا القومي هو بقايا جحافل الشرق والغرب في كرّها وفرّها على شواطئنا وبين جبالنا وفي سهولنا!
وقد ذهب مفكّر لبناني كبير له علينا فضل في المعرفة إلى حدّ اعتبار مبرر وجود لبنان أنه «ليس البوتقة التي سيصهر فيها الشرق والغرب فيخرج من هذا الصهر مركّب جديد فوق الشرق والغرب» بل لقيا الشرق والغرب بأعمق وأقدس ما فيهما على قدم المساواة في الحريّة والكرامة.
قد يكون هذا المفكّر على حق، من حيث مركز هذه البلاد الجغرافي التاريخي. ولكن موقفه، إذا أخذ على إطلاقه، يساوي انتحاراً حضارياً لأنه تنازل عن كل خلق وكل مساهمة فذّة، وبالتالي عن كل شخصية للأمة تتميّز بها وبها تطبع تاريخها. وليس ما يمنع التقاء الشرق والغرب عندنا، متى نكون نحن لا مجرّد «صعيد» يلتقيان عليه، بل كياناً حضارياً ننظر من ضمنه إلى الشرق وإلى الغرب، ونقتبس، في نطاقه، من الشرق ومن الغرب ما يأتلف مع نفسيتنا الأصلية وما يقبله عقلنا وما يجاوب احتياجاتنا، ومتى يكون همنا لا مجرد توفير مجال الاجتماع للشرق والغرب، من أجل الشرق أو من أجل الغرب، بل الإفادة في بناء نفسنا وإنماء كياننا. وإذا ما اخترنا رأي هذا المفكّر الكبير لنتوقّف عنده في هذا الحديث، فليس لأن رأيه شاذ ينفرد هو فيه، إنما لعظمة الاحترام الذي أكنّه، ويكنّه كثيرون سواي، لعقله وجهوده وفضله، ولأنه، في موقفه، يمثّل، على الصعيد الفلسفي، أكمل تمثيل، وضعاً عاماً قد لا يعي كلّ الناس أسسه الفلسفيّة. هذا الوضع العام يتجلّى، على مرتبة دون الفلسفة، في علاقاتنا السياسيّة الخارجية مع العالم. وقد شئنا، أو ارتضينا، أن نكون مجرّد موضوع علاقات دول العالم الكبرى ببعضها، شرقاً وغرباً، ومسرح تنافسها، بدلاً من أن نكون نحن عنصراً فاعلاً فعّالا، له علاقاته الخاصّة مع دول العالم، مع الشرق أو الغرب، على أساس مصالحه وبوحي أهدافه.
علاقاتنا بالغرب وبالشرق هي الآن علاقات الغرب بالشرق في ما يتعلّق بنا وبتقرير مصيرنا، فنحن بالنسبة لهذا وذاك أرض وموارد وموانىء، لسنا شعباً، ولا دولةً، وليس لنا بالتالي أن

نقرّر وأن نختار وأن نساير! وقد شئنا، أو ارتضينا، أن نكون كذلك: موضوع إرادات، لا إدارة فاعلة!
ولست أغالي إذا قلت إنّ السبب في أننا ما سجلّنا بعدُ، منذ أن استفقنا على العالم من جديد، سوى الهزائم أو «الانتصارات السلبيّة» – السبب هو هذا التنازل عن ذاتنا وإرادتنا، هو جهلنا لذاتنا ولا مبالاتنا بمعرفة من نكون، نحن، ولماذا نكون، ومن أجل ماذا نكون... هو استسلامنا لحتميّة هذه الأرض الموهومة، التي إذا جعلتها الجغرافيا جسراً، فإنها لم تفرض على سكانها ولا يسعها أن تفرض عليهم أن يطأطئوا ظهورهم ويهلّلوا ويكبّروا لكلّ من يريد اجتياز الجسر!

سيداتي، سادتي،
معاذ الله أن نبخس، نحن أبناء الجيل الجديد الطّالع، الجيل الذي سبقنا إلى الجهاد، حقاً. فنحن نعرف ما لهم، بقدر ما نعرف ما عليهم، وأكثر... ولهم علينا، قبل كل شيء، حقّ احترام ثورتهم، ولم يعلّمهم اسلافهم الثورة. وإذا كانت ظهور أبناء هذه الأمة ما تزال، أكثرها، مطأطئة، فليس لأن الجيل الحاكم لم يرد تقويمها، بل لأنه لم يعرف كيف يقوّمها، ولعلّه لم يعرف أن بوسعه تقويمها وقد ثار هذا الجيل، وعرف كيف يفيد من الظروف الدولية إلى حدّ لا يستهان به، فحقّق لنا الاستقلال، ولو قانونياً، وبنى لنا دولاً سيّدة على نفسها، حرة ولو نظرياً في تقرير مصيرها.
ولكن الجيل الحاكم فشل في حكم هذه الدول المستقلّة، وفي قيادتها نحو خيرها وتوفير ما يضمن استقلالها وما يؤمن لها، في حلبة التاريخ، المكانة المؤهلة لها. من هنا إننا نعيش اليوم وأوضاع الحكم عندنا قلقة متوتّرة مضطربة، بين الشعب والحاكمين هوة سحيقة، وفي الشعب نفسية ثوريّة تزداد كل يوم احتقاناً. ومن هنا هذا النزاع بين الجيل الحاكم والجيل الطالع الجديد، فكأننا بالجيل الحاكم، وقد أدى رسالته، يريد، ساعة احتضاره، ألا يموت إلا منتحراً، مختنقاً، وأن ينحر معه هذا الكائن الحي الذي منه ولد: الجيل الطالع العامر صدره بالطموح، التواق إلى ممارسة كل حق له، المصمّم على انتزاع زمام التطوّر والفعالية انتزاعاً، وإن كان الثمن انتزاع الحياة من صدر الحاكمين!
والتحليل المنطقي الواقعي يقودنا إلى أسباب رئيسية ثلاثة جعلت أوضاعنا اليوم أوضاعاً قلقة، وكياننا مترجرج البنيان، وسيادتنا واهية الأسس، بحيث بات النزاع بين الجيلين واجباً تاريخياً.
أما السبب الأول، فهو أن أكثر الذين ثاروا باسم القوميّة ومن أجل تحقيق سيادة الأمة على نفسها، لم يعرفوا بالضبط ماهيّة الأمة، ولا هم ادركوا حدود أمتهم وشخصيتها. فقد كانت الأمّة في جهادهم مثالاً أكثر منها واقعاً، وخيالاً أكثر منها حقيقة، وقد فات هذا الجيل أن السيادة القوميّة ليست أن لا يحكم الأمّة مستعمر، بل أن تحكم بوحي تراثها وأن يستمد

حاكموها سياستهم من شخصيتها، وأن يسخّروا الحكم من أجل بلورة هذه الشخصية وجوهرتها بالمثل الحيّة بحيث تقدر الأمة أن تتحصن بالطاقة لدفع استعمار سلاحه تفوّق المستعمر في مضمار الحضارة وما يتفرّع منها، وقدرة على استثمار مرافق الأمة المتأخرة، ونخر جسم الأمة غير الملتحمة، غير الواعية معالم شخصيتها.

وأما السبب الثاني، فهو أن الذين ثاروا وحققوا الاستقلال و«السيادة القوميّة» وأقاموا «الحكم الوطني» إنما ثاروا باسم الشعب ومن أجل الشعب، وقادوا الشعب في ثورتهم، ولكنّهم لم ينبثقوا من الشعب، ولم يستمدوا منه مثاليتهم، ولا كان جهادهم يتغذى بآماله ويتقدّم بنبضات آلامه... كانوا ينوون انتزاع الحكم من المستعمر، فلما وجدوا أنفسهم في الحكم باسم الوطن والحق القومي، وجدوا أن الشعب الذي فرح لانتصارهم وهلل، لا يرتاح إلى حكمهم، ولا يرى نفسه حاكماً نفسه من خلالهم. فاضطروا، تغطية، وتبريراً، لاسترضاء الجماهير وتعزيز الشارع علّ الشعب يطمئن إليهم ويثق بهم ويساندهم ولا يضيّع عليهم، وعلى نفسه الحكم الوطني والسيادة القومية.

وأما السبب الثالث، فهو أن الجيل الحاكم ثار للتحرّر من المستعمرين، ولكنّه لم يعرف من أجل ماذا يريد التحرر. أي أنه كان سلبياً في تحرريته، يعتبر الاستقلال غاية بحد ذاته، وقد فاته أن الاستقلال، وبالتالي الحكم المستقل، ليس سوى وسيلة لتحقيق ما هو أسمى من الاستقلال وأهم من الحكم: لتحقيق التقدم والرقيّ، ولإنماء الثقافة القوميّة خيراً وحقاً وجمالاً.

فات الجيل الحاكم أن وصوله إلى الحكم ليس كلّ ما كان يطمح إليه الشعب عندما ثار وراءه، وأن اعتزاز الشعب بأن الذين يحكمونه من جنسه، ومن لحمه ودمه، يبطل ولا يبقى اعتزازاً عندما لا يلمس الشعب أن بين هذا الحكم وذاك، بين الحكم الوطني وحكم المستعمر، فرقاً في غير الاسم والشكل.

فالاستقلال الحقيقي أن تشعر الأمة بأنها تُحكم بإرادتها – وإرادة الأمة ليست إرادة الأفراد ولا هي ملك الحاكمين، تتجلّى في رغباتهم ومطامحهم وسيادتهم، إن هي إلا شعور كل فرد من أفراد الشعب بأنه، وهو يطيع الشرائع، لا يطيع غير نفسه، وأن ما يبغيه من الحياة لا يتحقّق عن غير طريق الحكم الذي به يساس، ومن ثم شعور الشعب، كمجموعة، شعور الأمة، بأن هذا الحكم هو ما كان يسوقها إليه تاريخها، وأنه أداة قيادتها إلى تحقيق رسالتها وجوهرة كيانها بمجد جديد.

سيداتي، سادتي،

كأننا بالجيل الحاكم، لهذه الأسباب الثلاثة، يتخبّط في فراغ الحكم الذي أشاد، ومن حول هذا الفراغ إرادة الشعب، الإرادة القومية الحيّة، إرادة الجيل الجديد، تريد أن تنفذ إلى الحكم لتقول للمتربعين فيه أنهم يفسدون على أنفسهم الرسالة التي من أجلها ثاروا وبها عملوا عبر سني الجهاد الطوال.

ولكن، من هو هذا الجيل الجديد، وبماذا يختلف عن الجيل الحاكم؟ ما هي أسس الإيمان التي عليها يبني نقده للجيل الحاكم ومنها ينطلق في رسالته؟ ثم ما هي هذه الرسالة؟
رجال الجيل الجديد هم هؤلاء الذين أفادوا من اختبار الجيل الحاكم فقدّروا ما حقّقه وأدركوا أسباب عجزه عن تحقيق ما لم يحقّق. وسواء عندنا ان يكون هؤلاء من الذين يتساوون بالسنّ مع قادة الجيل الحاكم أو يكونون دونهم سناً، فالسنّ لا تمنع بعض الشباب من ان يكونوا حلفاء الجيل الحاكم في ذهنيتهم ونفسيتهم، وفي فهمهم أو قلة فهمهم، للمصلحة القوميّة العليا. ونعني، فوق ذلك، بإفادة الجيل الجديد من اختبار الحاكم المحتضر، أن لا تكون الإفادة نظريّة بل عمليّة فعالة، أي أن هؤلاء الذين نسمّيهم الجيل الجديد هم الذين يستحيل وعيهم نشاطاً وإدراكهم إصلاحاً.
خير تصنيف لإيمانهم إذن هو أن نحلّل موقفهم بالنسبة للأسباب التي رددنا إليها تقصير الجيل الحاكم.
فلئن يكن الجيل الحاكم قد قصّر في ثورة قوميّة لم تتأسس على مفهوم للأمة صريح، ولم تستوح جهادها من معالم شخصية أو شخصيات قوميّة معيّنة، فإن الجيل الجديد يعالج أول ما يعالج قضيّة الأمة معالجة علميّة، فيبدأ بتعيين حدودها ونطاقها وبتوضيح معالم شخصيتها في التاريخ، هذه الشخصية المتجليّة في تراث حي لكل أمة، وفي مؤسسات وتقاليد وآداب شعبيّة تعبر عن روح الأمة وتتجلّى فيها إرادتها. والجيل الجديد يستوحي هذه الإرادة في جهاده ومن التراث القومي يستمد مثاليّته، وفي سبيل بلورة شخصية الأمة وإنماء كيانها وتحقيق مصلحتها العليا يريد الحكم، آلة الإرادة القرمية ووسيلتها في الحياة.
ثم إن الجيل الجديد، وقد وعى شخصيته القومية، لا يجاهد باسم الشعب، بل هو الشعب الذي يجاهد، جيلاً جديداً ومدرسة في الجهاد جديدة. فالطبقة الحاكمة هي مجموعة أفراد أهلتهم مزاياهم وظروفهم الخاصة للقيادة السياسية فناضلوا او جاهدوا باسم الأمة والشعب، وقادوا الشعب في نضالهم وجهادهم، ولكنّهم لم يكونوا مرتبطين مع الشعب بوشائج المسؤولية، ولا شدّتهم إليه وشدّته إليهم شراكة في الحياة وفي المثل. لقد كانوا، أشبه ما يكونون، بشركة سياسية مغفلة منعزلة، قد تصيب في الرأي والعمل وقد تضل، لا يردعها رادع خارج عنها ولا يملي عليها تصرّفها غير حدسها وتقديرها. أما الجيل الجديد، فإنه يؤمن بالجهاز الشعبي أداة جهاد وبوتقة الأماني الشعبية، تتجسد فيه الإرادة القومية عقيدة ومنهجاً، وتنتظم فيه القوى الشعبيّة الواعية، جنوداً وقادة. وبديهي أن يستغني قادة الجيل الجديد عن الشارع وعن الغوغائية التي يصبغ بها الشارع كل سياسة تقوم على مسايرته. فالجيل الجديد، في إيمانه، لا يحتاج إلى استرضاء الجماهير لأنه منبثق منها، يعمل على إقرار السيادة القومية سيادة شعبية. شعبية في منشأ القيادة ومعدنها، ومن ثم في منشأ الحكم الذي يسترضيه أو يسترضي الجماهيريين منه، بل إلى الحاكم الذي يريد له الرقي والرغد. والجيل الجديد يرى أن في تحقيق العدالة الاجتماعية بتوزيع الثروة على أساس الإنتاج السبيل الوحيد للحكم الشعبي الصحيح.

يسوقنا ذلك إلى النقطة الثالثة والأخيرة التي يفترق عندها الجيل الجديد عن الجيل الحاكم، ألا وهي فلسفة الحكم. فالجيل الحاكم، كما قلنا، قصد من جهاده تحريرنا من سيادة المستعمر، فلمّا وصل الحكم وحقق الاستقلال، ظنّ أنه بلغ الهدف، وأن الحكم الوطني غاية بحد ذاته، فلم يطل به الأمد حتى فسدت بيده آلة الحكم لجهله ما يصنع بها، ولعدم توفّر فلسفة للدولة لديه يحكم بموجبها، ومن أجل الإيمان الذي ينبثق منه يسخّر الحكم وسيلة. أما الجيل الجديد فإنه إيجابي في إرادته، إيجابي في تفكيره، إيجابي في عمله. لقد خطا التاريخ بالجيل الجديد، وليس هو الجيل الجديد الذي خطا بنفسه، إلى ما بعد السلبيّة المجردة: إلى ما بعد إرادة التحرّر من المستعمر حاكماً، وإلى ما بعد فهم الحكم حكماً وطنياً وحسب، وإلى ما بعد العمل من أجل مجرّد الوصول إلى الحكم وممارسته. الجيل الجديد يريد من الحكم غاية تتعداه، ويفهم الحكم وسيلة لتنظيم المجتمع والتقدم بالانسان، ويعمل في الحكم لا من أجل الحفاظ على الحكم ولو وهمياً، بل من أجل جعل الحكم الوطني واجب الوجود، في نظر الشعب أولاً، وبالنسبة إلى النظام الدولي ذاته ثانياً، بحيث لا تقوى المصالح الاستعمارية على تقويضه.

هذه هي الظواهر الثلاث التي بها يتميّز الجيل الجديد وعندها يفترق عن الجيل الحاكم. وإذا قيل إن هذه الظواهر، بمجموعها، لا تكون قضيّة، ولا يصح اعتبارها رسالة، كان جوابنا أنها، على صعيد النزاع بين الجيلين، هي الحدّ الفاصل بين السلبية والإيجابية، وأنها، بالتالي، المرحلة الأولى التي لا بد منها من أجل تأمين انتقال السياسة والحياة العامة عندنا من الطور السلبي الذي كان طريقاً لغاية أولية تحققت، إلى الطّور الإيجابي الذي تتطلبه هذه الغاية، مجالاً لنموها واستحالتها ما هو بعدها وما هي طريق اليه. فالغاية الأولية هذه هي الاستقلال، على أن الاستقلال في عرفنا ليس كياناً له وجود إيجابي، إن هو إلا حالة سلبية بحدّ ذاتها، والجوهر الذي يجعل لها قيمتها الإيجابية هو الحريّة، متى فهمنا الحريّة على حقيقتها: يناعاً لشخصية الجماعة، ومدى حيوياً لتحقيق إمكانيات الأفراد.

بقي أن نتساءل: ما هي هذه الحرية ومن الذي يحقّقها، وكيف تتحقّق!

إن تحقيق هذه الحرية، وبالتالي بناء صرح حضارة هذه الأمة، ليس عمليّة اصطناعية تجري بالتجربة والاختبار، ولا هي مسألة سياسية وأشخاص. هذه الحريّة، سيحققها الذين ينتصرون في صراع الجماعات العقائدية التي بدأت، خلال صراعها على الحكم، تطمح لأن تحمل هذه الأمة رسالة ما تؤمن هي بها، وما تريده أساساً للحكم ومبرّراً لوجوده ومثالاً يهتدى به.

وعندنا أن المنتصر حتماً في هذا الصراع هو تلك الجماعة التي تنسجم عقيدتها مع منطق تاريخنا وتنبثق من واقعه، فتوفر الأسس الفضلى لمعالجة المشاكل التي خلّفها لنا الجيل المحتضر، وتتوفر فيها مقومات البقاء، وطاقة خلق تراث حي تستقي منه الامة، جيلاً بعد جيل، ومنه تستمد غذاءها وعليه تبني، فلا تشعر، كما شعر الجيل الذي سبقنا ونشعر نحن بواجب الثورة على ما قبل، وسيلة لا وسيلة سواها للتقدم، وطريقاً لا طريق سواه للحياة.

سيداتي، سادتي،
في هذا المعترك نحن... وأراني في موقف حكيم الاغريق سقراط عندما دعا إلى معرفة تبدأ، لكي تستقيم، بمعرفة الذات: من أنا، من نحن؟
في زحمة العقائد التي تتجاذبنا ساعية للسيطرة على العلم وتقرير مصير الانسان، لن يكون لنا نصيب في تقرير مصيرنا اذا لم نعرف من نحن وماذا نريد، واذا لم نستمدّ من وعينا لشخصيتنا القومية، ومن تراث امتنا، ارادة الحياة ومقومات العراك. عندئذ، وعندئذ فقط، يكون لنا الماضي وأمجاده ذخراً لبناء المستقبل، لا وزراً يثقل حمله على طريق الحياة الطويلة.
ولنا من تراثنا الحي، ومن نفسية امتنا المتجلية في هذا التراث، مقياس معرفة موقعنا في الصراع العالمي. ولنا من الدولة القومية الفضلى التي نريد ان نقيمها لهذه الامة، هيكلاً منوراً بالمثل، مجال تحضّرنا ونقطة انطلاقنا في رسالتنا. ولنا من هذه الدولة وحدها الحصن المنيع الذي لا تقدر حتميّة الارض على تقويضه، ولا يقوى الشرق ولا الغرب على اجتيازه جسراً من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق، بل هو الذي يقرر على ضوء مصالحه، وبوحي تركيبه وقوته، ان يقف مع الشرق أو مع الغرب.
واذا لم يكن لنا ان نقيم السّلم في العالم بنشر حضارتنا على الكون، فسيكون لنا ولا ريب، في سلم يفسح مجال التنوّع للحضارات القوية، موضع لحضارتنا اذا توافرت فيها القيم التي تضمن لها الصمود في صراع الحضارات... ثم ماذا يمنع ان نحمل، نحن، رسالة حضارتنا إلى العالم، وقد سبق لهذه الامة ان حضّرت العالم المعروف؟
نحن في المعترك من أجل أنفسنا، ومن أجل الانسان الذي نبني له مجداً في بلادنا... والمعترك هذا، يبدأ في نفس كل فرد منا، في عراكه مع نفسه ليتفوّق على نفسه من أجل ان تكون الامة، أن نكون، نحن، أنفسنا، ثم أن نكون أفضل ما نحن، وأفضل ما يمكن أن نكون...

أزمة الحكم بعد النكسة

محاضرة ألقيت في الجامعة الأميركية في بيروت (وست هول) بدعوة من «رابطة الطلاب اللبنانية»، كمطلع سلسلة عن قضية فلسطين ونتائجها بعد حرب 1967 نشرت في «ملف النهار» (الثاني) مع مقالات حول أحداث 5 حزيران/يونيو بعضها كان مراقباً فنشر في «النهار» مجتزأ، وبعضها منعت الرقابة نشره. 1967/11/1

«الكلمة الآن، في حل قضية فلسطين، للشعوب العربية. فاذا كانت الشعوب العربية حيّة، جادة في ما تقول، فعليها يقع وزر اخفاقها اذا اخفقت. كما أن شرف فوزها يعود اليها وحدها».

سيداتي، سادتي،
هذا الكلام ليس من اليوم ولا هو لي. استشهدت به في مطلع محاضرة ألقيتها ههنا في هذا المكان بالذات من سبع عشرة سنة.
كنا يومذاك نستخلص معنى النكبة، النكبة الاولى بالطبع، ولم نكن بعد قد اكتشفنا كلمة النكسة...
وكان الكلام الذي به استشهدت بشرى من الملك فيصل– الامير فيصل آل سعود آنذاك– أطلقها في تصريح أدلى به إلى الصحافيين.
وكان التبشير بدور الشعوب رائجاً في تلك الأيام رواجه اليوم.
ذلك ان الشعوب كانت تحلم بنهضة تستعيد لها حقوقها السليبة وترجعها إلى الوطن المحتل.
وكان الحكّام، ملوكاً وامراء ووزراء، يسايرون الشعوب في طموحها بل وثورتها عليهم.
مذذاك ماذا حدث؟
الأمير فيصل أصبح ملكاً.
والصحافيون الذين نقلوا تصريحه بعضهم مات وبعضهم قتل، وبعضهم كان يحاكم– كان يحاكم يوم حاضرت، أمام أسلافكم بالذات... وبعضهم دخل السجون، وبعضهم كذلك دخل مجلس النواب...
وكان أن قلب مجلس النواب في لبنان رئيس الجمهورية ليواجه رئيس الجمهورية الذي انتخب مكانه محاولة انقلاب في زي حرب أهلية.
وفي مصر قلب العسكريون الملك، ناهيك بانقلابات دمشق، التي كانت قد بدأت تتكرر، وبانقلابات العرق، والسودان، وحتى اليمن...

وبدا، أو بدأ يبدو أن فجر عهد الشعوب قد أشرق، تضيئه شمس الجيش: الجيش أداة الشعب، الجيش طليعة الثورة، الجيش مصنع الأبطال.
ذلك أننا كنا بحاجة إلى بطولات، حتى نشفى من آثار النكبة – ولم نكن بعد قد بلينا بآثار العدوان.
وهكذا نشأ الحكم الجديد، الذي يمكن علماء السياسة بينكم وصفه بالنظام البطولي، وقد أطلق على دولنا من بعده اسم المجتمع العسكري – أو العسكريتاريا، على وزن البروليتاريا. وهو مجتمع، أو نظام، أو حكم، ظل قائماً حتى كانت هزيمة حزيران/يونيو... وقيل انه لا يزال قائماً، رغم الهزيمة التي تخافرنا فسمّيناها نكسة! بل قيل إن في كونه لا يزال قائماً نصراً لنا، لأن غاية العدو كانت النظام، فاذا نحن حافظنا عليه، ولو في أزمة، نكون قد انتصرنا، ولو خسرنا، بانتظار النصر الآخر: ازالة آثار العدوان.

سيداتي، سادتي،
حسب هذه المقدمة عذراً لطابعها الشخصي انها من الصحافي، لا من المحاضر.
وقليلاً ما يعطى للجالس وراء طاولة التحرير أن يواجه قرّاءه من غير أن يكون بينه وبينهم ستار الجريدة، حتى اذا ما وقف محاضراً، ظن أنه على شيء من العري، ما لم يلبس خواطره رداء الاخبار. وهو شعور يتزايد اذا كان الصحافي مدعواً للمحاضرة حيث كان، قبل سنين، تلميذاً ثم معلماً، فيظن أنه في المركزين معاً، يحادث نفسه بما تعرفه، وتحبه نفسه.
فطموح ما سميّتموه محاضرة، يا أصدقائي، أن يكون حديثاً فيه كل شيء يقال اليوم، على انه من اليوم. ليس هو دراسة لاحداث تقادمت، فيصبح تجريدها، انما هو معاناة فكرية حيّة لمشاكل مصيرية كيانية، لا نزال نعيشها، ويعيشها الحكم الذي هو منّا ولنا –يعيشها لانه في أزمة.
فما هي اذاً هذه الأزمة، أزمة الحكم؟

سيداتي، سادتي،
من هذه الزاوية، يتراءى لنا أننا في أزمة حكم لتسربلنا بسبع خرافات هي مضمون الحكم المتأزم ومحتواه، فضلاً عن كونها علّة وجوده، ومن ثم، ولأنها خرافات، علّة أزمته:

أولاً: خرافة الجماهيرية
هي شعور الحكم، أو ظنه، أو توهّمه انه يستند إلى قاعدة شعبية حقيقية انبثق منها، يستوحيها العمل ويستلهمها الرأي، فيتفاعل معها ويعبّر عن ارادتها ويقيم سيادتها.
في حين أن الحكم عندنا حكم من فوق، يتوسّل الجماهير بعد حكمها، لا هو يصل بواسطتها، ولا هي تحكم بواسطته. هكذا كان الأمر عندما قامت حركاتنا التحرّرية الاولى

في القرن التاسع عشر، وهكذا كانت الثورة العربية الاولى، وهكذا كانت كل ثوراتنا، بل انقلاباتنا: حركات بورجوازيين واقطاعيين ومثقفين، ثم عسكريين، باسم الشعب قامت دائماً، ومن أجل الشعب في معظم الأحيان، ولمصلحة الشعب في بعض الأحيان، ولكنها، ولا مرة، انبثقت من الشعب أو أشركته بأكثر من التصفيق.

وقد افترضت هذه الحركات وجود تيارات شعبية كان عليها هي، في الواقع، أن توجدها وتبوتقها، أو على الأقل أن تتعهّدها وتجسّدها، فتوليها ساعة تتولى باسمها، بدل أن تنتهي إلى قمعها وتمزيقها.

ثم ان الشعب، الشعب الحقيقي، شعب الجماهير، شعب الطبقات الكادحة، شعب العدد، كان لا يزال غريباً عن الحياة السياسية بفعل اقصاء المستعمر له، حتى اذا ما قامت الأنظمة الاستقلالية ظلت السياسة بيد الطبقات التي مارستها أيام الاستعمار. ولما انتقل الحكم من أيدي هذه الطبقات كانت الخلافة من نصيب طبقة حاكمة جديدة هي طبقة العسكر ومدنيي العسكر.

ولم تتغير معاملة الحكم للشعب في ظل العسكريتاريا عما كانت عليه في ظل الحكم الاقطاعي، جمهورياً أكان أم ملكياً. فبدل أن تدعى الأحزاب–الأحزاب الحقيقية الناشئة طبيعياً من نضال طويل –إلى لعب دور ايجابي، كان الحكم يصطنع أحزاباً جديدة تؤسس من فوق، حتى اذا تعذر عليه ذلك عمد إلى التستّر بأحزاب قائمة أوهمها أنها هي الحاكمة، في حين لم تكن في يدها أية مقاليد ولا كان لها سند الا القوة –قوة السلطة التي لم تكن منها، ولا كانت لها.

هذا عن الأحزاب، وكذلك عن النقابات، وعن الصحافة، وكذلك عن كل مؤسسة من مؤسسات الشعب والرأي العام.

ثم هكذا، أخيراً، عن المجموعة الشعبية، أي عن الجماهير: كانت تثار بدل أن تستشار، يقال لها ولا تقول، يصدّقون عنها حتى ساعة لا تصدّق.

من هنا فقدان الحوار الحقيقي الصميم بين الحاكم والشعب: حوار المصارحة والمكاشفة والاعلام الحقيقي. وقد قام مقامه حوار من نوع غريب: الحاكم يقول للشعب ما يطيب للشعب أن يسمع، فيهتف الشعب للحاكم. ويكون هذا الذي يقال هو ما يريد الحاكم سماعه، مما لا يعنيه ولا هو يصوّر حقيقة فكره ولا حقيقة الواقع، بحيث تنقلب الجماهير مرآة للحاكم في تصنّعه، اذا فرح أو تظاهر بالفرح فرحت معه، واذا بكى أو تظاهر بالبكاء كانت هي كذلك باكية. اذا قال أبيض قالت له أبيض، واذا قال أسود رددّت معه أسود أسود.

هذا الحوار الغريب يحتاج إلى مهارة فائقة من الحاكم، فضلاً عن جو ارهاب نفسي وتكييف عقلي لا يقدر عليه الا الأقوياء من الزعماء... لكنهم في النهاية يدفعون ثمناً لمهارتهم بنسبة الشأو الذي يبلغون.

فضلاً عن أن هذا الحوار يفترض تعطيلاً كلياً للحرية ولو باسمها، ومن غير ان تتعطل

مظاهرها، بل على العكس يتوسل الحوار مظاهر الحريّة ليخنق جوهرها: يتوسّل الصحافة ولكن لنشر الأخبار الكاذبة وحجب الأخبار الحقيقية، ويتوسل الاذاعة والكتاب، والسينما والتلفزيون، ولكن للتأثير على العقل والنفس، بدل التهذيب والتسلية والتثقيف، ويتوسل الاجتماعات الشعبية ولكن للتهويل بالشعب، والتهويل عليه بنفسه، بدل تربيته وتعبئته.
وبنتيجة هذا الحوار، يتحول الرأي العام إلى آلة مخيفة خائفة، لا وعي لها ولا شعور، تزول فيها ارادة الأفراد بنسبة ما تذاب عقولهم، بحيث يصبح طلب الاقتناع محالاً، والشك جريمة واحتيالاً، ومحاولة المناقشة خيانة وعمالة. كأنما حريّة الجماهير رهن بعبودية الأفراد، أو كأنما الشعب الحر يمكن أن يتألف من مجموعة عبيد.
أفنستغرب والحالة هذه ألا يجد الحكم شعباً وراءه ساعة يدعو الشعب؟
ترى، هل كان الشعب الروسي، مثلاً، يهب لتحرير ستالينغراد، لو كان ستالين يقول له إنّ العدو لا يحتلّها؟
وهل كان في وسع ديغول أن يقيم فرنسا على المانيا، لو كان الفرنسيون الذين اجتمعوا حوله مجموعة أسرى تساق كالسائمة أو كالنعاج؟
وهل كان البريطانيون يصمدون صمودهم التاريخي لقال لهم تشرشل إن الحرب نزهة، بدل أن يعدهم بالدموع والعرق والدماء؟
أزمة الحكم الجماهيري أنه، وهو هيّن في مطلعه وفي عزه، صعب الممارسة في الساعات الحاسمات.
فهو اذا احتاج الشعب وجد الجماهير.
اذا دعا البنائين وجد المصفقين الذين درّب.
اذا دعا العلم وجد الجهل الذي تعهّد.
اذا دعا القوة وجد ضعفاء النفوس الذين ربى...
اذا دعا العقل لم يجد الا آلة التصديق التي غرّر بها وغرّرت به، ولا فكر...

ثانياً: خرافة القومية

وهي القول بأن ثمة ما يستعاض به الشعب الحقيقي، هو القومية. أي أن يخلق الحكم كائناً جديداً يزعمه حياً، يكيّفه على رأيه، يكلمه بلغته، ويعطيه ارادة من ارادته.
والقومية، في الأصل، شيء تاريخي موجود، ولو كان العصر الذي نعيش يتخطاها في مجالات عديدة، ليس أقلها شأناً الانطلاق نحو الفضاء، ونشوء العوالم الكوزمية.
غير أن القومية شيء، وخرافة القومية شيء آخر.
القومية رابطة جامعة، تتخطى الفوارق الطبقية والمذهبية والعقائدية بل والعنصرية لتشد الأمة إلى بعضها في وحدة حياتية متماسكة متضامنة.
أما خرافة القومية، فقد قلبت المعيار عندما استخلص الحكم لها من الأمة فرقة، فغدت

عنصر تحزّب وتحزيب، تميّز المواطن عن المواطن وكأنها ليست من طبيعته ولا هي صفة ملازمة لذاته وجزء من شخصيته وانسانيته.
ثم ان الحكم أكسب خرافة القومية مقاييس خاصة وسلّحها بأدوات تقييم وسلالم للقيم، فمضت، أو مضى الحكم باسمها، يرتب الناس مراتب ويوزعهم فئات: هؤلاء قوميون مخلصون، وأولئك خونة مارقون، هنا من تحبهم القومية، وهناك الغرباء العملاء، في هذا الصف يقف العقلاء، وفي الصف الثاني المتفهمون، وفي الثالث الممكنون، وهنالك الأغبياء أعداء القومية...
كأنما الانسان يمكن أن يكون عدو نفسه.
أو كأنما يشرّف الأمة أن يكثر فيها الخونة.
أو كأنما يرضيها اخراج بعضها منها، وخروجهم عليها.
أو كأنما الحكم هو الأمة: من كان له كان منها، ومن عارضه خرج عليها.
وهكذا، بدل أن تكون القومية مصدر قوة للأمة في السلم والحرب، اذا بها تبتر الأمة في السلم، وفي الحرب تحقّق الاعجوبة الوقحة: أن يحتكر بعض الأمة شرف النضال من أجلها إلى حدّ يجن معه البعض الآخر، فيظن أن الهزيمة ليست هزيمته لأن النصر ما كان ليكون انتصاره.
اذذاك، تكون خرافة القومية قد قضت على القومية الحقيقية في أعمق صعود، فتلتقي بالعقائد والمواقف التي تهدف إلى الغاء القوميات وتعطيل الولاء القومي لتحل محله عصبيات منافسة، طبقية كانت، أو مذهبية، أو عنصرية.
وتكون أزمة الحكم ههنا في أنه يفرغ من محتواه القومي من غير أن يكون قد تجوهر بأية عقيدة بديلة.

ثالثاً: خرافة التحرريّة

وهي شعورنا الدائم بأننا أبداً في معركة مع مستعبد نريد التحرّر منه، حتى اذا زال المستعبد، شعرنا بأن شيئاً منا قد انتزع منا، وبأننا أصبحنا نلعب لعبة ناقصة أو نمثل رواية سرقوا لنا منها أحد الممثلين، فندور في فراغ حلقة سرعان ما تغدو مفرغة.
وكيلا يفرغ الحكم من الخرافة، كثيراً ما نعمد إلى خلق أعداء جدد ومعتدين، من فرط حاجتنا أبداً إلى الاضداد حتى نتميز شخصيتنا ونثبت وجودنا. وخرافة التحرير هذه ورثناها من جهاد حقيقي في القرن التاسع عشر، وعشناها حقيقة واقعة عبر حربين في القرن العشرين، أيام كنا لا نزال أجزاء مستعمرة من امبراطوريات زائلة، فكانت السياسة، وكانت الوطنية، نضالاً ضد المستعمرين الواحد تلو الآخر، وكان الآخرون يعينوننا على الأولين، في زي شركاء في التحرير، بل محرّرين، حتى اذا ما زال الاولون حل الآخرون محلهم، فمضينا نفتّش عن حلفاء عليهم يحرّروننا منهم...

ذلك أننا لم نفهم الاستعمار، ولا فهمنا التحرير، وبالكاد عرفنا الحرية. مع أن اللغة العربية أفصح من لغات الغرب في وصف هذه الظاهرة التاريخية لأنها تردّها إلى أصلها: العمران، بحيث يكون الاستعمار تعمير ما لا يعمّر نفسه. ويكون زواله بالتالي مشروطاً بالتعمير الذاتي –أي بالطاقة على الحلول محل المستعمر في ما يجيء باسمه، أو بسببه، أو من أجله. هكذا يكون التحرير الحقيقي بناء للمجتمع وانماء لموارده وبلورة لقواه وتنظيماً لدولته، على نحو يحصّنه ضد الاستعمار ولو لم يحصّنه ضد الاحتلال.

فالاحتلال شيء، والاستعمار شيء آخر. فألمانيا احتلت فرنسا ولم تستعمرها، وفرنسا تحتل المانيا ولم تستعمرها، ولكن نصف افريقيا على الأقل زالت منه معالم الاحتلال ولا يزال مستعمراً. جلت الجيوش من الباب لتدخل من الشباك في زي خبراء وشركات وأسلحة وأعتدة ورساميل، ناهيك بجيوش المرتزقة.

والعمران، في اللغة العربية، مرتبط بالمدنية، ألمن المدينة، أو بالحاضرة، ومنها الحضارة، مما يحلّل، منطقياً، قول القائلين إنّ الحرب ضد الاستعمار هي بالتحضير والتمدين وإنّ المعركة الحقيقية ليست سلبية، في سبيل جلاء، بل ايجابية، في سبيل بناء.

والحقيقة أن الاستعمار، بمجرد ما يعمر، يحفر قبره ويهيىء للتحرّر منه. تلك كانت ظاهرة النصف الاول من القرن العشرين. غير أن ظاهرة النصف الثاني من القرن هي ان جلاء المستعمرين يخلّف فراغاً ان لم يملأه المجتمع المتحرّر بحكم ايجابي، عاد القهقرى، وازداد تخلفاً، وهيأ نفسه بنفسه لاستعمار جديد، كائناً ما كان اسمه والشكل والمبنى.

ويكون ذلك وجه المأساة الأشنع في أزمة الحكم.

رابعاً: خرافة الاشتراكية

هي أكثر الخرافات تشعباً وتعقيداً لاتصالها بعقدة الثروة: بين حكم يظن ان موارده الطبيعية ثروة لا تفنى، وأن وجودها قوة لا ترد، وأنها تكسبه حقوقاً وسطوة... وحكم يظن أن الدولة سيدة الثروة، اذا قالت لها كوني كانت، واذا قالت لها توزّعي، توزّعت... والحكمان يجتمعان على الظن أن المال مصدر كل شيء حي، لان به يشرى كل شيء: هذا لان المال عنده، وذاك لأنه يشتهيه.

والحقيقة أن الثروة قليلها المال الخام، والاكثر هو «الاستنتاج»، أي صناعة الثروة بانتاجها، أي عملها، أي خلقها في شكلها الحقيقي الخيّر النافع.

من هنا علل الحكم الناجمة عن موقفه الغلط من الثروة: سوء توزيع الخيرات حيث توجد، فيستمر احتكار للمال لم تفلح بعد في كسره التشريعات الاجتماعية والأنظمة الضريبية، ولا استتبع المال الوفير توزيعاً للثروة على أساس الانتاج، بحيث تقوم طبقات جديدة قادرة على فرض العدالة الاجتماعية فرضاً.

ثم سوء استعمال الثروة حيث توجد، كذلك. بمعنى الانفاق على المشاريع غير المنتجة

وعدم استخدام الدخل القومي في تجهيز اقتصادي يؤمن مزيداً من التشغيل، فمزيداً من الدخل، على نحو لا تبقى معه الثروة تحت رحمة مورد واحد ومسترهنة لطبقة واحدة.
أما حيث لا ثروة، فقد عمد الحكم، في سبيل رفع مستوى المعدمين، إلى تحطيم الثروات الفردية، فغدت الاشتراكية شراكة في الفقر بل والتخلّف، بدل أن تكون مشاركة في إقامة الازدهار وخلق الثروة. كأنما الجائع يشبع بمجرد افقار الأغنياء، أو كأنما ملكية اللاشيء أفضل من لا ملكية الشيء.
وقد تكون العلّة هنا في كون أنظمتنا الاشتراكية قد لجأت اليها الحكومات بعد وصولها إلى الحكم، بدل أن ينشأ الحكم من حركات اجتماعية أصلية كانت تدين بالاشتراكية في المعارضة، فمارستها نضالاً شعبياً يهيىء الحاكم العتيد ويصقل تفكيره ويبلور برامجه.
ثم إن حكومتنا الاشتراكية جعلت من المذهب الاقتصادي شعارات جماهيرية حلّت محل البرامج العلمية، ففقد العمل الاشتراكي مسؤوليته فكرياً وادارياً على حد سواء، وغدت الثروة المؤممة بمثابة المال السايب، اللا صاحب له، وذلك بسبب ضعف النفسية الاجتماعية وعجز الأجهزة الحكومية.
يضاف إلى ذلك كله اننا لعدم أصالة حكومتنا الاشتراكية عقائدياً وتاريخياً، كنا نقتبس النظريات بمعزل عن اطاراتها الزمنية والمكانية، فجئناها وجئنا بها متأخرين نصف قرن، لندخل فريقاً ثالثاً في نزاع تخطّاه المتنازعون، نحارب أنظمة أزيلت باسم أنظمة تزيل نفسها.
وكان الأمر يهون لو كانت الثروة حكاية مذاهب وأنظمة وشعارات. ولكن الثروة حكاية خبز وماء ولحم، فضلاً عن الآلة والمدرسة والمستشفى وضرورات الحياة السعيدة المتقدمة. فماذا حدث؟
جعلنا من تأمين ضرورات الحياة حقول اختبار وسلعاً سياسية، فكنّا نساوم، تارة من أجلها وطوراً بها، وفي كل الأحوال كنا نجازف باللقمة والعمل والمستقبل في سبيل السرابات.

خامساً: خرافة الثورية

هي الشعور المستمر بأن الحكم لا يستقر، أي انه يجب أن يظل في حركة دائمة، في ثورة على شيء ما. كأنما الثورة هي غاية بحد ذاتها، بدل أن تكون ما هي في الأصل: وسيلة وسبيلاً – سبيلاً لتغيير أوضاع أصبحت بالية، ووسيلة لإقامة أوضاع جديدة.
ومع أننا لا ننفرد في عالم اليوم بنظرية الثورة المستمرة، الا أن كون ثوراتنا قد انطلقت من انقلابات عسكرية لا يحلل لها استمرار التبشيرية الثورية في الحكم، كما هي الحال في كوبا مثلاً أو حتى في الصين.
فضلاً عن ان الثورة المستمرة، وكأن أول نماذجها التاريخية الثورة الفرنسية في أول أيامها، اذا لم تنته إلى الاستقرار، انتهى بها الأمر حتماً إلى الدكتاتورية المطلقة، كما كانت الحال مع نابوليون، أي مع نقيض الثورة بالذات، ينطلق منها ليهدمها باسمها.

يضاف إلى ذلك أن الثورية الحقيقية هي وليدة اجتماع أمرين: الحاجة الاقتصادية والنظرية الاجتماعية. فلا النظرية الاجتماعية، حيث لا حاجة، تؤدي إلى الثورة، ولا الحاجة وحدها تمكن الشعب من الثورة، حيث لا نظرية يؤمن بها فتحركه وتقوده. واجتماع الامرين يجب أن يتم قبل تولي الثوريين الحكم، أي عند ثورتهم، بحيث تفسد كل ثورة لا تنبع في الأصل من وحدة الحاجة والنظرية. وتتوقف الثورة عند نجاحها، أي عند تولّيها الحكم، أي عند مباشرتها تلبية الحاجة التي منها نشأت، وتطبيق النظرية التي بها تغذّت.
واستمرار الثورة، أو بالاحرى المظاهر الثورية، بعد الحكم، معناه عجز مستمر عن تلبية الحاجة وتطبيق النظرية. وسببه أحد أمرين: إما ان الثورة ليست هي الحاكم فعلاً، أي انها فشلت، أو ان الثورة لا تزال تبحث عن نفسها، أي أنها كانت ناقصة، حتى لا نقول مغلوطة. وفي كلتا الحالتين تهيىء الثورة الهذا شأنها لثورة مضادة.

سادساً: خرافة النظام

وهي امتداد لخرافة الثورة، لانها وليدة ظن الحكم انه أصبح أهم من المحكوم، أي انه اصبح أكبر من موضوعه، وأعظم من مثاله وأعز من غايته... أي انه أصبح أهم وأكبر وأعظم وأعز من الشعب والوطن، من المواطنين والأرض والبيت والخبز والماء والحريّة والحياة.
والحقيقة ان النظام هو لا شيء، متى فهم كهيكل فارغ مجرد.
النظام هو خادم الشعب، خادم الأرض، خادم الوطن، خادم الناس، خادم اللقمة والحريّة...
النظام لا وجود له بدون الشعب والوطن، حياته من حياة الأمّة، فان سئمت الأمة تساءم النظام، وان هي عاشت انتعش.
تغذية بقدر ما يحييها، وتبقيه بقدر ما يحافظ عليها. اذا انتكست فقد مبرّر وجوده، واذا انتصرت تعزز وترسّخ.
من هنا ان جعل النظام غاية بحد ذاته هو تجديف على الأمّة والتاريخ، ومن هنا ان اعتباره هدف العدو هو احتقار لآلام الشعب واحلامه، للبيت، للأرض، للقمة العيش، للعمل، للعرق، للبكاء، للدماء. فالنظام لا يبكي، ولا يتألم، لا قلب له ولا عقل: هو آلة الناس وليس سيدهم، فكيف يمكن أن يوضع في الميزان قبالة حياة من غير أن تختار الناس الحياة وتحطّم النظام، ولا تموت؟
ثم إن تعلّق الحكام بالنظام كمثل تعلّق الأطفال بالدمى، يحسبون أنها في محل ما ترمز اليه. والحقيقة انها صورة للحياة، ليست الحياة. فهل يعقل أن نطلب من الشعب أن يضحي بالواقع من أجل الصورة، بالجوهر من أجل المظهر، بالحياة من اجل الدمى؟
وأنظمة الحكم بطبيعتها زائلة، ليست سرمدية. حتى تلك التي كانت تدعي استمداد شرعيتها من الألوهة، كادت تودي بسرمدية الألوهة عندما عاندت نواميس الحياة.
أنظمة الحكم تتغيّر بتغيّر الظروف والأمكنة والأزمنة. أفيعقل أن تعمّر أطول من الحروب؟

حتى عند النصر، تبدل الشعوب أنظمتها، لانها تعتبر أن حاجاتها وقضاياها بعد النصر غيرها قبله، فكيف عند الهزيمة، أو قل النكسة؟
منذ روما القديمة، بل قبلها، كان العسكريون اذا انتصروا يحتلون الحكم من فرط انتشائهم، واذا انهزموا يحتلونه كذلك ليحمّلوا سواهم مسؤولية الهزيمة. فالحرب تغتصب الشعب، تمزق احشاءه، تعذب عقله.
لا شيء بعد الحرب مثله قبلها، سواء انتهت بنصر أو بنكسة!
تلك هي مأساة التاريخ. ان صفحاته تبدأ بحروب وتنتهي بحروب، فليس كالحرب تطوي صفحة، ولا تبدأ صفحة الا بحرب.

سابعاً: خرافة التاريخية
وهي آخر الخرافات التي توزم الحكم العربي. فالعرب يعاملون التاريخ تارة وكأنه غير موجود، وطوراً كأن بينهم وبينه شراكة بل تواطؤاً.
يطلبون من التاريخ اكثر مما يعطون، ويظنون أنه لهم ولو كانوا هم عليه، وانه لا يمكن أن يكون مرة لسواهم، مهما كان لسواهم عنده.
والتاريخ هو ان يؤخذ جدياً: أي أن ينتظر منه بقدر ما يعطى له. والتاريخ ان يؤمن الناس بأن الشيء الوحيد المحتوم هو أن تجيء النتائج بنسبة الأسباب: لا شيء من لا شيء، وكل شيء من الشيء الذي يسببه.
فالتاريخ ليس فيه أعاجيب ولا عجائب، بالكاد فيه صدف.
وككل تاريخ آخر، ليس في تاريخ الحرب والسلم شيء من القدر: ليس فيه نكبات من الله، ولا فيه تجارب من الشيطان. فيه للدول ما تهيىء لنفسها، فإن هي هيأت للنصر انتصرت، وان هي لم تحسن التهيئة انكسرت.
والحكم أن تحسن التهيئة.
ليس في التاريخ عدل ولا ظلم، وليس للأمم على التاريخ حقوق، والحق ليس أبداً منتصراً، لا في النهاية ولا في البداية، اذا لم ينصره أهله، فيكتبون هم التاريخ ولا يكون لهم مكتوباً.
ثم ان التاريخ لا يرحم، ولا يغفر، لا هو يهب ولا هو يعوّض ولا هو يأخذ ممن لا يريد أن يعطي ولا ممن يقدر على الحفاظ على ما عنده.
والحكم الصالح هو الذي يعرف كيف يعامل التاريخ فلا يعرّض نفسه، لا يجازف بما عنده، لا يطلب اكثر مما في وسعه أن يأخذ، ولا ينتظر من أحد الا ما يقدر على طلبه ونيله.
وأزمة الحكم اللاتاريخي، بل مأساته، في أن يضع نفسه دائماً في موضع الطالب من الغير، المحمّل الغير مسؤولية أفعاله هو، كأنما فوق سيادته سيادة لسواه: فسواه يعطي ويأخذ، ينصر ويهزم، يبني ويخرّب، يفقر ويغني، يحيي ويميت. والحقيقة ان ليس من أمة تجد نفسها وحدها في التاريخ، ولا التاريخ لأمة دون سواها. فاذا حاربت فيجب أن تنتظر

الحرب وان تحسب للنصر وللهزيمة حساباً سوياً. وحتى عندما تسالم الأمة يجب أن تحسب حساب حرب سواها عليها. ومحك النجاح أن يكون حساب الحكم ناجحاً، فينال ما كان منتظراً، ولا يعرّض الشعب لما لا يستحق أو لما لا طاقة له على احتماله.

سيداتي، سادتي،
الجماهير، القومية، التحرّرية، الاشتراكية، الثورة، النظام، التاريخ... سبع خرافات عاش بها الحكم في العالم العربي بين نكبة ونكبة أو هزيمة وهزيمة، أو بين نكسة ونكسة.
عاش بها فعاش في أزمة بلغت الآن ذروتها.
هذه الخرافات هي أزمة الحكم: هي السبب والمظهر في آن معاً.
وكان في وسعنا أن نزيد خرافة ثامنة لو لم تكن مستحدثة، هي خرافة المسؤولية، المسماة بالنقد الذاتي، أروج الخرافات اليوم، ولعلها اكثرها ممارسة. فكأننا بالحكام يعتبرون نقد ذواتهم بمثابة التبرئة، حسبهم تحميل أنفسهم مسؤولية ما فعلوا حتى تزول هذه المسؤولية وكأنها لم تكن.
نعم، ان الحكم كان مسؤولاً، لانه في الحقيقة لم يكن مسؤولاً...
الحكم كان مسؤولاً عن النكسة لانه حكم بغير مسؤولية، فكان حكم خرافات لا حكم الأمة...
كان حكم الجماهير بدل أن يكون حكم الشعب، وكان حكم القوميين بدل أن يكون حكم الأمّة...
جعل التحرير يضطهد الأحرار ويقهر الحريّة.
وكانت اشتراكيته افقاراً بدل أن تكون توزيعاً للثروة واشتراكاً في الازدهار.
وكانت الثورية مبرّراً للانقلابات وصفة لها، بدل أن تكون حكماً ثورياً، فصار نظام الحكم هيكلاً مجرداً، لا روح فيه ولا حياة.
وهكذا وضعنا أنفسنا أو كدنا خارج التاريخ، فكأننا موضوع سياسة وموضوع حرب، بدل أن نكون عنصراً فاعلاً في الحرب والسلم.
وذهب بالحكم وبنا خروجنا من التاريخ إلى حد الظن أننا شيئان متميزان مختلفان: أرض وموارد وخيرات، من جهة، وشعوب تائهة من الجهة الاخرى...
فكأنما وجودنا على أرضنا كان وليد صدفة، أو كأنما في وسعنا أن نعيش بدون أرضنا، نحمل بيوتنا إلى حيث نذهب، فيكون وطننا حيث نقيم لا حيث ولدنا ويجب أن نموت...
بل واكثر: خرجنا من التاريخ، من المدنية والحضارة، إلى حد كفرنا بالمدائن: فنحن منتصرون ما دمنا أحياء، لا هزيمة نعرفها سوى الموت، كأنما أرضنا، كالموارد والخيرات، وكالحقوق والحريّات، وكالمصائب والملمّات، دائماً من سوانا: من الله حيناً، ومن الناس، أعداء وأصدقاء، أحياناً...

وفي ذلك كلّه ذروة اللامسؤولية، لأن الحكم يصبح استسلاماً، فلا يصلح للسلم كما لم يصلح للحرب، ولا يصلح للثأر كما لم يصلح للبناء.

سيداتي، سادتي،
اذا كانت هذه أزمة الحكم، فما هو الحل؟
كثيرون وصفوا الحلول، وكثيرون سيصفون حلولاً جديدة.
قالوا ان علينا أن نبني دولة معرفة ولو على أنقاض دول الجهل، لان العدو انتصر علينا بتفوقه العلمي.
وقالوا ان علينا أن نبني جمهورية مدنية، لأن العسكريين الذين انقلبوا على المدنيين بحجة تفشيلهم في حرب 1948 قد بزوا الحكم المدني فشلاً، في السلم والحرب على حد سواء، فوجبت اعادة الأمور إلى نصابها، والجيوش إلى مراكزها، والحكم إلى اهله.
وقالوا ان علينا أن نختار أصدقاءنا وحلفاءنا فلا نظل في الحياد تائهين، سياستنا مجموعة سوء تفاهمات، نبني على الالتباس ونهدم بمجرد الوهم، نقول دائماً قولين ونتحدث بلسانين.
ثم قالوا ان علينا أن نستمر في الحرب وأن نمعن فيها حتى النهاية، نحوّلها إلى حرب شعبية، تأكل الأخضر واليابس وتستمر ما استمررنا، حتى يزول كل شيء أو يعود كل شيء.
وقالوا اخيراً ان علينا أن نتّعظ بما حل بنا فنعود إلى 1948 أو 1952 لننطلق من جديد، في الخط الذي كان آنذاك مرسوماً، وبمثل الحكام الذين كانوا آنذاك.
كل هذه الأقوال صحيحة، وكلها خاطئة.
فيها كل شيء، ولا تعني شيئاً.
ذلك ان التاريخ لا يعود إلى وراء، وما حدث قد حدث، لا يمكن تفكيكه لمباشرته من جديد.
لا. نحن الآن عام 1967، كبرنا عشرين سنة منذ النكبة الاولى، والنكبة الثانية قد فعلت فعلها.
ثم ان التاريخ ليس مختبراً، والانسان ليس إلهاً كيميائياً، اذا فشل في تركيب ما يريد، أعاد الكرة مرة ومرتين وثلاثاً حتى يخلق المركّب الصحيح.
كل ما حدث في لبنان والعالم العربي خلال العشرين سنة يجب أن نقبله ونسلّم به ونتبناه ونحبه، لأنه قطعة من حياتنا، ليس في وسعنا أن نرفضها ولا أن نتبرأ منها، ولا أن نهرب من نتائجها. فضلاً عن أن أخطاءها وأزماتها لا تبطل المنجزات ولا تحجب الضرورات التي جعلتها أن تكون.
فالخطأ كل الخطأ في تفكيرنا أن نعتبر اننا دائماً أمام أمرين لا ثالث لهما: ما نحن عليه، وما كنا عليه.
لا... الذي كنا عليه قد مضى، وما دام قد مضى فمعنى ذلك انه لم يكن يستحق الاستمرار.
والذي جاء بعده، ونحن عليه اليوم، كان لا بد أن يجيء ما دام قد جاء فليس يجدي التنكر له، بل الحاجة هي إلى اصلاحه حتى يصبح ما يجب أن يكون.

بل وأكثر، الخطأ كل الخطأ في أن نظن أننا أمام الاختيار بين الحاضر المتأزم والماضي الذي لا يزال حاضراً.
فاذا كان حكم الجماهير قد فشل، فلا يعني ذلك ان حكم الملوك والامراء كان يكون أفضل، وانه سيكون أفضل.
واذا كان حكم الثورة قد فشل وفشلت الاشتراكية، فليس يعني ذلك ان الاقطاعية أو الرأسمالية هي الأفضل وان الرجعية هي السبيل.
ان الحكم محكوم عليه أن يتقدم، فاذا تقدم في غير طريق الحق، فتصحيح الطريق وتقويم الاعوجاج ليس ولا يمكن أن يكون بالرجوع إلى وراء، إلى حيث بدأنا، نبدأ من جديد.

سيداتي، سادتي،
في مطلع هذه السلسلة من المحاضرات، المخصصة، قيل، لاستخلاص أسباب النكسة وعبرها، يجب أن نتفهّم بقدر ما نحاسب، وان نفهم بقدر ما نقسو.
أعرف ان حديثي اليكم الليلة كان حديث حساب، وقاسياً، اكثر منه محاضرة تعين على الفهم.
يبقى التفهم.
مدخلنا اليه، وعبره إلى الاتعاظ بما حدث، أن ندرك ونتذكر انها كانت أول حرب خضناها كدول سيدة مستقلة، وانها أول حرب نخسرها هكذا، وليس في ماضينا اننا خسرنا مرة حرباً وظلّت الدولة عندنا دولة.
قبل اليوم، حاربنا كثيراً، في تاريخنا الحديث والقديم.
ولكن حروبنا كانت حروب شعوب، بل حروب قبائل، ناهيك بالحروب لحساب سوانا.
والذين لم يتعوّدوا الحرب لا يعرفون معنى الهزيمة، كما لا يعرفون معنى النصر...
فالنصر كان بما يحرزون منه، واما الهزائم، فاذا هانت وجدوا فيها نصراً ما، ولو كان سلبياً... واذا ثقلت، حسبوها مصيبة من المصائب، ولا قهر، ولا عار.
وقد كانت حروبنا الفلسطينية منذ 1916، أشبه بالغزوات، ولا أسلاب ولا مغانم. ومع كل ذلك، قيل ان الحكام هم الذين فشلوا، وجاء دور الشعوب.
لان الحكام كانوا يتصرفون كامراء – والشعوب رعايا – فكيف كان يمكن أن ينجحوا وينتصروا؟
الذي جاء دوره الآن هو الحكم المسؤول، حكم الشعب المسؤول أمام الشعب والتاريخ.
والحرب المقبلة، إما أن تكون حرب دولة الشعب، أو لا تكون لنا حرب، ولا دولة، ولا نكون شعوباً تستحق الارض والحياة، والحرية والنصر.

الحُكم العربي قبل النكسة وبعدها

محاضرة ألقيت بدعوة من «جمعية الخريجين الجامعيين» (جامعة الكويت) في قاعة الاحتفالات الكبرى في فندق هيلتون. وقد تلت المحاضرة مناقشة بحضور عدد من الوزراء والسفراء وأساتذة الجامعة.
نشرت في جريدة «النهار» والصحف الكويتية.
1970/2/2

ايها السادة،
كلما وقفت محاضراً او محدثاً إلى الناس، تساءلت عمن تراه يكون الاكثر شجاعة، والاكثر افادة من اللقاء:
الصحافي الذي يخرج من خلف حصون الاوراق المحبّرة، ام الجمهور الذي يسقط اقنعة القراءة لتصبح له وجوه معروفة واسماء واصوات؟...
ذلك ان ما بين الصحافي والقارئ من اعجب الامور واطرفها: علاقة حميمة اجمل ما فيها انها حوار بين مجهولين، عبر حروف تعبّر عن الافكار والاخبار، وتعبر البحار والاقطار، والامصار كذلك.
الصحافي يظنّ أن قارئه انسان واحد فرد، يعرفه، يجالسه إلى طاولته صباحاً ومساءً، يحاكيه، يسأله، يجيبه، يستقرئه ويكتب عنه وله... عندما تُخرج الآلة هذه الآلاف من الاوراق المطبوعة، يعجب الصحافي كيف يستحيل قارئه الواحد نسخاً نسخاً، يجنّ به، ويظن الناس كلها قد اصبحت، بالفعل، نسخاً عن بعضها البعض، او بالاحرى نسخاً عن هذا الذي يناجيه، لها كلّها عقله وقلبه بل وعيونه والسمات.
والقراء كذلك – وكدت اقول القارئ – يظنّون الصحافي شيئاً غريباً، فيه من الوحش ومن الآلة في آن معاً. انسان من ورق، دمه من الحبر، مفروض فيه ان يعرف كل شيء، ما يعرف وما لا يعرف على حد سواء، ومنتظر منه ان يقول كل شيء، ما يقال وما لا يقال، على حدٍ سواء كذلك...
واغرب ما في الحوار الذي بين الصحافي والقارئ انه قائم على سوء تفاهم مستمّر. فاذا طلب القارئ من الصحافي رأياً يتوجه به، وجد الصحافي عنده ما يلائم عقله هو ويطيب لوجدانه.
ويستمر مع سوء الفهم ادمان الصحافي على القارئ وادمان القارئ على الصحافي، يفتّش عن رأي يدعوه إلى الاخذ به، وجده متمرّداً على هذا الرأي يطلب ان يرى من الصحافي، فتمتزج المحبة بالحقد، كما في القلب الواحد، وتختلط الثقة بالنقمة، كما في العقل الواحد، بحيث لا يعود الصحافي يعرف اذا كان قارئه سواه، ويصبح القارئ يظن انه هو الصحافي لو كان يكتب.

ايها السادة،
اراني اطلت الحديث عن الصحافي، وموضوعنا الحكم لا الصحافة... حسبي عذراً اني امامكم امزّق ستائر الورق التي كانت بيننا، كالمليحة التي تسقط حجابها للمرة الاولى، فتشعر بأنها ملزمة باعطاء الأمامها الف تفسير وتبرير.
ثم اراني نسيت اننا في جامعة.
والجامعات، عندنا وفي العالم كله، تجتاز اليوم، كالحكم، وكالصحافة، ازمة بل ازمات.
وقد يكون من المفيد ان نتذكّر، وسط هذه الازمات، ان مؤسسة المعرفة الاولى، التي تنتسب اليها هذه الجامعة وكل جامعة اخرى، قد نقش على مدخلها الشعار الآتي: «لا يدخل هذا الباب من لم يتعلّم الحساب».
كان ذلك من خمسة وعشرين قرناً تقريباً، على شاطىء بينه وبين الشاطىء اللبناني والشاطىء الكويتي روابط حضارية لا يُفهم تاريخنا بدونها.
وكان اسم مؤسسة المعرفة تلك «الاكاديمية»، ومؤسسها الفيلسوف الاغريقي المعلم الكبير افلاطون الذي دمغ العقل بطابعه، وكان له من الفكر العربي بنوع خاص آثاره التي تعرفون.

ايها السادة،
«لا يدخل هذا الباب من لم يتعلّم الحساب».
حبذا لو ينقش هذا الشعار لا على ابواب جامعاتنا، التي ارجو ان تتكاثر في العالم العربي، بل على ابواب دور الحكم ومجالسه كذلك.
بل حبّذا لو ينقش على ابواب فلسطين، كل ابواب فلسطين.
وحبذا لو ينقش على ابواب المستقبل، كل المستقبل، في قلوبنا وضمائرنا والعقول.
ذلك ان الحساب معناه العقل. العقل المسؤول.
معناه ان يتحمّل الانسان مسؤولية افعاله، لانه يكون قد قرّر فعل ما فعل بعقل واع، وبعد حساب النتائج والمعطيات والاسباب.
الحساب معناه تسليط العقل على الانسان.
اي تسليط اسمى ما في الانسان على سائر ما فيه.
معناه ارتباط الانسان بالعقل الفعّال الذي يسوس الحياة الدنيا.
معناه ارتفاع الانسان فوق ذاته، الفرديّة والاجتماعية، لا لمحاسبة ذاته وحسب، ولا لمحاسبة الغير وحسب، بل لتخطيط حياة فردية واجتماعية فضلى، لهندسة المدينة الفاضلة التي يطمح اليها الانسان والتي يجب ان يستحقها حتى يكون له بها حق.
وما لم نتعلّم الحساب، هذا الحساب، ما لم نتعلّم التعامل بالعقل، لا امل لنا بدخول التاريخ وبجعل مدائننا، والجامعات، تنمو وتينع، تعمّر لنا مستقبلاً وحضارة، وتحرز لنا الانتصارات التي نطلب.

ايها السادة،
دعونا الليلة نلعب لعبة كبرى.
فلنتصور، معاً، الواقع العربي واقفاً امام باب كبير، نقشنا عليه ان لا يدخله الا من تعلّم الحساب.
تصوروا الواقع العربي انساناً ضخماً، رأسه الحكم، او الاحكام، أيّاً كان متولّوها. ونحن جميعاً اعضاء الجسم وحواسه، واللحم والدم والعظام، وآلام القلوب ودموع العيون.
ثم تصوروا كهلاً على الباب يحرسه، لعله التاريخ، يسأل طالب الدخول اوراق استحقاقه: ماذا تعلّم، ماذا يعرف، ماذا يريد، ماذا بوسعه ان يعطى مما يصنع؟
هل يعبر الانسان العربي الباب؟
تلك هي المسألة.
وذلك، ايها السادة، هو تحدّي التاريخ الكبير الذي يواجهنا نحن العرب.
وهو تحدّ ما كان ليكون لو كنا قد تعلّمنا من التاريخ حسابه.
التاريخ، بالنسبة الينا، محفوظات من الماضي توقفت عند حدّ. نتغنّى بها امجاداً. نعرضها للناس وكأنها سلعاً للبيع، غالية الثمن، صحيح، ولكنها لا تحيي.
اما التاريخ المقبل، التاريخ الواقفين امام بابه، فنعامله تارة وكأنه غير موجود، وطوراً وكأن بينه وبيننا تواطؤاً يلزمه بنا ولا يلزمنا به.
نظنّ انه لنا ولو كنا نحن عليه، وانه لايمكن ان يكون مرة لسوانا، مهما كان لسوانا عنده.
نطلب من التاريخ اكثر مما نعطيه.
في حين ان التاريخ هو ان يؤخذ جدياً، بمسؤولية، بحساب، اي ان ينتظر منه بقدر ما يعطى له. والتاريخ ان يؤمن الناس بأن الشيء الوحيد المحتوم هو ان تجيء النتائج بنسبة الاسباب: لا شيء من لا شيء، وكل شيء من الشيء الذي يسبّبه.
فالتاريخ ليس فيه اعاجيب ولا عجائب، بالكاد فيه صدف.
ليس في التاريخ عدل ولا ظلم، وليس للامم على التاريخ حقوق، والحق ليس ابداً منتصراً، لا في النهاية ولا في البداية، اذا لم ينصره اهله، فيكتبون هم التاريخ ولا يكون لهم مكتوباً.
ثم ان التاريخ لا يرحم. ولا يغفر. لا هو يهب ولا هو يعوّض. ولا هو يأخذ ممن لا يريد ان يعطي ولا هو يغتصب ممن يقدر على الحفاظ على ما عنده.
وككل تاريخ آخر، ليس في تاريخ الحرب والسلم شيء من القدر: ليس فيه نكبات من الله، ولا فيه تجارب من الشيطان. فيه للدول ما تهيىء الدول لنفسها، فان هي هيّأت للنصر انتصرت، وان هي لم تحسن التهيئة انكسرت.
ذلك ان ليس من أمة تجد نفسها وحدها في التاريخ، وكأنه ملعب لأحلامها.
فاذا حاربت أمةٌ، فيجب ان تنتظر الحرب وان تحسب للنصر وللهزيمة حساباً سوياً. وحتى عندما تسالم الامّة، يجب ان تحسب حساب حرب سواها عليها.

ومحك النجاح ان يكون حساب الحكم ناجحاً، فينال ما كان منتظراً، ولا يعرّض الشعب لما لا يستحق او لما لا طاقة له على احتماله.
والحكم الصالح هو الذي يعرف كيف يعامل التاريخ، ولو سلبياً، فلا يعرّض نفسه، لا يجازف بما عنده، لا يطلب اكثر مما في وسعه ان يأخذ، ولا ينتظر من احد الا ما يقدر على طلبه ونيله، لانه يكون، ايجابياً، قد اعطى نفسه والغير، وبنى لنفسه وللغير، تاريخاً.
فهل هذا ما فعله العرب؟
بصراحة، وببساطة، وبحرّية كليّة، لو طرح علينا الكهل الجالس على باب التاريخ هذا السؤال، لاضطررنا لأن نجيبه بلا... لان الحكم العربي، قبل النكسة وخلالها وبعدها، كان ولا يزال حكماً لا تاريخياً. مأساته انه يضع نفسه دائماً في موضع الطالب من الغير، المحمّل الغير مسؤولية افعاله هو، كأنما فوق سيادته حتماً سيادة لسواه: فسواه يعطي وسواه يأخذ، سواه يبني وسواه يخرّب، سواه يغني وسواه يفقر، سواه يحيي وسواه يميت، سواه ينصر وسواه يهزم، او ينكّس.

ايها السادة،
اراني، من الحديث عن الصحافة إلى الحديث عن الجامعة، قد انسقت إلى صميم البحث السياسي– في حين ان المفروض فينا، هنا، ان نظلّ على سويّة ارفع في معالجة الموضوع، نطل عليه من فوق.
ولكن الزمن ليس زمن المعالجات النظرية المن فوق.
فلا بأس بشيء من السياسة، اذا سمحتم، على ان نحاول ما امكن ابقاءها في اطارها العلمي، والسياسة، في النهاية، لا تُفهم بغير علمها.
ازمة الحكم، ايّها السادة، ان ثمة تحديا تاريخياً تواجهنا به اسرائيل.
يتوقف مصيرنا، اي خروجنا من الازمة، على ردّنا التحدّي.
فما هو هذا التحدّي؟
هو تحدّي الارض، الارض التي اضعناها.
ثم تحدّي الاستعمار، الذي تمثّل اسرائيل ذروة خطره لا على الارض التي احتلّت وحسب، بل وعلى سائر الارض العربية كذلك.
ماذا اولاً عن تحدّي الارض؟
اننا لم نفهمها.
فنحن نحب الارض ونرتاح لها ونتوق اليها، مقدّسة كانت بتاريخها ام ثمينة بخيراتها.
ولكننا جعلنا من الارض مثالاً وخرافة، بدل ان نعاملها كالوطن الذي هو القاعدة الماديّة لتكوين الامّة وحياة الشعب.
تصرّفنا تجاه الارض وكأنها شيء مستقل عن ذاتنا، رحبةً فسيحةً نسرح فوقها ونمرح، نأخذ

منها ولا نعطيها، نهاجر منها إلى سواها ونلجأ، ثم نهيم في طلبها من بعيد ونفاخر بالانتساب اليها، وكأنها يمكن ان تظل لنا ولو تملّكها سوانا.
وكانت ذروة الخطيئة اننا استخلصنا من مفهومنا للارض شيئاً جعلناه في مرتبة ارفع منها وسميناه النظام، بحيث لا يعود يهمّنا فقدان الارض اذا نحن أنقذنا مبدأ سيادتنا عليها.
والحقيقة ان النظام يكون لا شيء، متى اصبح هيكل حكم أفرغ من جوهره الذي هو الوطن، اي اتحاد الشعب بالارض.
النظام هو خادم الشعب، ليس سيّده. هو خادم الارض وليس صاحبها. حياة النظام من حياة الأمة، فان سئمت الامّة تساءم النظام، وان هي انتعشت عاش ونما. تغذّيه بقدر ما يحييها، وتبقيه بقدر ما يحافظ عليها. هي الغاية وهو الوسيلة، فاذا كان وسيلتها إلى النصر تعزز وترسّخ، واذا اصبح طريقها إلى الهزيمة، زال مبرّر وجوده وفقد حقّه بالبقاء.
ثم ان تعلّق الحكام بالنظام كمثل تعلّق الاطفال بالدمى، يحسبون انها في محل ما ترمز اليه. والحقيقة انها صورة للحياة، ليست الحياة. فهل يعقل ان نطلب من الشعب ان يضحي بالواقع من اجل المظهر، بالحياة من اجل الدمى؟
وانظمة الحكم بطبيعتها زائلة، ليست سرمدية. حتى تلك التي كانت تدّعي استمداد شرعيّتها من الالوهة، كادت تودي بسرمديّة الالوهة عندما عاندت نواميس الحياة.
انظمة الحكم تتغيّر بتغيّر الظروف والامكنة والازمنة. افيعقل ان تعمّر اطول من الحروب؟ حتى عند النصر، تبدّل الشعوب انظمتها، لأنها تعتبر ان حاجاتها وقضاياها بعد النصر غيرها قبله، فكيف عند الهزيمة، او قل النكسة؟
والحكم الصالح هو المستمد شرعيّته من الارض–الوطن، هو المرتبط نظامه بمصيرها فيبقى صالحاً ما حافظ عليها وأحياها، ولا يبقى لنظامه معنى اذا هو فرّط بها او اضاعها.
ذاك هو تحدّي الارض.
والتحدّي الثاني الذي تواجهنا به اسرائيل، ويواجهنا به العالم عبرها، شرقاً وغرباً، هو تحدّي الاستعمار– رغم ظنّنا بأننا تحرّرنا او نتحرّر منه، عبر جهاد طويل بدأ في القرن التاسع عشر واستمر عبر حربين عالميتين في القرن العشرين، ايام كنا اجزاء من امبراطوريات زائلة، تصارع بعضها البعض، فكانت السياسة وكانت الوطنية نضالاً ضد المستعمرين الواحد تلو الآخر.
والحقيقة اننا كنا، في هذا النضال، نستعين بمستعمرين على المستعمرين، حتى اذا ما زال الاستعمار الذي كنا نناضل ضده، اقام علينا شركاؤنا في التحرير استعماراً جديداً مقامه فتثقل وطأته ونمضي نفتّش عن حلفاء جدد يحرّرونا منه.
ذلك اننا لم نفهم الاستعمار على حقيقته حتى نعرف كيف يكون التحرّر الحقيقي منه، وكيف تُبنى المناعة ضدّه. مع ان اللغة العربية افصح من لغات الغرب في وصف هذه الظاهرة التاريخية لأنها تردّها إلى اصلها: العمار والعمران، بحيث يكون الاستعمار تعمير ما لا يعمّر نفسه، لجهل او لعجز. ويكون زوال الاستعمار بالتالي مشروطاً بالتعمير الذاتي– اي بالطاقة

على الحلول محل المستعمر في ما يجيء باسمه، او بسببه، او من اجله. وهكذا يكون التحرير الحقيقي بناء للمجتمع وانماء لموارده وبلورة لقواه وتنظيماً لدولته، على نحو يحصّنه حتى ضدّ الاحتلال.
فالاحتلال شيء، والاستعمار شيء آخر. ألمانيا احتلّت فرنسا ولم تستعمرها، وفرنسا وانكلترا واميركا وروسيا تحتل المانيا، ولكنها لا تستعمرها. في حين ان افريقيا السوداء زالت منها معالم الاحتلال ولا يزال معظمها مستعمراً، جلت الجيوش من الباب لتدخل من الشباك في زي خبراء وشركات واسلحة واعتدة ورساميل، ناهيك بجيوش المرتزقة و... المحرّرين.
من هنا ان الحرب على الاستعمار يجب ان تكون حرب بناء لا حرب اجلاء. حرب التعمير، هي طريق التحرير الوحيد.
فوحده العمران يواجه الاستعمار.
والعمران صفة المدينة، ألمنها، في اللغة العربيّة، كلمة المدني. وهو كذلك صفة الحاضرة، ألمنها كلمة الحضارة.
وهي مشتقّات يرتبط عبرها تحدّي الاستعمار بتحدّي الارض، بحيث يصبح الرد على ذلك رهناً بالرد على هذا: تصبح الحضارة هي السبيل، في آنٍ معاً، إلى استعادة الارض الضائعة وحماية الارض التي تكاد تضيع.
لأنها وحدها الحضارة تحيي في الارض قيمتها، تربط الانسان بها، تشدّها اليه وتشدّه اليها.
ولأنها وحدها الحضارة تجوهر انظمة الحكم، اياً كانت، بالطاقة على تطوير الأمّة نحو الحياة الفضلى التي يطمح اليها كل انسان.
واخيراً، اخيراً، لان الحضارة وحدها تجعل للارض تاريخاً، وتدخل بالحكم ابواب التاريخ.
فحيث لا حاضرة على الارض ولا حضارة، لا يكون للانسان تاريخ، بل اطلال تمّحى...
وكذلك تخرج من هياكل التاريخ، وتمّحى حتى آثار مدائنها، الامم التي لا تعرف كيف تحيي بالحضارة المستمرة المتقدمة انظمة حياتها والحكم.

ايها السادة،
عند هذا الحد من البحث، من حقّنا ان نتساءل معاً عن علاقة ذلك كله بموضوعنا: بالنكسة، وبأزمة الحكم بعد النكسة، وبالتحدّي الاسرائيلي.
والجواب الذي سمعتموه ولا ريب مراراً، الجواب المؤلم في صراحته، المؤرق في اخراجه انه لم تكن هنالك نكسة، بل تفاوت حضاري جعل الهزيمة امراً محتوماً...
جواب ليس من عندي، ولكني، ساعة اردّده، وأردّه إلى اصوله المنطقيّة، ارى من الانصاف ان اشفع تبنّي له بتحفظ يكسب كلمة النكسة معنى لعله معناها التاريخي الحقيقي:

ان ما اصابنا في حرب حزيران/يونيو 1967، كمثل الذي اصابنا منذ 1948، أضرّ تقدّمنا وتطوّرنا على طريق الحضارة، فحال، ولا يزال يحول، دون نمو العافية والصحة في جسمنا السياسي والاجتماعي والاقتصادي، فضلاً عن صحة العقول وعافية القلوب.
تلك، في نظري، كانت النكسة.
أما التغلّب عليها، فليس بالسلاح نستحضره كالعقاقير، بل، مرة اخرى أقول، بالحضارة– الحضارة التي تهيىء الأمّة لا لاستعمال السلاح فقط بل لاختراعه وصناعته، تماماً كما تبني صحتها بدل ان تكتفي بمداواة امراضها.
فالأمّة التي تقدر على شراء السلاح دون الأمّة التي تقدر على استعماله– دونها قوة، ودونها بالتالي مرتبة.
والامّة التي تقدر على استعمال السلاح دون الامّة التي تقدر على المحافظة عليه واصلاحه اذا تعطّل.
والامّة التي تقدر على المحافظة على السلاح واصلاحه دون الامّة التي تقدر على صناعته وانتاجه.
واخيراً، الامّة التي تقدر على صناعة السلاح وانتاجه دون الامّة التي تقدر على تطويره واختراعه.
أو كثير علينا ان نطمح لأمتنا بالمرتبة العليا: مرتبة الاختراع؟
اختراع السلاح واختراع الدماغ الالكتروني واختراع كل آلة اخرى...
لان العقل المخترع واحد، يصلح للحرب كما يصلح للسلم، ويصلح للصناعة كما يصلح للحكم، فيكون رقي اختراعه بمرتبة رقي حكمه بمرتبة رقي حربه بمرتبة رقي حضارته.
اما كيف نبلغ هذه المرتبة، فبمثل الطريق التي سلكها الذين نشتري منهم والذين يهبوننا كذلك: بالعقل، بثورة العقل، بالثورة الصناعية، بالثورة البعد –الصناعية، بثورة الانسان على استعباد الطبيعة له وعلى طغيان المادة عليه، فيتحرر اذذاك من كل استعباد آخر وتنفتح امامه آفاق الحريّة الحقيقية، حريّة العقل، حريّة الاختراع، حريّة الحضارة...
... واكاد اقول حريّة الحساب.
لأن الحريّة كانت مسؤولة.

ايها السادة،
في مستهلّ هذا الحديث، استشهدت بحكيم اغريقي. فاسمحوا لي ان اختم بشهادة الحكيم الصيني الذي قال:
اذا كنت تريد ان تأكل، فاشتر سمكاً.
واذا كنت تريد ان تطعم اولادك، فازرع شجراً.
أما اذا كنت تريد ان تشبع شعبك، فافتح له مدرسة.

السلاح، ايها السادة، في وسعنا شراؤه، كالسمك.
ولكن الارض لا تُشرى. بالكاد تزرع.
أما الذي لا ثمن له ابداً، فهو الحريّة، حرية تعلّم الحضارة وممارسة الحكم الحرّ.

تلك هي الأزمة.
والحل هو الانسان.

الجنوب: القضية العسكرية وأبعادها السياسية والدولية

محاضرة ألقيت في قاعة وزارة الدفاع الوطني (اليرزة) بحضور العماد قائد الجيش وحشد من الضباط من مختلف الرتب، يتقدّمهم ضبّاط الأركان. وفي المحاضرة إيضاح أنها لا تعبّر حكماً عن سياسة الحكومة، رغم كون المحاضر آنذاك سفيراً لدى الأمم المتحدّة.
نشرت المحاضرة في العدد الأولّ من مجلة «حوليّات سياسية» (شتاء 1982) رئيس تحريرها حمادي الصيد.
1981/2/14

«يوماً ما – شي مرة– قد لا يترك لنا الاسرائيليون مجالاً لاستدعاء سفراء الدول الكبرى، ولا حتى سفراء الدول العربية...
قد يهجمون ووزير الخارجية اللبنانية ليس في الجزائر، ولا وزير خارجية السعودية في بيروت...
وقد لا يكون أبو عمّار في بيروت كذلك.
وقد لا يتسنى للرئيس حافظ الأسد الاتصال بنا...
إذذاك، ماذا نفعل للدفاع عن لبنان؟
بل أكثر: قد لا يرسل الاسرائيليون انذاراً، وقد لا يخبرنا أحد بحشودهم...
إذذاك، كيف ندافع؟ ماذا يحدث للأرض؟ ماذا يحدث للناس؟
أسئلة ليست هي المرة الأولى التي نطرحها...
وقد طرحت نفسها، علينا وعلى المسؤولين مراراً...
(...) نعتقد أن في وسعنا الدفاع عن لبنان، أرضاً وبشراً، ببساطة، ومن دون بهورة.
قد ننتصر، وقد لا ننتصر. هذه حكاية أخرى.
كل الدول التي ربحت الحروب، خسرت حرباً ما.
وقد ننتصر نحن، ولو خسرنا قبل أن ننتصر.
ماذا نفعل اذاً؟
نحوّل اللبنانيين، كل اللبنانيين، في منطقة الحدود، إلى جنود.
جنود عندما يدق النفير. فيظلّون فلاحين ودكنجيّة، عندما لا يحاربون. انما ندرّبهم. ونضع لهم ضباطاً يتحملون مسؤوليتهم، سلاحاً وتدريباً.
نحوّلهم إلى جيش شعبي. كل لبناني يصبح جندياً.
تماماً كما في سويسرا. بل تماماً كما في اسرائيل.
من أين السلاح؟ كل لبناني –تعرف الدولة– مسلّح.
لعلها خير وسيلة لضبط السلاح.
والسلاح الثقيل؟ الجيش النظامي عنده السلاح الثقيل.
وعنده الآليات. والخطط والخرائط. وعنده خيرة الضباط والجنود.

والجيش الشعبي يحارب كما تحارب الجيوش المثله، في كل البلدان.
ولا نخال اللبناني أقل من سواه شجاعة، ولا بسالة، ولا تعلقاً بالأرض.
يحب أرضه. يحبها. كل تاريخه، ماضياً وحاضراً، هو التعلّق بالأرض.
أوليست هذه الوطنية؟ الوطنية الحقة، البريئة، وطنية الشعب.
هذا أولاً، من حيث اللبنانيون.
وثانياً: من حيث الفلسطينيون.
ما دام الفلسطينيون قد تحولوا، عبر المنظمات الفدائية، إلى شبه جيوش منظمة، بدل أن يظلوا فدائيين بالمعنى الأصيل، فماذا يمنع حشدهم كجيش فلسطيني؟
انهم للهجوم، لا للدفاع؟ كلام. وكلام بات فارغاً.
الهجوم ليس اطلاق الصواريخ من التلال وسطوح المنازل ولا من المخيّمات.
عندما يحين وقت الهجوم، نهجم جميعاً.
واذا كان من عمليات فدائية بالفعل، إلى داخل الأراضي المحتلة، فتلك لن تعلن، ولن تتم باللباس المرقط، بل كما تتم عمليات «الفيتكونغ»، فضلاً عن الثورة الجزائرية.
«الفدائية» الآن مسألة معنويات؟
نريد المحافظة على وحدة الشعب الفلسطيني؟ على تصميمه على الحرب؟ على عدم ذوبانه؟
ماذا أحسن من تحويله كله إلى جيش؟
وجيش نظامي، منسجم مع الجيش اللبناني، خاضع مثله لقواعد الحرب وأصولها، فضلاً عن قوانين السيادة وقواعد السلامة الوطنية؟»

سيدي العماد،
أيها السادة الضباط،
هذا الكلام عمره الآن تسع سنوات. ما أسرع الزمن...
قيل في 1972/1/17، أيام كانت الحرب المثلثة الأطراف، اللبنانية–الاسرائيلية–الفلسطينية، حائرة تدخل الوطن اللبناني وكأنه بيت بلا سقف، ولا أبواب ولا نوافذ.
مذذاك، كان الذي كان، وكتب الذي كتب.
وكان يسهُل حصر هذا الحديث في سلسلة استشهادات نستقصي معها عبر الماضي، وكم ان احداً منا لم يفاجئه شيء، ومع ذلك لم ينل أحد شيئاً، أو بالاحرى لم يفعل أحد الشيء الوحيد الذي كان يمكن ان ينقذ الوطن.
قبل الدخول في صلب موضوعنا، بالصورة التحليلية الموضوعية التي أظن انها ما تنتظرون، يعتذر السفير وهو يجد نفسه مضطراً، مرة ثانية، لان يستشهد بأقوال الصحافي عن مناسبة تذكرونها أنتم بنوع أخص ويجب أن يذكرها كل لبناني ويظل يتذكر، حتى تنفع الذكرى.
... والآن كفانا نشوة!

فما هي العبر والعظات؟

أولاً: وقبل كل شيء، لبنان يحارب.
في وسعه أن يحارب، ومن واجبه أن يحارب. فضلاً عن كونه يحسن الحرب كما يحسن المسالمة. وهو في هذه الحرب كان، ولو نسبياً، أفضل من كثيرين ممن كانوا يلقون عليه الدروس، أيام كان يحجم عن الحرب وكان سواه يكتفي من الحرب بالمفاخرة بها، حيناً، وبتعظيم هولها أحياناً...

ثانياً: ان حرب لبنان أمس كلّفت غالياً وغالياً جداً، لان لبنان يحتاج إلى جيش يختلف، في تكوينه وطبيعته، عن الجيش الذي عنده.
يحتاج إلى أكثر، لا عدداً وسلاحاً وتهيئة فحسب، بل كذلك من حيث مفهوم الجيش وارتباطه بالشعب، بالاهالي، بالأرض التي يدافع عنها.
في بلد كلبنان، لا يمكن أن يكفي جيش محترف للدفاع عن الوطن. يجب أن نصل إلى مفهوم ما من مفاهيم الجيش الشعبي، بحيث يكون كل مواطن قد تدرب الى حد يجعله قابلاً لان يتحول، في أقل من 24 ساعة، إلى جندي يعرف موقعه ودوره عند النفير.
وفي المقابل، في وسع الجيش النظامي، أيام السلم، وحتى لا تثقل موازنته البلد الصغير، أن يقوم بدور انمائي، من المساهمة في شق الطرق الزراعية وبناء الجسور، إلى التحريج، إلى بناء الملاجىء والتحصينات.
أمور كانت مستحيلة قبل أن تنشأ بين الجيش والشعب هذه اللحمة الروحية التي تجلت أمس. لكنها أمور أصبحت اليوم ممكنة، بل ضرورية لزيادة اللحمة وتعزيزها.

ثالثاً: ان القرى اللبنانية على الحدود لا يمكن أن تظل هكذا، سائبة، لقمة سائغة، ضحية صاغرة نكتفي، بعد كل عدوان، بمؤاساتها ورش بعض الدراهم على جراحها!
لا يمكن أن تظل هكذا، لا عمرانياً، ولا سكنياً، من حيث تكوينها البشري ونظام حياتها، ولا اقتصادياً بالطبع.
قرى الحدود يجب أن تتحول إلى مثل ما هي عليه المستعمرات الاسرائيلية، في الجانب الآخر من الحدود، في فلسطين المحتلة.
حصون حقيقية، كل بيت حصن.
وحدائق يحرثها أطيب الرجال، في يدٍ معول وعلى الكتف بندقية، يسوقون التراكتور كما يسوقون الدبّابة.
وماء وكهرباء، وثروة تنبع من الأرض لا تمنح هبات مغموسة بالمنّة!
اذذاك، يشتهي الجنوبيون أن يموتوا في سبيل أرضهم، بدل أن يعيشوا – ويموتوا – وفي

نفسهم شهوة إلى مثل الجنّات التي في الأرض المحتلة، ونقمة دائمة على الدولة التي لا تعرف كيف تسقيهم وتسقي أرضهم، فكيف بحمايتهم اذاً؟!

أيها السادة؟
معركة سوق الخان أو بئر السلاسل، التي وقعت في أيلول/سبتمبر 1972، تختصر معالم الوضع في الجنوب وتشكل فاصلاً تاريخياً في القضية التي هي موضوعنا اليوم. ذلك انها كانت، كمثل سوق الخان نقطة صدام كل الفرقاء، ومن ثم مفترق طرق بالنسبة إلى لبنان–لبنان الحكم، والشعب، والجيش، فضلاً عن الفلسطينيين: فاما ان نسلك طريق الحرب العسكرية، التي وحدها كانت توصلنا إلى السلم السياسي، والاجتماعي... أو نسلك طريق التنازل عن منطق الدولة – الدولة الدولة – حكماً وعسكرية وديبلوماسية، فيقودنا المنزلق الخطر، كما حصل، إلى الحرب الداخلية والتشرذم، وانتقال حروب الآخرين، كل الحروب، وثورات الآخرين، كل الثورات، إلى داخل حدودنا ويفجّر منطق الثورة مجتمعنا، ومنطق اليأس دولتنا والمؤسسات.
بعد هذه المقدّمات، التي أظنها تطرح الموضوع بكل ملامحه وأسئلته، لا بد من تعيين الاطار الذي سنحاول توزيع البحث ضمنه هذا الصباح:

أولاً: المراحل التاريخية لقضية الجنوب.
ثانياً: التدويل: مفارقات وتحديات.
ثالثاً: الجنوب والقضية اللبنانية.
رابعاً: لبنان واستراتيجية الحرب والسلم.

وسنحاول، في الخاتمة، وقبل فترة المناقشة، طرح بعض الخيارات ومحاولة الجواب عليها، من غير ما حاجة إلى التأكيد على الأمور التالية:

1– انني أتحدث بصفتي الشخصية ولا الزم باستنتاجاتي وآرائي احداً، لا في الحكم ولا خارجه، ولا حتى في الطريق منه أو اليه!
2– انني أعرف كم هي حسّاسة الأمور التي ستبحث، وكم هي بالذات في جوهر ما ينقسم حوله اللبنانيون، داخل المؤسسات وخارجها... لكن معرفتي بذلك لن تمنعني، في هذا المقام بالذات، من التحدّث بمنتهى الصراحة والموضوعية، لانني لا أرى للبنان ولجيشه مستقبلاً خارج المصارحة والحرية الكاملة في البحث والمناقشة.
3– ان الأمور التي قد تبدو موجّهة إلى هذا الفريق أو ضد ذاك انما تقال من منطلق البحث والتحليل، بما في ذلك النقد والانتقاد، لان الطريق الوحيد للتفاهم مع هذا الفريق أو ذاك حول استراتيجية عسكرية وسياسية للبنان وللمجموعة العربية أو بعضها – الطريق

الوحيد هو المصارحة وتحمّل النقد البنّاء وقول الحقائق باحترام متبادل وحريّة لا حدود لها غير المسؤولية في الرأي والمعرفة. وهو أسلوب، كهذه المحاضرة، لن يرضي احداً لانه لا يحابي احداً ولا يتحزّب لأحد.

والآن إلى صلب الموضوع.

1- المراحل التاريخية لقضية الجنوب

مرّت قضية الجنوب في مراحل يمكن ايجازها كالآتي:

المرحلة الأولى: حرب التقسيم

في هذه المرحلة، التي انتهت عام 1948 بالهدنة الاولى فالثانية، الجنوب لا يزال لبنانياً كلياً. ومع ان التجهيز العسكري اللبناني كان في المستوى المطلوب من دولة كلبنان، وأفضل نسبياً من بعض الدول الأخرى، فان الجيش اللبناني لم يكن وحده في خوض الحرب التي قرّرتها الدول العربية عقب صدور قرار الأمم المتحدة (الرقم 181) بتقسيم فلسطين، بل دخلت من لبنان إلى فلسطين كذلك فصائل من «جيش التحرير» بقيادة فوزي القاوقجي، مدشّنة هكذا طابعاً خاصاً للحدود اللبنانية ظل يلازمنا حتى اليوم. ومع ان الجيش اللبناني أحرز انتصارات نسبية داخل فلسطين، فقد انتهت الحرب إلى اتفاقية الهدنة العامة التي جرى توقيعها في رأس الناقورة في 23 آذار/مارس 1949 والمصادقة عليها في مجلس الأمن بموجب القرار 73 الصادر في 11 آب/أغسطس 1949. قيمة هذه الاتفاقية انها تشكل تكريساً دولياً للحدود اللبنانية – الاسرائيلية لا نزال نتمسّك به، رغم كون رسم الحدود على الطبيعة قد نجم عنه ضم بعض الأراضي المملوكة لبنانياً إلى دولة اسرائيل التي تأسست آنذاك.

المرحلة الثانية: من الهدنة إلى حرب 1967

أفضل وصف يمكن اطلاقه على هذه المرحلة هو: الهجرة والتوطين. فاذا كان من توطين حقيقي للفلسطينيين في الجنوب، فهو الذي تأسس آنذاك، وشعاره العكس تماماً. فالذين هجّرتهم الحرب الفلسطينية الاولى اعتبروا انهم آتون لأسابيع أو أشهر، بل ربما لأيام يعودون بعدها إلى الوطن السليب. وبالفعل، حتى قرار مجلس الأمن الشهير، الرقم 242 الذي انتهت بموجبه حرب 1967، أطلق عليهم اسم «اللاجئين»، وهي الصفة التي كانت متداولة في الأندية والمحافل العالمية حتى الفترة الأخيرة. ومع ذلك، فالأبحاث التي دارت رسمياً وتدور بصورة غير رسمية حيناً وشبه رسمية أحياناً تفترض كلّها عدم عودة قرابة المئتي ألف المسجلين لدى «الاونروا» لانهم هاجروا من الاراضي التي اصبحت الآن اسرائيل المعترف بها، اي اسرائيل التقسيم، لا مما يسمّى «الأراضي المحتلة» في القرار

242 وما يتّصل به. ومع ان اللاجئين هؤلاء انتشروا في مخيّمات تأسست في كل المحافظات اللبنانية، بما فيها بيروت والشمال، الا انهم في الجنوب سرعان ما اندمجوا في الحياة الاقتصادية والاجتماعية إلى حد التصقوا معه بسكان الجنوب الأصليين التصاقاً عضوياً، فهاجروا معاً موجات موجات إلى ضواحي بيروت، التي أصبحت تعرف في ما بعد بحزام البؤس، ثم بحزام النار، والبؤس لم يبدأ يولّد النار الا بعد حرب 1967 التي أتت، مع الموجة الثانية من اللاجئين الفلسطينيين، بمرارة الهزيمة وتصميم عند أهل المخيمات على الثورة على الأنظمة العربية التي خسرت نفسها وفلسطين مرتين، بحيث بات على الفلسطينيين، كما قيل لهم اذ ذاك، الاتكال على أنفسهم ضد العدو الاسرائيلي وضد المتواطئين معه من الحكّام، أياً كانت أنواع التواطؤ وأشكاله.

المرحلة الثالثة: العمل الفدائي والتجربة العسكرية

مع نشوء جيل جديد من الفلسطينيين في المخيّمات وسقوط «حكم» أحمد الشقيري لتحل محلّه «فتح» والمنظمات الفدائية، بدأت الجبهة اللبنانية–الاسرائيلية تتحرّك رغم عدم اشتراك لبنان في حرب 1967 واستمرار تمسّكه بنظام اتفاقية الهدنة العامة. وفاض العمل الفدائي في الجنوب، ومن الجنوب إلى العاصمة كذلك، ومن العاصمة بيروت إلى عواصم العالم وأجوائه، فضلاً عن سائر الجبهات العربية. وكانت حادثة نزول الاسرائيليين في مطار بيروت في 20 كانون الأول/ديسمبر 1968 التي أعادت الحرب إلى لبنان، فوجدنا أنفسنا أمام التجربة:

هل يخوض الجيش اللبناني حرب الاستنزاف، كجيوش عربية أخرى؟...

هل يقدر الجيش على ذلك، عسكرياً وسياسياً؟

هل يحتمل النظام اللبناني دخول الحرب، ولو من بابها الضيّق؟

وفي حين كان لبنان الرسمي يجيب بنعم ولا في آن معاً، بدأت جيوش خاصة تتسلّح وتتدرب لمواجهة الجيش الفلسطيني غير النظامي، وامتزج ذلك كله بالمسألة الطائفية التي تفجرت، ولو خارج الجنوب، في قيام «الحلف الثلاثي». وكانت «اتفاقية القاهرة» التي جرى توقيعها في تشرين الثاني/نوفمبر 1969 في ظروف معلومة فاعترفت للوجود الفلسطيني والعمل الفدائي بشرعية كان يفرضها فرضاً، بمن معه داخلياً وخارجياً، الا انه لم يكن قادراً، بدون الاتفاقية، على جعلها شراكة في الأرض وفي السلطة. وادّعت اسرائيل ان اتفاقية القاهرة تنقض اتفاقية الهدنة وأكثرت من هجماتها على الجنوب. فظل الجيش اللبناني خفراً في الرد، باستثناء صدامات معدودة كانت ابرزها معركة سوق الخان، إلى ان جاءت حرب 1973 وطوت هذه المرحلة. ولعل أبرز ما حدث خلال هذه المرحلة خارج لبنان، مما كان له أكبر أثر على الجنوب، هو «أيلول/سبتمبر الأسود» عام 1970 وتوقف العمل الفدائي نهائياً في الاردن بسيطرة الجيش، مما جعل هذا العمل ينتقل كلياً إلى لبنان، بقياداته ومسلّحيه والمهجرين.

المرحلة الرابعة :«حرب رمضان» وفك الارتباط
تمتد هذه المرحلة من تشرين/أكتوبر 1973 إلى نيسان/أبريل 1975، وما بعده إلى الأشهر الاولى من الحرب اللبنانية، ثم، بعد هدنة قصيرة، تكرّرت مرتين أو ثلاثاً، حتى دخول القوات النظامية الفلسطينية ثم قوات الردع العربية والجيش السوري – أي حتى أواسط 1976.
ومن البديهي ألا نحاول، في هذا المجال، تحليل كل ما يحيط بهذه المرحلة وما جرى خلالها. حسبنا من ذلك، بالنسبة إلى موضوعنا، أن نقول انها مرحلة خسارة الجنوب كمنطقة لبنانية تخضع لسيادة الدولة. فقد نشأت في تلك الفترة أنظمة محالفات عجيبة غريبة، جعلت الفلسطينيين يرتدّون عن محاربة اسرائيل لخوض حرب بديلة ضد لبنانيين كانوا بدورهم، ولانقطاعهم عن الدولة، ينتقلون أو يضطرون للانتقال إلى حالة التعامل مع «الشيطان» اسرائيل، بينما كان لبنانيون آخرون يوحّدون بين ثورتهم والثورة الفلسطينية فتلاقي الثورتان، في بعض فصائل الجيش الذي تشرذم، حلفاء ضد سلطة مركزية فقدت آنذاك كل شيء الا مظهر الشرعية والاسم والعنوان وفضل السعي لانقاذها ما يمكن انقاذه من البقية الباقية التي أضاعت وضيّعنا. وإذا كانت الأسباب قد تعدّدت، وتعدّدت السبل والمسالك، بوعي من السالكين أو عن غير وعي، وبقصد من الدولة أو عن غير قصد، فالمهم في ضيعان الجنوب انه كان يتم «خطوة خطوة»، كما كان السلم في الشرق الأوسط يتم، أو هكذا قيل، «خطوة خطوة».
وأيا كانت تحليلات المراقبين آنذاك حول الربط بين ما يجري على الساحة اللبنانية وما يجري في المحيط العربي والعلاقات الدولية، فقد بات الآن من الواضح – وقد قيل ذلك باسم لبنان من أرفع المنابر في العالم – انه غالباً ما كان التصعيد العسكري في لبنان، جنوباً أو شمالاً، ساحلاً أو بقاعاً، يمهّد لخطوة «سلميّة» من هنا أو يجيء تغطية لخطوة «سلميّة» من هناك، فضلاً عما كان يكون هنالك قيد التقرير.
تبقى ملاحظة أخيرة حول هذه المرحلة، لعلّها كانت هي نقطة البداية، وهي الآن نقطة السر في النهاية. ان حرب رمضان كانت حرب الأنظمة، لا حرب الثورة، وقد انتصر فيها النظامان المصري والسوري، بمساندة سائر الأنظمة، قبل أن يتسنّى للثورة أن تخوض هي حربها، في حين كانت تقول، قبل الحرب، ان الأنظمة لن تحارب واذا حاربت فلن تنتصر. ولما انتصرت الأنظمة، كان من الطبيعي أن تشعر الثورة انها باتت في خطر. وهكذا كان، فبدأت مذذاك، وبالطبع على «الساحة اللبنانية»، حرب الثورة والأنظمة: هذه تحاول استيعاب تلك، بينما تلك تحاول النفاذ عبر هذه، لتحافظ على حريّة قرارها.

المرحلة الخامسة: عودة الدولة والخطوط الحمراء
بعد فترة اضطراب وميعان، دخل الجنوب في المرحلة الخامسة مع انتخاب رئيس جمهورية جديد ثم تسلّمه الرئاسة إثر قمتين عربيتين كرّستا، في آن واحد، عودة الوفاق

العربي (بمصالحة مصر وسوريا) والوجود السوري المسلّح كقوة «ردع» عربية بقيادة لبنانية متوّجة من الملوك والأمراء والرؤساء.
ولكن الحرب لم تنته بل تحوّلت حروباً، وظل الجنوب جنوباً ضائعاً، بل هو تحوّل إلى مئة جنوب وجنوب، وحوله وضمنه خطوط حمراء وزرقاء: هذه لا تتجاوزها قوات الردع، وتلك تتحرّك ضمنها اسرائيل، وما بين الشاطر والمشطور سلطات ثورية هنا ومتمرّدة هناك وطامعة هنالك.
واستمرّت الحال هكذا، إلى ان كان الاجتياح الاسرائيلي وتدوّلت القضية.

المرحلة السادسة: الحرب الفلسطينية الخامسة
عندما دخلت القوات الاسرائيلية إلى الجنوب، منتصف ليل الثلثاء 14 آذار/مارس 1978، وحدهم السذّج ظنوا انها عملية أخرى كسائر العمليات التي كانت تجري من قبل، خلال سنوات، أو التي استمرت في ما بعد وتستمر اليوم، تارة باسم «العمليات الانتقامية» أو «التأديبية»، وطوراً باسم «السياسة الوقائية» أو «حق المطاردة».
ذلك اليوم، كنا جميعاً نعرف – نعم نعرف – وننتظر اجتياحاً من طراز آخر لعلّه بداية الحرب الفلسطينية الخامسة، وليس مجرّد رد على عملية فدائية أخرى، ولو كبيرة. وقامت الدولة اللبنانية بكل محاولات المنع والردع الدبلوماسي، لانه لم يكن في متناولها، ميدانياً، أي شيء آخر، حتى ولا المراقبين الدوليين لتنفيذ اتفاقية الهدنة لان هؤلاء، رغم محاولة زيادة عددهم، كانت اسرائيل قد عطّلت فاعليتهم المحدودة أصلاً.
وكانت الحرب، فظننّا أول الأمر ان الاحتلال الاسرائيلي سيتوقف عند حدود وصفتها تل أبيب بالحزام الأمني. غير ان العمليات ظلّت تتوسّع، وتزداد بالتالي ضراوة المقاومة، من جانب الفلسطينيين و«القوات المشتركة» فضلاً عن ازدياد الدمار والخراب والتهجير وقتل المدنيين الآمنين. إلى أن تدخّل مجلس الأمن، حيث كان لبنان قد بدأ يستعيد حريّة تحركه بعد طول غياب، فكان القرار425 الذي جرى الاقتراع عليه بالاجماع في 19 آذار/مارس وهو ينص على انسحاب اسرائيل وارسال قوات دولية لحفظ السلام والأمن، تساعد الدولة اللبنانية على اعادة بسط سلطتها الفعلية في كامل المنطقة، مع الدعوة إلى احترام سلامة الأراضي اللبنانية وسيادة لبنان واستقلاله ضمن حدوده المعترف بها دولياً.
ومساء اليوم ذاته وكان يوم أحد، وبعد ساعات طوال من المفاوضة والجدل، رغم معارضة اسرائيل، أصدر مجلس الأمن القرار 426 الذي يصادق بموجبه على تقرير من الأمين العام للأمم المتحدة يتضمن قواعد انشاء القوة الدولية والتعليمات المعطاة لها والتوجيهات التي تتحرّك في ضوئها، مع تفسير لحق الدفاع عن النفس يشمل استعمال القوة في الرد على كل من يحاول بالقوة منع تنفيذ المهمة الدولية.
ووصلت القوات الدولية إلى لبنان بينما الحرب لا تزال مستمرة. وبوشر الانتشار، ثم بدأ

انسحاب الجيش الاسرائيلي تدريجاً. وكانت أول مرة في تاريخ الأمم المتحدة تستعيد فيها دولة أراضيها بموجب قرار من مجلس الأمن. الا ان الذين كانوا ينتظرون اكتمال الانسحاب في آخر مراحله، يوم 13 حزيران/يونيو، فوجئوا بأن الاسرائيليين سلّموا قطاع الشريط الحدودي إلى قوات الرائد سعد حداد، كقوات أمر واقع لبنانية. وكانت الاشكالات المعروفة وما تبعها من استمرار للوجود الاسرائيلي في المنطقة الحدودية، ثم توسّع هذا الوجود وتحركه قبالة تحرك الجيوب الفلسطينية داخل ما يسمى بمنطقة العمليات، ومحاولات التسلل عبرها. وهكذا عادت المنطقة، المفروض فيها أن تكون قد أصبحت منطقة سلام، فتحوّلت إلى منطقة حرب استنزاف مستمرة الخاسر الكبير فيها هو لبنان، لبنان الأرض والشعب، الذي لم تستعد دولته سلطتها ولا بسطت سيادتها، بل على العكس تكاد تتكرّس خسارتها للأرض والشعب والسيادة، ويتكرّس مع الخسارة، الواقع الجديد وهو ان القوات الدولية متّهمة من الفلسطينيين بحماية اسرائيل، ومن اسرائيل بحماية الفلسطينيين، وهي بالكاد تحمي نفسها ومنطقة عملياتها. أما الجيش اللبناني، الذي طالبنا نحن، في مناقشات مجلس الأمن، بأن يكون له الوجود العسكري الوحيد في الجنوب، فقد حاول الدخول ثلاث أو أربع مرات، وكان باستمرار يصطدم في آنٍ معاً بمعارضة الاسرائيليين والفلسطينيين وقوات الردع ولم يسمح له الا بحضور رمزي خجول مرة واحدة.

أيها السادة،
بعد هذا الاستعراض التاريخي لمراحل قضية الجنوب، لا بد من مناقشة، ولو سريعة، لـ«عملية الليطاني»، وما نجم عنها من جوانب عسكرية ودبلوماسية.

2- التدويل: مفارقات وتحدّيات

«عملية الليطاني» هو الاسم الرمزي الذي أطلقته القيادة الاسرائيلية على حرب آذار/مارس 1978، وكأنها بذلك تريد تعيين الهدف الذي كانت تسعى للوصول اليه، او الاشارة إلى حنين اسرائيل الدائم لان تكون حدودها الشمالية حيث حاولت أن ترسمها «الوكالة اليهودية» في مؤتمر فرساي عام 1919: عند النهر الذي قالت ان لا حياة اقتصادية لفلسطين بدونه، ولا قدرة بدونه للدفاع عن الجليل.
والطريف ان البيان الذي وزعته قيادة الجيش الاسرائيلي، في 15 حزيران/يونيو، بعد اتمام الانسحاب المموّه، بعنوان «تقييم عملية الليطاني» لا يفصح عن سبب اختيار الاسم بل على العكس يبدأ وينتهي بالتأكيد ان ليس لاسرائيل مطامع في الجنوب، وانها دخلت لتطرد الفلسطينيين وتحطّم قواعدهم وقد فعلت ذلك على نحو يجب أن يساعد الحكومة اللبنانية على استعادة سلطتها. ويكشف البيان عن انذارين: واحد جرى توجيهه إلى القوات السورية بعدم التدخّل، وآخر إلى السلطات اللبنانية بأن رجوع القواعد الفدائية سيؤدي إلى استئناف القتال.

واذا كان التدخل السوري لم يحصل، فان التدخل اللبناني لم يحصل كذلك... مما يسوقنا جميعاً إلى القول بأن «عملية الليطاني» انتهت إلى سلسلة مفارقات يجدر تسجيلها:

أولاً: وظّفت اسرائيل في الحرب جهداً عسكرياً جباراً لم تنل نتائج سياسية ولا عسكرية بحجمه. فاما سياسياً، فقد كان صدور قرار مجلس الأمن هزيمة لها، خصوصاً بالسرعة التي تم بها التجاوب الدولي الاجماعي، وبوقوف اميركا في الطليعة، تقترح هي نفسها مشروع القرار، بينما كان بيغن يصل إلى نيويورك لمفاوضة الرئيس كارتر، وكأنها بذلك تقول له انها غير راغبة في المساومة على لبنان كبديل عن البحث في الضفّة الغربية. وأما عسكرياً، فالجيوش النظامية تظل هي الخاسرة، في «حروب العصابات»، أياً كانت مساحة الأرض التي تحتل، عندما لا تسحق المقاومة أو الثورة أو عندما لا تستولي على الأرض نهائياً. والتراجع العسكري الفلسطيني لم يكن اذاً هزيمة لان الأرض التي خسرتها «المقاومة» لم تكن أصلا أرضها، واسرائيل في مطلق الأحوال لم تحافظ عليها. لذلك نجد اسرائيل اليوم تحاول قلب المعادلة بتحويل هزيمتها الدبلوماسية إلى انتصار عسكري ولو مؤجلاً.

ثانياً: بدل القضاء على مقاومة الفلسطينية، أدّت «عملية الليطاني» إلى اعطاء مزيد من الشرعية لمنظمة التحرير الفلسطينية التي وجدت نفسها محاطة بهالة من العطف والتأييد، ثم دعيت من قبل الأمم المتحدة لان تصبح شريكة في المحافظة على السلام في المنطقة بدل أن تظل المتهمة بتهديده.

ثالثاً: ان المهمة الموكولة إلى القوات الدولية سرعان ما تبدّلت بفعل الممارسات على الطبيعة مما أدى إلى نجاحها نصف نجاح وفشلها نصف فشل. فهي، نظرياً، قوات ردع، غير ان دورها الرادع قد عطّله – وهذا ما يجب أن يقال بكل صراحة وقد قيل – نظام المحالفات الدولية للفرقاء المتحاربين أو «المتواجدين» على الساحة. أما الفريق اللبناني، صاحب المصلحة الحقيقية في السلام، فقد جعله غيابه الفعلي عن الساحة وافتقاره إلى قوة دولية ضاغطة تسانده إلى النهاية، جعله ذلك أضعف الفرقاء، فلم تقترن مطالبه بالصدقية الملزمة، ولا هو تمكن من فرض تنفيذ القرار، أو تعطيل انتفاع الآخرين منه.

رابعاً: ان قوات حفظ السلام تنجح حيث يكون وجودها منبثقاً من اتفاق طرفين تفصل بينهما وقد اتّفقا على هدنة أو سلام، كما هي الحال في الجولان، على الحدود السورية، أو في سيناء سابقاً. أما في الجنوب، فاتفاقية الهدنة معقودة بين فريقين لا يتحاربان، والفريق الثالث، المحارب الحقيقي، أي الفريق الفلسطيني، ليس طرفاً فيها. واستطراداً، كيف تفصل القوات الدولية بين اسرائيل والفلسطينيين، وعند أية حدود، عندما لا تكون الأرض

أرض الفلسطينيين، ولا الحدود حدودهم، ولا هم يلتزمون بحد جغرافي أو عسكري يرتدعون بعده؟ لذلك لا بد من تكرار القول ان بعض سبب فشل القوات الدولية هو انها انتدبت لمهمة متحركة (ديناميكية) ولم تعط لاتمامها سوى وسائل جامدة (ستاتيكية).

خامساً: بعض فشل القوات الدولية يعود كذلك إلى انها اندفعت تتحرك على الساحة، ليس فقط بوسائل ومنهجية عسكرية محدودة، بل وأيضاً بوسائل سياسية محدودة، أو بدون وسائل سياسية ذاتية على الاطلاق. جاءت وكأنها مجرّد تعبير عن حل القضية، في حين كان يراد منها ولها أن تكون هي وسيلة الحل وأداته. وحين يقول الدكتور فالدهايم ان القوات تعتمد في نجاحها على المفاوضة، وهو لا ينشىء، كما في ظروف سابقة، هيئة مفاوضة أو لجنة تنسيق أو وساطة (ربما لوجود طرف في الحرب غير معترف به) فانه يكون قد استرهن نجاح القوات للتحرك الدبلوماسي الذي تقوم به الدول المساهمة في القوات، ولا سيما الأوروبية منها، أو الدول المساندة لها، كأميركا، وهذه الدول يخضع تدخّلها الدبلوماسي بالطبع لمتغيرات أوسع اطاراً من قضية الجنوب. من هنا تحوّل هذه المنطقة المعذبة، وتحول لبنان بأكمله عبرها، إلى رهينة في الصراعات الدبلوماسية، وورقة في لعبة الشرق الاوسط تحاول كل الدول المعنية، قريبة وبعيدة، التمسّك بها، ولو كان الثمن ابقاء الحرب مشتعلة على نار خفيفة، قابلة للتأجيج.

أيها السادة،
تسوقنا هذه المفارقات الخمس إلى القول ان القرار 425، وتدويل قضية الجنوب، قد واجه الفرقاء بثلاثة تحديّات انتهت كلها إلى أجوبة سلبية:

التحدّي الاول كان موجهاً إلى الفلسطينيين: أن يتحولوا من الدور الثوري إلى الدور الدبلوماسي، مع إبقاء مظاهر حركة التحرير. وقد أدّت تناقضات القيادة الفلسطينية، ومتناقضات محالفاتها، إلى الفشل في رفع التحدّي، فاستمرت الثورة ثورة ولو على علم منها باستحالة العودة لتحرير فلسطين عبر الجنوب.

التحدّي الثاني كان موجهاً إلى اسرائيل: أن تتجاوز الحرب المستحيلة فتسلك، عبر الجنوب، طريق السلام مع الفلسطينيين، بدل محاولة اقامة «سلم اسرائيلي» مستحيل هو الآخر.
وقد أدى التفاوت بين طموحات اسرائيل وحدود امكاناتها إلى تعزيز مركز أعدائها وأصحاب نظرية «التصدّي» والمساهمة في تفسيخ ودهورة البلد العربي الوحيد الذي كان يمكن أن يطمح لدور خلاق وفعال في السعي إلى سلام عادل وحقيقي. مما يجعلنا نتساءل وبحق اذا لم يكن هدف التخطيط الاسرائيلي الاستراتيجي ابقاء «منظمة التحرير» معززة

ولكن مدجّنة، واستدراج لبنان لان يصبح دولة مواجهة هي الاخرى مستحيلة، فيسقط بعد ذلك لبنان وتسقط معه المقاومة الفلسطينية.

التحدّي الثالث كان موجهاً إلى لبنان: أن يكون في مستوى الاجماع الدولي على الحفاظ عليه وانقاذه، فترجم ذلك بالتغلّب على متناقضاته الداخلية، ولو بزعامة تفرض نفسها والقضية بالقوة، فيتحرّر الفرقاء المتصارعون ضمنه من التزاماتهم والكوابيس والاسترهانات، ويتجاوز الشلل الداخلي بتحرك خارجي وعربي مستقل، بعد أن يحاول استرجاع الجنوب بالقوة، ولو أدى ذلك إلى صدام. وقد فشل لبنان في رفع التحدّي لانه ظن ان القوات الدولية موجودة في الجنوب لتحل محله في السلطة لا لتساعده على استرجاع سيادته، وانها البديل من السلطة اللبنانية بحيث يترتب عليها هي حل العقد وامتصاص التناقضات، ثم تسليم الارض والشعب إلى الحكم بلا ثمن منه ولا جهد ولا مجازفة ولا تضحية... كأنما المطلوب في النهاية ليس «لبننة» الجنوب بل تدويله.

3- الجنوب والقضية اللبنانية

أيها السادة،

اذا كانت صرخة لبنان في مجلس الأمن «اتركوا شعبي يعيش» هي الشعار الذي انطلقنا منه، ولم ننجح... فان ثمة صرخة أخرى، أطلقت في مجلس الأمن كذلك، وظلت هي الاخرى بدون نتيجة غير تسجيل موقف ينتظر من يفرضه.

وفيما يلي مقاطع نستذكرها من خطاب لبنان في31 أيار/مايو 1979:

«الفلسطينيون في بلدي هم ثورة في الهجرة. أملهم، وأملنا بنوع أخص، أن يوضع حد لهجرتهم فيعودون إلى بلادهم. غير ان السلام وحده، لا الاستمرار في العنف والارهاب، يمكن أن يوصل ثورتهم إلى نهايتها. ان ما حدث بين الفلسطينيين واللبنانيين سيذكره تاريخنا كزلزال لا شبيه له في التاريخ الحديث. لذا نحن مصممون على الا يتكرر ذلك. ففي اطار التضامن العربي، يلتزم اللبنانيون والفلسطينيون الآن بالسلام، كما يلتزمون بسيادة للبنان، يعاد بناؤها غير منازع عليها فوق كل الاراضي اللبنانية. واننا ننتظر من أصدقائنا ومن المجتمع الدولي ان يدركوا معنا أبعاد هذا الالتزام، وأن يصدّقوا مرة واحدة أخيرة، انه اذا لم يكن هناك سلام في لبنان، فلن يكون، ولا يمكن أن يكون، ولا يجوز أن يكون سلام في أي مكان آخر في الشرق الاوسط».

ويمضي الخطاب فيقول:

«أما عن المسيحيين في جنوب لبنان، فأقول انهم أولاً وقبل كل شيء مواطنون لبنانيون لا

تسمح لهم كرامتهم الوطنية ولا طموحاتهم المستقبلية بأن ينظر إليهم احد وكأنهم أدوات مكمّلة لمصالح اسرائيل الاستراتيجية. ان مشكلتهم هي احدى حواصل الحروب التي عاشها لبنان. لذا فان مخاوفهم وهمومهم والاهتمامات لا يعقل أن تقودهم لان يصبحوا ما تسعى اليه اسرائيل: وسائل في لعبة التفرقة وعدم الاستقرار. ان مستقبلهم الوحيد هو في اعادة بناء استقلال لبنان وسيادته. أما أمنهم الحاضر فلا ضمان له أفضل من القوات الدولية تحل محل الاحتلال المقنّع لوطنهم. ان لبنان لن يسمح ولا يمكن أن يسمح أبداً بانسلاخهم أو بانفصال أي جزء من الجنوب عن الجسم اللبناني التاريخي. مثل هذه التضحية تفوق طاقتنا على الاحتمال، واذا تصوّر أحد احتمالها او افترضها يوماً، فان حرباً جديدة ستنطلق في الجنوب، يخوضها اللبنانيون كل اللبنانيين مجتمعين، للمحافظة على الجنوب للبنانيين، وللبنانيين يعيشون فيه وحدهم دون سواهم، بحريّة وأمان وكرامة».

ويخلص الخطاب إلى القول:
«ينجم عن هذا الموقف اننا، اذ نبحث مشكلة الجنوب، فانما هي القضية اللبنانية التي نجدها بالفعل مطروحة أمام مجلس الأمن. وسيذهب هدراً كل جهد يبذل الآن في سبيل الحفاظ على وحدة لبنان، واعادة بناء سلطاته وبسط سيادته، اذا نحن سمحنا بانفجار الجنوب. فحرب نتركها تندلع في الجنوب، ستسوقنا إلى حرب أخرى، وهكذا بالتدرج إلى أن يصبح لبنان من جديد ساحة الصراعات التي كانها خلال الخمس سنوات الماضية».

ترى، هل كانت تلك أحلام ليلة ربيع؟
أم هي بالفعل صورة الواقع الحقيقية، انما يحجبها عن رؤيانا وعن التمتع بكامل فعاليتها غياب استراتيجية وطنية تمسك بزمامها قيادة تفرض شرعية لبنان على اللبنانيين أولاً، ثم تفرضها معهم على سائر الناس؟
قضية الجنوب هي الامتحان لطاقة لبنان على احتمال سياسة تهدف إلى استعادة سيادته والحفاظ على وحدته واستقلاله... لا لوجود خطر احتلال أو اقتطاع أو توطين أو استيطان فحسب... بل لان وضع حدود لبنان الجنوبية موضع بحث سيفتح الباب لان تكون كل حدود لبنان، جنوباً وشمالاً، شرقاً وغرباً، موضع بحث كذلك.
هذا أولاً. وثانياً: إلى الذين كانوا وما فتئوا يقولون ان الحرب اللبنانية، أو بالاحرى الحروب التي عاشها لبنان، كان سببها الوجود الفلسطيني، إلى هؤلاء نقول ان هذا المنطق بالذات هو الذي يجب أن يقودهم إلى الاعتراف بأن لا حل للقضية اللبنانية على حساب الجنوب أو بمعزل عنه، لان الحرب الحقيقية هناك، فلا يمكن أن نبحث عن السلام في غير مكان ونترك الحرب تستمر ونيرانها تمتد ونظن اننا في مأمن من شرّها.
يبقى، موضوعياً، أن نسجل هنا حتى تكتمل الصورة، معالم قضية الجنوب التالية:

سابعاً: تنظيم العلاقات اللبنانية – السورية – الفلسطينية في اطار مثلّث أمني متوازن، تتساوى فيه بين الفرقاء الثلاثة الحقوق والواجبات، كل بنسبة امكاناته، مع ابقاء لبنان على حقّه دون سواه في التصرف بأرضه وبسياسته وأمنه.

أيها السادة،
اذا كانت هذه هي الأهداف اللبنانية للاستراتيجية العربية المرجوة، فأين نحن من الدعوة إلى فصل القضية اللبنانية عن قضية الشرق الأوسط واحلال سلام في لبنان لا ينتظر الحل السلمي الشامل لقضية الشرق الأوسط؟

الجواب يفرض علينا تجاوز الشعارات إلى الواقع. أما الواقع فاستقراؤنا الموضوعي له هو التالي:

أولاً: ان الحرب الفلسطينية مستمرة في لبنان وستستمر إلى ان يدخل لبنان هذه الحرب بقواه الخاصة بدل أن يظل ساحة هذه الحرب ولا دور له فيها غير احتوائها وتحمّل نتائجها.

ثانياً: ان قرار الحرب لن يعني الدخول في الحرب الا اذا حدثت. واذا حدثت فتحمّل لبنان نتائجها هذه المرة لن ينتظر قراراً لبنانياً. فالأفضل للبنان اذاً أن يكون قد تهيأ واستجمع معالم المشاركة والتقرير في يده حتى تبقى له سيادته وحرّية القرار.

ثالثاً: ان الذي لا يشترك في الحرب لا يشترك في السلم كذلك. وبالتالي فلن يكون للبنان من السلم حصة ولن يكون له في السلم دور يحافظ به على نفسه وأرضه وسيادته اذا لم تكن له في الاستعداد للحرب ثم في خوضها، اذا وقعت، حصة موازية لمطامحه من السلم ولحقوقه عليه.

رابعاً: ان السلم داخل لبنان ضائع، بل سائب بل ما دام مستعاراً وما دام لبنان مستضعفاً. وبالتالي فالضمانة الوحيدة للسلام اللبناني في الداخل هي في الاستعداد للحرب في الخارج. والحرب الخارجية توقف الحرب الداخلية لانها وحدها تعيد إلى القوات اللبنانية قضيتها، أي قضية لبنان، وتعطيها المشاركة الوطنية المطلوبة في القضية العربية حتى لا ينعزل لبنان ولا تستمر حربه العربية داخل بيته.

خامساً: ان تكوين القوات اللبنانية التي نطلب لا يعطي لبنان حق الكلام فحسب بل يمكّنه من اسقاط حجج الذين يعتبرونه حلالاً لهم أو خطراً عليهم. فلا يبقى مضطراً لاستئذان هؤلاء

وأولئك في سبيل بسط سلطته على أراضيه والحفاظ على شعبه وحدوده ومؤسساته. بل وأكثر ان وجود قوات لبنانية أقوى من القوات المستضافة هو الضمانة الوحيدة ضد سيطرة هذه بفعل ديناميكية وجودها أياً كانت الاتفاقات.

أيها السادة،
آن لنا أن نعلن بصراحة سقوط المنطق الذي كان يظن انه من الممكن استمرار تعايش الدولة مع الثورة والجيش مع الفصائل المسلحة غير المنتظمة. فاما أن تصبح الدولة دولة وقوية ومنيعة، فتخاطب الثورة اذذاك من مركز القدرة على المشاركة والتوجيه والمساعدة، أو تظل الدولة مستضعفة فتتآكلها الثورة وتفجّرها ويحدث مرة أخرى كل الذي حدث عام 1975 انما هذه المرة على أضخم وتكون النتائج حاسمة ونهائية ولا يقدر أحد على حساب ابعادها.
ان الوجود اللبناني في خطر والخطر مصدره العدو كالقريب. هذا بحكم وجوده وتبعاته وطبيعته وذاك بحكم مطامعه. فبدل أن يكون الفلسطينيون مشكلة في لبنان يجب أن تصبح قضيتهم قضية لبنان بدون تمويه ولا غش ولا ابتزاز وذلك لحماية لبنان والقضية الفلسطينية في آن معاً. وبدل أن تكون سوريا وأمنها مشكلة لبنانية يجب أن تصبح قضية يعمل من أجلها لبنان في اطار من المشاركة بعيداً عن أشباح الوصاية والخوف المتبادل.
تلك هي القاعدة الجغراسية – أو الجيو – ستراتيجية التي تفرض على لبنان كما تفرض على سوريا والفلسطينيين توازن المثلّث الأمني. ومتى سلّمنا بهذه القاعدة وهيأنا أنفسنا لممارستها بطُل تحملنا أوزار المشاركة من غير منافعها حتى لا نقول المغانم. ذلك ان للبنان عدواً واحداً هو اسرائيل ولكن له حلفاء وأشقاء، المراس معهم صعب، كالمراس مع كل الأشقاء والحلفاء.

أيها السادة،
وماذا اذا لم تتقبل الدول العربية هذه القواعد العربية هذه القواعد والأهداف، وماذا اذا اعتبرت طروحاتنا والمطالبة باستراتيجية عربية مشتركة ضرباً من ضروب التعجيز والهرب من الواقع؟
قبل الجواب عن هذا السؤال ومحاولة تصوّر الخيارات التي ستفرض على لبنان اذذاك لا بد من التذكر بأن كل هذا البحث، كالبحث في أزمة الشرق الاوسط وفي حل القضية الفلسطينية وتقرير المصير اللبناني، لا يدور في فراغ بل هو مجذّر في الواقع الدولي وما يسمى بلعبة الأمم. فما هي هذه اللعبة؟

بايجاز كلي نرى ان ثمة أربعة فرقاء بالاضافة إلى الفرقاء العرب يتصارعون عندنا وعلينا بنسب متفاوتة من القدرة والاهتمام:

قـراءة ثانيـة في القوميـة العربيـة

محاضرة ألقيت في «دار الندوة» في إطار سلسلة نظّمتها «دار الفن والأدب» (جانين ربيز) وموضوعها «عروبة نحو المستقبل».
1990/11/8

منطقياً، لا بد من مدخل قصير حول القراءة الأولى – أو ما نظنّه قراءة أولى – للقومية العربية. وهو ليس قراءة واحدة، بل قراءات.

قراءات تتعدد، لا قدر تعدّد الأحزاب أو الحركات القومية العربية، وحسب، بل أبعد من ذلك، بقدر ما تعدّدت المدارس الفكرية والأدبية التي تجاذبت القائلين بالقومية العربية. ولن نقوم باستعراض هذه المدارس ومناقشتها. إنها لمسألة تجاوزناها وتجاوزها الزمن، وقد يأتي من «يموسعها» يوماً (أي يكتب عنها موسوعة!) وهذا يكون شأنه، وليس شأننا. أما نحن، فلسلامة البحث نكتفي بهذا القدر من بسيط الكلام:

القومية العربية هي الايمان بأن العرب كلهم، من المحيط إلى الخليج، أمة واحدة. كانوا هكذا ولا يزالون رغم توزّعهم دولاً دولاً ورغم اجتماعهم، أو اجتماع بعضهم الأكثر، في إطار دولة أو دول غير قومية، هي الامبراطوريات التي سقطت أو تمزّقت.

والعرب كلهم أمة واحدة، بثقافة واحدة، يتكلمون لغة واحدة، ولو لم يكن دينهم واحداً.

فالعروبة إذاً ليست الإسلام، ولو كان الإسلام هو ما وحّد العرب في التاريخ، ثم استظلّه غير العرب، فرساً وأتراكاً، لحكم الأمة العربية حكماً لا ولم يساو في الحقوق والواجبات بين العرب وأهل السلطان.

والقومية العربية هي هذا الشعور بالانتساب إلى وحدة اجتماعية وحضارية تفترض جغرافيتها الانسانية اقامة نظام يبلورها في شكل وحدة سياسية تحمل رسالتها التاريخية وتفرض وجودها وتعزّز قواها الخاصة.

هذا التحديد العام، على ما فيه من تبسيط بل وإبهام، هو الحد الأدنى الذي تُجمع عليه المدارس والحركات القومية العربية المختلفة في انتسابها وجذورها الفكرية بقدر اختلافها في تفسير المترتبات السياسية على النظرة القومية.

حسبنا، استطراداً، هذا التوضيح: إن النظرة القومية هي تفسير لاحق لواقع سابق. الواقع هو العرب، وهو كائن منذ أن كانوا، أو صاروا عرباً.

وأما التفسير، فهو الغوص في البحث عما جعل العرب عرباً في الأصل، وكيف استعرب المستعربون، ومتى تعرّب هؤلاء وأولئك، وأي فارق إذا كانت ثمة فوارق، بين عاربة

ومستعربين... وأيها أرض العرب وأيها أوطانهم أو الوطن، إلى آخر الأسئلة وقد عشنا عليها وتغذينا من فتات موائدها زهاء قرن ويزيد. أفما كفانا إذن؟
يبقى السؤال: لماذا القراءة الجديدة؟ وما جدوى المحاولة؟
في رأيي الجواب متعدّد الجوانب. أوجزها كما يلي:

أولاً: لأن القراءة الأولى، أي التفسير القومي للواقع العربي (وبتعبير آخر التفسير التاريخي اللاحق للواقع الجغرافي السابق له) – القراءة الأولى، نقول، نشأت وترعرعت في زمن يصح وصفه بزمن القوميات وعصر الدولة القومية، تمييزاً لهذه الدولة عن الدولة المدنية، والدولة القبلية، والدولة العرقية، والدولة الدينية، والدولة الامبراطورية، إلى آخر حلقات السلالة. ولأن التفسير لا يغيّر الواقع، فإن رواج تفسير معين في زمن معين لا يمنع، مع تغيّر الأزمنة والأمكنة، قيام تفسيرات لاحقة تختلف عن التفسير السابق لها. على أنها كلها لا تبدّل في الواقع الجغرافي، الذي صار تاريخياً. أي واقع الأمة. والذي يتبدل هو المترتبات السياسية على التفسير: أي نوع الدولة ومثاليتها ونظامها، فضلاً عن العصبية التي بها تتبلور، هل هي العصبية القومية، أم عصبية أخرى سابقة لها تعود تروج، أم عصبية لاحقة أنجبها تطوّر الأزمنة وتبدّل النظم بفعل نشوء ظروف موضوعية مختلفة تغير في حياة الإنسان والمجتمع.

ثانياً: إن ما بين العروبة والإسلام من ترابط تاريخي، سابق لزمن القوميات، وما كان بين العروبة والإسلام كذلك من وحدة حال سياسية سابقة لنشوء الدولة القومية في أزمان الخلافة والامبراطورية. ثم ما قام ولا يزال قائماً بين المسلمين غير العرب وبين العرب على اختلاف أديانهم من روابط حضارية وقربى سياسية تذهب إلى حد التضامن الكياني، والنفور الطبيعي من الحروب الأخوية، كل ذلك يطرح من جديد العصبية الدينية كبديل من العصبية القومية. بديل يمتاز على القومية باتساع الرقعة، وهو أقل الإيمان، وبشمول القربى الحضارية، صعوداً إلى مشاركة في الإيمان يراد لها، ومنها، أن تكون أقوى من الشركة الاجتماعية، الإنسانية الحدود.

ثالثاً: إن التيارات السياسية التي تهز العالم المعاصر، بدءاً بالصهيونية – أي قومية أهل الدين العبري – تتّجه في غالبيتها إلى تفسيخ المجتمعات القومية وتعزيز «الاثنيات» الدينية أو الروابط العرقية ذات الطابع الديني. وهي تيارات لم تنج منها المجموعات المتعدّدة الإثنيات والقوميات، من يوغوسلافيا إلى الصين، مروراً بالقارة الهندية وبالاتحاد السوفياتي، وصولاً إلى المتحدات المنشقّة عن هذا الاتحاد كما هي الحال في مولدافيا، حيث ينشق «الغوكاز»، أي الأتراك النصارى، عن المنشقّين... وهكذا، ربما، دواليك، فمن يدري كم كشمير وكم بنغلادش يخبىء لنا الزمن المقبل علينا؟ بل وكم «كورسيكا» يعطي «شعبها» لامركزية مبهمة الحدود ضمن وحدة «الشعب» الفرنسي.

تلك هي بعض الأسباب – وأشد على كلمة بعض – التي تبرر القراءة الجديدة للقومية العربية، ولنقل، تواضعاً، إنها تبرر المحاولة.
فماذا تراها تكون، هذه العودة إلى القراءة؟
تبدأ القراءة الجديدة، في نظري، بسؤال: أية دولة نريد أن نبني؟ أهي مملكة الله التي نريد على الأرض؟ أم هي مملكة الإنسان، أي مملكة الأمة؟
وبسؤال ثان يتفرّع من السؤال الأول، لعله محور اللاهوت السياسي، إذا جاز التعبير: هل مملكة الله من هذا العالم؟
وهل الدولة هي الطريق إلى الإيمان، فتتجوهر بالدين رابطة ونظاماً ودستوراً، أم أن الدولة مجرد آلة إنسانية للدفاع عن المتحد الاجتماعي وترقيته وضمان حقوقه وحرّياته؟
هل الجنة هي الوطن؟ أو الوطن الأرض هو الوطن؟
لا أعرف تساؤلات محرجة مؤرقة أكثر من هذه. ولم أخترعها للتحدّي –التحدّي الذاتي بالطبع– فهي حاضرة، هذه الأيام، في كل خطاب سياسي وكل نقاش فكري، كما في كل ضمير. أرددها لا لمحاولة الجواب عنها – والجواب، ولو توخّى الطريقة العملية، يظل محكوماً عليه أن ينتسب إلى شيء من الايمان، فزعاً إليه أو فزعاً منه. إنما قصدي مجرد رسم الحدود القصوى للبحث.
وتبقى الحدود الدنيا، ولعلها الأيسر ولوجاً، لأنها حدود التاريخ، أي الحدود الإنسانية المحض، ولنسمّها حدود حنين الإنسان الدائم إلى ماضيه. ولهذه الحدود، لو سهل ولوج الطريق إليها، مخاطر لا بد من التنبه لها. أهمها الغياب عن الواقعية في بحران الحلم، وما أكثر الأحلام، بل الخرافات القومية التي راودتنا وراودت الأمة ولم تجدنا نفعاً ولا قرّبت إلينا أمجاداً.
وعندي، أن القومية العربية ليست خزائن تاريخ، أو خزانة كتب، نسكنها فنطمئن إلى وحيها والأحلام والذكريات الملاح. ولا هي القومية، في المقابل، أن نخترع من الماضي أسطورة، حتى لا نقول خرافة، نسكنها حاضرنا والمستقبل. وكم من الأساطير سكناً، فجنحت بنا، وبعضها لا يزال، فلا نستقر معها وبها على أمر نصنع منه لأنفسنا والإنسان تاريخاً حياً من لحم ودم، أي من واقع الحياة، بدءاً بالخبر وانتهاءً بمجد له قوة الواقع وفاعلية الحقيقية الراهنة.
من هذا المنظار، أدعو إلى محاولة تاريخية لعلها فريدة في طرافتها. محاولة تنظر إلى «القومية العربية» كقوة كيانية، وليس كمجرد تفسير علمي للواقع التاريخي. محاولة تنظر إلى القومية العربية كفكرة محركة للأحداث (idée-force)، وليس كصفة جامدة، أو مجمدة، لكيان طبيعته أن يكون متحركاً. فنسلم، ولو جدلاً، بالنظرة غير العقائدية إلى القومية العربية، نعتبرها، كقوة دافعة ولاءً مشتركاً ولو غير منتظم في المؤسسة الجامعة الإسمها الدولة القومية، أو ما يماثلها.

وسنطلق على هذه المحاولة، بالإذن من المؤرخين، وصفاً أو لقباً، ولنقل عنواناً هو «التاريخ المفسّر»... إذا جاز التعبير. ولنمض معاً نحاول تفسير العصور والمراحل التي عرفها تاريخ القومية العربية الحديثة، منذ نشأتها إلى اليوم.
فماذا نقرأ؟

أولاً: العصر «الأنتي عثماني» أو عصر الاستفاقة. إنها المرحلة السورية – اللبنانية، من حيث أبطالها والدعاة، كاليازجي مثلاً. مرحلة «تنبّهوا واستفيقوا أيها العرب..». تنطلق من التململات الأولى، في نهاية القرن التاسع عشر، عندما بدأ أجدادنا يميزون بين طموحهم إلى الاستقلال العربي (وثمة من كان يقول الاستقلالات العربية) وبين الحركات الإصلاحية العثمانية.
أينعت هذه المرحلة في الهجرة، في باريس، بنوع أخص، حيث كانت مبادئ الحريّات والحقوق الديمقراطية تنمو منذ الثورة، وحيث كانت تصنع كذلك، بعد العصر النابوليوني، وبتأثير الثورات عليه، الأشكال الحديثة للدولة القومية. وقد كان ظهور الحركات السرية إلى العلانية في ما سمي المؤتمر العربي الأول الذي انعقد في باريس، في حزيران/يونيو 1913، أي قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى بسنة. ولا حاجة بنا هنا لأن نذكر أبطال هذه المرحلة، من أعضاء الجمعيات السرية إلى رعيل الصحافة العربية الأول، مروراً بقمم الكتّاب تتلاقى كتاباتهم، من باريس إلى نيويورك، ومن جنيف إلى الأرجنتين وإلى كل مهجر، بما في ذلك مصر التي كانت تنعم بين أقطار الامبراطورية، بمناخ الحرية الأرحب. علماً أن في بعض بيروت وبعض جبل لبنان وبعض الشمال وكذلك في بعض حلب ودمشق... في هذه كلها وربما سواها، كانت ثمة محاولات تحرّرية تعود أصولها، في أكثر من تفسير، إلى عهد فخر الدين، وقد توسلت المطبعة الحديثة، كتاباً وصحافة، في نشر الدعوة القومية، ضمن إطار عثماني مبهم المعالم حيناً، وضد السلطنة وامبراطوريتها، في غالب الأحيان.
حسبنا للذكرى، وهي تنفع، ساعة يتكاثر الشهداء من حولنا، أن بين الأربعين شهيداً الذين علّق العثمانيون مشانقهم على ساحة البرج، عدداً من هؤلاء الأبطال قرنوا القول بالفعل في الدعوة إلى التحرر القومي. يبقى أن نسجل، من باب الأمانة التاريخية، أن النهضة العربية، كما تصورها ودعا إليها الأولون هؤلاء، لم تكن واضحة الملامح الجغرافية – ولنقل الجغراسية – إلا أنها كانت واضحة الأهداف، نابعة من إيمان عميق متحفز في شعور فياض بالتفاؤل الوطني.

ثانياً: العصر الحجازي، ولنقل العصر الفيصلي، أي مرحلة الثورة التي انطلقت في الحجاز، مع الحرب العالمية الأولى، إلى أن بلغت الشام، مروراً بمؤتمر الصلح و... لبنان! تلك كانت المرحلة الرومنسية العظمى، حيث تظلل القتال بالأسطورة، وترافقت البطولات والأحلام، وتجلببت السياسة بالتاريخ العتيق، تبعث رؤاه حياة. وكان من الطبيعي، والحالة هذه، أن تعود القومية تتجوهر بالدين، وأن تتقدّس العروبة بالإسلام في أرضه الأصلية.

إلا أن الحلم الكبير تحطم، وأهله يظنون أنه قاب قوسين من النصر وأدنى. تحطم الحلم، لأن عروبة تلك المرحلة كانت تعوزها لغة العصر وأدواته، بل كانت دون العصر لا بمقاييس القوة العسكرية وحسب، بل قياساً بالبنى الاستراتيجية التي تجيء القوة العسكرية تعبيراً عنها. أي أنها كانت – تلك العروبة – قومية مجتمعات لا ثقافة عصرية تتقدم بها، ولا قدرات اقتصادية لها، متخلفة عن التصنيع متأخرة عن العلم الحديث، تتعبد المثالية في عالم تسوسه الواقعية الشرسة وتتحكم في صراعاته المصالح، أبشع المصالح متلبسة بالمبادئ الخدّاعة.
فكان أن حرّرتنا الثورة القومية من استعمار ولم تحمنا من الاستعمار الذي ورثه... فتحوّلنا أشلاء.

ثالثاً: العصر الشعوبي، لأنه عصر الدول والدويلات، وقد فرغت من محتواها القومي، بينما الزعامات تستمر تنشد أحلام الوحدة العربية وتوقد لها نار الدفء التاريخي والأدبي، علها تشفي الأمة من الإحباط الذي أصيبت به.
في هذه المرحلة، كانت القومية وكأنها تتلمّس جسدها، تفتش عن حدودها، أمن الخليج إلى المحيط حقاً؟ وإذا بالعروبيين تقابلهم الفينيقية هنا، والفرعونية هناك، والبابلية هنالك، بينما الجزيرة تنكفىء على نفسها، نجداً وحجازاً، والأطراف تنام... وبينما المغرب العربي يتعثّر في بحثه عن ثورة يعتمدها بديلاً من الحلم الأندلسي الذي هاجر مع فيصل من الشام.
غير أن عصر الدول والدويلات، ولو شعوبياً، كان عصر نضال كذلك النضال في سبيل الاستقلال، إنما لكل كيان استقلاله، على ألا تنفصم عروة العروبة الوثقى، حتى ولو في لبنان، حيث كان ثمة، مع جبران تويني –وليسمح لي بالتذكير بالنسب افتخاراً– من يقول بـ«القومية اللبنانية العربية» أي بلبنان «عروبي الوجه واليد واللسان». وهي الكلمات التي كرسها الميثاق الوطني، عند الاستقلال، سنوات بعد قولها في «النهار».
ثم حتى القومية السورية وهي المحاولة العقائدية الأولى لإعطاء الأمة، فالقومية معناها العلمي... أبقت للعروبة حقوقها بتأكيد انتساب الأمم العربية –لا الأمة الواحدة بل الأمم المتعددة المتميزة – إلى «جبهة» عربية جامعة. إلى أن كان «البعث» المحاولة العقائدية المواجهة للقومية السورية تنقل خصائص الأمة العلمية من سوريا الطبيعية إلى الأمة العربية مجدداً، من غير أن تلاقي الدعوة تجاوباً شعبياً منتظماً خارج هلال سوريا الخصيب.
كلها كلمات تقاذفتها صراعات نظرية حول هوية العرب، أهي هوية أم هويات؟ إلى أن أفسحت الحرب العالمية الثانية والمتغيّرات الدولية مجال ظفرنا بالاستقلال، دولة بعد دولة، فتكرست الحدود القائمة أقوى من الحدود الطبيعية التي كنا نختلف عليها، حيث لا نختلف على مبدأ وجودها: أوهم هي أم حقيقة مجرد أمر واقع؟
وصار الأمر الواقع هذا نظاماً دولياً State System، إذا حرّكت جزءاً منه تخربط النظام بكامله وإذا مسست بكيان صارت كل الكيانات، من جديد، موضع بحث، لا يضمنها شيء، لا

بعضها، ثم انفجر. وسيذكر التاريخ لعصر التبعثر أنه جعل الثروة، لا الثورة، شعار القومية العربية... فباسم الثروة النفطية، اتّحد عرب الخليج. ومن أجل أن تصير لهم ثروة، اجتمع أهل المغرب. والثروة، كالحلم بها، كلاهما اليوم مهدد بما يشبه الزوال، كأنما هي القومية، قومية الفقراء تنتقم.
إلا أن الانتقام الأعظم الذي واجهته القومية، في هذا العصر، كان بروز الدعوة الإسلامية بديلاً منها. وبرغم تفاوت نجاحاتها وتباين اتجاهاتها، نجد اليوم أن الدعوة الدينية هي النداء الأقوى لطي القومية وبناء المجتمع والدولة انطلاقاً من قواعد الدين. علماً بأن أكثر من مجتمع عربي وأكثر من دولة تتكيّف مع الدعوة الإسلامية وتحاول استيعابها بالتقرب من الاسلام، مضموناً للقومية العربية، على أن يظل يتميز عرب الإسلام عن سواهم من المسلمين، فينفتحون عليهم بروح تعاونية معطاء، حدودها الفوارق في الهوية.

ثامناً: نصل أخيراً إلى خاتمة المطاف، المرحلة الأشد إيلاماً لأنها عصر الزمن الرديء الذي نعيش وشعاره استعانة بعض دولنا المستقلة بجيوش هؤلاء الذين استقلت منهم وعنهم، وذلك للدفاع عن نفسها أو استعادة سيادتها في وجه دول عربية مستقلة أخرى.
ويتقسم العالم العربي الذي كان بالأمس تبعثر: العرب عربان، بل... عُربان! وثمة من يقول إن القسمة ليست بين دول ودول، أو مناطق ومناطق، ولا بين أنظمة وأنظمة، هكذا عمودياً... إنما هي أفقياً، قسمة بين أنظمة وشعوب.
ولكن، من يعرف، من يدري، من يقول؟
هنا يتوقف التاريخ.

أراني أمعنت في حديث التاريخ، وموضوعنا هو المستقبل.
ماذا إذاً عن العروبة من أجل المستقبل؟ ماذا عن مستقبل القومية، وماذا عن مستقبل الوحدة، وماذا عن مستقبل المضمون القومي للدول، المتحاربة منها اليوم، والمتفرّجة؟ وماذا عن هويتها، أو هوياتها في الغد القريب والبعيد؟
وهل نستمر نعيش، في عصر مقبل، صراعاً يتزايد بين الأمة والدين، حتى لا نقول بين حزب الله وأحزاب الأمة؟
ولنبدأ من البداية.
عندما نتحدث عن «عروبة نحو المستقبل»، فطموحاً منا للقومية العربية بأن تنتقل، وينتقل معها ولاؤنا، من تاريخ الأمس إلى تاريخ الغد، وأن يصبح الغد القومي غنياً بالطموحات بدل أن يكون مثقلاً بالذكريات.
أي أننا نريد قومية «هادفة» – بالتعبير المتداول، ولو كنا لا نعرف له تعريفاً دقيقاً... نعم «هادفة». وبتعبير فلسفي، نريد قومية «غائية» (ولن أقول، حتى لا نستزيد التفلسف: قومية

تيليولوجية، اشتقاقاً من كلمة تيلوس الاغريقية). نعم، قومية غائية. بمعنى أن تكون واضحة الغايات، وضوحاً موضوعياً، علمياً وعملياً. أي أن يرتب الولاء لها التزاماً بمشروع قومي قابل للتنفيذ. ونعني بالمشروع القومي الأمور الثلاثة التالية:

أولاً: نظام ديناميكي للعلاقات العربية، يسير بها تدريجياً نحو المزيد من الارتباط والتوحيد، وذلك على الصعد السياسية والاستراتيجية والإنمائية، علماً بأن محور الإنماء، في مفهومه الحديث، هو إنماء شخصية الإنسان وذاته، بحيث يتحقق يناعه الكلي في المجتمع المتكامل.

ثانياً: تطوير المحتوى الحضاري للدول العربية في اتجاهات التقدم الإنساني، فلا يتكون المستقبل من بقايا الماضي وفتات أمجاده وأضغاث الأحلام، بل يكون، بالفعل، بديلاً من الماضي، طامحاً إلى التفوق عليه، وأكاد أقول إلى التحرّر منه. وهذه النظرة، بل هذا الموقف الكياني، يفترض فيه أن يحملنا إلى مشاركة ما نسميه – هرطقة – «العالم الخارجي»، إلى مشاركة هذا العالم في التربية والبحث والاختبار والاختراع والهندسة والتصنيع والخلق، مشاركة فعّالة متساوية حرة خلاقة. وذلك حتى لا نظل نستنقع أنفسنا في مرتبة «الاقتناء» أي في مجتمع استهلاكي محض، وكأنه محكوم علينا، أو كأننا نظن أنه أفضل لنا وأيسر أن نقتني الحضارة «من خارج»، سيارات وأسلحة، مروراً بما نستحلي من ضرورات الحياة وما يطيب لنا من كمالياتها، مما هو بمثابة الاستسلام لاستعمار من طراز جديد، ذلك بأن المجتمع الحر هو القادر لا على إنتاج حاجاته إنما على اختراع وإنتاج حاجات الآخرين كذلك.

ثالثاً: الإفادة من الاختبارات السياسية والاقتصادية التي عاشها ويعيشها العالم الحديث فندخل في صميم هذا العالم، بدل أن نكون خارجه وكأننا نتربّص به وهو يستغربنا باستمرار. ومتى تحرّرنا من الجفاء والخوف، نقبل على مشاركة العالم المتوحد في إيمانه بالحريات، فنصوغ بدورنا هذه الحريات لا في دساتير حكم تظل حروفاً ميتة، بل في الممارسة السياسية القائمة على الحوار الوطني الحر، حوار المواطنين المتساوين في الحقوق والواجبات، بحيث يجيء قرارهم السياسي قراراً ديمقراطياً مبنياً على توافر خيارات متعددة.

وكي لا يظل كلامي مبهماً، أرتئي أن أقدم ولو نموذجاً لما أدعو إليه، أو مثالاً... مع العلم أن من صميم القومية ألا تشبه أمة أمة أخرى، في نموها وسياستها، أو تغدو الحريّة نسخاً وتقليداً.
أما النموذج، فهو اليابان.
اليابان التي خسرت حرباً، فتفوقت، في أقل من نصف قرن، على المنتصرين عليها. اليابان التي كانت أكثر منا تعلقاً بالتراث، فأصبحت من أرقى الديمقراطيات. اليابان التي كانت وطن النزاعات المحافظة، فصارت عنوان الحداثة في كل شيء!

لا، كلا... التاريخ حريّة. وهو كله، ملك الأحرار الذين يتحركون ضمنه بحرية، يرتاحون إلى كل ما فيه، ويفرحون بما يعبّون منه.
عند هذا الحد، يلتقي التاريخ، كما ننظر إليه يلتقي بالجغرافيا. نعم، على غرابة التعبير: ثمة بين التاريخ والجغرافيا، في النظرة الكيانية إلى هذا وتلك، مفاصل افتراق أو مفاصل التقاء. وعندنا، أنه إذا نمت القومية العربية المستقبلية وانطلقت في تاريخيتها، فإنها إذذاك، بحكم منطق الحياة، تنطلق كذلك في البعد الجغرافي حيث لا خطوط حمراء كذلك، ولا متاريس نتقوقع خلفها.
وبالتعبير المبسط، الرسالة العالمية للقومية العربية، التي طالما حلمنا بها وتحدثنا عنها ونحن نتغنى بماضينا والأمجاد والجمالات. الرسالة العالمية، ولنقل الكونية، الانسانية هذه تكون أو لا تكون تبعاً للبعد التاريخي الذي تتخذ. أي ان الانطلاق الجغرافي رهن بالانطلاق التاريخي، ولعل كليهما واحد.
والعروبة التي نريد هي تلك التي تتحرك، كالفيض عند الفلاسفة الأقدمين، في كل اتجاه. رسالتها إلى العالم رسالة تفاعل وعطاء، تأخذ لتعطي، تأخذ المنجزات، تصهرها وتهضمها وتبلورها، ثم تعود تعطي من أخذت منه حقوق المشاركة في إنتاجها والإنجازات.
تلك هي، تمييزاً عن الرومنسية التي تشلّنا بجماليتها، النظرة البراغماتية التي ندعو إليها، في البعدين المتكاملين، التاريخي والجغرافي. ولمن يهوى السجع الأدبي هذا الشعار: ما نأخذه من الزمان نعطيه للإنسان.

لكن ماذا عن لبنان والقومية العربية المستقبلية؟
يحضرني هنا قول جبران خليل جبران الشهير: «لكم لبنانكم ولي لبناني».
لا، يقول لبنان، أو نحسبه يقول، بل: «لكم عروبتكم ولي عروبتي...».
من هنا نبدأ.
ويحضرني استشهاد آخر، قاله المتنبي عن مصر، ولعله الآن أكثر انطباقاً على لبنان:
«كأن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان»
ترى، هل فقد اللبناني عروبة الوجه واليد واللسان التي كان ميثاق 1943 تأكيداً لها، ثم جاءت المواثيق المستحدثة تزيد في التأكيد والتعريب؟

من أين نبدأ؟
أولاً: من أن لبنان، في القضية العربية، وطن نهائي لكل أبنائه في وسعه الآن، في اطار التقلبات العربية المأسوية، أن يقارب أدق المواضيع متحرراً من كل خوف وبغير مركبات، شرط أن يعرف هو كيف يعزز ذاتيّته ثم سيادته.

ثانياً: وحده لبنان يقدر، بعد كل الذي أصابه والتضحيات، أن يأخذ مبادرة انقاذ العروبة من المفاهيم الماضية التي تمنعها من التحرك عملياً تجاه المستقبل، ليجعلها تكتسب بعدها التاريخي والجغرافي.

ثالثاً: الهوية العربية لم تعد مشكلة في لبنان أو خطراً عليه. إن هي إلا بحث نظري عقيم يجب تجاوزه. وفي الزمن الذي يعاد فيه النظر، بكثير من العنف عند سوانا، في تحديد القوميات ومتى تكون للقومية دولة واجبة الوجود ومتى لا تكون، ومتى تنفجر القومية الواحدة قوميات، ومتى توحّد الدولة الأمم ومتى لا توحد. في هذا الزمن بالذات، يجب أن يقوم في لبنان من يطوي صفحة التنظير في الهوية اللبنانية وحلقاتها والصفات ليعزز حقوق لبنان على العرب. ذلك بأن المحتوى الحضاري للبنان هو عروبة المستقبل وهي عروبة أشد أصالة من كل العروبات المستحدثة أو المكلسة كالقبور عند سواه.

رابعاً: لأن لبنان، دون سواه من الدول العربية، رفض – ولرفضه هذا أبعاده – نظرية الوطن المسيحي... ففي وسع لبنان أن يكون، من جديد، صاحب المبادرة في حماية القومية العربية من الدعوات الإسلامية إذا كان المقصود منها ايجاد دولة دينية بديلة من العلمانية العربية. علماً أن في كل مسيحي عربي عريق بعداً إسلامياً غالباً ما تحسسه وسقاه وأينعه أكثر من المسلم العربي. ولا نخال أحداً غير اللبناني العربي يقدر أن يدرك كم أن القربى التي بين المسيحي العربي والمسلم العربي هي أعز وأقوى، في مملكة الإنسان، أي في الوطن، من القربى التي بين المسلم العربي والمسلم غير العربي. هذا طبعاً بمنظار المستقبل، إذا أردنا ألا تظل العروبة ماضياً وليس تاريخاً مقبلاً على الحياة.

خامساً: بالمقاييس العملية، بل العملية جداً: ماذا تراه يكون الأقوى، بعد الاختبار اللبناني الأليم: الحياة المشتركة المفروضة علينا، أم النظريات التي تفكك عرى الحياة وليس عندها بديلاً من الحياة إلا الموت والفناء؟ وماذا نريد للبنان، ومن بعده، ومن عنده للعرب: فلسفة للحياة، أم هذا اللاهوت السلبي الإسمه «الابوفانيكي»، وهو يقود دائماً إلى العدم حتى في الشؤون الدنيا؟

إن ما بين الله والإنسان، وما بين الإنسان والتاريخ، لمختلف جداً. أو يعقل أن يريد الله نهاية الناس لكي يرفض الناس بدورهم الدعوة إلى تلاقي الأديان؟ ثم إن بين الله والتاريخ تعاقداً أعظم من إدراكنا ولا قبل لنا على تسييسه. فبأي حق؟ وبأي حق، وأية معرفة نجيز لأنفسنا أن نقيس فعل الله بالتصرف الإنساني؟

عنه. وتمركزهم في السلطة الذي جاء نتيجة ادعاء المضي في المسيرة الديمقراطية لا يبرر كما لا يفسر كيف اصبح قانون العفو اجازة او موافقة على الاستمرار في نظام السرقة والنهب.
هل يمكن ان يلام اللبنانيون، وهم الذين عانوا الكثير واخضعوا لنظرية «المؤامرة الخارجية» التي تسعى إلى هلاكهم – وهو امر واقع لان لبنان الحرية والديمقراطية كان يزعج الاعداء والاصدقاء في آن واحد – إذا رفضوا الاقتناع بان اليهم وحدهم يعود امر اعادة بناء بلادهم ومدنيتهم ومجتمعهم، وان عليهم اعادة بناء الدولة المستقلة والمواطن الجديد ليكون على مستوى تحديات الالف الثالث، رجل السلام الذي يصرع رجل الحرب، رجل الديمقراطية المنتزعة لا الممنوحة.

سيداتي سادتي.
سنتابع، اذا سمحتم على طريق تناقضات الازمة ومفارقاتها. فاللبنانيون الذين باتوا لا يتوقعون شيئاً من قرارات الطائف ولا من تلك الصادرة عن مجلس الامن فهي غدت من بيروت إلى قانا – حروفا ميتة ودفنت تحت الانقاض، انصرفوا إلى لوم الاعجوبة – «الاعجوبة اللبنانية» – التي لم تستجب وتلب النداء لتكون في تصرفهم في ساعات انتظارهم الطويل وايام الترقب والمعاناة.
هل يجب ان نقول لهم ان لبنان لم يعد كما كان ينشده الاديب اللاتيني بلين لوجون «الارض المحبوبة عند الالهة»، وان الاله مات حقا عندما شرعوا، بين المجزرة والاخرى يصلون ويطلبون ويباركون اسمه ويطالبونه بالانتصار؟ ولكن اذا اعتبرنا انه لم يمت، الم يتمم الذين كانوا يتقاتلون باسمه على جانبي الحواجز ثم يتولون الحكم وايضا باسمه، ألم يتمموا عملية قتله؟

سيداتي سادتي
انهاء الحرب هو اليوم في استعادة الايمان والثقة. فاعادة الاعمار لا تستقيم في نظام حكم تجريدي بل انطلاقا من توافق واقعي، ميثاق وطني جديد يلتزمه جميع اللبنانيين لاعادة بناء لبنان لهم جميعاً بحيث يجد الكل انفسهم فيه ويستظلون العيش في ربوعه، فلا يكون الوطن الذي ترحل عنه مجموعة بعد اخرى بل البلاد التي تسمح لهم بان يكونوا معا ومنفردين في وقت واحد.
نعم! انها الطريقة التي تمكن اللبنانيين اليوم وخصوصا لبنانيي الغد من تحطيم كماشة الحرب التي خلطت بين اللبنانيين و«الآخرين»، «الآخرون» كل الآخرين الذين اقاموا عندنا، في داخلنا، في قلب جدران مدينتنا وباتوا اليوم داخل قلوبنا وعقولنا.
هل من الضروري ان نكرر هنا، انهم هم انفسهم اي كل الآخرين – الذين من اجلهم وبواسطتهم استمرت حروبنا، فكانوا يجوعوننا بيد ويغدقون باليد الاخرى على القتلة، ناشرين السلاح والذخيرة والتهريب يمنة ويسرة على مؤسسات التدمير ومنظماتها كما على

الخلايا والجماعات هنا وهناك. فأقل ما يمكن قوله وهو امر اصبح واضحا تماما، ان اللبنانيين لم يكونوا ابدا قادرين على تمويل الحرب وحدهم.
كانوا يدفعوننا إلى التقاتل سعيا وراء انتصارات يعرفون جيدا انها مستحيلة، وهدفهم ان ندمر بعضنا بعضا. فالهدف لدى الآخرين كل الآخرين كان اضعاف الحلفاء مع ابقائهم قادرين على معاودة الحرب. اي ان الحرب بدأت قبل الحرب وانها كانت حربا من اجل الحرب ومن غير مشاريع سلام.

ماذا دمرنا اثناء الحرب وقبلها؟

ولكن قبل ان نتناول وضع لبنان الذي يتجه نحو اعادة الاعمار لا بد من ان نتساءل: ماذا دمرنا نحن جميعاً؟ ماذا دمرنا اثناء الحرب بل وقبل هذه الحرب التي جاءت نتيجة بمقدار ما كانت سببا للقضاء على المدينة وعلى الدولة والمجتمع واخيرا الانسان؟

سيداتي سادتي
لا تراودني فكرة تقديم بيان سياسي او جردة كاملة بالدمار الذي لحق بنا ولا بمشاريع الاعمار، وهي كثيرة بل ان ما اهدف اليه هو الخروج بالشروط التي تسمح بترميم الحياة المدنية في لبنان اي بمعنى آخر خلاص بلاد هي وطن واحد وموحد منحته دروس الحرب القوة والمناعة ضد اليأس.
ولنوضح قبل الاستفاضة ان ما تم تدميره مادياً ما زال على ما هو على رغم الجهود الضخمة المبذولة لاعادة بناء مؤسسات الدولة والاعمال هذه ماضية على رغم المصاعب المالية المترتبة عليها وافتقاد الاستقرار المنشود.
غير ان هذه الجهود ما زالت بعيدة عن توفير التأييد الشعبي الشرط الملزم الذي لا مناص منه لاعادة البناء. يكفي ان نذكر وبوضوح تام ان مما دمر هو ابعد بكثير من ذلك الماثل للعيان.

1- تدمير المدينة اي التدمير المعنوي والمادي للمدن والقرى والاماكن العامة والطرق وشبكات الماء وخطوط الكهرباء وميادين التجارة والصناعة وحتى مقدساتنا الوطنية. ولقد زاد في وطأة هذه الصورة الكئيبة صورة اخرى في ارتفاع المباني والمراكز السكنية خلال فترة الحرب. واذا كانت تشهد على ارادة اللبنانيين في الحياة والمقاومة وتمسكهم بالارض والوطن الا انها زادت في تشويه الطابع المميز للمدنية واحدثت اضطرابات في البيئة وفي الواقع الاجتماعي بحيث تسبب هذا التطور المديني المتوحش في خلق امر واقع جديد لا يمكن اصلاحه.
2- تدمير الدولة في مؤسساتها الادارية، وتلك الاخطر، مؤسساتها الامنية جيش وقوى امن، اي تحديداً الاداة التي يفترض ان تتولى الحماية وتمنع كل تدمير، والتي يعاد اليوم بناؤها بجهد غير متقن.

طوال نحو عشرين عاماً فقد الحكم والسلطة اولئك الذين كانوا يملكون الشرعية الدستورية. في المقابل كان الذين يهددون الحكم ويتقاسمون الارض والسيادة لا يملكون، في احسن الاحوال، غير شرعية تطلعاتهم واحلامهم ان لم نقل جنونهم بل خياناتهم، وتجاوز هذا الوضع تم جزئياً ليس الا.

3- تدمير المجتمع ولاننا لم نخرج بعد من الاضطراب الذي خلفته الحرب على الوضع الاجتماعي فمن الملحّ بالنسبة الينا التخلص من ثغره باشكالها المختلفة: الغياب شبه الكامل للطبقة الوسطى وهي المهد الاجتماعي والتاريخي للديمقراطية، تهجير السكان داخل بلادهم وخارجها، الانماط الدينية وحتى المذهبية للاحياء والمناطق التي تهدد في حال ترسخها بقيام المؤسسات الهادفة إلى اعادة الوحدة الوطنية.

ولا بد من ان نشير اخيراً إلى الآثار السلبية التي يحدثها اقتصاد «التشبيح» من طريق الوزارات ومجالس «الاصلاح» والتنمية المناطقية، وهو اقتصاد كانت شرعته الاحزاب والميليشيات التي تحولت مافيات فعلية تقوم بنهب المواطنين – من طريق فرض الضرائب – والاستيلاء على الثروات الوطنية وما تبقى من مداخيل لدولة تبخرت، وكان يمكن لمظاهر الثروة غير المشروعة المخدشة للحياء والذوق ان تزدهر ولأثرياء الحرب ان يفرضوا قيمهم واذواقهم وسلطتهم.

4- تدمير الانسان إذ انهزمت ثقافة التفاهم والحوار والانفتاح امام ثقافة الحواجز والمتاريس. بل مضينا ابعد من ذلك فشيدنا حواجز للثقافة، اي بمعنى آخر اقمنا عبادة العنف المادي والمعنوي، وعقيدة طفولية، واخيراً مظاهر لنشاطات ادبية وفنية تمجيداً للأمة (اي امة) وكلها موضع شك. والادهى من ذلك انه تحت مظلة هذه الدساكر الثقافية كانت ترتفع الجدران غير المرئية للحقد ورفض الآخرين.

وهكذا اصبح لبنان فسيفساء، لاكثر من برلين واحدة جدرانها في تراجع دائم.

كان علينا ان نسقط هذه الجدران كي لا يقضي اللبنانيون اختناقاً والا تكون وحدة لبنان اي استمراره وعلة وجود الكيان اللبناني موضع الخطر الدائم.

سيداتي سادتي

انتظار الاعجوبة التي قد تحمل إلى لبنان السلام واعادة الاعمار، اي الخلاص لم يكن ليخلف غير الانعكاسات السيئة. ذلك ان مقولة المؤامرة التي تعتبر تدمير لبنان عائداً إلى رغبة القوى الكبرى عكسها اللبنانيون، بمعنى ان هذه القوى هي نفسها التي ستقرر مصيرنا. فهي القادرة على اعداد السلام الذي سيكون سلامنا، وتعيد الينا بالتالي لبنان الجديد: المدنية، الدولة، المجتمع والمواطن في وقت واحد. هنا السؤال الذي يطرحه الناس على انفسهم وعلينا يومياً: هل «سمح» للبنان بالعودة إلى الحياة من جديد؟

هل اتخذ القرار الدولي بذلك ام علينا انتظار ايام افضل قبل «العودة»؟

وهنا لا بد من العودة قليلاً إلى الوراء واسترجاع صفحات من التاريخ. ان استقلال اللبنانيين يعود إلى مرحلة القرون الوسطى وتوجها آنذاك الامير فخر الدين المعني الكبير. الا ان اللبنانيين ذاقوا المحن كذلك وتعرضوا لسلسلة من الاحتلالات كان كل منها يدعي هدف تحريرهم من الآخرين. وانتهى بهم الامر إلى الاعتقاد ان كل تحرك يجب ان يستند إلى «باب عال» ما، ولو حدّ من سيادتهم الا انه يوفر لهم الحماية، اي بمعنى آخر اللجوء إلى رعاية من تتولى بت النزاع وتفرض عدالة ولو من خارج حدود الوطن. هكذا عومل العثمانيون على رغم كره اللبنانيون لهم ثم جاء المفوض السامي خلال الانتداب الفرنسي. واصبح الباب العالي، في وقت ما بريطانياً، اميركياً، ولكنه كان ايضاً في وقت ما روسياً واحياناً فلسطينياً او اسرائيلياً بفضل الآمال الثورية، واخيراً سورياً مع هذا الفريق حيناً مع ذاك احياناً. وهل من الضروري ان نذكر ان «الباب العالي» الذي اعلن في الطائف وانهار قبل ان يرتفع انتهى إلى اقناع المتشائمين من اللبنانيين بانه لن «يسمح» ابداً للبنان تقرير مصيره بحرية؟

ولا بد لفهم فشل الطائف من ان تكون ماثلة امامنا عملية الالتفاف على «الحل العربي» وقد يكون ذلك نتيجة التعب او الجبن او قلة الاكتراث. فمن منا لا يزال يذكر الركيزة التي قام عليها الحل العربي هذا؟ انها اللجنة الثلاثية التي تشكلت من ملك العربية السعودية وملك المغرب والرئيس الجزائري، وتهدف مهمتها في الاساس إلى تفكيك القبضة المطلقة لسوريا على لبنان والافساح في المجال امام اللبنانيين لبناء سلام عربي وفق اصلاحات دستورية متوازنة على ان تواكب ذلك مساعدة اقتصادية لم تأت ابداً... اذا انتقلت رعاية اللجنة الثلاثية إلى سوريا مع الترتيبات الدستورية وبالطبع من غير تمويل.

لا يمكن فهم تردد السلطات اللبنانية، هي التي يفترض فيها تأمين السلام، في نزع كل المبررات للوجود السوري، او «الاحتلال الاخوي» لسوريا والذي تميزه عن احتلال العدو الاسرائيلي.

اذ بعد حل الميليشيات لم يعد هناك من خطر داخلي يستدعي هذا الوجود. اما بالنسبة إلى الخطر الاسرائيلي فلن تستفزه اعادة الانتشار السورية ولا هي الفرق العسكرية السورية التي تمنع هذا الخطر. فهل سوريا غير بعيدة عن هذا القلق او الانزعاج القائم ما دام يذكي تدخلها؟ بالطبع لسنا في وارد انكار المعطيات الجيواستراتيجية ولكن من الواضح انه لا يمكن حكم لبنان ضد سوريا، ولكن هل هذا يشكل سببا كي لا يحكم لبنان الا مع سوريا؟ بل افضل، او اسوأ ان تحكمه سوريا.

ان الوجود السوري في الواقع المتجسد منذ ستة اعوام يؤدي إلى الغاء كل سياسة لبنانية: فهو يفرغ المؤسسات من مرتكزات السيادة ويمنع لبنان من المضي قدما في علاقاته مع سوريا نفسها وفي ان يحمل اليها افضل ما لديه، في الثقافة والمجتمع والاقتصاد، كما يحول دون اقامة تعاون فعلي في اطار احترام السلطات اللبنانية. وفي الاشارة إلى «الورقة اللبنانية» التي تمسك بها سوريا في مفاوضات السلام تأكيد لالغاء السيادة اللبنانية.

ولبنان ليس ورقة في «اللعبة الاستراتيجية» الا ان عليه ان يكون شريكا كاملا. ولبنان ليس بلدا تابعا يلقن حكامه سياستهم من طريق الصحف، بل على العكس يريد ان يكون مع سوريا على طاولة المفاوضات جنبا إلى جنب وبالاتفاق مع سوريا، الا انه لا يريد ان يكون هو على الطاولة، طاولة المفاوضات. اي بمعنى آخر نريد ان نكون مدعوين إلى وليمة السلام في الوقت المناسب ولكننا لا نريد ان نكون طبق هذه الوليمة.

اذاً للخروج من المأزق الموجود فيه لبنان حاليا لا بد من اعادة التفكير في العلاقات اللبنانية – السورية في اطار سياسة عربية تعترف لمراكز السلطة اللبنانية بكل ابعادها وبحقها في القرار.

وليس هناك ما يمنع المسؤولين اللبنانيين، وفق الاتفاق السوري – اللبناني لعام 1991 والذي قدم على انه اول اعتراف قانوني باستقلال لبنان، وهوجم كذلك باعتباره كونفيديرالية مقنعة، من ان يقولوا «لا لسوريا» الا اذا كان الحاكمون يعتقدون ان وجودهم في السلطة مرتبط بالادارة السورية، ولو بنسبة مفترضة. ولا شك في انها فرضية ليس الا، فهل سعى احدهم إلى سبر غور التطلعات السورية؟ هل يملك احد معرفة «عتبة القبول السوري»؟ في النتيجة المحتل – هل سوريا هي فعلا كذلك؟ – لا يأخذ ما نوافق نحن على اعطائه، من هنا اقتناعنا وان غير المبرر، بأن الوجود السوري هو محصلة تقاطع موضوعي للمصالح الاقليمية والدولية. ربما علينا، في عملية اقناع اللبنانيين، الاستشهاد بعبارة هيغل المذهلة في جدلية السيد والعبد: «كما ان السيطرة تظهر ان جوهرها هو عكس ما تريد ان تكون كذلك الخضوع يصبح في غائيته عكس ما هو عليه في اللحظة. ان الخضوع كالادراك المكبوت يصبح امرا داخلياً ويتحول إلى استقلال حقيقي».

سيداتي سادتي

لقد اصبح مألوفا ان نقول ونفكر ان من الاسهل اعادة بناء المدينة والدولة على اعادة الدور إلى الانسان والمجتمع.

قبل ان نتناول وباقتضاب حالة اعادة البناء في مجملها فليسمح لنا بنقل هذه الرسالة.

ان لبنان ما زال ينشط وبأفضل حال من منافسيه، اصنفوا اصدقاء ام اعداء، وذلك على رغم ما اعترض طريقه وما شهده من اضطراب. وهذا كله يدفعنا إلى التساؤل: هل الحرب نفسها وما تلاها عوض ان تدمر الانسان اللبناني اعطت الحياة «انسانا جديداً» منتفضاً، وفق التعبير الانكليزي وفي وضع التأقلم المستمر، بحيث يتوافق مع الظروف الاكثر صعوبة للاستمرار وتأكيد ارادة البقاء؟

اللبناني ما بعد الحرب يجهد اليوم، على رغم مشاعر الاحباط لكونه غير مشارك تماما في اعادة اعمار بلاده، كما خلال الحرب في اعادة بناء لبنانه. المختصر بالعائلة والطائفة والمنطقة، اي كل ما هو في حدود طاقته.

اي مدينة، بل اي وطن؟

سيداتي سادتي

وصلنا إلى قلب النقاش حول موضوع اعادة الاعمار ولمزيد من التوضيح سأعود إلى الترتيب الذي عرضته في بداية كلمتي.

نتكلم بداية عن المدينة.

في هذا الموضوع يسير البناء على ما يرام بل انه في وضع جيد جدا وسريع، والبعض يعتبره سريعا جدا. ولكن هل الامور كلها «سائرة تماما» وفق القول المأثور؟

المتشائمون سيقولون لا! لان الدين العام الذي لا بد منه لتمويل اعادة البناء بات عبئاً ثقيلاً للغاية من الصعب النهوض به. وليس هذا فحسب، فالاعتقاد لدى البعض انه يمكن اعادة بناء الانسان والمجتمع من طريق اقامة المدن والطرق والاوتوسترادات والبنى التحتية والفوقية، اسقط او اغفل دروس العلم والتاريخ وفي مقدمها ان جهود التنمية الاقتصادية والاجتماعية والمدينية يفترض ان تقوم على صورة الانسان الذي هو البداية والنهاية.

ولا يبدو لي مستحيلا، من غير الدخول في النقاش المعروف بين القائلين بالتركيز على الانسان اولئك الداعين إلى بناء المؤسسات اعطاء كل ذي حق حقه وتأكيد بعض المسلمات التي تفرضها مشاكلنا الخاصة فضلا عن الحاجات. ومن الواضح لنا ان الانسان هو الذي يبني المدينة لا العكس ولا يفترض ان تكون هذه المدينة على صورة البناة بل وفق حاجات الذين يقيمون فيها او الذين سيسكنونها مستقبلا.

من هنا السؤال: اي مدينة، اي بمعنى اخر اي وطن نريد اليوم؟ اي عاصمة، اي بيروت نريد؟ هل هو وسط المدينة هذه الـ 5 في المئة او العشرة في المئة من المدينة – العاصمة التي تفترض ان تستأثر بكل اهتمامنا في حين ان بيروت الكبرى اصبحت «مدينة – منطقة»؟ هل يمكننا ان نفكر بسنغافورة او ماليزيا كنموذج في حين انه على مسافة خطوتين تتهددنا بنغلادش؟

هل يمكن بيروت ان تكون المدينة – العاصمة ومرفأ اللهو ومرسى اليخوت الضخمة وفي الوقت نفسه ينمو حولها حزام بؤس هو نفسه الحزام الذي سبق ان تسبب بالنزاع الاجتماعي وكان وراء تغذية الحرب؟

ان لبنان الذي يريده الناجون من الحرب لا يمكن ان يكون لبنان بطاقات المعايدة ولا وطن عملاء التجارة، ان اللبنانيين الذين كانوا على الدوام رواد ثقافة وابناء تراث عريق يتطلعون اليوم إلى المدينة – الرسالة.

ورسالة الحوار الاسلامي – المسيحي التي يفترض في بيروت المستعادة ان تجسدها هي في وضع خطر نتيجة انتشار الاحياء المسيحية الصرفة من جهة والاسلامية الصرفة من جهة اخرى في قلب العاصمة وحولها. ولا بد من تأمين عودة المهجرين الى الشوف وإلى الجنوب وذلك لحماية المدينة من عملية الاختناق المزدوجة.

الوزراء الفاعلين وقد حصل هؤلاء الوزراء على سبيل الترضية على حقائب تسمح لهم بزيادة ثرواتهم على حساب البلاد.
هل يمكن ان نتطلع إلى تغيير ما داخل الطائف وعلى رغم الطائف؟
ان ممارسة مختلفة ومن داخل المؤسسات قد تساعد في اسقاط الحواجز ومعها الآلة الاكثر خروجا عن الدستور اي الترويكا، التي تتولى هي الحكم عندما لا تتنازعها الخلافات، ولا بد ان نشير إلى القرارات الاخيرة للمجلس الدستوري، وهي قرارات اثارت الدهشة للتدليل على نواة لعمل ديمقراطي ناصع. انها عملية تطهير فعلية في الغاء الانتخابات في اربع دوائر انتخابية وما رافق ذلك من نقد صارخ لعملية ادارة الانتخابات.
فهذه المؤسسة التي اعتبرت انها ليست ذات شأن عند انشائها قامت بتسجيل سابقة لا مثيل لها في كل العالم العربي وقد رحب بها الرأي العام اللبناني في حين هاجمتها السلطة بشدة.
اذاً، هناك «اندفاعية حيوية» الا ان من الواضح ان هذا التطور يفترض تجاوز الاحزاب الطائفية. الم تخسر هذه الاحزاب جميع حروبها، هذه الاحزاب التي حلت ونزع سلاحها وما زال بعضها يعشش على الفتات الباقي؟
لن ننسى بالطبع تشكيلات المقاومة ضد اسرائيل والتي لا يبرر وجودها العسكري سوى الدور الفريد الذي يعود اليها. الا ان هذه الاحزاب التي ما فتئت تعد بالديمقراطية داخل صفوفها، هي في الواقع عاجزة عن التقدم بمشروع واضح اجتماعيا وسياسيا يتيح لها استقطاب شرائح اخرى في الوطن.
هنا يذكر «حزب الله» بظاهرة «القوات اللبنانية» كذلك الكتائب اللبنانية التي لم تستطع في الماضي وليس لديها حاليا حاضر متعدد الطوائف، كذلك الامر بالنسبة إلى التجمع اللبناني، المعروف بـ«العوني» الذي هو مثابة الدفاع عن الماضي اكثر منه مشروعا للمستقبل وهنا تبرز المأساة المقنعة للديمقراطية اللبنانية. فهذه الديمقراطية كغيرها من الديمقراطيات خصوصا تلك التي افرزتها الحرب، لا يمكنها ان تنشط في غياب الاحزاب السياسية والتحالفات التي يمكن ان تأخذ مكان الاحزاب. ومن المعروف انه لا يمكن اختراع الاحزاب ولا تشييدها اصطناعياً. فمتى سيصبح المجتمع اللبناني لما بعد الحرب قادرا على ايجاد هياكله الشعبية المتاحة: احزاب متعددة الطائفة وطنية التوجه، قادرة على المطالبة بحقها في ممارسة السلطة باسم المثل الوطنية لا دفاعا عن المصالح الطائفية؟

دور الاجيال الصاعدة

هذا هو التحدي ويقودنا إلى المحور الثالث في عملية اعادة الاعمار.
المجتمع. ان الاشارة إلى المجتمع تعني خصوصا الثقافة والاجيال.
فالاستجابة للتحدي الديموقراطي مرتبطة بالتقاء الشباب، اي الاجيال الصاعدة، حول الثقافة والحوار والتعايش وصولا إلى الثقافة الديمقراطية التي تسمح بالعودة إلى المجتمع

الصحي لاستيلاد السلام. لذلك علينا اخراج الشباب من ثقافة الحواجز وحواجز الثقافة، من ثقافة العنف، كذلك من العقائد، الوجه المقنع للعنف الثقافي والاخلاقي.
ولكن كيف ننطلق واين نذهب؟ الجواب بسيط ومعقد في آن واحد. بسيط من حيث انه يشير إلى الواقع الحالي لمجتمع الشباب، شباب ما بعد الحرب، خصوصا اولئك الذين لم يريدوها ولم يغرقوا في اتونها، كذلك بالنسبة إلى الذين يحاولون التخلص من ماضيهم الحزبي.
هنا يعاد بناء لبنان، وعملية البناء ليست اصطناعية، وهي تتم عبر التنافس على التفوق في كل المجالات، وتسجيل نجاحات باهرة، ومنها تفجر الحشد الجامعي والنسائي خصوصا وفي الاوساط الأكثر حرماناً.
وهناك الابداع الادبي والفني والمسرحي والسينمائي فضلا عن البحث العلمي، واجهزة الكمبيوتر التي تطلق حشرية كبيرة وتسمح بالوصول إلى عوالم المعرفة المنوعة. ولا ننسى الارقام القياسية للمنشورات من الكتب والمجلات والصحف التي تزداد صفحاتها وتتنوع على رغم اغراء المرئي والمسموع. والعلامة الاخرى على العصر: اتقان اللغات الثلاث، فالانكليزية هي في طريقها لان تصبح اللغة العالمية لدراسة العلوم وادارة الاعمال، حتى في ارض الفرانكوفونية. ولبنان الشباب يدخل طور الحداثة ويتميز عن محيطه العربي على رغم ما حققه هذا المحيط في مسافة زمنية امتدت نحو عشرين عاما من تقدم، فهذه الدول الشقيقة كانت دائما مدينة للتفوق اللبناني الذي عاد يطل من جديد، كما تشير عودة البرامج والاعلانات التي تبث من لبنان على قنوات التلفزة الفضائية.
هذه النهضة، هذا التجديد، هذه الحداثة التي تنقل من غير عوائق وبحرية كاملة لا تلغي الحدود الداخلية بين الطوائف فحسب بل كذلك الحدود بين لبنان والعمق العربي حيث تسقط قوانين الرقابة الواحدة بعد الاخرى وقد عفا عليها الزمن.

لبنان الجديد

سيداتي سادتي
وصلنا إلى النقطة الحساسة من جولتنا.
هل يتجه الانسان اللبناني وقد تحرر من الاوهام ومن العقد ومن الحدود كذلك إلى لبنان مبني من جديد؟
لقد جاء قداسة الحبر الاعظم يحمل إلى اللبنانيين الذين انتظروا «الاعجوبة» رسالة السلام: «انتهت الحرب» كما اعلن في رسالته الراعوية الموجهة إلى الشباب، «يجب ان نعتبر المصالحة الطريق إلى السلام العميق الذي يجب ان يترسخ بين جميع اللبنانيين».
هل تنبىء زيارة يوحنا بولس الثاني التي تطلع اليها اللبنانيون، وأرجئت مرات ثلاث نتيجة المذبحة الغامضة في الكنيسة، بالعودة إلى حكم الانسان.

ان البابا في تأكيده ديمومة لبنان وضرورة حضوره «لانه اكثر من وطن، انه رسالة» وهو الذي اعترف له بـ«شرعية الحق الالهي» قد نقل إلى اللبنانيين رسالة ذات ابعاد ثلاثة.

1- بناء «لبنان السلام» في الحرية واحترام الحقوق والاستقلال والديمقراطية والسيادة.
2- إلى الشباب «كي يستحقوا ميراث آبائهم» عليهم بناء ارض الحوار والتعايش والحياة المشتركة.
3- إلى المسيحيين: القيام بدورهم الايجابي بصفتهم رسل الوئام في الحضارة والثقافة العربية التي ينتمون اليها وتدين لهم بالكثير.

الا ان ما يعود في الارشاد الرسولي إلى موضوع حديثنا هذا المساء في ظل العلاقة التي يراها البابا بين الوطن واعادة الاعمار: «ان المسيحيين والمسلمين يعتبرون انفسهم شركاء في اعادة اعمار البلاد» كشرط ضروري «لبناء المجتمع وتجديد تراثهم الوطني».

اننا بعيدون – هل نحن كذلك بالفعل؟ – عن ثقافة الحواجز وعن حواجز الثقافة خصوصاً. هكذا علينا ان نفسر ليس الزيارة الباباوية فحسب لكن التفجر الشعبي تحديداً والذي لا سابقة له. مليون لبناني من كل الطوائف، اي ولادة «جمهور» غير منتظر ابدا في بلد صغير ما زال رجاله متدثرين بغلالات الخوف والسر.

قد تشكل هذه ولادة «حضارة حب» التي يجب انتظار تعبيرها السياسي المتردد في الافصاح حتى الآن على رغم اجماع بيانات التأييد المنطلقة من كل الاتجاهات من غير استثناء بمن فيهم «امراء الحرب» الذين انتظموا كدعاة للمصالحة.

يجب الا نستعجل وان نقبل التاريخ بصبر. لا اريد ان ادعوكم او ادعوا انفسنا إلى ارتكاب الخطيئة نفسها ضد الديمقراطية الجمهورية التي اتهمنا بها مؤدي ديمقراطية الكتلة الواحدة، الديمقراطية الشعبية، ولكن حذار المستنقع الذي يعود بنا إلى الماضي الذي ما زال ويا للأسف حاضراً. ماضي الحروب من غير انتصارات، حروب انتحارية بل مستحيلة.

افكر بالاحزاب التي هي في حاجة إلى اعداد من جديد، إلى احزاب الوحدة، إلى التجمعات المتعددة، إلى الرجال، وخصوصا الشباب ذوي النيات الحسنة، احزاب المستقبل، احزاب السلام يجب ان يولدوا من القواعد الشعبية الشرعية في ذاتها، يخدمون المثل الشرعية ويقترحون المشاريع، واشدد على كلمة المشاريع لأن من يقل بالديمقراطية يقل بالتعددية وبتعدد مشاريع مجتمع الغد.

هل نحن في وضع يسمح لنا بالتطلع إلى احزاب الامس كي تتحول إلى احزاب غير طائفية، علمانية اذا امكن، متعددة الطوائف اذا ما ارتسمت معالم قيادات قوية وجديدة قادرة على تخطي الحدود المصطنعة بين المسلمين والمسيحيين؟ ولم لا، اذا طرحت احزاب مسيحية او اسلامية الانتماء الدعوة بصدق واثبتت قدرتها على الانخراط في الدولة العلمانية والتفاهم الوطني، فتمارس الحوار كفعل يومي وتكون حرة من كل الافكار المسبقة لزمن الحرب.

يجب ان يبتعد اللبنانيون والشباب خصوصاً عن الاحزاب التي لن تكون سوى المخلفات الظرفية لـ«احزاب الله» اليوم، بما فيهم احزاب الله المسيحية، وذات العقائد المبهمة والتي تفضي إلى مشاريع دينية في غياب الارتياح إلى تفسير المساواة في الحقوق والواجبات وإلى دور الحاكمين ومسؤولياتهم. ان اولئك الذين يحبسون انفسهم في اطار الاسئلة المبهمة والخبيثة غالباً متسائلين باستمرار عما اذا كان الحاكمون هم الممثلون لطوائفهم، اي حراس مصالح هذه الطوائف ام انهم ممثلون للشعب وحراس سيادته الوطنية غير المجزأة.
ان ولادة احزاب اعادة البناء لن تتم في يوم واحد ستكون ثمرة تطور بطيء ربما ولكن اكيد في المحيط الاخلاقي والفكري للثقافة الديمقراطية، ثقافة آنئذٍ شعبية بالمفهوم الاساسي للتعبير.

سيداتي سادتي
لنعد مرة اخرى إلى رسالة البابا التي نأمل منها الكثير، من غير ان يفقدنا اولئك الذين يكتفون بالتصفيق حماستنا خصوصاً انهم يتهربون من استخلاص النتائج العملية التي تفرض نفسها.
لم تكن زيارة يوحنا بولس الثاني، الحافلة بالمعاني الرمزية تعني اللبنانيين وحدهم مسيحيين ومسلمين. فمن لبنان توجه البابا إلى العالم العربي المتحفظ احياناً حيال الحوار الاسلامي – المسيحي (الاكثر اهمية من الحوار بين الكنائس، على اهميته). لم يضطر البابا إلى ان يقول، باستثناء اشارة سريعة، ان مصير مسيحيي الشرق او المسيحيين العرب، خصوصاً في القدس وفي فلسطين، كذلك المسيحيين في الاردن وسوريا ومصر والعرق – ان مصيرهم مرتبط بالسلام المستعاد في بلادنا.
ليس في نيتنا المضي في تحليلنا إلى آفاق «الفقه السياسي» التي يتوقف عندها المعلقون العرب كما المعلقون الاوروبيون والاميركيون المهتمون بالشرق الاوسط، انهم انفسهم الذين يأخذون باستعراض حجج المواجهة بين الاسلام والمسيحية عندما تعوزهم الذرائع المنطقية، والمواجهة في رأيهم لن تقف عند الجزائر (حيث ننسى غالباً ان الاسلاميين يقودون يومياً حرباً دموية ضد مسلمين آخرين) ولا في مصر (حيث يغرقون في خلافات عقائدية لا مجال لمقارنتها مع الارهاب الذي يبدو انه لا يتوجه الا ضد الاقباط) بل انها ستمتد إلى اوروبا واميركا.
الواقع مختلف تماما عما بات معروفاً وهو ان الفكر الاسلامي المعاصر متنوع ولا يعبر التيار الاسلامي الاصولي في حد ذاته الا عن وجهة نظر الاقلية، وهذا يفترض الا يدفعنا إلى الخوف وإلى الدخول في ارهاب الدولة الذي يخفي غالباً افكاراً مسبقة ليس هنا مجال تناولها بالنقاش.
فلنكتف اذاً بالاعلان عالياً وبقوة ان مواجهة الارهاب قضية تعود إلى الدول الاسلامية او التي تتولى السلطة فيها حكومة اسلامية. اما بالنسبة إلى اوروبا المسماة مسيحية واميركا

التي لم تعد كذلك فان عليها ان تثبت للمسلمين المشككين في صدقيتها ان عصر الصليبيين قد ولى كذلك الاستعمار المتهم بانتهاج السياسة نفسها.
وبالمنطق نفسه ولّى عصر الجهاد، ويبقى الحوار القادر وحده على تحرير النفوس المريضة من التعصب والتخيلات فضلاً عن الهلوسات الرجعية التي تصيبنا بالشلل. ولنبن مجتمعاً، حول البحر المتوسط اسلامياً – مسيحياً، او اوروبياً – عربياً، وفق ما كان يسميه ارسطو كوانونيا «Koinonia» يقرب بين الثقافات والمجتمعات في البحث عن الحداثة وحيث العولمة هي مصدر للثروة لا مدعاة للاخطار.

سيداتي سادتي
فليسمح للارثوذكسي الذي هو انا، المسيحي العربي اللبناني ان يستعيد هنا صلاة رئيس الكنيسة الكاثوليكية في ختام زيارته. انها رسالة امل جاءت في المزامير شاعرية واقعية وساحرة تقول: «سينمو الشعب كشجر النخيل (...) وسيعمر كأرز لبنان».
اترككم في ظل الارز والنخيل، رمزا للامل والصبر اللامحدود للشعوب التي ترويها ينابيع تاريخها».

لبنـان والامـم المتحـدة وقضيـة السـلام

محاضرة غسان تويني
مبنى الاسكوا
29 ايلول/سبتمبر 1998

سيداتي سادتي،
قلّ أن راهن بلد على الامم المتحدة قدر ما راهن لبنان. وقلّ ان تجوهرت دبلوماسية وطنية بقرارات الامم المتحدة – الايجابية منها، كالسلبية – قدر ما تجوهرت بها الدبلوماسية اللبنانية. حسبنا تدليلاً على ذلك القرار 425 الذي غدا كاللازمة في أغاني الطرب، وغالباً ما كانت دبلوماسيتنا فعل طرب ذاتي، أو مساهمة في سوق عكاظ ضائعة الجوائز. الذين كانوا هناك، تلك الليلة المأسوية من آذار/مارس 1978، حين كانت اسرائيل تجتاح الجنوب وتحرق الأرض والناس... الذين كانوا هناك، والذين كانوا في لبنان وفي كل بلد شقيق وصديق يؤمن بلبنان ويريد وضع حد لحروبه املاً بخلاصه... هؤلاء جميعاً لا يزالون يذكرون، ربما، كيف نادى لبنان مجلس الأمن والأمم المتحدة والعالم:

«اتركوا شعبي يعيش»!... صرخ لبنان.

وبعد مشاورات ومناظرات ومفاوضات دامت نهارين وثلاث ليال، والزحف مستمر، كان القرار 425. هلّل لبنان والعالم... باستثناء اسرائيل. هلّلوا خصوصاً لأن القرار حمل تأكيداً، بل دعوة اجماعية إلى احترام سيادة لبنان واستقلاله، وتعهّداً بمعاونته في بسط سيادته على كامل أراضيه، ضمن حدوده المعترف بها دولياً. بعض ثقة لبنان بالأمم المتحدة، بل بعض التهليل، يعود إلى ان القرار بوشر تنفيذه فور إقراره، بينما الحرب مستمرة. فأرسلت الأمم المتحدة قواتها إلى الجنوب خلال ساعات، وبدأ الانسحاب وانتشار القوات «الزرقاء»... ثم فجأة، رغم أجواء التفاؤل، توقف الجلاء في 15 حزيران/يونيو، وبقي الاحتلال، وعادت جولات العنف تتصاعد! وتوقف التهليل، وسقط الايمان.

سيداتي سادتي،
لم يبدأ تاريخ لبنان مع الامم المتحدة بالقرار 425. ومع ان المجال ليس مجال تأريخ، فلا بأس في أن نبدأ حديثنا باستذكار بعض المحطات تنطلق كلها من الميثاق وتوقيعنا له عام

- سيأتي العهد اليهودي حتماً اذا ظلّ العالم العربي على تأخره وتفككه الحاضرين.
- وزن العرب لا شيء الا في البلاد العربية، وحتى هذا ضئيل في الوقت الحاضر.
- سر تثقيل وزن العرب هو ان ينقلوا اتكاليتهم من كونها على الظروف وعلى العوامل الخارجية والانسانية، إلى أن تصبح على التخطيط العقلي المسؤول وعلى العوامل الانسانية والداخلية.
- النور والمعرفة والحقيقة والحرية هي شرط النهضة المرجوة، ولا مصير للعالم العربي بدونها.
- تجديد الجامعة العربية شرط اساسي لأية نهضة عربية.
- حان وقت بزوغ حركة تحررية صحيحة شاملة.
- لبنان وسوريا بين جميع الدول العربية مدعوان لقيادة الحركة.
- آمل بأوروبا أكثر مما آمل بأميركا وأدعو إلى التفاهم الصريح الشامل البعيد المدى مع انكلترا وفرنسا.
- وزن العرب في أميركا لا شيء بالنسبة لوزن اليهود.
- في كل تعارض جوهري بين المصلحة الاسرائيلية والمصلحة العربية، ستؤيد أميركا المصلحة الاسرائيلية.
- أحذّر كل التحذير من الارتماء الاعمى في فخ اغراءات المشاريع الانشائية الاميركية دون تمحيص تام لها ولعلاقة اليهود بها.
- قد يحدث – في المستقبل البعيد – رد فعل شعبي في أميركا ضد السيطرة اليهودية على شتى نواحي الحياة الاميركية.
- القوى المسيحية على العموم، والكنيسة الكاثوليكية على الخصوص، حليفة للعرب في نضالهم ضد الصهيونية.
- يجب ان نتعاون تعاوناً وثيقاً مع نهضات آسيا وخصوصاً مع نهضة العالم الهندي.
- لا تستطيع اسرائيل الآن ان تكتسح العالم العربي وتسيطر عليه سيطرة عسكرية تامة.
- الخطر المباشر المحدق هو بسط النفوذ الصهيوني اقتصادياً.
- سلاح العرب الامضى لدفع هذا الخطر هو مقاطعة اسرائيل الشاملة التامة.
- لبنان جزء لا يتجزأ من العالم العربي.
- استقلال لبنان ضرورة تامة.
- مبرر لبنان الاخير امام ذاته وامام الضمير العالمي هو أمانته للحرية الاقتصادية والعقلية والروحية والكيانية».

انتهت الاستشهادات.

وكتب ذلك كله، بلهجة تحذيرية تقارب التنبّؤ، ولكن أحداً لم يأبه ولم يستمع. ونشرت «دار النهار»، في مجلتها آنذاك «القضايا المعاصرة»، عدد تشرين الثاني/نوفمبر عام

1969، النص الكامل للتقرير، ولكن احداً لم يأبه ولم يستمع. ثم ان شارل مالك، الذي قلنا انه فلسف قضية الديمقراطية في وجه الانطلاق الشيوعي الأول في الحرب الباردة، لم يمنعه ما وصف بالاسراف في اللبنانية المنتمية إلى الغرب، من تحذيرنا، لبنانيين وعرباً، من أميركا بالذات، ولا من الطموح الاستعماري الاسرائيلي، ولا خصوصاً من اللاواقعية العربية البالغة حد السذاجة.

مفارقة أخرى من تلك الحقبة أشعر بواجب استذكارها، الا وهي مأساة الرئيس كميل شمعون مع القضية الفلسطينية. كان كميل شمعون رئيس الوفد اللبناني إلى الجمعية العمومية للأمم المتحدة عام 1947، فلعب دوراً قيادياً بين الوفود العربية عند طرح قرار التقسيم إلى حد انه صار يلقّب في لبنان والعواصم العربية بـ«فتى العروبة الأغرّ». الا انه بدأ مذذاك يفترق عن الموقف «العروبي» لاسراف الوفود ورؤسائها في الخطابية الطوباوية، كترداد القول بان «الضمير العالمي» لن يسمح بهذا الامر وذاك، وبأن العرب يؤمنون بان الحق «يعلو ولا يُعلى عليه» الخ... الخ... في حين كان يدعو شمعون إلى شيء من الواقعية البراغماتية، ولا سيما في شأن مصير القدس. وقد أصيب كميل شمعون بنوبته القلبية الاولى وهو في جلسة صاخبة لمجلس الأمن، يدافع عن مشروع الفاتيكان بمنح المدينة المقدّسة «حكماً ذاتياً مميزاً»، مع ضمان حرية العبادة لكل الأديان.

وقد سقط المشروع بالطبع، في وجه معارضتين كثيراً ما التقتا موضوعياً فيما بعد: التّعنّت الصهيوني، والتطرّف العربي.

في محطتنا الأولى مع الأمم المتحدة، عام 1947

كانت بعض مأساة لبنان من قلة الاستماع العربي إلى صوت العقل الذي يعبّر عن نفسه بحرية، حرية لا تساير ولا تخجل ولا تخاف حدوداً. ولا حاجة لأن نذكّر هنا بانه كانت للبنان من «محطة التقسيم» الحصة الأكبر من الخيبات العربية: اتفاق هدنة 1949 الذي لم تحترمه اسرائيل ولا مرة، ومخيمات البؤس الفلسطيني «الموقّتة» التي كانت تستحيل مع الوقت عنصراً اساسياً في تغيير النظام اللبناني.

نستمر مع المفارقة اياها، ايها السادة، لاننا نلتقي الرجلين، كميل شمعون وشارل مالك،

في المحطة التاريخية الثانية: 1958

الاول كان رئيس الجمهورية، والثاني وزير خارجيته. وقد خذل مجلس الأمن الرجلين معاً عندما رفض شكوى لبنان من التسلل السوري المسلّح عبر حدوده، اولاً بحجة عدم وجود اثبات لدى لجنة التحقيق التي أرسلها، بحجة أن التسلل كان يجري ليلاً... وثانياً لأن ميثاق الأمم المتحدة ينص على عرض الخلافات بين الدول المتجاورة على المنظمات الاقليمية التي تضمّها، قبل نقلها إلى نيويورك، فلماذا لا يشكو لبنان أمره إلى الجامعة العربية؟

الا ان سقوط عهد شمعون، ثم انتخاب الرئيس شهاب للرئاسة، لم يمنعا الجمعية العمومية للأمم المتحدة من انتخاب الدكتور شارل مالك لرئاستها.

نصل إلى المحطة الثالثة: 1967
عند هذا الحد صار لبنان أكثر الدول العربية تأثراً لا بقرار التقسيم الذي رفضه، بل بنتائج الحرب التي تضامن مع الدول العربية التي خاضتها، انما من غير ان يخوضها هو لانه لم يتصنّف «دولة صمود وتصدّ».
وبالرغم من ذلك، اعتبرت اسرائيل ان لبنان خالف «اتفاق الهدنة»، الوثيقة الوحيدة التي تسجّل على اسرائيل اعترافها بحدود لبنان وسيادته على حدوده المعترف بها دولياً، رغم قضم اسرائيل بعضاً من هذه الحدود.

ولنتذكر هنا ان الأمم المتحدة عجزت عن تنفيذ القرار 242 الذي ينص – بالاضافة إلى انسحاب اسرائيل من الأراضي المحتلة – على العناية بقضية اللاجئين الفلسطينيين، الذين منحتهم قرارات الجمعية العمومية حق العودة إلى فلسطين. فتحمّل لبنان، هو والاردن، انما بصورة مختلفة، لا نتيجة الحرب وحسب، بل نتيجة اليأس الفلسطيني، في آنٍ واحد، من الأمم المتحدة ومن الدول العربية وانظمتها والحكومات.
ساد نتيجة «النكسة» شعار انتقال الدور والمسؤولية من الدول إلى الشعوب. وهذا صار يعني، فلسطينياً، لا مجرد التوطين المرفوض نظرياً فحسب، بل تحوّل مجتمع «الشتات الفلسطيني» إلى قاعدة ثورية وطّنت ثورتها في لبنان والاردن، ثم في لبنان وحده، فأقامت من منطقها – منطق الثورة – دستوراً أقوى من منطق الحكم الذي ما لبث ان اصطدم بها:
تفجّرت المؤسسات الدستورية اللبنانية، وصارت المقاومة تدريجياً «دولة ضمن الدولة» ومجتمعاً ثائراً يثوّر المجتمع المسالم.
أسوأ ما في الأمر للبنان انه اصبح صاحب مصلحة في القرار 242 ومن بعده القرار 338 من غير ان يكون معنياً بأكثر من «حق الرجوع» الذي كان يغدو أكثر فأكثر استحالة.
وأدى اتفاق القاهرة إلى تعزيز حجج اسرائيل على الهدنة، والامم المتحدة قانعة، راضية بتحوّل المراقبين الدوليين UNTSO إلى رهائن لا يتحركون.

سيداتي سادتي،
مع المحطة الرابعة: 1973،
نصل إلى المفصل الرئيسي لا في علاقات لبنان بالأمم المتحدة، بل في تأثر لبنان داخلياً بالحروب العربية – الاسرائيلية. حسبنا هنا ان نسجل العبر التالية:

اولاً: ربما كان للبنان عذره في عدم الاشتراك في الحرب، ولمصر وسوريا كذلك عذرها في عدم اشراكه، ولا حتى اعلامه بها الا من الاذاعات... ومع ان المقاومة الفلسطينية، هي الاخرى، لم تشترك عبر الحدود اللبنانية، فان اسرائيل نقلت حربها إلى داخل لبنان، ولكنها لم تنقل إلى داخله السلام الذي استتبعته الحرب مع العرب المحاربين.

ثانياً: نظرياً – ونقول نظرياً، لأن التاريخ لا يعود إلى وراء...
نظرياً: كان أشرف وأجدى للبنان أن يحارب، وان يهيئ نفسه للحرب منذ 1967، كما هيأت كل من مصر وسوريا نفسها. ولو حارب لبنان، او على الاقل حوّل دولته من دولة اللاحرب، و«الضعف هو القوة»، إلى دولة متأهبة للحرب عندما تأتي، لمنع ذلك انقسام الجيش، وحال دون تفجّر الوطن بالتصدّي للتسلل الاسرائيلي إلى جسم الأمة. اذذاك، كنا سننال حق الاشتراك في مفاوضات السلام بدل ان يهمّش لبنان فيدفع ثمن السلام بدل ان يحققه.

ثالثاً: لم يستتبع فك الارتباط في سيناء والجولان فك ارتباط في الجنوب ولا حتى تكريس اتفاق الهدنة وإحياء تطبيقه. بل على العكس ادت مفاوضات كامب دايفيد إلى مزيد من التصعيد انتهى بطرد الجيش اللبناني من أرضه ومهّد لعملية «الليطاني» التي يدل اسمها على هدفها الحقيقي، ثم اسس للاجتياح الكبير، باسم «سلام الجليل»، أي: السلام باحتلال «الجليل الشمالي»، داخل لبنان!

رابعاً: الا ان المسؤولية الكبرى تقع على لبنان نفسه لا على «الآخرين». فهو، في مقاربته «النظرية»، حتى لا نقول «الخيالية»... ولنقل، في مقاربته غير الواقعية لمتغيّرات المنطقة، ولأنه اساء فهم ديمقراطيته وحدودها (تذكروا: «بيت بلا سقف»)، تستّر وراء الشعارات وتحارب تحت سقفها المفقود بدل ان يوحّد موقفه الوطني ويبلوره حول المسؤولية اللبنانية والحقوق المترتبة لها.

سيداتي سادتي،
ها نحن أمام المحطة الخامسة في بحثنا:
1978، عام الاجتياح الأول.
اول ما نلاحظه هنا ان علاقة لبنان بالأمم المتحدة استقرت على ان لبنان وحده له عندها قضيتان:
القضية الفلسطينية، من حيث التزامه العربي بها، والقضية اللبنانية في حدّ ذاتها، يتواجد فيها مع الفلسطينيين. على كون «القضية اللبنانية» ينطلق التزام الامم المتحدة بها من القرار 425. وقد توسّع التزام الأمم المتحدة في القرار الآخر الممنوع ذكره الآن لألف سبب وسبب:

القرار 436 الذي يربط بين حرب اسرائيل على لبنان وحروب لبنان الداخلية والاصلاح الدستوري، اي إعادة بناء المجتمع السياسي اللبناني بسلام، بعدما فجّرته «حروب الآخرين»، وحروبه «من أجل الآخرين».
لن أطيل في شرح القرار 425 ومآسيه، فكلنا نعرفها وقد تكررت شروحاتها إلى حد السأم منها. أكتفي اذاً ببعض الملاحظات التي تفسّر، ولا أقول: تبرر، تعثر تنفيذ القرار، فتحوّله إلى مجرد شعار يبحث عن آلية تطبيقه:

اولاً: لم تعط الأمم المتحدة القرار أبعاده التنفيذية، فالمطلوب كان قراراً له ديناميكيته، واذا بنا نسلّم بان يصير قراراً «ستاتيكياً» عنوانه «الحفاظ على السلام» والسلام غير موجود الا داخل منطقة العمليات، فعلام تحافظ القوات اذاً؟

ثانياً: طالب لبنان بأن تمارس اليونيفيل حقها في استعمال القوة على الأقل في وجه من يمنعها بالقوة من تنفيذ مهمتها. وقد وافقنا مجلس الامن على ذلك، وتجاوب مع الطلب وأكده في القرارات الآتية:
القرار 467 نيسان/أبريل 1980
القرار 488 حزيران/يونيو 1981
القرار 498 كانون الأول/ديسمبر 1981
القرار 501 شباط/فبراير 1982
الا ان هذه القرارات لم تترجم عملياً، ولم تلجأ اليونيفيل إلى سلاحها حتى ولا للدفاع عن نفسها.

ثالثاً: طالب لبنان بأن يكون لليونيفيل ذراع دبلوماسية او مندوب لمجلس الأمن ينقل المظلّة السياسية، ومسؤولية المفاوضة في التنفيذ، من نيويورك إلى المنطقة. والمؤلم ان الاقتراح سقط، نتيجة التقاء «الاعداء» اسرائيل والفلسطينيين وسوريا – التقائهم «موضوعياً» لا بالتفاوض طبعاً – (باستثناء التفاوض غير المباشر عبر اميركا، كما في «اتفاق رابين» لاقامة «الخطوط الحمراء»، لمن يتذكر...) في مقاومة الاقتراح والضغط على العواصم المعنية للتخلي عنه.

هكذا، في جو شلل كلي، كان لبنان، وكانت الأمم المتحدة، بأمينها العام ومجلس أمنها، تكتفي، تجديداً بعد تجديد، بتأكيد ما جاء في القرار 426 من ان شرط نجاح قوات حفظ الأمن هو في قيام «توافق على السلام بين جميع الفرقاء» و«تعاون» جميع القوات «المتواجدة على الأرض» مع القوات الدولية. وكان مجلس الأمن، عند اتخاذ قرارات التجديد، يلاحظ انعدام هذا الشرط، فيأسف لذلك، ويكتفي بالأسف من غير ايجاد الحلول.

هل نستغرب بعد ذلك ان تخطط اسرائيل لاجتياح لبنان، متذرعة بان محاولة اغتيال سفيرها في لندن هي خرق لاتفاق «وقف اطلاق النار» بينها وبين منظمة التحرير، وفق القرار 490 المتخذ في 21 تموز/يوليو 1981 نتيجة وساطة أميركية كانت أول مهمة تولاها السفير فيليب حبيب.
الناظر من جديد إلى المشهد الدبلوماسي والعسكري الذي بدأ يتكوّن إثر كامب دايفيد كان في وسعه ان يتوقّع اجتياح لبنان، وهكذا كان، في 5 حزيران/يونيو 1982.

1982 المحطة السادسة، وليست الأخيرة بعد، تكرّس السأم وفقدان الايمان أي: فشل القوات الدولية – اليونيفيل – وبداية استقالة الأمم المتحدة أمام «الأحادية الأميركية» المتمثّلة ميدانياً بالمفاوضات الثنائية، ثم اللجوء، بديلاً، إلى «القوات المتعددة الجنسيات».
مرة أخرى، لن استعيد معكم مآسي الاجتياح ولا حكايات البطولات في مقاومة لبنان، وحيداً، اقوى جيش في المنطقة، وكأنه جيش دولة عظمى وأكثر، ثم اليأس العظيم من «يونيفيل»، القوات الدولية، التي قيل انها وقفت تتفرج على قوى الاحتلال... لم يكن ينتظر منها لبنان بالطبع ان تواجه اسرائيل بالقوة، انما على الاقل، على الاقل: مظاهرة اثبات وجود!
ولكن: في التحليل الأخير نتساءل هل خسر لبنان، والفلسطينيون والسوريون وكل العرب، هل خسروا حرب 1982 بسبب الامم المتحدة؟
لا، كلا...
الرهان على الخروج من تحت مظلتها، الرهان المتعدد الأبعاد والأشكال، يبدو لي انه كان قد اتخذ لا بفعل السأم واليأس بل نتيجة بداية جنوح أميركا نحو «الانفرادية» في ترتيب نظام المنطقة، وكأنها كانت تستشعر انتهاء الحرب الباردة وسقوط مفهوم «الاستقطاب»، فمضت تحاول أن تحل محله «الوحدانية» في زعامة العالم، ولو متجلببة بمحالفات ثانوية.
وبتعبير أصرح ولو كان قاسياً: انها بداية «استقالة» الأمم المتحدة الأحادية الأميركية!
كدبلوماسي كان في «برج مراقبة» نيويورك، هكذا افهم إلحاح البعثة الأميركية آنذاك، عند كل مناقشة لكل مشروع قرار: «المفاوضات الثنائية، لا قرارات مجلس الأمن، هي وحدها التي تقدر على تحرير لبنان واعادة السلام اليه». كذا بالحرف الواحد. وكان نتيجة ذلك ان ذهب لبنان، بموافقة الفلسطينيين، إلى استدعاء القوات المتعددة الجنسية بدل توسيع رقعة انتشار اليونيفيل (كما كان ذلك ممكناً بل مقرراً مبدئياً)، والإفادة من الظرف الدراماتيكي لتعديل تكوينها وصلاحياتها. فانتقل لبنان، والفلسطينيون، وانتقلت اميركا ومعها فرنسا خصوصاً وسائر القوات، من يأس إلى يأس أعظم، بل من مأساة الضعف إلى مأساة الهزيمة. وأفسّر:
اليونيفيل استمرت تحافظ على السلام، في منطقتها على الأقل، بينما القوات المتعددة الجنسية خسرت في يوم واحد أضعاف أضعاف ضحايا اليونيفيل منذ تأسيسها. ولم يمكّنها الاسطول الذي اجتمع في مياه لبنان الاقليمية من الحؤول دون تسليم قواعدها البرية إلى

من هنا ان سلام لبنان هو المدخل إلى سلام الشرق الأوسط، شرط ألا يتم سلام الشرق الأوسط على حساب لبنان، فيفجّر لبنان آنذاك حرباً جديدة. ولنسمّ ما نقترحه «تصرفاً»، بديل الكلمة الطموحة فوق طاقتنا: «خطة». ينطلق التصرف الذي نقترح من واقعٍ لبناني– عربي مركّبٍ من العوامل التالية:

اولاً: ان لبنان تحوّل ساحة المواجهة الوحيدة بين اسرائيل والدول العربية، وعلى نحو كان ولا يزال أشد تأثيراً من المواجهة داخل الأراضي المحتلة!

ثانياً: ان مقاومة لبنان الشعبية اضطرت اسرائيل، – رغم احتلال متواصل لعشر الأرض اللبنانية طوال عشرين سنة – لا إلى الموافقة على قرار الانسحابً، بل إلى الالحاح في طلبه، (إنما بالطبع – ككل «أمر اسرائيلي» – مشروطاً!) وذلك خلافاً لما كان عليه الامر في شأن انسحابات اخرى اضطرت اليها اسرائيل نتيجة حرب ربحها العرب ولو سياسياً فقط، او نتيجة ثورة لا تزال اسرائيل تحاول تدجينها ببازارات الانسحابات الجزئية وبالتقسيط.

ثالثاً: ان لبنان الذي دفع ثمناً لصراع اسرائيل لم تدفعه اية دولة عربية أخرى على الاطلاق، هو الفريق الدبلوماسي المؤهل، انطلاقاً من خيار وحدة المسار مع سوريا، إلى السير بمفاوضات السلام في اتجاه المشاورة العربية الشاملة، واذا أمكن، فالوفد الموحّد، او في اسوأ الحالات الوفد اللبناني – السوري المشترك. شرط ذلك ان يدعو لبنان إلى «حوار الساعة الأخيرة» مصمماً على «لعب ورقته» بنفسه، بدل ان يغتصب سواه الورقة.
علماً بأن ثمن اللعبة، ربحاً او خسارة، لن يكون لبنانياً فقط، ولو كان الثمن يبدو «لبنانياً اولاً»... وعلماً كذلك بأن مصير الشقيقة سوريا يتقرر هذه المرة في لبنان، بقدر ما يتقرر مصير لبنان في سوريا، وأكثر!
وعلماً كذلك بأن «عواصم القرار» لا تتكلم بلغة جاهلية تصريحاتنا، فلغتها هي لغة العلم، ومنطقها منطق المصلحة... المصلحة، فالمصلحة، ثم المصلحة! أي: لا عواطف تستثار، ولا استصراخ للماضي الغارب الامجاد، ولا تبشير بالمبادئ الوارفة، ولا «بكاء على الاطلال». فالحقوق تصان في «عالم الدوليّات» عندما يدافع اهل الحقوق عن حقوقهم بقوة تفرض احترامها.
لا يعني هذا الكلام ان «الدبلوماسية» هي مواجهة بين قوى متصارعة يتفوق فيها الأقوى... انما من بديهيات الأمور ان الدبلوماسية هي بديل الحروب، الحروب التي وحدها تحسم الامر فيها القوة الأقوى! بديل الحرب ينطلق اذاً مما يمكن تسميته «ملف سلام» يفترض فيه ان يتكوّن من معالم الحلول التي لها قابلية التوافق الدولي، ولو خطوة خطوة، مرحلة مرحلة،

قراءات في مسيرة الإمام الصدر... مؤتمر «كلمة سواء» الخامس

ثقافة المجتمع المقاوم في رؤية الإمام الصدر

عقد المؤتمر بين 23 و25 تشرين الثاني/نوفمبر في فندق «الماريوت» ومقر المجلس الاسلامي الشيعي الأعلى. وهو من تنظيم «مركز الامام الصدر للأبحاث والدراسات» بالتعاون مع «مركز الدراسات الاستراتيجية في وزارة الخارجية الايرانية».
النهار، الثلثاء 28 تشرين الثاني/نوفمبر 2000

يطيب لي أن ابدأ مداخلتي في هذا اللقاء الذي شرّفتموني بالدعوة للمشاركة فيه، وبرئاسة رفيق العمر، رفيق الإمام، الأخ الرئيس السيد حسين... يطيب لي، بل يشرّفني أن أبدأ باستذكار بعض الكلمات المغمورة لسماحة السيد موسى، الذي سعدت ونعمت بصداقته العطوفة حتى وهو في طريقه إلى ليبيا.

سأبدأ مداخلتي في موضوع ثقافة المجتمع المقاوم، باستشهادات – وكدت أقول: بشهادات – من سماحة الإمام... استشهادات لن يفوتكم مغزاها، ولا المغزى من اختيارها.

قال الإمام: «هناك، في عيتا الشعب، في القرية الجنوبية الصامدة، في الليل المظلم المدلهم بالظلم والظلام. هناك، حيث تمطر الأجواء رعباً وإذلالاً وموتاً وأطماعاً.

هناك... شموع ثلاث أضيئت بدماء ثلاثة شبان في عمر الورود، أحمد بليبل من الهرمل، فائز سلامة من البسطة، وعادل بجاني من الأشرفية، انتقلوا من أحضان الأمهات إلى مواجهة الموت المحتوم، على رغم كل الأعراف.

هناك كانت هذه الشموع مع رفاق لها كالنجوم، واحترقت فأضاءت الليل وطلع الفجر.

لقد طلع الفجر، فليرفع المؤذن أذانه ولتدق الأجراس إعلاماً لصلاة الصباح.

إن الفجر طلع من الجنوب.

هناك يكتب التاريخ بأشرف دم وأصدق نية وأخلد كلمة.

هناك تتجسد الوحدة الوطنية الحقيقية، لا المنافع والأسلاب والمغانم.

هناك، في عيتا الشعب، في رميش وفي كفرشوبا، طلع الفجر. فلنرحل من ليل العاصمة الأليم إلى هناك، وننقل المدافع والهواوين والصواريخ والمتاريس إلى هناك... ولنحوّل جرائمنا هنا إلى بطولات هناك، وتشتتنا إلى اتفاق، وأطفالنا إلى رجال. ولنرفع شعار الوطنية بالسلوك لا بالأقلام والصرخات».

سيداتي، سادتي،

كتب الإمام ذلك في 27 أيار/مايو 1975، مقالاً افتتاحياً في «النهار»، وكانت الحرب إياها... «الحرب من أجل الآخرين» بالكاد بدأت. وسارع الإمام إلى ادانتها، ثم اعتصم

قد تسألون: محورها اذاً التسلّح؟
نعم، أجيب... مردداً قول الإمام الذي تعرفون:
«إن السلاح زينة الرجال، شرط ألاّ يرفع إلا في وجه العدو».
وأستطرد مستشهداً بهذا القول الأكثر بلاغة، وهو يلخّص فلسفة المقاومة عند الإمام بكلام قليل:
«نريد ان نحمي أنفسنا حتى لا تتحكم بنا أحقر الشعوب – الشعب الصهيوني – وحتى لا تهدم بيوتنا، نريد أن يكون لبنان حقيقة هو الصخرة التي تتحطم عليها مطامع الصهيونية».
وأستطرد كذلك مستشهداً:
(...) «إن الخطر الكبير على لبنان يأتي من عدم الدفاع الذي يصوّر للعالم أن الجنوب أرض سائبة لا مانع من أن تحتلها اسرائيل».
هنا ملاحظة: «لا مانع من أن تحتلها اسرائيل»... وقد احتلتها فيما بعد، فلم تمانع الدولة!!!
وأستمر استشهد لمن قد يشكك:
«أدعو المواطنين، شباباً وشيوخاً، تجاراً وفلاحين إلى التدرب على الحضور. وحمل السلاح والمرابطة في الجنوب، فإذا التقيتم العدو اقتلوه حتى لو قُتلتم بدوركم، فإن قدرنا هو شرفنا واستشهادنا. وليس قدرنا الذل وتحمل الاعتداءات».
وأستشهد اخيراً، من حيث يذهب الإمام أبعد فأبعد مطالباً بإشراك الجيش. يقول: «يجب تصدي الجيش للدوريات الإسرائيلية على الحدود الأمامية حتى تعود ثقة الشعب بالسلطة، خصوصاً ثقة الدول العربية التي لم تساعد حتى الآن لأنها لا تجد ارادة جدية في الدفاع. فاذا اتخذت القرارات بالتصدي للعدو، فإن أول طلقة حقيقية وأول بيان صادق يصدران عن الجيش سيؤديان إلى التفاف شعبي وفلسطيني وعربي لمساندة الجيش».
وفي هذا البيان الذي أستشهد بعبارات منه، يختم الإمام كلامه بما يلخّص جوهر خطته:
«كلّ حل يجب أن يستهدف الحد من النزوح (لأن النزوح) سيحول البلاد إلى جحيم متفجّر بالمشكلات الاقتصادية والاجتماعية. لا حل الا بالدفاع لان ابرز علائم المخلوق الحي هو الدفاع!».

ايها السادة،
هذه خلاصة الخطة، من الذاكرة طبعاً. ولا أملك أن أقول أكثر. أما منطلقها النظري، أي ثقافتها، بل فلسفتها، فمزدوجة:

أولاً: جنوبياً:
1– الحؤول دون قيام «الأرض السائبة» أو البيت «البلا سقف». وفهمكم كفاية. مثلاً: الدعوة إلى الرجوع إلى عيتا الشعب، ورميش، وكفرشوبا. وتشجير القرى المتاخمة

للحدود حتى لا تظل فلسطين المحتلة خضراء، والجنوب «الحر» أجرد، بل مصحراً... فيحسد الجنوبيون الاسرائيليين!

2- إعادة المهاجرين والمهجرين إلى الجنوب ليس فقط بتوفير الحماية العسكرية ووسائل الدفاع عن النفس، انما بإطلاق النشاطات الاقتصادية واعادة الثقة بالأرض وبالمجتمع، وتوزيع الأشتال والقيام بالتشجير المثمر الخ... وصولاً إلى توزيع قوافير النحل لانتاج العسل.

وهذا ما فعلته شخصياً، في جولة في الجنوب بمشاورة سماحة الإمام، عندما توليت وزارة الشؤون الاجتماعية في حكومة تموز/يوليو 1975 وحاول الجيش ردعي عن الجولة على الحدود الأمامية، بموازاة الشريط، «خوفاً على سلامتي»، قالوا! فلم أرتدع... ولا أزال حياً.

3- تأمين جميع الخدمات الاجتماعية والصحية وإحياء المدارس وكل مؤسسات الحياة المنتظمة.

4- ايجاد شبكات تسويق تعاوني للمنتجات الجنوبية، لتشجيع المنتجات الجنوبية، وخصوصاً لتشجيع المنتجات الحرفية كالفخار في «راشيا الفخار»، مثلاً...

5- في مرحلة لاحقة، تشجيع قيام صناعات كبرى في الجنوب، وإنشاء مناطق صناعية وشبكات نقل عمومية رسمية تخدم هذه المناطق.

ثانياً: على المستوى السياسي العام:

إقامة حكم، أو توجيه الحكم القائم وفق المبادئ التالية:

1- الجنوب ليس قضية شيعية، وحرب الجنوب ليست قضية جنوبية معزولة. كل اللبنانيين، من كل الطوائف، يجب أن ينمّى فيهم الوعي الجنوبي ذاته، تجاه العدو الوحيد، العدو المشترك. وأن ينمو الوعي في اجاه قتالي مقاوم، يرافقه التجذر الخلاق في الأرض، ولا هجرة ولا من يرحلون إلى المدن وبيروت... أو إلى جنوب الجنوب لا طلباً إلى الرزق، ولا هرباً من الخوف.

2- قيام حملات دبلوماسية واعلامية دولية لتوعية العالم حول قضية الجنوب، ثم تأمين انعكاس هذه الحملات على الداخل اللبناني وفي ضمير جميع اللبنانيين بدون تمييز.

3- ارسال الجيش إلى الجنوب ومشاركته في المقاومة، دفاعاً وقتالاً، واحاطة العمل العسكري - المدني المشترك بهالة دبلوماسية واعلامية لفرض كرامة الدولة وثقة العالم بجدية الحكم والأمة، وكذلك الثقة بتمسك لبنان باستقلاله الناجز:

بوحدته، وجنوبه وبقاعه وجبله وكل أرضه. ثم إبراز تجذر الجنوبيين في أرضهم وانتمائهم الوحدوي إلى لبنان الممارس سيادته على كامل ترابه.

4- احتضان المقاومة الفلسطينية في العقيدة السياسية اللبنانية. اي الحؤول دون قيام

متناقضات بين المقاومة اللبنانية والمقاومة الفلسطينية. المقاومة الفلسطينية، المثالية بالنسبة إلى الإمام، يجب توجهها صوب فلسطين، بغية محاربة اسرائيل وتأكيد حق العودة... في حين أن المقاومة اللبنانية هي المسؤولة بالدرجة الأولى عن الدفاع عن الأرض اللبنانية وصد العدوان الاسرائيلي، ولو متذرعاً بالنشاط الفدائي الفلسطيني.
علماً بأن هدف المقاومة اللبنانية الأبعد مدى، المستقل كلياً عن العمل الفدائي، هو الحؤول دون قيام ظروف موضوعية (سياسية وحزبية وأمنية) تذوب بنتيجتها الصلة الرحمية، أي العضوية، بين الدولة والقرى الجنوبية، بحيث تتوقف الدولة عن تعزيز قدرة الجنوب على المقاومة، فلا تجد القرى الحدودية، ولنقل الأمامية، لدى الدولة في الجنوب تجاوباً مع حاجاتها الحياتية.

ايها السادة،
آثرت الأسلوب المسمى «وضعي» على التحليل النظري، فزرعت الشروط في أرضها بدلاً من أن أمضي في ما نسميه ازدراء التنظير... وبئس ما أورثنا!!!
فختاماً اذاً، هذه الخلاصة: ان البرهان على صحة شروط «المجتمع المقاوم» الثقافية بالمعنى الأعمّ، تبعاً لنظرة الإمام موسى الصدر، هو ان عدم الاهتداء بها ادى إلى ضياع الدولة في تحمل مسؤولياتها، ولا يزال يهددنا بالضياع... يهددنا بضياع الجنوب وتفككه رغم التحرير!
فاستباقاً لما يمكن ان تستتبعه ملاحظاتي من مقارنة بين المجتمع المقاوم في نظرة الامام الصدر والمقاومة كما تدرّجت منذ الاحتلال، حتى سقوطه، لا بد من الاشارة إلى الواقع الآتي:

أولاً: المقاومة الاسلامية نجحت رغم غياب الدولة، فهي تتحرك الآن في فراغ «دولي» نسبة إلى الدولة لا إلى الدول والعلاقات الخارجية (أي في فراغ من مؤسسات الدولة وشرائعها) وهو فراغ لا يعوق حرية تحركها – خصوصاً والدولة تؤيدها – لأنها ليست هي المسؤولة عنه،... المفارقة نشأت لأن الدولة ظلت غريبة عن ثقافة مجتمع المقاومة، ومع ذلك ترفع علم تأييدها... ترفعه بديلاً عن مساعدتها والتنسيق معها.

ثانياً: على المقاومة التي تستمر تعلن أنها ليست بديلاً عن الدولة، أن تلح هي في قيام الدولة بتحمل تبعاتها وممارسة سيادتها، في الحقلين العسكري والاجتماعي، فضلاً عن الحقل السياسي، ثم فضلاً عن ضرورة نشر ثقافة المقاومة – وأقلها آدابها – في كل فئات وطبقات المجتمع وأحزابه وعائلاته الروحية.
ولنتذكر، تأكيداً لهذه الدعوة، حديثاً للإمام قال فيه:
«في تصوري أن قضية الدفاع عن الوطن كقضية الدفاع عن المواطن، لا تحتاج إلى تخطيط.

إن مجرد التفكير والحيرة بين أن ندافع أو لا ندافع، لأمر في منتهى السخف لأنه تنكر لواقع الوطن، وهو التخلّي عن المسؤوليات. نأخذ قراراً بالدفاع، ثم نفكر بدرس الإمكانات والوسائل. أنا متأكد أنه مع أول طلقة تصدر عن الجيش اللبناني ستتغير ثقة الناس بالدولة، وستتغير العلاقات بين المواطنين في الجنوب ومناطق أخرى من لبنان، سيشعر جميع اللبنانيين بالمسؤولية ويدفعون الضرائب بكل حماسة للدفاع عن الوطن».

ثالثاً: اذا لم تنسجم المقاومة مع المجتمع الجنوبي بكل فئاته ولم تحوله إلى «المحيط المائي الذي يسبح فيه سمكها» (تبعاً للمبدأ الذي كرّسه ماو تسي تونغ) فان استمرار وجودها قد يصير عقدة، يتوقف حلّها – في لبنان المكتمل التحرير – على نجاح المقاومة في التحوّل من منظمة عسكرية – اجتماعية، دينية المنهل متشعبة الانتسابات – تحوّلها إلى قوة لبنانية فاعلة في الجسم السياسي، متسعة البث في الثقافة العامة، تساهم في تطوير النظرة الشعبية وتطوير بنية المؤسسات السياسية والمجتمع المدني، صوب قيام متحد وطني مقاوم وشامل لكل اللبنانيين، رافض لكل انفصالية داخلية اياً كانت الباعث اليها.

رابعاً: وأخيراً، أخيراً: يجب أن تعزز المقاومة جدياً توجهها إلى جميع اللبنانيين وبنوع أخص إلى المسيحيين خارج الجنوب كما داخله، في عودة منها إلى استلهام الالتفاف الوطني، والمسيحي بالذات، حول حركة الامام الصدر ودعوته، كما كانت الحال منذ انطلاقتها.

ولا أخالكم، ولا أخالنا، بحاجة إلى من يعيد تلاوة آيات الإمام في خطبته الفريدة في التاريخ، مفتتحاً شهر الصيام في كاتدرائية مار لويس للأباء الكبوشيين في شباط/فبراير 1975، فلا أحد منا ينسى. ولا أحد يجب أن ينسى أنه قبل ذلك مرات، وبنوع أخص في 24 أيلول/سبتمبر 1974 جرى استقبال الإمام الصدر في عشقوت، البلدة الكسروانية المارونية، بقرع الأجراس وناداه الشباب هاتفين: «لن نتخلى عنك يا إمامنا، يا قداسة الإمام، ما دمت تنادي في كل زاوية من زوايا هذا الوطن بالمساواة والوحدة والتضامن».
وأستشهد – كدت أقول: أشهد – بقول سماحة الإمام عن الشيعة، لمن يسألون أو يتساءلون:
«لا نريد هدماً ولا تخريباً، نريد الإصلاح في أمتنا».
«لبنان أفضل (للشيعة) وهم أفضل وأحرى لهذا البلد. لا يريدون الهدم، بل صيانة هذا الوطن عن طريق العدل. (...) نريد لبنان متكاملاً يسوده العدل ويكون فيه كل مواطن مكرّماً».
ثم قوله أخيراً باسم كل اللبنانيين:
«نحن لن نقبل الذل حتى لو اقتضى ذلك موتنا، لأن موتنا لن ينتهي ولن يريح الطغاة، فليأخذوا علماً بذلك (...)
اليوم الموعود ليس ببعيد. هو قريب جداً، موعدنا مع الصباح».

ثقافة الحرية في لبنان

شهـادة جيـل

مؤتمر ثقافة الحرية في لبنان من المعرفة
إلى السلوك الحرّ
تنظيم الحركة الثقافية - انطلياس و مؤسسة
فريدريش إيبرت
25-26 تشرين الثاني/نوفمبر 2004

سيداتي سادتي،
موضوعي: شهادة جيل... أي جيل من أجيال ثقافة الحرية في لبنان. مما يفترض أن جيلي نشأ في ثقافة حرة، أو هو ابتدع لنفسه ثقافة حرية. والجيل هنا يقارب القرن، إلا أنه لا يبدأ بالعدّ السنوي المئوي.
والواقع أن الجيل الذي أنتسب إليه كان له شرف النشوء من جيل النهضة العربية في القرن التاسع عشر، انطلاقاً من عهد «الأنوار»، في أوروبا وعقائد الثورات وحقوق الإنسان.
على مقاعد الدراسة، كنا نتعلم جبران خليل جبران ونرنّمه، وولي الدين يكن وجمال الدين الأفغاني، فضلاً عن شبلي الشميّل والأمير شكيب أرسلان، ومن بعد كان شارل مالك وقسطنطين زريق وانطون سعاده. وفي الكتب المعاصرة نتسابق إلى فلسفة حقوق الإنسان، وآثار الثورة الفرنسية في الأدب العربي، مع أنيس المقدسي ونردد، ونحن نتظاهر، هذه الأبيات من أحمد شوقي:

وللأوطان في دم كل حر — يدٌ سلفت ودَينٌ مستحقُ
ولا يبني الممالك كالضحايا — ولا يُدني الحقوق ولا يحقُّ
وللحرية الحمراء بابٌ — بكل يدٍ مضرّجةٍ يُدَقّ

نعم «الحرية الحمراء»... حقاً وحقيقة!
ذلك أننا أفقنا على أخبار المشانق يسير إليها الشهداء هازجين مهللين. ومنا من كان قد شاهد طلائعها، فهاجر إلى حيث جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وأمين الريحاني، طلباً للحرية والخبز، لأن الجوع كان إلى الاثنين في آن معاً. جوع إلى الخبز وجوعٌ إلى المعرفة بحرية، أي حرية المعرفة.
أذكر شخصياً أن أول خروج صاخب قام به جيلي كان للتظاهر طلباً للاستقلال، في مواجهة العسكر السنغالي الفرنسي الذي أطلق علينا الرصاص، فكان أول اختبار لنا مع الدماء الحقيقية – ساخنة على الأيدي، ليست باردة كما في الشعر.
وصارت بعد ذلك الأحلام ممكنة، لأننا انتصرنا.

غير أننا إلا قلائل، لم نفهم أن الاستقلال ليس هو وحده الحريات التي كنا نحلم بها ولا الحقوق.
فكانت فلسطين والهزيمة. قلنا معليش. سمّينا الهزيمة «نكبة» وصرخنا: «النصر حتماً لنا».
وكان النصر يهرب منا، نكسة بعد نكبة، كلما قيل أنه «قريب مبين».
وصار السؤال المؤرق عن النصر المفقود طريقاً نستسهله إلى السجون، أفراداً وجماعات وصفوفاً، لأن العدو لم يعد خارج الوطن، بل صار الوطن المسلوب الحرية هو العدو.
فمضينا نكبّر صورة الوطن على قد أحلامنا، أو نصغّرها في حجم قدراتنا. ومنا من فتح إلى الإرهاب طريقاً، غير مدرك بعد أن الإرهاب، ولو كان قتالاً للعدو، إلا أنه لا يبني للحرية هياكل ولا للمجتمع نظاماً متكاملاً كاملاً.

شهادة جيلي؟
تختصر بكلمة: مفارقات الحرية والخيبة.
لأن من الخيبات نشأت العقائد التي تقيّد كلها، تقولب، توبد القوالب عقائد، ولا تحرر.
ولنفصح، أو نحاول لأنه كان قد جاء زمن الفلسفة، أي زمن اكتناه ثقافة الحرية، وهل ذهبت هدراً؟ هل الثقافة قابلة للهدر و«النيهيلية»؟.
فلسفياً موضرعياً، تعلمنا من الخيبات أن الثقافة وحدها ليست هي الحرية. بعضها طريق إلى الحرية وبعضها الآخر طريق إلى الخيبة إذ صارت الحرية حكراً للحكام وصاروا متحكمين، أي استبداديين... – رحم الله عبد الرحمن الكواكبي – ويستعينون بالثقافة، أو بفتات منها لفلسفة التحكّم والنضال عقائد عقائد، كلها – يا للمفارقة! – تهدم نفسها وتنشغل بهدم بعضها البعض، تفسد الحريات وتهدر حقوق الإنسان.
ذلك أن منطلق ثقافة الحرية أن يعرف المجتمع حقوق الإنسان وحدودها الدنيا ومن ثمّ مراتب طموحاتها والآفاق اللامتناهية الحدود.
وشروط ذلك رفض الوصاية، مثقفة كانت، أو مدّعية الثقافة اعتداداً...
من هنا ان ثقافة الحرية هي يناعها بفرح وزهو. وشروط هذا اليناع الانفتاح على كل المناهل، أي التواضع والمحبة.
وبالتالي، المثقف الحر لا يتكبّر ولا يكفّر، لأن التكفير فعل قمع فكري، بل إرهاب ثقافي.
فلا المرهب يظل مثقفاً، ولا ضحية الإرهاب الثقافي يتثقف ويدرك الحق.
الحق أن تعرفه بعلانية كيانية، وهو يحرّرك.
والحق طريق الثقافة لأنه رأس ثالوث المثالية الثقافية، من أقدم العصور وفي كل الحضارات: الحق والخير والجمال.
وفيما يرى بعض المفكرين أن الحرية هي مجرد «شكل» بالمعنى الفلسفي، وحسب، لأنها إطار ثقافة المعرفة و«مركب» الابتكار الأدبي والإبداع الفني، والشرط الموضوعي، ليس

إلا، لتحقيق القدرات البشرية وإنماء العلاقات الإنسانية الثرية بالمثل العليا... يبدو في نظرنا أن الحرية هي كيانياً جوهر ثالوث المثالية الذي تحدثنا عنه. ففيها ومنها زخم التوق إلى الحق وإلى الخير والجمال. إنها، في آن واحد، الغاية، والوسيلة إلى الغاية اللامتناهية الأفق، على أن تتحد الوسيلة والغاية في تفاعل خلاّق، هو الخلق الإنساني بالذات... لأن في الحرية بعض القبس الألوهي المانح الإنسان الحر نعمة ذلك الحق.

من هنا إن من الحرية وبها يتوالد فعل ديالكتيكي مجتمعي مستمر هو بالذات النسيج الاسمه ثقافة الحرية.

وبالحرية يتحد الغير بالغير يتساءلان ويتواصلان. وبدون هذا التواصل المتبادل، أي معنى للكتابة ولا قارئ، ولا من يناقش ويزيد ثم يستزيد؟

وما معنى الرسم والنحت ولا ناظر متذوّق، ولا مطوّر ومجدد؟

وما معنى النغم ولا من يسمع ثم يبتكر من النغم أنغاماً متناغمة؟

وما معنى معرفة الخير إن لم تستتبع الأفعال الخيّرة؟

وما معنى أخيراً أن يدرك واحدنا حقاً أو حقيقة ولا يجهر بها ولا يبشّر ولا يشارك؟

لقد قيل أن وجود مجتمع ثقافي حر هو شرط وجود الحريات والتمتع بالحقوق. موضوعياً، وإلى حد ما – إنما فقط مبدئياً، صحيح. بمعنى أن زراعة التوق إلى الحرية الغائية تحرّك القوى الخلاّقة في المجتمع المنفتح المتقبل جدلية الحرية، احترام الآخر ومحبة صورة الآخر في ذاته هو!

ولكن هذه الحركة الجدلية لا يمكن أن تكون انفرادية، بل وليدة مبادلة في المحبة والتوق إلى عل، بتواصل ومفاهمة.

فلا مجتمعات حرة، ولا ثقافات حرية بدن أحرار خلاقين عارفين بالمثل العليا وبأسرار الحياة الخلاقة، متمردين على ثقل الجمود في التخلف والتقوقع، ثائرين على كل جاهلية محتقرين لها. يتقيدون بحقوقها عليهم بقدر ما يطلبون حقوقهم منها وبموجبها.

المفكر الحر لا ينزوي في عزلة برج شامخ ولو كان برجاً عاجياً أو قفصاً من ذهب نخبوية متكبرة... ثقافة الحرية هي أن ينسج المثقفون شباكاً، بل قماشات حياكتها من عروق الحياة، تستحيل مجتمعات متمتعة بالمعرفة المتدرجة نحو المعرفة القصوى، تتغذى منها وتنمّيها في آن معاً، وتتبادلها، تعلّم الآخر ما عندها وتتعلم منه ما عنده، فيكون إذذاك التكامل المتصاعد اللولبي من أدنى إلى أقصى مراتب المعرفة. والمعرفة، بالمعنى الأشمل، هي المنتهى «الكينوني» لثقافة الحرية.

سيداتي، سادتي،

أراني أطلت الشرح والكلام وعلومه، ولا حصيلة عملية لشهادتي تصلح وصيّة.

قلت إن جيلي كان كذلك جيل الخيبات، بقدر ما كان جيل الشهادة للحرية. وأخشى ما

أخشاه أن نستطيب رومانسية الحزن بالخيبة، نحمّل مسؤوليتها لسوانا، بحجة أن سوانا سلب حريتنا.
فاسمحوا أن أنتهي بدعوتكم إلى مراس جدلي حول المعرفة والترقّي صوب الحرية المليئة.
أبدأ بهذا: نشكو القلّة. وفي الحقيقةً، المعرفة تصنع الثروة، وليست الثروة هي التي تصنع المعرفة.
والمعرفة كذلك تنتج السلاح الذي به تكون الغلبة ويتعمّر النصر، ولا ينتج السلاح معرفة ولا حرية.
والمعرفة هي السيادة، ولا سيادة حيث لا معرفة. وليست السيادة مصدر المعرفة.
ومجتمع المعرفة هو مجتمع الحرية، لأنه هو، في نهاية المطاف، المجتمع الأقوى، الأقدر على إنماء الإنسان، وتعمير المدائن، بل «استعمارها» إذا لم تعمّر نفسها وتحصن حرياتها بالمعرفة.
مجتمع المعرفة لا يحكم إلا بحرية، وقاعدتها حرية البحث عن الوقائع والحقائق. وهذا يعني أن مجتمع المعرفة، مجتمع الحرية، يرفض الحكم الذي يفرض على المواطنين «الحقيقة الرسمية» يمسمرها بسلطانه في العقول والضمائر، فيمنع المنافسة في البحث، والمناقشة في الآراء المتعددة.
وأبرز أعداء المعرفة ليست ما يسميه عبد الرحمن الكواكبي «جهالة الأمة»، بل هي المعرفة الناقصة فتزداد تناقصاً وهي تجمد.
ذلك أن المعرفة درجات نوعية. أدناها العلم الاستظهاري، نتجاوزه إلى التقليد والاقتناء ولا نكون قد تحررنا بعد.
ثم ينفتح باب المعرفة الخلاّقة بالبحث الجدلي العملاني، العملي كالنظري، إلى أن نبلغ مرتبة الاختراع، فنتساوى مع دنيا المعرفة ونشارك حضارتها.
وهذه، إن قام بيننا وبينها عداء، فليس بالعنف نتغلب ولا بالإرهاب طبعاً، بل بالمساواة إلى حد المساهمة في متّحد المعرفة الكونية.
زمن السجال حول التنمية المتكاملة، التقدّم والتخلّف ليس مسألة رياضيات المقارنة بين الثروات، بل التقدّم والتخلّف نتيجة قدْر الحريات التي نتمتع بها وبها تتميّز مجتمعاتنا، فتصير قادرة على المشاركة بسوية في الخلق الحضاري، بل الحضري، الذي هو التعبير «الواقع–تاريخي» للخلق الثقافي، أي ليناع ثقافة الحرية.
والقراءة الحقيقية لصورة عالم اليوم المتخبط في أزمات حروب قيل أنها استعمارية...
القراءة الحقيقية –نقول– هي ان المواجهة «الواقع–تاريخية» إنما تحصل بين عالم الشمال وعالم الجنوب. الشمال مستبد، بل ظالم لأنه عالم السيادة، غير أن سيادته وليدة تفوّق في المعرفة كان امتيازنا نحن، أهل الجنوب الحالي (وليس الأبدي) يوم كنا نحن موطن المعرفة، لا أرض ثروات كان يمكن أن تظل دفينة، ونحن بها فقراء ومتخلّفون (كمثل بحيرات المياه– حتى لا نتحدث عن سواها – التي يسبح على سطحها لبنان ويظل عطشاناً

معتماً... أينك يا موريس الجميل وأينك يا ابراهيم عبد العال؟)... لا نملك معرفة تثميرها، فمن أين تكون لنا حرية السيادة عليها؟... والسيادة في وهمنا «لبس عباءة وتقرّ عيني»... وغداً بكاء على أطلال ما تخلّفنا عن أعماره، لأننا نستطيب طمأنينة الأسلاف، ولو جاهلية وننفق ما يتيسر لنا من ثروات في كل نشاط عاهر، بما في ذلك عهر بعض ثوراتنا!...
ومنتهى الجهل، ألا ندرك أن الشمال، في أنانية طبيعية وسليقية، يمكن أن يكون، والأرجح أنه، أقل حرصاً على إنماء الجنوب وترقيته، بل وديمقراطيته، مما يدّعي.
غير أن الجهل الأعظم هو أن نظن أن في وسع الجهالة أن تتغلّب بالعنف على المعرفة... أو أن نظن، وتلك خطيئة مميتة، أن القوة الصافية يمكن أن تصير يوماً بديلاً من الحرية وثقافتها ومن الإيمان بحقوق الإنسان.

شهادة جيل؟
لا بل «الجيل الشهيد»!... هكذا قد يصير مصيرنا إذا لم ننقذ أنفسنا بثقافة الحرية، بدلاً من استطابة أناشيدها والتطييب لها مصفقين مكبّرين... ونحن عنها نتقهقر.
مستقبل حريتنا المستعادة في ولوج فعل الخلق الثقافي المتكامل بالتفاعل التراثي، بدل الانتحار الذي تسوقنا إليه خرافة «صراع الحضارات»، والتعبّد معها إلى آلهة العنف وعفاريت جحيمه المفتوحة أبوابها، تنتظرنا!!!

الكنيسة الانطاكية أمام التحدي التاريخي

حركة الشبيبة الارثوذكسية
بيروت -13 أيار/مايو 2005

سرور، بل فرح.
العودة إلى «حركة» الشبيبة هي لي بمثابة العودة إلى الجذور. الأيام الأولى تعود تطفح على سطح الذاكرة، أيام التأسيس.

موضوعنا هو «التحدي»؟
إنها «الحركة» التي نشأت كتحد تاريخي، لإحياء انطاكية. اختيار كلمة التحدّي ليس صدفة. نظرتنا إلى التاريخ كانت متأثرة بكبير معلمية آنذاك: Toynbee – الذي تعلّمنا من كتاباته حين كنا ندرس على انطاكيين كبيرين: شارل مالك وقسطنطين زريق، فلسفة وفلسفة التاريخ.
وتميّزنا في جيلنا بأننا لم نذهب من «الديالكتيكية» إلى الديالكتيكية المادية – ولم ننبهر روسياً بالشيوعية، بل ظل عندنا التحدي كيانياً متكاملاً، وكذلك التجاوب antishèse، وكذلك الحصيلة synthèse: فعل تحد كياني تتجسد خلاله الأفكار في الأعمال.
ربما لأن هذا بالذات – هذه النظرة هي الأمر الذي ميّز، أيام التأسيس، حركيّي الجامعة الأميركية عن حركيّي اليسوعية. الشماس آنذاك أغناطيوس هزيم، وغابي سعاده، وفي الجهة المقابلة أتذكر منهم ألبير لحام ومن استمرّ معه أو تبعه في القيادة. وكان – للتاريخ – جورج خضر (ولم يكن قد ترهب بعد) في منزلة وحده، وكأنه الحصيلة الديالكتيكية للثقافتين.

سيدي صاحب السيادة، أصدقائي، إخواني...
أسارع وأقول إنني لن أنزلق إلى محاضرة فلسفية... أجواء هذه الأيام لا تحتملها... لقاؤنا حول حديث. فاسمحوا لي أن أهبط من مقام الفلسفة وامتدادها اللاهوتي إلى مقام الواقع الكياني التاريخي، لأقول:
«في البدء كان الكلمة»؟ نعم، ايمانياً دينياً...
إنما، يبدو لنا أكثر فأكثر، انه بالمنظار الكياني التاريخي، ولا تناقض: «في البدء كانت أوروشليم – القدس» وهي اليوم القضية، في مختلف وجوهها، والمأزق والتحدّي. وحل قضيتها تكون الحصيلة.

هنا، هذا الاستشهاد من البطريرك الانطاكي أغناطيوس الرابع، في خطبته التاريخية أمام القمة الإسلامية التي انعقدت في الطائف، بتاريخ 29 كانون الثاني/يناير 1981:
«القدس – أيها الأخوة – قلب إنسانيتنا... لا سمح الله بأن تسمى مجرد شأن سياسي... في القدس نلتمس وجه الله، وفي لبنان نلتمسه كذلك...
«لبنان دمه يسيل وجراحه أعظم بكثير من أن تندمل بالتأوه والتأسّي. إنه يتوقع من أشقائه محبة تشفي جراحه في الواقع. والمحبة أصلا لا تكال بالكيل ولا تقاس بالمقادير.
«لبنان دفء للجميع ومكان تلاقي الأفكار وتفاعلها ليصبح كلها للكل. وحلاوة لقيا المسيحيين والمسلمين فيه لا تضاهيها حلاوة.
«إن لبنان اليوم يناجي القدس في فرادته وأصالته. والقدس اليوم تستدعي لبنان في فرادتها وأصالتها. والقدس ولبنان في دنيا العرب قطبان وركنان وضرورتان لكل سلام».
ها نحن وصلنا إلى لبنان – موقع التحدي الانطاكي الأشد خطورة: إنه الدور الذي كان، ولا يزال مستمراً، وليس بالضرورة أن يكون بطريركياً. وبتعريف هذا الدور، بتحديد لا يقبل التباس أقول: إنه الدعوة لأن يكون المسيحيون في لبنان – ولبنان، في الواقع التاريخي، هو مقام البعد السياسي للوجود المسيحي العربي – أن يكون المسيحيون عرباً بعد الإسلام، كما كانوا عرباً قبل الإسلام، ثم عرباً مع الإسلام في انتشاره، في كبواته وفي نهضته، والآن في تغليبه على تطرفه. وقد كان هو بالذات – أي الإسلام المتطرّف في مسلميه – المرهب والمرهَب، في آن معاً بل الغادر والمغدور، بدليل ما كان يحدث في الجزائر وما حدث ولا يزال في أفغانستان، مما لم يحدث مثله في لبنان ولا في سواه.

وبشيء من الإيجاز، ما هو المنتظر منا؟
أولاً: أن نحول دون انتشار خوف مسيحي من الاسلام يدفعنا، أي يدفع بالمسيحيين كلهم إلى الجنوح صوب تسييس «المجتمع المسيحي» واستطراداً عسكرته في دويلات مستحيلة... وهو الخيار الانتحاري الشبيه بالدولة العبرية التي نشاهد تأزمها وسلوكها طريق المأساوية الانتحارية – «المأساوية» بالسليقة التاريخية – التي هي التعبير الديناميكي لانغلاقيتها الغيتوية.
والمسيحيون من ذلك براء، وقد اقتيدوا مرات إلى اختبارات النقيض فكانت المآسي هي النتيجة.
ونظرة الانطاكية المقدسية التاريخية هي: «فصل الدين عن الدولة»، ليس بالمعنى الشعاراتي الساري، أي «إلغاء الطائفية» ولا «الدولة المعلمنة» (أي المغرّبة عن القيم الدينية) بل الدولة المدنية الجامعة لثراء كل الأديان في تعدديتها، كعائلات روحية متحاورة في الحياة، وليس كطوائف قبلية تتنكر لكل القيم (والوصايا) في نزعتها «الحربجية».
النقيض الديالكتيكي لهذا الخيار، أي التحدّي المواجه التحدّي، هو: أن تتحول الطوائف،

بحكم التيئيس الذاتي، إلى كنائس صامتة، منكفئة على نفسها، تشهد على وجود أركيولوجي متحجر للمسيحية، قيمته التاريخية معدومة الحيوية والإنمائية. وهذا ما ترفضه... نرفض النموذج – التحدي الذي هو القدس إذا نجح الإسرائيليون في تفريغها، فتصير مدينة من الحجر وليس من البشر، أي كنيسة مقتولة الانسانية، أهرام آخر، أو هياكل بعلبكية أو تدمرية يحج إليها المؤمنون المغرّبون لإطفاء حنين أو الخلود إلى ذكريات، أو السعي إلى انتعاش فولكلوري سياحي.

كي نفصل الدين عن الدولة، من غير أن ننكب كنائسنا بالتخلّف، يجب أن نمكّن انطاكيتنا من مواجهة التحديات التالية:

1– الاثراء الروحي والثقافي والتربوي وهو ما يستوجب عودة معززة إلى الرهبانيات، لا شكلاً فقط، إنما لاحياء مؤسستنا الاجتماعية والمدنية بمناهل الروح والايمان.
وغني عن التسجيل هنا: أن العالم المعاصر يعيش موجة إقبال نهضوية على التديّن إنما نحتاج، كما هي الحال خصوصاً في بعض الدول البلقانية، والاسلامية، والمسيحية، إلى تحصين المجتمعات من التعصب القبلي ومن منطقه العنفي الذي يقود إلى الإرهاب والحرب المتمادية.
وفي المقابل، نسجل أن أهم مترتبات الحوار هو ألا يواجه المسيحيون الإقبال المسلم على التديّن بالتخوف والحذر والعداء، بل أن يفرحوا به وله، وأن يرافقوه ويشاركوه، وألا يتخوفوا من الإنتاج في إطاره بالمشاركات العلمية والفكرية الأدبية.

2– في هذا الإطار، ننتقل من التحدّي الإسلامي إلى التحدّي المسيحي الغربي، في وجهيه الروماني والصليبي النيوانجيلي.

ومرة أخرى، أعود للاستشهاد بخطب السيد البطريرك أغناطيوس:
أولاً: في استقباله للبابا يوحنا بولس الثاني، عند زيارته إلى سوريا في 6 أيار/مايو 2001 إذ قال:
«بطرس الذي أقام في انطاكية أولاً يستقبلكم الآن على هذه الأرض السورية. من هذه الأرض تحققت عالمية الرسالة الإنجيلية بالأفعال. على الطريق المسمى «المستقيم» الذي مشيتم فيه قبل قليل نفح الروح في بولس، الذي صعقه الرب، وصار هو صوته في العالم. في هذه الأرض الانطاكية، أغناطيوس المتوشح بالله خليفة زعيمي الكرسي الانطاكي والممتلىء من الجيل يوحنا تكلم عن أهمية الكنيسة المحلية المجتمعة حول الافخارستيا التي هي تؤسس هذه الكنيسة في التقليد والتي تصير هي فيها منبعاً للشهادة».

ثم ثانياً، في رثائه المتواضع ليوحنا بولس من أرض ارثوذكسية في لبنان اذ قال:
«قداسة البابا يوحنا بولس الثاني، هو شخص استثنائي، اي لا يوجد اثنان مثله في كل العالم.

البطريرك البابا هو رئيس الكنيسة اللاتينية أولا، ثم صار رئيس الكنيسة الكاثوليكية أينما كانت. والكنيسة الكاثوليكية ممتدة في كل العالم، في القارات الخمس. وذلك، عندما يتكلم، فهذا يعني انه يوجد ملايين من الاشخاص يقدرون الكلام الذي يحكى. عندما نقول ان كلمة البابا هي أوسع كلمة لشخص واحد على وجه الأرض، لا يوجد أي شخص وحده كلمته تكون مسموعة عند البشر مثلما الكلمة التي يقولها البابا.

«يا احباء، الكنيسة لا تتكلم بالسلاح. لا تتكلم بالمقاتلة ولا بالشتائم. في الكنيسة، السلاح هو الكلمة التي تلفظها: الكلمة التي تتكلم عن الحق ضد الباطل، تتكلم عن العدالة ضد الظلم، تتكلم على الناس الذين نهتم بهم، عن الفقراء بالنسبة إلى الاغنياء، للمظلومين بالنسبة إلى الظالمين.

«كان البابا يتكلم معنا دائما من اجل الكنيسة، وعندما نقول وحدة الكنيسة لا نقصد انه، اما نحن واما غيرنا نكون في الساحة. لا، الوحدة تعني ان نكون اثنين، وتعني ان نكون ثلاثة. انظروا، انتبهوا كيف يوجد اكثر من بطريرك كاثوليكي في هذه المنطقة. بطريرك الموارنة، بطريرك السريان الكاثوليك، بطريرك الاقباط الكاثوليك الخ. كلهم من كنيسة واحدة، لكنهم خمسة بطاركة وليسوا واحداً. من اجل ذلك، هذا الضم الذي نتكلم فيه هو الوحدة. تعال حتى اراك وتراني، امشي معك وتمشي معي ونجلس معا.

«كان شخص حوار. تفوه بكلمات، ليتنا نسمع مثلها كل يوم. تكلم على احترام الكائن البشري، على المحبة بين البشر، لان المحبة ليست في القراءة عنها فحسب. المحبة تُرى في الاشخاص، تُحس فيهم، الله خالقها، وليست في حاجة إلى ان يقرأ الواحد كثيرا حتى يتعلم ان يحب الناس. من اللازم الا تكرههم، والا تحتقرهم.

«ومن اللازم ان نعلم، انه اذا اعتقدت ان كنيستك هي صاحبة الحق، فيجب ان تتعلم شيئا آخر. لا يكفي ان يكون الحق بالمناقشة والكلام. اذا لم توجد المحبة، فلا يوجد شيء. اذا كنت لا تعرف كيف تحب الناس، فأفضل ما عندك هو مكروه من الناس. الانسان يكره الكره. كم اكره من يتكلم معي وهو الذي يكرهني حتى لو كان يتكلم الصدق».

3- هذا الكلام عن «المحبة» في معانيها المتعددة يسوقنا إلى البحث في مستوى آخر من مستويات التحدي التاريخي الذي يواجه الكنيسة الانطاكية، ألا وهو التحدّي الثقافي والتربوي وامتداداته في المناقبية السياسية والاجتماعية.

كيف نواجه هذا التحدّي؟

هنا، دور الواجب الرعائي بالمعنى الشامل. أتحدث عنه لمجرد تسجيله والدعوة إلى تكثيفه، الا أنه موجود في منارات وموائل ارثوذكسية، غير أنها تصير مسبوقة من الكنائس الأخرى. أنظر خصوصاً إلى جامعة البلمند، إلى كلية اللاهوت فيها، وإلى مركز الدراسات

الانطاكية وأخيراً وليس آخراً إلى مركز الحوار الإسلامي – المسيحي. فضلاً عن الأكاديمية اللبنانية (ALBA)، الانجاز السابق للبلمند والمستمر معه في رابطة عضوية.
وأنظر إلى نهضة في هذا الاتجاه بالذات في عكار، لم تكن متوقعة.
وبالطبع، بيروت... يا بيروت. عاصمة انطاكية، بالإذن من دمشق عاصمة الشام حيث الحركة النهضوية التنورية معذورة إذا لم ترافقها الدعاية، نظراً لتردد مجتمعها في الانفتاح الثقافي والإعلامي.
أراني وصلت بجولتنا إلى حيث التحدّي هو التلاقي في العمل المنتج الخلاق بين الرعية والرعاة، أو بكلام أحدث، المؤسسة الإكليريكية وجماعات المؤمنين، المستقيمي الرأي ومن يجب ويمكن أن يحاوروا.
والمبدأ المسيّر، إذا جاز التعبير، لهذا القطاع من التفاعل في مواجهة التحديات، هو المشاركة في تحميل العلمانيين المسؤوليات بما فيها الرعائية.
وأقدم للائحة مقترحات مطروحة علينا بذكر بعض نماذج للحنين والتوق، أوردها من غير حسد، بل كنماذج لما يمكن القيام به ونقوم، إنما بكثير تباطؤ وبدون خطة وتنظيم:

أولاً: في سياق ترميم كاتدرائية القديس جاورجيوس، اكتشفنا أنه كان ثمة مطبعة ودار نشر في محيط الكاتدرائية تحمل اسم شفيعها، وأنه صدر عن الدار ترجمة في عدة أجزاء لتاريخ هيرودتوس الأشهر للعالم القديم، وذلك في منتصف القرن التاسع عشر.
أسأل: من يفكر اليوم بترجمة مثل هذا الكتاب المرجع، وهل ثمة من يقرأه في عصر ثقافة «ستار أكاديمي»؟ والروايات المكسيكية والبوليسية؟ فضلاً عن المناظرات السياسية الببغائية؟

ثانياً: نشر الآباء البولسيون، لا نحن، ترجمة عربية منقولة عن الفرنسية أكاديمياً لكتاب القديس يوحنا الدمشقي، في حين توجد لدينا ترجمات عربية مخطوطة، وربما أصل عربي تاريخي... ولم ننشر شيئاً.

ثالثاً: نشرت كاثوليكوسية الأرمن الأرثوذكس نسخة طبق الأصل عن إنجيل تاريخي الخط والرسوم بالأرمنية ووضعته في التداول. ولم نضع عنه في التداول إنجيلنا المخطوطة والمزينة بمنمنمات لكبار الفنانين الايقونيين.

رابعاً: حولت الجامعة اليسوعية كنيستها إلى مسرح شبه دائم يستقبل أسبوعياً سيمفونية يقدمها الكونسرفاتوار الوطني. نحن اكتفينا بإعطاء الكونسرفاتوار ساحة للتدريس الصيفي في دير ضهور شوير.
مثل هذه النماذج المتواضعة ممكن القيام بمثلها وأكثر، وتقوم بمثلها بعض الأبرشيات،

ولكن الحاجة تبقى إلى خطة شاملة توزع ضمنها المسؤوليات وتجيّش من أجلها القدرات وتطلق لتحقيقها الحوافز، في إطار وعي علماني برعاية السلطات الكنسية أو مشاركتها وتشجيعها، على الأقل.

وفيما يلي هرمية ربما غير منتظمة للتحديات، كما تلقيتها (وفي ذلك دليل التوق الأهلي إلى المشاركة) من بعض من قرأوا نبأ المحاضرة، فتطوعوا لتنبيهي أو طرح مقترحاتهم:

1- تعميم إنشاء المجالس الملّية المنتخبة المنصوص عنها في القوانين البطريركية، وتعزيزها وتوسيع صلاحياتها حيث هي موجودة، وتوسيع قاعدة تمثيلها وتفريغ لجان عمل منها.

2- انتخاب المجلس الملّي البطريركي العام، على غرار ما كان معمولاً به في مطلع الخمسينات، ثم توقف او ألغي قانونه. وجعل اجتماعاته دورية ودائمة وتعزيز مستوى العضوية فيه وتعميم هذه العضوية.

3- تعزيز العلاقة بين الأبرشيات وعقد مؤتمر عام أو أكثر سنوياً على غرار ما حدث مرة واحدة في جامعة البلمند في أواخر التسعينات.

4- تحديث إعداد الكهنة وترقيتهم في المناطق النائية، وبعض المدن. وتحديث الطقوس ولغتها وموسيقاها وتبسيطها لتعزيز مشاركة الأجيال الطالعة غير المهيأة.

5- إقامة أطر مشاركة وتبادل معلومات ومناقشة وبحث بين الكنيسة الانطاكية وسائر الكنائس الارثوذكسية، إحياء لما كان قائماً في الثمانينات، في إطار مجلس الكنائس العالمي على أن يتجاوز ذلك المناقشات اللاهوتية إلى التعريف الثقافي والاجتماعي والإعلامي.

6- إقامة علاقات منتظمة مع سائر الكنائس المشرقية، ولا سيما العربية، لتكوين «جبهة إيمانية مسكونية» أو على الأقل مشرقية تردع حركات الاقتناص التبشيري وتحصن الكنيسة ضد قيام حركات فئوية مهرطقة أو مشبوهة (sectes، مثلاً شهود يهوا في الكورة وسواها).

7- تشجيع المكتبات المحلية العامة لمختلف المستويات والاهتمامات، وحلقات الحوار والمناظرة والدرس والبحث، وانفتاحها على كل الكنائس والأديان.

8- تعزيز دور البطريركية الانطاكية العربي والمسكوني لسد الثغرة المحدثة نتيجة عزلة وانكفاء البطريركية المسكونية بعض الشيء وتعثرها بطابعها الهيليني. مثلاً التدخل الأخوي لمعالجة أزمة البطريركية في القدس، حيث النزاع المقيم بين هيلينية الاكليروس وعروبة الرعية يبلغ الآن أشدّه. إحياء مقترح توحيد البطريركيات الارثوذكسية حيث تتجاور على تفاوت في الرعايا (مثلاً الاسكندرية وبغداد).

9- تحديث «الاعلام» الارثوذكسي والدعوة إلى مؤتمر يضم الإعلاميين وسائر المتخصصين في النشر والعلاقات الإنسانية (communications) والكتّاب والفنانين

للبحث في خطة تدريجية تتناول أكثر من صعيد، من التعليم الديني للصغار إلى التأليف التاريخي والفلسفي إلى الأفلام التلفزيونية والمجلات التاريخية والجغرافية المصورة تغطي كل الأصقاع الارثوذكسية وتقيم تبادلاً وحواراً بينها.

صاحب السيادة،
سيداتي سادتي،
أكرر أن هذه المقترحات ليست سوى مجموعة أفكار مجمّعة من متطوعين للاستشارة. وهو تطوع، إن دلّ على شيء، فعلى التعطّش لمواجهة التحديات التاريخية على كل صعيد وبمشاركة متوسعة القاعدة. لعل إدراجها بهذا الشكل العشوائي غير الانتقائي يفتح الطريق أمام مناسبات أخرى مغلقة، أو مفتوحة – لم لا؟ – للبحث المدروس المسؤول فيما يمكن أن نفعله لتعزيز وشائج مجتمعنا وبلورة شخصيته على نحو يزيد في فاعليته ودوره بل مساهمته في النقد الاجتماعي الذي يربطنا بكل من نتعايش معهم ونتشارك في هذا العالم المضطرب المحتاج إلى كل تنوير.

غسان تويني

سيرة شخصية

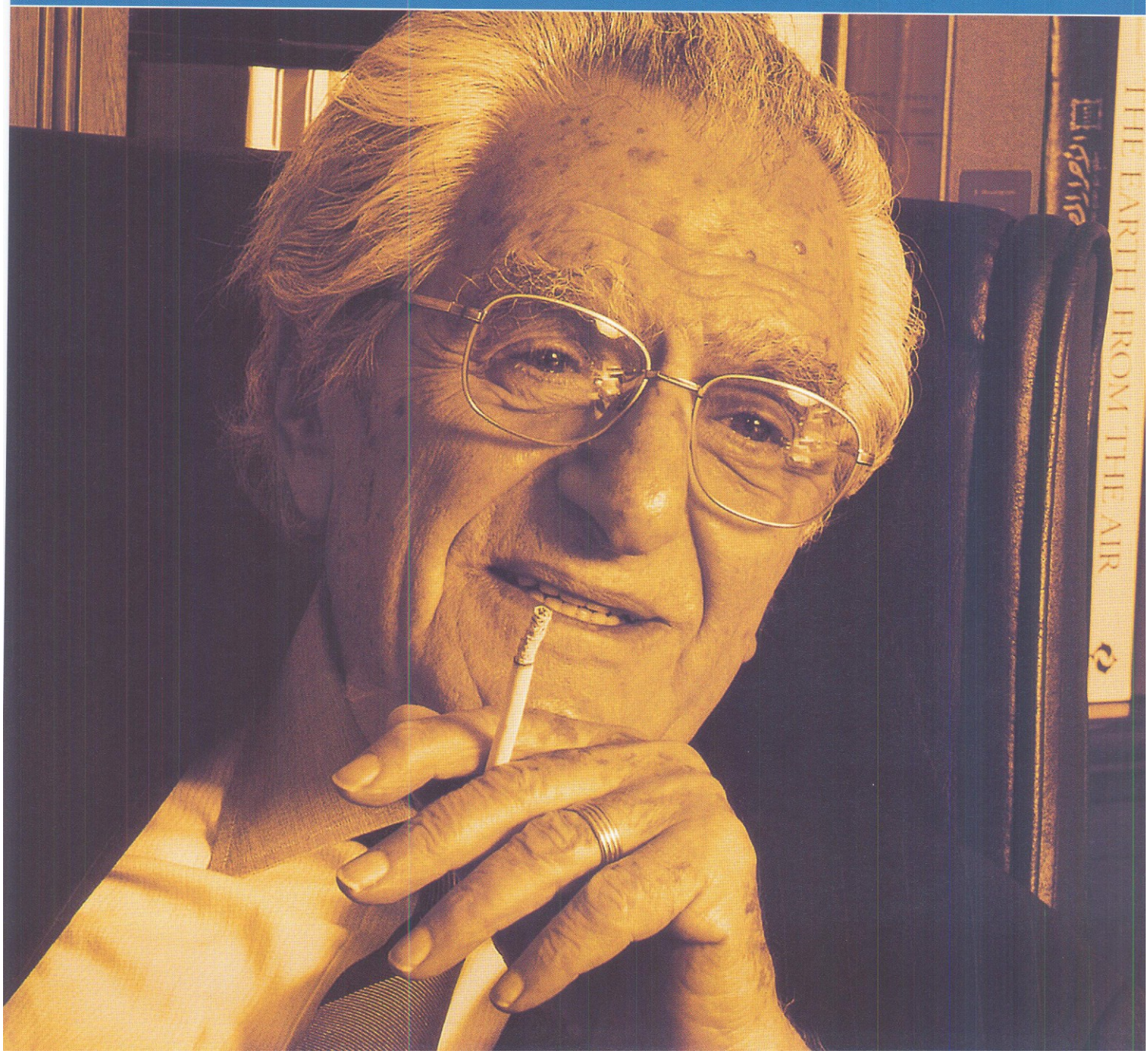

تاريخ الولادة:
5 كانون الثاني/يناير 1926

الحياة الأكاديمية:
- الجامعة الأميركية في بيروت: بكالوريوس في الفلسفة (1945)
- جامعة هارفارد: ماجستير في العلوم السياسية (1947)
- محاضر في العلوم السياسية في الجامعة الأميركية في بيروت (1947–1948)
- شارك في تأسيس الأكاديمية اللبنانية للحقوق والعلوم السياسية ودرس فيها فلسفة القانون وتاريخ الفكر السياسي (1951–1954)
- رئيس جامعة البلمند (1990–1993)
- عضو مجلس الأمناء في الجامعة الأميركية (1988–2002)
  حالياً عضو فخري (Emeritus)
- حائز وسام الشرف الفرنسي من رتبة فارس (2005)

الحياة المهنية:
- رئيس مجلس إدارة ومدير عام «دار النهار للنشر» منذ عام 2000
- حالياً رئيس مجلس إدارة جريدة «النهار»
  رئيس تحرير جريدة «النهار» حتى نيسان/أبريل 2006
- ناشر «النهار» وشريك مفوض لشركة «النهار» (1963–1999)
- ناشر ورئيس تحرير لجريدة «Le Jour» باللغة الفرنسية (1965)
  ثم ناشر جريدة «L'Orient le Jour» (1970–1991)
- رئيس لجنة متحف سرسق منذ العام 1998

الحياة السياسية:
- نائب بيروت (2006)
  نائب جبل لبنان (الشوف) (1951)
  ثم نائب بيروت (1953–1957) ونائب رئيس المجلس النيابي
- عضو في الوفد اللبناني إلى الجمعية العمومية للأمم المتحدة (1957)
- سفير مطلق الصلاحية وممثل شخصي لرئيس جمهورية لبنان في الولايات المتحدة بعد حرب حزيران/يونيو 1967
- نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الإعلام والتربية الوطنية (تشرين الأول/أكتوبر 1970 – كانون الثاني/يناير 1971)

- ممثل شخصي لمدير اليونيسف وسفير في مهمة خاصة في الخليج العربي (أيار/مايو 1971)
- وزير العمل والشؤون الاجتماعية، وزير السياحة، وزير الصناعة والنفط (حزيران/يونيو 1975 – كانون الأول/ديسمبر 1976)
- مبعوث خاص للرئيس الياس سركيس إلى الولايات المتحدة (كانون الأول/ديسمبر 1976)
- سفير ومندوب لبنان الدائم لدى الأمم المتحدة (أيلول/سبتمبر 1977 – أيلول/سبتمبر 1982)

من مؤلفاته:

- Laissez vivre mon peuple! (اتركوا شعبي يعيش) 1984
- Peace-keeping Lebanon (حفظ السلام في لبنان) 1979
- Une guerre pour les autres (حرب من أجل الآخرين) 1985
- (سر المهنة وأسرار أخرى) 1995
- Un siecle pour rien
  (قرن للاشيء – الشرق الأوسط العربي من الإمبراطورية العثمانية إلى الإمبراطورية الأميركية) 2002
- (حوار مع الاستبداد – الارهاب والعراق)
  (مجموعة مقالات) نيسان/أبريل 2003 – أيلول/سبتمبر 2003
  Iraq and Terror / Dialogue with Despotism.
  (Collected articles, April 2003-September 2003. Arabic)
- عدة مؤلفات ومحاضرات ومقالات ودراسات في العربية والانكليزية والفرنسية منذ عام 1952 عن الشرق الأوسط، فلسطين والحروب اللبنانية.

المسهمون في هذا الكتاب

الأبحاث

د. لطيف زيتوني

يحمل شهادة دكتوراه الدولة الفرنسية في الآداب والعلوم الإنسانية من جامعة إيكس آن بروفانس بفرنسا (Aix-en-Provence)، تخصص في السيمياء، ويحمل شهادة دكتوراه من جامعة القديس يوسف في بيروت، تخصص في اللسانية، وماجستير في الأدب العربي من الجامعة اللبنانية، تخصص في الأدب الحديث.

يعمل حالياً أستاذاً في قسم الانسانيات في الجامعة الاميركية في بيروت.

كتب في الترجمة واللسانيات وأدب الرحلة ونقد الرواية.

نشر ابحاثاً في مصر والسعودية والعراق والكويت ولبنان والولايات المتحدة الاميركية.

وله العديد من الكتب.

د. فارس ساسين

يحمل شهادة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة باريس الرابعة – السوربون، 1979.

استاذ الفلسفة الحديثة في كلية الآداب والعلوم الانسانية – الفرع الرابع، الجامعة اللبنانية.

حقق المراسلات الدبلوماسية بين وزارة الخارجية اللبنانية وسفير لبنان إلى الأمم المتحدة غسان تويني – (صدر من المجموعة جزءان)، ورسائل غسان تويني إلى الرئيس الياس سركيس.

أ. إدمون صعب

ولد في معلقة زحلة سنة 1940.

تلقى علومه الثانوية في الكلية الشرقية في زحلة، والجامعية في جامعة القديس يوسف حيث نال إجازة في الحقوق عام 1969.

عمل في الصحافة في جريدة «النهار» وغيرها منذ كان طالباً في الجامعة.

وهو حالياً رئيس التحرير التنفيذي لـ«النهار» ويشرف على قسم الاقتصاد في «النهار» إلى جانب اهتمامه بإدارة التحرير. ويكتب مقالاً اسبوعياً في صفحة الرأي في الجريدة.

د. مسعود ضاهر

ولد في الشيخ طابا، عكار، لبنان الشمالي سنة 1945. حائز على إجازة تعليمية ودبلوم الدراسات العليا في التاريخ من الجامعة اللبنانية. نال دكتوراه دولة في التاريخ الاجتماعي من جامعة السوربون، باريس الأولى. يقوم بالتدريس في الجامعة اللبنانية منذ عام 1973، ويشرف على طلاب الدبلوم والدكتوراه دولة في التاريخ. شارك في

اكثر من مائتي مؤتمر عربي ودولي، مثل لبنان والجامعة اللبنانية في عدد من المؤتمرات الدولية في بوخارست، مكسيكو، وتونس وغيرها.
في عام 1996 عين عضواً في المجلس العلمي الاستشاري للجامعة اللبنانية عن كلية الآداب والعلوم الانسانية.
1993 شغل مركز خبير في الأمم المتحدة لشؤون التنمية عام 2004.
له العديد من المؤلفات والبحوث في اللغتين العربية والانكليزية. وهو الآن استاذ التاريخ الحديث والمعاصر في الجامعة اللبنانية.

د. فكتور الكك

أستاذ الدراسات العليا في الحضارة العربية – الاسلامية والأدب العربي المقارن في الجامعة اللبنانية وجامعة الروح القدس.
رئيس تحرير: فصلية «الدراسات الأدبية»، الجامعة اللبنانية، بيروت، 2000 حتى اليوم.
رئيس تحرير: «فصلية إيران والعرب»، مركز الأبحاث العلمية والدراسات الاستراتيجية للشرق الأوسط، بيروت 2001 حتى اليوم.
عمل في العديد من الصحف والمجلات العربية والإيرانية.

الشهادات

الأمير طلال بن عبد العزيز آل سعود

ولد في الطائف في المملكة العربية السعودية سنة 1353هـ.
نشأ وتعلم في مدينة الرياض.
يتقلد عدداً من المناصب والمهام القومية والانسانية.
كما تقلد المناصب والمهام التالية:
وزير المال والاقتصاد الوطني، نائب رئيس المجلس الأعلى للتخطيط ونائب رئيس المجلس الأعلى للأماكن المقدسة.
سفير المملكة العربية السعودية لدى فرنسا.
المبعوث الخاص لليونيسيف.
عضو مؤسس للجنة المستقلة للقضايا الإنسانية الدولية، جنيف.
عضو رابطة معهد باستور، باريس.

أ. مكرم محمد أحمد

ولد سنة 1935.
حصل على ليسانس الآداب – قسم فلسفة بجامعة القاهرة، عام 1957.
بدأ حياته الصحافية محرراً للحوادث بـ«الأهرام» 1958.
عين مديراً لمكتب «الأهرام» في دمشق 1959–1960.
عمل مراسلاً عسكرياً في اليمن 1967 ثم مراسلاً عسكرياً في غزة.
عمل رئيساً لقسم التحقيقات الصحافية ثم سكرتيراً للتحرير المركزي ثم مديراً لتحرير «الأهرام».
عين رئيساً لمجلس ادارة «دار الهلال» ورئيساً

لتحرير مجلة «المصور» لمدة 24 عاماً.
كاتب عمود يومي في جريدة «الاهرام».
كاتب مقال اسبوعي في مجلة «المصور».
وله مؤلفات عدة.

أ. عبد الله يعقوب بشارة

ولد في الكويت سنة 1936.
تخصص في القانون الدولي، جامعة اكسفورد.
ماجستير جامعة سانت جونز،
نيويورك 1961–1962.
عمل مديراً لمكتب معالي وزير الخارجية،
1964–1971
وشارك في جميع المؤتمرات العربية والإسلامية التي عقدت في تلك الفترة.
مندوب دائم للكويت في الأمم المتحدة.
مثل الكويت في مجلس الأمن، 1978–1979.
ترأس مجلس الأمن، شباط/فبراير 1979.
ترأس عدة لجان فنية وسياسية في الأمم المتحدة.
الأمين العام لمجلس التعاون الخليجي،
1981–1993.
ترك العمل الرسمي في نيسان/أبريل 1997، وتفرغ للكتابة والنشر وإلقاء المحاضرات.

أ. سحر بعاصيري

تحمل شهادة ماجستير في الصحافة من جامعة كولومبيا في نيويورك 1987 بعدما نالت بكالوريوس في العلوم السياسية من الجامعة الاميركية في بيروت 1980. انضمت إلى «النهار» عام 1981.
عملت مراسلة لوكالة «يونايتد برس انترناشيونال» في بيروت بين 1989 و1991 للتفرغ مجدداً في دار «النهار» وتتولى مسؤولية قسم الأخبار العربية والدولية حتى اواخر 2001، وتبدأ في 1993 بكتابة عمودها السياسي شبه اليومي في الصفحة الاولى والذي ينشر حالياً خمس مرات اسبوعياً تحت عنوان «حدث النهار».

أ. محمد بعلبكي

ولد في بيروت سنة 1921.
تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في كلية المقاصد الاسلامية، والعالي في الجامعة الاميركية، وحصل على بكالوريوس في الادب العربي، عام 1942.
وعمل فترة فيها مدرساً للأدب العربي.
انصرف إلى العمل الصحافي منذ سنة 1943، فعمل في جريدة «الديار» وفي مجلة «الصياد».
واصدر بالاشتراك مع الاستاذ سعيد فريحة مجلة «كل شيء» الاسبوعية، سنة 1947–1954.
في سنة 1951 تملك جريدة «صدى لبنان».
انتخب نقيباً للصحافة في شباط/فبراير 1982، وما زال يشغل هذا المنصب.

أ. رلى بيضون

مجازة في الصحافة من الجامعة اللبنانية الاميركية وفي الادب الفرنسي من الجامعة اللبنانية.
عملت في جريدة «النهار» منذ عام 1997، وكانت مسؤولة عن المقابلات مع الشخصيات العربية والأجنبية التي تزور بيروت، ومع الدبلوماسيين الأجانب، وهي تجري أيضاً تحقيقات سياسية وتغطي مؤتمرات اقليمية ودولية.
قبل انضمامها إلى اسرة «النهار»، عملت في وسائل إعلام عدة ابرزها «لوريان لو جور»، حيث كانت مسؤولة عن مجلس النواب والتحقيقات السياسية. و«راديو فرانس» (ابرز الاذاعات الفرنسية)، وكانت تراسلها من بيروت،

«تلفزيون لبنان» (القناة الرسمية) حيث كانت تعد النشرة بالفرنسية وتذيعها. وتعاونت أيضاً مع «البعثة الدولية للصليب الأحمر».

أ. عادل حمودة

ولد في القاهرة سنة 1948.
رئيس تحرير جريدة «الفجر».
تخرج من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية (أيار/مايو) 1971.
عمل محرراً صحافياً تحت التمرين في «دار روز اليوسف» عام 1968.
وتدرج في وظائفها الصحافية حتى أصبح مسؤولاً عن تحريرها في الفترة من عام 1990 حتى عام 1998.
انتقل كاتباً متفرغاً في صحيفة «الاهرام» منذ ذلك الوقت.
أصبح رئيس تحرير جريدة «صوت الأمة» في عام 2000 حتى 2005.
له أكثر من 35 كتاباً في السياسة والاقتصاد.

أ. راجح الخوري

معلق سياسي في جريدة «النهار».
كاتب مقال سياسي في جريدة «الشرق الاوسط».
عضو الهيئة التنفيذية في المجلس الوطني للاونيسكو في لبنان.
استاذ في كلية الصحافة والعلاقات العامة في الجامعة اللبنانية.
عضو الهيئة التحكيمية بمؤتمر الصحافة العربية في دبي.
رئيس تحرير سابق في جريدة «نداء الوطن» 2000–2002.
رئيس قسم السياسة العربية سابقاً في مجلة «الحوادث» 1968–1975.
نائب رئيس التحرير سابقاً في جريدة «الحياة» 1966–1976.

أ. إلياس الديري

كاتب روائي، وكاتب صحافي في جريدة «النهار»، رئيس تحرير «النهار العربي والدولي»، رئيس تحرير مجلة «الصفر» العلمية، رئيس تحرير مجلة «الآن» العلمية.
وله العديد من المؤلفات الأدبية والسياسية.
منذ العام 1993 يكتب زاوية «نهاريات» اليومية في الصفحة الاولى من «النهار» بتوقيع «زيان».

أ. صلاح ستيتية

ولد في بيروت سنة 1929.
تلقى تعليمه الجامعي في جامعة السوربون.
تولى عدداً من المناصب الادارية والاستشارية للجمهورية اللبنانية، وعمل سفيراً لها في هولندا والمغرب (1985–1987).
شاعر مرموق له العديد من الدواوين في الفرنسية والعربية.

أ. سلامة أحمد سلامة

حصل على البكالوريوس في الآداب والدراسات الفلسفية من جامعة القاهرة، كما حصل على الماجستير في الدراسات الاعلامية من جامعة مينيسوتا الأميركية عام 1976.
وهو معلق وكاتب عمود يومي في جريدة «الاهرام» يتناول الشؤون الجارية في مصر والعالم العربي والشؤون الدولية.
يرأس تحرير مجلة «وجهات نظر» الشهرية. التي تهتم بالفكر والثقافة والسياسة.

عمل مراسلاً لجريدتي «الاخبار» و«الاهرام» في أوروبا خلال الفترة من 1960 إلى 1973 ومحرراً للشؤون الخارجية.
صدر له كتابان: «المناطق الرمادية»، «الشرق الأوسط الجديد: هل هو الخيار الوحيد؟».

أ. ليلى عبد الحميد شرف

ولدت في لبنان.
حصلت على البكالوريوس والماجستير في الأدب العربي من الجامعة الاميركية في بيروت.
تزوجت من المرحوم الشريف عبد الحميد شرف، وانتقلت إلى الأردن وأصبحت مواطنة أردنية.
شغلت العديد من المناصب في الأردن، منها منصب وزير الإعلام، وعضو مجلس الأعيان، ورئاسة عضوية مجالس الأمناء في عدد من المؤسسات والجمعيات والهيئات الثقافية والتربوية والخيرية والإنسانية في الأردن والخارج.

أ. عبد الرحمن الصلح

التحق في السلك الدبلوماسي منذ أواخر الخمسينات.
عين سكرتيراً لدى سفارة لبنان في بون (المانيا الغربية).
وعمل سفيراً لدى المملكة الأردنية الهاشمية.
وسفيراً للبنان لدى جمهورية مصر العربية.
ومندوب لبنان الدائم لدى جامعة الدول العربية.
وسفيراً غير مقيم في: 1- كينيا. 2- البحرين. 3- سلطنة عمان.
رئيس المركز العربي للبحوث القانونية والقضائية في بيروت بوصفه أميناً عاماً مساعداً لجامعة الدول العربية.

د. أحمد عصمت عبد المجيد

وزير خارجية جمهورية مصر العربية (1984).
الأمين العام لجامعة الدول العربية (1991–2001).
وزير دولة لشؤون مجلس الوزراء (1970–1972).
سفير مصر لدى فرنسا (1970).
مندوب مصر الدائم لدى الأمم المتحدة (1972–1983).
شارك في عضوية العديد من اللجان والهيئات في مصر، وفي العالم.

أ. زهير عسيران

ولد في صيدا سنة 1914.
عمل في الصحافة في الثلاثينات، وكان أحد اصحاب مجلة «الكوكب» وصاحب جريدة «الهدف» (1943–1968).
شارك في نشاطات اجتماعية وقومية عديدة.
أنتخب نقيباً للصحافة اللبنانية (1965–1967).

أ. سمير عطالله

كاتب لبناني في الصحافة في عدد من الدول منها الكويت ولبنان ولندن. له عمود يومي في جريدة «الشرق الاوسط»، وكذلك مقال اسبوعي في جريدة «النهار».
يتميز اسلوبه بالظرف وخفة الظل واثارة القضايا التي يهتم بها جميع القراء في العالم العربي.

أ. محسن أحمد العيني

ولد في اليمن سنة 1932.
تخرج من كلية الحقوق جامعة القاهرة سنة 1959.
بدأ عمله مدرساً، نقابياً، عضواً في حركة اليمنيين الأحرار.

أول وزير خارجية للجمهورية العربية اليمنية سنة 1962.
سفيراً بالأمم المتحدة وبواشنطن اكثر من مرة، وبموسكو وباريس ولندن وبون.
عمل وزيراً للخارجية أكثر من مرة.
ورئيس وزراء أكثر من مرة.
مستشار رئيس الجمهورية، نائب رئيس المجلس الاستشاري.
له كتب مؤلفة ومترجمة.

أ. علي غندور

أردني من أصل لبناني.
تخرج في الجامعة الاميركية في بيروت. وهو عضو مجلس أمنائها.
كان مستشاراً لجلالة الملك حسين بن طلال في شؤون الطيران 1989–1999.
له مشاركات متعددة في كثير من المشروعات الاقتصادية.

أ. هاني فحص

ولد في جبشيت سنة 1946.
هاجر إلى النجف ليدرس العلوم الدينية عام 1963 وعاد منها عام 1972.
يكتب في عدد من الصحف والدوريات اللبنانية والعربية.
له أحد عشر كتاباً مطبوعاً وعدد من الكتب قيد الطباعة.
عضو الهيئة الشرعية للمجلس الشيعي الأعلى في لبنان – عضو الفريق العربي للحوار الاسلامي – المسيحي.

سماحة السيّد محمد حسين فضل الله

ولد في النجف سنة 1935.
علامة ومرجع في الفقه الديني.
له مؤلفات عدة.

السفير كلوفيس مقصود

ولد في لبنان سنة 1928. تخرج في الجامعة الأميركية في بيروت بدرجة بكالوريوس، ثم درس في جامعة جورج واشنطن لنيل الماجستير، وأكمل دراسته في جامعة أوكسفورد في بريطانيا.
شغل منصب ممثل الجامعة العربية في الهند بين 1961 و1966. وكان بين كبار المحررين في «الاهرام» المصرية في 1971 ثم أحد رؤساء تحرير «النهار العربي والدولي» أسبوعية «النهار» اللبنانية في باريس بين 1979 و1990.
عين رئيساً لبعثة جامعة الدول العربية في الولايات المتحدة والأمم المتحدة في أول أيلول/سبتمبر 1979، وكانت له صفة مراقب دائم في الأمم المتحدة. وانتقل من هذا المنصب في 15 آب/أغسطس 1990 على أثر غزو العراق للكويت.
وهو الآن استاذ العلاقات الدولية في مركز Global South في الجامعة الاميركية في واشنطن دي سي.

صاحب الغبطة البطريرك أغناطيوس هزيم

بطريرك أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس.

الفهـرس

عـن «الأستاذ» – بقلم سعاد محمد الصباح 9

أبحاث 15
البراغماتية السياسية في مقالات غسان تويني – بقلم لطيف زيتوني 17
فتنة الكتاب وإعجازه: غسان تويني مؤلفاً – بقلم فارس ساسين 37
وصية غسان تويني: المستحق وحده يدخل التاريخ – بقلم ادمون صعب 61
دور «النهار» وأثرها في الصحافة المقيمة والمهاجرة – بقلم مسعود ضاهر 89
غسّان تويني: صحافياً – مفكّراً رؤيوياً وإنساناً متعالياً – بقلم د. فكتور الكِك 115

يتذكرون 127
غسان تويني كما عرفته – بقلم طلال بن عبد العزيز آل سعود 129
شمس النهار – بقلم مكرم محمد أحمد 133
غسان تويني.. هازم الأحزان، عاشق الأوطان – بقلم السفير عبد الله بشارة 143
كبير المراسلين رئيس التحرير الميداني – بقلم سحر بعاصيري 149
من السجن إلى الحكم – بقلم محمد البعلبكي 159
غسان تويني المحرك – بقلم رلى بيضون 165
نهر الأحزان لا يجف! – بقلم عادل حمودة 173
الدم الأزرق زوم الحياة – بقلم راجح الخوري 185
غسان تويني: «مُفْردٌ في صيغة الجمع» – بقلم الياس الديري 193
الفرنسية لغة القلب – بقلم صلاح ستيتيه 201
دولة النهار – بقلم سلامة أحمد سلامة 207
غسان تويني والمقال السياسي – بقلم ليلى شرف 213
غسان تويني.. من المدرسة إلى السياسة – بقلم السفير عبد الرحمن الصلح 219
ذكريات عن الأمم المتحدة مع الأخ السفير غسان تويني – بقلم د. عصمت عبد المجيد 227

عن زميل كبير – بقلم زهير عسيران 233
الاستاذ – بقلم سمير عطالله 237
غسان تويني: نظرة إلى عالم عربي أفضل – بقلم محسن العيني 243
غسان تويني الصديق الأعز – بقلم علي غندور 251
غسان تويني: القامة القيمة او لبنان الذي يسهر في النهار – بقلم هاني فحص 261
غسان تويني: القيمة فضيلة – بقلم سماحة السيد محمد حسين فضل اللّه 279
غسان تويني الحزين والمبتسم – بقلم كلوفيس مقصود 283
انسان الأحمال – بقلم البطريرك أغناطيوس الرابع هزيم 293

غسان تويني: دنياه صور وحكايات 301
محطات 303
رجل الحرّيات 363
القومي 381
الأرثوذكسي 387
أقوى من الاغتيال الاقتصادي 393
«نهار» الأحد 399
شاهد على عصره 405
العائلة التوينية 419

من أعماله 435
إلى رؤساء لبنان: كلمات ستبقى 437
بشارة الخوري 1943–1952: الرئاسة ودورها الدستوري 439
كميل شمعون 1952–1958: الاسطول السادس (الاسطول السادس... المسلمون والمسيحيّون) 441
فؤاد شهاب 1958–1964: رسالة إلى الرئيس العائد فؤاد شهاب... إذا عاد! 443
شارل حلو 1964–1970: الرجل والذخر والوزر 449
سليمان فرنجية 1970–1976: الصوت الواحد... صوت الشعب! 451
الياس سركيس 1976–1982: نعم لرئيس مع سوريا... ولا لمرشح باسمها! 453
عهد الرئيس... وبقية الحكم 459
حكم في حجم الثورة 463
أمين الجميل 1982–1988: القضايا المصيرية 465
ميثاق وطني للتحرير 467
ميشال عون: كتاب مفتوح إلى العماد عون... ومنه إلى السادة النواب 469

رينه معوّض: حقنا في الحياة... وحقنا عليها؟ 475
الياس الهراوي: أهلاً بالرئيس الجديد، إذا... 477
خواطر من «جمهورية المقابر»! 479
متى الخروج من الجنون إلى التاريخ؟ 483

غسان تويني وكلام عن الأب وعن المزروعين في الروح.. 487
جبران تويني في وضح النهار 489
شارل مالك ينام في كهف الأسطورة 491
جورج نقاش هندس دنيا جديدة 493
كامل مروة ماذا يبقى من الصحافي؟ 497

غسان تويني: العالم منبره 501
أعيدوا إلي وطني 503
اتركوا شعبي يعيش 513
حول نزع السلاح 515

غسان تويني محاضراً 523
نحن في المعترك 525
أزمة الحكم بعد النكسة 537
الحُكم العربي قبل النكسة وبعدها 549
الجنوب: القضية العسكرية وأبعادها السياسية والدولية 557
قراءة ثانية في القومية العربية 577
غسان تويني يدعو من باريس إلى ميثاق جديد للاعمار والبيئة والتراث 591
لبنان والامم المتحدة وقضية السلام 605
ثقافة المجتمع المقاوم في رؤية الإمام الصدر 621
ثقافة الحرية في لبنان: شهادة جيل 629
الكنيسة الانطاكية أمام التحدي التاريخي 635

غسان تويني: سيرة شخصية 643

المسهمون في هذا الكتاب 647